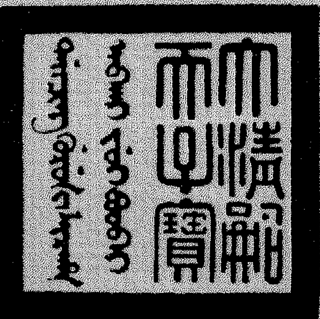
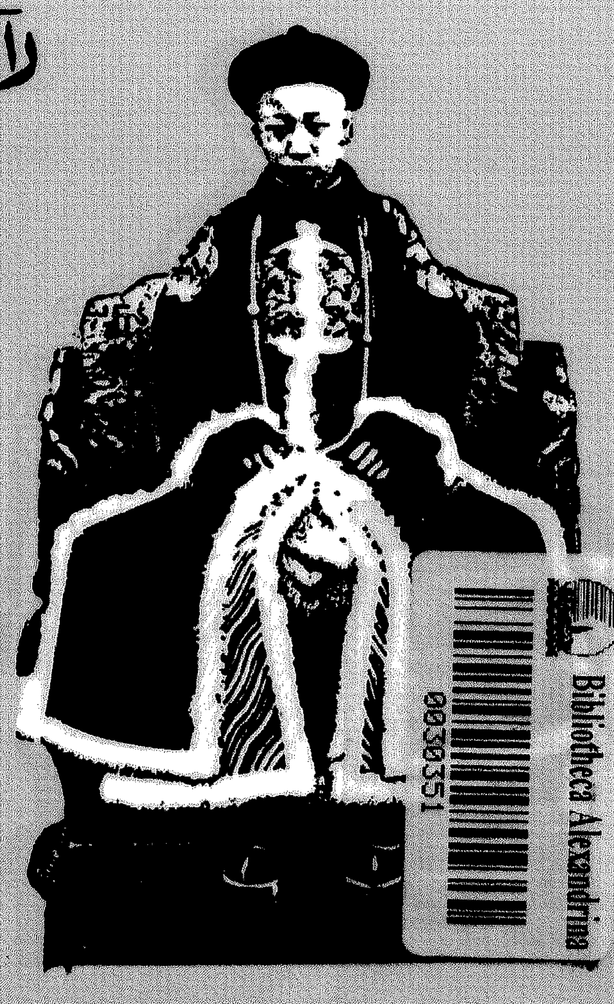
من امبراطور الى مواطن

السيرة الذاتية لآيشين - جيولوه بويي





المجلد الأول

ان كتاب " من أمبراطور الى مواطن " يحكى السيرة الذاتية للرجل الذى كان آخر أمبراطور فى الصين ، والذى أصبح فيما بعد أمبراطورا عميلا لـ " أمبراطورية مانشوريا " الخاضعة للامبريالية اليابانية فى شمال شرقى الصين .

فى المجلد الاول من هذا الكتاب يقدم المؤلف صورة واضحة للحياة فى بلاط تشينغ المتفسخ فى أخريات أيامه ، يكشف كيف قام ، بعد الاطاحة بالأسرة ، هو والقوى الاقطاعية الأخرى بالتآمر مع السلطات الأجنبية لاعادة الملكية ، وكيف أصبح عميلا للامبرياليين اليابانيين . وفى المجلد الثانى يصف بو يى حياته فى بلاط مانشوريا ، ويتحدث كيف وقع فى قبضة الحكومة الشعبية ، ويقدم وصفا حيا لاعادة تكوين نفسه عبر العمل والدراسة داخل سجون مجرمى الحرب ، وكيف تغير تفكيره . وفى الفصل الأخير من الكتاب يصف كيف عاش بعد العفو عنه ، بوصفه مواطنا عاديا فى جمهورية الصين الشعبية .

من امبراطور الى مواطن

السيرة الذاتية

آيشين - جيولوه
بو يي

المجلد الأول



دار النشر باللغات الاجنبية بكين

الطبعة الأولى .... عام ١٩٨٥

ترجمة : محمد نمر عبد الكريم

دار النشر باللغات الأجنبية
٢٤ شارع باى وان تشوانغ
بكين — الصين

طبع فى جمهورية الصين الشعبية

الفهرس

الفصل الأول

أسرتي

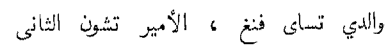


الامبراطورة الأرملة تسى شى (فى الوسط)



جدي لأبي يي هوان ،
الأمير تشــون الأول





والدي تساى فنغ ، الأمير تشون الثانى



الامبراطورة الأرملة لونغ يوى

أسرة والدي من اليمين الى اليسار : والدي ، أمه ، أمه الثانية ، زوجته (أمي)

مربيتي السيدة وانغ



أنا في الثانية من عمري



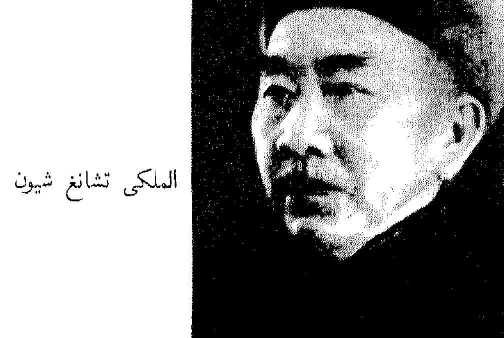


أنا مع الامبراطورة الأرملة
لونغ يوى عام ١٩١١

尊號至今耿〻所有優待
各節無論何時斷不
許變更容當列入憲法
袁世凱誌
乙卯孟冬

تأكيد يوان شى كاى
المكتوب على بنود
المعاملة التفضيلية
(انظر صفحة ٤٢)

أنا عام ١٩١٧



الملكي تشانغ شيون

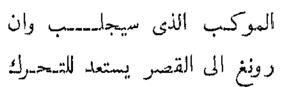


وان رونغ



فى زفافي الأول





الموكب الذى سيجلب وان
رونغ الى القصر يستعد للتحرك

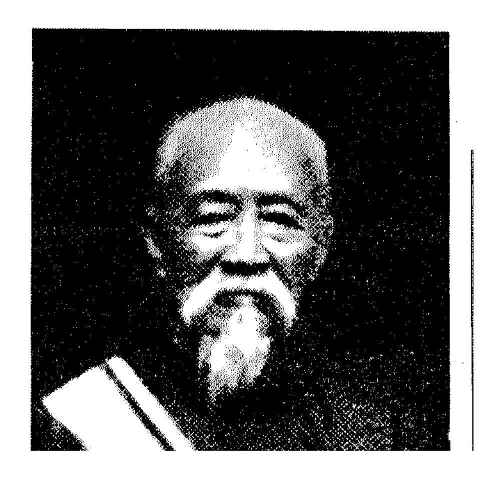


جونستون فى زى اسرة تشينغ

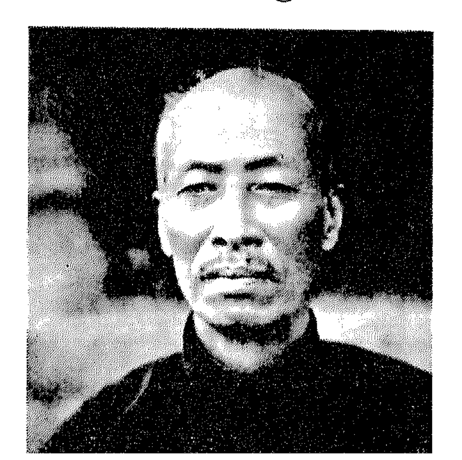


تشن باو تشن

لوه تشن يوى

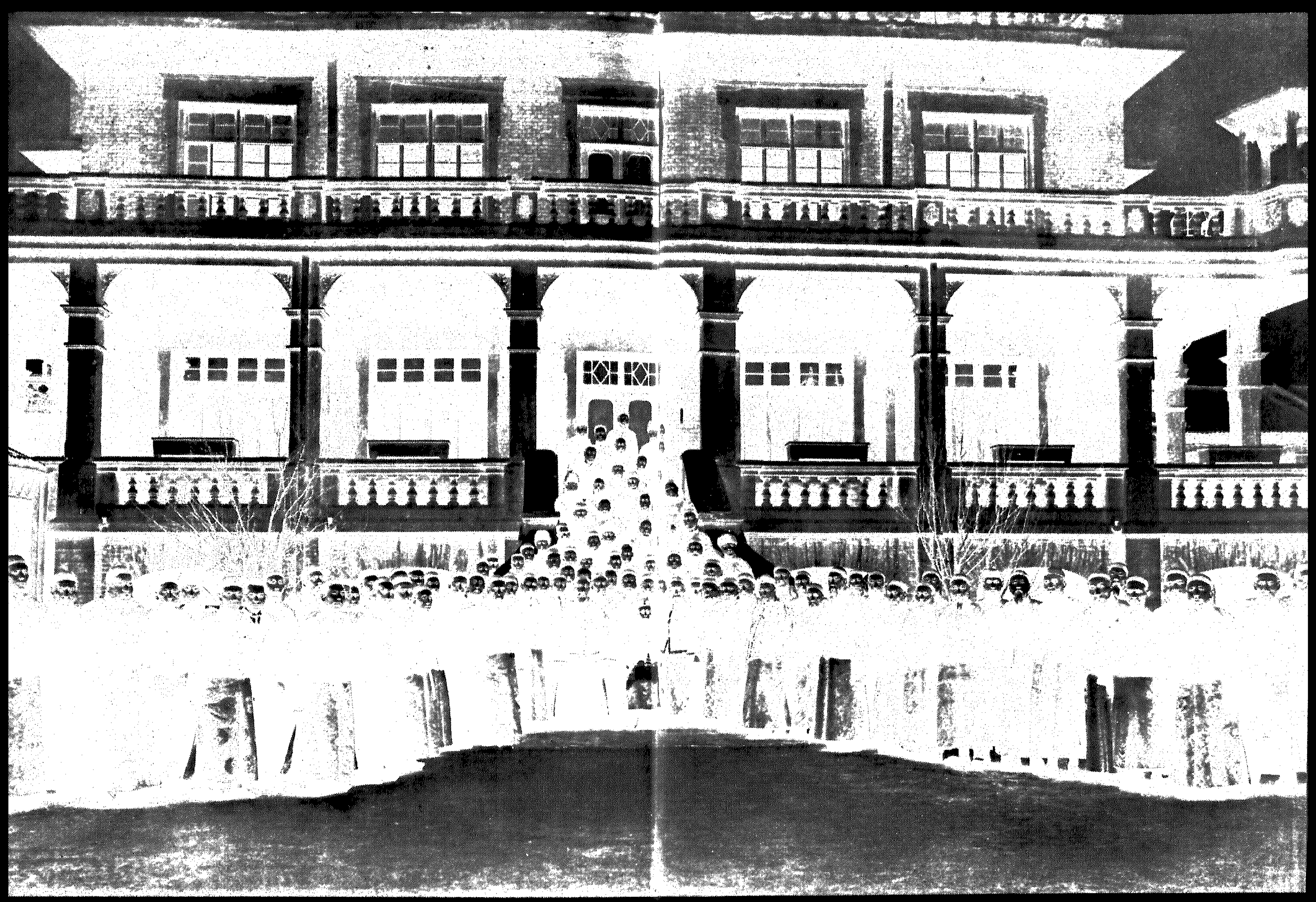


تشنغ شياو شيوى



حياتي فى تيانجين . فى
الأعلى: مع اخوتي وأخواتى ،
فى الأسفل : لعبة الغولف





المهنئون بعيد ميلادي فى حديقة تشانغ من كبار موظفى البلاط السابقين



زائرون فى عيد ميلادى . الصف الأمامى : الثالث والرابع من اليسار : وان رونغ وأنا . الصف الثانى : أقصى اليسار : أم وان رونغ . الصف الثانى : الثانى من اليسار : معلمة وان رونغ للغة الانكليزية . الصف الرابع : أقصى اليسار : ضابط الأركان اليابانى مينو توموبوش . الصف الرابع : الثانى من اليسار : الصحفى البريطانى هـ.ج.و. وودهل .



فى استعراض عسكرى بريطانى .. مصافحة القائد البريطانى فى تيانجين ر. م .هيث . يقف الى يمين الصورة قائد الحامية اليابانية تاكاتايوتاكى.

جدي الأمير تشون

ولدت في قصر الأمير تشون ببكين في ٧ فبراير (شباط) ١٩٠٦ . وكان جدي يي هوان ، الابن السابع للأمبراطور داو قوانغ (تولى الحكم من ١٨٢١ -١٨٥٠) ، وهو الأمير تشون الأول . وعلى الرغم من ان أبي تساى فنغ لم يكن الا ابنه الخامس فقد ورث عنه لقب الأمير ، اذ توفي الابن الأول والثالث والرابع في طفولتهم ، وأخذ الثاني الى القصر الامبراطوري حيث أصبح أمبراطورا يدعى قوانغ شيوى (تولى الحكم من ١٨٧٥ - ١٩٠٨) . أما أنا فكنت أكبر أبناء الأمير تشون من السلالة الثانية . وعندما كنت في الثالثة من عمري تقريبا قررت فجأة الامبراطورة تسى شي زوجة الامبراطور شيان فنغ (حكم من ١٨٥١-١٨٦١) في ١٣ نوفمبر ١٩٠٨ ان تجعلني وريثا للعرش ، بينما كانت هي والامبراطور قوانغ شيوى يعانيان مرضا خطيرا الزمهما الفراش . وأصبحت ابنا بالتبني للأمبراطور تونغ تشي (حكم من ١٨٦٢- ١٨٧٤) ووريثا للأمبراطور قوانغ شيوى . وفي ظرف يومين من دخولي القصر الامبراطورى توفي قوانغ شيوى وتسى شي على التوالي . واعتليت العرش في ٢ ديسمبر (كانون الاول) بوصفي الأمبراطور العاشر من أسرة تشينغ (١) وآخر أباطرة الصين . وقبل ان تنقضي ثلاث سنوات انفجرت ثورة ١٩١١ وتنازلت عن العرش .

ان أقدم ذكرياتي ترجع الى فترة تنازلي عن العرش ، غير ان من الأفضل ان أبدأ بالحديث عن جدي وأسرتي لتكون الأمور أكثر وضوحا .

خلال تلك الحقبة الأشد ظلاما من آواخر أسرة تشينغ ، ظل جميع افراد

عائلة الأمير تشون مدة نصف قرن الخدم المخلصين للأمبراطورة الارملة تسى شى وكان بينهم جدي الذى وقف حياته على خدمتها .

ولد جدي سنة ١٨٤٢ ومات سنة ١٨٩٠ . ويستطيع المرء لو رجع الى السجلات السلالية لكل الأسر الامبراطورية ان يرى ان جدي لم يحظ الا بقليل من درجات الشرف خلال الأحد عشر عاما من حكم أخيه الأمبراطور شيان فنغ . ولكنه أصبح مثقلا بالألقاب الرسمية خلال الأشهر الستة التالية لوفاة شيان فنغ ، بينما أصبحت تسى شى امبراطورة أرملة .

ان السبب الواضح الذى يفسر لماذا أصبح فى استطاعة شاب فى الواحدة والعشرين ان يحرز مثل هذه المكانة السامية هو ان الأمبراطورة الأرملة تسى شى هى شقيقة زوجته . ولكن هذا ليس السبب الوحيد . انني أذكر حكاية سمعتها ، وأنا صغير ، تقول ان عمي السادس قد ملأه الرعب ، وهو فى صباه ، من مشهد فظيع فى عرض مسرحي داخل القصر وأخذ فى البكاء ، وعندها صاح فيه جدي على مرأى من جميع الحاضرين : " يا للسلوك الشائن ! عندما كنت فى الواحدة والعشرين قبضت بيدي هاتين على سو شون ، لكنك اذا بقيت على هذا السلوك ، فلن تستطيع أبدا معالجة شؤون الدولة بعد ان تصبح رجلا ! " ان القبض على سو شون كان البداية الحقيقية لصعود نجمه صعودا خاطفا كالشهاب .

وقعت حادثة القبض على سو شون عام ١٨٦١ : وكانت حرب الأفيون الثانية (٢) قد انتهت بسلسلة من المعاهدات المذلة . وعندما كان الامبراطور شيان فنغ الهارب الى رخه راقدا على فراش المرض ، جمع حوله ثلاثة من كبار الموظفين وخمسة من كبار الضباط ممن صاحبوه فى هروبه ، وعين بحضورهم ولده تساى تشون فى السادسة من عمره وليا للعهد ، وألف من الحاضرين مجلسا للوصاية على العرش . وفى اليوم التالى مات الامبراطور شيان فنغ ، وتنفيذا لوصيته أجلس الأوصياء الثمانية تساى تشون على العرش ، بينما

جمعوا السلطة كلها فى أيديهم .

كان أهم الأوصياء الثمانية أميرين الى جانب سو شون الذى كان يتحكم فى كل شيء ويحظى بكراهية الأرستقراطية المانشوية لترقيته كثيرا من الموظفين من قومية الهان ولاشتهاره بالفظاظة ، والذى سقط فيما بعد لأن جماعته لم تقدر قوة الأمير قونغ حق قدرها . وكان الأخير هو الذى قدم معظم التنازلات الكريهة فى مفاوضات السلام عقب حرب الأفيون الثانية . . وقد حظى باعجاب الأجانب لتوصله الى الاتفاق على معاهدة بكين المذلة على نحو لم يسبق له مثيل . وكان يشعر بالغرور بصفته عما للامبراطور مدعوما بالأجانب ولايقبل ان يحتل مكانة ثانية بعد سو شون وجماعته ، وكان فضلا عن ذلك يحظى بتشجيع الأرستقراطية المانشوية وسائر كبار الموظفين الذين ظلوا لفترة طويلة خصوما سياسيين لسو شون . وفى ذلك الوقت بالذات أحضر الى الأمير قونغ سرا مرسوم من الامبراطورتين الأرملتين فى رخه .

وكانت احدى هاتين هى نيو هو لو زوجة الامبراطور شيان فنغ التى لقبت بعد ذلك بالأمبراطورة الشرقية تسى آن . أما الأخرى فهى الامبراطورة الغربية تسى شى . وكانت فى الأصل من جواري القصر ، ثم ارتقت عندما حبلت الى مرتبة الحليلة الثانية . ولما كان الابن الوحيد للأمبراطور شيان فنغ هو ابنها فقد أصبحت " امبراطورة أرملة " عندما خلف ابنها أباه على العرش .

لا أدرى كيف تم تدبير الأمر بحيث تقدم أحد كبار الموظفين بمذكرة طالبا من الامبراطورتين ان تمارسا سلطتهما عن طريق " الاستماع من وراء الستار " سويا بعد ان أصبحت تسى شى " امبراطورة أرملة " بمدة قصيرة . وقد أثار هذا الاقتراح أشرس معارضة لدى سو شون وزملائه من الأوصياء ، اذ لم يكن هناك اطلاقا أية سابقة كهذه فى تاريخ الأسرة . ولم تشغل هذه المعارضة بال الامبراطورة الأرملة تسى آن التى لم تكن لها طموحات ، الا انها أثارت امتعاضا شديدا لدى تسى شى . فأشعرت تسى آن فى البداية بأن

الأوصياء الثمانية متآمرون لا يستحقون الثقة ، ومن ثم توصلت الى الحصول على موافقتها لارسال رسالة سرية الى الأمير قونغ تستدعيانه فيها سرا الى القصر فى رخه لمناقشتهما فى كيفية مجابهة الوضع . أما الأوصياء الثمانية فقد حاولوا بكل وسيلة الحيلولة دون اتصال الأمير قونغ فى بكين بالامبراطورتين فى رخه دعما للسلطة الجديدة التى اكتسبوها .

وتروى قصص مختلفة حول الطريقة التى دبرت بها الامبراطورتان الأرملتان تضليل سو شون وجماعته والاتصال بالأمير قونغ . وتقول بعض الروايات ان مرسوم الامبراطورتين الأرملتين قد حمله طباخ الى بكين سرا ، بينما تؤكد روايات أخرى انه كان لتسى شى خصى مقرب يدعى آن ده هاى ، جلد للتمويه فأرسل الى بكين لينظر البلاط الامبراطورى فى أمره ، مما مكنه من حمل المرسوم معه الى العاصمة . وعلى أية حال وصل المرسوم الى الأمير قونغ . وحالما تسلمه رفع طلبا لمقابلة الامبراطور . وحاول سو شون وجماعته ان يحولوا دون ذلك باصدار " أمر امبراطورى " بأن الأمر " الأكثر أهمية " ان " يبقى الأمير قونغ فى موقعه " ، ولكنهم لم يفلحوا . وعندها حاول سو شون ان يمنع الأمير قونغ من الاجتماع مع الامبراطورتين الأرملتين متذرعا بتقليد قديم يحرم على الرجل ان يلتقى بزوجات أخيه ، الا انه أخفق أيضا .

وثمة روايات مختلفة حول الطريقة التى لقى فيها الأمير قونغ الامبراطورتين الأرملتين . واحدى هذه الروايات تقول ان الأمير قونغ قد تنكر فى هيئة " سامان " (عراف صينى) ، بينما تقول رواية أخرى انه أحبط خطط سو شون بأن قال له ان من الملائم بالنسبة له ان يلقى زوجات أخيه بحضوره ، فاضطر سو شون الى التخلى تماما عن محاولاته ضد هذا اللقاء . وتحكي رواية أخرى انه عندما ذهب الأمير قونغ ليقدم قربانا للوح التذكارى للأمبراطور الراحل شيان فنغ أرسلت تسى شى خصيها المقرب آن ده هاى ليقدم له طاسة من المكرونة خبىء فى داخلها مرسوم كتبته . ومهما تكن الطريقة التى اتبعت

فالنتيجة ان الأمير قونغ والأمبراطورتين الأرملتين قد استطاعوا الالتقاء ومناقشة كل شيء .

وعندما رجعت الامبراطورتان الأرملتان الى العاصمة منح الأمير قونغ لقبا جديدا ، وألقى القبض على الأوصياء الثمانية ،وسمح للأميرين اللذين كانا بين الأوصياء بالانتحار ، وحزت رقبة سو شون ، ونفي الآخرون او او سجنوا . وقد تغير اللقب الملكي للأمبراطور الجديد الى تونغ تشي ، وبدأ حكم تسي شي الذي استمر سبعة وأربعين عاما عن " طريق الاستماع من وراء الستار " . وكان الانجاز العظيم لجدي في هذا الانقلاب هو القاء القبض على سو شون في بانبيديان عندما كان يرافق تابوت الأمبراطور المتوفى في عودته الى العاصمة . هذا هو السبب فيما أحرزه جدي من درجات الشرف الكثيرة .

خلال حكم الامبراطور تونغ تشي ارتقى جدي سلم المجد صعدا ، حتى حصل — عندما تولى الامبراطور قوانغ شيوى العرش—على امتياز خاص يستطيع خلفاؤه بمقتضاه وراثة لقبه السامي الى الأبد ، بينما كانت الألقاب السامية تهبط في العادة درجة مع كل جيل جديد . وخلال حكم قوانغ شيوى فقد الأمير قونغ حظوته عدة مرات ، بينما ظلت درجات الشرف تغدق على جدي حتى بدا كأنه بلغ ذروة المجد الانساني .

وفي قصر الأمير تشون رأيت كثيرا من الحكم الأخلاقية مكتوبة بخط جدي ومعلقة في حجرات أبنائه وأحفاده . وكانت بينها حكمتان تقولان : الثروة والحظ السعيد يلدان المزيد من الحظ السعيد والنعم الملكية تجلب المزيد من النعم . كنت أظن آنذاك ان جدي كان راضيا عن حياته تمام الرضى. غير اني الآن أراه بطريقة أخرى ، بل أظن انه كان يقصد هدفا آخر عندما وبخ ابنه خلال العرض المسرحي .

اذا كان الأمير تشون ذو الواحدة والعشرين عاما لم تصقله الخبرة بعد ،

فلا بد ان الأمير تشون الذى عاش طوال الثلاثة عشر عاما فى عهد حكم تونغ تشى قد تعلم ما يكفيه . لابد انه كان قد عرف باعتباره عضوا فى الأسرة الملكية أكثر مما عرف الذين هم خارج الأسرة عن سر وفاة الامبراطور تونغ تشى وزوجته الامبراطورة ، ولابد ان ذلك ترك فى نفسه أثرا عميقا .

تذكر القصص الشائعة ان تونغ تشى مات من مرض تناسلى ، ولكن سبب وفاته كما سمعت هو الجدرى ، وتؤكد ذلك يوميات موظف بارز فى ذلك الوقت والجدرى ليس مرضا مميتا غير قابل للعلاج ، ولكن تونغ تشى قد تلقى ، وهو يعانى من دائه ، صدمة جعلت " بثور المرض تطفح الى الداخل " مما جعل حالته ميئوسا منها ، وأدى به الى الموت . وقيل انه فى ذات يوم حضرت زوجته الامبراطورة لزيارته وهو على فراش المرض ، وأجهشت بالبكاء وهى تسأله لماذا توبخها حماتها الامبراطورة الأرملة تسى شى وتهينها دائما . فطلب اليها تونغ تشى ان تتذرع بالصبر قائلا انها هى الأخرى سيأتى دورها ذات يوم . وكانت تسى شى التى لم ترتاح أبدا لكنتها قد بثت منذ زمن طويل خادمين لمراقبة ابنها وزوجته ، وعندما سمعت ان الامبراطورة قد ذهبت لزيارة تونغ تشى ، ذهبت هى بنفسها ووقفت خارج غرفته لاستراق السمع . ودون ان يدريا بالكارثة التى جلبتها عليهما الكلمات القليلة التى تبادلاها شاهدا تسى شى تندفع الى الغرفة مهتاجة ثائرة ، وأمسكت بالامبراطورة من شعرها وشرعت تضربها بلا رحمة صارخة بموظفى القصر أن يجهزوا العصى ، فأغمى على تونغ تشى رعبا ، فلم تستطع تسى شى ان تواصل الضرب . ومات تونغ تشى اثر ذلك ، فصبت تسى شى اللوم كله على رأس الامبراطورة ، وأصدرت أوامرها بالتضييق عليها فى الطعام والشراب فماتت بعد شهرين .

كان سرا مفضوحا خلال حياة تونغ تشى ان الامور ليست على ما يرام بينه وبين أمه تسى شى . وعندما عشت فى القصر أخبرنى خصى عجوز ان تونغ تشى كان كلما ذهب لتقديم احتراماته الى الأرملة الشرقية مكث عندها

وتحدث معها بعض الوقت . أما عند أمه فلم يكن يقول شيئا . وحتى خلال الفترة التى أصبح فيها تونغ تشى يحكم بنفسه كانت الأرملة الشرقية لا تبدى الا اهتماما ضئيلا بشؤون الدولة ، بينما جمعت تسى شى حولها مجموعتها الخاصة من المعاونين المؤتمنين من رجال البلاط ، وكان من العسير على الامبراطور ان يمضى أمرا دون طلب مشورتها اولا . وكان هذا هو السبب الحقيقى فى سوء العلاقة بين الأم وابنها . كانت تسى شى نهمة جدا بالسلطة ، ولم يكن لديها أدنى استعداد للتفريط بأية صلاحية فى يديها . وكانت وجهة نظرها ان مبادئ السلوك الاخلاقي وتعاليم الأسلاف انما جعلت لتلائم حاجاتها هى . وسواء تعلق الأمر بمن هم من لحمها ودمها ، أم بأقربائها أم بموظفى القصر ، فقد كان مبدأها واحدا هو ان الذين يسمعون ويطيعون يحصلون على الفوائد ، أما الذين يخالفون أمرها فالى البوار . وبعد وفاة الامبراطور تونغ تشى كشفت النقاب عن طبيعتها بمزيد من الوضوح ، ولعله بسبب تفهم جدي التام لشخصيتها طار لبه هلعا لدى سماعه خبر استدعاء ابنه الى القصر ليصبح امبراطورا . ولقد كتب موظف ممن حضر اجتماع المجلس الامبراطورى ذاك فى يومياته انه عندما أعلنت تسى شى ان تساى تيان هو الامبراطور القادم قوانغ شيوى " ضرب جدي رأسه ببلاط الأرض باكيا بحرارة قبل ان يتهاوى فى اعياء ، غير قادر على النهوض حتى بمساعدة الآخرين . . . "

طبقا لشريعة الأسلاف من المفروض ان يكون الأقرب من الجيل التالى لتونغ تشى وريثا له اذ ليس له ابن بعد وفاته ، ولكن هذا كان من شأنه ان ينهى وصاية تسى شى ، لانها لن تكون بعد ذلك أم الامبراطور ، وهكذا ضربت صفحا عن كل الاحتجاجات وتبنت ابن أختها تساى تيان ليكون امبراطورا على الرغم من انه من جيل تونغ تشى نفسه .

ومن ذلك الحين مر جدي بتجربة غريبة . . كانت تسى شى تغدق عليه

درجات الشرف بينما هو يجهد نفسه فى تجنبها . وعندما دخل ابنه الامبراطور قوانغ شيوى الى القصر استقال من كافة مناصبه ، ولكنه لم يستطع انكار رتبته الوراثية باعتباره أميرا . وظل واجبه الوحيد لبضع سنين بعد ذلك ان يشرف على دراسات الامبراطور . وعقب ان فقد الأمير قونغ حظوته لدى تسى شى عهدت هذه اليه بمناصب بالغة الأهمية ، غير انه ظل شديد الاحتراس يملأ بيته بالكتابات والزخارف وغيرها من الاشياء التى تذكره هو واسرته بالمخاطر التى تنجم عن الشهرة . وفى ١٨٧٦ ، السنة الثانية من حكم ابنه قوانغ شيوى، رفع مذكرته الغريبة التى يحظر فيها اى " اقتراح منافق " قد يتقدم به احد فى المستقبل لاضفاء شرف عظيم عليه باعتباره ابا للعاهل . لقد كان خائفا من ان يثير مثل هذا الشرف غيرة تسى شى ويضعه فى موقف خطير . لكن هذا ما حدث فعلا فيما بعد بحيث استشاطت الامبراطورة الأرملة غضبا ، فاضطر من قدم الاقتراح الى اعتزال منصبه ثلاث سنوات .

ليس من شك فى انه منذ دخل قوانغ شيوى القصر أصبح جدي يعرف معرفة أفضل شخصية تسى شى زوجة أخيه . لقد أصبح التنوأ بتقلباتها المزاجية أصعب خلال سنوات حكم قوانغ شيوى (١٨٧٤—١٩٠٨) . فذات مرة قال لها أحد الخصيان وهو يلعب معها الشطرنج : " ان عبدك يقتل ذلك الفارس للسلف المبجل . " فانفجرت غضبا معلنة أنها ستقتل أسرته جميعا ، وأمرت به فجر الى الخارج وضرب حتى الموت . وكانت تعتز بشعرها كثيرا ، وذات يوم كان يمشطه لها خصى فوجد شعرة واحدة منه فى المشط ، فحاول ان يخفيها وقد تملكه الهلع ، ولكنها لمحته فى المرآة ، فكان نصيبه الضرب أيضا . ولقد أخبرنى الخصيان الذين تعاقبوا على خدمتها أنهم جميعا كان يعتريهم الخوف عندما يحل دورهم فى خدمتها فيما عدا لى ليان ينغ الذى كان مقربا اليها . وعندما طعنت فى السن أصابتها اختلاجة عصبية فى وجهها كانت تكره ان يلاحظها الناس . فاذا امعن أحد الخصيان النظر اليها قليلا كانت تسأله :

فيم تحملق ؟ فيصمت الخصى لا يحير جوابا ، وعندها يدفع به الى خارج الغرفة ويضرب بالهراوة عشرات المرات . ولما سمع خصى آخر بذلك لم يكن يجرؤ على رفع رأسه لينظر اليها وهو يقوم بخدمتها ، ولكنها ثارت لذلك أيضا وسألته : " لماذا تطأطىء رأسك ؟ " فلم يستطع ان يفكر فى شىء يقوله ، فتعرض لنفس العقوبة . وفضلا عن الخصيان كانت خادمات القصر يحصلن على نصيبهن من الضرب .

ان جلد الخصيان ، بل جلدهم حتى الموت ، كان أمرا مألوفا فى بيوت الأمراء فى بكين ومن المحتمل انه لم يكن صدمة كبيرة لجدي ، ولكن من المؤكد ان الوفاة المفاجئة للأرملة الشرقية تسى آن سنة ١٨٨١ قد بدت شيئا خارجا عن المألوف حتى بالنسبة له . فقد قيل ان الامبراطور شيان فنغ قد حزر قبل وفاته ان زوجته الثانية يى (تسى شى فيما بعد) سوف تستغل وضعها ، عندما تصبح امبراطورة أرملة باعتبارها أم الامبراطور ، للسيطرة على زمام السلطة ، وآنذاك لن تكون زوجته الامبراطورة (الأرملة الشرقية فيما بعد) كفئا لها . لذلك ترك شيان فنغ أمرا أمبراطوريا مكتوبا بحبر قرمزى يعطى الامبراطورة اليد العليا فوق تسى شى عندما يكون ذلك ضروريا . وبسبب ان الامبراطورة الأرملة الشرقية العديمة الخبرة ، التى نشأت فى أسرة نبيلة وكانت تفتقر الى الحكمة الشاملة ، لم تستطع الاحتفاظ بالوصية . ومنذ اكتشفت تسى شى وجود هذا الأمر عرضا ، خصصت وقتها كله للتحايل على الامبراطورة الأرملة الشرقية ، حتى جعلتها فى النهاية تحرق وصية شيان فنغ أمام عينيها .

وبعد وقت قصير ماتت الامبراطورة الأرملة الشرقية فى القصر . قال بعضهم انها قد أكلت فطائر أرسلتها اليها تسى شى ، وقال آخرون انها شربت حساء أعدته لها تسى شي بيديها . وليس من شك فى ان الأمر كان صدمة كبيرة للأمير تشون ، اذ أصبح بعد ذلك أكثر احتراسا من ذى قبل . واضعا نصب عينيه ان اكتساب ثقة تسى شي والحظوة لديها هوواجبه الأوحد .

عندما اصبح جدي مسؤولا عن تأسيس الاسطول الحربي أساء التصرف فى كثير من الاعتمادات المخصصة لذلك ، ووجهها الى بناء القصر الصيفى — مكانا لنزهة الامبراطورة الأرملة ومتعتها . وترافقت أكثر مراحل بناء القصر الصيفى نشاطا مع حدوث فيضان هائل حول بكين فيما يعرف الآن بمقاطعة خبى . فاقتراح أحد كبار الموظفين ايقاف العمل مؤقتا تجنبا لاستفزاز ضحايا الفيضان حتى لا يندفعوا الى اثارة المتاعب . ولكن الموظف جرد من منصبه ، وأحيل الى السلطات المختصة للنظر فى شأنه . ولم يقل الأمير تشون شيئا على أية حال ، بل بذل أقصى ما فى وسعه لانجاز العمل . ومات مع الانتهاء من بناء القصر الصيفى عام ١٨٩٠ . وبعد ذلك بأربع سنوات منى ما سمى بالاسطول الذى أنشأه جدى بهزيمة فادحة قضت عليه فى الحرب الصينية اليابانية . ولم يبق الا المركب الرخامى فى القصر الصيفى الذى تكلف عشرات الملايين من تايلات الفضة .

جدي لأمي رونغ لو

كان عند جدي الأمير تشون أربع زوجات ، ولدن له سبعة بنين وثلاث بنات بقى منهم عند وفاته ثلاثة أبناء وابنة واحدة ، وكان أكبرهم أبي تساى فنغ الذى ورث عنه لقب الأمير فى الثامنة من عمره . ومنذ ذلك الحين أخذت أسرتى تنعم بألوان جديدة من " الشرف والحظوة " التى لها صلة مباشرة بتسى شى والتى هى عبارة عن متاعب واهانات عاناها الشعب الصينى .

وكان من الأحداث الكبرى ذلك الزواج الذى رتبته تسى شى لأبى ، وهو حدث يمكن النظر اليه باعتباره ثمرة للحركة الاصلاحية عام ١٨٩٨ وحركة يي خه توان (٣) عام ١٩٠٠ . ففى الدرجة الأولى كان هذا الزواج تشريفا أسبغته تسى شي على خادمها المخلص رونغ لو نظير الخدمات التى

قدمها اليها عام ١٨٩٨ ، وهو العام الذى قام فيه بدور كبير فى احباط محاولات مجموعة من الاصلاحيين لاستئصال نفوذ تسى شى وتحديث المملكة .

كان رونغ لو ، جدي لأمي ينتمى الى راية تشنغباى المانشوية ، وكان متسلقا سياسيا خبيرا لا يتورع عن أية وسيلة لكسب ثقة تسى شى والحظوة لديها . وكان صديقا حميما لخصيها المقرب لى ليان ينغ ، كما ان زوجته أجهدت نفسها فى التقرب من الامبراطورة الأرملة ، ونجحت فى ذلك ، حتى انها غالبا ما كانت تستدعى الى القصر لتتبادل معها الحديث دون كلفة . وهكذا كان جدي لأمي رونغ لو العارف جيدا بمواقع وطريقة تفكير تسى شى والمطلع على العلاقات المتردية بينها وبين قوانغ شيوى ، يدرك تماما ان ذلك قد يؤثر فى مستقبله الخاص ، واصبح بالطبع أكثر استعدادا من ذى قبل لتقديم مشورته الى تسى شى .

وعندما أصدر الامبراطور قوانغ شيوى عام ١٨٩٨ سلسلة من المراسيم ببعض الاصلاحات السياسية ، لم يكن فى وسع الآخرين ممن طردوا من مناصبهم او كانوا خائفين من اقصائهم الا ان يذرفوا دموع العجز . ولكن رونغ لو وضع بالفعل خطة لتسى شى . كان رونغ لو رأس المجموعة التى عرفت باسم " حزب الامبراطورة الأرملة " ، والتى كانت تملك السلطة ، بينما كان ونغ تونغ خه — المعلم السابق للامبراطور — يرأس حزب الامبراطور الذى لايمتلك سلطة حقيقية . وقد استطاع الاصلاحيون ان يقيموا صلة مع الامبراطور عن طريق المركز الجيد لدى ونغ تونغ خه باعتباره معلما امبراطوريا . وسارت تسى شى طبقا للخطة التى سبق وضعها ، وأجبرت قوانغ شيوى على ان يطلب من ونغ تونغ خه ان يتقاعد ويلزم منزله . وبعد بضعة أيام من رحيله من بكين منح رونغ لو لقب " الاكاديمى الاكبر " واصبح الحاكم العام فى مقاطعة جينلى (خبى حاليا) التى تقع فيها العاصمة مع توليه قيادة الجيوش المرابطة حول العاصمة .

وبقيام الحركة الاصلاحية عام ١٨٩٨ أتيحت الفرصة أخيرا أمام رونغ لو لتجريد الامبراطور قوانغ شيوى من سلطته ، واعادة البلاد ثانية الى قبضة تسى شى . وكان قد وضع خطة للقيام بانقلاب عندما تقوم تسى شى وقوانغ شيوى باستعراض جيش بيبانغ (الشمالى) الجديد فى تيانجين . وعندما علم قوانغ شيوى بهذه الخطة بعث برسالة الى الاصلاحيين يطلب فيها منهم التفكير فى طريقة لانقاذه .

وضع الاصلاحيون والامبراطور ثقتهم بكل حماقة فى مساعد لرونغ لو يدعى يوان شى كاى كان مسؤولا عن الجيش الجديد الذى يعتبر قوة عسكرية حديثة ، وادخلوه فى خطتهم لاعدام رونغ لو وسجن تسى شى عندما يذهبان لاستعراض قواته فى تيانجين . ووافق يوان شى كان على التعاون معهم ، ثم خانهم وذهب من فوره الى رونغ لو وأخبره القصة بكاملها . ولدى سماع رونغ لو بذلك ركب القطار عائدا من تيانجين ، وأسرع الى القصر الصيفى ليقدم تقريرا الى تسى شى . وكانت النتيجة ان سجن الامبراطور ، وأعدم تان سى تونغ وخمسة اصلاحيين آخرين ، وهرب زعيمهم كانغ يو وى الى اليابان . وانقضت أيام الاصلاح المئة القصيرة . وطبقا لما كتبه اصلاحي آخر يدعى ليانغ تشى تشاو ، فان جدي لأمي رونغ لو " قد جمع فى يده أعلى المناصب العسكرية والمدنية ، وكانت سلطته أعظم حتى من سلطة القصر نفسه . " وجاء فى « مسودة تاريخ أسرة تشينغ » ما يلى : " لقد كسب ثقة الامبراطورة الأرملة وحبها الشديد ، ولم يكن له نظير فى ذلك الوقت . وكان كل شيء ، صغيرا أو كبيرا ، يتقرر بكلمة منه . "

ومضى رونغ لو أبعد من ذلك فى اظهار ولائه لتسى شى سنة ١٩٠٠ المملوءة بالكوارث ، حين استخدمت تسى شى رجال يى خه توان لقتل الأجانب ، ثم استخدمت بعد ذلك الأجانب لسحق يى خه توان . فبعد حركة ١٨٩٨ الاصلاحية أرادت تسى شى ان تتخلص من قوانغ شيوى . وعندما

انكشفت محاولتها لقتله تحت ستار اصابته بمرض مزعوم ، قررت ان تعين أولا خلفا للامبراطور السابق تونغ تشي قبل خلع قوانغ شيوى . ودعت جميع المبعوثين الأجانب الى القصر لتقديم تهنئتهم واظهار مساندتهم . ولكنهم جميعا رفضوا الدعوة . ومن الواضح تماما الآن ان رفضهم لم يكن مبنيا على موقف فردى من شخصية تسى شى ؛ بل كان سبب ان كلا من مفوضى بريطانيا وفرنسا وأمريكا واليابان فى الصين لم يكونوا يريدون ان يروا تناميا جامحا فى " حزب الامبراطورة الأرملة " الموالى لروسيا القيصرية . ولم تكن تسى شى تجرؤ قبل ذلك اطلاقا على استفزاز الأجانب . فعندما ذبحوا الشعب الصينى واستولوا على ثروات البلاد لم يعنها ذلك كثيرا . ولكنهم الآن اذ يحمون قائد الاصلاح كانغ يو وى ويقفون سدا أمام خططها لخلع الامبراطور وتعيين وريث جديد للعرش ، أصبحوا يعارضون حكمها مباشرة . وكان هذا فوق ما تستطيع احتماله . وقد نصحها رونغ لو بألا تستفز الأجانب تحت أى ظرف من الظروف ، بل عليها ان تفكر فى الأمور بمنتهى الروية ، وقد يكون من الأفضل ان لا تحدد تماما لقب الوريث الجديد . فأخذت باقتراحه ، وغيرت اللقب الامبراطورى الى " دا آ قه " . أما والد الوريث الذى كان يتوق الى ان يرى ابنه قد أصبح امبراطورا ، فقد تواطأ مع الأمراء وبعض كبار الموظفين على اقتراح خطة أخرى على تسى شى ، وهى أن تستخدم رجال يي خه توان المعادين للأجانب فى سحقهم ، وبذلك تضرب عصفورين بحجر واحد .

كان رجال يى خه توان يشكلون أكبر صداع للبلاط الذى لم يوفر من جانبه اى حماية لعامة الناس الذين اضطهدتهم الكنائس الأجنبية واساءت اليهم ، بل على العكس كان يشارك الأجانب فى فرض المزيد من الاضطهاد عليهم . وهكذا نشب النضال المسلح ، وتكونت حركة يى خه توان فى مختلف أنحاء البلاد تحت شعار " أبيدوا الأجانب " . وأصبحت هذه الحركة فى مجرى نضالها قوة مسلحة قوية قادرة على الحاق الهزيمة بالجحافل

التي كان البلاط يرسلها لمقاتلتهم . وكان السؤال الذي يواجه تسى شي هو : أ ينبغي لها ان تبيد رجال يى خه توان أم تستميلهم اليها . وكانت داخل البلاط مجموعة تضم والد ولي العهد تدافع عن فكرة مصالحتهم لبعض الوقت ، حتى يمكن استخدامهم لطرد الأجانب الذين كانوا يتدخلون فى ولاية العهد . وكانت هناك مجموعة أخرى تعارض هذه الفكرة تماما اعتقادا منها بأن من شأنها ان تؤدى الى عواقب وخيمة ، وكانت تدعو الى ضرورة استئصال شأفة يى خه توان .

وقد وصل مؤيدو كل من السياستين الى طريق مسدود ، وفى ذلك الوقت تسلمت تسى شي تقريرا عاجلا وغير مؤكد من المخابرات يفيد بأن أعمال العنف التي يقوم بها الأجانب فى أنحاء مختلفة من البلاد تهدف الى اجبارها على اعادة السلطة الى الامبراطور . وقد وضع هذا حدا لترددها ، فأمرت فى غضب عارم بالعمل على "مصالحة" يى خه توان ومهاجمة البعثات الأجنبية وثكناتها فى بكين . وحولت اموالا من المخصصات الامبراطورية الى يى خه توان ، كما قدمت مكافآت الى كل من يقطع رأس أجنبي . ولمزيد من الافصاح عن عزمها قامت بقطع أعناق عدد من الذين دعوا الى ابادة رجال يى خه توان .

وعندما أخفق الهجوم على البعثات الأجنبية وسقطت الدفاعات الساحلية فى داقو وتيانجين ، وأخذت جيوش الأجانب المتحالفة تقترب من بكين ، غيرت تسى شي تكتيكاتها ، فبدأت الاتصال بالأجانب سرا وأوفدت رسلها لفتح خط الاتصال مع البعثات الأجنبية ، والقتال ما يزال دائرا . وعندما سقطت بكين هربت الى شيآن ، وحتى تظهر انها لم تكن راضية فى البداية عن مقاومة الأجانب قطعت رؤوس عدد من كبار المؤيدين لسياسة "المصالحة" مع يى خه توان .

خلال كل هذه التقلبات السياسية بذل رونغ لو كل ما فى وسعه ليبقي

نفسه بعيدا عن المتاعب ، فلم يعارض أبدا رغبات تسى شى التى قنن سلوكه تبعا لتقلباتها ، وكان فى نفس الوقت يهيء لها خطوط الرجعة . فعندما أطاع أوامرها بارسال الجنود لمهاجمة ثكنات القوات الأجنبية فى حى البعثات الدبلوماسية لم يوزع عليهم قذائف المدفعية ، بل وأرسل الفواكه الى الأجانب فى كتمان وحذر واعرب لهم عن قلقه عليهم . وعقب دخول جيوش الدول الأجنبية الثمانية الى بكين وهروب تسى شى اقترح رونغ لو مبدأ وحيدا يجب ان يتمسك به المندوبون المسؤولون عن التفاوض من أجل السلام ، وهو : امكان قبول اى شرط مادام لا يحمل تسى شى مسؤولية الأمر ولا يعيد الامبراطور الى السلطة . وهكذا وقعت سنة ١٩٠١ اتفاقية الزمت الصين بدفع تعويضات قدرها مليار تايل فضة مع فوائدها . وسمحت للدول الأجنبية بابقاء قوات فى العاصمة . وقد كوفىء رونغ لو على هذه الخدمات بكثير من التشريفات الجديدة ، وكان من بينها الزواج الذى رتبته تسى شى بين ابنته والأمير تشون من السلالة الثانية .

وفيما بعد أخبرنى بعض المسنين من أهل البيت ان تسى شى قد خططت لزواج والدي بترو شديد . فقد كانت تسى شى تستريب نوعا ما فى أسرة الامير تشون منذ الحركة الاصلاحية عام ١٨٩٨ ، وكانت قد اصغت الى زعم يقول ان نمو شجرة جنكة عالية (شجرة المعبد) فوق قبر الأمير تشون الأول يعنى ان امبراطورا سيخرج من اصلابه ، باستغلال المجانسة بين اسم الشجرة والكلمة الصينية التى تعنى "أمير" . وما ان سمعت تسى شى بذلك حتى امرت بقطع الشجرة . غير ان السبب الحقيقى فى ريبتها كان الاهتمام الذى يظهره الأجانب بقوانغ شيوى وأسرته . فقبل أحداث سنة ١٩٠٠ كانت تشعر بأن الأجانب المزعجين لم يكونوا مؤدبين معها كثيرا . وعقب الأحداث طلب قائد الجيوش المتحالفة من شقيق الامبراطور ان يذهب الى ألمانيا مندوبا لتقديم الاعتذار عن قتل المفوض الألمانى خلال الاضطرابات . وقد تسبب الاستقبال الفخم الذى اختص به القيصر الألمانى والدي فى اثارة قدر كبير

من عدم الارتياح لدى الامبراطورة الأرملة وفى تقوية ريبتها وكان ربط تابعها الأمين رونغ لوبأسرة الأمير تشون من خلال الزواج هو الحل الذى اهتدت اليه أخيرا لهذه المشكلة الخطيرة . لقد كانت تسى شى مستعدة لالحاق أكبر ضرر بمن يسبب أدنى تهديد لأمنها . وقد أمرت باغراق زوجة قوانغ شيوى البالغة الجمال فى بئر قبل هربها سنة ١٩٠٠ خوفا من أنها قد تسبب لها بعض المتاعب فيها بعد . وكانت فى كافة الظروف تضع فى اعتبارها الأول دائما حماية سلطتها الشخصية . وهكذا تسلم أبي الأمر بترتيب زواجه فور عودته تقريبا من ألمانيا ، وتقديمه تقريره عن " الاستقبال المتسم بالمجاملة " الذى لقيه هناك :

قرار تسى شى

كان والد ولى العهد واحدا ممن تحملوا المسؤولية عن اضطرابات عام ١٩٠٠ ، ولذلك جرد ابنه من اللقب . ولم تطرح مسألة ولاية العهد صراحة بعد ذلك طوال سبع سنوات .

وفى نوفمبر ١٩٠٨ أصيبت تسى شى بالزحار بينما كانت تحتفل فى القصر الصيفى بعيد ميلادها الثالث والسبعين . وبعد ان رقدت على فراش المرض عشرة أيام قررت فجأة ان تعين وليا جديدا للعهد . وخلال اليومين التاليين مات الامبراطور قوانغ شيوى ، وماتت هى أيضا . وقبل وفاة الامبراطور بيوم استدعى أبي الى القصر وعين أميرا وصيا وأخذت أنا الى القصر . وفى اليوم التالى أصبحت امبراطورا تحت الوصاية ، وأعلنت تسى شى فى أمرها بأن على أبي ان يستشيرها فى ادارته لكل شؤون الدولة .

كانت تسى شى فى السنوات القليلة السابقة تضع سلطات متزايدة على الدوام بين يدى يوان شي كاي الموظف الهاني الموثوق به ، والذى قام بدور رئيسى

فى هزيمة الاصلاحيين عام ١٨٩٨ . ولكن سيطرته على جيش بيبانغ وانتهازيته قد سببتا لها فى الوقت نفسه كثيرا من القلق . وكانت تقلقها كذلك العلاقة الوثيقة بين يوان شى كاى والأمير تشينغ (يى كوانغ) ، هو مانشوى طموح بدأ نبيلا من الدرجة الدنيا ، ثم أصبح أميرا من الطبقة الأولى ومستشارا أعلى لدى البلاط . وفى محاولة لكبح نفوذهما سعت تسى شى عبثا لاستبعاد الأمير تشينغ . وفى عام ١٩٠٧ رقت يوان شى كاى ترقية اسمية جعلته يتخلى عن قيادة جيش بيبانغ .

كانت تسى شى تدرك تماما أنها لا تستطيع أن تنهى دفعة واحدة سيطرة يوان شى كاى الفعلية على جيش بيبانغ ، ولا تستطيع فى لحظة واحدة تحطيم العلاقات بين يوان والأمير تشينغ . وقد وقعت هى نفسها طريحة المرض تماما حينما كانت تخطط لخطوتها التالية . وعلى فراش مرضها تلقت أنباء مزعجة مفادها أن يوان شى كاى يخطط لخلع قوانغ شيوى ووضع ابن الأمير تشينغ مكانه . وعلى الرغم من مهارة الأمير تشينغ فى التعامل مع الأجانب وفى تملقها ، وعلى الرغم من كل ما صنعه يوان شى كاى لها ، بل على الرغم من أن هدف خطتهما كان الامبراطور قوانغ شيوى الذى تكرهه أشد الكراهية ، الا انها أدركت فورا الخطر الذى تمثله هذه المؤامرة على أسرة آيشين — جيولوه وعليها شخصيا . لذلك اتخذت قرارها فى منتهى العجلة . فأرسلت الأمير تشينغ فى مهمة خارج العاصمة ، ونقلت وحدة من جيش بيبانغ الى خارج بكين ، وأحلت محلها وحدة أخرى يمكن الاعتماد عليها أكثر من سابقتها . وعندما رجع الأمير تشينغ الى بكين كنت أنا قد أصبحت وليا للعهد بالفعل ، وكان أبي قد عين أميرا وصيا . وحفاظا على ولاء الأمير تشينغ الذى كان له كثير من الأصدقاء الأجانب جعلت تسى شى لقب الامارة وراثيا فى أعقابه الى الأبد .

ولقد سمعت ذات مرة من خصي عجوز عن الظروف المريبة لموت قوانغ شيوى ، وطبقا لروايته كان قوانغ شيوى فى حالة جيدة نوعاما فى اليوم

السابق لوفاته ، وان الذى جعل مرضه خطيرا هو جرعة من الدواء تعاطاها : وقد اكتشف فيما بعد ان هذا الدواء أرسله يوان شى كاى . كان الاجراء العرفى المتبع عندما يمرض الامبراطور ان يعطى كل من كبار الموظفين فى ادارة أسرة تشينغ الوصفات نفسها التى يقررها كبار الأطباء بعد التشخيص كل يوم . وفى حالات المرض الخطير توزع هذه الوصفات على جميع أعضاء مجلس البلاط . ولقد علمت فيما بعد من سليل لأحد موظفى ادارة أسرة تشينغ أن قوانغ شيوى لم يكن يعانى قبل وفاته الا من انفاونزا عادية ، وانه اطلع على التشخيص بنفسه ، وكان التشخيص يقول ان نبض قوانغ شيوى عادى . وأكثر من هذا أنه شوهد فى حجرته واقفا يتحدث كما لو كان سليما ، ولذلك دهش الناس بشدة عندما سمعوا بخطورة مرضه . والأكثر غرابة أنه فى ظرف أربع ساعات جاءت الأخبار بوفاته . لقد كانت وفاة قوانغ شيوى مريبة حقا كل الريبة . واذا كانت رواية الخصى صحيحة ، فذلك دليل آخر على أن هنا تآمرا . . تآمرا خفيا جدا بين يوان شى كاى والأمير تشينغ .

ومن المأثور أيضا أن تسى شى قد اغتالت قوانغ شيوى عندما تحققت من أن مرضها مميت ، وذلك حتى لا تموت قبله . وهذا محتمل ولكننى لا أعتقد بأنها كانت تظن أنها مريضة مرضا مميتا فى اليوم الذى عهدت فيه الي بولاية العهد . فبعد وفاة قوانغ شيوى بساعتين أمرت والدي ، الأمير الوصى ، قائلة : " عليك أن تدير شؤون الدولة وفقا لتعليماتي " . ولم تقل الا بعد ذلك بيوم : " ان حالتي الآن خطيرة وأخشى ألا أشفى أبدا . وفى المستقبل سيقرر الوصي كافة الشؤون المتعلقة بالدولة . واذا كانت هناك أمور هامة تستدعى توجيهات من الامبراطورة الأرملة الجديدة (زوجة قوانغ شيوى التى كانت ابنة اخيها) فسيظهر الأمير الوصى أمامها ، ويسألها عن تعليماتها قبل أن يتصرف فيها . " والسبب فى اختيارها وصيا مثل أبي ووليا للعهد مثلي هو أنها لم تكن تدرك فى ذلك الوقت أنها فى طريقها الى الموت . انها لم تكن

تستطيع بوصفها الامبراطورة الأرملة الجدة (اللقب الذى يعطى لجدة الامبراطورة) أن تمارس سلطتها عن طريق " الاستماع من وراء الستار " ، ولكنها كانت تستطيع أن تظل قابضة على كل شيء عن طريق وصي طيع بينها وبين الامبراطور الطفل .

وبالطبع لم تكن تخالجها الأوهام بأنها ستعيش أبدا . ولا بد أنها حسبت أنها بقرارها هذا قد فعلت كل ما تستطيع حماية عرش آيشين-جيولوه ، بل ربما ظنت أن قرارها هذا صحيح لأن الوصى الذى اختارته كان أخا لقوانغ شيوى . ومن الطبيعى تماما الاعتقاد بأن رجلا من هذا الطراز لن ينخدع بيوان شى كاى .

وصاية أبى

لم أعرف أبي الا فى نهاية السنوات الثلاث التى كنت فيها امبراطورا ، وكان هو وصيا . وذلك حينما جاء للتفتيش على دراستي بعد أن بدأتها بوقت قليل . وعندما دخل أحد الخصيان ليعلن أن " سموه الملكي " فى الطريق ، اضطرب معلمي جدا ، وأخذ يرتب المكتب بسرعة ويشرح لي كيف ينبغى ان أتصرف معه . ثم طلب منى ان أقف وأنتظر . وبعد لحظة ظهر من مدخل حجرة الدراسة رجل غريب حليق اللحية وفى قبعته ريشة طاووس ووقف جامدا أمامي . كان هذا هو أبي . حييته بالطريقة المتعارف عليها ثم جلسنا معا . وتناولت كتابي وبدأت أقرأ بصوت عال كما علمني معلمي .

وبعد جملتين اضطربت نظرا لانفعالى ، ولكن من حسن الحظ أن والدي كان أكثر ارتباكا منى ، وظل يهز رأسه مطرقا مغمغما : " جيد ، جيد ، جيد جدا ، يا صاحب الجلالة . اجتهد فى الدراسة ، اجتهد فى الدراسة." ثم هز رأسه عدة مرات ونهض واقفا ، ثم انصرف . وقد ظل معي دقيقتين

فقط :

وهكذا عرفت الآن شكل أبي : لم تكن له–بخلاف معلمي–لحية ، ووجهه يخلو من التجاعيد ، وكانت ريشة الطاووس فى قذاله تهتز دائما . لقد دأب على زيارتنا مرة كل شهرين ولكنه لم يكن يبقى معي أكثر من دقيقتين . واكتشفت أيضا أن به شيئا من التهتهة فى الكلام ، وأدركت أن السبب فى اهتزاز ريشة الطاووس أنه دائما يهز رأسه مطرقا . ولم يكن يقول الا كلمات قليلة مثل " جيد ، جيد ، جيد ! " وكانت كلمته الأخرى مبهمة جدا .

لقد سمع أخي ذات مرة أمي تحكى أنه عندما استقال أبي من الوصاية عقب ثورة ١٩١١ (٤) عاد الى البيت مباشرة ، وقال لها : " منذ اليوم أستطيع أن أبقى فى البيت وألازم أطفالي . " وغضبت أمي لما كان عليه من خفة الفؤاد حتى لقد أجهشت بالبكاء . وفيما بعد قالت لأخي : " لا تكن كأبيك عندما تكبر " . ان هذه القصة وبيتين من الشعر كتبهما أبي ذات مرة : ان تمتلك الكتب تكن ثريا . . . وان كان لك فراغ فأنت بوذا صغير " . : يدلان أنه لم يكن لديه رغبة أصيلة فى " اعتزال العالم " ، فقد كان يعتبر أن سنوات وصايته الثلاث كانت شدة عظيمة . فهذه السنوات يمكن أن تعد أكثر سني حياته اخفاقا .

وكان أعظم اخفاق أساسى له — من وجهة نظره — عجزه عن التخلص من يوان شى كاى . وهناك رواية تقول ان أخاه قوانغ شيوى فاتحه برغبته القلبية ، وهو مشرف على الموت وأعطاه أمرا مكتوبا بالحبر القرمزى من أربع كلمات " اقتل يوان شى كاى " . ولكن هذا اللقاء–فى حدود ما أعلم–لم يقع . وعلى الرغم من أن الأمير الوصي أراد أن يقتل يوان انتقاما لأخيه ، الا أن مجموعة من كبار رجال البلاط على رأسها الأمير تشينغ منعته من ذلك . وليس ثمة سبيل لمعرفة تفصيلات ذلك . ولكن هناك ملاحظة واحدة أبداها الأمير

تشينغ ثبطت عزيمته " لا مشكلة فى قتل يوان شى كاى ، ولكن ماذا يحدث اذا تمرد جيش بييانغ ؟ " وكانت النتيجة أن الامبراطورة الأرملة الجديدة لونغ يو تركت يوان طليقا وارسلته الى موطنه ليعتنى بعلاج " قدمه المريضة " .

فى ذلك الوقت قدم كثير من الناس لأبي نصائح متضاربة حول التعامل مع يوان شى كاى . فبذل بعضهم أقصى الجهود للدفاع عنه ، وحاول آخرون تصفيته . ان مسألة قتل يوان أو مساندته لم تكن مسألة صراع بين الاصلاحيين والمحافظين ، أو بين " حزب الامبراطور " و" حزب الامبراطورة الأرملة " ، كما لم تكن مسألة صراع بين المانشويين من جانب والهانيين من الجانب الآخر ، بل كانت بالأحرى صراعا على السلطة بين فريقين من النبلاء وكبار الموظفين . وكان مجلس البلاط فى ذلك الوقت المؤلف فى أغلبيته من العائلة المالكة منقسما الى فريق يرأسه الأمير تشينغ ، وفريق آخر يرأسه الشريف تساى تسه . وكان الفريق الأخير هو الذى اقترح السياسات على والدي بهدف الوصول الى السلطة . وكان أبي محصورا بين الفريقين ، يأخذ مرة بنصيحة الفريق الأول ، ومرة بنصيحة الفريق الثانى ، متفقا مع كليهما ولكن دون أن يرضى أحدا .

وكان التعامل مع الأمير تشينغ وتساى تسه أصعب . كان الأمير تشينغ قبل وفاة تسى شى كبير أعضاء مجلس البلاط ، وبعد وفاتها أصبح الوزير الأول فى مجلس الوزراء الذى تم تشكيله لأول مرة مما أثار نقمة تساى تسه رئيس ادارة الواردات والمالية ، الذى كان يغتنم كل فرصة للنيل من منافسه أمام الأمير الوصي . ولكن اذا كانت تسى شى قد عجزت عن ازاحة الأمير تشينغ ، فكيف تسنح للأمير الوصي فرصة لذلك ؟ وهكذا فعلى الرغم من موافقة أبي غالبا على اقتراحات تساى تسه فقد كان عاجزا عن العمل بمقتضاها ، بل وبقى الأمير تشينغ يعمل مستبدا برأيه . ان هزائم تساى تسه كانت هزائم حقيقية لأبي شخصيا ، أما انتصارات الأمير تشينغ فكانت فى حقيقتها

انتصارات ليوان شى كاى الذى كان يعيش فى موطنه فى حالة تقاعد صورى ؛ وعلى الرغم من أن أبي كان على معرفة بذلك الا أنه لم يفعل شيئا حياله .

عام ١٩١١ نشبت فجأة انتفاضة ووتشانغ (٥) ، وهزمت الجيوش التى ارسلت بأمرة قائد من المانشو لاخمادها . واستدعى أبي يوان شى كاى من تقاعده تحت ضغط شديد من الأمير تشينغ وجماعته ، وسلمه القيادة العسكرية العليا .

لم يكن أبي أحمق تماما . فمن خلال رحلته الى ألمانيا تعلم من القيصر الالمانى درسا ثمينا ، ألا وهو أن على الأسرة المالكة أن تسيطر على الجيش ، وأن على أفرادها أن يصبحوا ضباطا فيه . وتطبيقا لذلك عهد الى أخيه بمسؤولية حرس القصر ، وأسس جيشا خاصا تابعا للأسرة المالكة ، وعهد الى أقارب آخرين بمسؤولية الاسطول والأركان العامة . ويقال ان أبي كان يعتزم تصفية يوان شى كاى سواء نجح فى اخماد الانتفاضة أم لم ينجح . وعلى أية حال لم يكن ينوى أن يترك قيادة القوات المسلحة فى أيدى هانيين أقوياء ، أو على الأقل فى يد يوان شى كاى . غير أن خطط أبى لم تكن عملية اطلاقا ؛ وحتى اخوته أنفسهم كانوا يهزون رؤوسهم أسفا لعجزه .

وحدث ذات مرة أن أصيبت جدتي بقرحة فى صدرها عجز الأطباء التقليديون عن علاجها ، فاستدعى أبي ، بناء على نصيحة اخوته ، طبيبا فرنسيا . وأراد هذا الطبيب أن يعالجها جراحيا ، ولكن الأسرة بكاملها عارضته . وكان الشيء الوحيد الذى استطاع فعله هو أن يضع لها مرهما . وقبل أن يضع المرهم أشعل موقدا كحوليا ليعقم أدواته ، فأثر ذلك فى أبي خوفا هائلا وسأل المترجم :

ــ آها . . ماذا يفعل ؟ هل يحرق السيدة العجوز ؟

ولما رأى أحد أعمامي مبلغ جهله أومأ الى المترجم ألا يترجم هذا السؤال ؛ وترك الطبيب لها بعض الدواء وانصرف . وقد أدهشه فى الزيارة التالية عدم

تحسن حالة السيدة العجوز اطلاقا ، فطلب أن يرى علبة المرهم التى تركها فى المرة السابقة . فأحضرها أبي بنفسه ، واذا بغطائها لم يفض . ومرة أخرى لم يتمالك أعمامي عن هز رؤوسهم والتنهد أسفا .

كان كل واحد فى بيت أبي يعتبر نفسه—بعد موت تسى شي— اصلاحيا . ومن تفصيلات حياة أبي اليومية يستطيع المرء أن يرى كيف أنه كان الى حدما يعارض الخرافة ويقف فى صف الحداثة . فلم يعارض تلك الأشياء التى كان الموظفون القدامى يرونها بدعا غريبة غير صحيحة ، وكان أول من امتلك بين الأمراء سيارة وأدخل الهاتف الى بيته ، وكان أهل بيته أول من قصوا ضفائرهم ، وكان هو أول الأمراء والنبلاء فى ارتداء الزى الغربى . ولكن مدى فهمه الحقيقى لطريقة استخدام هذه الأشياء يمكن استشفافه من طريقة ارتدائه الزى الغربى . فقد سأل أخا لي فى حزن : " لماذا قمصانك مناسبة تماما بينما قمصاني دائما أطول من سترتي ؟ " وعندما نظر اليه أخي وجده يلبس قميصه خارج بنطاله ، وأنه ظل أياما يلبس بهذه الطريقة غير المريحة .

وقد طرد بعض الساحرات اللاتى جئن لعلاج مرض أصاب جدتي ، ورفس الى البالوعة ذات مرة قنفذا كان الخدم يحملونه فى رعب كشيء مقدس ، ولكن وجهه شحب بعد ان فعل ذلك شحوب الموت . وكان ضد عبادة الآلهة والتراتيل البوذية . ولكنه كان فى كل مرة يحل فيها عام جديد أو أحد الاحتفالات يهتم اهتماما بالغا باشعال البخور وتقديم القرابين .

لقد تصفحت يوميات أبي على أمل أن أفهم سنوات وصايته الثلاث . ولم أجد فيها معلومات كثيرة الا نوعين ممتعين من التدوينات . أولهما يشير الى السلوك التقليدى . . فكان مثلا كلما حل أيار يكتب دائما " فلأقصر شعري كالمعتاد " ، وكلما حل أغسطس يكتب " ولينمو شعرى كالمعتاد " . وكانت هناك أشياء أخرى يكتبها عن الملابس التى ارتداها فى أوقات مختلفة من العام طبقا للعادة وعن الأطعمة الطازجة التى أكلها . والنوع الآخر الممتع

من التدوينات كان تسجيلات تفصيلية لحركات الاجرام السماوية وملخصات لما تنشره الصحف فى علم الفلك . كان ثمة تناقض حاد بين تفاهات حياته اليومية وحماسته لعلم الفلك . ولو أنه كان رجلا من زماننا لأمكن أن يصبح فلكيا . ولكنه عاش فى تلك الأسرة فى ذلك المجتمع وأصبح أميرا من أمراء الأسرة المالكة فى سن التاسعة .

أسرة أمير

كانت لي أربع جدات . وقد ماتت قبل ولادتي بعشر سنوات السيدة يهونالا الزوجة الرئيسية للأمير تشون الأول التى لم تكن جدتي الحقيقية . وقيل لى ان هذه السيدة العجوز لم تكن على الاطلاق تشبه أختها تسى شى ، اذ كانت شغوفة بالتمسك بقواعد الفضيلة التقليدية . فحينما استمرت تسى شى فى مشاهدة العروض المسرحية كلمعتاد بعد وفاة الامبراطور تونغ تشى لم تفعل هى ذلك . وعلى الرغم من أنها أطاعت الأوامر باستدعائها الى القصر لمشاهـدة العروض فقد أبقت عينيها مغمضتين باحكام وهى تجلس أمام المسرح ، وعندما سألتها تسى شى عن السبب أجابت دون أن تفتح عينيها : " هذا وقت حداد وطني ، فأنا لا أستطيع مشاهدة المسرحيات . " وقد أربكت هذه الاجابة تسى شى . وكانت هناك كثير من الكلمات محرمة لديها . وكان على أفراد بيتها أن يلتزموا الحذر الشديد فى حديثهم معها ، خصوصا بصدد كلمات مثل : " انتهى " أو " ميت " . وكانت خلال حياتها بوذية ورعة ، ولم تكن تذهب الى الحديقة فى الصيف قائلة انها تخشى أن تطأ أية نملة فتقتلها . ولكن على الرغم من أنها كانت عطوفة على النمل الى هذا الحد ، فقد كانت عديمة الرحمة عندما يتعلق الأمر بضرب خدمها . ويقال ان الرعشة اللاارادية فى وجه أحد الخصيان ، والتى تعذر علاجها ، كانت نتيجة جلده

بالسياط بأمر منها :

وكان لها اربعة ابناء وبنت . وقد ماتت البنت ولحقها أكبر الابناء فى ظرف عشرين يوما . وكان ابنها الثانى هو الامبراطور قوانغ شيوى ، وقد أخذ منها فى سن الرابعة الى القصر ، وبعد ذلك أنجبت ولدا آخر لم يعش يومين . وعندما ولد ابنها الرابع قلقت عليه أشد القلق ، فكانت تخشى ألا يرتدى ملابس كافية فيتجمد من البرد ، أو يأكل كثيرا فيتخم . وكانت جدتي هذه تؤمن بفائدة الصوم يوما كاملا فى بعض الاحيان ، ولم تكن ابدا تسمح له بأن يأكل حتى يشبع . يقال انها كانت تقطع الجمبرى الواحد ثلاث قطع ، ثم تعطيه قطعة منها لكل مرة . وكانت النتيجة أن هذا الولد الرابع مات من نقص التغذية قبل أن يصل الى سن الخامسة . وكما لاحظ خصى عجوز ، " لو لم تكن جدتي قد قتلت أولادها بالعطف الزائد لما تمكن أبي اطلاقا من أن يرث لقب جدي . "

ووفقا للتشريع السلالى كانت هذه الجدة مسؤولة عن تنشئة أبي على الرغم من أنه لم يكن ابنها . وكانت لها سيطرة ادبية عليه وعلى اخوته الصغار على الرغم من أنها لم تكن لها السيطرة على نظام تغذيتهم . وقد قال الخصى الذى أشرت اليه سابقا انه كان عليهم أن يتحلوا بالحذر حتى عندما يبتسمون امامها ، فقد كانت السيدة تصيح فيهم اذا تحولت ابتساماتهم الى ضحكات : " لماذا تضحكون ؟ ما عندكم اداب ؟ "

ماتت زوجة جدي الأولى منذ زمن بعيد ، وكانت زوجته الثانية هى جدتي الحقيقية . وقد صارت المسؤولة عن البيت بعد وفاة زوجة أبي الأولى . وعلى الرغم من أنها لم تكن متزمتة كضرتها ، الا أنها لم تكن مستقرة عقليا ، وذلك بسبب المصير الذى آل اليه أولادها وأحفادها . فقد فقدت ابنة عمرها عامين ولكن الذى خلخل عقلها بادىء ذى بدء أن أولادها كانوا يؤخذون منها . لقد أنجبت ثلاثة أولاد كان أبي أكبرهم . ونشأ ثالثهم تساي تاو فى حضانتها .

وعندما اصبح فى الحادية عشرة تسلمت أمرا من الامبراطورة الأرملة تسى شى بأن يكون هذا الولد ابنا بالتبنـــى ليى مو ، أحد أبناء عم جدي وكانت هذه صدمة كبيرة اخلت باتزانها وجعلتها دائمة البكاء .

وبالطبع طاريى مو - الذى لم يكن لديه أولاد - فرحا عندما وهب غلاما ، وأقام وليمة عظيمة احتفالا بالحادث تماما كأنه ولد له طفل . ولم يكن يى مو ماهرا فى التزلف الى تسى شى مما كان يثير استياءها . وعندما علمت كيف استخفه الفرح زادت انزعاجا منه وقررت بألا يستمر انعامها عليه . ويقال انها كانت تردد دائما : " ان سبب لي أحد لحظة أسف فسوف أهبه الشقاء مدى الحياة . " اما يى مو فقد نفس عن مشاعره نحوها برسم لوحة تحتوى على قدم واحدة فقط اراد منها ان يشير الى ان تسى شى قد تخصصت فى اثارة المتاعب وأنها دفعت بشؤون أسرتها وبلادها الى مأزق . وكتب يى مو على اللوحة مقطوعة من الشعر الهزلى :

يا لي من مسكين ! حاولت أن أتفادى القوة الرهيبة للقدم ،
فبنيت برجا يجنبني اياها .
لكن على الرغم من أنى جعلت البرج عاليا جدا ،
الا أن القدم ماتزال تلاحقني الى السماء .

وبطريقة ما سمعت تسى شى بذلك ، فأصدرت للنكاية فيه قرارا آخر يأمر بأن يصبح تساى تاو ابنا بالتبنى لقريب آخر ، وكان قد مضى على تبنيه الاول خمس سنوات . فأمرضت الصدمة يى مو وزوجته كليهما . وعندما مات يى مو عقب ذلك تعمدت تسى شى ارسال تساى تاو ، الابن الذى انتزع منه ، ليكون ممثلها فى تقديم القرابين من أجله لأنه بهذه الصفة لم يكن فى استطاعته أن يركع أمام لوحته التذكارية (٦) . وماتت زوجة يى مو فى نفس العام كذلك .

وعندما أمرت تسي شي أن يصبح تعاى تاو ابنا بالتبنى مرة ثانية ، رتبت ايضا أن يتبنى أخ جدي الآخر أخاه تساى شون . وكان غرضها من ذلك تحقيق المقصود فى هذين البيتين :

لكن على الرغم من أني جعلت البرج عاليا جدا ،
الا أن القدم ماتزال تلاحقني الى السماء .

وكانت الخسارة المفاجئة لابن آخر صدمة غير متوقعة لجدتي :

ولم يمض وقت طويل حتى تلقت جدتي ضربة ثالثة ، وذلك عندما رتبت زواجا لوالدي فجاء مرسوم من تسي شي يقضى بأن عليه ان يتزوج من فتاة أخرى . وبالطبع لم تهتم تسي شي بموافقة العروسين المعنيين أوبموافقة والديهما . ولم يكن أحد يجرأ على التلفظ بكلمة واحدة حول أى شيء ترتبه . وكانت جدتي من ناحية مذعورة من اثارة استياء الأمبراطورة الأرملة ، ومن ناحية أخرى من وقوع فعل يائس قد تفعله خطيبة ابنها اذا فسخت الخطوبة . واذا ما حدث شيء من هذا القبيل ، فهذا يعنى معارضة أمر الامبراطورة ، وعندها تتحمل أسرة الفتاة وأسرتها المسؤولية . ومع أن الناس حاولوا تهدئة روعها بتوضيحهم أنه لن تكون هناك أية صعوبة بخصوص الغاء الخطوبة بناء على أوامر الامبراطورة الأرملة ، الا أن جدتي لم يهدأ لها روع وعادت الى ارتباكها العقلي .

وبعد ست سنوات تفاقم مرضها مرة أخرى عندما جاءها عضو كبير فى مجلس البلاط بمرسوم يأمر بان أرسل أنا الى القصر . فقد نشأت منذ نعومة اظفاري تحت رعايتها وكانت تحبني حبا جما . ووفقا لما قالته مربيتي ، كان من عادتها أن تنهض مرة او مرتين كل ليلة لتراني ، ولم تكن تلبس حذاءها مخافة ان يزعجني صوت احتكاكه بالخشب الذى كسيت به ارضية الغرفة . وبرعايتها لي على هذا النحو أكثر من سنتين أغمى عليها لدى سماعها

أن تسى شي ستأخذني الى القصر . وظلت بقية حياتها عرضة لنوبات شديدة من الخبل . وقد ماتت عام ١٩٢٥ وهى فى الثامنة والخمسين .

بعد أن فقد الأمير تشون الثانى تساى فنغ والده وهو فى السابعة من عمره أشرفت على تنشئته السيدتان العجوزان وفقا للتعليمات للتى تركها الأمير تشون الأول ، وعاش حياة نبيل تقليدية . وعندما أصبح أميرا وصيا كان له دخل هائل ، وأدارت أمه شؤون بيته ، وكان هناك مكتب خاص للعناية بممتلكاته واكرام زواره ، وأصبح لديه حشد كبير من الحراس والخصيان والخدم للقيام على خدمته ، ناهيك عن جهاز من الأتباع للمشورة والتسلية . وبذلك لم يكن ليقلق على شؤون الأسرة ، ولم تكن لديه حاجة الى أية معرفة مفيدة . وكان له احتكاك قليل بالعالم الخارجى ، ولم يعش حياة اجتماعية اذا استثنينا تبادل الزيارات الرسمية .

وكان لأبي زوجتان، أنجبتا له أربعة أبناء وسبع بنات لم يبق منهم اليوم الا اثنان . وقد مات أبي عام ١٩٥١ وأمي عام ١٩٢١ .

كان أبـي وامي نموذجين مختلفين تمام الاختلاف . كان يقال أن نساء المانشو هن على الغالب أقدر من أزواجهن ، وهذا يمكن أن يكون صحيحا . فزوجتي وأمي كانتا أكثر معرفة منى ومن أبي بكثير ، خصوصا فى الحياة المنزلية والتمتع بها . والتفسير الوحيد لذلك هو ان نساء المانشوريا اللواتى استطعن تمشية هذه الحياة وحظين بالاحترام من رجالهن ، هن جميعا قد اتيحت لهن فرصة اختيارهن للخدمة فى القصر وتحولهن الى زوجات امبراطوريات ، ولكن رأيى الخاص هو انه بسبب كسل الرجال وانشغالهم بالعمل الرسمى وقعت ادارة البيت والشؤون المالية على كواهلهن ، وهذا ما جعل النساء بالطبع يصبحن أكثر قدرة الى حد ما . وكانت أمي أثيرة فى بيت أمها ، وقد قالت تسي شي عنها ذات مرة : " تلك الفتاة لا تخاف حتى مني . " وكان سخاؤها الزائد مبعث صداع كبير لوالدي وجدتي ، ولكن لم

يكن في وسعهما ان يفعلا شيئا ازاء ذلك . وكان لوالدي ، باستثناء ايجار أراضيه وراتبه عن الامارة و" مكافأة عدم الفساد " التى كانت تدفع للموظفين لاغنائهم عن الرشوة ، دخل يبلغ ٥٠ ألف تايل من الفضة سنويا كان يدفع كاملا على الدوام حتى فى عهد الجمهورية ، ولكنه لم يكن يمضى وقت طويل على تسلم أمي له حتى تنفقه كله . وفيما بعد جرب والدي جميع الحلول الممكنة بما فى ذلك ، اعطاؤها حصة ثابتة ، وكان يهم احيانا بتحطيم الزهريات وغيرها من الأوانى الخزفية ليظهر لها غضبه وتصميمه . ولما لم يحتمل فقدان كل هذه النفائس ، فقد استبدل بها أوانى من البرونز والرصاص غير قابلة للكسر . ولم ينفع معها كل ذلك واستمروالدي يدفع لها المزيد من الاموال حتى تفى بمصروفاتها . ولقد أنفقت الكثير الكثير حتى أن جدتي كانت تبكى وتتنهد ألما لرؤية الفواتير التى يرسلها مكتب المحاسبة ، ولم يكن أمام والدي من خيار الا ان يطلب من قهرمانه أن يبيع المزيد من التحف والأراضى .

كان من عادة أمي ان تبيع على نحو متكتم المجوهرات التى جلبتها معها عند زواجها ، واكتشفت أنا فيما بعد أنها قد أنفقت الاموال سرا على النشاطات السياسية فضلا عن بذخها اليومى . ولكن الاموال التى أنفقتها هى وغيرها من الزوجات الامبراطوريات فى محاولة لتحقيق أحلامهن باستعادة سلطاتهن قد عادت جميعها الى جيوب الخصيان وغيرهم .

لم يكن أخوتي واخواتي فى طفولتهم يخشون والدي وجدتي مطلقا ، ولكنهم كانوا مرعوبين من أمي . وبالطبع كان الخدم أشد ذعرا منهم . وذات يوم جاء والدي الى البيت ليجد أن الأبواب والنوافذ لم تغلق بعد ، فسأل خصيا عن السبب ، فأجابه الخصى بأنه لا حاجة للعجلة مادامت السيدة لم تعد بعد . فخرج أبي عن طوره وعاقبه بأن جعله يركع على الأرض . وقالت احدى الخادمات للخصى الراكع : " لوكان السيد حاضرا ، لظللت تضرب الى أن يسود جلدك ويزرق . " وقد عنت بكلمة " السيد " أمي التى أحبت ،

شأنها شأن تسى شى ، أن يشار اليها بلفظ " السيد " للمذكر .
ذهبت الى داخل القصر عندما كنت فى الثالثة من عمري تقريبا ، ولم أقابل أمي وجدتي ثانية الا بعد أن أصبحت فى العاشرة ، حيث استدعيتا الى القصر . وعندما قابلتهما شعرت بأننى غريب عنهما تماما ، ولكنني مازلت أذكر أن عينى جدتى قد تسمرتا علي طوال الوقت وبدتا ملتمعتين بالدموع . وتركت أمي لدي انطباعا مختلفا ، فقد وجدتها مخيفة كما كانت من قبل . فكانت كلما رأتنى تقول بلهجة صارمة : " ينبغى لجلالتك أن تدرس باجتهاد مبادىء أسلافك الخلقية " ، أو " ينبغى لجلالتك ألا تكون جشعا . ان جسد جلالتك جسد مقدس ، ينبغى لجلالتك أن تستيقظ باكرا وتنام باكرا . . "
ومازلت أحمل ذلك الانطباع القاسى عنها كلما فكرت فيها اليوم . ويا له من فرق كبير فى الشخصية بين جدتى المنحدرة من أصل متواضع وأمي التى نشأت على أنها فى أسرة عريقة .

الفصل الثانى

طفولة

ارتقاء وتنازل

فى مساء ١٣ نوفمبر ١٩٠٨ ساد الاضطراب قصر الأمير تشون . فقد أغمى على جدتي قبل سماعها نهاية مرسوم الامبراطورة الأرملة الذى جلبه الأمير الوصي الجديد ، وانهمك الخصيان والخادمات فى صب الشاى المنعش واستدعاء الاطباء ، بينما كان فى الجانب الآخر من الغرفة صبى يبكى وبعض الكبار يحاول تهدئته . اما والدي الوصى فكان يتردد بين غرفة واخرى مستضيفا الموظف الكبير فى مجلس البلاط الذى جاء بالمرسوم ومن رافقه من الخصيان ، مصدرا أوامره بالباس الصبى دون التفات الى ما جرى للسيدة العجوز . ثم يدعى الى رؤيتها فينسى ان هذا الموظف الكبير فى مجلس البلاط والخصيان ينتظرون ليأخذوا أمبراطور المستقبل الى داخل القصر . وخلال ذلك الاضطراب استعادت السيدة العجوز وعيها ، ثم ساعدوها على الانتقال الى غرفة داخلية لتستريح ، وكان امبراطور المستقبل فى الغرفة الأخرى ما يزال "يقاوم المرسوم" صارخا وضاربا الخصيان الذين كانوا يحاولون حمله وكان عليهم ان يتكلفوا الابتسام فيما هم ينتظرون الموظف الكبير فى مجلس البلاط ليخبرهم بما سيفعلونه ، بينما كان هذا الموظف نفسه ينتظر فى يأس قدوم الأمير الوصى ليعالج الوضع . ولكن كل ما استطاع الوصى فعله هو هز رأسه . .

وفيما بعد وصف لي بعض أفراد الأسرة الكبار ذلك المشهد ، ولكنه اختفى من ذاكرتى منذ أمد طويل . فقد قالوا ان الاضطراب قد انتهى حين أعطتنى مرضعتى الثدى فتوقف بذلك صراخى . وتصرفها هذا نبه والدي وعضو مجلس البلاط من غفلتهما ، فقررا ان تأخذنى المربية الى القصر قبل تسليمى

الى الخصيان الذين سيحملونني لرؤية تسى شي :

وماتزال ذاكرتي عن مقابلتي لتسى شي غائمة . ولو أنها تركت فى نفسي انطباعا عميقا . أذكر أنني وجدت نفسي فجأة محاطا بالغرباء ، وكان تتدلى أمامي ستارة رمادية اللون استطعت أن أرى من خلالها وجها هزيلا ومرعبا فى بشاعته ، وكانت هذه هى تسى شي . وقيل انني انفجرت البكاء لدى رؤيتها وارتجفت على نحو يتعذر ضبطه . فطلبت تسى شي من أحدهم اعطائي عودا محملا بالزعرور المغلف بالسكر ، ولكننى رميته الى الأرض وصحت باكيا : " أريد ماما ، أريد ماما " ، وهذا ما أثار الاستياء الشديد فى نفس تسى شي . فقالت : " يا له من طفل سيء الطبع ! خذوه ليلعب . "

وبعد يومين من دخولي القصر ماتت تسى شي ، وفى ٢ ديسمبر أقيم " الاحتفال الكبير باجلاسي على العرش " ، ذلك الاحتفال الذى أفسدته بصراخي .

لقد أقيم الاحتفال الكبير فى قاعة الوئام الأعظم (تاى خه ديان) . وقبل أن يبدأ كان علي أن أتلقى انحناءات الاحترام من قادة حرس البلاط فى قاعة الوئام الأوسط (تشونغ خه ديان) ، ثم أتلقى انحناءات الاحترام من كبار الضباط والقواد . ووجدت هذا كله مملا ومتعبا . وكان هذا اليوم فوق ذلك باردا جدا ، لذلك عندما حملت الى قاعة الوئام الأعظم لأرفع على العرش العالى والضخم لم أستطع الاحتمال طويلا . فطلب منى والدي الذى كان راكعا تحت العرش وهو يسندني ، الا أتململ ، ولكنني قاومت وصرخت : " لا أحب هذا المكان ، أريد أن أذهب الى البيت . لا أحب هذا المكان ، أريد ان أذهب الى البيت . " فأصيب والدي بخيبة أمل شديدة حتى انه أخذ يتصبب عرقا . وفيما استمر رجال القصر يركعون لي استمرت صيحاتي فى الارتفاع . وحاول والدي تهدئتي بقوله : " لا تصرخ ، لا تصرخ . سينتهى ذلك حالا ، سينتهى ذلك حالا . "

وعندما انتهى الاحتفال سأل رجال القصر بعضهم بعضا خلسة : " كيف يقول ' سينتهى ذلك حالا ؟ ' ماذا يعنى قوله ' أريد ان أذهب الى البيت ؟ ' " تمت هذه المناقشات كلها فى جو كئيب كأن تلك الكلمات كانت نذير شؤم . وقالت بعض الكتب ان تلك الكلمات كانت تنبىء بأن أسرة تشينغ " ستنتهى " حقا فى ظرف ثلاث سنوات وأن الصبى الذى أراد أن " يذهب الى البيت " ذهب الى البيت حقا ، وادعت هذه الكتب أيضا أن رجال القصر كان لديهم شعور مسبق بذلك .

ولكن الذى أوحى لهم بنذر الشؤم حقا كان بالطبع أكثر بكثير من تلك الجملتين العرضيتين . فتسجيلات ذلك الوقت تبين أن العاصفة الثائرة المعادية للمانشويين والتى اشتدت خطورتها فى السنوات الاخيرة من حكم قوانغ شيوى ، أصبحت أكثر تهديدا خلال حكمي . ان السلطة المتزايدة لدى يوان شى كاى تشكل صداعا آخر لكبار الموظفين والأمراء ، وأفراد الأسرة المالكة الذين رأوا أنفسهم فى مجابهة خصمين : يوان شى كاى فى الداخل والثوار فى الخارج ، واعتبروا عهدي من أشد العهود شؤما فى التاريخ .

بعد القيام بعرض بائس كامبراطور حكم ثلاث سنين ، قمت بعرض بائس للتنازل . وأحد أحداث تلك الأيام الماضية ما يزال ماثلا فى ذاكرتي بكل وضوح : كانت الامبراطورة الأرملة لونغ يوى جالسة على سرير كانغ (٧) فى غرفة جانبية داخل قاعة تهذيب النفوس (يانغ شين ديان) تمسح عينيها بمنديل بينما ركع عجوز بدين على سجادة حمراء أمامها ، والدموع تنهمر على وجهه . وكنت أنا جالسا الى يمين الامبراطورة الأرملة شاعرا بشىء من الارتباك ومتسائلا عن سبب بكاء هذين الكهلين . ولم يكن فى الغرفة أحد غيرنا نحن الثلاثة ، وكانت الغرفة هادئة جدا ، وكان الرجل السمين يتنشق بصوت عال فيما راح يتكلم ، فلم أستطع فهم ما كان يقول . وعلمت فيما بعد أن هذا الرجل السمين كان يوان شي كاى ، وتلك كانت المرة الوحيدة التى

رأيته فيها وآخر لقاء له مع الامبراطورة الأرملة . واذا كان ما نمى الي صحيحا فتلك كانت المناسبة التي قدم فيها يوان مباشرة طلب التنازل عن العرش . وبعد هذا اللقاء صار يوان شى كاى يتذرع بمحاولة اغتيال جرت عليه لعدم دخول البلاط ثانية .

لقيت انتفاضة وو تشانغ استجابة واسعة فى كافة أنحاء البلاد ، وعندما أثبت القائد المانشوى الأعلى للقوات الامبراطورية عجزه عن توجيه جيش بييانغ ضد القوات الجمهورية لم يبق أمام الأمير الوصى من خيار الا اللجوء الى يوان شى كاى . ويوان هذا ، الذى عرف كيف ينتظر فرصته وظل يحاط علما على الدوام بالتطورات داخل العاصمة ، ظل يرفض العروض بالعودة الى ان عرضت عليه رئاسة الوزارة ومنصب القائد العسكرى الأعلى . وعندها فقط قبل المرسوم الامبراطورى وأمر جيش بييانغ بالزحف على الجمهوريين . وبعد استيلائـه على هانيانغ أوقف جنوده هناك وعاد الى بكين لاجراء مقابلة مع الأمير الوصى والامبراطورة الأرملة لونغ يوى .

ولم يعـد يوان شى كاى هو ما كان عليه سابقا . فبالاضافة الى سلطته السياسية والعسكرية كسب أشياء أكثر قيمة : فبعض الأجانب ، من بينهم المفوض البريطانى فى بكين ، كانوا مهتمين به . وكسب الى جانبه أيضا أصدقاء من الجمهوريين ، من بينهم وانغ جينغ وى (٨) الذى أسر بعد محاولته المخفقة لاغتيال الامير الوصى ، ولكن أنقذت حياته بتوسط عدد من اليابانيين الذين أوضحوا أن اليابان لن ترتاح اذا هو اعدم وأطلق سراح وانغ من السجن بعد انتفاضة ووتشانغ وبعد ذلك اصبح وسيطا بين يوان شى كاى وبعض القادة الجمهوريين ، وظل يحيطه علما كذلك بالتطورات داخل المعسكر الثورى ، وقد بدأ عدد من الملكيين الدستوريين يشعرون بالود التام تجاه يوان .

وبفضل أصدقائه الجدد والقدامى وقدرته على التاون أصبح مركز يوان أقوى من السابق . وفى غضون شهر من عودته الى بكين استخدم الأمير تشينغ

لطرد الأمير الوصى . ثم تولى بعد ذلك الاشراف على خزينة القصر التابعة للأمبراطورة الأرملة لونغ يوى بحجة الحاجة اليها لتغطية النفقات العسكرية ، وفى الوقت نفسه جعل أفراد الأسرة المالكة والنبلاء يسلمون مدخراتهم الى الجيش . ومع قبضه على السلطة السياسية والعسكرية والمالية استمر فى التداول مع المبعوثين الصينيين فى روسيا وغيرها من البلدان لكى يبرقوا الى بلاط تشينغ طالبين تنازل الامبراطور من العرش ، وقدم فى نفس الوقت مذكرة سرية الى الامبراطورة الأرملة باسم مجلس الوزراء بأكمله تقول ان الجمهورية هى المخرج الوحيد . ولابد أنه قدم تلك المذكرة فى المناسبة التى رأيته فيها ، وهذا يفسر لماذا كانت لونغ يوى تبكى بكاء شديدا لما قالته المذكرة من أنه لم يكن هناك أمل أمام الأسرة المالكة حتى فى الهروب وان التأخر فى التنازل يمكن أن يؤدى الى مصير مشابه للمصير الذى لقيه لويس السادس عشر وأسرته فى الثورة الفرنسية .

دعت الامبراطورة الأرملة التى استبد بها الرعب الى اجتماع طارىء للمجلس الامبراطورى لتسمع آراء أفراد الأسرة المالكة . وعندما أبلغوا بالمذكرة السرية وبما قاله يوان شى كاى ذعروا ذعرا شديدا ، ليس من الاشارة الى لويس السادس عشر ، بل من التغير المفاجئ فى ولاء يوان .

لقد عارض يوان شى كاى فى البداية اقامة جمهورية ، وأيد الملكية الدستورية فى المفاوضات مع الجانب الجمهورى . وفيما بعد اتفق جانب أسرة تشينغ والجانب الجمهورى مبدئيا على أن مسألة تركيب الدولة يجب أن يقررها مجلس وطنى موقت ، ولكن العراقيل من جانب أسرة تشينغ حالت دون تطبيق الاتفاقية . ومع بقاء هذه المسائل دون حل ، أنشأ الجمهوريون حكومة موقتة فى نانجينغ وانتخبوا صون يات صن رئيسا مؤقتا . وهذا دفع يوان شى كاى الى سحب اعتماد وفده فى المفاوضات والتفاوض مباشرة مع المندوبين الجمهوريين عن طريق اللاسلكى . أما اقتراح مجلس وزراء يوان الذى رأى

أن من واجب الأسرة المالكة أن تتنازل عن العرش فى وقت لم يقرر فيه بعد تركيب الدولة ، فقد جاء بالطبع صدمة عنيفة للبيت الملكى .

وكان يوان شى كاى قد حصل على دعم أجنبى وأصبح لديه اصدقاء كثيرون من الجانب الجمهورى ، مما جعله قادرا على التأثير فى نشاطات الجيش الجمهورى . وكان بعض المنخرطين فى الثورة من الملكيين الدستوريين يرون فيه أملهـــم . وقـــد أثروا بدورهم على بعض الجمهوريين الخلص ولكن البسطاء . ومن هنا قرر الجانب الجمهورى انه اذا اتفق يوان معه فان جمهورية يمكن ان تقام بسرعة ويكون يوان رئيسها الاول . وهذا ما اراده يوان بالطبع . وقد عرف فوق ذلك أن الأمير الوصى السابق كان محاطا بمجموعة معادية له عداء مستحكما وقد عزمت على قلعه سواء نجح فى الحاق الهزيمة بالثوريين أم لم ينجح . ولذلك قرر يوان قبول عرض الجمهوريين ، واضعا فى اعتباره كيف سيتعامل مع بيت تشينغ ، لا سيما بعد أن جعلت الأنباء المفاجئة عن انتخاب صون يات صن رئيسا موقتا فى نانجينغ حل المسألة أكثر الحاحا . واذا تم انشاء مجلس وطنى للجمهوريين فى الجنوب فهو غير عاجز عن التخلص منه . ولذلك قرر أن يضغط على البيت الامبراطورى بترهيب الامبراطورة الأرملة لونغ يوى وترغيبها فى نفس الوقت ببنود المعاملة التفضيلية . وبهذه الطريقة كان يأمل أن تعلن التنازل اختياريا وتمنحه السلطات الكاملة لتأسيس حكومة موقتة . وكان هذا هو التفسير الصحيح لتغير يوان شى كاى المفاجىء .

وعلى الرغم من أنه خان بيت تشينغ الا أن المرء لم يكن بوسعه أبدا أن يحزر ذلك من ملامح وجهه الباكى فى لقائه الخاص مع الامبراطورة الأرملة لونغ يوى . ولكن أفراد البيت الملكى الذين وثقوا به من قبل قد عرفوا الآن حقيقة موقفه .

وكان بعض الأمراء والنبلاء المانشويين والمغول الذين كانوا دائما ضد يوان ميالين الى خوض قتال مستميت والى الانتقام من مذبحة المانشويين

والمغول التى وقعت فى بعض أنحاء البلاد . وعندما دعت الامبراطورة الأرملة الى الاجتماع الأول للمجلس الامبراطورى كان الجو مشحونا بالغضب . وهوجم هجوما عنيفا اقتراح من حليف يوان شى كاى القديم الأمير تشينغ وآخرين بوجوب موافقة البلاط على التنازل ، ولذا لم يأت الأمير تشينغ الى البلاط فى اليوم التالى ، بينما غير نصيره الرئيسى فى المجلس نبرته ، وأعلن رسميا أنه وافق على فكرة الملكية الدستورية .

ولم يستمر هذا الوضع طويلا . ومن التسجيلات المتعددة يمكن تكوين فكرة تقريبية عن احدى الجلسات على النحو التالى : لدى تأكد الامبراطورة الأرملة من أن جميع الحاضرين مؤيدون للملكية ومعارضون للجمهورية مضت تقول ان الأمير تشينغ قد أخبرها بأن القوات الامبراطورية عاجزة عن الحاق الهزيمة بالجمهوريين وأن الأجانب سيأتون لمساعدة حكومة تشينغ بعد أن يستقيل الأمير الوصى .

فاعترض بو وى ، قائد مجموعة النبلاء المعارضين ليوان ، بأن هذا كذب صريح لأن الأمير الوصى قد استقال ، والأجانب لم يفعلوا شيئا لمساعدتهم . وقال هو وآخرون حينذاك ان المتمردين ليسوا بالذين يخشى جانبهم . ثم أبلغوا الامبراطورة الأرملة بأن فنغ قوه تشانغ ، جنرال من جيش بييانغ قد أكد أن الاعتمادات العسكرية للأشهر الثلاثة تكفى لالحاق الهزيمة بهم ، ولكن يوان شى كاى كان ، وفقا لما ذكرته الامبراطورة الأرملة ، قد تولى الاشراف على خزينة القصر ، فلذلك لم يكن لديها أموال . ومضت تقول : " وبالاضافة الى ذلك ، ماذا يحدث لو خسرنا ؟ من المؤكد أننا لن نكون قادرين على اللجوء الى بنود المعاملة التفضيلية ؟ "

وقال بو وى : " ان هذه البنود ليست الا خدعة . " وعندما سألت الامبراطورة الأرملة عن حالة الجيش لم تحصل الا على جواب ملتبس . وكانت اجتماعات المجلس الامبراطورى تتوالى بدون أية نتيجة ، فأخذ

مؤيدو القتال يقلون تدريجيا . وحينذاك أرسل دوان تشي روى ، جنرال آخر من جيش بييانغ ، برقية يطالب فيها بتنازل الامبراطور . وغادر قائدان من مؤيدي القتال داخل الأسرة المالكة مدينة بكين ، هرع أحدهما الى تشينغداو التي يحتلها الألمان والآخر الى ليوشون التي في يد اليابانيين ، فكانا ينويان السفر الى ألمانيا واليابان ، لكنهما منعا من ذلك اذ كان من الواضح ان القوى الأجنبية كانت مستعدة حينذاك للاعتراف بحكومة يوان شي كاي .

وفي ٢ فبراير ١٩١٢ أعلنت الامبراطورة الأرملة لونغ يوي تنازلي أنا . ولجأ بعض أفراد الأسرة المالكة والنبلاء الى حي المفوضيات الأجنبية ، بينما أخذ الامير تشينغ أسرته ونفائسه الى منطقة الامتيازات الاجنبية في تيانجين . أما والدي الذي لم يقل أية كلمة خلال اجتماعات المجلس الامبراطوري ، فقد عاد الى البيت لكي " يلازم أولاده " . وكان يوان شي كاي في تلك الأثناء يؤسس حكومة جمهورية موقتة وفقا لأمر الامبراطورة الأرملة ، ويعمل في الوقت نفسه على عقد اتفاق مع الثوريين وقد تحول بذلك من رئيس مجلس الوزراء الامبراطورية تشينغ العظمى الى رئيس موقت لجمهورية الصين . وأصبحت أنا جار الرئيس حيث بدأت حياتي في " البلاط الصغير " وفقا لبنود المعاملة التفضيلية الممنوحة لبيت تشينغ .

تتضمن هذه البنود التي سميت "بنود المعاملة التفضيلية الممنوحة لامبراطور تشينغ العظيم بعد تنازله " ، مايلي :

١- بعد تنازل امبراطور تشينغ العظيم يظل لقب العظمة محفوظا ولا يلغى . وجمهورية الصين ستعامله بالاحترام الذي يستحقه عاهل أجنبي .

٢- بعد تنازل امبراطور تشينغ العظيم سيتسلم تخصيصا سنويا يبلغ أربعة ملايين تايل من الفضة . او أربعة ملايين يوان بعد اصدار العملة الجديدة . وهذا المبلغ ستدفعه جمهورية الصين .

٣- بعد تنازل امبراطور تشينغ العظيم يمكنه ان يقيم موقتا في القصر

الامبراطورى ، وبعد ذلك سينتقل الى القصر الصيفى . ويمكنه ان يحتفظ بحرسه المعتاد .

٤– بعد تنازل امبراطور تشينغ العظيم ستصان الى الأبد القرابين فى معابد أسلافه والقبور الامبراطورية . وجمهورية الصين ستقدم حرسا لضمان حمايتها .

٥– الضريح غير المكتمل للامبراطور قوانغ شيوى (ده تسونغ) سيكمل بناؤه وفقا للخريطة الأصلية . والاحتفالات الجنائزية ستتم وفقا للمراسم القديمة . والنفقات الفعلية ستدفعها جمهورية الصين .

٦– جميع العاملين فى القصر على اختلاف درجاتهم يمكن ان يستمروا فى عملهم كالسابق ، بشرط عدم استخدام أى خصى آخر .

٧– بعد تنازل امبراطور تشينغ العظيم تتلقى ممتلكاته الشخصية القائمة حماية خاصة من جمهورية الصين .

٨– حرس القصر الحالى سيدمج فى جيش جمهورية الصين ، وعدد افراده ورواتبه ستستمر كالسابق .

العيش امبراطورا

نصت " بنود المعاملة التفضيلية " على ان بوسعي الاقامة موقتا فى القصر الامبراطورى دون تحديد مدة معينة . وباستثناء القاعات الواسعة الثلاث التى سلمت الى الجمهورية ظلت بقية المدينة المحرمة تابعة للقصر الامبراطورى . وفى هذا العالم الضئيل تعين علي ان أمضى أسخف طفولة فى الدنيا الى ان طردت منه على يد الجيش الوطنى عام ١٩٢٤ . أدعوها أسخف طفولة لأننى فى الوقت الذى سميت فيه الصين جمهورية ودخلت البشرية القرن العشرين كنت ما أزال أعيش حياة امبراطور ، متنفسا غبار القرن التاسع عشر .

كلما تذكرت طفولتى غشى عقلي ضباب أصفر . فالآجر المزجج كان

أصفر ، ومحفتي كانت صفراء ، ومفارش كرسى صفراء ، وبطائن قبعاتي وملابسي صفراء والطوق الذى حول خصري كان أصفر ، والأطباق والطاسات التى أكلت فيها وشربت ، الغلاف المبطن لباطية عصيدة الأرز ، واللفائف التى تلف بها كتبي ، وستائر النوافذ ، ولجام حصاني . . . كل ذلك كان أصفر . وكان هذا اللون المسمى " أصفر فاقع " ، والذى استخدمه البيت الامبراطورى جيلا بعد جيل قد جعلنى أشعر منذ سنواتى الأولى بأنني فريد فى العالم ، ولي طبيعة " سماوية " تختلف عن طبيعة أى انسان آخر .

وعندما أصبحت فى العاشرة من عمري بدأت جدتي وأمي تأتيان لزيارتي بناء على أوامر من الزوجتين العليتين (٩) ومعهما أخي بو جيه وأختي الأولى ليلعبا معي بضعة أيام . تمت الزيارة الأولى بشكل محزن : أنا وجدتي على سرير الكانغ وهى تراقبنى وأنا ألعب الدومينو ، بينما وقف أخي وأختي أسفل منا وقفة منتظمة يحدقان الي بعيون لا تطرف كأنهما من خدم القصر . وفيما بعد خطر لي أن آخذهما الى قاعة تهذيب النفوس داخل القصر ، حيث سألت بو جيه :

— أية ألعاب تلعبها فى البيت ؟

فقال أخي الذى يصغرني بسنة واحدة بطريقة تنم عن الاحترام الشديد :

— بو جيه يستطيع ان يلعب الغميضا .

فقلت متحمسا :

— اذن أنت تلعب الغميضا أيضا ؟ انها لعبة جيدة سارة .

وكنت قد لعبتها مع الخصيان ، ولكنني لم ألعبها أبدا مع صبيان أصغر مني وهكذا بدأنا نلعب الغميضا . وفى حماسة اللعبة نسى أخي وأختي ضوابطهما . وأسدلنا الستائر بهدوء لنجعل الغرفة شديدة الظلمة . وكانت أختي التى تصغرني بسنتين مبتهجة ومذعورة فى آن واحد ، وفيما مضيت أنا وأخي فى اخافتها ضحكنا وعربدنا كثيرا . وعندما أحسسنا بالتعب تسلقنا سرير الكانغ لنستريح

عليه ، وطلبت منهما التفكير فى لعبة أخرى جديدة . فمكث بو جيه لحظة يفكر ، ثم بدأ يحدق الي فى صمت وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة باهتة .

ـــ على ماذا تبتسم ؟

لكنه ظل يبتسم . فحثثته على الاجابة وقد عيل صبرى :

ـــ قل لي ! قل لي !

وظننت انه لا بد ان يكون قد اهتدى الى لعبة جديدة . ولكنه قال لشدة دهشتي :

ـــ اننى فكرت ، آوه ، بو جيه فكر فى ان جلالتكم ستكون مختلفا عن الناس العاديين . فالأباطرة على المسرح لهم لحى طويلة . .

وتظاهر وهو يتكلم بأنه يمسد لحيته . وكانت هذه الملاحظة هى جوابه . وحدث أن رفع يده فلاحظت أن بطانة ردنيه كانت ذات لون مألوف جدا . فامتقع وجهي :

ـــ يا بو جيه ! أمسموح لك بلبس هذا اللون .

ـــ ولكن . . و . . ولكنه ليس بلون المشمش ؟

ـــ يا للسخافة ! انه الأصفر الفاقع الامبراطورى ؟

ـــ نعم ، يا سيدي . .

ووقف بو جيه بعيدا وذراعاه مسبلتان على جانبيه باحترام وراحت أختى تقف الى جانبه مذعورة تكاد تبكى . واردفت قائلا :

ـــ انه الاصفر الفاقع . لا يحق لك ان تلبسه !

ـــ نعم ، يا سيدى .

ومع عبارة " نعم ، يا سيدى " عاد أخي ليكون تابعي : لقد اندثر صوت " نعم ، يا سيدى " منذ أمد طويل ، وانه ليبدو مضحكا جدا ان يفكر المرء فى هذه المناداة اليوم . ولكننى تعودتها منذ طفولتى المبكرة ، واذا لم يستخدم الناس تلك المناداة فى الرد علي فانني لا أحتمل ذلك . ونفس الشيء بالنسبة

للركوع والسجود . فقد تعودت منذ نعومة أظفاري ان أرى الناس يسجدون لي ، ولا سيما الناس الذين يكبرونني بأكثر من عشرة أضعاف ، وكان من بينهم كبار الموظفين السابقين فى أسرة تشينغ وكبار العشيرة واناس فى ثياب البلاط الخاص بأسرة تشينغ ورجال الجمهورية فى الزى الغربى .

وشيء آخر غريب ، بدا طبيعيا تماما فى ذلك الوقت ، هو الموكب اليومى :

فكل مرة كنت أذهب فيها الى حجرة الدرس ، او أزور الزوجتين العليتين لتقديم احتراماتى ، او أخرج للتنزه فى الحديقة كانت تصحبنى حاشية كبيرة . وكل رحلة قمت بها الى القصر الصيفى كلفت آلاف الدراهم الفضية الكبيرة ، حيث يطلب من البوليس الجمهورى الاصطفاف على طول الطرقات لحمايتى ، وكان يرافقنى من عشرات السيارات .

وكلما خرجت للتنزه فى الحديقة لابد ان ينظم موكب . ينطلق فى المقدمة خصى من المكتب الادارى ، لم تكن وظيفته الا وظيفة بوق السيارة : فكان يمشى على بعد عشرين او ثلاثين ياردة امام الموكب مرددا الصوت التالى " تشير . . تشير . . " تحذيرا لكل واحد يمكن ان يكون فى ذلك الجوار كى يبتعد فى الحال . ثم يليه خصيان رئيسيان يسيران مثل الاوز على كل جانب من جانبى الطريق ، وخلفهما بعشر خطوات يمشى عمدة الموكب — الامبراطورة الأرملة أو أنا . واذا كنت محمولا فى محفة فسيكون ماشيا الى جانبي اثنان من الخصيان الصغار لتلبية طلباتي فى لحظتها ، واذا كنت ماشيا يسنداني . ومن ورائى خصى يحمل مظلة حرير واسعة ، تتبعه مجموعة كبيرة من الخصيان بعضهم خالى اليدين وآخرون يحملون أشياء مختلفة : كرسى لاستراحتى وغيارات من الثياب ، ومظلات للمطر وأخرى للشمس . وبعد هؤلاء الخصيان المقربين للامبراطور يأتى خصيان من مكتب الشاى الامبراطورى يحملون علبا فيها مختلف أنواع الكعك والمأكولات الشهية وطبعا أباريق ملأى بالماء الساخن والشاى ، ثم يتبعون بخصيان الصيدلية الامبراطورية يحملون حقائب

الأدوية ومواد العلاج الاولى . وهذه الأدوية التي تحمل دائما تضم جرعات معدة من السعادى ، وأزهار الأقحوان ، وجذور القصب ، وأوراق الخيزران ولحاؤه . وفى الصيف كان هناك على الدوام منقوع حب البطن للغازات وست حبات تناسق لحفظ توازن الوسط ، وزنجفر طارد للحرارة مغطى بالذهب ، وحبات عشبة الشذا وحبات نافعة لكل شيء ودواء للمغص ومسحوق ضد الأوبئة . وعلى مدى الفصول الأربعة يكون هناك شراب الآلهة الثلاثة الهاضم والخ . وفى نهاية الموكب يأتي الخصيان الذين يحملون القعادات والمباول . واذا كنت ماشيا فتكون فى المؤخرة محفة مفتوحة او مغلقة بحسب الفصل . وهذا الموكب المتعدد الألوان المتكون من عشرات الناس يواصل تقدمه فى هدوء تام وانتظام .

ولكنني كنت أثير الفوضى فيه غالبا . فعندما كنت صغيرا كنت أحب ان أجرى هنا وهناك ينتابنى شعور بالفرح ، تماما كما يفعل أى طفل ، ويهرع الجميع خلفي لاهثين فيتحول الموكب الى فوضى . وعندما كبرت قليلا وتعلمت كيف أصدر الأوامر أخذت أطلب منهم ان يتوقفوا وينتظرونى كلما أردت ان أعدو هنا وهناك . وباستثناء الخصيان المقربين الذين يكونون معي ، يقف الجميع فى سكون بما فى أيديهم من أحمال . وبعد ان أنتهى من الجرى كانوا ينتظمون ثانية خلفي . وعندما تعلمت ركوب الدراجة أمرت بنزع جميع العتبات الخشبية المرتفعة داخل القصر بحيث استطيع ان أركب دراجتي دون أى عائق ولم يعد الموكب قادرا على اللحاق بي ، ولذلك تعطل موقتا . ولكن عندما كنت أذهب لأقدم احتراماتي الى الزوجتين العليتين او الى حجرة الدرس ظل من المفروض ان ترافقنى بعض الحاشية ، ومن دون ذلك كنت أشعر ببعض الغرابة . وعندما سمعت الناس يروون قصة امبراطور أسرة مينغ الذى لم يبق معه فى النهاية الا خصى واحد شعرت بعدم ارتياح شديد .

اما نموذج التباهى المفرط الذى استنفد معظم الجهد والمال والمواد

فهو وجبات الطعام . كانت هناك مصطلحات خاصة بأكل الامبراطور ، وكان من المحظور تماما الخطأ فى استخدامها . فالطعام لم يكن يدعى " طعام " بل " يوى شان " اى الطعام الامبراطورى ، والأكل كان يدعى " جين يوى شان " اى تناول الطعام الامبراطورى ، وتقديم الوجبات كان يدعى " تشوان شان " اى استدعاء الطعام الامبراطورى ، والمطبخ " يوى شان فانغ " اى غرفة الطبخ الامبراطورى . وعندما كان يحين موعد الأكل (أوقات الوجبات لم تكن محددة بل كانت حسب شعور الامبراطور بالرغبة فى الأكل) كنت أصدر الأمر قائلا " تشوان شان ! " فيكرر خصيان الحضرة جملة " تشوان شان " على مسامع الخصيان الواقفين فى القاعة الرئيسية للقصر الذى كنت أقيم فيه ، وهم بدورهم يبلغون نفس الجملة الى الخصيان الواقفين فى الخدمة خارج القاعة ، وأولئك بدورهم ينادون على خصيان " يوى شان فانغ " الواقفين فى الممر الغربى من المدينة المحرمة . وبذلك ينفذ أمري مباشرة الى المطابخ ، وقبل ان يتلاشى صداه يخرج من " يوى شان فانغ " موكب شبيه الى حد ما بالموكب الذى يحمل جهاز العروس يتكون من صف منتظم من عشرات الخصيان بملابس أنيقة يهرعون الى قصر تهذيب النفوس بسبع موائد ذات أحجام مختلفة وعشرات الصناديق من اللك الأحمر رسمت عليها تنانين ذهبية وعندما يصلون الى القاعة الرئيسية يسلمون احمالهم الى خصيان شبان يلبسون أردانا بيضاء ويضعون الوجبة فى غرفة شرقية من القصر .

وكان هناك عادة مائدتان للأطباق الرئيسية مع مائدة أخرى لأطباق الموقد (١٠) تقدم فى الشتاء ، وكانت هناك ثلاث موائد للكعك والأرز والعصيدة ، ومائدة أخرى صغيرة للخضار المملح . وجميع الآنية الخزفية كانت من الخزف الأصفر الامبراطورى الذى نقشت عليه التنانين والكلمات التالية " عمرا مديدا غير محدود " (١١) . وفى الشتاء كنت آكل من صحون فضية توضع فى طاسات خزفية ملأى بالماء الساخن . وكل صحن وطاسة

عليه قطعة من الفضة كأنها حرز ضد السم ، ولهذا السبب نفسه يذوق الطعام كله خصى قبل ان يقدم الى القاعة ، وهذا كان يدعى " تشانغ شان " . وبعد ان يذاق كل شيء ويمد على الموائد قبل ان آخذ مكانى ، يصيح خصى شاب " ارفعوا الأغطية " ، وهذه كانت اشارة الى أربعة او خمسة من الخصيان لرفع الأغطية الفضية عن جميع الصحون ووضعها فى صندوق كبير وحملها الى خارج القاعة . وعندها أبدأ أنا مرحلة " جين يوى شان " اى تناول طعامى الامبراطورى .

وماذا كان ذلك الطعام الذى يمد على " مساحة عشر أذرع " ؟ كان للامبراطورة الأرملة لونغ يوى حوالى مائة صحن رئيسى توضع على ستة موائد ، وهذا بذخ ورثته عن الامبراطورة الأرملة تسى شى . وكان لي حوالى ثلاثين صحنا ، ولكن هذه الصحون لم تكن الا لمجرد العرض . أما السبب فى ان الطعام كان يؤتى به الي حالما أصدر الأمر تقريبا فهو انه كان يعد قبل عدة ساعات او حتى قبل يوم بكامله ، وكان يحتفظ به ساخنا بوضعه فوق مواقد المطبخ . وقد عرف الطباخون منذ زمن قوانغ شيوى على الأقل ان الامبراطور لا يأكل هذا الطعام . كنت آكل الطعام الذى يرسل الي من لدن الامبراطورة الأرملة ، وبعد موتها من الزوجات العليات الاربع . وكان لها ولكل من الزوجات العليات مطابخ يديرها الطهاة ذوو المهارة العالية الذين يقدمون أكثر من عشرين طبقا لذيذا فى كل وجبة . هذا كان هو الطعام الذى يوضع أمامى ، أما ذلك الذى يعد فى المطابخ الامبراطورية فكان يوضع على مبعدة لأجل التباذخ .

وحتى تظهر الزوجات العليات مدى حبهن لي وعنايتهن بي كن يرسلن أيضا خصيا مسؤولا ليبلغهن بكيفية " تناول الطعام الامبراطورى " . وهذه أيضا كانت مجرد شكلية ، لأنى مهما كنت آكل كان الخصى يذهب اليهن ثم يركع أمامهن ويقول : " عبدكم يبلغ سادته : السيد الطويل العمر قد تناول طاسة من الأرز القديم (او الأرز الأبيض) ، وخبزا صينيا (او فطيرة

واحدة) وطاسة من العصيدة . واكل بشهية !

وفي عيد رأس السنة الصينية وغيره من الأعياد وفي أعياد ميلاد الزوجات العليات كان مطبخي يرسل مأدبة اليهن علامة على بري بهن . وهذا الطعام يمكن ان يوصف بأنه غال ومبهرج ولكن دون ان يكون جيدا ، او شهيا او طيب المذاق .

ووفقا للمدون في أحد أشهر السنة الثانية من عهدي استهلكت أنا والامبراطورة الأرملة لونغ يوى والزوجات العليات ٣٩٦٠ جين (١٢) من اللحم (أكثر من طنين) و٣٨٨ دجاجة وبطة ، كان نصيبي منها ٨١٠ جينات من اللحم و٢٤٠ دجاجة وبطة وكان عمري حين ذاك أربع سنوات . وبالاضافة الى ذلك كانت هناك حصة شهرية لاهل القصر الذين لا يحصى عددهم ممن يخدموننا : أعضاء مجلس البلاط ، الحرس الامبراطورى ، المعلمين الخصوصيين ، أكاديميي هانلين ، المصورين والناس الذين يرسمون الشكل الخارجي للشخصيات ، الخصيان ذوى المكانة ، عرافي سامان الذين كانوا يحضرون كل يوم للتضحية للأرواح ، وكثير غيرهم . وقد بلغ استهلاك لحم الخنزير لي وللامبراطورة الأرملة وللزوجات العليات ولهذه الحاشية الكبيرة ١٤٦٤٢ جينا قيمتها ٢٣٤٢ر٧٢ تايلا من الفضة . وعلى رأس ذلك الأطباق الاضافية التى كانت تقدم الينا كل يوم ، والتى كانت تكلف غالبا أضعاف المبلغ السابق . وفي نفس الشهر الذى سبق ذكره كان هناك ٣١٨٤٤ جينا من اللحم الاضافي ، و٨١٤ جينا من شحم الخنزير الاضافي ، و٤٧٨٦ دجاجة وبطة ، ناهيك عن السمك والاربيان (الجمبرى) والبيض . وجميع هذه المواد الاضافية كلفت ١١٦٤١ر٠٧ تايل من الفضة ، ومع المواد المتنوعة الأخرى التى تضاف الى النفقة الاجمالية يصل المبلغ الى ١٤٧٩٤ر١٩ تايل من الفضة . وواضح ان كل هذه النقود (عدا ما كان يختلس) كانت تبذر لاظهار عظمة الامبراطور . وهذا الرقم مع ذلك لا يشمل كلفة الكعك والفاكهة والحلويات والمشروبات التى كانت تبدد على الدوام .

وكما ان الطعام كان يطبخ بكميات هائلة ولا يؤكل كانت كمية كبيرة من الملابس تفصل ثم لا تلبس أبدا . لا أستطيع الآن ان أتذكر الكثير بهذا الصدد ، ولكنني أعرف انه بينما حددت الامبراطورة الأرملة والزوجات العليات لأنفسهن حصصا سنوية ثابتة ، لم تكن هناك حدود لحصة الامبراطور الذى كانت خياطة ثيابه الجديدة تستمر على مدار السنة . ولا أعرف بالضبط ما كان يفصل ، ولكن كل ما لبسته كان دائما جديدا . وامامي حساب عديم الميعاد فيما يلي " قائمة المواد التى استخدمت فعلا فى تفصيل ملابس جلالته المستخدمة بدءا من اليوم السادس من الشهر العاشر الى اليوم الخامس من الشهر الحادى عشر " ، ووفقا لهذه القائمة فصلت لي فى ذلك الشهر الثياب التالية : احدى عشرة سترة من الفرو ، وستة أثواب داخلية وخارجية من الفرو ، وصدريتان من الفرو ، وثلاثون صدرية وبنطالا مبطنة بالقطن . وباستثناء كلفة المواد الرئيسية وأجرة التفصيل وصلت فاتورة المواد الصغيرة مثل الحواشى والجيوب والأزرار والخيطان الى ٢١٣٧٫٦٣٣٥ درهم فضى كبير .

وغياراتى من الثياب كانت تتم كلها بانتظام ، وكان ذلك من مسؤولية خصيان مخازن الثياب . ويبلغ عدد الأزياء التى اغيرها فى مدة معينة حوالى ثمانية وعشرين زيا بدءا من الثوب ذى الفرو الأسود و الابيض المطعم الذى بدأت لبسه فى اليوم التاسع عشر من الشهر القمرى الاول الى ثوب فرو والسمور الذى لبسته فى اليوم الاولى من الشهر الحادى عشر . وغنى عن القول ان ملابسى كانت أكثر تعقيدا فى الأعياد والاحتفالات .

ولترتيب كل هذه الابهة الباذخة كان هناك طبعا تكاثر ملائم من المكاتب والعاملين . فادارة أسرة تشينغ التى كانت تدير شؤون الأمبراطور الداخلية كان تحت سلطتها سبعة مكاتب كبيرة وثمانية وأربعون مكتبا صغيرا والمكاتب السبعة هى : مكتب الخزن ومكتب الحرس ، ومكتب التشريفات ، ومكتب الحساب ، ومكتب حفظ المخزون ، ومكتب الانضباط ، ومكتب البناء .

وكان لكل من هذه المكاتب غرف للمخزن ومشاغل وغير ذلك . فمكتب المخزن مثلا كان لديه مخازن للفضة والفرو والخزف والساتان والملابس والشاى . ووفقا لقائمة مؤرخة فى سنة ١٩٠٩ وصل عدد العاملين فى ادارة أسرة تشينغ الى ١٠٢٣ شخصا (باستثناء حرس القصر والخصيان والخدم المعروفين باسم " السولا ") . وفى السنوات الأولى من الجمهورية انخفض هذا العدد الى حوالى ٦٠٠ وفى الوقت الذى غادرت فيه القصر الامبراطورى كان مايزال هناك أكثر من ٣٠٠ . وليس من الصعب ان نتخيل منظمة كبيرة كهذه تضم هذا العدد الكبير من الناس ، ولكن تفاهة بعض وظائفها كانت مما لا يمكن التفكير فيه تقريبا . ان أحد الثمانية والأربعين مكتبا كان ، مثلا ، غرفة روبى قوان ، مهمتها الوحيدة مساعدة الامبراطورة الأرملة والزوجات العاليات على الكتابة والرسم ، فاذا أرادت الامبراطورة الأرملة ان ترسم شيئا ما فان هذه الغرفة تقوم بالرسم الاولى بدلا منها ، بحيث يكون كل ما تفعله هو ان تملأ الألوان وتكتب عليه عنوانا . اما خط المقاطع الصينية المكتوبة على الألواح الكبيرة فكان يرسمه خبراء " قاعة الاجتهاد الكبيرة " ، أكاديميو هانلين . ان تخطيطات أسرة تشينغ الأخيرة التى يزعم انها بخط يد امبراطورة أرملة او امبراطور قد تمت كلها تقريبا بهذه الطريقة .

كانت المبانى التى تحيط بي من كل ناحية وأثاث القصر ، مما أوحى به تفكيرى . وبالاضافة الى الآجر المزجج الأصفر الذى كان مخصصا لاستخدام الامبراطور كان ارتفاع المبانى يعتبر امتيازا امبراطوريا علمنى من سنى المبكرة انه ليس فقط كل ما تحت السماء أرضا للامبراطور ، بل حتى السماء التى فوق رأسي ليست ملكا لأى شخص آخر . وكانت كل قطعة من الأثاث ومادة تعليمية تذكرنى مباشرة بمركزى هذا . ويقال ان الامبراطور تشيان لونغ قد أمر ذات مرة بأنه يجب ألا يفقد شيء من القصر ، ولا حتى نصلة عشب . وكى يطبق هذا المبدأ وضع بعض نصلات العشب على طاولة

فى التصور وأصدر أوامره بأن تعد كل يوم ليرى أنه لم تفقد منها أية نصلة . وهذا كان يدعى " اتخاذ العشب مقياسا " . وحتى زمنى كانت هذه الست والثلاثون نصلة الذاوية ما تزال محفوظة فى علبة نحاسية مزخرفة بالمينا داخل قصر تهذيب النفوس . وقد ملأنى هذا العشب اعجابا بسلفى لا يحد وكراهية لثورة ١٩١١ لا يكبح لها جماح .

ليست هناك بعد أية طريقة أخرى لحساب التكاليف الهائلة لحياة الامبراطور اليومية حسابا دقيقا ، ولكن تسجيلا يدعى " مقارنة بين نفقات السنة السابعة من عهد شيوان تونغ (١٩١٥) والسنوات الثلاث الماضية " وضعته ادارة أسرة تشينغ ، يبين ان النفقات سنة ١٩١٥ قد بلغت ٢٧٩٠٠٠٠ تايل من الفضة ، وقد انخفض هذا المبلغ فى كل من السنوات الثلاث التالية ، ولكنه ظل دائما أكثر من ١٨٩٠٠٠٠ تايل من الفضة . وهكذا وبالتشجيع من السلطات الجمهورية ، واصلنا تبذيرنا الهائل لعرق ودم أبناء الشعب كى نحافظ على أبهتنا السابقة ونستمر فى طريقتنا الطفيلية فى الحياة .

على ان بعض الأنظمة داخل القصر لم يكن أصلا لمجرد الأبهة . فالنظام الذى يقضى بأن تكون لجميع أطباق الطعام شرائط من الفضة ضد السم وان يذاق الطعام قبل ان يأكله الامبراطور ، واجراءات الأمن الاحتياطية الواسعة كلما خرج الامبراطور كانت كلها أساسا لحمايته من أية محاولة اغتيال . وقد قيل ان السبب فى عدم وجود مراحيض خارجية للاباطرة هو ان احد الأباطرة تعرض لمهاجمة سفاك بينما كان خارجا لقضاء الحاجة . وهذه القصة مع كل هذا العرض قد تركت عندى نفس الانطباع : أعتقد بأننى كنت شخصا مهيبا عظيم الأهمية وانسانا فريدا فى حكم الكون وملكه .

الأمهات والابن

عندما دخلت القصر بصفة ابن بالتبني للامبراطورين تونغ تشى وقوانغ شيوى أصبحت جميع زوجاتهما أمهاتى . وهذا معناه ، وفقا للتسجيلات السلالية الرسمية فى أسرة تشينغ ، انى أصبحت على نحو أولى ابنا لتونغ تشى وعلى نحو ثانوى فقط ابنا لقوانغ شيوى . ولكن الامبراطورة زوجة قوانغ شيوى ، الامبراطورة الأرملة لونغ يوى ، تجاهلت ذلك واستخدمت سلطتها بوصفها أمبراطورة أرملة لابعاد الزوجات الثلاث لتونغ تشى لتجرئهن على مناقشة هذا الأمر معها . وقد ظللن بقية حياتها لا يحسبن أمهاتى ، وكذلك لم تحصل العقيلة جين زوجة قوانغ شيوى على معاملة أم ثانوية . وعندما كنا أنا ولونغ يوى نأكل معا جالسين كان عليها أن تأكل واقفة . وبعد موت لونغ يوى اتحدت زوجات تونغ تشى الثلاث مع العقيلة جين زوجة قوانغ شيوى ليقدمن قضيتهن الى الأمراء والنبلاء ونجحن فى الحصول على لقب الزوجات العليات ، ومنذ ذلك الحين بدأت أخاطبهن جميعا بـ " أمى الجليلة " .

وعلى الرغم من انه كان لي كثير من الأمهات الا اننى لم أعرف الحب الأمومى ابدا . وغاية ما أستطيع تذكره اليوم هو أن الاهتمام العظيم الذى كن يظهرنه دائما كان ارسال الطعام لي فى كل وجبة وسماع تقرير الخصى بأننى اكلت " بشهية " .

والحقيقة اننى لم أكن قادرا على " تناول الطعام الامبراطورى بشهية" وأنا صغير ، حيث كنت أشكو من ألم فى المعدة ، ذلك الألم الذى ربما تسبب عن " حبهن الأمومى " . وذات مرة ، وأنا فى الخامسة من عمرى ، أتخمت نفسى بالكستناء ، فبقيت طوال شهر أوأكثر لا تسمح لي الامبراطورة الأرملة لونغ يوى أن آكل الا عصيدة الأرز المسفوعة ، ومع اننى كنت أبكى

من الجوع الا أنه لم يلتفت الي أحد . وأتذكر أنني كنت ذات يوم خارجا للتنزه على شاطىء احدى البحيرات داخل القصر ، فطلبت الامبراطورة الأرملة من احد العاملين أن يحمل الي قطعا من خبز البخار اليابس كي أطعم السمك ، فلم أستطع كبح نفسي عن دفع أحد هذه الأقراص الى فمي . ولقد شددت لونغ يوى تحريماتها علي غير شاعرة بأدنى عطف ازاء جوعي ، وقد زادت ذلك فى رغبتى فى سرقة الطعام . وذات يوم لاحظت ان " طعام الاجلال " الذى أرسله الأمراء الى الامبراطورة الأرملة قد وضع فى الممر الغربى من القصر ، فشققت طريقى مباشرة الى احدى علب الطعام وفتحتها ، فرأيتها ملأى بلحم الخنزير البارد ، فقبضت على قطعة وغرزت فيها أسنانى . فشحبت وجوه الخصيان الذين كانوا معي من شدة الخوف واندفعوا نحوى لينتزعوها مني . فأبديت مقاومة مستميتة ، ولكن بسبب صغري وضعفي اختطفت تلك اللقمة اللذيذة حالما رفعتها الى فمي .

وحتى بعد ان سمح لي ثانية بالأكل على نحو طبيعى ظللت أعانى من المتاعب . فذات مرة لاحظ خصى من المرتبة الدنيا أننى قد التهمت ستة فطائر محشوة باللحم ، فخشى ان أكون قد أتخمت ، لذلك فكر فى طريقة لمساعدتي على هضمها ، فطلب من خصيين آخرين أن يرفعانى من ذراعى ثم يدقا بي الأرض دقا شديدا . وقد أحسوا عندها بالزهو قائلين ان الفضل يرجع اليهم فى اننى لم أعان اى ألم من أكلي تلك الكعكات .

يبدو هذا غير معقول الى حد ما ، ولكنى واجهت من اللامعقول الحقيقى ما يزيد عليه غرابة . لقد كنت كلما فقدت صبري أو خرجت عن طوري ، وانا فى السابعة او الثامنة من عمرى ، يقوم الخصى الرئيسى بالتشخيص ووصف العلاج التالى : " السيد المديد العمر فى قلبه نار . فليقم بالغناء لفترة من الوقت كى يطردها . " فيغلق علي حينذاك داخل غرفة صغيرة غالبا ما تكون غرفة مهملة فى جناح المدرسة تلقي فيها الكراسى غير المستعملة . وبمجردما

كنت أخاو فيها لنفسى ، لا يعود مهما كم أشتم او أركل الباب او أتوسل او أصرخ ! ولا يدعوننى أخرج الا عندما انهى الصراخ والبكاء ، او ما يسمونه " الغناء " و" طرد النار " .

هذا العلاج الغريب لم يكن من اختراع الخصيان او الامبراطورة الأرملة لونغ يوى ، لقد كان تقليدا عائليا عانى منه اخوتي واخواتي كذلك فى منزل والدي .

عندما بلغت السابعة ماتت الامبراطورة الأرملة لونغ يوى . وكل ما أستطيع تذكره عن " حبها الأمومى " هو ما ذكرته آنفا .

وقد عشت مدة أطول الى حد ما مع الزوجات العليات الأربع . وكان طبيعيا أننى لم أرهن الا قليلا ، واننى لم أجالس وأتحدث معهن أبدا على نحو مألوف وودى . كان علي كل صباح ان أذهب لأقدم لهن احتراماتى . فيضع خصى وسادة مغطاة بحرير أصفر على الأرض كى أركع عليها ، وبعد الركوع لهن لحظة أنهض وأقف جانبا منتظرا منهن ابداء ملاحظاتهن المعتادة . وفى ذلك الوقت من النهار يكن قد مشطن شعورهن على أيدى الخصيان ، ثم يسألننى : " هل نام الامبراطور جيدا ؟ " او ينصحننى بلبس ثياب أكثر دفئا بسبب برودة الجو ، او يسألننى الى أين وصلت فى الكتاب الذى أدرسه . وهكذا دائما — بضع ملاحظات فاترة ومكرورة . وأحيانا كن يعطيننى بعض اللعب الفخارية ، ثم يقلن لي : " اذهب الآن والعب أيها الامبراطور. " ثم أخرج ، ولا أراهن بعدها بقية النهار .

كانت الامبراطورة الأرملة والزوجات العليات يخاطبننى بكلمة " امبراطور " كما كان يفعل والداي الحقيقيان وجدتي . وكل من سواهم كان يدعونى بكلمة "جلالتكم" . وعلى الرغم من أنه كان لي اسم عادى و" اسم حليب " (١٣) ، الا أن جميع أمهاتى لم يستخدمن هذا الاسم فى طفولتى . لقد سمعت الآخرين يقولون انهم عندما يتذكرون " أسماء الحليب " التي كانت لهم

كان ذلك يذكرهم بطفولتهم وبحب أمهاتهم . أما اسمي فلم يكن يسبب لي مثل هذا التداعي . ولقد أخبرني أناس أيضا أنهم كلما شعروا بالمرض خلال دراستهم بعيدا عن بلدهم بدأوا التفكير فى أمهاتهم ، وكيف كانت أمهاتهم تريحهم عند مرضهم وهم أطفال . وغالبا ما كنت مريضا فى سنى الراشدة ، ولكن الزيارات التى تلقيتها من الزوجات العليات ، عندما كنت أمرض وأنا طفل ، لم تجعلنى أبدا أشعر بالحنين اليهن .

كنت دائما ما أصاب بالزكام ، والأنفلونزا عندما يصبح الجو باردا . وكلما كان هذا يحدث كانت الزوجات العليات يحضرن لرؤيتى واحدة بعد الأخرى . وكل منهن تسأل نفس السؤال : " هل الامبراطور فى حالة أفضل ؟ هل تعرقت على نحو جيد ؟ " ولا تطول زيارتها لي على دقيقتين او ثلاث . ولدي ذاكرة قوية نوعا ما عن حشود الخصيان الذين كانوا يصاحبونهن ويحتشدون فى غرفة نومي الصغيرة . كانوا يروحون ويجيئون فى غضون بضع دقائق مثيرين بذلك الفوضى فى جو غرفتي وحالما تغادر زوجة علية تصل أخرى ، فتزدحم الغرفة ثانية . ومع أربع زيارات فى اليوم الواحد يضطرب الجو أربع مرات . ومن حسن الحظ اننى كنت أتحسن دائما فى اليوم التالى ، فيعود الهدوء الى غرفة نومي ثانية .

وعندما كنت أمرض كانت الأدوية تعد فى صيدلية داخل قصر الزوجة العلية دوان كانغ التى تمتعت بعد وفاة لونغ يوى بنفس مركزها بمساعدة يوان شى كاى ، رغم انها أصغر الزوجات العليات ، وبذلك أصبحت أمى الرئيسية .

وهكذا بلغت سن الثانية عشرة أو الثالثة عشرة تحت " عناية " أمهاتي الأربع وكنت شأني شأن أى طفل آخر ، مولعا باللعب الجديدة ، وقد حاول بعض الخصيان ادخال السرور الى نفسى بشراء أشياء مسلية لي من الخارج . وذات مرة جاءنى خصى ببدلة رسمية احتفالية لجنرال من الجمهوريين مع ريشة فى قبعتها مثل مذبة من الريش وسيف وحزام عسكريين . وعندما لبستها

شعرت بالزهو الشديد ، ولكن عندما سمعت الزوجة العلية دوان كانغ بذلك غضبت غضبا شديدا وأمرت باجراء التحقيق فى هذا الأمر . وقد انكشف لها ايضا اننى كنت لابسا جوارب أجنبية اشتراها خصيان من خارج القصر . فاعتبرت كل هذا شيئا لا يحتمل ، واستدعت الخصيين الى مقرها ، وأمرت بضرب كل منهما مائتى ضربة بعصا غليظة وخفضت مرتبتيهما ، وأرسلتهما الى مكتب التنظيف ليعملا هناك خادمين وضيعين . وبعد ان عاقبتهما هذه العقوبة ارسلت فى طلبي وألقت علي محاضرة ‹ن عار امبراطور أسرة تشينغ العظيم فى لبسه ملابس الجمهوريين والجوارب الأجنبية . ولم يكن أمامى من خيار الا ان أخلع عنى بدلتي المحبوبة وسيفي ، وكذلك جواربي الأجنبية ، وأستبدل بها ملابس البلاط والجوارب القماشية المطرزة بتصاميم التنين .

لو ان الزوجة العلية دوان كانغ حصرت سيطرتها علي فى حدود البدلات والجوارب الأجنبية لما ثرت عليها فيما بعد . ومع ذلك فان سيطرة كهذه لم تزد على ان جعلتنى أكثر ادراكا لتفردى عن عامة الناس ، وعززت الدروس التى كنت أتعلمها فى حجرة درسي حيث اعتقدت انها من أجل تربيتي أمرت بضرب الخصيين ووبختني ذلك التوبيخ .

لقد اتخذت دوان كانغ من الامبراطورة الأرملة تسى شى مثالا تحتذيه ، رغم ان شقيقتها ماتت على يدها ، وهي لم تتعلم من تسى شى كيفية الجلد الوحشى للخصيان فقط بل وصارت ترسلهم للتجسس علي كما كانت تسى شى تفعل . ثم ابعدت الخصيين المقربين وخصصت لخدمتي خصيها المقرب فكان يزودها بتقرير يومى عن سلوكي . وهذا بالضبط ما كانت تفعله تسى شى ازاء قوانغ شيوى . ومهما كان دافعها الى ذلك ، فان هذا التصرف كان يجرح كبريائي . ثم ان معلمي الخصوصى تشن باو تشن الذى سخط أشد السخط لهذا التصرف شرح لي النظرية المتعلقة بالفرق بين الزوجات الأوليات والزوجات الثانويات ، تلك الفئة التى تنتمى اليها دوان كانغ ، فزاد من حنقي وغيظي .

حدث الانفجار بعد مدة غير طويلة من طرد دوان كانغ لأحد الأطباء الامبراطوريين . والقضية لم يكن لها فى الواقع علاقة بى حيث ان الطبيب صاحب المشكلة كان واحدا من أولئك الذين يعنون بدوان كانغ ، ولكننى سمعت بعض الامور المثيرة كملاحظة معلمى الخصوصى التالية : " مع انها مجرد زوجة علية الا ان تصرفها آخذ فى الاشتطاط . " كما قال لي أحد الخصيان : " ألن يصبح السيد المديد العمر قوانغ شيوى آخر ؟ " ان شؤون كلية الأطباء يجب ألا يتم تصريفها الا على يد السيد المديد العمر . فحتى عبدكم لا يستطيع ان يتحمل رؤية أشياء كهذه تحدث . فانطلقت أزمجر فى ثورة غضب قاصدا قصر دوان كانغ ، وحالما رأيتها صحت قائلا : " لماذا طردت الطبيب ؟ لقد اسرفت كثيرا . ألست انا امبراطورا ؟ من يعطيك هذا الحق ، لقد مضيت بعيدا ! "

ولم أنتظر رد دوان كانغ التى امتقع وجهها غضبا ، بل خرجت مباشرة آتيا بحركة من كمى . وعندما عدت الى حجرة الدرس غمرنى المعلمون الخصوصيون بالثناء .

وأرسلت دوان كانغ الملتهبة غضبا فى استدعاء والدى وأمراء آخرين ، وطلبت منهم المشورة وهى تنحب ، فلم يجرؤ اى منهم ان يشير عليها . وعندما سمعت هذا الخبر دعوتهم الى مكتبتى وقلت لهم بمعنويات عالية : " من تكون هى ؟ انها مجرد ضرة . لم يحدث قط فى تاريخ أسرتنا ان دعا الامبراطور الضرة ' أما ' . ألا ينبغى ان نحافظ على التمييز بين الزوجات الرئيسيات والزوجات الثانويات ؟ اذا كان لا ، فلماذا لا يدعو أخى زوجات الأمير الثانويات ' امهات ' له ؟ لماذا ينبغى لي ان أدعوها ' أما ' ؟ لماذا ينبغى لي ان أطيعها . "

وتلقى الأمراء تقريرى هذا بالصمت .

وجاءتنى احدى الزوجات العليات ، وكانت على علاقة سيئة بدوان

كانغ خصيصا لتخبرني بأن دوان كانغ قد استدعت أمي الحقيقية وجدتي للقائها ، ويحسن لي ان أكون حذرا . وقد جاءتا بالفعل ، وحيث ان دوان كانغ لم تكن لها مكانة عند الأمراء فان صخبها قد ترك بعض التأثير عليهما : فجدتي خاصة ذعرت وسقطت على الأرض راكعة مع أمي متوسلتين الى دوان كانغ ان تخفف من حدة غضبها ، ووعدتاها باقناعي بالاعتذار . ورأيت أمي وجدتي فى احد أجنحة قصر السلام الدائم (يونغ خه قوانغ) الذى كانت تقيم فيه دوان كانغ وسمعت ان الزوجة العلية ما تزال تعربد غاضبة فى القاعة الرئيسية . وودت فى البداية ان أذهب وأشتمها ، ولكن لعدم قدرتي على التماسك أمام دموع أمي وجدتي وتضرعهما المستميت لنت ووعدت بالاعتذار من دوان كانغ .

وذهبت ممتعضا وحييت دوان كانغ دون أن أنظر اليها متمتما : " أمي الجليلة ، لقد أخطأت . " وعدت ثانية ، فكفت دوان كانغ عن البكاء ، واستعاد وجهها حيويته . وبعد يومين سمعت ان أمي قد قتلت نفسها .

ان أمي لم يسبق لها أن عنفت قط . وكانت لها شخصيتها القوية ، لذلك كانت هذه الصدمة شيئا كبيرا جدا بالنسبة اليها ، فعندما عادت من القصر ابتلعت جرعة مميتة من الأفيون . وخوفا من أن أمعن التدقيق فى ظروف موت أمي غيرت دوان كانغ معاملتها لي تغييرا تاما .

فلم تعد تقيد نشاطاتي نهائيا ، وأصبحت معتدلة جدا . وبذلك عادت حياتي العائلية داخل المدينة المحرمة مستقرة كالسابق ، وعدت والزوجات العليات ابنا وأمهات . ولكن حياة أمي كانت ثمنا لذلك .

الدراسة في قصر يوى تشينغ

عندما أصبحت فى الخامسة من عمري اختارت لي الامبراطورة الأرملة لونغ يوى معلما خصوصيا ، وأمرت منجما بأن يختار يوما ميمونا أبدأ فيه دراساتى . وكان اليوم هو ١٠ سبتمبر ١٩١١ .

كانت حجرة درسى الأولى فى جزيرة فى احدى بحيرات القصر ، ولكننى غيرتها بعد ذلك الى قصر يوى تشينغ ، وهو مبنى صغير نوعا ما داخل المدينة المحرمة . وقد ضم مكتبتين أثثتا على نحو أبسط مما كانت عليه حجرات القصر الأخرى . وكانت تحت النافذة الجنوبية منضدة طويلة ، وضع عليها مشجب للقبعة وزهريات . وبمحاذاة الجدار الغربى بنى سرير كانغ كنت أجلس عليه فى البداية وأدرس على منضدة كانغ صغيرة واطئة . وبعد ذلك جلست الى طاولة ، وكانت هناك طاولتان أخريان بمحاذاة الجدار الشمالى عليهما كتب وقرطاسية . وعلى الجدران علقت لوحات مواعظ خطها جدي ، الأمير تشون الأول ، لابنه الامبراطور قوانغ شيوى . وأكثر ما يلفت الانتباه فى تلك الغرفة كان ساعة ضخمة قطرها متران وعقاربها أطول من ذراعي . وآلتها كانت على الجانب الآخر من الجدار ، ولكى تديرها كان لابد لك من الذهاب الى الغرفة الأخرى واستخدام شيء كمقبض الانطلاق فى السيارة . ولا أذكر من أين جلب هذا الشيء الضخم الغريب ولماذا وضع هناك ، كما اننى لا أذكر كيف كان صوتها أو الى أى مدى كان ارتفاع رنين أجراسها كلما مضت ساعة من الوقت .

ولكن على الرغم من الحجم الهائل لتلك الساعة ، الا ان الصبى الذى كان يدرس هناك لم تكن عنده أية فكرة عن الوقت ، حيث أننى كنت أقدر ذلك من الكتب التى أدرسها . فنصوصها الأساسية هى الكلاسيكيات

الثلاث عشرة ، ولقد درست أيضا كتبا مثل « شرح العلم العظيم » و« مآثر أسلافى » و« تاريخ تأسيس أسرة تشينغ » والخ . وعندما بدأت دراسة الانكليزية فى سن الثالثة عشرة كان الكتابان الوحيدان اللذان درستهما باستثناء كتاب القراءة الانكليزية هما « اليس فى بلاد العجائب » والترجمة الانكليزية لـ « الكتب الأربعة الكبرى » وأخذت بعض الدروس الأساسية فى لغة المانشو، ولكن قبل ان أصبح قادرا على استخدام أبجديتها مات معلمي يي كه تان وتوقفت دروسى . ولم أتعلم شيئا من الرياضيات ، ناهيك عن العلوم حتى عام ١٩٢٢ . أما فيما يتعلق ببلادى ، فقد درست فقط أحداثا مثل « اصلاح تونغ تشى وقوانغ شيوى » ومعرفتي عن البلدان الأجنبية كانت مقصورة على الرحلة مع " اليس الى بلاد العجائب " . وكنت أجهل تماما جورج واشنطن ونابليون واختراع وات للمحرك البخارى ونيوتن وتفاحته . وكل ما عرفته عن الكون هو فقط أن " القطب الكبير أنتج الصيغتين ، والصيغتان أنتجتا الرموز الأربعة ، والرموز الأربعة أنتجت الشكل الثمانى الزوايا (١٤) . " ولو لم يكن المعلمون الخصوصيون على استعداد للثرثرة معى عن الأشياء التى لم تكن ضمن مواد دراستى ، ولو اننى لم أقرأ شخصيا المزيد من الكتب لما عرفت أين موقع بكين فى الصين أو أن الارز يزرع فى الأرض . وفى التاريخ لم يجرؤ أحد على نسف الخرافات المتعلقة بأصول أسلافى من أسرة تشينغ ، أما بالنسبة للاقتصاد ، فلم تكن عندي فكرة عن سعر جين واحد من الأرز . ولذلك ظللت لفترة طويلة أعتقد أن أول سلف لي قد ولد بعد ان ابتلعت الآلهة فوكولون ثمرة حمراء ، وان عامة الناس كانت لهم دائما مائدة مغطاة بالأطباق فى كل وجبة .

ونظرا الى اننى قرأت عددا هائلا من الكتب القديمة خلال مدة طويلة كان من المتوقع ان تكون لي خبرة وافية بالأدب الصينى الكلاسيكى . وفى الحقيقة أننى لم أفعل وفقا لما يمليه الضمير . وفيما عدا تعللي بالأمراض البسيطة ،

كنت أطلب أحيانا من أحد الخصيان أن يبلغ المعلمين الخصوصيين بأن عليهم أن يأخذوا عطلة يوم واحد اذا كنت لا أشعر برغبة فى الدراسة وليس لدى عذر أفضل . وبقيت حتى سن العاشرة مهتما بشجرة سرو خارج قصر يوى تشينغ أكثر من اهتمامي بكتبى . وفى الصيف كانت هناك على الدوام نمال تتسلق هذه الشجرة صاعدة هابطة ، فكنت أهتم بها اهتماما شديدا وأقرفص غالبا عند الشجرة مستغرقا فى مراقبة النمال ، او أقوم باطعامها فتات الكعك وأساعدها على نقل طعامها بحيث أنسى وجباتي . وفيما بعد أخذت أهتم بالجداجد وديدان الأرض ، لذلك كثيرا ما اقتنيت طاسا خزفيا وجرة لحفظ هذه الحشرات فى داخلهما . ولم أكن شديد الشوق الى دروسى ، وعند قراءتى كتبي كنت أشعر بارهاق لا يحتمل وينحصر تفكيرى فى الخروج لرؤية أصدقائى الحشرات .

فى اوائل عشرياتى بدأت أفهم ان كتبي المدرسية فيها ما يخصنى ، وكبرت وانا اهتم فى كيف أكون " امبراطورا جيدا " وفى " كيف يكون الامبراطور امبراطورا " وفى " اى مغزى سماوى يكمن فى هذا " . وقد انشد انتباهى فى هذه الكتب الى المحتوى اكثر مما الى اللغة والى حقوق الامبراطور اكثر من واجباته . نعم كانت هناك بعض الاقوال الجيدة ، مثل : " الشعب مهم ، وأرواح الأراضى والحبوب تأتى بعده والملك ليس مهما " ، " اذا الملك اعتبر رعاياه كالعشب الكثير فان الرعايا سيعتبرون الملك عدوهم " ، وأشياء أخرى من هذا القبيل . ولكن أكثر هذه التحذيرات كانت موجهة الى الوزراء والناس العاديين . ومثال ذلك القول المأثور التالى : " الحاكم يجب ان يكون حاكما ، والرعية يجب ان تكون رعية ، والآباء يجب ان يكونوا آباء والأبناء يجب ان يكونوا أبناء" . وكتاب النصوص الأول « كتاب البر الكلاسيكى » ، قد تضمن المبدأ الأخلاقى الذى يلزم للمرء بأن " يبدأ بخدمة أحد والديه وينتهي بخدمة سلطانة " وقبل شروعي فى القراءة حول هذه التعاليم الأخلاقية

التى بدت مبهجة لي ، سمعت عنها خلال المحادثة مع المعلمين الخصوصيين ، وفيما بعد كان ما يقولونه لي حول ذلك أكثر مما فى النصوص . وكانت أحاديثهم بشأنها أبعد تأثيرا من نصوص القراءة الكلاسيكية القديمة .

ان كثيرا من الناس الذين درسوا فى مدارس قديمة الطراز قد تعين عليهم ان يحفظوا الكتب عن ظهر قلب ، وبالرغم من بذل الجهود العظيمة المرهقة فى ذلك يقال انها قد اعطتهم بعض النتائج الجيدة . اما انا فلم أتمتع أبدا بهذه الفوائد لأن المعلمين الخصوصيين لم يطالبونى باستظهار النصوص ، مكتفين بجعلى أقرأها عدة مرات .

وربما لمساعدتى على تذكر ما قرأت قرروا ان علي ان أتلو النص للامبراطورة الأرملة لونغ يوى كلما ذهبت لأقدم لها احتراماتى ، وان على الخصى الرئيسى ان يقف خارج غرفة نومي عندما أنهض صباحا ويقرأ دروس اليوم السابق بصوت عال عدة مرات كى أسمعها . ولم يكن أحد مهتما بمقدار ما أتذكر او بمعرفة ان كنت أريد أن أتذكر أو لا أريد .

ولم يجر المعلمون أى اختبار لي لمعرفة اجتهادى ، ولم يعطوني أى موضوع انشائى . وأذكر اننى كتبت بعض الأبيات والقصائد ولكن المعلمين الخصوصيين لم يعلقوا عليها أبدا ، ناهيك عن تصحيحها ، ولكننى كنت قادرا على الكتابة وانا غلام . ونظرا الى ان المعلمين الخصوصيين لم يهتموا بمثل هذه الترهات ، فقد كتبتها سرا بقصد التسلية . ومن سن الثانية عشرة او الثالثة عشرة بدأت أقرأ الكثير للمتعة . فقرأت كتب التاريخ غير الرسمية عن أسرتى مينغ وتشينغ ، والروايات التاريخية الرومانسية ، وحكايات الفرسان والمقاتلين مع القوى السحرية والقصص البوليسية من عهد تشينغ الأخير والفترة الجمهورية الأولى وسلسلة الروايات الصادرة عن المطبعة التجارية . وعندما كبرت قليلا قرأت بعض القصص الانكليزية . وتقليدا منى لجميع هذه الأعمال الصينية والغربية ، القديمة والحديثة اخترعت ودبجت كثيرا من

القصص الخيالية المستقاة من أحلام يقظتي من أجل متعتي الخاصة ليس الا . وأرسلتها للنشر تحت أسماء مستعارة ولكنني كنت أمني دائما بخيبة أمل . وأذكر انني نسخت مرة قصيدة لشاعر من أسرة مينغ ، وأرسلتها الى صحيفة صغيرة تحت اسم مستعار " دنغ جيونغ لين " فانطلى ذلك على المحرر ونشرها . ولم يكن هو الوحيد الذى انخدع بى فمعلمى الخصوصى للغة الانكليزية ريغنالد جونستون ترجمها الى الانكليزية ووضعها فى كتابه « الشفق داخل المدينة المحرمة » شاهدا على " الموهبة الشعرية " لتلميذه :

ان المادة التى كنت فيها ضعيفا جدا هى المانشوية : فقد تعلمت كلمة واحدة فقط خلال كل السنوات التى درستها فيها ، وكانت تلك الكلمة هى يى لي (انهض) ، وهى الجواب الذى كنت استخدمه عندما كان وزرائى المانشويون يركعون أمامى وينطقون مجموعة من عبارات التحية فى لغتهم .

وعندما أصبحت فى الثامنة فكروا فى طريقة أخرى تجعلنى أدرس على نحو أفضل : فضموا الي بعض الزملاء من الطلبة . خصصوا لكل منهم مرتبا شهريا يعادل ثمانين تايل من الفضة مع ما يشتهون من الامتيازات ، كأن يسمح لهم بركوب الخيل داخل المدينة المحرمة . ومع ان تلك الفترة كانت فترة الجمهورية ، الا أن ذلك كان ما يزال يعتبر شرفا عظيما من شباب العشيرة الامبراطورية ، والمتسلمون الثلاثة لهذه النعم هم أخي بو جيه ويوى تشونغ (ابن عمى بو لون) وبو جيا (ابن عمى تساى تاو) . وقد منحوا شرفا آخر هو ان يعنفوا نيابة عن امبراطورهم فى المدرسة : فعندما كنت أخطىء فى قراءة دروسى كان المعلم يوبخ واحدا من هؤلاء الزملاء . وبما ان بو جيه كان أخي فان الضحية كان دائما تقريبا يوى تشونغ الذى ساءت دراسته بالطبع عندما وجد نفسه يوبخ سواء قرأ قراءة جيدة او سيئة .

وعندما لم يكن معى زملاء يدرسون كنت كثير الحركة . فاذا شعرت بملل خلعت حذائى وجواربى فيما أنا أقرأ ، ثم وضعت الجوارب على الطاولة ،

فاضطر المعلم الخصوصى الى اعادتهما لي . وذات مرة أحببت ان ألهو بحاجبي معلمى الخصوصى شيوى فانغ ، فطلبت منه ان يقترب منى بحيث أمسدهما له ، وعندما جاءنى طائعا خافضا رأسه انتزعت فجأة شعرة من حاجبيه . وبعد ان مات قال الخصيان جميعا ان سبب موته هو ان " السيد المديد العمر " قد اقتلع حاجبه الذى يشير الى طول العمر . ومرة أخرى جعلت معلمى الخصوصى لو رون شيانغ يغضب منى أشد الغضب بحيث نسى التمييز بين حاكم ومحكوم وذلك حين رفضت قراءة احد النصوص لاننى كنت أرغب فى الخروج الى الحديقة ومراقبة نمالي . وقد حاول فى البداية أن يقنعنى بالقراءة فاستشهد بقول مأثور : " لايمكن للمرء ان يكون سيدا حقيقيا الا اذا ملك التهذيب والمعرفة " ، ولكننى لم أستطع فهم ما كان يرمى اليه ، ومضيت أتململ وأتحرك فى مقعدى . ولما رأى معلمي الخصوصى اننى مازلت مضطربا القى علي قولا آخر : " اذا السيد لم يكن جادا فلن يتسلم سلطة ، وتعلمه لن يكون متينا " . ولكننى نهضت فى نزق وأوشكت على النزول من المقعد ، فخرج عن طوره فجأة وصاح فى وجهى مرعدا : " لا تتحرك ! " فجفلت من الخوف وحسنت فعلا من تصرفى ، ولكن لم يمض وقت طويل حتى عدت أفكر فى نمالي وأتململ ثانية .

وعندما أصبح لدي زملاء فى دراستي تحسنت الأمور بعض الشيء وأصبحت قادرا على تحمل الجلوس فى حجرة الدرس . وكان المعلمون يقومونني كلما أخطأت . أذكر مرة أننى جئت الى حجرة الدرس أعدو فقال المعلم ليوى تشونغ الذى كان جالسا هناك جاوس تلميذ جيد " انظر . . كم أنت طائش ! "

كنت أدرس الصينية كل يوم من الثامنة حتى الحادية عشرة صباحا ، والانكليزية بعد الظهر من الواحدة حتى الثالثة . وقبل الساعة الثامنة كل صباح كنت أحمل فى محفة ذات مظلة صفراء الى قصر يوى تشينغ . وبكلمة منى

" ادعهم " يذهب خصى ويدعو المعلم الخصوصى وزملائى من غرفة الانتظار . وكانوا دائما يدخلون حجرة الدرس وفقا لنظام محدد : أولا خصى يحمل الكتب ، ثم يدخل معلم الدرس الأول ، وأخيرا زملائى . وكان المعلم يقف بالباب وينظر الي فى شكل تحية ، ولكن وفقا لقواعد البروتوكول لم أكن مضطرا الى الرد على تحيته لأنه على الرغم من كونه معلمى ، الا انه يظل واحدا من رعيتى ، وانا على الرغم من اننى تلميذه أظل سيده . ومن ثم يتقدم بو جيه ويوى تشونغ ويركعان ويقدمان احتراماتهما لي . ومع انتهاء هذه الشكليات نجلس جميعا . فأجلس وحدي فى الناحية الشمالية من الطاولة متجها الى الجنوب ، والمعلم يواجه الغرب ، وزملائى يجلسون بجانبه . ويعلق الخصيان قبعات الآخرين على مشجب القبعات ويخرجون ، وعندها يبدأ الدرس .

لقد عثرت على صفحات من يومياتى لعام ١٩٢٠ عندما كنت فى الرابعة عشرة . وهذا مقتطف يمكن ان يصلح لاعطاء فكرة عن حياتى عندما كنت أدرس :

٢٧ يوم جميل . نهضت فى الرابعة ، وكتبت بالفرشاة ثمانى عشرة ورقة بمقاطع صينية كبيرة مثل كلمة " رفاه " ، الدروس فى الثامنة . قراءة فى مختارات كونفوشيوس شعائر تشو ، سجل الشعائر ، وشعر تانغ مع بو جيه ويوى تشونغ . استمعت الى المعلم الخصوصى تشن يلقى محاضرة فى « التاريخ العام مع تعليقات من الامبراطور تشيان لونغ » . انتهيت من الاكل فى ٩:٣٠ ، قرأت « سجلات تسوه التاريخية » و« سجلات قو ليانغ التاريخية » . واستمعت الى المعلم الخصوصى تشو يتحدث عن « شرح التعليم العظيم » وكتبت مقاطع شعرية . انتهت الدروس فى الساعة ١١ ، فذهبت لأقدم احتراماتى الى الزوجات العليات الأربع . جونستون لم يحضر اليوم لاصابته بالأنفلونزا ، لذلك عدت الى قصر تهذيب النفوس وكتبت ثلاثين ورقة أخرى بالمقاطع الصينية الكبيرة مثل " الرفاه " و" طول العمر " . قرأت الصحف ، أكلت فى الرابعة ، ذهبت

الى الفراش فى السادسة . قرأت « مقتطفات من الادب القديم » فى السرير مستمتعا جدا .

كان معلمي الخصوصي لو رون شيانغ ، من أهالى جيانغسو وهو اكاديمي كبير وقد مات قبل ان ينهى سنة من تعليمي . ويى كه تان الذى علمنى المانشوية أكثر من تسع سنوات كان مانشويا من راية تشنغباى المانشوية ، وقد حصل على مؤهله عبر امتحان القصر بصفة مترجم للمانشوية . وتشن باو تشن ، وهو من فوجيان ، جاء فى نفس الوقت الذى جاء فيه لو رون شيانغ ويى كه تان ، وكان اكاديمى مجلس البلاط ونائب رئيس كتب المراسم ، وهوالوحيد بين المعلمين الخصوصيين الذى مكث معي أطول مدة . وبعد موت لو رون شيانغ تعاقب علي ثلاثة مدرسين آخرين للغة الصينية : نائب رئيس الأكاديمية الامبراطورية شيوى فانغ ، وعضو أكاديمية هانلين تشو يى فان وليانغ دينغ فن الذى اشتهر بزرع الأشجار أمام ضريح قوانغ شيوى .

والمعلم الخصوصي الذى أثر في أعمق تأثير كان تشن باو تشن ، ويليه فى التأثير معلم اللغة الانكليزية ريغنالد جونستون . وكان لتشن شهرة هائلة بصفته معلما فى مسقط رأسه فوجيان ، وبعد اجتيازه امتحان القصر فى عهد تونغ تشي عين عضوا فى أكاديمية هانلين فى سن العشرين ، وبعد دخوله مجلس البلاط الأعلى لمع اسمه بفضل محاججاته مع الامبراطورة الأرملة تسى شى . ولأنه لم يشبه تشانغ تشي دونغ فى تغيير ميوله مع الأهواء السياسية ، خفض خمس درجات من منصبه عام ١٨٩١ بحجة عدم الكفاءة . ثم عاد الى موطنه ليعيش فى عزلة مدة عشرين عاما . وعشية ثورة ١٩١١ رد اليه اعتباره وعين حاكما فى شانشي ، ولكن قبل ان يغادر لتسلم منصبه استبقى فى بكين معلما خاصا لي . ومنذ ذلك الحين الى أن ذهبت الى الشمال الشرقي ظل ملازما لي لم يبرحني أبدا . لقد كان من أكثر كبار موظفى أسرة تشينغ السابقين ثباتا وحرصا بين حاشيتي ، وفى ذلك الوقت اعتقدت انه أكثر افراد الحاشية ولاء

لي ولـ" أسرة تشينغ العظيمة " . وكنت انا أعول عليه فى جميع الشؤون الكبيرة والصغيرة قبل ان يصبح افراطه فى الحذر قيدا على حريتى فى التصرف .
وكان يردد فى اشادته بى عبارة " مع ان الملك صغير الا انه يستحق لقب ابن السماء " ، مبتسما خلالها حتى تغدو عيناه شقين ضئيلين خلف نظارته ، وممسدا كذلك لحيته البيضاء الرقيقة .

كنت دائما أجد محادثاته ممتعة . وعندما بدأت أكبر أخذت أسأله كل يوم تقريبا عن آخر أخبار الجمهورية . وكان عندما ينتهى من مناقشة هذا الأمر ينتقل ، دائما تقريبا ، الى الحديث عن " اصلاح تونغ تشى وقوانغ شيوى " و" العصر الذهبى لكانغ شى وتشيان لونغ" . وكان مولعا على نحو خاص بسرد القصص عن محاججاته مع الامبراطورة الأرملة تسى شى ، وكلما أشار الى كبار موظفى أسرة تشينغ السابقين الذين أصبحوا يخدمون الجمهورية كان يعتبرهم مرتدين ، وهو فى غاية الاستياء . كان يتكلم كأن الثورة والجمهورية هما أصل جميع الشرور ، والناس المؤيدين لهما ليسوا بأفضل من قطاع الطرق . وكان تعقيبه العام على كل ما يسوؤه العبارة التالية " أولئك الذين يتحدون الحكماء ليست عندهم شريعة ، واولئك الذين يتحدون الطاعة النبوية ليس لديهم آباء وأمهات : وهذا مصدر الفوضى الكبيرة " . وقد أخبرنى بقصة ملك دولة يوه المهزوم الذى نام على الحطب وذاق المر كى يذكر نفسه بخزيها ، وشرح مبدأ " الانسحاب من الشؤون العامة وانتظار الفرصة المناسبة " . وبعد شرحه الوضع الراهن كان غالبا ما ينتهى الى هذا الرأى : " ان الجمهورية لم تظهر الى حيز الوجود الا منذ بضع سنوات ، ولكن كلا من السماء والشعب كانا منذ البداية غاضبين منها ومستائين . وبسبب الخير والسخاء العظيمين اللذين كانا لأسرة تشينغ التى حكمت أكثر من مائتى سنة ، يكن الشعب لهذه الأسرة خالص الود . فالسماء والشعب سينتهيان حتما الى اعادة هذه الأسرة الى السلطة . "

ومن بين المعلمين الخصوصيين الآخرين كان تشو يى فان يحب لعب الماجيانغ (١٥) طول الليل ، مما يجعله نتيجة ذلك يميل الى السبات خلال النهار . كما كان ليانغ دينغ فن مولعا فى سرد القصص عن نفسه . لقد تعودت أن أجد روحا ادبية مستعدة لدى هؤلاء المعلمين الخصوصيين ، ولكنهم لم يظهروا شيئا من زهد الأديب فى الربح عندما دعوتهم ليختاروا لأنفسهم هدايا من مجموعة التحف والكنوز التى فى القصر . وكانوا خبراء أيضا فى اصطياد مراتب الشرف ، وعرفوا كيف يتملقوننى فى تقديم لوحات التهنئة .

وجميع هؤلاء المعلمين الخصوصيين منحوا ألقابا سامية بعد الوفاة بحيث أصبحوا موضع حسد من الأحياء من أسرة تشينغ . ويمكن القول انهم حصلوا منى على كل ما يريدون وانهم أعطونى ردا على ذلك كل ما أريد بالرغم من ان كل ما كسبته فى الدراسة لم يخضع للامتحان فقد أرضيتهم ارضاء عظيما لقدرتي على التمييز بين الولاء والخيانة حين لم أتجاوز بعد الحادية عشرة من عمرى .

وفى السنة التى مات فيها الأمير تشينغ قدمت أسرته طلبا بأن يمنح لقب ما بعد الوفاة ، وأرسلت الي ادارة الأسرة قائمة اقتراحات . وبديهى ان تناقش مسألة كهذه مع المعلمين الخصوصيين ، ولكننى لم أذهب الى حجرة الدرس فى ذلك الوقت بسبب اصابتى بالأنفلونزا . لذلك اضطررت الى اتخاذ قرار بنفسى . ولما وجدت قائمة ادارة الأسرة غير مرضية نبذتها جانبا وكتبت قائمة أخرى بألقاب مهينة جدا ثم أرسلتها الى ادارة الأسرة . فجاء والدي الي بسبب ذلك وطفق بصوته المتلعثم يرجونى ان أتذكر أن الامير ينتمى الى الأسرة الامبراطورية . فرفضت بكل عناد بحجة ان الأمير تشينغ كان خائنا للأسرة .

وعندما ذهبت الى حجرة الدرس فى اليوم التالى وأخبرت تشن باو تشن بالأمر سر غاية السرور وابتسم حتى تحولت عيناه الى مجرد شقين ضئيلين ،

وعبر عن اعجابه واستحسانه التامين بالطريقة التى واجهت فيها أبي . وكان اللقب الذى أختير أخيرا للأمير تشينغ هو اللقب الذى رأيته فى الأصل مهينا ، ولكنه كما اكتشفت فى وقت متأخر فيما بعد ـ يلمح الى أننى قد صفحت عنه .

الخصيان

لن يكتمل وصف طفولتى دون ذكر الخصيان . لقد قاموا على خدمتى فى مأكلى وملبسى ومنامى ، وصاحبونى فى نزهاتى ودروسى ، وقصوا علي القصص ، وتلقوا منى المكافآت والعقوبات . وكانت هناك أوقات لا يكون معى فيها أناس آخرون الا الخصيان الذين لم يبرحونى أبدا . لقد كانوا المصاحبين الرئيسيين لي فى طفولتى ، وكانوا كذلك عبيدى ، وكانوا لي المعلمين الاوائل .

واذا كنت غير متأكد متى بدأ استخدام خصيان البلاط ، فاننى أعرف بالضبط متى انتهى : فى اليوم الذى خلعت فيه عن العرش للمرة الثالثة فى النهاية المنصورة للحرب العالمية الثانية . وهذا ربما كان الوقت الذى كان فيه الخصيان أقل عددا ، اذ لم يكن قد بقى منهم الا عشرة . وقيل انهم كانوا لا يحصون عددا خلال أسرة مينغ (١٣٦٨-١٦٤٤) ، حيث وصلوا الى مائة ألف خصى . وعلى الرغم من أنه كانت هناك تحديدات لأعدادهم ووظائفهم خلال أسرة تشينغ ، الا انه كان ما يزال هناك ثلاثة آلاف خصى فى زمن الامبراطورة الأرملة تسى شى . وقد هرب معظمهم بعد نشوب ثورة ١٩١١ ، ومع ان بنود المعاملة التفضيلية نصت على عدم استخدام المزيد من الخصيان ، الا ان ادارة الأسرة استمرت فى استخدامهم سرا . ووفقا لقائمة مؤرخة فى سنة ١٩٢٢ كان ما يزال هناك ١١٣٧ خصيا . وبعد سنتين ، حين أمرت بعزل جماعي للخصيان بقى منهم حوالى ٢٠٠ كان معظمهم يعملون

فى خدمة الزوجات العليات وخدمة زوجاتى (اللاتى كان لديهن ما يقارب مائة وصيفة) . ومنذ ذلك الحين تألف عاملو القصر من الحراس والمرافقين والخدم الذكور وقد بدأ هؤلاء يقتصرون على الحضور نهارا والمغادرة مساء بحيث لا يبقى من الذكور الحقيقيين داخل المدينة المحرمة غير الحراس المناوبين ورجال أسرة الامبراطور .

لقد كانت واجبات الخصيان مكثفة جدا فالى جانب قيامهم بالخدمة طوال ساعات الليل والنهار كانت مهامهم الأخرى وفقا لأنظمة القصر تضم ما يلى : نقل المراسيم الامبراطورية ، اخذ المسئولين الى المقابلات ، تسليم الوثائق الرسمية الصادرة عن مكاتب ادارة الأسرة المختلفة ، استلام الأموال والحبوب التى ترسلها الخزائن من خارج القصر ، مراقبة الحرائق ، العناية بكتب المكتبة والمحافظة على التحف والخطوط والصور والثياب وبنادق الصيد والأقواس والسهام والجوائز الامبراطورية والبرونزيات القديمة والأحزمة الصفراء والفواكه الطرية والجافة ، احضار الاطباء الامبراطوريين للعمل داخل القصور المتعددة ، الاشراف على المواد التى يستخدمها داخل القصر بناؤون من الخارج ، اشعال البخور أمام سجلات ووصايا أسلاف الامبراطور وصورهم وأمام الآلهة ، تفتيش القادمين والخارجين من موظفى الدوائر المختلفة ، تدوين اسماء الزائرين من أعضاء أكاديمية هانلين واسماء ضباط الحرس ، حفظ الأختام الامبراطورية ، تسجيل تصرفات العاهل ، جلد الخصيان والوصائف المذنبين ، اطعام مختلف الكائنات الحية داخل القصر ، تكنيس مبانى القصر وترتيب الحدائق ، اختبار دقة الساعات المنبهة ، حلاقة شعر الامبراطور ، تحضير الدواء ، الاشراف على الأوبرا ، القيام بالتراتيل البوذية وحرق البخور بوصفهم رهبانا تاوين فى معبد المدينة ، الحضور بوصفهم لامات (١٦) فى معبد يونغ خه قونغ بالنيابة عن الامبراطور ، وواجبات أخرى كثيرة .

وينقسم الخصيان داخل القصر الى فئتين رئيسيتين : العاملين من جهة

فى خدمة الامبراطورة الأرملة والامبراطور والامبراطورة والزوجات ، والعاملين فى المجالات الأخرى من جهة ثانية . وكانوا مرتبين ترتيبا محددا جدا ، ويمكن تقسيمهم الى قهارمة كبار ، ورؤساء خصيان وخصيان عاديين . وكان هناك قهارمة كبار ورؤساء خصيان فى خدمة الامبراطورة الأرملة والامبراطورة ، أما زوجات الامبراطور فلم يكن عندهن الا رؤساء خصيان . وأعلى مرتبة وصل اليها خصى بالتسلسل الطبيعى هى المرتبة الثالثة ، ولكن لي ليان ينغ الخصى المفضل لدى الامبراطورة الأرملة تسى شى حصل لأول مرة على المرتبة الثانية الأعلى ، وقد منح تشانغ تشيان خه القهرمان الكبير فى خدمتى هذا الشرف أيضا . والخصيان الآخرون كانوا مصنفين ما بين المرتبة الثالثة الى التاسعة ، ودونهم يأتى الخصيان العاديون الذين لا مراتب لهم ، وبينهم ذوو المكانة المتدنية الذين كانوا يرسلون بقصد العقوبة الى العمل خداما فى مكتب التنظيف . وكانت الرواتب الرسمية للخصيان منخفضة نوعا ما ، فأعلاها كان ثمانية تايل من الفضة وثمانية جينات من الأرز وثلاثمائة قطعة نحاسية من النقود شهريا ، مع " زيادات " متنوعة شرعية وغير شرعية ، ولكن دخلهم الفعلى كان أكثر من ذلك بكثير ، لاسيما أولئك الخصيان الأعلى مرتبة . مثلا روان جين شو ، القهرمان الثانى فى خدمتى ، كان غنيا جدا بحيث كان يغير فى الشتاء ثوبا من الفرو كل يوم ، ومع أن هذه الأثواب قد تضمنت عددا من فراء السمور المختلفة الا أنه لم يكن يلبس الثوب مرتين . وقد لبس فى عيد رأس السنة عباء من فرو القضاعة البحرية تساوى وحدها نفقة موظف صغير مدى حياته . وكانت لكل القهارمة الكبار تقريبا وكثير من رؤساء الخصيان مطابخهم الخاصة ، بل كانت لبعضهم " عوائل " كاملة تتألف من الوصائف والخادمات .

وكانت حياة الخصيان البسطاء من جهة ثانية فى غاية الصعوبة ، فقد كانوا بائسين ومعرضين باستمرار للعقوبات كالجلد وغيره . ولم يكن لهم من يخدمهم

فى شيخوختهم ، وكانوا مضطرين الى العيش على "حصيلة" امبراطورية ضئيلة جدا . واذا ما طردوا بسبب ارتكابهم خطأ ، فلن يجدوا سبيلا غير التسول أو الموت جوعا .

والخصيان الذين كانوا على أوثق صلة بى هم خصيان قصر تهذيب النفوس ، لا سيما الصغار الذين كانوا يلبسوننى ويخدموننى على المائدة وكانوا يعيشون فى مجازين ضيقين خلف قصر تهذيب النفوس ، وكل من هذين المجازين كان تحت اشراف أحد رؤساء الخصيان . وجميع هؤلاء الخصيان كانوا تحت امرة القهرمان الكبير تشانغ تشيان خه ونائبه روان جين شو . عندما كانت الامبراطورة الأرملة لونغ يوى على قيد الحياة أرسلت أحد قهارمتها الكبار ليصبح "آندا" لدي ، وظيفته العناية بى وتعليمى قواعد التشريفات فى القصر . ولكننى لم أوليه أدنى ثقة أو مودة مما كنت أمنح تشانغ تشيان خه . فقد كان معلمى الأول حقا وكان فى ذلك الوقت كهلا يقارب الخمسين مع حدبة صغيرة فى ظهره . وقد علمنى بأمر من لونغ يوى ان أميز بين المقاطع المطبوعة بالحجم الكبير على البطاقات ومن ثم قرأ معى فى النصوص الأولية : «كتاب الثلاثيات» و«أسماء الأسر المائة» . وبعد ان بدأت دراستى الرسمية أصبحت مهمته عادة ان يقف خارج غرفة نومى ويقرأ بصوت جهورى دروس اليوم السابق ليساعدنى على تذكرها . وكان ، شأنه شأن للقهرمان الكبير لدى أى امبراطور ، ينتهز كل فرصة سانحة ليظهر ولاءه لي . وكنت غالبا أتنبأ بالتطورات فى الوضع الخارجى من تغيراته المزاجية ، كماكنت أستطيع أن أحكم من خلال نبرة صوته وهو يقرأ لي الدروس صباحا ان كان قلقا او سعيدا بخصوص شؤونى .

كان تشانغ تشيان خه أول مرافق لي فى ترحالي : وكان من عادته ان يسابقنى فى الالعاب ، ولكننى بالطبع كنت دائما أفوز بسهولة . وأذكر أنه فى أحد أعياد رأس السنة ، عندما دعتنى الزوجة العلية جينغ يى الى قصرها

لألعب النرد ، كان هو راهن المال ، وقد ظل الرقم الذى رهنت عنده نقودي يربح الى ان جردته من كل ما فى خزنته . فلم يبال بذلك لأن النقود كلها كانت من مال الزوجة العلية .

وكنت ، كأى صبى آخر ، مولعا بالاستماع الى القصص . والقصص التى رواها لي تشانغ تشيان خه وكثير من الخصيان الآخرين يمكن تقسيمها الى نوعين : قصص الأشباح حول القصر وقصص الخرافات حول "جميع الأرواح التى تساعد ابن السماء المقدس" . ووفقا لهذه القصص فان كل شيء فى القصر — الغرانيق البرونزية ، والجرار الذهبية والحيوانات المائية والأشجار والآبار والصخور وما الى ذلك — قد تحول فى وقت ما الى روح وأظهر قواه السحرية ، ناهيك عن تماثيل البوذا الطينية كقوان يوى ، آله الحرب ، وآله تشن وو . ومن خلال هذه القصص التى لم أمل سماعها اعتقدت ان جميع الأشباح والأرواح تحاول كسب عطف الامبراطور ، وأنه كان بينها من لم ينجح فى مسعاه ، وانها جميعا سعت لاظهار ان الامبراطور أسمى مخلوق فى الوجود .

وقال الخصيان ان غرنوقا فى احدى قاعات القصر قد حدث له انبعاج فى ساقه اليسرى لانه ، عندما حول نفسه الى روح ليحمى الامبراطور تشيان لونغ خلال رحلته الى جنوبى الصين ، أصيب صدفة بسهم من قوس الامبراطور . فخاب أمله خيبة شديدة بحيث انسل عائدا ليقف فى موقعه الأصلى داخل القصر . ويقال ان الانبعاج الصدىء فى ساقه اليسرى هو اثر الجرح المتسبب عن السهم . وقالوا أيضا ان الصنوبرة المعمرة المنتصبة عند بركة السمك الغربية داخل الحديقة الامبراطورية قد ظللت تشيان لونغ خلال رحلة من رحلاته تلك الى الجنوب ، وبعد عودته كتب قصيدة فى مدحها لتنقش على جدار مجاور . وما تضمنته هذه القصيدة كان شيئا مما لا يأبه له هذا الخصى الجاهل .

وكانت هناك خرافة حول الدرة فى القبعة الامبراطورية . فقد قيل انه بينما كان تشيان لونغ ذات يوم يتمشى بجانب جدول داخل قصر يوان مينغ يوان لحظ شيئا يشع فى الماء وما لبث ان اختفى عندما أطلق عليه ببندقية صيد . فأمر بالبحث عنه فى الجدول ، فوجدوا درة فى داخل سمك بطلينوس الضخم . وبعد ان أصبحت درة قبعة أخذت تطير من تلقاء نفسها وتعود الى مكانها حتى ثقبت بأمر من الامبراطور وصنعت لها ركوبة ذهبية ، فلزمت مكانها لا تبرحه .

عندما كنت طفلا اعتقدت بهذه القصص اعتقادا مطلقا ، ويمكن رؤية ذلك من الحادثة التالية : مرة كنت مريضا وانا فى سن السابعة او الثامنة تقريبا ، فجلب لى تشانغ تشيان خه حبة دواء ارجوانية لأتناولها . وعندما سألته عن نوع هذا الدواء قال : " لقد رأى عبدكم فى حلمه رجلا عجوزا بلحية بيضاء امسك بيده حبة دواء وقال لي انها حبة الخلود جلبها خصيصا كهدية متواضعة الى السيد المديد العمر . " فسررت لسماع ذلك بحيث نسيت مرضى وأخذت الحبة الى مقار الزرجات العليات الأربع ليقتسمنها بينهن متذكرا فى ذلك قصص الأبناء الابرار الأربعة والعشرين . ولابد ان يكون تشانغ تشيان خه قد نبه أمهاتى الأربع الى ذلك لأنهن جميعا ظهرن مغمورات بالسرور ، واشدن ببري لهن . وعندما صادف ان ذهبت مرات الى الصيدلية الامبراطورية لآخذ بعض الدواء لاحظت بعض الحبوب العادية التى بدت مثل " حبة الخلود " تماما . ولكم ان تصدقوا أو لا تصدقوا اننى على الرغم من خيبة الأمل الصغيرة التى أصبت بها بقيت أعتقد بقصة ذلك العجوز ذى اللحية البيضاء .

وفى الوقت الذى جعلتنى فيه هذه القصص فخورا بنفسى على نحو مفرط جعلتنى كذلك أخاف الأشباح منذ نعومة أظفارى . فاستنادا الى ما رواه الخصيان كانت هناك أشباح وأرواح فى كل ركن من أركان القصر . فالممر

خلف قصر يونغ خه قونغ (قصر السلام الدائم) كان المكان الذى تقبض فيه الأشباح على الناس من رقابهم ، والبئر خارج بوابة جين خه من كانت بيتا لحشد من الشيطانات ، ولو لم تكن هناك قطعة من الحديد فوق البوابة تبقى هذه الشيطانات فى الداخل لكن يخرجن كل يوم . ويقال انه كل ثلاث سنوات يخرج شبح ويجر أحد المارة عبر أحد الجسور الى البحيرات التى فى داخل القصر . وكنت كلما ازددت استماعا لهذه القصص ازددت خوفا ، وكلما تعاظم خوفي اشتدت رغبتى فى سماعها . وبدءا من سن الحادية عشرة تقريبا أصبحت مدمنا على كتب القصص الخرافية (التى جلبها لي الخصيان) ، وهذه القصص مع تقديمات الاضاحى الاسلافية للآلهة والطقوس البوذية ورقصات الأرواح التى كان يؤديها سحرة سامان طوال سنة وما الى ذلك جعلتنى أكثر خوفا من الأشباح والأرواح ومن الظلمة ومن الرعد والبرق ومن بقائى وحيدا فى الغرفة .

وكان ينبعث مع كل غروب عندما ينصرف العاملون فى القصر الى أماكنهم نداء يثير القشعريرة من داخل قصر تشيان تشينغ (قصر السماء الصافية) — مركز المدينة المحرمة الهادئ : " اسحبوا المزاليج ، اقفلوا ، انتبهوا الى المصابيح . " ومع تلاشى آخر هذه الأصوات تنبعث موجات مع الأصداء الشبحية من الخصيان المناوبين فى جميع زوايا القصر . وهذا العرف الذى سنه الامبراطور كانغ شى للخصيان قد ملأ القصر بجو مخيف . فلم أكن أجرؤ على الخروج لقضاء الحاجة مساء ، وأشعر كأن أشباح القصص وشياطينها جميعا قد احتشدت حول النوافذ والأبواب .

ولم يكن القصد من هذه القصص التى تعود الخصيان ان يغذونى بها هو مجرد اخافتي او تملقي بها ، فقد كانوا هم أنفسهم مؤمنين بالخرافة الى أبعد حد . وكان تشانغ تشيان خه ، الذى لم يكن استثناء ، كلما تواجهه مشكلة يستخير «سجلات علبة اليشب» قبل اتخاذ القرار . وكان الخصيان العاديون

يقدمون بورع شديد قرابينهم الى "آلهة القصر" : المكونة من الأفاعى والثعالب وبنات عرس والقنافذ . وكان هنالك تنوع كبير فى اشكال العبادة داخل القصر التى كان يمارسها البيت الامبراطورى ، ولكن آلهة القصر كانت آلهة للخصيان فقط ، ولم تكن مشمولة بالقرابين التى تقدمها الأسرة المالكة : واستنادا الى ما رواه الخصيان فان آلهة القصر قد جعلها أحد الأباطرة آلهة خالدة من المرتبة الثانية . وقد أخبرنى خصى ذات مرة انه بينما كان يسير ذات مساء على السلم خارج قصر السماء الصافية (تشيان تشينغ قونغ) أمسك به رجل يلبس قبعة من المرتبة الثانية وثيابا رسمية وشارات وألقى به الى أسفل السلم : هذا كان واحدا من آلهة القصر . والخصيان لا يأكلون لحم البقر ، وأحدهم قال لي انهم اذا ما خالفوا هذا التحريم فان آلهة القصر ستعاقبهم بأن تجعلهم يفركون شفاههم فى لحاء شجرة الى ان تدمى . وكلما دخل الخصيان قاعة فارغة صاحوا بصوت عال "افتحوا القصر" قبل ان يفتحوا الباب ، وبذلك يتجنبون عقوبة عدم الاستئذان على الآلهة . وفى اليوم الأول واليوم الخامس عشر من كل شهر ، كما فى عيد رأس السنة والأعياد الأخرى ، يقدمون لهذه الآلهة ، قرابين من البيض وجبنة فول الصويا المجففة والمشروبات الكحولية والكعك ، ويضيفون فى عيد رأس السنة والأعياد الأخرى خنازير وخرافا كاملة الى جانب مقادير هائلة من الفواكه وبالنسبة للخصيان ذوى الأجر الزهيد والمراتب المتدنية فان قرابينهم هى الأعباء ، ولكنهم كانوا ينهضون بها مسرورين أملا منهم ان تحميهم آلهة القصر من الجلد والأشكال الأخرى من المعاملة الرديئة التى كانوا يتعرضون لها غالبا .

وكان لدى الخصيان طرق كثيرة لزيادة دخولهم الاضافية . وهناك وصف فى المسرحيات والروايات يبين كيف اضطر الامبراطور قوانغ شيوى الى اعطاء لى ليان ينغ نقودا ، ولي هذا هو قهرمان قصر الامبراطورة الأرملة تسي شي ، والا فانه كان يصعب عليه الأمور ويرفض اشعاره عندما كان

يذهب لتقديم احتراماته الى تسى شى . ومع أن أشياء كهذه لا يمكن ان تحدث فى الحقيقة فقد سمعت الكثير عن ان الخصيان تعودوا ابتزاز النقود من المسئولين الكبار . ففى وقت زواج الامبراطور تونغ تشى أهملت ادارة الأسرة تقديم الرشاوى لبعض الخصيان فى القصر ، فاستدعى خصيان القسم المذكور فى يوم الزفاف موظفا من ادارة الأسرة وقالوا ان لوح زجاج فى احدى نوافذ القصر قد تصدع . ولما كان هذا الموظف لا يستطيع ان يرقى عتبة القصر حسب العرف السائد فقد اضطر ان ينظر الى الصدع من بعيد . وكان خائفا من الوقوع فى ورطة شديدة اذا سمعت تسى شى ان هناك شيئا مشؤوما كنافذة مكسورة فى يوم الزفاف ، فقال الخصيان حينذاك انه لا حاجة الى البحث عن عامل لأن بوسعهم هم ان يبدلوا لوح الزجاج . ومع ان موظف ادارة الأسرة تأكد ان هذه كانت عبارة عن خدعة ، الا انه لم يكن أمامه من خيار سوى ارسال مبلغ من النقود اليهم لاصلاح الصدع ، الذى لم يكن فى الحقيقة غير جديلة شعر ألصقت عليه .

عندما كان تشونغ لون ، والد شيه شو ، واحدا من كبار موظفى ادارة الأسرة أخفق ذات مرة فى توزيع الرشاوى الكافية ، فانتظره يوما أحد الخصيان الذين لم يرضوا بنصيبهم من الرشوة عندما كان ذاهبا الى اجتماع مع الامبراطورة الأرملة ، وألقى متعمدا طستا مملوءا بالماء ، وبلل سترته المخيطة من فرو السمور ، ثم تظاهر الخصى بالذهول ورجاه ان يعاقبه . وكان تشونغ لون فى حالة لا تمكنه من اظهار الغضب حيث ان الامبراطورة الأرملة تنتظره . لذلك رجا الخصى ان يفكر فى مخرج . فأخرج له الخصى سترة أخرى من فرو السمور قائلا : " مكاننا المتواضع هذا سيكون شاكرا جدا لسيادتكم اذا تمكنا من ان نشارك حظكم السعيد ، ونحن نعرف أنكم ستكونون فى غاية السخاء . " وكان الخصيان يحتفظون دائما بمجموعة كاملة من ملابس البلاط كى تؤجر الى كبار الموظفين فى الساعات الحرجة . ولم يكن أمام تشونغ

لون من خيار الا أن يخضع لهذا الابتزاز ويدفع "أجرة" فاحشة .

وأخبرني موظف سابق في ادارة الأسرة انه عندما تزوجت قام القهرمان الكبير الذى كان عندي واسمه روان جين شو (الذى حل محل تشانغ تشيان خه) بابتزاز مبلغ ضخم من النقود من ادارة الأسرة . فقد كانت الادارة حددت ، بناء على أمر مني ، نفقات الزفاف في حدود ٣٦٠ ألف تايل من الفضة ، وكان قسم من هذا المبلغ بعد حساب التكاليف الفعلية قد خصص للخصيان لكنهم استقلوه ، لذلك أحبط القهرمان الكبير الخطة بكاملها . فاضطر أحد موظفي ادارة الأسرة الى الذهاب الى مقره لحل المشكلة ، ولكن توسلاته وتملقه لم تجد نفعا الا بعد ان تمت الموافقة على طريقته في تصريف الأمور .

ولكنني أعتقد ان تشانغ تشيان خه وروان جين شو لا يقاسان بتشانغ يوان فون ، القهرمان الكبير لدى الامبراطورة لونغ يوى . فعندما كنت في تيانجين كان هو الآخر يقيم هناك في قصر فاخر داخل منطقة الامتيازات البريطانية ويعيش حياة أمير حرب مع عدد من الحظايا وحشد من الخدم . وهناك هربت احدى حظياته الى دائرة الشرطة التابعة لمنطقة الامتيازات البريطانية لتنجو بنفسها من قسوته ، ولكن النفوذ العجيب لثروته جعل دائرة الشرطة البريطانية لا تهتم أدنى اهتماما بحمايتها بل أعادتها الى تلك الأسرة الجهنمية حيث أمر القهرمان بضربها حتى الموت ، ولم يجرؤ أحد على لمسه .

مربيتي

جاء فى دفتر يومياتى الذى دون فيه معلمى الخصوصى ليانغ دينغ فن نشاطاتى وأقوالى ما يلى عن يوم ٢١ فبراير ١٩١٣ :

جلالته غالبا ما يضرب الخصيان ، فقد أمر مؤخرا بجلد سبعة عشر خصيا على ذنوب بسيطة . وتابعه تشن باو تشن وآخرون حاولوا اقناعه بالعدول عن ذلك ، ولكن جلالته رفض قبول نصحهم .

وهذا أذكره لأبين كيف ان جلد الخصى كان جزءا من روتين حياتى اليومية وانا فى سن الحادية عشرة . ان قسوتى وحبى استخدام سلطتى كانا راسخين كل الرسوخ بحيث لم تؤثر في النصائح أدنى تأثير .

كنت كلما تعكر مزاجى او شعرت بالاكتئاب يؤتى الي بالخصيان لأعذبهم ، ويكون كذلك اذا كنت منشرح الأسارير ورغبت فى بعض ضروب التسلية . لقد كانت لي فى طفولتى كثير من الأمزجة الغريبة ، ففيما عدا اللعب مع الجمال وحفظ النمال وتربية الديدان ومراقبة العراك بين الكلاب والثيران ، كنت أجد متعة عظيمة فى تدبير مكايد للناس . وقبل فترة طويلة من تعلمي كيف أجعل المكتب الادارى يضرب الناس تعرض كثير من الخصيان لأذى ألاعيبى السمجة . فذات مرة ، عندما كنت فى السابعة او الثامنة من عمرى تقريبا ، خطرت لي فكرة بارعة : أردت ان أرى ان كان أولئك الخصيان الارقاء مطيعين حقا لـ " ابن السماء المقدس " ، فناديت أحدهم وأشرت الى قطعة من القذارة فى أرضية الغرفة وأمرته قائلا : " كل هذا أمامى ! " فجثا وأكلها . ومرة أخرى أوشك خصى ان يموت نتيجة رشي له بمضخة اطفاء .

وكبرت والناس من حولي ينقادون لكل نزوة من نزواتى ويطيعوننى طاعة تامة فطورت هذا المزاج الى القسوة . ومع ان معلمى الخصوصيين حاولوا اقناعى بالعدول عن ذلك من خلال حديثهم عن " سبيل الشفقة والاحسان "، الا انهم اعترفوا فى الوقت نفسه بسلطتى كما علمونى ما يتعلق بهذه السلطة . وعلى الرغم من القصص الكثيرة التى رووها لي عن الملوك المشهورين والحكام الحكماء فى التاريخ ، فقد بقيت الامبراطور " المختلف عن الناس العاديين " ، لذلك لم يترك حديثهم علي الا تأثيرا ضئيلا .

لكن هناك شخصا واحدا داخل القصر استطاع ان يحد من قسوتي هو مربيتى السيدة وانغ . فمع انها كانت أمية تماما وغير قادرة على التحدث عن " سبيل الشفقة والاحسان " او عن الملوك المشهورين والحكام الحكماء فى التاريخ ، الا اننى لم أستطع تجاهل النصح الذى كانت تقدمه لي .

ذات مرة سررت سرورا عظيما بعرض للدمى قدمه أحد الخصيان بحيث قررت ان أكافئه بكعكة . ثم خطر لي خاطر سىء ، ففتحت حقيبة ملأى ببرادة الحديد التى كنت أستخدمها فى اجراء التمارين ، ووضعت قليلا من هذه البرادة داخل الكعكة . وعندما رأت مربيتى ما أقوم به قالت لي :

— أيها السيد ، من يقدر على أكل هذه البرادة ؟

— أريد ان أرى كيف سيبدو عندما يأكل الكعكة .

— ولكنه سيكسر أسنانه . اذا كسر أسنانه فلن يقدر على أكل أى شيء آخر ، واذا لم يستطع ان يأكل شيئا فأين سيصبح عند ذلك ؟

واستطعت ان أتبين أنها محقة ، ولكننى لم أشأ التخلى عن هذه التسلية ، فقلت :

— أريد فقط ان أراه يكسر أسنانه هذه المرة .

فاقترحت المربية عندها ان أضع حبات عدس بدلا من البرادة وهكذا أنقذت ذلك الخصى من كارثة .

وذات مرة عندما كنت ألعب ببندقية هوائية واطلق مقذوفاتها على مساكن الخصيان محدثا ثقوبا صغيرة فى نوافذهم ، كنت اذذاك أمتع نفسى حقا . فأرسل أحدهم الى مربيتى لتأتى لانقاذ الخصيان .

ـ أيها السيد ، يوجد أناس داخل المساكن . . ولابد من ان تؤذيهم اذا أطلقت الرصاص على البيت !

وعندها فقط خطر لي انه يمكن ان يكون هناك أناس فى الغرفة وانهم يمكن ان يتعرضوا لأذى . لقد كانت الشخص الوحيد الذى دأب يخبرنى بأن الناس الآخرين بشر مثلي تماما ، فأنا لم أكن الانسان الوحيد الذى يملك أسنانا ، فالناس الآخرون يملكون أسنانا كذلك . وأسنانى ليست الوحيدة التى لم تخلق لقضم البرادة الحديدة . وكما اننى احتاج الى الأكل فان الآخرين يشعرون بالجوع اذا هم لم يأكلوا . فالناس لهم مشاعر ، ويشعرون بنفس الألم اذا أصابهم رصاص البندقية الهوائية . كانت هذه هى المعرفة المشتركة التى عرفتها كما عرفها غيري . ولكن فى ذلك المحيط وجدت من الصعب الى حدما ان أتذكرها لاننى لم أكن أبدا أقيم للآخرين اعتبارا ، ناهيك عن التفكير فى أنهم يتمتعون مثلى بنفس الصفات البشرية . فى ذهني لم يكن الآخرون الا عبيدا لي اوأتباعا . وخلال سنواتي كلها التى قضيتها داخل القصر كانت كلمات مربيتى الأمية وحدها هى التى تذكرنى بأن الآخرين هم أناس مثلي .

ترعرعت فى حضن مربيتى الى ان بلغت الثامنة ، وحتى ذلك الحين بقيت غير مفصول عنها كما الطفل لا يمكن فصله عن أمه . وعند هذا العمر طردتها الزوجات العليات دون معرفتى . وكنت أريدها ان تبقى معى بدلا من أمهاتى الأربع جميعهن ، ولكن على الرغم من صراخى وبكائى الا انهن لم يرجعنها . وأرى الآن انه لم يبق حولى فى ذلك الوقت أحد يفهم الانسانية حقا منذ ذهبت مربيتى . وقد فقدت بعدها ذلك اللون من الانسانية

الذى تعلمته منها قبل سن الثامنة .

وبعد زواجي ارسلت أناسا يبحثون عنها فوجدوها ، وكنت أحيانا أجلبها لتقيم معى بضعة أيام . وفى أواخر عهد " امبراطورية مانشوريا " جلبتها الى تشانغتشون وبقيت أعيلها هناك الى ان تركت الشمال الشرقى . وفى كل ذلك لم تستغل مطلقا مركزها الخاص لترجو منى أى احسان . وكانت لها طبيعة هادئة فلم تتخاصم مع أحد أبدا . وعلى وجهها الوسيم كانت ترتسم دائما ابتسامة رقيقة ، وكانت على الغالب صامتة . واذا لم يبادرها شخص آخر بالكلام ، فانها تكتفى بالتبسم دون التلفظ بأية كلمة . وعندما كنت صغيرا تعودت ان أجد ابتساماتها تلك غريبة نوعا ما . فقد بدت عيناها كأنهما مثبتتان على شيء بعيد ، بعيد جدا جدا ، وكنت أتساءل غالبا ان كانت قد رأت شيئا ممتعا فى السماء خارج النافذة او فى صورة معلقة على الجدار . ولم تتكلم أبدا عن حياتها الخاصة وتجاربها . وبعد العفو الخاص عنى زرت ابنها بالتبنى واكتشفت أية معاناة واى اذلال الحقتهما " أسرة تشينغ العظيمة " بهذه المرأة التى أرضعت " امبراطور تشينغ العظيم " من حليبها .

لقد ولدت سنة ١٨٨٧ فى أسرة فلاحية فقيرة تدعى جياو فى احدى قرى محافظة رنتشيو بمقاطعة تشيلى (مقاطعة خبى اليوم) . وكانت أسرتها تضم ثلاثة أفراد عداها هى والديها وأخ أكبر منها بست سنوات . وحين كان والدها فى خمسين من عمره كان يستأجر قطعة أرض منخفضة كانت تجف اذا انقطع المطر وتغرق اذا أمطرت . وبسبب أجرة الأرض والضرائب لم يكن يتوفر لديهم ما يكفى لسد رمقهم حتى فى سنى الخصب . وفى عام ١٨٩٠ حدثت فيضانات مدمرة فى شمالى تشيلى ، فاضطرت أسرتها الى ترك القرية والتشرد . وقد فكر والدها فى التخلى عنها عدة مرات خلال ترحالهم ، ولكنه كان دائما يعيدها الى احدى السلتين المتدليتين من على كتفيه . وكانت السلة الأخرى تحتوى على أسمال وفراش مهترىء هى كل ما يملكونه فى .

هذا العالم ، ولم يكن لديهم ذرة من طعام . وعندما حدثت فيما بعد ابنها بالتبنى كيف كان والدها يلقيها من السلة لم تتفوه بكلمة تذمر واحدة تجاهه ، بل كانت تكتفى بالقول انه كان جائعا منذ وقت طويل بحيث لم يعد يقوى على حملها ، ولم يكن قادرا على ان يستجدى فضلات الطعام خلال ترحالهم لان كل من قابلوه كانوا مثله او أسوأ منه حالا .

وأخيرا تمكن الولدان من الوصول مع ابنهما الذى كان فى التاسعة وابنتهم التى فى الثالثة الى بكين . وتوجهوا الى بيت خصى من أقربائهم ، لكنه رفض استقبالهم فاضطروا الى الطواف فى الشوارع متسولين . كانت بكين حينذاك غاصة بعشرات الآلاف من المشردين الذين كانوا ينامون فى الشوارع ويئنون من شدة الجوع والبرد . وفى ذلك الوقت بالذات كان البلاط ماضيا فى أعمال بناء واسعة النطاق عند القصر الصيفى ، وكانت أسرتى تبدد الاموال على جنازة جدي الأمير تشون كما تبدد التراب . وفى تلك الأثناء كان ضحايا الفيضانات الذين جمعت هذه النقود من عرقهم ودمهم على شفا الموت فأخذوا يبيعون أبناءهم . وقد أرادت أسرة جياو ان تبيع ابنتها ، ولكنها لم يجدوا شاريا . وقد استطاعوا البقاء على اى حال فى بكين بقية الشتاء بعد ان فتح والى شونتيانغو مطبخ حساء الرز للمشردين كوسيلة للحد من القلاقل . كما انضم الولد الى حلاق ليخدمه ويتعلم منه المهنة .

ومع قدوم الربيع فكر الفلاحون المشردون بأراضيهم وقوبلوا باحتمال اغلاق مطبخ حساء الأرز قريبا ، لذلك انطلقوا الى موطنهم ثانية . وهناك فى القرية أمضى أفراد أسرة جياو عدة سنوات أخرى فى البرد والجوع وفى عام ١٩٠٠ قامت جيوش الدول الأجنبية المتحالفة بتدمير تلك المنطقة . وكانت ابنة تلك الأسرة حينذاك فتاة فى الثالثة عشرة من عمرها ، ففرت ثانية الى بكين حيث أقامت مع أخيها الحلاق . ولكنه لم يكن قادرا على اعالتها ، فسلمت نفسها حين بلغت السادسة عشرة الى ساع فى السراى يدعى وانغ لتعيش معه

نصف جارية ونصف زوجة . وكان زوجها مساولا ويعيش حياة ماجنة . وقد انجبت منه طفلة بعد ثلاث سنوات . وبعد ذلك بوقت قصير توفى زوجها تاركا زوجته وابنته ووالدين معوزين .

كان هذا تقريبا فى الوقت الذى ولدت انا فيه ، وكانت أسرة الأمير تشون تبحث عن مرضعة لي . وقد اختيرت هى من بين عشرين متقدمة لما كانت تتمتع به من صحة ومظهر سار ووفرة فى حليبها . ومن أجل الأجرة التى استطاعت ان تعيل بها والدى زوجها وابنتها قبلت بالشروط الممعنة فى الاذلال : لم يكن مسموحا لها بالعودة الى البيت او برؤية طفلتها ، وان تأكل كل يوم صحنا من اللحم السمين غير المملح ، وما الى ذلك . وهكذا مقابل تايلين من الفضة كل شهر تحولت المخلوقة الى بقرة حلوب .

وفى السنة الثالثة من دخولها القصر ماتت طفلتها من سوء التغذية ، ولكن أسرتى ظلت تخفى عنها هذا الخبر لئلا يؤثر ذلك على نوعية حليبها . وفى السنة التاسعة تعاركت احدى الخادمات مع خصى ، فقررت الزوجات العليات طردهما وطرد مربيتى أيضا . وعندها فقط اكتشفت هذه المرأة الطيعة التى عانت طويلا وتحملت كل شيء خلال تلك السنوات التسع بابتسامة ضئيلة ونظرة متروية ان طفلتها قد ماتت منذ وقت طويل !

الفصل الثالث

من المدينة المحرمة الى المفوضية اليابانية

عهد يوان شي كاي

كان أمرا غريبا فى الصباح داخل المدينة المحرمة ان يسمع المرء أحيانا فى أعماق القصر أصوات العالم الخارجى . فبوسعك ان تستوضح تماما صيحات الباعة المتجولين وصرير العجلات الخشبية للعربات الثقيلة ، وأحيانا أصوات الجنود يغنون . وكان من عادة الخصيان ان يسموا هذه الظاهرة " مدينة الأصوات " . وبعد ان تركت المدينة المحرمة كنت أتذكر غالبا " مدينة الأصوات " والصور الغريبة التى كانت تخطر فى مخيلتى . والذى ترك عندى أعمق الانطباعات هو الموسيقى العسكرية التى كانت تسمع أحيانا من داخل قصر رئيس الجمهورية المجاور . وقد قال لي القهرمان الكبير تشانغ تشيان خه ذات مرة : " ان يوان شي كاى يأكل الآن . ان الموسيقى تعزف فى أثناء الوجبات ، وهى أفخم من موسيقى جلالتكم ! "

ومن ملامح وجهه بدا واضحا انه كان فى غاية الاستياء . وعلى الرغم من اننى لم أكن قد تجاوزت الثامنة من عمري فى ذلك الوقت ، الا اننى استطعت ان أستبين لمسة الحزن من صوته الصارم . كان ضجيج الأجواق العسكرية قد جلب لي صورة من أكثر الصور اذلالا : يوان شي كاى جالس هناك وأمامه من الاطباق أكثر مما لدى الامبراطورة الأرملة ، وجيش من الخدم يقوم على خدمته ، يعزفون له الموسيقى ويهزون المراوح . . .

وكانت هناك " مدينة أصوات " أخرى أصبحت أكثر فأكثر اهتماما بها عندما كبرت ، تلك هى الاشاعات التى سمعت عنها من معلمى الخصوصيين حول اعادة الملكية .

ان اعادة الملكية فى لغة المدينة المحرمة كانت تعنى " استرداد الميراث السلفى " ، وفى لغة كبار الموظفين السابقين من أسرة تشينغ كانت تعنى " العودة المجيدة للنظام القديم " او " اعادة السلطة الى أسرة تشينغ " : والنشاطات لتحقيق هذا الهدف لم تبدأ مع اعادة الملكية القصيرة الأمد عام ١٩١٧ ، ولم تنته كذلك مع الهروب الى المفوضية اليابانية عام ١٩٢٤ . ويمكن القول بأن هذه النشاطات لم تتوقف قط ، بدءا من اعلان التنازل عام ١٩١٢ وحتى تأسيس " امبراطورية مانشوريا " عام ١٩٣٤ (١٧) . لقد لعبت دوري فى البداية تحت توجيه الكبار ، ولكننى أصبحت فيما بعد قادرا على التصرف بمبادرتى الذاتية ، مسترشدا بمواهبى الطبقية . فى صباي كان المعلمون الخصوصيون هم موجهي ، ومن ورائهم كان بالطبع كبار الموظفين فى ادارة الأسرة ووالدي ، الذين اشرفوا على شؤون البيت الامبراطورى بموافقة رئيس الجمهورية . ومع ان حماستهم لم تكن بأقل من حماسة اى شخص خارج القصر ، الا اننى فهمت بعد ذلك تدريجيا انهم لم يحصلوا على تخويل بالعمل على اعادة الملكية ، اذ لم تكن لديهم القوة الكافية لذلك ، بل انهم ادركوا ذلك بأنفسهم . ان المدينة المحرمة قد علقت آمالها ، وان بدا ذلك مضحكا ، على الارستقراطيين الجدد الذين أمسكوا بزمام الحكم بدلا من أسرة تشينغ . وأول وهم من هذه الأوهام كان هو الرئيس يوان شى كاى الذى أثار استياء المدينة المحرمة .

فى ٣٠ ديسمبر ١٩١٢ جاء معلمى تشن باو تشن الى حجرة الدرس ، وجلس ، وبدلا من ان يتناول ريشته الحمراء ليضع علامات الترقيم على المادة الدراسية نظر الي لحظة بابتسامة ساحرة وقال :

" غدا عيد رأس السنة وفقا للتقويم الغربى ، والجمهورية سترسل شخصا ما يقدم الى جلالتكم التهانى . وسيكون ذلك الشخص ممثل رئيس الجمهورية . "

لا أذكر ان كانت هذه هي المرة الأولى التى تصرف فيها بصفة موجه

سياسى لي ، ولكنها كانت المرة الأولى التى رأيته فيها فى احدى لحظاته النادرة التى يبدو خلالها مزهوا . وقال لي اننى يجب ان أعامل هذا الزائر الرسمى المبعوث من الجمهورية كما أعامل سفيرا لدولة أجنبية ، وعلي الا أقول شيئا ، وشاو ينغ ، احد كبار الموظفين فى ادارة الأسرة ، سيكون هناك ليصرف كل شيء ، وكلما سأفعله هو ان أجلس خلف طاولة التنين وأراقب ما يجرى .

وفى اليوم التالى ألبست الملابس الامبراطورية الكاملة المؤلفة من معطف وثوب عليهما رسم تنين ذهبى ، وقبعة محلاة بدرة وقلادة من اللؤلؤ ، وجلست على العرش بوقار فى قصر تشيان تشينغ (قصر السماء الصافية) . ووقف الى جانبي موظفان من الحضرة الامبراطورية ، والى جانبهما مشاورو الامبراطور والحرس الامبراطورى حاملا السيوف . ودخل تشو تشى تشيان مبعوث الرئيس يوان الى القاعة وانحنى لي من بعيد ، ثم تقدم بضع خطوات وانحنى ثانية ثم صعد منصة عرشي وقام بانحناءة ثالثة أشد من السابقتين ثم القى خطابه المشتمل على التهنئة . وعندما انتهى منه تقدم شاو ينغ من منصة العرش وركع أمامى . فأخذت كلمة الجواب التى كانت قد كتبت مسبقا من علبة خشبية مغطاة بحرير أصفر وسلمتها الى شاو ينغ الذى نهض ليقرأها للمبعوث . ثم ردها الي . وانحنى تشو تشى تشيان ثانية وانسحب . وانتهت المراسم هكذا .

وكان التغير فى الجو أكثر اتضاحا فى الصباح التالى . فقد رن صوت تشانغ تشيان خه بكل وضوح ، وهو يقرأ على مسمعى دروس اليوم السابق . وفى حجرة الدرس قبض معلمى تشن باو تشن على لحيته ، وهزرأسه فيما راح يقول : " ان بنود المعاملة التفضيلية محفوظة فى السجلات الرسمية ومعترف بها من جميع الدول ، وحتى رئيسهم ذاك لا يستطيع ان يستهين بها ! "

وبعد ذلك بمدة غير طويلة أرسل الرئيس مبعوثين ينقلون لي تهانيه بعيد ميلادي الذى يصادف اليوم الثالث عشر من الشهر الأول فى التقويم القمرى

الصيني . وهذه الاهتمامات من يوان شي كاي شجعت الأمراء وكبار موظفي أسرة تشينغ السابقين الذين اختفوا من الصعيد السياسي خلال السنة الاولى من الجمهورية على ارتداء ثيابهم الرسمية المصورة بالتنانين ولبس قبعاتهم الحمراء ذات ريش الطاووس ، وذهب بعضهم الى أبعد من ذلك فأحيا عادة استخدام مرافقين لافساح الطريق ووضع حاشية الخلف عند السير في الشوارع . وماجت بوابة القصر الشمالية والمدينة المحرمة بالنشاط فترة من الوقت . وفي السنة الأولى من الجمهورية كان هؤلاء الناس جميعهم تقريبا يأتون الى القصر بملابس عادية ولا يستبدلون بها ثياب البلاط الا بعد وصولهم اليه ، ولكن منذ بداية السنة الثانية بدأوا يجرؤون على السير في الشوارع وحدهم بالبدلة الامبراطورية الكاملة .

كان عيد ميلاد الامبراطورة الأرملة لونغ يوى وموتها عام ١٩١٣ مناسبتين استعيد فيهما استعادة تامة زهو الأيام الماضية . كان يوم ميلاد لونغ يوى في ١٥ مارس ، وماتت بعد ذلك بسبعة أيام . وقد أرسل يوان شي كاي مبعوثه ليانغ شي يي ، رئيس سكرتارية ، ليهنئها بعيد ميلادها ، وكتب في رسالته الرسمية يقول في وقار : " رئيس جمهورية الصين العظيمة يكتب الى جلالة امبراطورة أسرة تشينغ العظيمة الامبراطورة الأرملة لونغ يوى . " وبعد ان غادر هذا المبعوث وصل تشاو بيغ جيون ، رئيس مجلس الوزراء ، مع جميع أعضاء مجلس الوزراء ليقدم احتراماته .

وكانت ردة فعل لدى يوان شي كاي على موت لونغ يوى مؤثرة أكثر فأكثر : فقد وضع هو نفسه شريط حداد على ذراعه ، وأمر بأن تنكس الأعلام في كافة أنحاء البلاد ، وان يضع الموظفون المدنيون والعسكريون شريط الحداد على أذرعهم مدة ٢٧ يوما ، وأرسل جميع أعضاء مجلس الوزراء ليلقوا عليها النظرة الأخيرة . وأقيم ما يسمى التأبين الوطني في قصر الوئام الأعظم برئاسة رئيس المجلس الاستشاري بصفته عريف المراسم ، وانعقد اجتماع مماثل في

الجيش ترأسه تابع آخر من أتباع يوان الموثوقين هو الجنرال دوان تشي روى .
وفى داخل المدينة المحرمة مشى الناس هنا وهناك بملابس البلاط السوداء والثياب الغربية على صدى نحيب الخصيان . وكانت وجوه أفراد الأسرة المالكة الذين أمروا بلبس ثياب الحداد مدة ١٠٠ يوم تشع بالبهجة التى زادها اشعاعا حضور شيوى شى تشانغ من تشينغداو وقبول درجة الشرف التى خلعها عليه بيت تشينغ بلبسه ريشة طاووس . فبعد تنازل أسرة تشينغ هرب هذا المعلم الخصوصى الكبير الذى هو أحد أفراد بيت تشينغ الى تشينغداو المحتلة من الألمان بصفة لاجىء سياسى . ولدي شيء سأقوله فيما بعد بخصوص مغزى وصوله الى بكين .

قبل أن ينتهى مأتم لونغ يوى بدأت فى جنوب الصين الحملة المضادة ليوان شى كاى التى كانت تعرف باسم " الثورة الثانية " ، وانتهت بعد قليل بانتصار يوان . وبعد هذا حاصر يوان المجلس الوطنى ببوليسه العسكرى ، وأجبره على انتخابه رئيسا رسميا (بدلا من رئيس بالوكالة كما كان سابقا) . وأرسل الي تقريرا يقول فيه انه قد نظم فى السابق حكومة جمهورية موقتة تنفيذا لمرسوم الامبراطورة الأرملة لونغ يوي ، وانه قد انتخب الآن رئيسا رسميا ، وذلك بفضل الطيبة المألوفة فى شخص " امبرطورة تشينغ العظيمة الامبراطورة الأرملة لونغ يوى " و " امبراطور تشينغ العظيم " ، وانه سيقود الشعب الى انشاء حكومة صالحة والى اقرار النظام ، مع الالتزام الصارم ببنود المعاملة التفضيلية لتعزية روح لونغ يوى فى السماء .

وقد غير كثير من الموظفين القدامى رأيهم بيوان شى كاى وقالوا ان يوان قد وافق على اقامة جمهورية لمجرد الخدعة حتى يهزم الجنوب ، وان الشرط الذى استخدم لتنازلي ربما لا يعنى فى الواقع الا استراحة موقتة ، وانه عندما يشير الى " اقامة " جمهورية فان ذلك يعنى مجرد تجربة . وفعلا ، هكذا كان العرف فى ذلك الوقت انه عندما جاء رئيس مجلس الوزراء لحضور جنازتى

الامبراطور قوانغ شيوى والامبراطورة الأرملة لونغ يوى بدل ملابسه الى ثياب حداد البلاط وادى الركوع التساعى أمام التابوتين . وعندما رأى معلمى الخصوصى ليانغ دينغ فن ان وزير الخارجية الجمهورية الذى كان موظفا من أسرة تشينغ ، مايزال فى الزى الغربى ، وبخه وجها لوجه وجعله يعترف بأنه أقل من تافه :

كانت سنة ١٩١٤ هى السنة الثالثة للجمهورية ، وكان هناك شعورما بأن هذه هى سنة اعادة الملكية . ولم يكن هذا الشعور بدون اساس : فقد قدم يوان شى كاى القربان لكونفوشيوس ، ورجع الى استخدام الألقاب الادارية الاقطاعية ، وأسس دارا لكتابة التاريخ الرسمى لأسرة تشينغ ، ورفع كبار الموظفين السابقين من أسرة تشينغ . والذى أذهلهم أشد الذهول هو تعيين تشاو أر شيون ، وهو حاكم سابق للمقاطعات الثلاث الشمالية الشرقية ، رئيسا لدار تاريخ أسرة تشينغ المستحدثة . ومع ان معلمى الخصوصى تشن وآخرين اعتبروه مرتدا ، فقد قال عن نفسه : " اننى موظف من أسرة تشينغ ، اننى أحرر تاريخ أسرة تشينغ ، وآكل أرز تشينغ ، أؤدى عمل تشينغ . " وكتب لاو ناى شيوان ، نائب وزير تربية سابق ومستشار فى كلية العاصمة فى أسرة تشينغ مقالة فى تشينغداو التى لجأ اليها ، دعا فيها صراحة : " يجب اعادة السلطة الى أسرة تشينغ " . وحث شيوى شى تشانغ فى رسالة اليه على اقناع يوان شى كاى بتنفيذ ذلك . فأطلع شيوى شى تشانغ الذى كان حينذاك معلما خصوصيا أعلى لدى بيت تشينغ وسكرتير دولة لدى الجمهورية ، أطلع يوان شى كاى على رسالة لاو ناى شيوان ، فوجه يوان الدعوة الى لاو ليأتى الى بكين كمستشار . وكان كتاب آخرون كذلك مؤيدين لاستعادة امبراطورية تشينغ ، بل قيل عن قاطع طريق معروف بلقب " الأخ الثالث عشر " فى مقاطعة سيتشوان انه اخذ يلبس ثياب بلاط تشينغ ويركب محفة مغطاة بقماش صوفى أخضر ، زاعما بأنه احد كبار الموظفين السابقين فى

أسرة تشينغ ، منتظرا ان يستمتع بنصيبه فى المملكة المستعادة .

وداخل المدينة المحرمة لم يعد هناك حديث عن الانتقال الى القصر الصيفى كما كان ذلك اثر التنازل وقد ذهب شي شو الرئيس الحذر لادارة الأسرة لرؤية يوان شي كاى وهو أخوه بالمؤاخاة وعاد بأخبار أكثر اثارة . فقد قال له يوان : " ألا ترى يا أخى ان تلك البنود قد وضعت لمجرد الانقلاب على الجنوبيين ؟ ان المعبد السلفى الامبراطورى داخل المدينة المحرمة ، فكيف يمكن لجلالته ان ينتقل ؟ وبالاضافة الى ذلك من يمكنه ان يقيم فى القصر اذا لم يكن جلالته فيه ؟ " أبلغنى ذلك بعد وقت طويل رجل كان يعمل فى ادارة الأسرة . فى تلك الفترة لم يقم شي شو ووالدي أبدا بمناقشة مسائل كهذه معى مباشرة ، بل كانا يفعلان ذلك عن طريق معلمى تشن باو تشن عندما تكون هناك ضرورة . وكان كلام معلمى فى ذلك الوقت هو : " من النظر الى الأمور يبدو ان رئيسهم ما يزال يعامل أسرة تشينغ العظيمة معاملة خاصة . ان بنود المعاملة التفضيلية محفوظة فى الأرشيف الوطنى . . . "

كان تشن باو تشن كما يبدو دائما لا يقول كل ما يريد قوله . وبالعودة الى ذلك الآن يبدو أن كلامه هذا اشارة الى موقفه " الحذر " . ان التفاؤل فى تلك الأيام داخل المدينة المحرمة . كان بلا شك حذرا ومكتوما بالمقارنة مع التفاؤل لدى بعض أفراد أسرة تشينغ خارج القصر . وبديهى ان كثيرا من تصرفات يوان شي كاى — من اشاراته الصريحة الى عدم نسيانه " روح لونغ يوى فى السماء " الى تأكيده السرى على ان " الامبراطور لن يغادر القصر الامبراطورى والمعبد السلفى — قد ساعدت على ظهور بعض الأوهام داخل المدينة المحرمة ، ولكن يوان شي كاى لم يكن ليفعل أكثر مما توقعوا منه ، لذلك تعين ان تبقى حماسة القصر مكتومة الى حد ما . وقد أظهر التغير فى المناخ السياسى فى بكين عند نهاية ما سمى بـ " سنة اعادة الملكية " ان هذا التكتم كان فى محله .

بدأ التغير فى المناخ السياسى عندما اقترح موظف فى ادارة التفتيش التابعة للجمهورية وجوب التحرى عن الاشاعات التى تقول باعادة الملكية . فأمر يوان شى كاى وزارة الداخلية بأن " تتحرى وتعالج " هذه المسألة ، ونتيجة لذلك أرسل سونغ يوى رن ، أحد مؤيدى اعادة حكم تشينغ ، الى مسقط رأسه مخفورا . وسببت هذه الأخبار توترا فى بعض الأوساط ، فلم يعد يسمع شىء بخصوص اعادة السلطة الى اسرة تشينغ ولم يجرأ لاو ناى شيوان على ان يغادر ملجأه فى تشينغداو ويأتى الى بكين ليتسلم منصب المرشد الذى عرضه عليه يوان . ولكن ظل هناك اضطراب هائل : فقد كتب يوان حول وثيقة تحرى نشاطات اعادة الملكية الكلمات المبهمة التالية : " ان الاشاعات حول اعادة الملكية ممنوعة منعا باتا ، ولكن لا تدققوا فيها كثيرا " ، وعندما أرسل سونغ يوى رن الى مسقط رأسه أهداه يوان ٣ آلاف درهم فضى وأمر بأن تقيم جميع الدور الحكومية التى فى طريقه مأدب له . وهكذا لم يكن واضحا ان كان سونغ مثابا ام معاقبا . وفى عام ١٩١٥ ، السنة الرابعة للجمهورية ، نشر فرانك . ج . غودناو (١٨) مقالة أكد فيها ان النظام الجمهورى ليس ملائما لظروف الصين . وبعد ذلك ظهرت جمعية تشو آن هوى (جمعية المحافظة على السلم) ، وهى منظمة خاضعة كليا لسيطرة يوان شى كاى ، وقد طالبت بضرورة ان يصبح يوان امبراطور الصين . واتضح لكل واحد حينذاك ما هو نموذج اعادة الملكية الذى كان فى ذهن يوان وهكذا تغير الجو السياسى داخل المدينة المحرمة تغيرا ملحوظا .

كنت فى ذلك الوقت أسمع الموسيقى العسكرية تعزف داخل قصر الرئاسة . وكانت القاعات الثلاث الكبيرة فى القسم الجنوبى من القصر الامبراطورى تحت الاصلاح ، وكان فى وسع المرء ان يرى بوضوح من أعلى سلم قصر تهذيب النفوس الذى كنت أقيم فيه الصباغين وهم يعملون على سقالاتهم . وقد أخبرنى الخصى تشانغ تشيان خه أن هذه كانت استعدادات لارتقاء يوان شى كاى

سدة العرش . وفيما بعد قدم بو لون ، أحد أفراد العشيرة الملكية ، عريضة الى يوان باسم البيت الامبراطورى والرايات الثمانى مطالبا اياه فيها باستلام العرش . فكوفىء بو لون على هذا بلقب أمير من المرتبة الأولى ، وأرسل الى القصر يطلب المواد التى تستعمل فى مواكب الشرف الامبراطورية والأختام الامبراطورية من الزوجات العليات . وهذه الأنباء كانت أليمة بالنسبة لي ومخيفة بالرغم من ان معلمى تشن باو تشن لم يشرح لي ما حدث وانما اكتفى بترديد مثل أعرفه : " لا توجد شمسان فى السماء ولا حاكمان فى البلاد " . وعندما نصب يوان نفسه امبراطورا لم يكن من المحتمل ان يتسامح باستمرار وجودي بوصفي ملكا زائدا . وكانت هناك أمثلة كثيرة من التاريخ تشير الى الجانب الآخر من المسألة . ألم يذكر المؤرخون الكبار للعصور القديمة انه " فى حقبة الربيع والخريف (٧٧٠–٤٧٥ ق.م) كانت هناك ست وثلاثون حالة من حالات قتل الملوك " ؟

وكان كل واحد داخل القصر مهتما أشد الاهتمام بالنشاطات التى كانت تجرى داخل القاعات الثلاث . وكلما عبر الناس من الفناء كانوا يلقون نظرة قلقة فى ذلك الاتجاه ليروا ان كانت أعمال الصبغ والاصلاح التى ارتهن بها مصيرهم ، قد انتهت أم لا . وكانت الزوجات العليات يشعلن البخور ويقمن كل يوم بالصلاة للآله الحارس لأسرة تشينغ كى يمدهن بالعون . وقد سلمن فى الحال المواد الموكبية ، ولكن الأختام الامبراطورية لم تؤخذ منهن لأنها كانت منقوشة بكلتا اللغتين الهانية والمانشوية وبذلك فهى غير ملائمة لأغراض يوان .

والتغير الكبير الذى طرأ على حجرة الدرس هوان معلمي الخصوصيين أصبحوا شديدى التأدب مع زميلى فى الدراسة يوى تشونغ لأنه كان ابن بو لون المحمى من يوان شى كاى . وذات يوم ، عندما كان يوى تشونغ خارج حجرة الدرس فى زيارة الى مقار الزوجات العليات نظر تشن باو شن الى خارج

النافذة ليتأكد انه لا أحد فى الخارج ، وأخرج قطعة ورق وقال لي خلسة :

ـــ تابعكم قام بالعرافة فى الليلة الماضية . وأرجو من جلالتكم ان تنظروا الى بشير الفأل هذا .

فأخذت الورقة وقرأت فيها : " خصمى عنده مرض ، انه غير قادر على الاقتراب منى ميمون . " وشرح لي تشن ان هذا يعنى ان خصمى يوان شى كاى سيواجه مستقبلا كئيبا وانه لن يكون قادرا على تعريضى للخطر . وكان هذا فألا جيدا ، وبالاضافة الى قيامه بالعرافة بواسطة الكتابات الثلاثية فى كتاب التغيرات ، فقد سفع درع سلحفاة ورجع الى الألفية وكلاهما أعطياه بشائر خيرة أيضا . وقد أخبرنى بهذا كى أبعد عن نفسى القلق . لقد استخدم ذلك الشخص العجوز جميع وسائل العرافة الخاصة بالمجتمع البدائى فى العصور الغابرة ليتأكد من مصيرى . وأعلن نتيجته السعيدة التى توصل اليها بأن يوان الشائن لن ينتهى نهاية طيبة . وان بنود المعاملة التفضيلية منيعة لا يمكن انتهاكها .

ولم تكن نشاطات كل من معلمى الخصوصيين ووالدي ونشاطات كبار موظفى ادارة الأسرة لحماية منصبي وحماية بنود المعاملة التفضيلية مقصورة على استشارة الكهنة ، ومع اننى لم أبلغ بشىء من ذلك رسميا ، الا اننى لم أكن أجهل هذا الأمر . وهم عقدوا مع يوان شى كاى صفقة سرية بأن يدعم البيت الامبراطورى طموح يوان فى ان يصبح امبراطورا مقابل ان يتمسك هوببنود المعاملة التفضيلية . وتم بينهم تبادل الوثائق بهذه الصدد ، ومن ضمنها تعهد بخط يوان بأن يعترف ببنود المعاملة التفضيلية ويدخلها فى الدستور . واتفق كذلك على ان تكون احدى بناته زوجة ـــ امبراطورة لي ، ولكن قبل ان تصبح اى من هذه الاتفاقات سارية المفعول مات يوان فى يونيو ١٩١٦ اى بعد ٨٣ يوما فقط من تنصيبه امبراطورا ، وسط عاصفة مدوية من المعارضة صكت أذنيه .

اعادة الملكية عام ١٩١٧

استقبل نبأ موت يوان شى كاى بابتهاج عظيم داخل المدينة المحرمة . واندفع الخصيان هنا وهناك ينشرون هذا الخبر ، وذهبت الزوجات العليات ليشعلن البخور للآله الحارس ، وتوقفت الدروس ذلك اليوم فى قصر يوى تشينغ .

وظهرت آراء جديدة داخل القصر :

ــ مات يوان لأنه أراد ان يغتصب العرش .

ــ ليست المسألة ان النظام الملكى غير صالح للتطبيق ، بل كل ما هنالك ان الشعب يريد عاهله السابق .

ــ كان يوان شى كاى مختلفا عن نابليون الثالث : فهو لم يكن له سلف عريق يعول على دعمه .

ــ كان من الأفضل بكثير اعادة الأمور الى العاهل السابق من ان يعين السيد يوان امبراطورا .

كل هذه الأصوات كانت منسجمة مع قول معلمى الخصوصى : " بسبب الخير العظيم والمنفعة الوافرة التى أغدقتها أسرتنا فان الشعب يفكر فى النظام السابق " .

وكنت حينذاك قد وصلت سنا تكفى لأن أهتم بالصحف التى غصت بعد أيام غير كثيرة من موت يوان بتقارير عن " اخفاق الانتفاضة التى قام بها حزب العشيرة الامبراطورية " و " تهديد قطاع الطرق المنغوليين والمانشويين " . ومن هذه المواد الاخبارية علمت ان أربعة من النبلاء المانشويين ، الذين كانوا مناوئين علنيين للجمهورية من البداية ، ما يزالون يعملون لحسابى . كان أحد هؤلاء الأربعة قد لجأ الى منطقة الامتيازات الأجنبية فى تيانجين ،

والثلاثة الآخرون كانوا يقيمون فى ليوشون وداليان المؤجرتين لليابان ويتواطأون بواسطة سمسار يابانى مع دعاة الحرب والرأسماليين اليابانيين فى سبيل اعادة الملكية ، وأهم هؤلاء كان شان تشى ، الأمير سو ، الذى حصل على مليون يوان من الرأسمالى الكبير أوهيراكيها تشيرو وجاء بضباط يابانيين ليدربوا جيشا يتكون من عدة آلاف من قطاع الطرق المانشويين والمنغوليين . وبدأوا يثيرون الاضطرابات بعد وفاة يوان شى كاى ، واقتربت احدى قوات هذه المجموعات تحت قيادة النبيل المنغولى بابوجاب ذات مرة من تشانغجياكو القريبة من بكين واصبح الوضع خطيرا ولكن توقف هجومها بسبب قتل بابوجاب على يد أحد معاونيه . وفى ذروة ايام الأزمة ظهرت مظاهر عجيبة وهى ان " الملكيين " والقوات الجمهورية كانوا مشتبكين فى أماكن متعددة فى الشمال الشرقى بينما استمرت الجمهورية و" البلاط الصغير " لأسرة تشينغ فى تبادل زيارات المجاملة . والتحمس الشديد داخل المدينة المحرمة بعد وفاة يوان شى كاى لم يكن بتأثير تحرك بابوجاب وشان تشى المسلح ، كما لم تؤثر فيه هزيمتهما .

بعد موت يوان خلفه لي يوان هونغ رئيسا وأصبح دوان تشى روى رئيسا لمجلس الوزراء . وأرسل القصر مندوبا لتهنئة الرئيس لي ، وأعاد لي هذا الى القصر المواد الموكبية التى كان قد أخذها يوان شى كاى ، ومنح بعض الأمراء والنبلاء وكبار الموظفين من أسرة تشينغ الأوسمة الجمهورية ، ومن بينهم قلة كانت مختبئة زمن يوان شى كاى . وأصبحت ادارة الأسرة أكثر انشغالا من السابق بمنح درجات شرف كألقاب ما بعد الوفاة ، واعطاء اذن بركوب الخيل داخل المدينة المحرمة او لبس ريشة الطاووس ، وجلب فتيات الى الزوجات العليات لاختيار وصيفات من بينهن ، واستخدام الخصيان الجدد سرا على الرغم من الحظر الوارد فى بنود المعاملة التفضيلية . وبالطبع كانت تجرى جميع اشكال الاتصالات التى لم أعلم بها ، من وجبات العشاء الخاصة الى المآدب العامة التى كانت تقام لأعضاء البرلمان الجمهورى .

وباختصار أصبحت المدينة المحرمة نشطة كما كانت الماضى . ومع تقديم تشانغ شيون احتراماته لي عام ١٩١٧ وصلت حركة اعادة الملكية ذروتها .

لم أكن قد استقبلت فى الماضى مثل هذا العدد من الناس الذين كانوا كلهم مانشويين ، فقد كان وقتى حينذاك موزعا بين الدراسة وقراءة الصحف ، اما الفراغ فأزجيه باللعب . ولقد سررت الآن كثيرا وانا أشاهد الناس يدخلون ويخرجون بثياب البلاط ، بل سرتنى اكثر من ذلك أخبار تحرك القوات " الملكية " التابعة للأمير سو وبابوجاب ، وهزيمتهما بالطبع بعثت الغم فى نفسى . ولكننى على العموم سرعان ما نسيت هذه الأمور . وبينما لم يكن فى وسعى الا ان أقلق على هرب الأمير سو الى ليوشون وعلى مصيره غير المعروف ، كان المشهد المسلى لعطاس الجمل الذى أراه أحيانا يكفى لأن يجعلنى أنسى كل شىء حول هذه المسألة . فمع قيام والدي ومعلمي الخصوصيين وكبار اعوانى بالاهتمام بهذه الأمور فلماذا أهتم بها شخصيا ؟ وكان المعلمون الخصوصيون عندما يخبروننى بأية مسألة فهذا يعنى ان كل شىء قد نوقش وتمت الموافقة عليه . وهكذا ايضا جرى حدث ١٦ يونيو ١٩١٧ .

فى ذلك اليوم ، جاءنى تشن باو تشن الذى منح مؤخرا لقب " المساعد الكبير " وليانغ دينغ فن الذى عين حديثا معلما خصوصيا ، الى حجرة الدرس سويا ، وقبل أن يجلسا قال تشن باو تشن :

ـــ لن يكون لدى جلالتكم دروس هذا اليوم . ان موظفا كبيرا قادم لمقابلة جلالتكم ، وسيأتى الى هنا حالا خصى ليعلن عن مجيئه :

ـــ من يكون ؟

ـــ تشانغ شيون الحاكم العام فى جيانغشى وجيانغسو وآنهوى وحاكم جيانغسو بالوكالة .

ـــ تشانغ شيون ؟ هل هو تشانغ شيون الذى أبى ان يقص ضفيرته ؟

فقال ليانغ دينغ فن هازا رأسه بالموافقة :
ـ أجل ذلك هو .
ولم يدع ليانغ الفرصة تفوته ليتملقنى قائلا :
ـ ان ذاكرة جلالتكم قوية جدا .
ولم يكن هذا فى الواقع . لقد أخبرنى تشن باو تشن قبل وقت غير طويل منذ بداية الجمهورية ان تشانغ شيون أسدل هو وجنوده ضفائرهم . وكان يوان شى كاى مدينا باجهازه على " الثورة الثانية " عام ١٩١٣ الى استيلاء جنود تشانغ ذوى الضفائر الطويلة على نانجينغ . واثناء سلب المدينة اعتدى رجال تشانغ شيون سهوا على بعض أفراد القنصلية اليابانية ، فذهب واعتذر من القنصل اليابانى شخصيا ووعد بأن يعوض عن الاضرار كاملة . بعد موت الامبراطورة الأرملة لونغ يوى أعلن تشانغ شيون الحداد الوطنى فى برقية تعزية وقال فيها : " اننا جميعا الموظفين الجمهوريين ، رعايا لأسرة تشينغ العظيمة . " وبعد موت يوان شى كاى نشرت فى الصحيفة برقية تعزية من تشانغ شيون أبرز فيها موقفه السياسى حينذاك حيث بدأها بقوله : " اننى أعلق بالغ الأهمية على بنود المعاملة التفضيلية لبيت تشينغ " . واعتقدت انه كان تابعا مخلصا وتشوقت الى رؤيته .
وفقا لعرف بيت تشينغ لم يكن مسموحا لأى شخص آخر بالحضور عندما تكون هناك مقابلة لموظف كبير مع الامبراطور . ولهذا السبب اضطر معلمى الخصوصى الى اعطائى بعض التدريب واخبارى بما أقوله عند استقبالى لأى شخص لا يأتى بانتظام . وفى هذه المرة قال لي تشن باو تشن بمنتهى الجدية ان على ان أشيد بولاء تشانغ شيون واننى يجب ان أتذكر انه كان حاكما كبيرا لنهر اليانغتسى وعنده ستون كتيبة من الجند فى منطقة شيوتشو ويانتشو ، وان بوسعى ان أسأله عن الوضع العسكرى فى شيوتشو ويانتشو حتى يبدو واضحا تماما اننى مهتم به . وفى النهاية كرر تشن مرتين او ثلاث مرات ما

يلي : " تشانغ شيون مصمم على الاشادة بجلالتكم . يجب ان تتذكروا ان تجيبوه بتواضع كي تظهر فضيلة جلالتكم السماوية . "

وحاولت ان أرسم في ذهني صورة لتشانغ شيون مستقاة من المجلات المصورة التي اشتراها لي الخصيان ، ولكنني لم أنجح في ذلك عندما نزلت من محفتي . وبعد ان وصلت قصر تهذيب النفوس بوقت قصير جدا وصل هو الآخر ، وبعد ان جلست على العرش ركع أمامي وسجد قائلا :

ـ تابعكم تشانغ شيون يركع ويقدم احتراماته . . .

فلوحت له بالجلوس على كرسي حيث ان البلاط كان قد أنهى تقليد استماع التقرير من الموظفين وهم في حالة سجود . فسجد ثانية وشكرني ثم جلس . وسألته رسميا عن الوضع العسكري في منطقة شيوتشو ويانتشو ، ولكنني لم أظهر اى اهتمام بجوابه . فقد أصبت بشيء من خيبة الامل ازاء مظهر هذا " التابع المخلص " لي . كان يلبس سترة وثوبا من الحرير الرقيق ، وكان وجهه متوردا يعلوه حاجبان كثيفان ، وكان بدينا . وجعلني منظر رقبته القصيرة أظن انه يبدو كواحد من الطباخين الخصيان . لقد كان بعيدا عن الكمال . ودققت النظر لأرى ان كانت له ضفيرة ، فكان له فعلا ضفيرة رمادية مرقشة .

ثم بدأ يتحدث عني ، كما توقع تشن باو تشن ، باصطلاحات مفعمة بالاحترام ، فقال :

ـ ان جلالتكم ذكي حقا .

فأجبته قائلا :

ـ انني لست ذكيا كما ينبغي . مازلت صغيرا وأعرف القليل القليل .

ـ ان الامبراطور شينغ تسو من هذه الأسرة (كانغ شي) قد اعتلى العرش في سنواته المبكرة ، كان في الخامسة فقط .

ـ كيف يمكنني ان أقارن بسلفي المبجل ؟ لقد كان سلفي على أية حال . . .

ولم تكن هذه المقابلة أطول بكثير من المقابلات المألوفة ، فقد غادر

بعد خمس اوست دقائق . ووجدت كلامه خشنا بعض الشيء وفكرت انه لا يمكن مقارنته مع تسنغ قوه فان (١٩) : اننى لم أسر به كثيرا . ولكن عندما جاء تشن باو تشن وليانغ دينغ فن الي فى اليوم التالى ، والابتسامات تشع من وجهيهما ، ليخبرانى بأن تشانغ شيون قد أشاد بتواضعى وذكائى شعرت بالزهو الشديد . ولم أسأل نفسى لماذا جاء تشانغ للمقابلة ، او لماذا كان معلماى الخصوصيان مسرورين هذا السرور الواضح ، او لماذا أعطته ادارة الأسرة تلك الهدايا المفرطة ، او لماذا اقامت له الزوجات العليات مأدبة .

وبعد حوالى اسبوعين ، فى اول يوليو ، جاء المعلمون تشن باو تشن وليانغ دينغ فن مع تشو يى فان الذى وصل حديثا الى حجرة الدرس معا وسيماء الجد تعلو وجوههم . وكان تشن باو تشن أول من تكلم قائلا :

ـ ان تشانغ شيون هنا . . .

ـ هل جاء ليقدم احتراماته ؟

ـ لا ، انه لم يأت من أجل ذلك فقط . لقد اتخذت جميع الاستعدادات ورتب كل شيء . لقد جاء ليعيد جلالتكم الى السلطة ويعيد الملك لأسرة تشينغ العظيمة .

ولما رأى اننى فوجئت بهذا الأمر تابع يقول :

ـ ينبغى لجلالتكم ان تسمحوا لتشانغ شيون بأن يفعل ذلك . انه يطلب تفويضا باسم الشعب ، فالسماء قد استجابت لرغبات الشعب . . .

ذهلت بهذه الأخبار الجيدة التى لم تكن متوقعة أبدا . وحدقت الى تشن باو تشن فى ذهول ، آملا ان يخبرنى قليلا عن كيفية تحولى الى " امبراطور حقيقى " .

فقال تشن باو تشن بمنتهى الثقة :

ـ لا حاجة الى ان تقول الكثير لتشانغ شيون . كلما ينبغى ان تفعله هو ان توافق ، ولكن لا يصح ان توافق حالا . يجب ان ترفض فى البداية ، ثم

فى النهاية تقول : " اذا كانت الأمور هكذا فلا بد ان أكره نفسى على القيام بذلك " .

عدت الى قصر تهذيب النفوس واستقبلت تشانغ شيون فى مقابلة ثانية . وكان ما قاله تشانغ شيون مشابها تماما لما كتبه فى مذكرته التى يطلب فيها اعادة الملكية ، ماعدا أن لهجته فى المقابلة كانت أقل أناقة .

ـــ ان الامبراطورة الأرملة لونغ يوى لم تكن تريد انزال كارثة بالشعب من أجل مركز مرموق لأسرة واحدة ، لذلك أصدرت مرسوما يأمر بتأسيس جمهورية . ولكن من كان يظن أنها قد أديرت على نحو بالغ السوء بحيث لم يعد أمام الشعب سبيل لكسب معيشته . . . ان الجمهورية لا تناسب بلادنا ... واعادة ملك جلالتكم هى وحدها التى ستنقذ الشعب .

وعندما انتهى من هذيانه قلت :

ـــ اننى صغير جدا ، ليست عندى موهبة ولا فضيلة . واننى لا أستطيع ان أضطلع بمنصب عظيم كهذا .

فأمطرنى بالثناءات ، وتحدث بكل رتابة عن كيفية تسلم الامبراطور كانغ شي العرش وهو فى سن الخامسة . وفيما كان يتكلم رحت أفكر فى السؤال التالى :

ـــ ماذا بخصوص رئيسهم ؟ هل سنقدم له معاملة تفضيلية ؟

ـــ لقد قدم لي يوان هونغ مذكرة يطلب فيها ان يسمح له بالاستقالة . وكل ما هو مطلوب من جلالتكم ان تمنحوه الموافقة على طلبه .

ـــ آه . . .

ومع اننى لم أكن أفهم ما كان يجرى ، الا اننى فكرت ان المعلمين الخصوصيين قد رتبوا كل شيء وان علي ان أنهى هذه المقابلة بسرعة ، فقلت :

ـــ اذا كانت الأمور هكذا فلا بد ان أكره نفسي على القيام بما تقول .

وبنطقى هذه الجملة اعتبرت نفسى امبراطورا لـ " امبراطورية تشينغ العظيمة " مرة ثانية .

وبعد مغادرة تشانغ شيون جاءت حشود الناس لتسجد لي ، جاء بعضهم ليقدم لي الاحترامات ، وبعضهم ليشكرنى ، وبعضهم ليشكرنى ويقدم الاحترامات فى آن معا . وبعد هذا احضر لي خصى كومة من تسعة " مراسيم امبراطورية " كانت قد كتبت . أول هذه المراسيم أعلن فيها عودتى الى العرش ، وفى مرسوم آخر آمر بتأليف لجنة من سبعة أوصياء على العرش ، من بينهم تشانغ شيون وتشن باو تشن .

ان أبناء بكين المسنين يذكرون كيف ان البوليس فى ذلك الصباح طلب فجأة من أهالى العاصمة ان يعلقوا أعلام التنين الامبراطورية على أبوابهم ، فاضطر الأهالى الى صنع هذه الأعلام بالورق والعجينة اللاصقة . وظهرت فى الشوارع من جديد ملابس تشينغ التى لم تكن قد شوهدت منذ سنوات ، يلبسها أناس بدوا كأنهم قد خرجوا لتوهم من توابيتهم . وأصدرت الصحف اعدادا خاصة ، مكرسة للمناسبة وبيعت بسعر أعلى من المعتاد . وظهر من بين هذه المشاهد الغريبة باعة الصحف وهم يصيحون : " مراسيم شيوان تونغ " ، " أثريات ست قطع نقدية فقط ! هذا الهراء سيصبح أثريا بعد بضعة أيام — ست قطع نقدية لكل أثرية واحد — رخيصة جدا . "

فى تلك الأيام ازدهرت حال بعض المحلات خارج بوابة تشيان من : فالخياطون كانوا يبيعون أعلام التنين الامبراطورية فور انتهائهم من اعدادها ، ومحلات الملابس المستعملة وجدت الموظفين الذين عينوا حديثا يتسابقون للحصول على ثوب من ثياب بلاط تشينغ ، وخياطو الأزياء المسرحية تجمع عليهم الناس ليعملوا لهم ضفائر من شعر الخيل . ومازلت أذكر كيف اكتظت المدينة المحرمة باللابسين ثياب البلاط والقبعات المذيلة بريشة الطاووس ، ومن قذال كل منهم تدلت ضفيرة . لقد امتلأت المدينة فى تلك الأيام

بالضفائر المزيفة والحقيقية ، ثم ما لبثت ان غطت الأرض فى كل انحاء العاصمة مع اقتراب الجيش القادم اليها لمعاقبة المتمردين . ويقال ان جنود تشانغ شيون قد قصوا ضفائرهم حين كانوا يهربون امام الجيش حيث صار بامكان المرء ان يلتقط ضفيرة حقيقية كلما اراد فى اى مكان من العاصمة !

ولو كان زوار المدينة المحرمة يمتلكون حساسية باعة الصحف بخصوص المراسيم الامبراطورية والضفائر لما اخذهم الحماس فى تلك الأيام المعدودات .

نأتي الى أمراء ونبلاء العشيرة الملكية فنجد أنهم أصيبوا بخيبة أمل كبيرة فى ذلك الوقت . فبعد اعادة الملكية بيومين اصدر تشانغ شيون " مرسوما امبراطوريا " يحظر عليهم التدخل فى شؤون الدولة . وأراد والدى الذى قاد النبلاء المتضررين من هذا المرسوم ان يناقش هذه النقطة مع تشانغ شيون ومعى . وعندما سمع معلمى تشن بهذا هرع الي ليطلب منى ان أرفضهم ، ذلك لأن عجزهم التام هو الذى أدى الى التنازل عن العرش عام ١٩١٢ . فاتبعت نصيحته . وقبل ان تتاح الفرصة للأمراء والنبلاء بان يقوموا باى شيء وصل الجيش الجمهورى الى بكين وانقذهم من مسئولية اعادة الملكية ! وادهشنى تشن باو تشن المتماسك والبعيد النظر ، فى تحمسه لهذا الحدث وفى العنف الذى ابداه بشأن الرئيس لى يوان هونغ الذى رفض التنازل عندما طلب منه المعلم الخصوصى ليانغ دينغ فن ذلك . فقد جاء المعلمون الثلاثة الى قصر يوى تشينغ ووجه تشن محتقن بالغضب ، وانفجر يقول على نحو يتعذر كبحه :

— لقد تجرأ لي يوان هونغ فعلا على رفض اعطائه الأمر . فهل لجلالتكم ان تتفضلوا باصدار أمر اليه بالانتحار فورا .

فجفلت لدى سماعى اقتراحا مفرطا كهذا وقلت :

— انه لا يمكن أبدا بالنسبة لي أن أطلب من لي يوان هونغ قتل نفسه فور عودتى الى العرش ، ألم تمنحنى الجمهورية المعاملة التفضيلية ؟

كانت هذه هي المرة الأولى التى أرد فيها على تشن باو تشن بهذه الصراحة ، ولكنه كان شديد الاندفاع فى كراهيته لهذا الرئيس بحيث استمر يقول غير منتبه لأى شيء آخر :

— ان لى يوان هونغ ليس فقط رفض ان يستقيل . بل هو متمسك بقصر الرئاسة ، ذلك الأفاك المتمرد والخائن ، كيف يمكن لجلالتكم ان تذكروه بذات النفس الصادر عنكم ؟

ولما رأى مدى تصميمى على رفض اتباع نصيحته اضطر الى التخلى عن اقتراحه . ووافق على ان يذهب ليانغ دينغ فن كمبعوث للقيام بمحاولة أخرى لاقناع الرئيس لي يوان هونغ بمغادرة القصر . ولكنه وجد ان لي قد هرب باختام مكتبه الى المفوضية اليابانية .

فى الأيام القليلة الأولى من اعادة الملكية كنت أمضى نصف وقتى فى قصر يوى تشينغ . ومع ان دروسي علقت ، الا اننى كنت مضطرا الى رؤية معلمي الخصوصيين الذين كان على اتباع نصائحهم فى كل ما أفعله . وبقية وقتى كنت أمضيها فى مراجعة " المراسيم الأمبراطورية " التى ستصدر ، وقراءة نشرات مجلس البلاط الرسمية وتلقى الاحترامات والتحيات . وبالاضافة الى هذا كله كنت أراقب النمال تزحف من ثقب فى الأرض الى آخر ، أو أطلب من خصيان الاصطبلات الامبراطورية ان يخرجوا بعض الجمال للتسلى برؤيتها . ولكن لم تمض خمسة أيام حتى تهاوت القنابل من الطائرات الحربية على المتمردين ، فغيرت كل شيء تغييرا تاما . فلم يعد أحد يأتى ليركع لي ، ولم تعد هناك " مراسيم أمبراطورية " ، واختفى جميع الأوصياء على عرشي عدا تشن باو تشن ووصى آخر هو وانغ شى تشن .

يوم الغارة الجوية كنت جالسا فى حجرة الدرس أتكلم مع معلمى الخصوصيين ، فسمعت طائرة وصوت انفجار غير مألوف ، فذعرت حتى اننى ارتجفت بشدة ، وجف الدم فى وجوه معلمى الخصوصيين . ووسط هذا

الاضطراب الشديد أسرع بى الخصيان الى قصر تهذيب النفوس كأنما غرفة نومى هى المكان الآمن الوحيد . وكانت الزوجات العليات فى حالة سيئة مماثلة ، بعضهن فى زوايا غرف النوم ، وبعضهن مختبىء تحت المنضدة . وامتلأ الجو بالصياح ، وعمت الفوضى القصر بأكمله . وكانت هذه أول غارة جوية فى تاريخ الصين ، والمرة الأولى التى تستخدم فيها القوة الجوية الصينية فى حرب داخلية . اما احتياطات الغارة الجوية الأولى فاقتصرت على الاختباء تحت الأسرة ، وطرح حواجز الخيزران القائمة فى الممرات ووفقا لأقصى ما وصلت اليه معرفة الخصيان وحرس القصر ، فان هذه كانت من أكثر الاجراءات التى اتخذوها تعقلا . ومن حسن الحظ ان ربان الطائرة لم يكن جادا . فلم يزد على أن أخافنا بالقاء ثلاث قنابل صغيرة فقط طول الواحدة منها حوالى قدم . سقطت احداها خارج بوابة تشريف الأسلاف (لونغ تسونغ من) ، جارحة أحد حاملي المحفات ، وسقطت الثانية فى بركة داخل الحديقة الامبراطورية ، ملحقة الضرر بزاوية البركة ، والثالثة سقطت على سطح أحد المداخل فى الممر الغربى من القصر ، باعثة الذعر فى قلوب حشد من الخصيان كانوا يلعبون القمار على الرغم من انها لم تنفجر .

وبعد هذا بوقت قصير سمع فى المدينة المحرمة صوت مدفعية . ولم يحضر وانغ شى تشن وتشن باو تشن الى البلاط ، ولم يعد للقصر اتصال بالعالم الخارجي . وبعد فترة قصيرة جاء تقرير مزيف من قائد حرس القصر يقول ان جيش دوان تشي روى الجمهورى قد هزم على أيدى رجال تشانغ شيون ، ولكن فى الصباح التالى ذهبت أخبار هروب تشانغ شيون الى السفارة الهولندية بابتسامات اليوم السابق .

وفى ذلك الحين ظهر والدى وتشن باو تشن امامى ، والاكتئاب مرتسم على وجهيهما المفعمين باليأس . وكنت ارتجف من الخوف والحزن فى آن معا . وعندما قرأت مرسوم التنازل عن العرش الذى كانا قد كتباه لي أجهشت بالبكاء .

وكان نص المرسوم كما يلي :

فى اليوم العشرين من الشهر الخامس من السنة التاسعة لعهد شيوان تونغ يتلقى مجلس البلاط هذا المرسوم الامبراطورى : لقد اتبعنا فى السابق مذكرات تشانغ شيون وغيره التى تقول ان الوطن فى حالة فوضى كبيرة وان الشعب يتوق للأيام الماضية ، وتنصحنا باستئناف ادارة الحكومة . ولما كانت سنواتنا غير ناضجة ونحن نعيش منعزلين داخل المدينة المحرمة ، فاننا لم نسمع شيئا عن معيشة الشعب وشؤون الوطن . واننا ، بتذكرنا بكل اجلال الخير العظيم والتعاليم التى كانت لدى الامبراطورة المبجلة الأخيرة شياو دينغ جينغ (لونغ يوى) التى تنازلت عن الحكم آسفة من أجل الشعب ، ليس لدينا أدنى نية لمعاملة العالم على انه من ممتلكاتنا الخاصة . وانه بسبب مطالبتنا بانقاذ الوطن والشعب أجبرنا انفسنا على تلبية المطالب واستأنفنا السلطة .

والبارحة أبلغنا تشانغ شيون بانتفاضات مسلحة فى كل مقاطعة ، يمكن ان تؤدى الى تمردات عسكرية فى الصراع على السلطة . ان شعبنا يعانى الصعوبات منذ سنوات ، وحالته ميئوس منها ، كأنما هو يحرق او يغرق . فكيف يمكننا اذن ان نضاعف من مآسيه بشن الحرب ؟ واننا من جراء تفكيرنا فى هذا استبد بنا الاضطراب وأصبحنا غير قادرين على الشعور بالاطمئنان . لذلك قررنا ألا نستبقى لأنفسنا هذه السلطة السياسية ملوثين روح الامبراطورة المبجلة شياو دينغ جينغ بادارة ظهورنا الى فضائلها الجمة .

فليقم وانغ شى تشن وشيوى شى تشانغ بابلاغ دوان تشى روى حالا ان انتقال السلطة يمكن ان يرتب والاضطرابات الحالية يمكن ان يوضع لها حد ، مهدئين روع الشعب ومتجنبين كارثة الحرب .

بأمر من الامبراطور .

رؤوس عصبة بيبانغ

لم يصدر مرسوم التنازل هذا أبدا ، بل كل ما نشر فى ذلك الوقت كان بيانا لادارة الأسرة استهل بأمر من رئيس الجمهورية .

بأمر من رئيس الجمهورية :

ان وزارة الداخلية تبلغ أنها قد تسلمت الرسالة التالية من ادارة الأسرة فى بيت تشينغ :

هذا اليوم تسلمت ادارة الاسرة مرسوما :

سابقا فى اليوم الخامس والعشرين من الشهر الثانى عشر فى السنة الثالثة من حكم شيوان تونغ أصدرت الامبراطورة الأرملة المبجلة لونغ يوى مرسوما يعترف بأن الشعب كله كان ميالا الى الجمهورية ، فأعادت هى والامبراطور سلطة الحكم الى البلاد كلها ، وأمرت بوجوب تأسيس جمهورية . ان بنود المعاملة التفضيلية لبيت تشينغ يجب التمسك بها الى الأبد . وطوال السنوات الست الماضية كان بيت تشينغ يعامل معاملة جيدة ، ولم تكن لديه أية نية لاستخدام السلطة السياسية من أجل أغراضه الخاصة ، فأى سبب هناك يجعله يرجع عن كلمته ؟

ولكن على عكس ما كان متوقعا قاد تشانغ شيون جنده لاحتلال القصر فى اول يوليو ، وأصدر على نحو اعتباطى أوامر ومراسيم ، وغير اسم الدولة ، عاصيا بذلك تعليمات الامبراطورة الأرملة للأسرة السابقة . وأنا بوصفى صبيا أعيش معزولا داخل المدينة المحرمة لم يكن أمامى خيار فى تلك المسألة . ففى هذه الظروف يجب ان يلتمس لي العذر من العالم بأكمله . وقد بلغت ادارة الأسرة بأن تطلب من حكومة الجمهورية ان تعلن هذا داخل البلاد وخارجها .

وعندما تلقت وزارة الداخلية هذه الرسالة رأت ان من الصواب التبليغ بها .

ولما كان معروفا ان تشانغ شيون الخائن المغتصب للعرش هو المدبر لهذه الاضطرابات ، فليتم اعلان تفاصيل هذه الوثيقة على عجل .

للمعلومات العامة .
صادرة رئيس الوزراء دوان تشي روى .
١٧ يوليو ، السنة السادسة لجمهورية الصين .

وبالتعاون بين الرؤساء الثلاثة لعصبة بيبانغ والمدينة المحرمة غيرت عبارة : " انني قد قررت استئناف السلطة " الواردة فى مرسوم التنازل الى عبارة (احتلال تشانغ شيون القصر) وعبارة (الصبى ليس لديه خيار فى تلك المسألة) اللتين وردتا فى بيان ادارة أسرة . والذى توصل الى هذه الصيغة الذكية هو معلمى الخصوصى الكبير شيوى شى تشانغ ، وقد نفذها الرئيس فنغ قوه تشانغ ورئيس الوزراء دوان تشي روى . وتموه دور المدينة المحرمة فى اعادة الملكية نهائيا ، ولم تحظ نشاطاتها الجديدة بعد اخفاق هذه المحاولة باهتمام العالم الخارجى .

ولما كان القصر قادرا على اسدال ستار على دوره فى اعادة الملكية ، فان اهتمام الرأى العام قد تركز على مؤيديها الفاشلين خارج المدينة المحرمة . وكنت قادرا على تشكيل صورة عما كان قد حدث حقا من خلال المقالات التى قرأتها فى الصحف ومما أخبرنى به المعلمون الخصوصيون .

فبعد اخفاق يوان شى كاى فى اغتصاب العرش عام ١٩١٦ اتفق شيوى شى تشانغ وتشانغ شيون على ان اعادة الملكية الى تشينغ هى فرصتهما الوحيدة لمقاومة الجمهوريين الجنوبيين . وبعد وفاة يوان دعا تشانغ شيون الى مؤتمر لأمراء الحرب فى مقره الرئيسى فى شيوتشو (مؤتمر شيوتشو الثانى) تقرر فيه ان الشىء الأول هو الحصول على دعم أجنبى ، وخاصة من اليابان . وعندما حظيت خطتهما بالقبول من قائد الحامية اليابانية فى تيانجين أنشأ تشانغ شيون صلة مع الجنود " الملكيين " الذين كان يقودهم بابوجاب والأمير سو فى منغوليا الداخلية والشمال الشرقى . واتفق مع بعض أمراء الحرب الآخرين على الزحف الى بكين بحجة حمايتها من الجيش " الملكى " ، ولكن هذه

الخطة أخفقت عندما قتل بابوجاب على يد أحد أعوانه .

المدبر الآخر لمؤامرة اعادة الملكية ، شيوى شى تشانغ ، حاول ان يظفر بدعم مجلس الوزراء اليابانى لخطته ، ولكن عندما تأكد تشانغ شيون ان شيوى يحاول ان يكون هوالوصى على العرش استشاط غضبا وانشقت الحركة الملكية .

وفى تلك الأثناء كان هناك صراع على السلطة يجرى فى بكين بين أمير الحرب دوان تشى روى من عصبة بييانغ ، الذى كان رئيس وزراء فى ذلك الوقت ، وبين الرئيس لى يوان هونغ . وعندما طرد دوان من رئاسة الوزارة نفذ الى تيانجين لتحريض تشانغ على مناهضة لي يوان هونغ . اما تشانغ شيون ، الذى كان قد حصل على وعد بالدعم من أمراء الحرب الآخرين فى كافة المقاطعات وقائدى عصبة بييانغ دوان تشى روى وفنغ قوه تشانغ فى مؤتمره الرابع فى شيوتشو ، فقد رأى ان هذه فرصته ليقود جنوده شمالا . فخدع لي يوان هونغ بأن جعله يدعوه الى المجىء للتوسط بينه وبين دوان تشى روى . وبعد ان اتصل برؤساء عصبة بييانغ فى تيانجين دخل بكين ونفذ مؤامرته باعادة الملكية فى اول يوليو .

عزت معظم الصحف اخفاق تشانغ شيون الى احتكاره السلطة وارتكابه اخطاء فاحشة بحق جماعته حيث اكتفى باعطاء شيوى شى تشانغ مجرد لقب فارغ واستهان بدوان تشى روى . وكان وقد توهم انه وضع قادة عصبة بييانغ فى جيبه ، ولذا فقد دهش لسماعه ان دوان تشى روى قد أخذ عهدا على جنوده فى تيانجين بأن " يعاقبوا المتمردين " وان أمراء الحرب المحليين الآخرين قد غيروا جميعا مواقفهم وأصبحوا " مؤيدين للجمهورية " . ذلك التغير المفاجىء الذى عاد على دوان تشى روى وفنغ قوه تشانغ بعطاء سخى حيث أصبح الأول رئيسا للوزراء مرة أخرى وفاز الثانى بالرئاسة . ولكن مع ان اللوم فى اعادة الملكية قد وقع على تشانغ شيون ، الا ان السلطات الجمهورية

الجديدة عاملته بمنتهى الرفق ، بعد ان أخبرهم بأنه حصل على صندوق من الوثائق التى أثبتت انهم قد دعموا فى الأصل خطة الملكية وانهم متورطون فى نفس الجريمة . وعندما أصبح شيوى شى تشانغ رئيسا فى السنة التالية سحبت مذكرة القبض عليه .

وما أدهشنى فى كل هذه المفاجآت هو ان جميع رؤساء عصبة بييانغ وبعض الشخصيات القيادية الأخرى فى الجمهورية كانوا ملكيين متحمسين ، وانهم الآن يجعلون من تشانغ شيون كبش الفداء من اجل حمايتى . ولقد صرحوا بكل حزم ان القصر ليس ملاما . وأعلن فنغ قوه تشانغ فى برقيته عن دعمه للجيش فى معاقبة المتمردين ، بل ذهب أبعد من ذلك بكثير حين قال : " اننى لم أكن مؤيدا للجمهورية فى أيام أسرة تشينغ ولكن ضغط الأحداث ولد جمهورية فى فترة ثورة ١٩١١ . " لماذا كانوا يغطون على المدينة المحرمة ويعلنون ميولهم الملكية بمنتهى الصراحة ؟ ان النتيجة الوحيدة التى استطعت التوصل اليها هى ان هؤلاء الرجال لم يكونوا معارضين حقا لاعادة الملكية ، وان المشكلة الوحيدة فى تلك القضية هى : من الذى يقود الملكية .

ان جميع القطط سواء منها البيضاء او المخططة هى من وجهة نظر المدينة المحرمة قطط جيدة مادامت تصطاد الفئران . انه لا فرق عندنا فى ان يكون السيد تشانغ او السيد دوان هو الذى يعيد الملكية . ولذا فان آمال الملكيين قد تركزت الآن على هذين الرجلين القويين الجديدين فنغ قوه تشانغ ودوان تشى روى بعد وصولهما الى السلطة . ولكن خطط القصر لم تعد بأية نتيجة عندما انشقت عصبة بييانغ الى زمرة تشيلى بقيادة فنغ قوه تشانغ وزمرة آنهوى بقيادة دوان تشى روى . ومع ان دوان قد اشعر القصر من خلال شى شو رئيس ادارة الأسرة بأن اعادة الملكية ما تزال ممكنة تماما ، الا ان شى شو أصبح على حذر بحيث لم يعلق أهمية كبيرة على كلمة يقولها رجل جاء الى السلطة من خلال قيادته حملة ضد اعادة الملكية .

خلف فنغ قوه تشانغ فى الرئاسة شيوى شى تشانغ . وبعد انهيار مخطط اعادة الملكية عام ١٩١٧ مباشرة نشر تعليق فى " صحيفة الاخبار الشانغهانية " احتوى على مقطع ترك أثرا كبيرا على المدينة المحرمة :

> لو ان اعادة الملكية قد خطط لها شيوى شى تشانغ لما عولجت بالتأكيد هذه المعالجة غير المتقنة ، ولو لم تكن من عمل تشانغ شيون لاعترف قادة عصبة بييانغ فورا بأنهم أتباع للأمبراطور . . .

وهكذا لم أكن أنا الوحيد الذى اغتبط بهذه الخطة التى جعلت منه امبراطورا بضعة أيام ، بل ان الملكيين الآخرين أيضا كانوا متحمسين جدا فى بداية رئاسة شيوى شى تشانغ .

أخبرنى شيخ مانشوى فى الستين من عمره يقيم فى بكين : " عندما أصبح شيوى شى تشانغ رئيسا عام ١٩١٨ ظهرت كثير من العربات المانشوية وتسريحات الشعر النسائية فى شوارع بكين ، وأصبحت بيوت النبلاء صاخبة بضجيج أعياد الميلاد والعروض المسرحية والمآدب . بل ظهرت كذلك فرق مسرحية للنبلاء الهواة ونواد أخرى . . . "

وأخبرنى شيخ آخر من أصل هانى : " مرت ثلاث مناسبات بعد تأسيس الجمهورية مشينا خلالها أسلافا (٢٠) فى شوارع بكين . الأولى بعد وفاة الامبراطورة الأرملة لونغ يوى ، والثانية حين اعاد تشانغ شيون الملكية ، والثالثة امتدت من تعيين شيوى شى تشانغ رئيسا الى ' الزفاف العظيم ' (٢١) . وفى هذه المرة الأخيرة بلغ فيها النشاط ذروته . . . "

لقد كان شيوى شى تشانغ صديقا ليوان شى كاى فى ايام عزه ، وكان يوان يستشيره قبل القيام بأية حركة هامة تقريبا . وقيل ان يوان وشيوى شى تشانغ قد أجريا مناقشة مع فنغ قوه تشانغ ودوان تشى روى وآخرين قبل ان يجعلا الامبراطورة الأرملة لونغ يوى تتخلى عن سلطة الدولة عام ١٩١٢ .

وانهما اتفقا فى هذا الاجتماع على ان الجيش الجمهورى لا بد ان يؤخذ بالحيلة بدل القوة ، وانهما يجب ان يقبلا أولا بشروط الثوريين ويؤسسا جمهورية ، ثم يقومان بشق الجيش الثورى لحل الجمهورية واعادة الامبراطور الى العرش . ولم يكن شيوى شى تشانغ مسرورا أبدا عندما أعلن يوان شى كاى نفسه امبراطورا عام ١٩١٦ . وقد علم أحد أقربائى ذات مرة من ابن شقيقة شيوى شى تشانغ ان يوان جاء ليرى شيوى فى نفس اليوم الذى ألغى فيه سلطته الامبراطورية وعندما دخل يوان غرفة الاستقبال كان ابن الشقيقة هذا فى غرفة التدخين المجاورة لغرفة الاستقبال فلم يجرؤ على الخروج . ومما استطاع ان يلتقطه من المحادثة تبين ان شيوى شى تشانغ كان ينصح يوان بأن " يتقيد بالاتفاقية الأصلية " ، ولكنه لم يستطع ان يستوضح جواب يوان . ووفقا لما أظهرته التطورات اللاحقة ، يمكن الترجيح ان يوان لم يقبل بالاقتراح او انه مات قبل ان يستطيع انفاذه . ولكن شيوى شى تشانغ لم يتخل أبدا عن فكرة اعادة الملكية .

وعندما أصبح شيوى رئيسا فى سبتمبر ١٩١٨ أعلن أنه لن يستطيع الاقامة فى قصر الرئاسة (وكان فى الاصل قسما من القصر الامبراطورى) ، وانه لذلك سيقيم فى بيته الى ان يبنى قصر رئاسى جديد ، صفح عن تشانغ شيون ، وأيد دراسة الكتب الكونفوشية ، وبجل كونفوشيوس ، وقدم القرابين للسماء ، ومنح أفراد الأسرة الامبراطورية مناصب مدنية وعسكرية . واعتبر أسرة تشينغ " أسرته الحالية" ، وتكلم عنى كما لو كنت الامبراطور الحاكم .

عملت ادارة الأسرة على تزويد شيوى بالدعم المالى المباشر لانتخابه رئيسا . وبعد ان توضح انه سيفوز بالرئاسة أعلن فى مأدبة عشاء خاصة أقامها له كبار الموظفين السابقين فى ادارة الأسرة ان الهدف من اخذه هذا المنصب هو ان "يكون وصيا للملك الصغير" ، وأهدى شى شو كذلك لفيفتين كتب عليهما مقطوعة شعرية بخط يده يعبر فيها عن عواطف الولاء لي .

لم يخبرنى الناس الذين حولى شيئا عن هذه الأحداث فى ذلك الوقت . وكل ما عرفته هوان اسم شيوى كان يذكر دائما بطريقة مفعمة بالأمل ، وان المدينة المحرمة منذ مجيئه الى السلطة كانت تضج بالحيوية والنشاط : صارت ألقاب ما بعد الوفاة والاذن بركوب الخيل داخل القصر أكثر جاذبية ، وأخذ كبار الموظفين السابقين فى أسرة تشينغ ، الحقيقى منهم والمزيف يتدفقون على القصر أفواجا . ومع ان معلمى الخصوصيين لم يفعلوا الكثير بخصوص المفاوضات التى كانت تجرى بين القصر والرئيس ، الا ان تشن باو تشن أبدى ذات مرة الملاحظة التالية الراشحة بالازدراء : " ان شيوى شى تشانغ ما يزال راغبا فى ان يكون أميرا وصيا ، انه لمطلب كبير بعض الشىء، فمنصب نبيل يكفيه " . وعلق فى مناسبة أخرى قائلا : " لقد اقترح أصلا ان ابنة موظف هانى يجب ان تصبح أمبراطورة ، فما الدافع وراء ذلك . ان بوسعكم ان تروا اى صنف من الناس هو من حقيقة انه أخذ المنصب تحت لواء الجمهورية مع انه معلم خصوصى كبير من أسرة تشينغ . "

ومنذ ذلك الحين لم تعد المدينة المحرمة تتكلم أبدا عن شيوى شى تشانغ بنفس الحماسة السابقة . وهو فى الحقلم يكن فى مركز قوى جدا بعد سنة من مجيئه الى السلطة . ومع انشقاق عصبة بييانغ الى زمرتين لم تعد له تلك السيطرة عليهما بوصفه رئيسا للعصبة . ولقد كان على علاقة متزايدة السوء بدوان تشى روى . وفى عام ١٩١٩ جعلتهما حركة ٤ مايو الطلابية التى هزت الصين كلها يكرسان طاقاتهما للبقاء فى السلطة . وبغض النظر عن مدى ولاء شيوى للملكية ، الا انه لم يكن هناك ما يستطيع فعله لأجل اعادة الملكية ، ولو ان القصر الذى لم يسمع الا القليل من شيوى ، لم ييأس أبدا من المستقبل .

أمل لا يموت

ذات يوم كنت راكبا دراجتى فى حديقة القصر ، وكدت أصدم شخصا عندما اردت الاستدارة . وكان هذا التصرف من الرجل يعتبر خرقا كبيرا للعرف الامبراطورى ، الا اننى لم أهتم بذلك واستدرت ، واوشكت ان أركبها وأنطلق ثانية ، فاذا بى أرى الرجل راكعا على الأرض ، يقول :

ــ خادمكم الوضيع يقدم احتراماته الى السيد المديد العمر !

كان يلبس صدرة سوداء من الصنف الذى يلبسه الخصيان ، ولكن عندما نظرت اليه بمزيد من التمعن لاحظت شعرا قصيرا على ذقنه ، فعرفت انه لا يمكن ان يكون خصيا . فسألته عما يفعل وأنا أقود دراجتى على نحو دائرى فقال :

ــ خادمكم مشرف على المصابيح الكهربائية .

ــ آه ، اذا هذا هو عملك . لقد كنت محظوظا فى انك لم تنقلب حين صدمتك .

ــ ان حظ خادمكم جيد جدا ، فقد تمكنت اليوم من رؤية التنين الحقيقى ابن السماء . أرجو من السيد المديد العمر فى سخائه السماوى ان يغدق على عبده الوضيع لقبا شريفا !

فأضحكنى هذا الطلب السخيف ، وتذكرت لقب التهكم الذى أخبرنى الخصيان انه كان للمتسولين المقرفصين عند رؤوس الجسور . وقلت مقهقها :

ــ حسن جدا ، سأمنحك لقب " هو " (٢٢) حارس الجسر .

ولم أتخيل أبدا ان هذا الشخص المجنون بالألقاب سيحمل مزحتى هذه على محمل الجد ، ويذهب مباشرة الى ادارة الأسرة ليطلب " رخصة النبلاء " . ومن سوء الحظ اننى لم أعرف ماذا كانت نتيجة ذلك .

كان المعلمون الخصوصيون والخصيان فى تلك الأيام غالبا ما يخبروننى بأن الناس فى الريف يسألون : " كيف حال الامبراطور شيوان تونغ ؟ " او " من هو على العرش فى الوقت الحاضر ! ؟ " او " هل سيصبح العالم آمنا اذا جلس التنين الحقيقى ، ابن السماء ، على العرش ؟ " وأخبرنى معلمى الخصوصى للغة الانكليزية ان اشد الناس عداء للملكية ، وفقا لما جاء فى مقالة نشرتها احدى الصحف ، قد خاب أملهم فى الجمهورية ، لذلك كان واضحا ان هؤلاء ايضا قد غيروا آراءهم . وكان السبب الحقيقى فى كلام بعض الناس عن " تشينغ السابق " هو النكبات التى صبها عليهم أمراء الحرب . ولكن معلمى الخصوصيين استخدموا هذا كله ليثبتوا لي ان الشعب يحن الى النظام القديم .

وفى نهاية عهد شيوى شى تشانغ اصبح المرء كثيرا ما يقابل بأناس مشدودين الى الملكية . فكان هناك تاجر يدعى وانغ جيو تشنغ جمع ثروة كبيرة من بيع البدلات العسكرية لجيش زمرة تشيلى . وكان طموحه ان يغدق عليه الشرف الامبراطورى السابق بأن يسمح له بلبس سترة صفراء ، وكان ينفق قدرا هائلا من الوقت والمال لتحقيق هذا الهدف . فأعطاه الخصيان لقبا تهكميا يعنى " المبذر " ، فصار يأتى فى عيد رأس السنة والأعياد الاخرى مع النبلاء القدماء ليركع ويقدم ضريبته الضخمة لي ، وكان يحضر فى كل مرة لفائف سميكة من الأوراق المالية ويبعثرها بسخاء اينما ذهب . وكان الخصيان يفرحون بشدة لرؤيته قادما ، ذلك لأن أى شخص كان يريه الطريق ، او يعلن عن مجيئه او يسحب له ستور الابواب او يصب له الشاى ، او حتى يتكلم معه بضع كلمات ، سيحصل بالتأكيد على لفة اوراق مالية منه . وكان ينفق فضلا عن ذلك مبالغ طائلة بالوسائل الرسمية . وفى النهاية حقق طموحه وأغدق عليه " الشرف " بالسماح له بلبس السترة الصفراء .

وكان الناس يأتون الى المدينة المحرمة كل يوم أو يرسلون المذكرات

بعد من أماكن بعيدة لكى يحظوا بشرف السترة الصفراء ، او تكون لهم سجلات سلالية تثبت انهم حصلوا على شرف معين من أسرة تشينغ او لقب من ألقاب ما بعد الوفاة . وبلغ الهوس بهؤلاء الناس ان القى احدهم وكان يلقب "ليانغ المعتوه" نفسه فى بركة ببكين ليحصل على لقب ما بعد الوفاة ولقب " صادق ومستقيم " . وفيما بعد قدمت طلبات كثيرة للحصول على ألقاب ما بعد الوفاة ، ولذا تقرر ان لا تعطى هذه الألقاب الا لأناس تجاوزوا مرتبة معينة ، والا فان البلاط الصغير سيسمح لنفسه بأن يبدو رخيصا . كما وضعت قيود أشد على منح الامتيازات بركوب الخيل او الانتقال بالمحفة داخل القصر او توزيع اللفائف المكتوبة بخطى . وقد ارتفعت بهذا الاجراء قيمة الألقاب ، حتى لم يعد النبلاء المانشويون وحدهم يعتبرونها " شرفا مميزا " بل وقادة الجمهورية العسكريون كذلك .

وكانت لدى بعض الكتبة العصريين فى ذلك الوقت ، مثل الدكتور هو شى ، افكار مماثلة . وقد حدثنى معلمى الخصوصى جونستون وانا فى الخامسة عشرة عن هذا الدكتور الذى كان يدعو الى استخدام الصينية العصرية فى الكتابة ، وسخر جونستون من قصيدته " نزهة على شاطىء النهر " المكتوب نصفها بالانكليزية ونصفها الآخر بالصينية ، ولكنه قال أيضا انه لن يكون هناك ضير فى ان انظر الى بعض كتاباته بوصفها جزءا من معارفى . وبفعل ذلك تولد عندى بعض التطلع الى رؤية هذه الشخصية الحديثة . وذات يوم دفعنى فضولى الى ان أتصل به هاتفيا ، ودهشت لمجيئه الى القصر عندما دعوته . وسيكون لدي كثير مما أقوله عن هذا اللقاء فيما بعد ، ولكنى أود أن أستشهد برسالة كتبها هذا الدكتور المتفرنج الى جونستون فيما بعد يكشف فيها ان مشاعره كانت مشابهة لمشاعر كبار الموظفين السابقين فى أسرة تشينغ . وفيما يلى قسم من هذه الرسالة :

يجب ان أعترف بأنني تأثرت أعمق التأثر بهذا اللقاء . لقد كنت أقف وأجلس أمام آخر أباطرة بلادى ، آخر ممثل للسلاطين العظام من العصور التاريخية .

والشيء الذى كان أكثر أهمية هو التشجيع الذى تلقاه القصر من افواه الأجانب . وكان من عادة جونستون ان يقدم لي قدرا كبيرا من المعلومات بهذا الصدد . ووفقا لقوله فان كثيرا من الأجانب ظنوا ان اعادة الملكية هى رغبة مشتركة للصينيين العاديين . وكان يقرأ لي مقاطع من الصحف الأجنبية منها المقطع التالى الذى ضمنه فيما بعد كتابه « الشفق داخل المدينة المحرمة » .وهذا المقطع جزء من افتتاحية صحيفة انكليزية اسمها " North China Daily Mail " تصدر فى تيانجين ، عدد ١٩ سبتمبر ١٩١٩ ، تحت عنوان " هل هناك اعادة ملكية أخرى وشيكة ؟ " :

ان سجل الجمهورية يضم كل الأشياء الا السعادة . واليوم نجد الشمال والجنوب مستعدين للنزال . والنتيجة الوحيدة التى يمكن التوصل اليها هى ان النظام الجمهورى فى الصين قد جرب واثبت ان له نواقص . ان طبقات التجار والوجهاء ، وهى العمود الفقرى للبلاد ، قد تعبت من كل هذا النزاع الداخلى ، واننا نعتقد اعتقادا جازما انها ستقدم دعمها المخلص لأى شكل من أشكال الحكومة يضمن السلام للمقاطعات الثمانى عشرة .

يجب ان لا ننسى ان هناك فئة قوية جدا من انصار الملكية لا يمكن أبدا ان يصبحوا ميالين الى الشكل الجمهورى للحكم ، ولكنهم ظلوا صامتين خلال السنوات القليلة الماضية لسبب ما . ولا حاجة الى القول انهم يعطفون على التحركات العسكرية الراهنة ، كما ان تردد بعض المشاهير منهم على الكثير من الاماكن التى يحتشد فيها العسكريون ، ليس بلا مغزى .

ويعتقد هؤلاء الانصار المتكتمون والمتطلعون الى اعادة ناجحة للامبراطور السابق ان الجمهوريين يقومون بتدمير البلاد ، وهذا يعنى ، مهما يكن ممضا ، وجوب العودة بالبلاد الى سابق ازدهارها وأمنها .

ان اعادة الملكية لا يمكن أبدا ان تستقبل بالترحيب في جميع الأوساط ، بل على العكس فانها ربما تقابل بمعارضة دبلوماسية هائلة فى أكثر من مفوضية واحدة ، ولكن حتى معارضة من هذا النوع سوف تتبخر اذا ما حدث انقلاب ناجح ، حيث اننا جميعا نعرف بأنه لا شيء ينجح كالنجاح .

وعلى الرغم من جميع الأشياء المشجعة التى كانت تقولها الصحف الأجنبية ، فقد كان طبيعيا ان هؤلاء العسكريين الذين فى أيديهم البنادق هم الذين يتحكمون مباشرة بمصير البلاط الصغير . لقد اشارت الصحيفة المذكورة الى ان " التردد على الكثير من الأماكن التى يحتشد فيها العسكريون ليس بلا مغزى " . ويذكرنى هذا كيف ان البلاط كان له فى النصف الثانى من عام ١٩١٩ علاقات بأمراء الحرب اوثق من علاقاته بقادة عصبة بييانغ القدامى . وكان فى مقدمة هؤلاء الحاكم تشانغ تسوه لين ، رئيس زمرة فنغتيان .

بدأت العلاقة مع تشانغ تسوه لين عندما تسلم والدى مبلغا من النقود أرسل اليه من فنغتيان (لياونينغ الحالية فى الشمال الشرقى من الصين حيث تركزت سلطة تشانغ تسوه لين) كدفعة عن بعض الممتلكات التى كانت عائدة الى الامبراطور . فكتب والدى رسالة شكر ، وأرسلت ادارة الأسرة موظفا عالى المرتبة الى فنغتيان مع بعض التحف من مجموعة تحف القصر — لوحة من رسم تونغ يوان من أسرة تانغ الجنوبية (٩٣٧—٩٧٥) ، وزوج من الزهريات الخزفية مع لفيفة مخطوطة بيد الامبراطور تشيان لونغ — كهدية من والدى الى تشانغ تسوه لين . فأرسل تشانغ اخاه بالمؤاخاة تشانغ جينغ هوى ، وكان يومها الشخص الثانى فى قيادة جيش فنغتيان ، واصبح فيما بعد رئيس وزراء "لامبراطورية مانشوريا" ، ليرافق مبعوثنا فى عودته الى بكين ، وينقل شكره الى والدى . وهذا دل على تقوية العلاقة بين قصر الأمير تشون " الذى يمثل البلاط الصغير " وجيش فنغتيان .

وجاء ثلاثة ضباط كبار فى جيش فنغتيان الى بكين عام ١٩١٧ للمساهمة فى اعادة الملكية التى تمت على يد تشانغ شيون ، وقد منح اثنان منهم فيما بعد شرف ركوب الخيل داخل المدينة المحرمة . وعندما احتفل والد احد هذين وهو قائد الفرقة تشانغ تسونغ تشانغ ، بعيد ميلاده الثمانين فى بكين ذهب والدى شخصيا ليهنئه . وفى عام ١٩٢٠ اندمجت زمرة فنغتيان فى زمرة تشيلى للتغلب على زمرة آنهوى ، وعندما دخل قائد زمرة تشيلى تشاو كون (خليفة المتوفى فنغ قوه تشانغ) وتشانغ تسوه لين مدينة بكين أرسل البلاط الصغير موظفا فى ادارة الأسرة يدعى شاو ينغ للترحيب بهما . وأصبح قصر الأمير تشون أكثر نشاطا من السابق . وتسببت الاشاعة التى تقول ان تشانغ تسوه لين سيأتى الى القصر لمقابلة الامبراطور بعقد اجتماع خاص لكبار موظفى ادارة الأسرة فى بيت والدى للتباحث فى الهدايا التى يجب ان تقدم له ، وتقرر انه يجب ان يتسلم سيفا قديما بالاضافة الى أشياء اخرى كانت قد هيئت . ولكن تشانغ تسوه لين عاد الى فنغتيان دونما زيارة للقصر . وبعد شهرين عين نبيل مانشوى شاب ، قريب لوالدى ، مرشدا لتشانغ وذهب الى فنغتيان ليقيم فيها بعض الوقت ، وخلال فترة التعاون بين فنغتيان وتشيلى بعد هزيمة زمرة آنهوى أصبح نادى فنغتيان فى بكين مكان اجتماعات لقادة فنغتيان ، ويتردد اليه عدد من الأمراء والنبلاء . وكان من رواده القهرمان الرئيسى لقصر الأمير تشون الذى أصبح أخا بالمؤاخاة لتشانغ جينغ هوى ، احد القادة فى زمرة فنغتيان .

وكانت هاتان السنتان مشابهتين تماما للفترة التى قام فيها تشانغ شيون باعادة الملكية : فالجو كان مملوءا باشاعات مفادها ان هناك محاولة جديدة لاعادتى الى العرش . وبعد شهرين من ارسال والدى الهدايا الى فنغتيان ومجىء تشانغ جينغ هوى الى العاصمة كتبت صحيفة " peking leacler " الناطقة باللغة الانكليزية فى عددها الصادر فى ٢٧ ديسمبر ١٩١٩ النبأ التالى من فنغتيان :

خلال الأيام القليلة الماضية كانت اشاعة اعادة الملكية المانشوية فى بكين بدلا مما يسمى حكومة الصين الجمهورية تدور على الألسن بين جميع الأوساط وخاصة بين العسكريين الذين يقودهم الجنرال تشانغ تسوه اين . وفقا للادعاءات الحالية ، فان الملكية ستبدأ هذه المرة على يد الجنرال تشانغ تسوه لين بالتعاون مع ملكيين معينين وقادة عسكريين فى الشمال الغربى من الصين ، والجنرال السابق تشانغ شيون . . سيلعب دورا هاما فى ذلك . . وحتى الرئيس شيوى والرئيس السابق فنغ فى مواجهتهما للوضع السياسى المضطرب داخل البلاد والأخطار الخارجية ، قد اضطرا الى قبول احياء الملكية دون معارضة قوية او استياء . وبخصوص تشاو كون ولى تشون وغيرهما من القادة العسكريين الأقل رتبة ، فيقال ان من الممكن ارضاءهم بجعلهم أمراء او اعطائهم منصب نبيل بالاضافة الى السماح لهم بالبقاء فى وظائفهم الحالية داخل مختلف المقاطعات . .

وعندما أخبرنى جونستون بذلك فى وقت لاحق أذكر انه أخبرنى أيضا ببعض الاشاعات الأخرى حول نشاطات تشانغ تسوه لين لاعادة الملكية ، وظلت أخبار من هذا النوع دائرة على الألسن الى ان عاد تشانغ الى الشمال الشرقى مهزوما عام ١٩٢٢ . وقد تركت هذه الأخبار انطباعا عميقا فى نفسى ، وجعلتنى أشعر بسعادة غامرة ، كما مكنتنى من فهم السبب الذى من أجله كان قادة جيش فنغتيان متحمسين للمدينة المحرمة ، وسبب ذهاب تشانغ جينغ هوى مع الأمراء وكبار موظفى أسرة تشينغ ليركعوا للزوجة العلية دوان كانغ فى عيد ميلادها ، وكذلك السبب فى حالة التحمس والسرور الكبيرين التى كان عليها بعض الأمراء فى نادى فنغتيان . ولكن قبل ان تمتد فرحتى هذه طويلا قضى عليها الانشقاق بين زمرتى فنغتيان وتشيلى والهزيمة اللاحقة لجيش فنغتيان الذى انسحب الى الشمال الشرقى .

وأخذت التقارير المزعجة تتوالى بسرعة . شيوى شى تشانغ استقال فجأة : جيش تشيلى سيطر على بكين . ولى يوان هونغ ، الذى طرد من منصبه عنوة خلال اعادة تشانغ شيون للملكية ، اصبح رئيسا مرة ثانية . وحلت بالمدينة

المحرمة محنة جديدة ، ورجا الأمراء وكبار الموظفين من جونستون ان يأخذنى الى المفوضية البريطانية طلبا للسلامة . فاتفق جونستون مع المفوض البريطانى السير بايلبى آلستون على تخصيص بعض الغرف لكى يستبقينى فيها عند الضرورة بصفة ضيفه الخاص . كما اتفق مع المفوضية البرتغالية والمفوضية الهولندية ان يسمح لأعضاء آخرين من الأسرة المالكة باللجوء الى حى المفوضيات . فلم أوافق على هذه الفكرة ، ورأيت انه سيكون من الأفضل ان أذهب الى خارج البلاد مباشرة . واقترحت على جونستون ان يأخذنى الى الخارج حالا . وأذهلته الفجائية التى استدعيته فيها وطلبت منه هذا الطلب . وأجاب دون أن يجد وقتا للتفكير : " هذا سيكون تصرفا غير مناسب . ينبغى لجلالتكم ان تفكروا فى ذلك بهدوء : ان الرئيس شيوى قد غادر بكين قبل وقت قصير ، واذا ما احتفى جلالتكم من المدينة المحرمة ، فذلك سيؤدى مباشرة الى الظنون بأنه كان هناك مؤامرة بين القصر وشيوى شى تشانغ . وفوق ذلك لن تكون بريطانيا قادرة على استقبال جلالتكم فى هذه الظروف الحالية . . . "

فى تلك الأيام لم يكن عندى قدرة على الاستنتاج وحدى ، كما لم يخبرنى أحد بأنه كان هناك بعض الروابط السرية بين تشانغ تسوه لين وشيوى شى تشانغ ، وبين تشانغ وشيوى من جهة والبلاط الصغير من جهة اخرى ، بل كنت حتى أقل ادراكا لأى صلة بين حى المفوضيات واندلاع الحرب بين زمرتى تشيلى وفنغتيان . لذلك عندما سمعت ان طلبى كان مستحيلا تركته . وعندما أصبح الوضع أكثر استقرارا لم تعد مسألة اللجوء الى المفوضيات مطروحة ، ناهيك عن الذهاب الى الخارج .

وبعد سنة ، فى عام ١٩٢٣ ، اشترى تشاو كون ، رئيس زمرة تشيلى ، أصوات أعضاء البرلمان مقابل ٥ آلاف يوان لكل صوت ، وانتخب بذلك رئيسا . وكانت مخاوف البلاط الصغير منه قد زالت عندما جذب انتباهه قائد آخر من زمرة تشيلى يدعى وو بى فو (أخبرنى تشنغ شياو شيوى ،

المرشد الوثيق الصلة بى فيما بعد ان وو هذا جندى ذو مستقبل مشرق للغاية وانه راغب فى الحفاظ على أسرة تشينغ العظيمة وان من الممكن جدا اقناعه بدعمنا) . وفى تلك السنة نفسها أرسلت تشنغ شياو شيوى الى مقر وو بى فو الرئيس فى لويانغ بهدايا كثيرة لتهنئته بعيد ميلاده الخمسين . وذهب كذلك كانغ يوى وى ، أحد اصلاحيى حركة ١٨٩٨ الذى أصبح الآن ملكيا ، ليحاول استمالته ولكن لم يحصل منه على أى جواب محدد . ولم يستمر نجاح وو بى فو طويلا ، فبعد مضى سنة من حفلة عيد ميلاده هذه غير معاونه فنغ يوى شيانغ موقفه فى القتال الدائر بين زمرتى تشيلى وفنغتيان . وهذا أدى الى هزيمة وو التامة ، وطردت أنا من المدينة المحرمة على يد الجيش الوطنى بقيادة فنغ يوى شيانغ معاون وو السابق .

ريغنالد جونستون

كانت المرة الأولى التى أرى فيها أجانب هى حفل الاستقبال الأخير الذى أقامته الامبراطورة الأرملة لونغ يوى لزوجات السفراء الأجانب . وحتى ذلك الوقت لم أكن قط قد رأيت أجانب وكنت أتخيلهم فى ثيابهم الغريبة وعيونهم العديدة الالوان فأشعر بالاشمئزاز منهم . وكانت عندى فكرة مضطربة عن أشكالهم من خلال المجلات المصورة : كانوا يضعون شوارب على شفاههم العليا ، وكان هناك دائما خط ينتظم ساقى بنطالهم من الأعلى الى الأسفل ، وكانوا يحملون عصيا فى أيديهم . وقال الخصيان ان شوارب الأجانب صلبة جدا حتى ان المرء بوسعه ان يعلق مصابيح فى أطرافها ، وان سيقانهم متصلبة ؛ وكان أحد الموظفين يعتقد بذلك ، فاقترح على الامبراطورة الأرملة تسى شى عام ١٩٠٠ انه لدى مقاتلة الأجانب لا يلزم الا ركلهم بأعمدة الخيزران ، فيقعون على الأرض ويعجزون بعدها عن النهوض . وقال الخصيان ان العصى

التى فى أيديهم هى " عصى الحضار " لضرب الناس بها . ولكن معلمى الخصوصى تشن باو تشن كان قد عاش فى جنوب شرقى آسيا حيث رأى الأجانب ، وما رواه لي عن العالم الخارجى حل تدريجيا محل انطباعات طفولتى ، ومحل القصص التى رواها لى الخصيان . ومع ذلك دهشت دهشة شديدة واضطربت أشد الاضطراب حين بلغت بأننى سأتخذ معلما خصوصيا أجنبيا .

فى ٤ مارس ١٩١٩ قدمنى والدى والمعلمون الخصوصيون الصينيون الى السيد ريغنالد جونستون فى قصر يوى تشينغ . وركع لي فيما كنت جالسا على العرش وفقا لمراسم استقبال الموظفين الأجانب ، ثم نهضت وصافحته . فركع مرة أخرى وانسحب . وبعدها دخل ثانية فانحنيت له انا : هذه كانت الطريقة التى تدل على اننى اعترف به كمعلمى الرسمى . وبانتهاء هذه المراسم بدأ يعلمنى بمرافقة معلمى الخصوصى تشو يى فان .

ووجدت بعد ذلك ان جونستون لم يكن مفزعا . كانت لغته الصينية سلسة وأيسر على الفهم بكثير من لهجة تشن باو تشن الفوجيانية او لهجة تشو يى فان الخاصة بجيانغشى (٢٣) ولا بد انه كان فى الأربعين من عمره فى ذلك الوقت ، وكان واضحا انه أكبر من أبى سنا ، ولكن حركاته كانت ما تزال رشيقة وذكية . وكان ظهره مستقيما تماما حتى أننى تساءلت ان كان يلبس اطارا حديديا تحت ملابسه . وعلى الرغم من انه لم يكن له شارب كمقود الدراجة او " عصا الحضارة " ، وساقاه ليستا متصلبتين ، الا انه كان يترك فى نفسى دائما انطباع التصلب . وجعلتنى عيناه الزرقاوان وشعره الأشقر الرمادى بصفة خاصة أشعر بعدم الارتياح .

خلال درس بعد قدومه بشهر تقريبا ، استدار فجأة وحدق فى غضب شديد الى الخصى الواقف بمحاذاة الجدار . واحتج لي بلغته الصينية المنطوقة بنبرة انكليزية ، وقد احمر وجهه غضبا :

ـ ان ادارة الأسرة تعاملني معاملة فظة . لماذا انا وحدى الذى ينبغى ان يكون معى خصى فى الدرس ، بينما المعلمون الخصوصيون الآخرون لا يفعلون ذلك ؟ اننى لا أحب هذه المعاملة . اننى لا أحبها ، وسأرفع المسألة الى الرئيس شيوى لأنه هو الذى دعانى لتسلم هذه الوظيفة !

لكنه لم يكن مضطرا للذهاب الى الرئيس شيوى . ان نصف السبب على الاقل ، فى دعوة بيت تشينغ له لتدريسى كان هو الحصول على حماية منه ، فهم بالتالى لا يمكن ان يستفزوه لأى سبب . وفى الواقع ، فهو اكتفى بمراجعة أبى وكبار الموظفين حول مسألة الخصى فقرروا سحبه دون معارضة . وقد وجدته قاسيا للغاية . ودرست الانكليزية معه بجدية ، دون ان أجرؤ على التحدث فى أمور أخرى عندما أشعر بالملل او آمر بعطلة كما كنت أفعل مع معلمى الصينيين .

بعد شهرين او ثلاثة وجدته لا يختلف كثيرا عن معلمى الصينيين . لقد استخدم نفس الصيغة التبجيلية فى مخاطبته لي كما كانوا يفعلون ، وكان يدفع الكتاب المدرسى جانبا ويتحدث معى عندما أتعب من القراءة ، ويروى لى القصص عن أشياء قديمة وجديدة وأماكن قريبة وبعيدة . وبناء على اقتراحه زودت بزميل يدرس معى الانكليزية . وطريقته فى ذلك كانت تماما كطريقة معلمى الصينيين .

كان هذا الانكليزى الكهل يحمل درجة ماجستير من جامعة أكسفورد ، وقد دعاه بيت تشينغ رسميا الى القصر بعد مناقشات بين المفوضية البريطانية والرئيس شيوى شى تشانغ . وكان قبل مجيئه الى القصر سكرتيرا فى ادارة الحاكم العام البريطانى فى هونغ كونغ ومديرا اداريا لأراضى ويهايوى المؤجرة للبريطانيين. وكان ـ كما قال ـ قد مضى عليه فى آسيا أكثر من عشرين سنة ، وزار كل مقاطعة فى الصين ، ورأى جبالها الشهيرة وانهارها وتحفها الأثرية . وكان متمرسا فى التاريخ الصينى ، ويعرف كافة نواحى البلاد معرفة جيدة ، وخبيرا فى

الكونفوشية والموهية والبوذية والطاوية ، وخبيرا فى الشعر الصينى القديم . ولا أعرف كم من الكتب الصينية الكلاسيكية قد قرأ ، ولقد تعودت رؤيته يهزرأسه منشدا قصائد أسرة تانغ تماما كأنه معلم صينى ، وصوته يرتفع ثم ينخفض ويتوقف .

وكان يتشرف ، شأنه شأن بقية المعلمين الخصوصيين ، باستلام هدايا منى . وبعد ان كافأته بخرزة قبعة موظف من الدرجة الاولى حصل على مجموعة كاملة من ملابس بلاط تشينغ اعدت خصيصا . وأخذ صورة بهذه الملابس واقفا تحت لوحة مكتوبة بخط يدى امام فلته فى وادى الكرز فى التلال الغربية ، ووزع نسخا منها الى أسرته وأصدقائه . لقد استأجرت له ادارة الأسرة منزلا بكينيا من الطراز القديم وأثثه هو كما يفعل أحد كبار الموظفين فى أسرة تشينغ وعلق على البوابة الأمامية لوحات حمراء مكتوبا عليها بأحرف سوداء " مرشد من قصر يوى تشينغ " و" مخول بأن يركب فى محفة يحملها حمالان داخل القصر " و" مكافأ بخرزة قبعة الدرجة الاولى " و" مخول بلبس سترة من فرو السمور " . وكان فى كل مرة يتلقى فيها مكافأة رئيسية يكتب مذكرة يشكرنى فيها على سخائى .

واشتق لنفسه اسما أدبيا من القول الوارد فى « كتاب الحوار » لكونفوشيوس « الأديب يركز جهوده على الحقيقة » . وكان مولعا بالشاى الصينى وأزهار عود الصليب ، كما كان شغوفا بالتحدث مع كبار الموظفين السابقين فى أسرة تشينغ . وعندما تقاعد وعاد الى بلاده أفرد غرفة فى منزله ليعرض فيها الأشياء التى أعطيته اياها مثل ملابس بلاط تشينغ وخرزة القبعة ، بل انه رفع علم " امبراطورية مانشوريا " فى جزيرة صغيرة اشتراها ليظهر ولاءه للامبراطور ولكن الذى جعل الصلة وثيقة بين المعلم والتلميذ هو صبره . وفى الحقيقةانه لم يكن سهلا على اسكتلندى نزق ان يتخذ ازاء تلميذ مثلى الوضعية التى اتخذها . لقد جلب لي ذات يوم بعض المجلات الأجنبية الملأى بصور

الحرب العالمية الأولى ، ومعظمها تظهر الطائرات والدبابات والمدفعية التابعة للجيوش المتحالفة . فاستأثرت هذه الأشياء المسلية باهتمامى الشديد . ولما رآنى مهتما بها كل الاهتمام ، وضح لي الأشياء التى فى الصور ، وأخبرنى ما وظيفة الدبابات وطائرات اى بلد هى الأفضل ، كما حدثنى عن مدى شجاعة جنود الحلفاء . وسحرت فى البداية ، ولكننى بعد فترة ضجرت كالمعتاد ، فأفرغت محتويات زجاجة سعوط على الطاولة وبدأت أعبث بها . فرتب جونستون المجلات دون ان ينبس بكلمة ، وظل ينتظر حتى نهاية الدرس ، بينما بقيت أنا مستغرقا فى اللعب .

وفى مرة ثانية جلب لي بعض الحلويات الاجنبية ، فسررت بالعلبة المعدنية وورقة اللف الفضية وبنكهة فاكهتها المختلفة . وشرع يروى لي كيف تستخرج نكهة الفواكه هذه من خلال عمليات كيماوية وكيف ان هذا الشكل الأنيق للحلويات تصنعه الآلات . فلم أستطع فهم شيء من ذلك ، بل لم أرد ان أفهم ذلك . وعندما أكلت قطعتين من هذه الحلوى تذكرت نمالى على شجرة السرو ، فرغبت فى ان أدعها تذوق نكهة الكيمياويات والآلات . واندفعت الى الفناء تاركا جونستون مع علبة الحلوى الى ان انتهى الدرس .

ولما أدركت تدريجيا مدى اجتهاده فى تعليمى ، سررت بالغ السرور ورغبت فى ان أصبح أكثر طاعة . انه لم يكتف بتعليمى الانكليزية ، او ان تعليمه اياي اللغة الانكليزية لم يكن مهما فى نظره بل اهتم اهتماما بالغا بان اصبح رجلا مثل الرجال الانكليز الذين يتحدث دائما عنهم . وعندما بلغت الرابعة عشرة قررت ان ألبس مثله ، فأرسلت بعض الخصيان لشراء مجموعة كبيرة من الملابس الغربية . ولبست بدلة منها لم تناسبنى مطلقا ، ويبدو ان مظهرى كان غريبا بربطة العنق المتدلية من ياقتى مثل قطعة من حبل ، فعندما ذهبت الى حجرة الدرس ارتعش جونستون من شدة الغضب لدى رؤيته اياي ، وطلب منى ان أعود وأخلعها فورا : وفى اليوم التالى جلب معه

خياطا ليأخذ قياسي ويفصل لي الملابس التي تليق بسيد انكليزى . وفيما بعد وضح لي قائلا : " من الأفضل ان تلبس ثيابك المانشوية بدلا من الثياب الغربية غير الملائمة . انك اذا لبست ثيابا من دكان الثياب المستعملة لن تكون سيدا ، بل ستكون . . . " وتمنيت ان لا يستمر فى حديثه .

كان يقول لي : " اذا قدر لجلالتكم الظهور فى لندن ، فمن المؤكد ان يدعى جلالتكم الى تناول الشاى ما بين حين وآخر . ان حفلات الشاى ليست رسمية . ولكنها مناسبات هامة تقام عادة فى ايام الأربعاء . وفى هذه الحفلات يمكنكم مقابلة النبلاء والأدباء والمشاهير وجميع أصناف الناس الذين يحتاج جلالتكم الى مقابلتهم ، ولا داعى الى ان تبالغوا فى اللباس ، فالسلوك الاصولى أكثر أهمية . لا تشربوا القهوة كما تشربون الماء ولا تأكلوا الكعك كما تتناولون وجبتكم المعتادة ولا تثيروا ضجيجا شديدا لدى استخدام الشوكة والملعقة . ان القهوة والكعك فى انكلترا هما " تمتوعة (نقل) وليس وجبة . . . "

ونسيت الكثير من تعليمات جونستون المشددة ، والحذر الذى أكلت به الكعكة الاولى ألقيت به جانبا عندما هممت بأكل الثانية ، ولكن الحضارة الغربية المتمثلة بالمدافع والطائرات التى رأيتها فى المجلات ، والحلويات المصنعة واصول حفلات الشاى ، كلها على السواء تركت فى ذهنى انطباعا عميقا . لقد جعلتنى المجلات المحتوية على صور الحرب العالمية الاولى أهوى قراءة المجلات المصورة الأجنبية ، واغرتنى الاعلانات المنشورة فيها بأن أطلب من الخصيان ان يشتروا لي الكلاب والماس من الخارج . وجعلت ادارة الأسرة تشترى لي أثاثا أجنبية ، واستبدلت بالمنضدة الحمراء المنجورة من خشب الصندل واللوازم النحاسية التى على سرير الكانغ منضدة اخرى مطلية بطلاء اجنبى ومزودة بمقابض خزفية بيضاء . كما فرشت الأرضية بألواح من الخشب ، وهكذا اصبحت الغرفة لا هى صينية ولا هى غربية . وكنت أتابع جونستون فى كل شىء فاشتريت عددا كبيرا من ساعات الجيب

وسلاسل الساعات والخواتم ودبابيس الزينة والازرار المعدنية واربطة العنق . وطلبت منه ان يعطينا اسماء اجنبية نتسمى بها ، انا واخوتي واخواتي و"امبراطورتي" و" زوجتي" ، فدعيت هنري ، وامبراطورتي اليزابيت . وكنت أقلد طريقته في التحدث مع زملائي وكانت مزيجة من الصينية والانكليزية :

– يا وليم (بوجيه) ! ابرى لي هذا " البينسل " (قلم الرصاص) . . . حسنا ، ضعه على الديسك (المكتب) .

– يا آرثر (بو جيا) ! أخبر ليلي (أختي الثالثة) والآخرين ان يأتوا الي تودى (اليوم) بعد الظهر من أجل هير (سماع) بعض الموسيقى العسكرية الأجنبية .

وكنت أشعر بزهو شديد لدى تكلمي على هذا النحو ، ولكن عندما سمعني تشن باو تشن غضن وجهه كأنما يعاني من ألم في سنه .

لقد اعتقدت ان كل شيء فيما يتعلق بجونستون يعتبر نموذجيا وذهبت أبعد من ذلك حين اعتبرت رائحة النفتالين في ثيابه كالعطر . لقد جعلني جونستون أشعر ان الغربيين من أكثر الناس ذكاء وحضارة ، وانه من اكثر الغربيين علما وثقافة . ولعله لم يدرك مدى تأثيره علي : فالثوب الصوفي الذي كان يلبسه جعلني أشك في قيمة جميع ثياب الحرير والديباج التي تنتجها الصين ، وقلم الحبر الذي في جيبه جعلني بالفعل أشعر بالخجل من ريشات الكتابة والورق المصنوع باليد ، مما اعتاد الصينيون استخدامه في الكتابة . وبعد ان جلب جوقة الموسيقى العسكرية من الثكنة البريطانية لتعزف في القصر شعرت ان الموسيقى الصينية غير جديرة بالاستماع ، بل وجدت الموسيقى الاحتفالية القديمة بعيدة عن أن تكون موسيقى مهيبة .

كانت وزارة داخلية الجمهورية قد كتبت عام ١٩١٣ الى ادارة الأسرة تطلب ضرورة تعاون المدينة المحرمة معها في اقناع المانشويين بقص ضفائرهم ، وأملت كذلك ان تختفي الضفائر من القصر . وكانت لهجة هذه الرسائل

مؤدبة جدا ، فلم تشر الى الضفائر المتدلية من رأسى ومن رؤوس الموظفين الكبار ، لكن ادارة الأسرة توسلت بكل الاعذار الممكنة لمواجهة وزارة الداخلية ، واوضحت للوزارة اثناء ذلك ان الضفائر وسيلة نافعة لتمييز المسموح لهم بالدخول الى القصر والخروج منه . وظلت المدينة المحرمة عدة سنوات بعد اثارة هذه المشكلة عالما من الضفائر ، حتى سمعت يوما من جونستون ملاحظة صغيرة قال فيها ان الضفائر الصينية تشبه ذيول الخنازير فكان ذلك كافيا لجعلنى أقص ضفيرتى . وفى غضون بضعة أيام اختفت على الأقل الف ضفيرة ، ولم يبق الا ثلاثة من المعلمين الصينيين الخصوصيين وقلة من الموظفين الكبار فى ادارة الأسرة محتفظين بضفائرهم .

وبكت الزوجات العليات عدة مرات على فقدان ضفيرتى ، وظلت وجوه معلمى الخصوصيين مكفهرة طوال أيام . وفيما بعد تذرع بو جيه ويوى تشونغ بحجة " اطاعة مرسوم أمبراطورى " لقص ضفيرتيهما فى البيت . وفى ذلك اليوم ارتعد تشن باو تشن غضبا لرؤيته تلاميذه دون ضفائر ، ثم قال أخيرا مخاطبا يوى تشونغ بابتسامة مرة : " اذا بعت ضفيرتك الى امرأة أجنبية ، فبوسعك ان تحصل على سعر جيد ! "

وكان أكثر الناس كراهية لجونستون هم موظفو ادارة الأسرة . كانت النفقات داخل القصر فى تلك الأيام ماتزال ضخمة على الرغم من أن الدفعات المستحقة بموجب بنود المعاملة التفضيلية كانت تأتى متأخرة كل سنة او لا تأتى احيانا . ولتغطية النفقات المفرطة كانت ادارة الأسرة تضطر الى بيع أو رهن التحف والصور ولوحات التخطيط والذهب والفضة والخزف كل سنة . وعلمت تدريجيا مما قاله جونستون ان فى الأمر ما يدعو الى الشك . وذات مرة أرادت ادارة الأسرة ان تبيع باغودا ذهبية بطول انسان ، فتذكرت ملاحظة جونستون بأن ادارة الاسرة تتعرض لخسارة فادحة اذ انها تبيع الأشياء الذهبية والفضية بحسب وزنها المعدنى بدلا من قيمتها الفنية . ووفقا لما قاله جونستون

لا يقوم بمثل هذا العمل الا اغبياء . لذلك استدعيت موظفى ادارة الأسرة وسألتهم كيف ينوون بيعها . وعندما قالوا انهم يبيعونها بحسب وزنها انفجرت غضبا وقلت :

ـ لا يفعل ذلك الا الاغبياء . أليس بينكم من عنده ذرة احساس ؟

واعتبر موظفو ادارة الاسرة ان جونستون يتدخل فى عملهم ، ولذلك فكروا فى طريقة لتدبر شأنه : فأرسلوا الباغودا الى منزل جونستون وادعوا ان الامبراطور يطلب منه ان يبيعها له . فاكتشف جونستون حيلتهم على الفور . وقال وقد انفجر غضبا : " اذا لم تأخذوها من هنا ، فسأبلغ جلالته فورا ! " فحمل موظفو ادارة الأسرة الباغودا وعادوا بها ثانية دون اثارة أية متاعب جديدة .

ومع السنة الأخيرة من دراستى فى قصر يوى تشينغ اصبح جونستون يشكل الجزء الرئيسى من نفسى . فقد قمنا بالنقاش فى الموضوعات الغير مدرسية على نطاق واسع يزيد على حصص الدروس . فحدثنى عن حياة الأسرة المالكة البريطانية ، وعن سياسات مختلف البلدان ، وعن قوة الدول المختلفة بعد الحرب العظمى ، وعن المناظر الطبيعية والعادات فى مختلف أنحاء العالم ، وعن احوال " الامبراطورية البريطانية العظمى التى لا تغيب عنها الشمس " ، وعن حروب الصين الأهلية وعن "حركة الكتابة بالصينية الحديثة " (يقصد حركة الثقافة الجديدة التى بدأت فى ٤ مايو عام ١٩١٩) وعن صلاتها بالثقافة الغربية وحدثنى أيضا عن امكان اعادة الملكية وعن موقف أمراء الحرب الذى لا يمكن الاعتماد عليه . . .

وقال لي مرة :

ـ يمكن للمرء ان يرى بوضوح من خلال جميع الصحف ان الشعب الصينى يحن الى اسرة تشينغ العظيمة وان كل فرد قد كره الجمهورية ؛ وانا لا أظن ان هناك أيما داع الى قلق جلالتكم فى الوقت الحاضر بخصوص هؤلاء العسكريين ، كما انه ليس هناك من داع لان يضيع جلالتكم كثيرا

من الوقت فى محاولة لاكتشاف مواقفهم من خلال الصحف ، ولا حاجة الى التحدث عن الاختلاف فى دوافعهم الأساسية لدعم اعادة الملكية او حماية الجمهورية . والمعلم الخصوصى تشن مصيب تماما فى قوله ان الشيء الأكثر أهمية بالنسبة لجلالتكم هو ان تجددوا يوميا فضيلتكم المتميزة بالحكمة : ولكن هذا يجب ألا يتم فقط داخل المدينة المحرمة . ان بوسع جلالتكم ان تكتسبوا الكثير من المعرفة الضرورية وتوسعوا آفاقكم فى أوروبا ، لا سيما فى البلاد التى يعيش فيها جلالة ملك انكلترا وفى جامعة أكسفورد حيث يدرس أمير ويلز . . .

وقبل ان تخطر فى ذهنى فكرة الدراسة فى انكلترا كان قد بذل جهوده لتوسيع " بصيرتى " العالمية . فقدم لي قائد البحرية البرطانية وحاكم هونغ كانغ البريطاني وغيرهما ، وكانوا جميعا مؤدبين نحوي وخاطبونى بعبارة "جلالتكم الامبراطورية " .

ولم تكن شدة تمثلى لأسلوب الحياة الأوروبى والطريقة التى كنت أزداد فيها ميلا الى تقليده موضع اعجابه . ففيما يتعلق بالثياب مثلا كانت آراؤنا مختلفة ، اذ كان له اهتمام خاص بى . وفى يوم زفافي ظهرت فى حفلة الاستقبال فانشغلت بالضيوف الأجانب . وشربت الانخاب معهم ، ولكن عندما عدت الى قصر تهذيب النفوس غيرت ثياب التنين التى كنت ألبسها الى ثوب عادى لبسته فوق بنطال غربى مع قبعة صيد . وفى تلك الساعة أقبل جونستون ومعه بعض أصدقائه . ورمقتنى سيدة أجنبية عجوز وانا أقف عند الشرفة ، فسألته : " من ذلك الشاب ! "

وعندما اكتشف جونستون مكانى ، ورأى الثياب التى كنت ألبسها احمر وجهه تماما . فأخافنى ذلك ، وأربكتنى خيبة الأمل التى ارتسمت على وجوه الأجانب . وظل جونستون متوترا الى ما بعد مغادرتهم ، وقال لي فى انزعاج :

ـ ماذا يعنى جلالتكم بذلك ؟ امبراطور الصين يلبس قبعة صيد !
يا الهى !

زفافى

لئن كنت قد سررت غاية للسرور عندما أخبرنى الأمراء وكبار الموظفين بأوامر الزوجات للعليات التى تقول اننى قد أصبحت كبيرا الى الحد الكافى لـ" زفافى للعظيم " ، فذلك لأن الزواج سيشير الى تقدمى فى السن وسيعنى ان الآخرين لن يعودوا يتحكمون بي كما لو كنت طفلا .

كان أشد الناس اهتماما بهذا الأمر هم السيدات العجائز . ففى أوائل ١٩٢١ ، عندما كنت فى الخامسة عشرة ، استدعت الزوجات العليات واللدي لبعض الاستشارات فى هذا الموضوع ، ثم دعون الى اجتماع يضم حوالى عشرة من الأمراء لمناقشته . وبعد سنتين تقريبا تم الزفاف . وكانت هنالك عدة أسباب لهذا التأجيل الطويل ، أحدها انه كان من الخطأ بالنسبة لي ان أتزوج بعد وقت قصير جدا من موت الزوجة العلية تشوانغ خه ثم موت أمى ، والسبب الأكثر أهمية هو ان الوضع للسياسى لم يكن مستقرا ، كما كانت هناك خلافات معقدة حول اختيار عروسى . وهذا ما جعل معلمى الخصوصيين يقترحون التأجيل .

وقد حدثت الخلافات لان كلا من الزوجتين العليتين دوان كانغ وجينغ يى أرادت ان تختار لي " امبراطورة " مستقبل تكون على صلة ودية بها . وكل منهما رشحت الفتاة التى تريدها ورفضت للتخلى عن هذا الترشيح ، وكل منهما كانت مدعومة بواحد من أعمامى . ولذلك تأزم الوضع .

وكان الحل الأخير هو ان يتم الاختيار من جانب " الامبراطور " :
وكانت الطريقة التى اتبعت زمن تونغ تشى وقوانغ شيوى هى وقوف الفتيات

المرشحات في صف واحد ويأتي عريس المستقبل ليختار احداهن . ولقد سمعت روايتين مختلفتين عن كيفية اشارة العريس الى اختياره . احداهما انه سلم رمزا من اليشب الى الفتاة التى نالت اعجابه ، والثانية انه علق حقيبة صغيرة بابزيم ثوب الفتاة . وفى زمنى شعر الأمراء ان تنظيم صف من العذارى لم يعد ملائما ، فقرروا انه يجب ان اختار من الصور . وكان علي ان أضع علامة على صورة الفتاة التى استأثرت باعجابى .

وأرسلت أربع صور الى قصر تهذيب النفوس . وبدت لي الفتيات متشابهات الى حد كبير ، كما بدت أجسامهن كأنها أنابيب داخل الثياب ليس لها شكل مميز . كانت وجوههن فى الصور صغيرة الحجم جدا بحيث لم أستطع معرفة ان كن جميلات او غير جميلات . والفرق الوحيد الذى استطعت ان أجده كان فى نماذج ثيابهن . ولم يخطر لي فى ذلك الوقت ان هذا الاختيار سيكون أحد الأحداث العظيمة فى حياتي ، ولم تكن لدى مقاييس ترشدنى ، فرسمت دائرة على الصورة التى استملحتها .

وكانت تلك ابنة دوان قونغ من عشيرة أورديت المانشوية واسمها ون شيو (اسمها الآخر كان هوى شين) ، وكانت أصغر منى بثلاث سنوات. ونظرا الى انها كانت الفتاة المفضلة لدى الزوجة العلية جينغ يى فان منافستها دوان كانغ استاءت أشد الاستياء ، وألحت — بعد ان رفضت احتجاجات جينغ يى — على دعوة الأمراء لاقناعى باختيار مرشحتها ، وهى تقول : ان ون شيو منحدرة من أسرة فقيرة وانها بشعة ، بينما الفتاة التى رشحتها وهى وان رونغ التى تلقب مو هونغ ، من أسرة غنية ، وانها جميلة وفى نفس سنى . فاتبعت نصيحة الأمراء متسائلا فى نفسى لماذا لم يوضحوا لي الأمور من البداية ، ثم رسمت دائرة على صورة وان رونغ .

ولقى هذا عدم استحسان لدى الزوجتين العليتين جينغ يى ورونغ هوى . وبعد سلسلة من النقاشات بين الزوجات العليات والأمراء خرجت الزوجة العلية

رونغ هوى بهذا الاقتراح : " مادام جلالته قد وضع اشارة على صورة ون شيو ، فلن يكون من اللائق ان تزوج الى أحد أتباعه فيما بعد ، لذلك يحسن به ان يتخذها زوجة ثانية . " ولم أشعر انني كنت فى حاجة ماسة الى زوجة واحدة ناهيك عن اثنتين ، ولم أكن متحمسا أبدا لهذا الاقتراح . ولكن عندما وضح لي الأمراء وكبار الموظفين انه وفقا لعادات أسلافى " ينبغى للامبراطور ان تكون لديه امبراطورة وزوجة ثانية " لم أستطع مقاومة هذا الرأى . ولما كان علي ان أتمتع بجميع امتيازات الامبراطور فقد وافقت على اقتراحهم .

لقد استغرقت عملية اختيار الامبراطورة والزوجة الثانية ، فى الواقع سنة كاملة . وبعد ان تم الاختيار تسببت حرب تشيلى — فنغتيان فى تعطيل الزفاف الى شتاء ١٩٢٢ . وقد صادف هذا التاريخ سقوط شيوى شى تشانغ ، الا ان الاستعدادات الواسعة النطاق للزفاف كانت تجرى على قدم وساق بحيث لم يكن ممكنا وقفها ، لذلك كان لابد للزفاف من المضى قدما . ولم يشعر الأمراء بالثقة فى لى يوان هونغ الذى عاد الآن الى الرئاسة كما كانوا يثقون بشيوى شى تشانغ ، وخشوا من ان يتدخل فى أبهة هذه المناسبة . لكن المساعدة التى قدمها لى يوان هونغ فيما بعد قد فاقت توقعاتهم الى حد كبير ، ولم تكن بأقل مما كانوا يرجون من شيوى شى تشانغ . فقد كتبت وزارة مالية الجمهورية رسالة الى ادارة الأسرة فى لهجة متواضعة نوعاما جاء فيها انهم يعانون فى تلك الظروف من صعوبات فى تغطية نفقاتهم وانهم غير قادرين على دفع جميع الاعانات المالية السنوية المنصوص عليها فى بنود المعاملة التفضيلية ، ولكنهم مع ذلك سيخصصون دفعة من مدخول الضرائب تقدر بمائة الف يوان للمساعدة فى الزفاف العظيم ، تكون عشرون ألفا منها هدية من الجمهورية. وفى نفس الوقت قدمت السلطات العسكرية والدرك والبوليس التابعة للجمهورية خططا خاصة بارسال عدة مئات من رجالها الى القصر ليقوموا بحماية الزفاف .

ومن لحظة دخول جهاز العروس الى القصر وحتى الاحتفال الذى تلقيت فيه التهانى فى قصر السماء الصافية استمر الزفاف خمسة أيام . وقد تضمنت الاحتفالات ثلاثة أيام من العروض المسرحية ومنح الألقاب السامية الجديدة .

والذى أثار الاستياء الشديد لدى الرأى العام هو ان البلاط الصغير يتباهى بعد محاولة اعادة الملكية عام ١٩١٧ بأبهته حتى خارج المدينة المحرمة . فكان موكب الشرف الاحتفالى لبلاط تشينغ يغدو ويروح فى شوارع بكين تحت حماية خاصة من أعداد كبيرة من الجنود وافراد الشرطة الجمهوريين . وفى يوم الزفاف لبس اثنان من الأمراء ثياب بلاط تشينغ وفى أيديهما عصا المنصب ، وركبا حصانين وراء جوقتين عسكريتين جمهوريتين . واتبعا بمزيد من فرق الجيش والخيالة وفرق البوليس الخيالة وفرق الأمن الخيالة . وبعدهم جاءت اثنتان وسبعون زوجا من المظلات والرايات عليها صور التنين والعنقاء ، وأربع " مقصورات صفراء " (تحتوى اشياء نفيسة للامبراطورة الجديدة وثيابها) ، وثلاثون زوجا من مصابيح القصر . وانطلق هذا الموكب المهيب الى " مقر الامبراطورة " . وعند بوابة " المقر " المضاءة على نحو بهى كان يقف حشد من افراد الشرطة والجيش يحرسون والد وان رونغ واخوتها وهم يركعون لاستلام " المرسوم الامبراطورى " الذى جاء به مبعوثان . . .

وجذبت الهدايا الفاخرة التى قدمها القياديون فى الجمهورية انظار الناس . فقد كتب الرئيس لى يوان هونغ على بطاقة حمراء : " تقدمة من لى يوان هونغ رئيس جمهورية الصين الى الامبراطور شيوان تونغ " وقدم الهدايا التالية : أربع زهريات مجزعة ، صنفين من الحرير والديباج ، ناموسية واحدة ، لوحتين مخطوطتين يتمنى لي فيهما لعمر المديد والرخاء والسعادة : وأرسل الرئيس السابق شيوى شى تشانغ عشرين ألف يوان وكثيرا من الهدايا الثمينة الأخرى ، من بينها ثمانى وعشرون قطعة من الخزف وسجادة صينية فخمة عليها تصميم لتنين وعنقاء . وأرسل تشانغ تسوه لين ووو بى فو وتشانغ شيون

وتشاو كون وغيرهم من أمراء الحرب والسياسيين نقودا وأنواعا أخرى كثيرة من الهدايا .

وكان ينغ تشانغ ، ممثل الجمهورية فى الزفاف ، ضابطا فى مكتب الرئيس ، وقد هنأنى رسميا كأنما يهنىء ملكا أجنبيا . وعندما انتهى من الانحناء لي قال : " هذا كان باسم الجمهورية . وعبدكم الآن سيحيى جلالتكم بصفته الشخصية . " ثم اهوى الى الارض وسجد لي .

وفى ذلك الوقت انتقدت كثير من الصحف هذه التصرفات الغريبة انتقادا لاذعا ، ولكن هذا لم يخفف من حماسة الأمراء وكبار الموظفين ، ولم يمنع كبار الموظفين السابقين فى أسرة تشينغ من الظهور فى مختلف أنحاء البلاد كالحشرات التى تستيقظ من سباتها بعد شتاء والتدفق على بكين فى حشود كبيرة . لقد جلبوا لي الهدايا التى تضمنت نقودا وتحفا منهم ومن الآخرين . ولكن هذه الهدايا القيمة لم تكن لها من الأهمية عندى سوى اظهار الهيبة الهائلة التى بدا القصر حينذاك يتمتع بها ، والتى كانت فوق توقعاتهم وجعلتهم يشعرون ان مستقبلنا قد أصبح مبشرا بالنجاح .

والشيء الذى بعث فى نفوس الزوجات العليات والأمراء وكبار الموظفين وكبار الموظفين السابقين فى أسرة تشينغ أعظم التحمس والسرور هو حضور ضيوف عن حي المفوضيات . فهذه كانت المرة الأولى التى ظهر فيها دبلوماسيون أجانب داخل المدينة المحرمة منذ ثورة ١٩١١ ومع انهم جاءوا بصفتهم الشخصية ، الا أنهم يظلون دبلوماسيين أجانب .

وبناء على اقتراح من جونستون أقيم استقبال للأجانب لاظهار شكرنا لهم على حضورهم ، وألقيت أنا كلمة قصيرة باللغة الانكليزية .

وبينما كان كل هذا الهرج والمرج يدور من حولى ظل هناك سؤال يلح على : " ان لدى امبراطورة وزوجة ثانية ، اننى متزوج . ولكن ما الذى اختلف عن السابق ؟ " وكان الجواب الذى قلته لنفسى : " لقد كبرت ، لو

لم تكن هناك ثورة ، لبدأت أحكم دونما أوصياء . "

وقلما كنت أفكر فى الزواج وفى أسرتي ولم يدفعنى الفضول الى رؤية شكل الامبراطورة الجديدة الا عندما دخلت مجال بصري وعلى رأسها غطاء قرمزى من الساتان مطرز بتصميم لتنين وعنقاء .

ووفقا للتقاليد أمضى الامبراطور والامبراطورة ليلة زفافهما فى حجرة زفاف مساحتها حوالى عشرة أمتار داخل قصر السكينة الارضية (كون نينغ قونغ) . وكانت هذه غرفة فذة نوعا ما : لم تكن مؤثثة الا بسرير كانغ احتل ربع مساحتها ، وكان كل ما حولها أحمر باستثناء الأرضية . وبعد ان شربنا "كأس الزفاف" وأكلنا "كعك الأبناء والأحفاد" ودخلنا هذه الغرفة ذات اللون الأحمر القانى ، شعرت بضيق التنفس . وجلست العروس على السرير ناكسة الرأس . ونظرت حولى فرأيت كل شيء أحمر : ناموسية حمراء ، وشراشف حمراء ، ثياب حمراء ، فساتين حمراء ، أزهار حمراء ، وجه أحمر . . . وبدا كل هذا كشمع أحمر مذاب . ولم أعرف هل أقف أم أجلس ، وارتأيت لذلك ان الأفضل لي هو قصر تهذيب النفوس ، فعدت الى هناك .

وبعد عودتى الى قصر تهذيب النفوس نظرت الى قائمة كبار الموظفين فى البلاد خلال عهد شيوان تونغ ، التى ألصقت بالجدار ، وتساءلت ثانية : " ان لدي امبراطورة وزوجة ثانية ، ولقد كبرت ، ولكن ما الذى أختلف عن السابق ؟ "

بماذا شعرت وان رونغ بعد ان تركت وحدها فى حجرة الزفاف ؟ فيم كانت ون شيو ، الفتاة التى لم تبلغ الرابعة عشرة بعد ، تفكر ؟ ان هذين السؤالين لم يخطرا فى ذهنى أبدا وأنا منشغل الفكر حينذاك بالأمر التالى : " لو لم تكن هناك ثورة ، لبدأت أحكم بدون أوصياء . يجب ان أستعيد ميراث الأسلاف ! "

صدامات داخلية

منذ ان دخل جونستون القصر أصبحت بالنسبة للأمراء وكبار الموظفين امبراطورا أكثر فأكثر صعوبة فى التعامل . وقد بدت تصرفاتى لهم قبل زواجى وبعده أكثر غرابة مما جعلهم أكثر تخوفا وانزعاجا . فيوما آمر ادارة الأسرة بأن تشترى لي ماسة تكلف ٣٠ ألف يوان ، وفى اليوم التالى أؤنبهم تأنيبا شديدا على اخفاقهم فى الاقتصاد فى النفقات وأتهمهم بالفساد والتبذير. وفى الصباح قد استدعى كبار الموظفين وأطلب منهم تفتيش مجموعة التحف والتخطيطات والرسوم ورفع تقرير عنها فى نفس اليوم ، وبعد الظهر قد أطلب سيارة لأقوم بنزهة الى التل العطرى خارج بكين . ومللت المراسم التقليدية الروتينية ، بل لم أعد أرغب فى ركوب المحفة الصفراء ذات المظلة الذهبية . ولكى أجعل ركوب الدراجة أسهل أمرت بازالة جميع العتبات الخشبية عند بوابات القصر والتى لم تسبب ازعاجا لأسلافى على مر القرون . وكنت أتهم الخصيان لأتفه الأسباب بعدم الولاء لي ، وآمر بارسالهم الى ادارة الأسرة حيث يجلدون او يصرفون من الخدمة ، والذى جعل الأمراء وكبار الموظفين فى أشد حالات الانزعاج هو الطريقة التى أسلكها عندما أعد نفسى لاصلاح شؤون القصر وتصفية الحسابات المالية ، ثم أعلن فى نفس الوقت اننى أريد ترك المدينة المحرمة والذهاب للدراسة فى الخارج . فيظلون طوال يومهم فى خوف وهلع حتى تكاد ضفائرهم تبيض من شدة القلق .

لقد فكر بعض الأمراء وكبار الموظفين فى ذهابى للدراسة فى الخارج قبل ان تخطر هذه الفكرة لي ، وهذا كان أحد الأسباب التى دفعتهم الى دعوة جونستون ليصبح معلما خصوصيا لي ، وبعد زفافى تلقيت عددا من المذكرات والاقتراحات من كبار الموظفين السابقين فى أسرة تشينغ تقترح

علي ذلك . ولكن عندما أثرت أنا نفسى هذه المسألة عارض الجميع تقريبا ، وكان أكثر الأسباب معقولية هو التالى : " اذا غادر جلالتكم المدينة المحرمة ، فهذا سيعنى الغاء بنود المعاملة التفضيلية التى قدمتها لنا الجمهورية . فلماذا تريدون ان تلغوها بأنفسكم على حين ان الجمهورية لم تفعل ذلك ؟ "

ولم يكن بوسع أحد ان يتحرك لو لا هذه البنود سواء المتعاطفين معى بخصوص ذهابى الى الخارج او المعارضين منهم ، وسواء اليائسين من " اعادة ميراث الاسلاف " او الذين مايزالون يأملون فى ذلك . وعلى الرغم من ان العبارة التى تشير الى الاعانة المالية البالغة ٤ ملايين يوان كل سنة قد تكشفت عن مجرد وعد فارغ ، الا ان العبارة التى تنص على وجوب " صيانة لقب العظمة الخاص بالامبراطور وعدم الغائه " ماتزال موجودة . ومادمت أبقى فى المدينة المحرمة وأحتفظ بالبلاط الصغير . فسيكون هذا هاما جدا بالنسبة الى أولئك الذين ما يزالون يأملون فى اعادة الملكية ، وحتى أولئك الذين فقدوا الأمل ما يزالون يرون تلك الوسيلة الوحيدة للاحتفاظ بصحون أرزهم (لقمة عيشهم) ومناصبهم . ففيما عدا الألقاب السامية التى يمكن ان تمنح اليهم بعد موتهم ، فبامكانهم وهم أحياء ان يرسموا اللوحات السلفية ويكتبوا التذكارات لكسب الرزق .

لقد اختلفت آرائى عن آرائهم . ففى الدرجة الأولى لم أعتقد ان بنود المعاملة التفضيلية ستظل مرعية الى الأبد ، وكنت أكثر ادراكا من اى شخص آخر لتقلقل مركزى . فاندلاع الحرب الأهلية من جديد وانسحاب تشانغ تسوه لين الى الشمال الشرقى وسقوط شيوى شى تشانغ وعودة لى يوان هونغ الى السلطة ، كل هذا جعلنى أشعر ان الخطر قد أصبح وشيكا ، وأصبح اهتمامى الوحيد هو هل تقتلنى السلطات الجديدة أم تتركنى . لم يعد يبدو لي هناك أى امكان لمعاملة تفضيلية . وعلى رأس هذا كله جاء تقرير مفاده ان بعض أعضاء البرلمان يقترح الغاء بنود المعاملة التفضيلية . وحتى اذا أمكن

بقاء الوضع الراهن على ما هو عليه ، فمن يدرى فى هذا الاضطراب السياسى والعسكرى اى أمير حرب يمكن ان يكون فى السلطة غدا او اى سياسى يمكن ان يؤلف وزارة فى اليوم الذى يليه ؟ وعلمت من مصادر كثيرة ، ولا سيما من جونستون ، ان الدول الأجنبية تلعب دورا فى كل هذه التغيرات . لذلك ألا يكون من الأفضل الاتصال بالاجانب مباشرة بدلا من الاعتماد على البنود الممنوحة من السلطات الجمهورية الجديدة ؟ ألن يكون من المتأخر جدا ان انتظر حتى يأتى شخص معادى لي الى السلطة قبل ان أجد مخرجا ؟ لقد كنت عارفا تماما الطريقة التى لقى فيها الأباطرة السابقون مصارعهم المؤلمة خلال تاريخ الصين .

وبالطبع لم أذكر الأمراء وكبار الموظفين بهذه القصص المفجعة . بل كان النقاش الذى خضته معهم هو التالى :

ــ اننى لا أريد أية " معاملة تفضيلية ". أريد ان أدع الناس العاديين والعالم يعرفون انه ليس لدي أمل بأن تختصنى الجمهورية بالتفضيل . ومن الخير ان أفعل ذلك بدلا من ان أنتظرهم حتى يقوموا هم بالغائها .

فكان جوابهم :

ــ ولكن البنود محفوظة فى سجلات الدولة ومعترف بها دوليا : فاذا ما قامت الجمهورية بالغائها ، فان الدول الأجنبية ستساعدنا بالتأكيد .

ــ اذا كان الأجانب سيساعدوننا ، فلماذا اذن لا تدعوننى أذهب الى الخارج ؟ من المؤكد انهم سيكونون أكثر مساعدة لنا عندما يروننى شخصيا ؟

ومع ان الأسباب التى قدمتها كانت معقولة الا انهم لم يوافقوا عليها أبدا . وجميع مناقشاتى مع والدي ومعلمي الخصوصيين ومع الأمراء خرجت بنتيجة واحدة هى التعجيل بالاستعدادات من أجل " زفافى العظيم " .

وكان هناك سبب آخر زاد من رغبتى فى الذهاب الى الخارج الى جانب الأسباب التى ذكرتها للأمراء وكبار الموظفين : لقد أخذت أزداد تعبا مللا

من محيطى كله ، بما فيه والدي ، قبل وقت طويل من ورود فكرة السفر الى الخارج . فمنذ جاء جونستون الى القصر ملأنى بالمعرفة حول الحضارة الغربية ، وإن هذا ، ومع فضول الشباب ، جعلنى غير راض عن المحيط الذى حولى والقيود التى تطوقنى . فوافقت على تحليل جونستون فى ان جذر المتاعب يكمن فى نزعة المحافظة لدى الامراء وكبار الموظفين .

كان كل شيء جديد فى نظرهم مفزعا . عندما كنت فى الخامسة عشرة وجد جونستون اننى ربما أشكو من قصر نظر ، ونصح بطلب طبيب عيون أجنبى ليأتى ويفحص عينى . واذا صح تخمينه فعلي ان ألبس نظارة . ولكنه دهش عندما أثار هذا الاقتراح اهتياجا كبيرا كأنما صب الماء فى مقلاة يغلى فيها زيت ، اذ انفجرت المدينة المحرمة كلها . يا لها من فكرة ! عينا جلالته الامبراطورية ينظر اليهما أجنبى ! ان جلالته ما يزال فى ريعان الشباب ، فكيف يلبس " نظارة " مثل رجل عجوز ؟ ولم يوافق احد ، بدءا من الزوجات العليات . ولم يتم ذلك الا بعد محاولات متكررة من جونستون وتصميم من جانبى انا . وكنت أنزعج خاصة عندما يعارض الأمراء وكبار الموظفين حصولي على أشياء حصلوا عليها هم أنفسهم ومثال ذلك " الهاتف " :

عندما كنت فى الخامسة عشرة شرح جونستون ذات مرة كيفية استخدام الهاتف وأثار كلامه فضولي ، وعندما سمعت من شقيقي بو جيه ان منزل والدي فيه احدى هذه اللعب طلبت من ادارة الأسرة ان تركب عندي هاتفا يوضع فى قصر تهذيب النفوس . ولدى تسلم هذا الأمر شحب وجه شاو ينغ ، رئيس ادارة الأسرة ، من شدة الذعر . ولكنه لم يلفظ أية كلمة احتجاج ، وانسحب قائلا " نعم ، يا سيدي " . غير ان معلمى الخصوصيين جاءوا جميعا فى اليوم التالى لتقديم النصح .

ــ ليست هناك سابقة كهذه فى نواميس الاسلاف . اذا ركب هاتف فأى واحد يمكن ان يتحدث مع جلالتكم ، وهذا شيء لم يسبق له ان حدث

فى تاريخ أسلافكم . . . ان الأسلاف لم يستخدموا أبدا هذه الأدوات الأجنبية الغريبة . . .

وحاججتهم قائلا :

— ان الساعات المنبهة والبيانوات والمصابيح الكهربائية داخل القصر كلها أشياء أجنبية لا وجود لها فى نواميس السلف ، ولكن أ لم يستخدمها أسلافى ؟

— لو استطاع احد من خارج القصر ان يتحدث مع جلالتكم بالهاتف كما يشاء أفلا يزعج بتصرفه هذا الهدوء السماوى ويسىء الى كرامة البلاط ؟

— لطالما أغضبنى الناس خارج القصر من خلال الصحافة ، فما الفرق بين قراءة الشتائم وسماعها ؟

ربما لم يفهم حتى المعلمون الخصوصيون فى ذلك الوقت لماذا طلبت منهم ادارة الاسرة ان يثنونى عن عزمى . ان الذى أخاف ادارة الأسرة حقا لم يكن تعكير " الهدوء السماوى " بل ان الهاتف يمكننى من ان أنشىء المزيد من الصلات مع العالم الخارجى . وكان ازعاجا كافيا تماما بالنسبة لها ان يكون الى جانبي شخص ثرثار مثل جونستون وان أطلع على أكثر من عشرين صحيفة مختلفة . وكان بوسع المرء ان يجد فى صحف بكين فى ذلك الوقت تصريحات من ادارة الأسرة كل شهر على الأقل تنكر فيها وجود صلة بين بيت تشينغ وسلطات هذه المقاطعة او تلك ، او تنكر ان تكون له علاقة باحدى الشخصيات الهامة ، او تدحض الاشاعات القائلة بأن القصر قد رهن أو باع مؤخرا بعض التحف . وكانت معظم الاشاعات التى تدحض صحيحة تماما ، ونصفها على الأقل كان متعلقا بأمور لا تريدنى ادارة الأسرة ان أعلم بها . كان موظفو ادارة الأسرة ، بسبب وجود الصحف وجونستون مهمومين دائما بما فيه الكفاية . فاذا أضيفت صلة ثالثة مع العالم الخارجى فى شكل هاتف فستجعلهم فى وضع يتعذر احتماله . اذن فان الطبيعى ان يبذلوا كل

ما فى وسعهم ليمنعوا حدوث ذلك . وعندما رأوا المعلمين الخصوصيين قد أخفقوا فى اقناعى جلبوا والدي .

كان والدي حينذاك قد أصبح مؤمنا عن قناعة فى الحفاظ على الوضع القائم . وهو لا يريد أكثر منى ان أقيم بهدوء داخل المدينة المحرمة بدون اثارة أية متاعب وان يستمر فى تسلم منحته السنوية البالغة ٤٢٤٨٠ تايلا من الفضة ، وهذا جعله سهل الانقياد الى اتجاه ادارة الأسرة . ولكن لسانه لم يكن ذليقا كمــا أرادته ادارة الأســرة . فهو لم يزد على تكرار كلام المعلمين الخصوصيين وعجز عن ايجاد جواب لسؤال واحد سألته اياه :

ــ ألم يكن فى بيت سموك هاتف منذ وقت طويل ؟

ــ ولكن . . ولكن ذلك مختلف عن وضع جلالتكم . دعنا نتحدث فى الأمر فيما بعد . .

وتذكرت انه قص ضفيرته قبلى ، وحصل على هاتف قبلى ، ولم يسمع لي بشراء سيارة مع انه اشترى هو سيارة لنفسه ، ولذلك لم أشعر أبدا بالارتياح .

ــ لماذا يكون الوضع مختلفا بالنسبة للامبراطور ؟ ألا يحق لي ان أملك هذا القدر الضئيل من الحرية ؟ لا ، اننى أصر على اقتناء هاتف .

والتفت الى خصى وقلت :

ــ أبلغ ادارة الأسرة اننى أريد تركيب هاتف اليوم .

فهز والدي رأسه قائلا :

ــ حسن جدا ، حسن جدا ، ليكن لديك هاتف اذن :

ومع تركيب الهاتف زادت المتاعب .

فقد ارسلت شركة الهواتف معه دليل الهاتف . فسررت به وقلبت صفحاته مفكرا فى ان أحصل على شيء من التسلية من خلال هذا الجهاز الجديد . فأدرت رقم ممثل فى أوبرا بكين ولاعب بهلوانى ، وقفلت الخط قبل ان أقول من أنا . ثم ادرت رقم مطعم وطلبت ان ترسل وجبة الى عنوان مزيف . وبعد

ان تسليت على هذا النحو بعض الوقت فكرت فجأة فى ان أسمع كيف يكون صوت الدكتور هو شي ، صاحب قصيدة " نزهة عند شاطىء النهر " الذى ذكره لي جونستون سابقا ، فأدرت رقمه . ولحسن الحظ انه هو الذى رد على الهاتف . فسألته :

ــ هل هذا الدكتور هو ؟ رائع هل تحزر من أنا ؟

ــ من أنت ؟ لا أعرف .

ــ ها ! ها ، لا داعى الى التخمين ، أنا سأخبرك ، اننى شيوان تونغ :

ــ شيوان تونغ ، هل هو جلالتكم ؟

ــ صحيح ، انا الامبراطور . لقد سمعت صوتك الآن ، ولكننى لم أرك بعد . تعال الى القصر عندما يكون لديك وقت حتى أستطيع ان ألقى نظرة اليك .

وهذه المزحة العرضية جلبته مباشرة الى القصر . فقد أخبرنى جونستون ان هو شي قد زاره خصيصا من أجل التأكيد على المكالمة الهاتفية حيث لم يتوقع من " جلالته " ان يتصل به هاتفيا . وسأل جونستون فى قلق عن قواعد التشريفات فى القصر وقرر ان يأتى اذا تبين انه لن يضطر الى السجود لي واننى امبراطور حسن المزاج على نحو معقول : وكنت قد نسيت محادثتنا الهاتفية تماما ولم أطلب من الخصيان ان يعلموا الحرس بذلك ، لذا عندما وصل الدكتور هو شي الى بوابة القصر لم يكن هناك سبيل للسماح له بالدخول ، ولما كان الحرس يجهلون هذا الأمر فقد تركوا المسألة لي ، ولم يدعوه يدخل الا بعد ان أشرت بذلك .

لقد ولد هذا اللقاء من نزوة عابرة ، واستمر حوالى عشرين دقيقة . فسألته عن كيفية استخدام الصينية الحديثة وعن رحلاته الى الخارج وغير ذلك . ولدى مداورتى اياه فى الحديث انتهيت الى القول بأننى لم أهتم بحصولى على المعاملة التفضيلية الآن ، بامكانى ان أدرس وأصبح " شابا واعدا " من النوع

الذى نقرأ عنه فى الصحف : وغمرنى بدوره بالتملق المتوقع قائلا : " ان جلالتكم فى غاية التنور . اذا درستم جلالتكم كما ينبغى ، فسيكون أمامكم مستقبل مشرق ." ولم أعرف ماذا قصد بهذا المستقبل . ثم مضى فى سبيله ولم أعد أذكر هذه المسألة ، ولكن ما أدهشنى هو ان الأمراء وكبار الموظفين ولاسيما معلمى الخصوصيين اضطربوا أشد الاضطراب لدى سماعهم اننى قد قابلت هذه " الشخصية الجديدة " فى لقاء خاص .

لقد رأوا اننى كلما كبرت أصبحت أكثر تذمرا ، وانا كذلك وجدتهم يزدادون ازعاجا لي . وفى ذلك الوقت كنت قد قمت لتوي بعدة رحلات الى خارج المدينة المحرمة ، وكانت هذه حرية صغيرة ظفرت بها فى مواجهة الاحتجاج الشديد متذرعا بذهابى لتقديم القرابين لأمى بعد موتها . وطعم الحرية هذا أثار شهيتى فانتابني الضجر من جميع هؤلاء الموظفين المتعبين الأغبياء ، وجعلتنى شدة الجزع من جميع هذه الأحداث أكثر تصميما من السابق على الذهاب الى الخارج . ثم بلغ نزاعى مع الأمراء وكبار الموظفين ذروته فى صيف ١٩٢٢ عندما رفعت رغبتى اليهم رسميا فى ان أدرس فى انكلترا .

ولم يكونوا مستعدين للتنازل فى هذا الأمر الذى يختلف عن تركيب الهاتف . فحتى عمى تساى تاو الذى تعاطف معى أشد التعاطف لم يسمح الا باعداد منزل فى منطقة الامتيازات البريطانية فى تيانجين يمكن ان ألجأ اليه فى حالة الطوارئ . ولما كان من المتعذر علي ان أغادر المدينة المحرمة علانية فقد طلبت من جونستون أن يساعدنى . وقد ذكرت فى الفصل السابق انه رأى ان الوقت لم يكن مواتيا وانه لا يوافق على ذهابى فى ذلك الحين . وفيما أكرهت نفسى على انتظار فرصتى قمت باستعدادات سرية للهرب بمساعدة شخص مخلص وراغب فى ذلك هو أخى بو جيه .

كنت انا وبو جيه شقيقين منسجمين خير انسجام ، وكانت مشاعرنا ومطامحنا أكثر تشابها من وجهينا . وكانت فكرته الوحيدة هى ان يهرب من

حياته فى البيت الشبيه بسجن ضيق ، وان يحلق عاليا وان يجد مخرجا ، واعتقد بأن جميع أحلامه ستتحقق بمجرد ذهابه الى الخارج . وكان الفرق الوحيد بين محيطه ومحيطى كالفرق بين جسمينا تماما . كان جسمه أصغر من جسمى بمقياس واحد . بين سن الرابعة والسابعة عشرة كانت مربيته العتيدة تلبسه كل صباح ، ولم يكن يستطيع ان يفعل شيئا بنفسه ولا حتى غسل قدميه وتقليم أظفاره ، فاذا هو تناول المقص صاحت المربية وصرخت مذعورة ان يجرح نفسه ، وكانت لا تفارقه فى اى مكان ، ولا تدعه يجرى او يتسلق او يخرج من البوابة الأمامية ، ولم تكن تسمح له بأكل السمك مخافة ان يعترض الشجا فى حلقه . ودرس فى مدرسة عائلية تحت اشراف معلم خصوصى تعود ان يشتم الجمهورية . ولقد حثت امنا أخى بو جيه على مساعدتى باخلاص ألا ينسى أبدا انه سليل عشيرة آيشين — جيوواو .

ومع ان بو جيه كان أصغر منى بسنة ، الا انه كان يعرف أكثر منى عن العالم الخارجى وهذا كان بسبب انه قد اضطر الى التذرع لأسرته بالذهاب الى القصر ليكون قادرا على التحرك فى الخارج بحرية . وكانت الخطوة الاولى من خطة هربنا هى ان نتزود بالنفقات . والطريقة التى سلكناها فى ذلك هى اننا نقلنا معظم الصور والتخطيطات والتحف القيمة الى خارج القصر متظاهرا بأنى أهديها الى بو جيه ، ثم حفظناها فى المنزل الكائن فى تيانجين . وكان بو جيه يعود الى بيته ومعه صرة كبيرة بعد انتهاء الدروس كل يوم على مدى أكثر من ستة أشهر ، وكانت الأشياء التى أخذناها أنفس ما فى كنوز المجموعة الأمبراطورية . وكان كبار موظفى ادارة الأسرة والمعلمون الخصوصيون يقومون حينذاك بتفحص الصور والتخطيطات مما أتاح لنا فرصة لمعرفة النفائس الغالية وأخذها . وقد أخذنا بالاضافة الى الصور والتخطيطات كثيرا من المطبوعات القديمة النفيسة . وبلغ ما نقلناه أكثر من ألف صورة ومخطوطة وأكثر من مائتى لوحة مخطوطة وصفحة من الألبومات وحوالى مائتى كتاب نادر من مطبوعات

أسرة سونغ . وهذه كلها أخذت الى تيانجين ، حيث بيعت العشرات منها فيما بعد . والبقية أخذت الى الشمال الشرقى على يد ضابط فى اركان الحرب لجيش قواندونغ اليابانى بعد تأسيس " امبراطورية مانشوريا " ، واختفت بعد استسلام اليابانيين .

الخطوة الثانية من خطتنا كانت القيام بهروب سرى من المدينة المحرمة . ولقد تعلمنا درسا بالغ الأهمية من تاريخ السنوات الأولى للجمهورية : فبمجرد خروجى من القصر ودخولى حى المفوضيات تصبح السلطات الجمهورية والأمراء وكبار الموظفين عاجزين عن التحكم بى . وجونستون قد وضع التفاصيل لكيفية القيام بذلك . وقال لي انه يجب علي أولا ان أتصل بعميد السلك الدبلوماسى الهولندى و.ج . أودنديجلك ، وأطلب منه ان يقوم بالاستعدادات الملائمة . وقد اقترح علي ذلك فى أواخر فبراير ١٩٢٣ . وكان قبل تسعة أشهر قد عارض ذهابى الى الخارج بحجة ان الوقت لم يكن مؤاتيا . ولم تكن عندى أدنى فكرة عن سبب اعتقاده بأن الوقت قد حان الآن ، او عما اذا كان قد قام بأى ترتيب مع المبعوثين الأجانب . وهذه الاشارة من جونستون أعطتنى الثقة العظيمة وارضتنى رضاء تاما . وقد طلبت منه أولا ان يذهب الى المفوضية الهولندية ويخبرها ، ومن ثم تكلمت شخصيا مع أودنديجلك حول ذلك بالهاتف . ولكى أجعل الأمور أكثر تحديدا أرسلت بو جيه أيضا لزيارة المفوضية الهولندية . وكانت النتائج مرضية تماما . ووافق اودنديجلك على طلباتى عبر الهاتف ، ورتب الأمر مع بو جيه بحيث يرسل شخصا ينتظرنى خارج بوابة البسالة السماوية اذ أنه لم يستطع ان يرسل لي سيارة الى داخل المدينة المحرمة . وبمجرد ان أخرج سرا من هذه البوابة فسيتحمل المسؤولية الكاملة عن كل شيء من طعامى ومنامى أول ليلة حتى دخولى الى جامعة بريطانية . وحددنا اليوم والساعة لرحيلى من القصر .

وفى ٢٥ فبراير كانت المشكلة الوحيدة المتبقية هى كيف أعبر بوابة

البسالة السماوية . كان وضع المدينة المحرمة كهذا : بجانبى جماعة من الخصيان يرافقوننى على الدوام ، ثم الخصيان الواقفون عند جميع بوابات القصر ثم حرس القصر داخل وخارج الأسوار ، واخيرا الدوريات الجمهورية خارج بوابة البسالة السماوية . وقدرت انه بمجرد معالجة الأمر على خير وجه مع الخصيان الذين فى حاشيتى والذين عند البوابات لن تبقى هناك أية مشكلة أخرى كبيرة . وكانت أفكارى بسيطة كل البساطة ، وظننت ان كل ما يجب أن أفعله لأستميلهم هوان أعطيهم بعض النقود . واعطيتهم فشكرونى شكرا جزيلا ، وظننت عندها ان كل شيء قد أصبح على ما يرام . ولكن قبل ساعة من الموعد المحدد أبلغ أحد الخصيان الذين أخذوا منى الرشوة ادارة الأسرة . وقبل مغادرتى قصر تهذيب النفوس سمعت ان والدي قد أصدر أمرا بألا يسمح لأحد بعبور اى من بوابات القصر وان المدينة المحرمة بكاملها قد وضعت فى حالة تطويق . فجلست انا وبو جيه فى قصر تهذيب للنفوس مذهولين لهذا الخبر .

وقبل مضى وقت طويل جاء والدي وهو يتميز من الغيظ وقال :

ــ . . سمعت ان عظمتكم تـ . . تـ . . تريد الخروج . . .

وبدا فى غاية الارتباك والاضطراب كأنما هو المذنب ، فلم يسعنى الا الضحك . وأجبته كاتما ضحكى :

ــ طبعا ، لا أريد .

ــ ان هذا لا يليق بك . كيف تفعل ذلك ؟ . . .

ــ ولكننى لا أريد الخروج !

فحدق والدي الى بو جيه بارتياب ، فخاف بو جيه ونكس رأسه . فكررت قولى :

ــ اننى لا أريد الخروج .

وتمتم والدي ببضع كلمات أخرى قبل ان ينصرف آخذا معه " شريكي فى الجريمة " . وعندما غادر استدعيت خصيان الحضرة لأسألهم من الذى

أفشى الخطة . ونويت ان آمر بجلد المجرم جلدا لم يشهده فى حياته قط . ولكن لم أستطع ان أحصل على أية نتيجة منهم ، كما لم أستطع ان آمر بالتحقيق فى هذه المسألة عن طريق المكتب الادارى ، والشيء الوحيد الذى استطعت فعله هوان أدارى غضبى فى داخلى .

ومنذ ذلك الحين أصبحت أكره مرأى أسوار القصر العالية . وتمتمت فى نفسى ، وأنا أقف على تلة اصطناعية داخل القصر وأنظر الى السور :

"سجن ، سجن ، سجن . ان عدم كون الجمهورية على علاقة حسنة بى أمر يمكن فهمه ، ولكن الشيء الذى يتعذر فهمه هو ان يكون الأمراء وكبار الموظفين معادين لي كل هذا العداء . اننى فقط من اجل ميراث اسلافى من الجبال والأنهار أريد ان أخرج ، لماذا تريدون ابقائى هنا ؟ ما أسوأكم . يا موظفى الأسرة : لا بد انكم انتم الذين دفعتم والدي الى هذا التصرف . "

وعندما رأيت جونستون فى اليوم التالى بحت اليه بكل مشاعرى . وبعد ان خفف عنى ببعض الكلمات نصحنى بأن أطرح المسألة من ذهنى موقتا : سيكون أكثر جدوى البدء باعادة تنظيم المدينة المحرمة . وأوصانى بأن أتبع اقتراحات تشنغ شياو شيوى الذى وصل حديثا حول موضوع الاصلاح .

وأشرق فى ذهنى أمل جديد . فحتى اذا لم أستطع ان أحيى ميراث السلف خارج أسوار القصر ، فسأستطيع على الأقل اصلاح ممتلكاتي داخل المدينة المحرمة . وسررت كثيرا باقتراح جونستون . لكنى لم أتخيل قط فى ذلك الوقت انه ، عندما سيصف فيما بعد محاولة هربى فى كتابته سيزعم انه لم تكن له أية علاقة بذلك بل وسيقول أيضا انه عارض هروبى .

تشتيت الخصيان

على الرغم من الهدوء الخارق للعادة الذى تتميز به المدينة المحرمة، الا انها كانت فى حقيقة الامر فوضى تامة . فمنذ سنواتى المبكرة كنت دائما ما أسمع عن السرقة والاحراق والقتل ، ناهيك عن المقامرة وتدخين الأفيون . وفى ايام زفافى وصلت السرقة حدا كبيرا ، بحيث اختلست جميع قطع اللآلىء واليشب التى كانت فى تاج الامبراطورة فور انتهاء الاحتفال واستبدلت بها حلى مزيفة .

وعلمت من معلمى الخصوصيين ان كنوز قصر تشينغ مشهورة على نطاق العالم وان التحف والخطوط والصور وحدها مذهلة فى نوعيتها وقيمتها . وفيما عدا ما سلبه الجنود الأجانب عام ١٨٦٠وعام ١٩٠٠ فان النفائس التى حشدتها أسرة مينغ وأسرة تشينغ منذ مئات السنين كانت كلها تقريبا ما تزال فى القصر . ومعظم هذه المواد لم تكن مسجلة ، وما سجل منها لم يفحص بحيث لم يعرف أحد كم سرق منها ، مما سهل لأمور على السراق .

وبالعودة اليها اليوم يبدو ان ذلك كله كان من أعمال السلب . والسلابون هم كل من فى القصر من الأعلى الى الادنى ، كل من سنحت له الفرصة للسرقة سرق دون أدنى شعور بالقلق . وقد تنوعت فنون السرقة : فبعضهم كسر الأقفال وسرق سرا ، بينما استخدم آخرون وسائل شرعية وسرقوا فى وضح النهار : والطريقة الأولى كانت الطريقة المفضلة لدى معظم الخصيان ، بينما استخدم كبار الموظفين الطريقة الثانية : وكان هؤلاء يرهنون بعض النفائس او يبيعونها او يستعيرونها لاستعمالهم او يطلبونها بصفة هدايا . وكانت أكثر الوسائل تقدما تلك التى استخدمتها انا وبو جيه . طبعا انا لم أنظر اليها فى ذلك الوقت على انها سرقة ، بل بالعكس بدا لي حينذاك ان ممتلكاتى صارت

نهبا للغير :

وذات يوم وكنت فى السابعة عشرة من عمرى ، دفعنى فضولى ان أطلب من الخصيان فتح مخزن قصر السعادة المؤسسة (جيان فو قونغ) ، كانت أبواب المخزن مختومة باحكام بأشرطة من ورق التختيم ، وبدا واضحا انه لم يفتح منذ عشرات السنين ، وكان فى الداخل عدد من الصناديق الكبيرة تبين لي انها تحتوى على أوعية اليشب والمخطوطات والتحف واللوحات الفنية الثمينة جدا وغيرها من النفائس التى كان الامبراطور تشيان لونغ يحبها حبا جما ، وانها قد خزنت بعد موته . واكتشافى كل هذا الكنز جعلنى أتساءل عن حجم الثروة التى كنت أمتلكها حقا . لقد أخذت ما رأيته ، ولكن كم واحدة من تلك الكنوز لم ترها عينى ؟ ماذا يجب ان أفعل بخصوص تلك المخزونات الضخمة من النفائس ؟ وكم سرق منها ؟ وكيف أستطيع ان أمنع حدوث المزيد من السرقات ؟

وأخبرنى جونستون ان كثيرا من دكاكين التحف الجديدة قد فتحت فى شارع دى آن من حيث كان يقيم . وقيل ان بعض هذه الدكاكين يديره الخصيان ، ودكاكين أخرى يديرها موظفو ادارة الأسرة او أقرباؤهم . وفيما بعد شعر المعلمون الخصوصيون أيضا بأنه يجب اتخاذ بعض الاجراءات لمنع المزيد من السرقات ، ووافقت على اقتراح منهم بوجوب اجراء عملية جرد . ولكن هذا القرار أدى الى المزيد من المصايب .

وازدادت السرقات . والقفل المثبت على مخزن قصر يوى تشينغ قد حطم ، واحدى النوافذ التى فى مؤخرة قصر السماء الصافية فتحت عنوة . وأخذ الوضع يزداد سوءا ويصبح من الصعب التحكم فيه حتى ان الماسة الكبيرة التى اشتريتها مؤخرا اختفت . وفى محاولة لتقصى السرقات أمرت الزوجات العليات مدير المكتب الادارى ان يستجوب الخصيان المسؤولين عن المخازن ، وان يستخدم التعذيب اذا لزم الأمر ، ولكن لا التعذيب ولا عرض المكافآت المغرية

ترك أي تأثير . وهذا لم يكن كل شيء ، ففى ليلة ٢٧ يونيو ١٩٢٣ ، بعد ان بدأ مباشرة فحص المحتويات التى فى مخزن قصر السعادة المؤسسة ، شب حريق هناك اتى على كل ما فيه سواء ما فحص وما لم يفحص وحوله الى رماد .

واكتشفت الحريق فرقة الاطفاء التابعة للمفوضية الايطالية بحيث عندما وصلت سيارتهم الاطفائية الى بوابات القصر لم يدرك الحرس لماذا جاءت . واستمرت فرق الاطفاء المتنوعة تقاومه طوال الليل حيث خمد بعد ان حول المساحة المحيطة بقصر السعادة المؤسسة الى رماد . وتلك كانت الأماكن التى خزنت فيها معظم كنوز بيت تشينغ . اما سبب الحريق فما يزال غامضا . وقد نشرت ادارة الأسرة بيانا فى غاية السطحية قدر الخسائر بـ ٢٦٦٥١ تمثالا ذهبيا لبوذا و١١٥٧ قطعة من اللوحات والخطوط و٤٣٥ تحفة وعشرات الألوف من الكتب القديمة ، ولكن السماء وحدها تعرف على اى شيء اعتمدوا فى هذه الأرقام .

عندما كانت النار تقاوم كان القصر مملوءا بالأجانب والصينيين ، من المقيمين فى القصر وممن خارجه ، وهم يتجولون فى مختلف انحاء القصر ذهابا وايابا . ويمكن التخيل بسهولة انهم لم يكونوا مهتمين فقط باطفاء النار ، ولكن المدينة المحرمة عبرت عن شكرها لهم جميعا . وقد جاءت احدى السيدات الأجنبيات لتتفرج على ذلك المشهد المثير ، وأخذت تتنازع مع اطفائي صيني ، فضربته بمروحتها حتى جرحت أنفه . وفيما بعد أرتنى بقع الدم على المروحة كدليل على شجاعتها ، وقد كتبت حينذاك قصيدة على مروحتها تعبيرا عن شكري لها . . ولكن يا ترى ماذا كانت هذه الاجنبية تريد من الاطفائى الصينى ؟

لا سبيل قط لمعرفة مدى الخسائر التى نجمت عن الحريق ، ولكنى سأتحدث عن أكوام الرماد والمكافآت التى دفعت لقاء الاطفاء . كنت فى

ذلك الوقت أريد ان أجد مساحة فارغة لتكون ملعبا للتنس ، حيث يمكن لجونستون ان يعلمنى هذه اللعبة التى قال ان جميع الارستقراطيين الانكليز يلعبونها . وكان الموقع الذى دمر بالحريق ملائما تماما لهذا الغرض ، ولذلك طلبت من ادارة الأسرة ان تنظف هذا المكان بأقصى سرعة ممكنة . لم يكن ثمة من أثر للصور والتخطيطات او الخزفيات القديمة فى البقايا المتخلفة عن الحريق ، بل كان هناك مقدار كبير من الذهب والفضة والنحاس والتنك . وقد دعى تجار الذهب فى بكين من جانب ادارة الأسرة لتقديم العطاءات ، فاشترى أحدهم الرماد بـ ٥٠٠ ألف يوان بيد انه حصل من الرماد على أكثر من ١٧ ألف تايل من الذهب . ثم حزمت ادارة الأسرة بقية الرماد داخل أكياس ووزعتها على العاملين فيها . وقد أخبرنى أحد موظفى ادارة الأسرة فيما بعد ان المذابح الذهبية الأربعة التى يبلغ ارتفاعها قدما وقطرها قدما ، والتى قدمها عمه الى معبد يونغ خه قونغ ومعبد بستان الصنوبر فى بكين جميعها مصنوعة من الذهب المأخوذ من بعض أكياس الرماد تلك .

ان سبب الحريق غامض ويتعذر معرفته ، تماما كما هو الحال بالنسبة للخسائر واننى أشك ان يكون الحريق قد قام به اللصوص لتغطية سرقاتهم ، لا سيما وانه بعد بضعة أيام فقط شب حريق آخر فوق احدى نوافذ مكتبة وو يى (اللاتراخى) فى الزاوية الداخلية الشرقية من قصر تهذيب النفوس . ومن حسن الحظ انه أطفىء مبكرا . وقد عثر على حشوة قطن مبللة بالكيروسين كانت قد اطفئت فور اشعالها . وكان ذلك سببا لاثارة المزيد من شكوكى لأنى اعتقدت ان هذا الحريق الجديد لم يكن يستهدف فقط تغطية سرقة ما ، بل ليقتلنى أيضا .

ان السرقة ، والاحراق لاخفاء آثارها ، كانت حقائق لم يحاول حتى المعلمون الخصوصيون اخفاءها عنى ، ولكن ربما كانت مخاوفي من محاولة لقتلى هى السبب فى سوء حالتى العصبية . وكانت طبيعتى المتميزة بالشكوك قد

توضحت تماما . ووفقا لعقيدة بيت تشينغ كان على الامبراطور ان يقرأ صفحة من " تعاليم " أسلافه ، التى كانت توضع دائما فى مهجعه ، وفى ذلك الوقت أعجبت على نحو خاص بـ " الملاحظات القرمزية والمراسيم والقرارات " التى كان يصدرها الامبراطور يونغ تشنغ (١٧٢٣-١٧٣٥) والتى تعبر عن سواسه ومزاجه الشكوكى ، كما لفت نظرى تحذير مأثور عنه وعن كانغ شى (١٦٦٢-١٧٢٢) من الثقة المطلقة فى أى شخص ، ولاسيما الخصيان . وكنت أفكر فى تعاليم اسلافى المذكورة اعلاه على الدوام بعد الحرائق الأخيرة .

وقررت ان أتبع نصيحة الامبراطور يونغ تشنغ " اجعل الأمور واضحة من خلال التقصى الدقيق " ، وفكرت فى طريقتين : احداهما ان أستجوب الخصيان الصغار فى حاشيتى ، والثانية ان أسترق السمع الى محادثات الخصيان . واكتشفت من نافذة فى أحد مساكنهم أنهم كانوا يتناقشون حولى من خلف ظهرى ، قائلين ان مزاجى قد أخذ يزداد سوءا . فقوى ذلك شكوكى . وفى مساء الحريق الذى حدث فى مكتبة اللاتراخى استرقت السمع ثانية تحت نوافذهم ، فوجدت أنهم قد ذهبوا أبعد من ذلك فى ملاحظاتهم حولى ، وقالوا اننى انا الذى أشعلت الحريق . فشعرت عندها انهم ليسوا موضع ثقة اطلاقا واننى اذا لم أبادرهم بضربة قاصمة فلن تكون هناك نهاية للمصايب .

وفى ذلك الوقت بالذات جرت محاولة قتل . كان احد الخصيان قد اتهم بارتكاب بعض الأخطاء فضرب على يد قهرمان أولى . فكبت غيظه . وذات يوم صباحا دخل الى الغرفة التى ينام فيها المبلغ عنه ، حاملا بعض الكلس وسكينا ، وألقى الكلس فى وجه الرجل ليعميه ، ثم طعنه . وكان المهاجم ما يزال طليقا .

وهذا جعلنى أفكر فى جميع الخصيان الذين ضربوا بناء على أوامر منى ، وتساءلت فى نفسى ان كان من المحتمل قيامهم بهجوم كهذا علي شخصيا .

أصبت بذعر منعني من النوم . وكان بعض الخصيان نائمين على حصران فى الغرفة المجاورة لمهجعي ، فلو شعر اى منهم بالاستياء مني واراد ان يقتلني على غرة ، لكان من السهل جدا عليه ان ينهي حياتي . وأردت ان أختار شخصا يعتمد عليه ليسهر على حراستي ، ولم أستطع ان أجد أحدا ملائما غير امبراطورتي. ومنذ ذلك الوقت جعلت وان رونغ تجلس ساهرة طوال الليل على حراستي . وكان عليها ان توقظني اذا سمعت أية حركة ، وقد أبقيت هراوة بجانب سريري لاستخدامها عند اللزوم . ولكن بعد ان أمضت وان رونغ عدة ليالي دون نوم فى هذه المهمة العسيرة ، أدركت ان هذه الطريقة غير صالحة . وفى النهاية قررت ان أعالج المشكلة علاجا حاسما وذلك بطرد جميع الخصيان من القصر .

وعرفت انني سأواجه بعض المتاعب فى تنفيذ ذلك ، وانني ما لم أواجه والدي بشكل معقول فسيكون ذلك مستحيلا . وقررت ان أذهب اليه شخصيا . ولما بوغت بهذه المشكلة لم يجد سبيلا لمناقشتها مع رئيس ادارة الأسرة او مع معلمى الخصوصيين ، ووجد ان ابداء رأيه فى ذلك أصعب عليه من السابق . وبجهد بالغ استطاع ان يخرج بهذا الخليط من المعارضات : ان أسلافى كان لديهم دائما خصيان خدموهم سنوات طويلة دون ان يخططوا لأية عملية غدر ، وما الى ذلك . وفى النهاية قال لي :

— هذا الأمر سنناقشه تدريجيا ، ويعود جلالتكم الى القصر اولا ، وبعد يومين . .

وأخبرته :

— لن أعود الى القصر أبدا اذا لم توافق .

فأصبح من الاضطراب بحيث لم يدر أ يجلس أم يقف . وأخذ يدور حول نفسه حاكا رأسه ووجنته ، وصدم بكمه زجاجة من عصير الليمون فحطمها . فلم أتمالك نفسى عن القهقهة ، وتعللت بفتح كتاب على المكتب كأنما لم تكن عندى نية للمغادرة .

وفى النهاية استسلم والدي ، وطرد جميع الخصيان من القصر ، ماعدا أولئك الذين لم تستطع الزوجات العليات الافتراق عنهم .

اعادة تنظيم ادارة الأسرة

لقى طرد الخصيان ترحيبا كبيرا لدى الرأى العام . وبتوجيه من جونستون صارت ادارة الأسرة الهدف التالى لاصلاحاتى . كان لهذه الادارة تاريخ طويل من الفساد والاختلاسات . ووصف لي صديق كان موظفا سابقا لدى الادارة كيف ان جميع موظفيها قد كرهوا العلم والتعليم الى حد كبير واعتبروا الاختلاس هو المحصول الطبيعى لما يتمتعون به من سلطة امبراطورية .

ويكفينا هنا وصف مثالين لهذه الممارسات فى ادارة الأسرة ، أحدهما نفقتها السنوية الهائلة التى لم يكن يكفى لتغطيتها مبلغ الـ ٤ ملايين يوان المستحقة سنويا بموجب بنود المعاملة التفضيلية حتى ولو دفعت كاملة . ولقد تكشف عام ١٩٢٤ ، بعد ان تركت القصر ، ان ادارة الأسرة قد حصلت على ٥ ملايين يوان فى تلك السنة من رهن الذهب والفضة والتحف ، وانفقت كلها . والمثال الثانى هو الطريقة التى رهنت بها ادارة الأسرة فى احدى المرات كمية ضخمة من ذهب القصر ومجوهراته بواسطة والد زوجتى رونغ يوان مقابل جزء ضئيل من قيمتها الحقيقية .

ومع انه لم يكن لدي دليل على فساد الادارة عندما كنت لا أزال أقيم فى القصر ، الا أننى عرفت شيئا واحدا من أرقام النفقة السنوية : لقد كانت الأرقام أعلى مما كانت عليه زمن الامبراطورة الأرملة تسى شي . واطاعة لمرسوم منى يأمر بتفحص ممتلكات القصر ، أعدت ادارة الاسرة " مقارنة بين نفقات السنة السابعة من عهد شيوان تونغ (١٩١٥) والسنوات الثلاث الأخيرة . " ووفقا لأرقامهم فان نفقات ادارة الأسرة (باستثناء الدفعات المحددة الى الأمراء

وكبار الموظفين) بلغت ٢٦٤٠٠٠٠ تايل من الفضة سنة ١٩١٥ ، و ٢٣٨٠٠٠٠ تايل من الفضة سنة ١٩١٩ ، و ١٨٩٠٠٠٠ تايل من الفضة سنة ١٩٢٠ ، و ١٧١٠٠٠٠ تايل من الفضة سنة ١٩٢١ . وكانت النفقات السنوية فى عهد تسى شى ٣٠٠ ألف تايل من الفضة فقط ، وحتى فى السنة التى احتفلت فيها بعيد ميلادها السبعين لم تتجاوز النفقة ٧٠٠ ألف تايل من الفضة . وهو فرق مدهش لمن هو اقل معرفة منى بالرياضيات . وقد طالعت فى نفس الوقت قصصا فى أعمدة الثرثرة داخل الصحف تصف كيف تحولت عوائل النبلاء وكبار الموظفين الى عوائل معوزة او كيف انها ماضية فى طريق الانحدار . وقرأت أخبار عن سليلى أسر كهذه عثر عليهم ميتين عند بوابات سور المدينة وعن أميرات ونبيلات أصبحن عاهرات . وفى تلك الفترة كان موظفو ادارة الأسرة يديرون محلات للتحف ومصارف ومراهن ويبنون معامل للخشب وما الى ذلك . ومع ان معلمى الخصوصيين وقفوا الى جانب ادارة الأسرة فى معارضتى لشراء سيارة وتركيب هاتف ، ولكن لم يقل اى منهم كلمة عن الأوضاع السائدة فى ادارة الأسرة : وقال لي معلمى الخصوصى يى كه تان قبل موته عام ١٩٢١ بوقت غير طويل ان تشن باو تشن قد " ضلل الامبراطور " لانه لم يخبرنى بفساد ادارة الأسرة ، ولذلك فانه لا يستحق لقب " المعلم الخصوصى الكبير " ، أما جونستون فقد بين لي بصراحة ان ادارة الأسرة عبارة عن مصاصة دماء ، ورأيه هذا قوى تصميمى على اعادة تنظيمها .

ولقد أبدى جونستون ذات يوم الملاحظة التالية :

— ان موظفى ادارة الأسرة داخل القصر والقهرمانات من عائلات الأمراء جميعهم أغنياء الى حد الافراط . ان سادتهم لا يعلمون شيئا عن شؤونهم المالية الخاصة ويعتمدون على قهرماناتهم اعتمادا تاما ، فمن دونهم لا يستطيعون الحصول على قطعة نقد نحاسى واحدة ، وانهم اذا لم يضعوا هؤلاء القهرمانات فى مكانهم المناسب ، فلن يحفظوا ما تبقى من ثروة القصر أمدا طويلا ناهيك

عن استعادة ما ذهب !

وقال فى مناسبة أخرى :

ــ ان لادارة الأسرة شعارا هو ، المحافظة على الوضع الراهن ، فاى اصلاح تافها ام رئيسيا لابد ان يصطدم بهذه العقبة ويفشل .

وقد بادرت بعيد زفافى الى اختيار عدد من اكفاء مخضرمى أسرة تشينغ الذين حضروا الاحتفالات ليكونوا مساعدين لي فى هذا الشأن . وهم بدورهم رشحوا لي آخرين ممن يثقون بهم ، وبهذه الطريقة دخل القصر اثنا عشر او ثلاثة عشر عنصرا جديدا كان ابرزهم تشنغ شياو شيوى ولوه تشن يوى ووانغ قوه وى وشانغ يان ينغ ووزعت عليهم ألقابا سامية مثل " مرشد المكتبة الجنوبية " (مكتبة الامبراطور) و " مرشد قاعة الاجتهاد العظيم " (المكتب المشرف على قرطاسية الامبراطور) . ووضعت اثنين من حملة الرايات مسؤولين عن ادارة الأسرة هما والد زوجتى رونغ يوان والمنغولى جين ليانغ ، المعلم الخصوصى السابق لتشانغ شيوه ليانغ (المارشال الشاب) .

وقدموا لي النصح التام فيما يجب ان أفعل . وكتب جين ليانغ فى وثيقة مؤرخة فى " الشهر الأول من السنة السادسة عشرة من عهد شيوان تونغ " (١٩٢٤) ، وكان قبل شهرين تقريبا من تعيينه مسؤولا فى ادارة الأسرة :

> فى رأى تابعكم ان أهم شيء اليوم هو التخطيط لاعادة الملكية سرا . ومن اجل تنفيذ هذا المشروع العظيم لتغيير العالم تكون هناك أشياء كثيرة يجب فعلها ، والشيء الأسبق هو ترسيخ القاعدة عن طريق حماية البلاط . والمهمة التالية فى الأهمية هى جرد الممتلكات الامبراطورية لتأمين ايراداتنا . وانه لمن الضرورى ان نمتلك الواسطة التى ندعم بها أنفسنا ونحميها ، وعندها فقط نستطيع ان نخطط لاعادة الملكية .

وتابع يقترح فى مزيد من التفصيل كيف يمكن لهذه المبادىء ان تطبق ، وكان أحد اقتراحاته ، والذى وافقت عليه تماما ، هو انه يجب ان نبدأ باصلاح

ادارة الأسرة .

ولم تعارض أكثرية افراد أسرة تشينغ خطط الاصلاح الداخلى هذه . ولكن عددا منهم يقوده تشن باو تشن هزوا رؤوسهم لدى الحديث عن اصلاح ادارة الأسرة ، بدعوى ان الاصلاح لم يعد ميسورا وان محاولات من هذا القبيل قد جرت اوقات سابقة ولكنها لم تنجح . وظنوا ان اعادة التنظيم لا تؤدى الا الى المتاعب .

وبتشجيع من جونستون حاولت عبثا تفحص ممتلكاتى قبل زفافى بفترة قصيرة ، ولكننى عزوت اخفاق هذه المحاولة الى عدم سيطرتى على الحكم بنفسي والى اختيار شخص غير مناسب لهذه المهمة بدلا من ان أعزو ذلك الى مكايد الادارة . أما الآن وقد كبرت وأصبح لدي كل هؤلاء المساعدين الجدد ، فقد شعرت اننى فى وضع أقوى بكثير فعهدت الى تشنغ شياو شيوى بمسؤولية الاصلاح .

كان تشنغ شياو شيوى وهو من نفس مقاطعة تشن باو تشن ، قد خدم أسرة تشينغ قنصلا فى اليابان ، ثم مفوض حدود فى قوانغشى . وقد زكاه لي كل من تشن باو تشن وجونستون ، ولا سيما الاخير الذى قال انه الرجل الذى استحق جل اعجابه خلال السنوات البضع والعشرين التى قضاها فى الصين وانه لا نظير له فى البلاد كلها بشخصيته وعلمه ومقدرته . وعرفت أيضا انه رفض ان يخدم الجمهورية ، وسمعت انه كان يعيش على بيع تخطيطاته . واعتقدت انه لا بد ان يكون تابعا مخلصا كل الاخلاص .

وبعد ان أصبح تشنغ شياو شيوى " مرشد قاعة الاجتهاد العظيم " جاءنى عدة مرات ليوضح لي مدى ضرورة اصلاح ادارة الأسرة من أجل " تنفيذ المشروع العظيم " . وحدثنى عن خططه للقيام بذلك . ورأى ان أربعة اقسام ستكفى تماما للقيام بعمل الادارة ، وان أعدادا كبيرة من موظفيها يجب ان يطردوا ويتم تحقيق توفيرات هائلة . وبهذه الطريقة سيتوقف نزح مصادر

الثروة ويتعزز الوضع المادى . واذا ما طبقت خطته هذه فان القاعدة المالية لاعادة الملكية ستصبح مضمونة . وأعجبت بخططه اعجابا شديدا حتى انى خرقت العرف وعينته مسؤولا عن الادارة " خازن المفاتيح والأختام " مع انه كان هانيا لا مانشويا . وهكذا صار هو الموظف الأعلى فى بيت تشينغ . ولكن هل كان بمقدور تشنغ شياو شيوى ان يتغلب على ملاك الادارة من الأميين والاجلاف الذين ورثوا خبرة قرنين فى فن الاستهتار الادارى ؟ كلا ! فهو لم يستمر أكثر من ثلاثة أشهر رغم كفاءاته كلها ورغم الدعم والثقة اللذين اوليته اياهما .

ولم أستطع أبدا ان أكتشف من الذى جعله يغادر ادارة الأسرة . هل سبب له شاو ينغ المتاعب ؟ هذا يبدو غير محتمل لان شاو ينغ كان معروفا بجبنه الحذر . أيكون تشى لينغ ؟ لقد كان شخصا دخيلا لا تعنيه قضايا الادارة . اما الموظف الكبير الثالث ، باو شى فكان حديث عهد بالوصول ومن غير المحتمل ان يكون فعالا الى هذا الحد . ولم يكن كذلك محتملا ان يكون معاونوهم هم الذين تجرأوا على التصرف ضد تشنغ شياو شيوى بمبادراتهم الشخصية .

كان اول ما واجه تشنغ شياو شيوى عند تسلمه منصبه هو تراكم الملفات التى يرجع تاريخها الى ثورة ١٩١١ . فكان رده على ذلك هو اظهار سلطته بطرد المسؤول عن هذا الاهمال وتسليم العمل لصديقه تونغ جى شى . وردت عليه ادارة الاسرة بعدم التعاون ، فاذا امر بصرف مبلغ اجابوا بعدم توفر الاموال واذا احتاج الى اى من المواد لم يعرف احد فى اى مكان توجد .

ولكى يستميل تشنغ مساعديه بذل جهدا كبيرا فى اظهار تواضعه وفى الاستماع الى ما كانوا يقولونه . وكان يعقد مناقشة كل اسبوع ، ويدعوهم اليها لتقديم اقتراحاتهم بشأن لاصلاح . وقدم اليه مرة اقتراح بأن نفقة الفواكه والكعك التى تستخدم فى التقدمة للأضرحة المتعددة داخل القصر مرتفعة جدا ،

وانه مادامت تلك التقديمات ليست الا أشياء رمزية فسيكون عظيما تماما ان تستخدم فواكه وكعك من الخشب والصلصال بدلا منها . ولقى هذا الاقتراح استحسانا كبيرا منه فاصدر اوامره بالعمل بموجبه ، واعطى ترفيعا لمقدم الاقتراح . ولكن الخصيان الذين اعتبروا تلك التقديمات دخلا تقليديا لهم (كان ما يزال هناك حوالى مائة خصى بعد طرد الخصيان) نقموا على تشنغ ، الذى صار بعد بضعة أيام من تسلم منصبه أقل الناس شعبية داخل المدينة المحرمة .

ولما اظهر عدم الرغبة فى التخلى عن منصبه تلقى رسائل تهديد تقول انه يجرد الناس من وسائل معيشتهم وان من الخير له ان يكون حذرا اذا كان يريد ان يحتفظ برأسه على كتفيه . وتلقى جونستون تهديدات مشابهة ، ولكن لم يأبه أى منهما بهذه التهديدات .

على ان انهاء حركة الاصلاح هذه تم على يدى . فبعد ان عينت تشنغ شياو شيوى مسؤولا فى ادارة الأسرة بوقت قصير سمعت بعض الأخبار المزعجة : هناك جماعة من أعضاء البرلمان الجمهورى قدمت مذكرة لالغاء بنود المعاملة التفضيلية وجعل المدينة المحرمة تابعة للجمهورية . وكانت مذكرة كهذه قد قدمت قبل سنتين بحجة ان البلاط قد خطط لاعادة الملكية عام ١٩١٧ ، واما المذكرة الاخيرة فقالت ان البلاط قد منح الموظفين الجمهوريين مراتب نبلاء وألقاب ما بعد الوفاة فجعل نفسه فوق الجمهورية وانه ما يزال يتآمر لاعادة الملكية . وقالت أيضا اننى قد منحت تشانغ شيون ، المحرض الاجرامى على اعادة الملكية عام ١٩١٧ ، لقب ما بعد الوفاة وتصرفت على نحو غير مشروع فى جعل تشنغ شياو شيوى الهانى مسؤولا عن ادارة الأسرة واعطائه الحق فى ركوب الخيل داخل المدينة المحرمة .

وكان ظهور هذه الاخبار فى الصحف بداية لسلسلة من التهجمات على تصرفات ادارة الأسرة . ان اشكالا من الفساد قد مورست فى السابق ولكن احدا لم

يشر اليها كاليوم . وقد تعرضت للتشهير كذلك اعمال البيع للوحات والتخطيطات والتحف من قبل لوه تشن يوى وغيره من مجموعة مستشاري ذوى الضفائر . وكشفت الصحف ايضا عن بيع منقوشات برونزية ونسخ اخرى من اللوحات او لوحات اصلية .

وعندها اصدرت الجمهورية "مشروع قانون لحماية الكتب القديمة والتحف والآثار القديمة" ، ذلك المشروع الذى عنى بكل وضوح منع القصر من بيع كنوزه الفنية .

وجاء والدى الي وارادنى باللف والدوران آنا وبالتلطف آنا على اعادة النظر باجراءات تشنغ شياو شيوى وان أفكر فى المتاعب التى ستحصل مع السلطات الجمهورية التى لم توافق على هذه الاجراءات .

وذات يوم ظهر أمامى شاو ينغ ، مسؤول ادارة الأسرة السابق ، وهو فى غاية الهلع وقال ان قائد الجيش الجمهورى قد استاء أشد الاستياء من اجراءات تشنغ شياو شيوى ، فاذا ما تسبب تشنغ فى أية متاعب جديدة واتخذت الجمهورية اجراء مقابلا فانه لن يقوى على فعل اى شيء لمساعدتى . فذعرت من هذه الأخبار . ثم قدم تشنغ مذكرة يطلب فيها اعفاءه من مهامه ، فأعفيته وعاد الى منصبه السابق "مرشد قاعة الاجتهاد العظيم" واستأنف شاو ينغ سيطرته على ادارة الأسرة .

الأيام الأخيرة داخل المدينة المحرمة

مع أن محاولتى لاصلاح ادارة الأسرة قد انتهت بالاخفاق ، الا اننى لم أتخل عن جهودى لتحسين وضعى .

وباستثناء الناس الذين كانوا داخل القصر يخططون لاعادة ملكى كان هناك آخرون يعملون من أجلى فى كافة أنحاء البلاد . فكانغ يوى وى مثلا كان

يعمل داخل الصين وخارجها تحت لافتة حزبه " الحزب الدستورى الصينى الامبراطورى " . وعن طريق جونستون تلقيت تقاريره عن الدعم الذى كان يعتقد بأن الحزب حصل عليه فى جهوده من اجل الملكية . ومع ان هذا الدعم كله كان خياليا تقريبا ، الا اننى اعتقدت به فى ذلك الوقت .

وقدمت كذلك نقودا للاحسان . ولا أستطيع الآن ان أتذكر اى معلم خصوصى اقترح علي هذه الفكرة ، ولكن الدافع الذى وراءها كان واضحا لي كل الوضوح ، لأننى عرفت قيمة الرأى العام . فى ذلك الوقت كانت الصفحات المعنية بالشؤون الاجتماعية فى صحف بكين تحمل كل يوم أخبارا عن العطايا التى يقدمها " الامبراطور شيوان تونغ " الى الفقراء . وكان " احسانى " هذا يتم عادة على غرارين : فأحيانا كنت أرسل النقود الى ادارة الصحيفة لتوزعها بنفسها عندما تنشر الصحيفة بعض الأخبار عن الفقراء ، وأحيانا أخرى كنت أرسل مبعوثين ليوزعوها مباشرة على العوائل الفقيرة . وبأية وسيلة كنت أستخدمها كانت الصحف تنشر خبر ذلك فى اليوم التالى او بعد يومين . وتمكنت من تجميع قدر لا بأس به من الرأى العام مقابل قليل من النقود ، وكانت الصحف مسرورة لمساعدتى فى كسب الشعبية التى اكتسبتها هى ايضا .

وأكبر ما تبرعت به كان عام ١٩٢٣ بعد حدوث الزلزال اليابانى الذى سبب خسائر هائلة لليابان . ورأيت ان أغتنم هذه الفرصة لأظهر " احسان الامبراطور شيوان تونغ " . وقد أبدى معلمى الخصوصى تشن باو تشن تبصرا أكثر منى ، فبعد امتداح " روعة السخاء الامبراطورى وانسانية العقل السماوى " قال لي ان " هذا التصرف سيكون له تأثيره فى المستقبل . " ولما كانت تنقصنى الأموال فقد تبرعت بمجموعة من التحف واللوحات الفنية والتخطيطات قاربت قيمتها ٣٠٠ ألف دولار أمريكى . فجاء المفوض اليابانى لدى الصين يوشيزاوا مع وفد من البرلمان اليابانى ليشكرنى ، وكان السرور الذى عم القصر

مثل ذلك الذى أحدثه حضور المبعوثين الأجانب حفلة زفافى .

فى ايامى الاخيرة داخل المدينة المحرمة أصبحت أكثر سخفا وتناقضا من السابق . فبينما كنت أعنف ادارة الأسرة على الافراط في الانفاق لم يكن هناك حد لتبذيرى . فقد طلبت من ادارة الأسرة ان تشترى لي كلابا أجنبية مثل الكلاب التى رأيتها فى المجلات الغربية ، بل وجعلتهم يستوردون طعامها من الخارج . واذا ما مرضت تلك الكلاب كنت أنفق على علاجها أكثر مما أنفق على علاج المرضى من الناس . وكان فى مدرسة شرطة بكين طبيب بيطرى لابد انه عرف هواي ، ففاز بالحظوة عندي لكتاباته الكثيرة الي عن اصول رعاية الكلاب ، فتسلم عشر هدايا نفيسة من ضمنها سوار من اليشب الأخضر وخاتم ذهبى وزجاجة سعوط . وأحيانا كان يستأثر باهتمامى خبر فى الصحف مفاده ان طفلا عمره أربع سنوات استطاع ان يقرأ « كتاب منشيوس » او ان شخصا ما قد اكتشف تنويعة جديدة من العناكب ، فكنت أدعوه الى القصر وأعطيه مكافأة مادية . وكنت شغوفا بالحصى وقدمت مكافآت ضخمة للناس الذين كانوا يأتونني بالاصناف الجيدة منه .

طلبت من ادارة الأسرة ان تنقص عدد العاملين فيها فأنقصتهم من سبعمائة الى ثلاثمائة وخفضت عدد الطهاة من حوالى مائتين الى سبعة وثلاثين ، ولكننى ادخلت فى نفس الوقت مطبخا غربى الطراز ، حتى أربت الكلفة الشهرية للمواد المستخدمة فى المطبخين الغربى والصينى على ١٣٠٠ يوان .

وبلغت نفقتى السنوية ٨٧٠٥٩٧ تايل من الفضة تبعا للأرقام المخفضة التى أعدتها لي ادارة الأسرة عام ١٩٢١ ، تلك الأرقام التى لم تشمل ثيابى وطعامى او نفقة الاقسام والمكاتب المتعددة التابعة لادارة الأسرة ، بل تضمنت فقط نفقاتى ودفعاتى عن " الاحسان الذى يتم تنفيذا للأمر الامبراطورى " .

ومضت بي الحياة على هذا النحو الى يوم ٥ نوفمبر ١٩٢٤ حيث طردنى جيش فنغ يوى شيانغ الوطنى من المدينة المحرمة .

كانت معركة تشاويانغ فى سبتمبر من تلك السنة بداية حرب تشيلى — فنغتيان الثانية . فى البداية كان جيش زمرة تشيلى بقيادة وو بى فو متفوقا ، ولكن عندما شن وو بى فو هجومه على قوات القائد الفنغتيانى تشانغ تسوه لين فى شانهايقوان فى اكتوبر ، تخلى عنه مساعده فنغ يوى شيانغ ، وزحف بجنوده عائدا الى بكين ، وبعث ببرقية صلح . وتحت ضغط موحد من فنغ يوى شيانغ وتشانغ تسوه لين انهارت قوات وو بى فو على جبهة شانهايقوان وهرب وو نفسه الى لويانغ (بعد سنتين قام باستعادة نشاطه بالتحالف مع أمير حرب آخر هو سون تشوان فانغ) . وقبل ان تنتشر أخبار هزيمة وو فى شانهايقوان قام جيش فنغ يوى شيانغ الوطنى الذى احتل بكين بوضع تشاو كون (رئيس الجمهورية الذى اشترى أصوات الناخبين) تحت الاقامة الجبرية ، ثم حل " برلمان المصفقين " . وشكل هوانغ فو ، وهو سياسى انتهازى ورجعى ، مجلس وزراء مؤقت بدعم من الجيش الوطنى .

عندما وصلت أخبار هذا الانعطاف الى القصر شعرت حالا ان الوضع خطير . وقد جرد جيش فنغ الوطنى حرس القصر من السلاح واخرجه من المدينة . واستولى جنود فنغ أيضا على ثكنة الحرس ومراكزهم عند بوابة البسالة السماوية (شن وو من) . ونظرت الى تل جينغشان بالمنظار من الحديقة الامبراطورية ، فرأيت التل مكتظا بجنود تختلف بزاتهم عن بزات حرس القصر . وقد أرسلت لهم ادارة الأسرة الشاى والطعام فقبلوا ذلك . ومع انه لم يكن هناك ما يخيف فى تصرفهم ، الا ان كل من فى المدينة المحرمة كان خائفا . وتذكرنا جميعا ان فنغ يوى شيانغ قد انضم الى " الجيش ضد المتمردين " حين اعادة تشانغ شيون الملكية وانه لو لم يقصى حينذاك الى خارج بكين فورا فمن المؤكد انه كان سيزحف الى داخل القصر . وبعد ان عاد دوان تشى روى الى السلطة أصدر فنغ يوى شيانغ وبعض الضباط الآخرين برقيات يطلبون فيها طرد البلاط الصغير من المدينة المحرمة . وقد تراءى لنا من خلال

هذه التطورات شؤم المستقبل . ثم سمعنا بعدها ان جميع السجناء السياسيين قد افرج عنهم وان " الحزبيين المتطرفين " قد نشطوا . كانت تعاليم تشن باو تشن وجونستون حول موضوعات " العمل المتطرف " و " الارهاب " قد تركت تأثيرها العميق علي ، لا سيما القصة التى تقول انهم يبغون قتل جميع النبلاء . فأرسلت فى استدعاء جونستون وطلبت منه ان يذهب ويطلع على آخر الأخبار من المفوضيات الأجنبية ويهيء لي مكانا ألجأ اليه .

وذعر جميع الأمراء . وكان بعضهم قد حجز له غرفا فى فندق الدول الست فى حى المفوضيات ، ولكن عندما سمعوا اننى أريد مغادرة القصر قالوا ان هذا غير ضرورى الآن ، فالدول الأجنبية جميعها تعترف ببنود المعاملة التفضيلية ، فلا لزوم للقلق .

وأخيرا حدث الذى لابد منه .

فحوالى الساعة التاسعة من صباح ٥ نوفمبر كنت جالسا فى قصر الأناقة المكدسة (تشو شيو قونغ) آكل بعض الفاكهة مع وان رونغ ، واذا بكبار موظفى ادارة الاسرة يهرعون الي ، بينما أمسك شاو ينغ بوثيقة فى يده وقال لاهثا :

— يا جلالة الامبراطور ، يا جلالة الامبراطور . . . لقد أرسل فنغ يوى شيانغ جنوده مع مبعوث الى القصر يقول ان الجمهورية ستلغى بنود المعاملة التفضيلية ، ويريدون توقيعكم على ذلك .

فوثبت من مقعدى ، وتركت التفاحة التى كنت قد أكلت نصفها تسقط على الأرض ، وتناولت الورقة التى كانت فى يده واذا فيها :

بأمر من الرئيس

لقد ارسل لو تشونغ لين وتشانغ بى ليبحثا مع بيت تشينغ تعديل بنود المعاملة التفضيلية .

٥ نوفمبر السنة الثالثة عشرة لجمهورية الصين

هوانغ فو

رئيس الوزراء بالوكالة

تعديل بنود المعاملة التفضيلية .

حيث ان امبراطور أسرة تشينغ العظيمة يرغب فى التجسد كليا فى روح جمهورية القوميات الخمس وغير راغب فى مواصلة أى نظام متعارض مع الجمهورية فان بنود المعاملة التفضيلية لبيت تشيغ قد عدلت على النحو التالى :

١- اللقب الامبراطورى لشيوان تونغ امبراطور أسرة تشينغ العظيمة يلغى من هذا اليوم الى الأبد ، وهو سيتمتع من الآن فصاعدا بنفس الحقوق القانونية لجميع مواطنى جمهورية الصين .

٢- بدءا من تاريخ تعديل البنود ستمنح حكومة الجمهورية بيت تشينغ اعانة مالية سنوية قدرها ٥٠٠ ألف يوان ، وستخصص مبلغ مليونى يوان لتأسيس معمل افقراء بكين تكون أفضلية القبول فيه للمانشويين المفتقرين .

٣- وفقا للبند الثالث من بنود المعاملة التفضيلية السابقة سيغادر أفراد بيت تشينغ القصر هذا اليوم . وسيكونون أحرارا فى اختيار مكان اقامتهم ، وحكومة الجمهورية ستظل مسؤولة عن حمايتهم .

٤- تقديم القرابين عند المعابد السلفية والأضرحة لبيت تشينغ سيستمر الى الأبد والجمهورية ستقدم حراسا للحماية .

٥- بيت تشينغ سيستعيد ممتلكاته التى ستتمتع بحماية خاصة من حكومة الجمهورية . وجميع الممتلكات العامة ستصبح تابعة للجمهورية .

...... نوفمبر السنة الثالثة عشرة لجمهورية الصين

وأقول بصراحة ان هذه البنود المعدلة لم تكن تقريبا سيئة كما توقعت : وما أجفلنى هو ملاحظة شاو ينغ :

— انهم يقولون اننا يجب ان نغادر القصر فى غضون ثلاث ساعات !

— ولكن هل ذلك ممكن ؟ ماذا بخصوص ممتلكاتنا كلها ؟ ماذا عن الزوجات العليات ؟

وأخذت أخطو على نحو دائرى وأنا فى حالة غم واكتئاب .

ـــ اردت التحدث مع جونستون هاتفيا .

فأجاب رونغ يوان :

ـــ لقد قطع الهاتف !

ـــ أرسل احدا لاحضار والدي . كنت أقول لك دائما ان المصايب مقبلة علينا ، ولكنك لم تدعنى أخرج . استدع والدي ! استدع والدي !

وقال آخر :

ـــ لا نستطيع الخروج . لقد ركزوا رجالهم خارج القصر ، فلن يدعو اى واحد يخرج .

ـــ اذهب وفاوضهم نيابة عنى .

ـــ حاضر ، يا سيدى .

ولما كانت دوان كانغ قد ماتت قبل بضعة أيام ، فانه لم يبق فى القصر الا زوجتان عليتان ، وقد رفضتا مغادرة القصر رفضا تاما . فاتخذ شاو ينغ ذلك ذريعة وذهب ليتفاوض مع لو تشونغ لين مبعوث الجمهورية ، ونجح فى الحصول على تمديد للمهلة حتى الساعة الثالثة بعد الظهر . وفى منتصف النهار تقرر السماح لوالدى بالدخول الى القصر ، وعندما جاء سمح كذلك لمعلمى الخصوصيين تشو يى فان وتشن باو تشن بالدخول ، وبقى جونستون وحده خارج القصر .

وعندما علمت ان والدي قد جاء خرجت للقائه ، وحالما لمحته قادما عبر البوابة صحت قائلا :

ـــ يا سمو الأمير ! ماذا نفعل ؟

وعلى صوت صيحتى وقف ساكنا دون حراك كأنما ألقيت عليه رقية . فلا هو اقترب منى ولا أجابنى عن سؤالي ، بل ارتعشت شفتاه قليلا ثم نطق جملة خالية من أية فائدة :

— انا ، انا أطيع الامر ، انا أطيع الأمر . . .

فتركته غاضبا قلقا وعدت الى غرفتى . وفيما بعد سمعت من خصى انه عندما سمع والدي باننى قد وقعت على البنود المعدلة خلع قبعته ونزع عنها ريشة الطاووس ثم ألقاها على الأرض متمتما :

— انتهى كل شيء . لن احتاج الى هذه ثانية .

ولم يمض وقت طويل حتى عاد شاو ينغ الى غرفتى ، ووجهه أكثر اخافة من ذى قبل . وقال وهو يرتجف :

— ان مبعوثهم لو تشونغ لين يستحثنا ، ويقول لم يبق أمامنا الا عشرون دقيقة ، واذا لم نخرج حينذاك . . . فانهم سيطلقون المدافع من تل جينغشان ...

ومع ان مبعوث الجمهورية لم يجلب معه الا عشرين جنديا مسلحين بالمسدسات ، الا ان تهديده هذا كان بالغ الأثر . فقد ذعر والد زوجتى ذعرا شديدا واندفع الى الحديقة الامبراطورية ليجد مكانا يلوذ به من نيران المدفعية ورفض ان يخرج ثانية . وبعد ان رأيت الرعب فى وجوه الأمراء وكبار الموظفين قررت ان أقبل مطالب لو تشونغ لين فورا وأذهب الى منزل والدي .

وأعد لنا الجيش الوطنى خمس سيارات . ركب لو تشونغ لين فى السيارة الأولى ، وركبت أنا فى الثانية ، وخلفنا ركبت وان رونغ وون شيو وتشانغ بى وشاو يبغ والآخرون .

وعندما خرجت من السيارة عند البوابة الرئيسية للقصر الشمالى (منزل والدي) ، أقبل على لو تشونغ لين وصافحنى . ثم سألنى قائلا :

— يا سيد بو يى ! أتنوى ان تكون امبراطورا فى المستقبل ، أم انك ستكون مواطنا عاديا ؟

— من اليوم فصاعدا أريد ان أكون مواطنا عاديا .

فقال المبعوث مبتسما :

— جيد ، سنحميك اذن .

ومضى يقول :

— مادامت الصين جمهورية فليس من الصواب ان يكون فيها شخص يدعو نفسه امبراطورا ، ومن واجبك الآن ان تبذل أقصى جهدك لخدمة البلاد بصفتك مواطنا عاديا .

وأضاف موظف جمهورى آخر هو تشانغ بى :

— سيكون لك الحق فى ان تنتخب وتنتخب . ويمكنك حتى ان تنتخب رئيسا ذات يوم .

وجعلتنى كلمة " رئيس " أشعر بعدم الارتياح . وحيث اننى فهمت ان علي الآن أن أعتزل الناس وأنتظر فرصتى ، قلت :

— لقد حسست منذ وقت طويل بأننى لا أحتاج الى بنود المعاملة التفضيلية، واننى مسرور بالغائها ، ولذا فانا موافق موافقة تامة على ما تقول . لم تكن عندى الحرية وانا أمبراطور ، أما الآن فقد وجدت حريتى .

وعندما أنهيت هذه الخطبة الصغيرة صفق لي جنود الجيش الوطنى الواقفون بالقرب منا .

ولم تكن جملتى الأخيرة كاذبة تماما . فقد كنت مرهقا من القيود التى أحاطنى بها الأمراء وكبار الموظفين . لقد أردت " الحرية " ، حرية تمكننى من تحقيق طموحى فى استعادة عرشى المفقود .

فى القصر الشمالى

بعد ان قلت هذه الكلمات الانيقة هرعت مارا بحرس الجيش الوطنى ودخلت البوابة الرئيسية للقصر الشمالى . وفيما جلست داخل مكتبة والذى بدا لي هذا القصر شبيها بحلق النمر ، وليس بقصر أميرى . وكان الشيء الأول الذى تعين علي ان أفعله هو أن أكتشف مدى خطورة وضعي . فقبل مغادرتى

المدينة المحرمة كنت قد بعثت برسائل الى أشد اعوانى ولاء خارج القصر أطلب منهم ان يفكروا بأسرع ما يمكن فى طريقة لانقاذى من قبضة الجيش الوطنى . وحتى الآن لم أسمع اى خبر عن نشاطاتهم ، كما انني لم أتلق أية أخبار أخرى عما كان يجرى فى الخارج . وأردت فى يأس ان يكون معى احد أحدثه بهذه الأمور ، حتى ولو لمجرد ان يسمعنى قليلا من كلمات التعزية ، وفى هذا الوضع كان والدي يمثل خيبة أمل كبيرة لي .

كان أكثر منى ذعرا وارتباكا . فمنذ الوقت الذى دخلت فيه الى القصر الشمالى لم يقف ولم يقعد ساكنا لحظة واحدة . وكان يتردد فى مكتبته متمتما مع نفسه ، او ويندفع داخلا خارجا فى انفعال يزيد من توتر الجو . ولما لم أعد قادرا على تحمل ذلك قلت له :

ــ يا سمو الأمير ، اجلس نتشاور فى الأمر ! يجب ان نفكر فى وسيلة ما للحصول على بعض الأخبار من الخارج .

ــ نفكر فى وسيلة ؟ طيب !

وجلس ، ولكن قبل ان تمضى على جلوسه دقيقتان وثب على قدميه وصاح :

ــ تساى شون لم يظهر كذلك !

وبدأ يخطو ثانية جيئة وذهابا .

ــ يجب ان نحصل على بعض الأخبار !

ــ نحصل على بعض الأخبار ؟ طيب !

وخرج وعاد ثانية بعد لحظة يقول :

ــ انهم لـ . . . لن يدعونا نخرج ! هنالك جنود عند البوابة الرئيسية !

ــ استخدم الهاتف اذن !

ــ الهاتف ؟ نعم ، نعم !

ولكن قبل ان يمشى بضع خطوات عاد ثانية يسأل :

ــ بمن سأتصل ؟

ورأيت ان الشيء الوحيد الذى سأفعله هو ان أطلب من الخصيان ان يحضروا لي كبار موظفى ادارة الأسرة . ولكن تبين ان رونغ يوان قد دخل المستشفى الأجنبى فى حالة اضطراب عصبى ، وتشى لينغ كان مشغولا بنقل ثيابى وممتلكاتى الشخصية الأخرى ويعالج أمر الخصيان وخادمات القصر ، وباو شى كان يعتنى بالزوجتين العليتين اللتين بقيتا فى القصر ، وشاو ينغ كان معى ، ولكنه كان فى نفس حالة والدي كما كان عاجزا عن اجراء أية محادثة هاتفية . ومن حسن الحظ ان الأمراء وكبار الموظفين الآخرين أتوا فيما بعد ، وكذلك المعلمون الخصوصيون ، ولو لا هذا لما عرفت مدى الاضطراب السيء الذى سيعم القصر الشمالى . وكانت أفضل الأخبار هى ما جلبه لي جونستون مساء : من خلال جهوده العاجلة قام كل من المفوض الهولندى اودنديجك ، عميد السلك الدبلوماسى ، والمفوض البريطانى ماكلى ، والمفوض اليابانى يوشيزاوا بتقديم " احتجاج " الى وزير الخارجية الجديد وانغ تشنغ تينغ " الدكتور وانغ "، فضمن لهم وانغ حياتى وممتلكاتى . وهذه الأخبار هدأت كل شخص داخل القصر الشمالى ماعدا والدي ، ذلك لان " الجرعة " بالنسبة له لم تكن كافية . وقد وصف جونستون ذلك المشهد فى كتابه « الشفق داخل المدينة المحرمة » :

استقبلنى فى قاعة استقبال كبيرة كانت غاصة تقريبا بالوجهاء المانشوبين وكبار موظفى ادارة الاسرة . . . وكانت مهمتى الأولى ان أعلن عن نتيجة زيارة المفوضين الثلاثة لوزارة الخارجية . وكانوا قد سمعوا من تساى تاو عن تشاور المفوضية الهولندية ذلك الصباح ، وكانوا بالطبع تواقين الى معرفة ما جرى فى مقابلة الدكتور وانغ . وأصغوا جميعا باهتمام الى ما قلته ، ماعدا الأمير تشون الذى كان خلال حديثى يتنقل فى أنحاء الغرفة بعصبية دون ان يكون لديه هدف واضح . وبعد ان فعل ذلك عدة مرات عجل خطوته فجأة ، وهرع نحوى ناطقا بضع كلمات نصف مفككة وبدت اللعثمة فى كلامه اوضح مما تكون

فى الوضع الطبيعى . وكان مضمون كلمته هو نفسها مثل كل مرة تكلم فيها : " اطلب من هوانغ شانغ (جلالة الامبراطور) ألا يكون خائفا " – هذه ملاحظة غير ضرورية نهائيا اذ بدا واضحا انه نفسه كان أشد ذعرا من الامبراطور . وبعد ان هرع الي أربع أو خمس مرات بنفس هذه الملاحظة التافهة ضقت به ذرعا وقلت : " جلالة الامبراطور هنا ، واقف بجانبى . لماذا لا تخاطبه مباشرة ؟ " ولكنه كان من الاضطراب بحيث لم ينتبه لفظاظة ملاحظتى ، واستأنف طوافه العشوائى .

وفى هذا المساء اغضبنى تصرف آخر من والدي . فبعد وصول جونستون بلحظات جاء تشنغ شياو شيوى مع يابانيين اثنين . (منذ "التبرع فى زلزال طوكيو " اقام اعوانى الأشد ولاء لي اتصالا مع المفوضية اليابانية ، وبعد ان جاء لوه تشن يوى وتشنغ شياو شيوى الى القصر أقاما هما كذلك صلات بالثكنة اليابانية .) وقد وضع تشنغ خطة مع العقيد تاكيموتو ، القائد اليابانى فى بكين ، تقضى بمجيء مساعد لتاكيموتو بثياب مدنية مع طبيب الى القصر الشمالى ليرافقنى الى الثكنة اليابانية متظاهرا بأنه أخذنى الى المستشفى . وعندما وصل تشنغ مع الضابط اليابانى والطبيب وشرح خطته قوبلت هذه الخطة بمعارضة اجماعية من الأمراء وكبار الموظفين والمعلمين الخصوصيين . ورأوا انه سيكون من الصعب جدا تهريبى من أمام الحراس الواقفين عند البوابة الرئيسية ، وحتى لو نجحت فى التخلص منهم سيكون خطر الجيش الوطنى فى الشوارع . واذا ما اكتشفنى أحدهم فان الأمور ستزداد سوءا . وكان والدي أكثر تشددا ، فقال موضحا ما لديه من أسباب : " حتى اذا وصل جلالته الى حى المفوضيات ، فان فنغ يوى شيانغ سيأتى ويسألنى عنه ، وعندها ماذا أفعل ؟ " وأخيرا انصرف تشنغ شياو شيوى وصاحباه اليابانيان .

وشددت القيود على بوابات القصر الشمالى فى اليوم التالى ، وسمح للناس بالدخول ولم يسمح لهم بالخروج . ثم خففت هذه القيود قليلا فى وقت لاحق ،

ولكن ظل السماح بالدخول والخروج مقصورا على معلمى الخصوصيين تشن باو تشن وتشو يى فان وكبار موظفى ادارة الأسرة ، أما الأجانب فقد منعوا من الدخول منعا باتا مما وسع نطاق الذعر فى القصر الشمالى : فعندما لا يكون لدى الجيش الوطنى احترام للأجانب فليس هناك ضمان للمستقبل اطلاقا . وفيما بعد بحث المعلمان الخصوصيان هذه المسألة منطلقين من القول انه لم توجد فى الماضى سلطة لا تخشى الأجانب وان وزير خارجية الحكومة ما دام قد أعطى تعهدا أمام ثلاثة من الدبلوماسيين الأجانب فمن غير المحتمل ان يختلف عن سابقيه . ومع ان تحليلهما لقى قبولا عاما ، الا اننى ظللت قلقا : من يدرى بماذا يفكر الجنود الواقفون على البوابة ؟ وتذكرت هذا القول المأثور :

حتى وان كان الأديب محقا ،
لا يمكنه الفوز على عسكرى فى النقاش !

فهل تجدى كلمة تعهد من الحكومة الموقتة لمنع الجنود الواقفين على مسافة بضع ياردات منى عن التحرش بنا؟ وكلما أمعنت فى التفكير بهذا الأمر ازددت خوفا . وندمت على اننى لم أذهب مع اليابانيين اللذين جلبهما تشنغ شياو شيوى ، ولعنت والدى لتفكيره فى مصالحه فقط على حساب سلامتى .

فى ذلك الوقت عاد لوه تشن يوى من تيانجين التى سافر اليها بالقطار الدولى (٢٤) ليحصل على المساعدة عندما كان فنغ يوى شيانغ يتولى أمر حراسة القصر . كان قد تلقى من ضابط ركن للحامية اليابانية فى تيانجين خبرا بالاستيلاء على المدينة المحرمة ، وطلب منه باسم قائد الحامية ان يذهب لرؤية دوان تشى روى . وفى الوقت نفسه تلقى دوان تشى روى برقية من تشنغ شياو شيوى يطلب فيها المساعدة ، ارسلت عن طريق العقيد تاكيموتو فى بكين . فبعث دوان تشى روى ببرقية يعارض فيها اجراءات فنغ يوى شيانغ " التعسفية " ازاء القصر . وعندما رأى لوه تشن يوى مسودة البرقية قدر انه مادام دوان تشى

روى سيعود الى المسرح السياسى فإن الوضع ليس بالغ الخطورة . على ان ذلك لم يمنعه من الطلب الى القيادة اليابانية فى تيانجين بأن تعلن رسميا " حماية " البلاط . وابلغته القيادة ان العقيد تاكيموتو فى بكين سيعالج الوضع . وعلى هذا الاساس كانت عودة لوه تشن يوى الى بكين ، حيث ذهب للقاء تاكيموتو وتلقى منه اشعارا بأن الخيالة اليابانيين يقومون بدورياتهم قرب القصر وان الثكنة اليابانية ستتخذ " اجراء فوريا " ضد اى تصرف من جانب الجيش الوطنى ، وأخبرنى تشن باو تشن أيضا ان الثكنة اليابانية ارادت ان ترسل بعض الحمام الزاجل الى القصر الشمالى بحيث يمكن استخدامه علامة انذار ، ومع اننا لم نقبل الحمام خوفا من ان يسمع الجيش الوطنى بذلك الا اننى شعرت بالامتنان لليابانيين أكثر من ذى قبل . وبسبب ذلك أحرز لوه تشن يوى مكانة عندى مساوية لمكانة تشنغ شياو شيوى وشعرت اننى أكثر ابتعادا عن والدي .

وعندما رأيت برقية دوان تشى روى المعارضة لاجراءات فنغ يوى شيانغ ازاء القصر وسمعت بأن جنود فنغ سوف يصطدمون بجيش فنغتيان بقيادة تشانغ تسوه لين زادت طمأنينتى . وفى الوقت نفسه جلب لي تشن باو تشن برقية سرية من دوان تشى روى أرسلت عبر الثكنة اليابانية فى بكين وتضمنت الجملة التالية : " سأدعم البيت الامبراطورى بكل قوتى وأحمى جميع ممتلكاته . " وبعد هذا خففت القيود على بوابات القصر الشمالى نوعا ما ، وسمح لكل واحد بالدخول من الأمراء وكبار الموظفين الى الدكتور هو شى ماعدا جونستون .

بعد ذلك بوقت قصير وصلت أخبار عن العلاقة بين تشانغ تسوه لين وفنغ يوى شيانغ اهتم بها القصر الشمالى اهتماما بالغا حيث قيل ان فنغ يوى شيانغ قد احتجز فى تيانجين لدى جيش فنغتيان التابع لتشانغ تسوه لين . وعلى الرغم من ان هذه القصة قد تكشفت فيما بعد عن مجرد اشاعة ، فقد اعقبتها أخبار أخرى كانت أكثر تشجيعا لأفراد القصر الشمالى : من ذلك

ان مجلس الوزراء الموقت برئاسة هوانغ فو والذى يدعمه جيش فنغ يوى شيانغ الوطنى قد ابلغ برفض الدبلوماسيين الأجانب دعوته اياهم الى مأدبة . وقد تفاؤل القصر الشمالى من هذا الحدث بأن أيام الحكومة الموقتة التى لم أستطع ان أعايشها قد أصبحت معدودة ، وانه سيحل محلها دوان تشى روى الذى كان أكثر اتصالا بحى المفوضيات ، ولا سيما المفوضية اليابانية . وجاءت أخبار اليوم التالى لتؤكد تقرير لوه تشن يوى : فنغ يوى شيانغ اضطر الى قبول اقتراح تشانغ تسوه لين وسمح لدوان تشى روى بالعودة الى الحياة السياسية . وخلال بضعة أيام جاء كل من تشانغ تسوه لين ودوان تشى روى الى بكين .

وغيرت أخبار التحالف بين دوان تشى روى وتشانغ تسوه لين الجو داخل القصر الشمالى . وكان أول شيء فعله الأمراء هو كتابة رسالة سرية الى تشانغ يطلبون فيها منه الحماية . وبعد ان دخل هو ودوان العاصمة أرسل الأمراء ممثلين عنهم مع تشنغ شياو شيوى للترحيب بهما ، ثم قاموا بنشاطات كل على حدة . فأرسلوا تشنغ شياو شيوى لزيارة دوان تشى روى ، وأرسلوا قهرمان القصر الشمالى لزيارة تشانغ تسوه لين أخيه بالمؤاخاة . والشيء الذى سر القصر الشمالى أعظم سرور هو الدعوة التى أرسلها تشانغ الى جونستون يطلب منه ان يحضر ليراه . وكان هدف تشانغ من دعوة جونستون هو ان يستطلع منه موقف حى المفوضيات ازاءه ، بينما امل القصر الشمالى ان يتعرف موقف تشانغ نحوى من خلال جونستون . وأعطيت جونستون صورة لي موقعة وخاتما ذا ماسة كبيرة ليقدمهما الى تشانغ تسوه لين ولكنه قبل صورتى ورد الخاتم معبرا عن تعاطفه . وفى الوقت نفسه نوه دوان تشى روى الى تشنغ شياو شيوى بأنه يمكن ان يفكر فى اعادة بنود المعاملة التفضيلية . ومع " التعاطف " من حى المفوضيات والدعم من هذين الرجلين تجرأ القصر الشمالى على شن " هجوم معاكس " رغم ان قوات فنغ يوى شيانغ كانت ما تزال فى بكين .

وفى ٢٨ نوفمبر ، اليوم الذى تلا انسحاب جنود الجيش الوطنى من البوابة الأمامية للقصر الشمالى وابراق فنغ يوى شيانغ بالاستقالة ، ارسل القصر الشمالى رسالة رسمية الى وزارة الداخلية باسم ادارة الأسرة تقول :

. . . . . . تبعا لاحكام المبادىء القضائية المطبقة فى القانون الجنائى ، يعتبر كل من يستخدم العنف لاكراه الغير على القيام بعمل ما مسئولا عن نتائج افعاله ، وتبعا لمبادىء القانون المدنى ، لا يعتبر شرعيا كل ما يتم إبتزازه بالعنف او الارهاب . اننا نوضح رسميا فى هذه الرسالة ان بيت تشنغ لا يسعه التسليم بشرعية البنود الخمسة المعدلة التى فرضها عليه مجلس الوزراء المؤقت . . . . . .

ونشر القصر الشمالى فى نفس الوقت الرسائل التى تلتمس دعم المفوضين الأجانب وتوقف كذلك عن الاعتراف بـ "لجنة معالجة شؤون بيت تشينغ" على الرغم من ان بيت تشينغ كان قد أرسل ممثلين عنه للاشتراك فى اجتماعاتها .

وفى ذلك اليوم قابلنى مراسل للصحيفة اليابانية "شونتيان تايمز" (صحيفة مدعومة من المفوضية اليابانية كانت تؤيدنى علنا وتنشر قصصا ساخرة عن عملية طردنا من القصر) ، فصرحت له بشىء آخر مناقض تماما لما قلته يوم اخراجى من القصر :

— اننى بالتأكيد لم أوافق مسرورا على التوقيع على الوثيقة فقد اجبرنى عليها جنود الجيش الوطنى متظاهرين بأنهم يفعلون ذلك باسم الشعب . . . . . .

قرار عند مفترق الطرق

مع ان الاهتياج قد عم جميع سكان القصر الشمالى الا ان آراءهم اختلفت حول ما يجب ان نفعله . وقد اوضح جينغ ليانغ فى مقالة كتبها فى "يوميات الانقلاب" ما يلى :

اظهر دوان تشي روى وتشانغ تسوه لين بعد دخولهما العاصمة مشاعرا ودية نحوئا ، لكنها كانت مجرد مشاعر . وقد انخدع الجميع بأن العودة الى القصر وشيكة . ولما تبين انهم خلاف ذلك تباينت آراءهم . فهناك من قال يجب ألا نسمح بتغيير كلمة واحدة من بنود المعاملة التفضيلية الأصلية ، ومن قال يجب ان يعود الامبراطور الى القصر ويعاد اليه لقبه الجليل ، ومن قال يجب ان يغير لقبه الى لقب الامبراطور المتقاعد ، ومن قال ان النفقة السنوية يمكن ان تخفض ، ولكن يجب الحصول على ضمانات أجنبية ، ومن قال يجب ان ينتقل الامبراطور الى القصر الصيفى ، وبعضهم قال بوجوب شراء منزل فى القسم الشرقي من العاصمة . ولكن حيث ان السلطة الحقيقية فى أيدى الآخرين فان كل هذه الخطط كانت مجرد أحلام : لا أدرى ما الذى دفعهم الى ان يفكروا بهذه الطريقة .

لقد اقتلعتنى عاصفة ٥ نوفمبر ١٩٢٤ من المدينة المحرمة وألقتنى عند مفترق طرق ثلاثة . احدها ان اطبق ما اقترحته البنود المعدلة : فأتخلى عن لقبى الامبراطورى وطموحاتى القديمة واعيش "مواطنا عاديا" ذا ثروة طائلة واراضى واسعة . والثانى ان أحاول الحصول على مساعدة "انصارى" لالغاء البنود الجديدة ، واعادة البنود القديمة بكاملها ، واستعيد لقبى ، واعود الى القصر لأستأنف حياتى السابقة . والمسلك الممكن الثالث وكان اكثرها التواء : ان اذهب الى الخارج اولا ومن ثم اعود الى المدينة المحرمة — المدينة المحرمة كما كانت قبل ١٩١١ . وفى لغة ذلك الوقت كان هذا المسلك يعنى "استخدام سلطة اجنبية للتخطيط من اجل اعادة الملكية" .

وانهمك المحيطون بى فى نقاشات طويلة حول مزايا الخيارات الثلاثة ، او الاثنين بالاصح ، لان الاول لم يجد عندهم كبير اعتبار ، وقد تركز النقاش حول ما اذا يجب ان امكث فى القصر الشمالى ام الجأ الى حى المفوضيات ؟ فأيد فريق يقوده والدي مكوثي فى القصر الشمالى لكنهم اصطدموا باصرارى على الخروج من القصر . ومع انه لم تكن لدي افكار محددة

بخصوص مستقبلي ، الا ان شيئا واحدا كان واضحا فى ذهنى من اللحظة التى اجتزت فيها مداخل القصر الشمالى : ان أغادر هذا المكان مهما كلف الأمر فانا لم اخرج من المدينة المحرمة لكى اقيم في قصر مصغر محفوف بالمخاطر .

وفى هذه المرحلة ظهر مؤيد جديد لذهابى الى الخارج هو صديقى القديم الدكتور هو شي ، الذى لم يمض وقت طويل حتى رأيت فى الصحف رسالة مفتوحة منه الى وزير خارجية الحكومة الموقتة شتم فيها الجيش الوطنى وعبر عن " سخطه " على تعديل بنود المعاملة التفضيلية تحت " التهديد العسكرى " . ومع ان معلمى الخصوصى تشن باو تشن كان مايزال يعتبره خسيسا ، الا ان تشنغ شياو شيوى صادقه ، كما أن بعض كبار موظفى اسرة تشينغ رأى انه افضل على اية حال من الثوريين ومن الجيش الوطنى . فرحبت به وأشدت برسالته المفتوحة . وهاجم الجيش الوطنى قائلا : " فى نظر اوروبا وامريكا تعتبر هذه كلها بربرية شرقية ! "

ان زيارة هو شي لم تكن مجرد زيارة مجاملة ، فقد جاءت من " اهتمامه " بى . وقد سألنى عما لدي من خطط للمستقبل ، فأجبت بأن الأمراء والموظفين كانوا يعملون من اجل اعادة الملكية ولكننى لم اكن مهتما بذلك لاننى رغبت فى ان اعيش حياة مستقلة واكتسب بعض المعرفة فناد برأسه وقال :

— ان لدى جلالتكم مثلا سامية . . بعد زيارتى الأخيرة الى القصر قلت لأصدقائي ان لدى جلالتكم مثلا سامية .

— أريد ان أذهب للدراسة فى الخارج ولكن هناك صعوبات كثيرة جدا .

— هناك صعوبات بالطبع ، ولكنها لن تكون بالغة الخطورة واذا ذهبتم الى انكلترا فان السيد جونستون يمكن ان يدبر كل شيء وان تعترضكم أية متاعب فى ايجاد أناس يساعدونكم اذا ذهبتم الى أمريكا .

— ان الأمراء وكبار الموظفين لن يدعونى أخرج ؛ ولا سيما سمو

الأمير والدى .

ـ هذا ما قاله جلالتكم فى زيارتى الأخيرة للقصر . أعتقد انه لابد لكم من اتخاذ اجراء حاسم .

ـ لست متأكدا ان كانت السلطات الجمهورية ستسمح لي بالخروج .

ـ هذه ليست مشكلة . ان الشيء المهم هو ان يتخذ جلالتكم قرارا حازما .

ومع اننى شعرت ببعض التحفظات ازاء هذه " الشخصية العصرية " ، الا ان ملاحظاته شجعتنى . لقد جعلنى أتأكد من ان خطتى فى الذهاب الى الخارج ستلقى تأييد عدد كبير من الناس ، وجعلنى كذلك أشعر بمزيد من السأم من الأمراء وكبار الموظفين الذين كانوا معارضين لفكرة خروجى .

وشعرت ان أولئك الذين أرادوا العودة الى حياتهم السابقة داخل القصر لم يريدوا ذلك الا حرصا على ألقابهم السامية . والذى مكنهم من اطعام عوائلهم لم يكن الامبراطور بل البنود . ففى ظل النظام القديم وحده يمكنهم ان يواصلوا اشغال وظائفهم العاطلة المربحة ويواصلوا سحب المنح من الحكومة .

وعاد الي جونستون بعد لقائى مع هو شى ونقل الي اهتمام تشانغ تسوه لين بى . ورأيت ان هو شى كان مصيبا فى قوله ان السلطات لن تمنعنى من الذهاب الى الخارج . وفيما كنت أنا وجونستون نتناقش فى كيفية تدبير هذا الأمر أشار تشانغ تسوه لين الى انه سيرحب بذهابى للاقامة فى الشمال الشرقى . فرأيت انه يمكن ان يكون من الخير ان أمضى بعض الوقت فى الشمال الشرقى أولا ، اذ بمجرد وجودى هناك سأكون قادرا على الذهاب الى الخارج متى أردت . ولكن ما ان توصلت الى هذا القرار حتى برزت مشكلة جديدة .

كان الجو قد أصبح أكثر استرخاء بعد انسحاب حرس الجيش الوطنى عن البوابة ، وأصبحت انا أكثر اندفاعا فى شتم الجيش الوطنى امام الصحفيين كما ذكرت آنفا . ومن ثم ظهر تشنغ شياو شيوى وسألنى ان كنت قد قرأت

الصحف ام لا .

— قرأتها ، ولكن ليس فيها الكثير من الأخبار .

— يا جلالة الامبراطور ، انظروا الى صحيفة « شونتيان تايمز »

وأطلعني على عنوان رئيسي يقول : " الحمر يؤيدون حكم الشعب لنفسه " . وجاء في هذا الخبر انه منذ دخول قوات فنغ يوى شيانغ الى العاصمة بدأ " الحمر " نشاطاتهم ، وانه ظهرت مؤخرا عشرات الالوف من المنشورات تؤيد " حكم الشعب ، لا الحكومة . الحرية ، لا القوانين " وما الى ذلك . وغالبا ما كان يخبرني تشنغ شياو شيوى وجونستون وغيرهما او أقرأ في صحيفة « شونتيان تايمز » ان الشيوعيين حمر ومتطرفون وان الشيوعية تعني " فيضانات هائلة ووحوش مفترسة " كما تعني اشاعة الاموال والنساء ، وسمعت أيضا ان جيش فنغ يوى شيانغ له صلات بـ " الحمر " و " المتطرفين " وغير ذلك من القصص المتعددة . والآن وضح لي تشنغ شياو شيوى ان البلاد على شفا ثورانات عنيفة وان الحمر سيفتكون بي حتما .

واصبحت أشد ذعرا من السابق عندما دخل علي لوه تشن يوى وعلى وجهه ملامح الاستياء . وكنت دائما أعلق أهمية كبيرة على الأخبار التي يحصل عليها لوه من مصادر يابانية . وهذه المرة أبلغني ان اليابانيين قد سمعوا من مخابراتهم ان فنغ يوى شيانغ و " الحمر " يخططون لعمل ضدي ، وقال : " ان قوات فنغ الآن تحتل القصر الصيفي ، وان شيئا ما قد يحدث خلال اليوم او اليومين التاليين . وينبغي لجلالتكم ان يغادر هذا المكان بأسرع ما يمكن ويلجأ الى حي المفوضيات . "

وعاد جونستون بعدها بخبر من الصحافة الأجنبية يقول ان فنغ يوى شيانغ سيقوم بحركة جديدة ضد بكين . ولم أعد عندها قادرا على كبح قلقي . وحتى تشن باو تشن كان في ذعر شديد بحيث وافق على الاقتراح القائل بوجوب لجوئي الى حي المفوضيات مادامت قوات فنغ يوى شيانغ خارج القصر

الشمالى . واقترح ان أدخل المستشفى الألمانى اولا لان هناك طبيبا من معارفي . وتناقشت انا وتشن باو تشن وجونستون فى هذه الخطط سرا على ان تظل مخفية لا عن السلطات الجمهورية وحدها بل عن والدي أيضا .

وعملنا بموجب هذه الخطط السرية ونفذنا المرحلة الاولى : ذهبت مع معلمى الخصوصى تشن باو تشن لزيارة الزوجتين العليتين اللتين كانتا قد خرجتا من القصر بعد خروجى ببضعة أيام وأقامتا فى زقاق تشيلينبى ، ثم عدت الى القصر الشمالى . وهذه الخطوة كانت من أجل جعل القصر الشمالى يشعر باننى أهل للثقة . وقررنا ان تنفذ المرحلة الثانية فى اليوم التالى . وكان علي ان أقول اننى ذاهب لتفتيش منزل كنا نعتزم استئجاره فى زقاق بياوبى . ومن ثم أتسلل الى حى المفوضيات وأدخل المستشفى الألمانى . وبمجرد وصولى حى المفوضيات ستكون المرحلة الثالثة والرابعة ، وهى التحاق وان رونغ وون شيو بي ، فى غاية السهولة . ولكن بعد ان صعدنا السيارتين وأوشكنا على التحرك فى المرحلة الثانية أرسل والدي قهرمانه الرئيسى لمرافقتنا . وركبت فى السيارة الاولى مع جونستون . وركب القهرمان خلف تشن باو تشن فى السيارة الأخرى .

وقطب جونستون عند صعوده الى السيارة وقال بالانكليزية :

ــ ازعاج .

فقلت :

ــ لا تأبه له !

وطلبت من السائق ان يتحرك ، وخرجنا من القصر الشمالى . ولم أرغب قط فى دخول هذه البوابات مرة ثانية .

رأى جونستون ان ليس بامكاننا تجاهل القهرمان وان علينا ان نفكر فى طريقة للتخلص منه . وجاءتنا فكرة نيرة فقررنا ان تقف سيارتنا عند متجر أجنبى لنتظاهر بأننا نشترى شيئا ما ثم نعيده بالسيارة الأخرى .

وكان عند مدخل حى المفوضيات محل لبيع ساعات اليد والساعات المنبهة

والكاميرات يديره أجانب . وعندما وصلنا المحل دخلت اليه مع جونستون . وتلفت ، ثم اخترت ساعة جيب فرنسية . ولكن على الرغم من اننى تعمدت ان أتأخر فى المتجر وقتا طويلا ، الا ان القهرمان ظل ينتظر فى الخارج وبدا واضحا انه لا ينوى المغادرة . فاضطر جونستون الى استخدام سهمه الأخير وأخبر القهرمان بأننى أشعر ببعض التعب وسأزور المستشفى الألمانى . فداخله الشك وتبعنا الى هناك ، ولكن بمجرد وصولنا دفعناه جانبا . وأخبر جونستون الدكتور ديير عن سبب مجيئى وأدخلنى الى ردهة خالية لأستريح . ولما رأى القهرمان ان فى الأمر شيئا اختفى حالا . وعرفنا انه لابد ان يعود من فوره الى القصر الشمالى ويبلغ والدي ، لذلك لم يضيع جونستون الوقت للتفاوض مع المفوضية البريطانية . ومضى الوقت دون ان تصلنى منه أخبار ، فأصبحت فى غاية القلق ، خائفا من ان يعود القهرمان بوالدي . وعندها تماما وصل تشن باو تشن متبوعا بتشنغ شياو شيوى . وقد وصف تشنغ شياو شيوى في يومياته ما جرى حينذاك على النحو الآتى :

لقد شجعت جلالته على ان يذهب الى المفوضية اليابانية ، وأمرنى هو ان أذهب وأخبر اليابانيين . لذلك زرت العقيد تاكيموتو ، وأخبرته بوصول الامبراطور ، وهو بدوره أبلغ السيد يوشيزاوا بذلك . وطلب منى تاكيموتو بعد ذلك ان أدعو الامبراطور للقدوم الى المفوضية فورا . وكانت ريح شديدة تعصف حينذاك والسماء محجوبة برمل أصفر ، فلم يكن بوسع المرء ان يرى الا فى حدود بضع خطوات أمامه . وعندما عدت الى المستشفى خشيت ان يعصى السائق الأوامر ، ولذا نصحت جلالته ان يخرج فى عربتى . وخشيت من كثرة الناس خارج المدخل الأمامى للمستشفى ، فأخذت العربة الى الباب الخلفى ففتحه طبيب ألمانى ودلتنا ممرضة معه على الطريق ، ثم صعدنا انا والامبراطور الى العربة يرافقنا خادم . وكانت المسافة بين المستشفى الألمانى والمفوضية اليابانية حوالى لى واحد (نصف كيلومتر) ، وكان هناك طريقان يؤديان الى المفوضية اليابانية ، أحدهما يبدأ من الشرق الى الغرب عبر حى

المفوضيات وينعطف شمالا ، والآخر يجتاز شارع تشانغآن (٢٥) بطوله وينعطف جنوبا . وطلبت من الحوذى ان يرجع الى المفوضية اليابانية . ولما كان الطريق الثانى أقصر بقليل ، فقد دخل فى شارع تشانغآن . فصاح جلالته فى ذعر : " لماذا جئنا فى هذا الطريق ؟ هناك بوليس صينى فى الشارع . " وفيما كانت العربة ماضية فى سرعة كبيرة قلت : " سنصل بعد لحظة . لا أحد يمكن ان يعرف ان هذه العربة تضم امبراطورا . أرجو من جلالتكم ألا يكون مذعورا . "

وعندما انعطفنا جنوبا على طول ضفة الجدول ، المحاذى لحى المفوضيات ، كنت قادرا على ابلاغ الامبراطور باننا أصبحنا داخل الحى ، ومن ثم وصلنا الى المفوضية اليابانية . وكان تاكيموتو فى استقبال الامبراطور فأخذه الى الثكنة حيث انضم الينا تشن باو تشن .

وكان تشنغ شياو شيوى مسرورا غاية السرور بالدور الذى لعبه فى هروبى ، وقد نظم قصيدتين ورسم صورة رمزية لاحياء ذكرى هذه المناسبة . وكان السبب الرئيسى فى ارتياحه الشديد انه تغلب على منافسه السرى لوه تشن يوى الذى لم تتح له فرصة النهوض بهذه المهمة وفقد بذلك صلاته القديمة بالعقيد تاكيموتو بعد ان نشلها منه تشنغ بخفة . وكان التنافس بين هذين الرجلين فى البداية مختفيا وراء صراعهما المشترك ضد الأمراء ، ثم اسفر عن نفسه منذ هذه اللحظة .

فى كتاب « الشفق داخل المدينة المحرمة » صحح جونستون خطأ ورد فى وصف تشنغ للهروب الى حى المفوضيات . فقد ذكر تشنغ ان العقيد تاكيموتو قد حصل على موافقة المفوض اليابانى قبل ان يستقبلنى لي فى الثكنة ، اما فى الواقع فان العلاقة بين الموظفين العسكريين والمدنيين فى المفوضية اليابانية لم تكن على مايرام . وكان تاكيموتو لا يرغب لضيفه ان يؤخذ منه ولذلك لم يبلغ المفوض الياباني بالأمر .

لكنى لم ابق مع تاكيموتو ، فحالما سمع المفوض اليابانى بوصولى الى الثكنة دعانى للانتقال الى المفوضية فلبيت الدعوة .

من حى المفوضيات الى منطقة الامتيازات

كان "حى المفوضيات" و"مناطق الامتيازات الأجنبية" فى تلك الأيام أماكن "مضيافة" . فقبل سبع سنوات أجبر تشانغ شيون الرئيس لى يوان هونغ على اللجوء الى احدى المفوضيات ، وذلك عندما أصبحت امبراطورا للمرة الثانية ، وتشانغ شيون نفسه أصبح " ضيفا " لدى المفوضية الهولندية بعد ذلك ببضع سنوات . وكلما استعدت احدى المفوضيات لاستقبال ضيوف من هذا القبيل ازدحمت الفنادق والمستشفيات فى ذلك الحى ازدحاما شديدا . وكان كثير من الخائفين الذين لا تمكنهم منزلتهم المتدنية من الدخول الى مفوضية يملأون هذه الأماكن حتى ان بعضهم حجز مكانا له تحت السلم .

وكان استقبالى هناك هو الاول وربما الأخير من نوعه . وعندما أرسلت فى احضار زوجتى من القصر الشمالى لم يسمح لهما البوليس الجمهورى بالخروج ، فأرسلت المفوضية اليابانية سكرتيرا لمعالجة هذا الأمر . وعندما ذهبت جهود السكرتير عبثا ذهب المفوض اليابانى لرؤية الرئيس التنفيذى دوان تشى روى نفسه ، ونتيجة لذلك لحقت بى وان رونغ وون شيو مع ما لديهما من خصيان ووصيفات .

ولما رأى المفوض اليابانى حجم حاشيتى تأكد من ان ثلاث غرف لن تكفى لاستيعابنا ، فأخلى لنا مبنى كاملا . وكان فيه غرفة لكل واحد ، من مرشدى المكتبة الجنوبية وكبار موظفى ادارة الأسرة الى عشرات الاتباع والخصيان والوصيفات والخادمات ومساعدى الطهاة . واستأنفت مكاتب امبراطور أسرة تشينغ العظيمة عملها مرة أخرى داخل المفوضية اليابانية .

والأهم من ذلك ان يوشيزاوا أقنع الحكومة الموقتة ان تتخذ منى موقفا متفهما ، فارسات وبالاضافة الى ما قامت به من شرح اوجهات نظرها ليوشيزاوا مبعوثا لزيارة العقيد تاكيموتو وكررت له قولها : " ان الحكومة الموقتة عندها كل النية لاحترام رغبة الامبراطور المتقاعد فى الحرية ، وستبذل كل ما فى الممكن لتحمى حياته وممتلكاته وأتباعه . "

وجاءت الي مجموعة من الأمراء برئاسة والدي لاقناعى بالعودة الى القصر الشمالى . وقال ان الجو الآن آمن لان وجود دوان تشى روى وتشانغ تسوه لين فى العاصمة يحد من اندفاع الجيش الوطنى ، واضافة الى ذلك قدم دوان وتشانغ ضمانات لسلامتى . ولكننى صدقت لوه تشن يوى وغيره ممن قالوا ان هذه الضمانات لم تقدم ، ثم اننى دخلت المفوضية ، واذا ماعدت الى القصر الشمالى والجيش الوطنى مايزال فى بكين فلن تكون للضمانات أية فاعلية . ورفضت ان أعود . وكان الأمراء فى الحقيقة يبحثون لأنفسهم عن أماكن للاقامة فى حي المفوضيات فى ذلك الوقت .

هذه الحماسة التى استقبلتنا بها المفوضية اليابانية دفعت كثيرا من كبار الموظفين السابقين فى أسرة تشينغ الذين لم يكونوا معروفين لي سابقا الى القيام بنشاطات . فأرسلوا برقيات من كافة أنحاء البلاد يطلبون فيها من الرئيس التنفيذى دوان تشى روى اعادة بنود المعاملة التفضيلية الأصلية ، وأرسلوا الي اموالا لتغطية نفقاتى ، وبعضهم حضر الى بكين ليقدم احتراماته لي ويعرض علي خططا لاعادة الملكية . وبعض الأمراء المغول تصرف كأنما شرب المنشطات ، فطير برقيات دوارة وأرسل عرائض الى الحكومة الموقتة يطلب معرفة ما سيحدث بخصوص بنود المعاملة التفضيلية . وأجابت الحكومة الموقتة بأنها ستستمر دون تغيير . واتخذ الأمراء وكبار الموظفين موقفا أشد فرفضوا الاشتراك فى اجتماعات " لجنة معالجة شؤون بيت تشينغ " . وهذه اللجنة التى تشكلت منذ وقت غير طويل كان عليها ان تنظم جردا بممتلكات بيت تشينغ وتقسمها الى خاصة

وعامة . واستمر شاو ينغ وغيره من أعضاء اللجنة من أسرة تشينغ فى رفضهم الحضور مبلغين السلطات علنا انهم لا يعترفون بهذه اللجنة .

وأخذ الكثير من كبار الموظفين السابقين فى أسرة تشينغ يحضرون الى المفوضية اليابانية كل يوم ليظهروا استقامتهم ويقدموا لي احتراماتهم ويقدموا الأموال ويشرحوا " الخطط الكبيرة لاعادة الملكية " .

وفى عيد رأس السنة الصينية غصت قاعة الاستقبال عندى بالضفائر ، وجلست مواجها الجنوب على الطريقة الامبراطورية فوق كرس غربى الطراز قام مقام العرش واستقبلت المهنئين .

وأبدى الكثير من كبار الموظفين السابقين امتنانهم للمضيفين اليابانيين . ورأوا فى الحفاوة التى لقيتها لدى المفوضية ما يبعث على الأمل ، وقد كتب أحدهم ، وانغ قوه وى ، فى احدى مذكراته ان " المفوض اليابانى . . . لم يأخذ فى اعتباره عظمة جلالتكم السابقة فحسب ، بل ينظر اليكم على أنكم حاكم الصين القادم ، فكيف يمكن لأتباعكم وموظفيكم ألا يكونوا ممتنين ؟ "

وبعد ثلاثة عشر يوما من رأس السنة الصينية حل عيد ميلادى العشرون (وفقا للتقويم الصينى) (٢٦) . ونظرا الى اننى كنت فى منزل غريب فلم أعتزم الاحتفال به ، ولكن مضيفى كان مصمما ان يفرحنى ، فقدم لي القاعة الرئيسية فى المفوضية لأستقبل فيها المهنئين . وفرشت القاعة فى هذه المناسبة بالسجاد الفاخر ، وأقيم خلف الاريكة المزودة بوسادة صفراء ، والتى قامت مقام العرش ، حاجب زجاجى مغطى بورق أصفر . واعتمر جميع الغلمان بقبعات تشينغية كبيرة ذات شراريب حمر . وجاء أكثر من مائة موظف من كبار الموظفين السابقين فى أسرة تشينغ من عدة مدن كبيرة لحضور الاحتفال ، كما حضره أعضاء من السلك الدبلوماسى وكذلك الأمراء وكبار الموظفين وكبار الموظفين السابقين المحليين فى أسرة تشينغ ، ووصل مجمل الحاضرين الى أكثر من ٥٠٠ شخص .

ولبست ثوبا حريريا أزرق وسترة من الديباج الأسود ، ولبس جميع الأمراء وموظفي البلاط وكبار الموظفين السابقين فى أسرة تشينغ نفس الطراز من الثياب . وبالاضافة الى ذلك كانت الأعراف الاحتفالية هى نفسها التى كانت فى القصر . واتحدت الضفائر مع الصفرة الامبراطورية والركوعات التساعية لتبعث فى نفسى مشاعر الألم والاكتئاب الشديدين . وبعد انتهاء المراسم ارتجلت خطابا نشر فى صحافة شانغهاى بصورة غير مضبوطة عدا الجزء الأخير منه ، الذى اثبت نصه فيما يلى :

نظرا الى اننى شاب فى العشرين فليس من الصواب ان أحتفل بـ " حياة مديدة " ، لا سيما واننى غير متحمس للاحتفال وسط الصعوبات الحالية ، وانا ضيف تحت سقف غريب ، ولكن مادمتم قد جئتم من مكان بعيد فانى أود ان اغتنم هذه الفرصة لأقابلكم وأتحدث اليكم . اننى مدرك تماما انه لايمكن ان يظل فى العالم الحديث أباطرة ، وقد قررت ألا أجازف بأن أكون واحدا من الأباطرة . ان حياتى معزولة داخل الأسوار العالية كانت عبارة عن حياة سجين ، ولم أشعر بأى سرور فى افتقارى لحريتى . منذ فترة طويلة وانا أحمل بين جنبي طموحا فى الذهاب الى الخارج ، وقد درست الانكليزية باجتهاد ودأب من أجل هذا الهدف ، ولكننى كنت أواجه قيودا كثيرة لم تمكنى من تحقيق آمالى .

ان استمرار بنود المعاملة التفضيلية او الغاءها يبدو ان لي مسألة ليست بذات أهمية . ولو اننى ألغيتها تلقائيا لكان ذلك مقبولا ، ولكن من غير المحتمل ان أفعل ذلك مكرها . لقد كانت البنود اتفاقية ثنائية ولا يمكن ان تغير بمرسوم من أحد الفريقين ، ناهيكم عن انها اتفاقية ذات صفة دولية . لقد كان ارسال فنغ يوى شيانغ قواته الى القصر انتهاكا للقانون مجردا من أبسط المشاعر الانسانية على حين ان المسألة كان من الممكن حلها عن طريق التفاوض . لقد كانت عندي منذ وقت طويل رغبة صادقة فى عدم استخدام ذلك اللقب الفارغ ، ولكن اجبارى على التخلى عنه بالقوة المسلحة جعلنى أشعر

بالاستياء البالغ . ان تصرفات همجية كهذه تلحق من وجهة نظر الجمهورية ضررا كبيرا ينال اسمها وسمعتها .

اما عن الدوافع الكامنة وراء طردى من القصر فلن أتكلم شيئا . لعلها معروفة لديكم . ولما كنت عاجزا كليا فانه لم يكن انتصارا عسكريا من جانب فنغ يوى شيانغ ان يفعل ضدى ما فعله ، وانه لمن الصعب ان أصف الخوف المذل الذى تعرضت له بعد مغادرتى القصر . وحتى لو كان محقا فى طردى ، لماذا احتجز جميع ملابسى والزهريات والتخطيطات والكتب التى خلفها أسلافى ؟ لماذا لم يسمح لنا بأخذ طاسات الأرز وأكواب الشاى وأدوات المطبخ التى كانت تستخدم يوميا ؟ أكانت هذه مسألة " حفظ التحف " ؟ أكانت تلك الأدوات ذات قيمة تذكر ؟ اننى لاأعتقد بأنه كان سيتصرف بهذه القسوة حتى فى تعامله مع قطاع الطرق .

وعندما يقول ان اعادة الملكية عام ١٩١٧ قد أبطلت بنود المعاملة التفضيلية فعليه ان يذكر اننى لم أكن وقتها الا صبيا فى الثانية عشرة وغير قادر على تنظيم العملية بنفسى . ولكن لندع هذه المسألة جانبا ، هل كان يدفع ما يسمى بـ " الاعانة المالية السنوية " فى موعدها المحدد منذ ان وقعت البنود ؟ هل كان يدفع للأمراء والنبلاء الرواتب المنصوص عليها فى هذه البنود ؟ هل كانت تدفع نفقات معيشة المانشويين كما ينبغى وفقا للبنود التى تنص على المعاملة التفضيلية ؟ ان مسؤولية الغاء البنود تتحملها الجمهورية ، لكنها لا تريد الاقرار بمسئوليتها فى ذلك ، متذرعة بحركة اعادة الملكية لعام ١٩١٧ . أليس هذا منتهى الاجحاف ؟

اننى لا أود ان أشكو ، ولكننى لا أستطيع ان أدع هذه الفرصة تفوت دون ان أكشف عما يعتمل فى قلبى من أسى ، حتى اذا ما سمع برلمان الجمهورية بذلك وكان لديه أدنى شعور انسانى فلعله يحس بأن هذه المسألة يجب ان تحل حلا عادلا . وسأقبل بحل كهذا دونما اعتراض .

ولدي اعلان آخر هام أود ان أصرح به . اننى لن أوافق أبدا على أى اقتراح يقول بوجوب طلبى تدخلا أجنبيا ، فانا لا يمكن أبدا ان أستخدم سلطة أجنبية للتدخل فى الشؤون الداخلية للصين . . . .

فى الفترة ما قبل الاحتفال بعيد ميلادى وبعده كانت الصحف ملأى بالتهجمات على جماعتى ، بشكل يعكس سخط الغالبية العظمى من أبناء الشعب . وظهرت احتجاجات عنيفة عندما نشرت "لجنة معالجة شؤون بيت تشينغ" أشياء مثل حاشية بنود المعاملة التفضيلية التى كتبها يوان شى كاى عندما كان امبراطورا ووثائق عن اساليب ادارة الأسرة فى رهن او بيع ونقل كنوز القصر . ولكن الذى سبب أشد السخط هو الاتصالات بين البلاط الصغير واليابانيين ومحاولات كبار الموظفين السابقين فى أسرة تشينغ اعادة البنود . وقد ظهرت فى بكين "عصبة مناهضة المعاملة التفضيلية لبيت تشينغ" ، وبدأت تقوم بنشاطات فعالة ضد بيت البلاط الصغير . وقد عبرت الصحافة عن استياء الرأى العام بطرق مختلفة : كتابات هجائية قصيرة ، اتهامات مباشرة ، نصائح وتحذيرات للمفوضية اليابانية والسلطات الجمهورية . وعندما أنظر اليها اليوم أتبين كم كانت حياتى ستختلف لو اننى قبلت بأى واحد من هذه الانتقادات . وقد كشفت بعض المقالات عن مؤامرات اليابانيين ، واعيد هنا نشر جزء من احدى هذه المقالات التى نشرت فى صحيفة بكين اليومية وهى تصف المؤامرات التى كان يدبرها اليابانيون لصالحي بشكل مقارب جدا لما حدث فيما بعد ، وانها لتجفلنى اذ أقرأها اليوم :

وأسوأ جزء فى المؤامرة هو الابقاء عليه الى ان تقع حادثة فى مقاطعة هامة، وعندها ترسله دولة ما الى هناك مع حماية مسلحة لاحياء لقب أسلافه القدماء . والمقاطعة ستنفصل عن الجمهورية وستتلقى حماية تلك الدولة . والخطة الثانية ستتم معالجتها بنفس الطريق حيث سيتم الالحاق بدولة ما . . .

ان ذعر بو يى وهربه كانا نتيجة فزع تعمد اظهاره أناس معينون . ولقد وقع فى فخهم الذى كان جزءا من تدبير طويل المدى خطط له فى وقت سابق . . . وانهم فى معاملتهم الحالية له عازمون على تزويده بكل شيء مهما كلف ذلك ، لقد عاملت الدولة المعنية أتباعه على خير وجه ، فوقعوا تحت سيطرتها دون ادراك منهم انهم سيغدون أدواتها فى المستقبل .

هذه الكلمات الصادقة بدت لي فى ذلك الوقت افتراء محضا ، وان الغرض منها مخادعتى للعودة الى القصر الشمالى والى الاضطهاد ثانية .

عندما كنت مقيما فى المفوضية اليابانية خرجت عدة مرات ليلا على الدراجة مصطحبا معى خادما او خادمين . ثم أغلقت البوابة الرئيسية للمفوضية ولم يعد يسمح لي بالخروج . وفى احدى المرات التى خرجت فيها وصلت الى الخندق المائى المحيط بالمدينة المحرمة ، وعندما نظرت الى الأبراج والشرفات تذكرت قصر تهذيب النفوس وقصر السماء الصافية اللذين غادرتهما منذ وقت قريب ، كما تذكرت عرشى والصفرة الامبراطورية فضججت فى نفسى رغبة الانتقام واستعادة العرش . وامتلأت عيناى بالدموع عندما سرى فى جسدى عزم العودة الى هنا فى المستقبل ملكا مظفرا تماما كما فعل أول أسلافى من قبل . ثم تمتمت بكلمة الوداع ، واعتليت دراجتى عائدا بأقصى سرعة . . .

فى كل يوم من الأشهر الثلاثة التى أمضيتها فى المفوضية اليابانية كنت أتلقى العناية الفائقة من مضيفي اليابانيين وأيمان الولاء من كبار الموظفين السابقين والاحتجاج من عامة الناس . وتحت هذه التأثيرات الثلاثة أخذ كل من طموحى وحقدى يتنامى دون انقطاع . ورأيت أنه ليس من المناسب لي ان أستمر مقيما هناك ، وفكرت فى القيام ببعض الاستعدادات من اجل مستقبلي . وعاودتنى الرغبة فى الخروج للدراسة فى اليابان ، وهى فكرة أيدتها المفوضية اليابانية بحماس .

واستمر الصراع حولى بين لوه تشن يوى وتشنغ شياو شيوى فى المفوضية . ثم انتهى بانتصار لوه وتقاعد تشنغ وعودته الى شانغهاى .

وبعد عيد ميلادى بوقت غير طويل أبلغنى لوه تشن يوى انه رتب مع أحد موظفى المفوضية وجوب قيامى فى تيانجين بالاستعدادات للذهب الى اليابان ، حيث انه لم يكن أبدا من الملائم لي ان أستمر مقيما فى المفوضية . وسيكون من الأفضل لي ان أجد منزلا فى منطقة الامتيازات اليابانية اذ ان المنزل

الذى اشتريته سابقا كان غير مناسب من حيث موقعه داخل منطقة الامتيازات البريطانية . وهذا كله بدا معقولا بالنسبة لي ، لا سيما اننى رغبت فى رؤية مدينة تيانجين الكبيرة ، لذلك وافقت حالا . وأرسلت " مرشد المكتبة الجنوبية " ليجد لي منزلا فى منطقة الامتيازات اليابانية فى تيانجين ، واستقر رأيه أخيرا على حديقة تشانغ ، وبعد بضعة أيام أخبرنى لوه تشن يوى ان المنزل قد أعد وان الجيش الوطنى يقوم بتغيير حاميته ، لذلك يجب ان ننتهز هذه الفرصة ونتحرك فى الحال . فتحدثت فى الأمر مع يوشيزاوا ، فوافق على رحيلى . كما أبلغ بذلك دوان تشى روى فعرض دوان بالاضافة الى موافقته ان يزودنى بحرس عسكرى . وكان يوشيزاوا قد قرر ان يجلب مسئول شرفة القنصلية اليابانية فى تيانجين الى بكين مع بعض أفراد البوليس السرى ، حيث تعين أولا ان أذهب تحت حمايتهم ومن ثم تلحق بى زوجتاي .

وفى الساعة السابعة مساء من يوم ٢٣ فبراير ١٩٢٥ استأذنت المفوض اليابانى وزوجته . والتقطنا بعض الصور ، ثم شكرتهما ، وتمنيا لي رحلة مصحوبة بالسلامة . ثم غادرت المفوضية من بوابتها الخلفية ، يصحبنى موظف يابانى وأفراد من البوليس السرى ، وتوجهنا الى محطة القطار فى تشيانمن . وهناك قابلت لوه تشن يوى وابنه . وعند كل محطة وقف فيها القطار كان يصعد اليه عدد من رجال البوليس اليابانى والجواسيس بثياب مدنية سوداء ، ولدى وصولنا تيانجين كانت العربة قد غصت بهم تقريبا . وعندما نزلت من القطار وجدت فى استقبالى القنصل اليابانى فى تيانجين يوشيداشيغرا وعشرات من ضباط وجنود الحامية اليابانية .

وبعد ثلاثة أيام نشرت صحيفة « شونتيان تايمز » بيانا صادرا عن المفوضية اليابانية يعلن ان عزمى على مغادرة بكين كان معروفا لدى الحكومة الموقتة منذ وقت طويل ، وانها لم ترغب قط فى التدخل فى الخطة ، وان رحيلى المفاجىء كان نتيجة وضعى غير المستقر فى بكين .

الفصل الرابع

تيانجين

جهود لوه تشن يوى

عندما وصلت تيانجين وجدت ان لوه تشن يوى لم يصدق حين أخبرنى بأن البيت جاهز ، فأمضيت يومى الأول فى فندق ياماتو . وفى اليوم التالى وصلت وان رونغ وون شيو وبقية من كانوا معى فى المفوضية اليابانية ، وانتقلنا جميعا الى حديقة تشانغ التى أثثت على عجل .

كانت حديقة تشانغ تغطى عشرين مو (٢٧) من الارض وتشتمل على دار كبيرة . وكانت تعود لضابط سابق من أسرة تشينغ لم يأخذ منى أية أجرة وكنس لي الفناء بنفسه تعبيرا عن ولائه لي . وقد أقمنا فيها خمس سنوات ، ثم انتقلنا منها الى " الحديقة الهادئة " بعد موته ، وذلك عندما طلب ابنه منا أجرة .

كان هدفي من المجيء الى تيانجين هو الذهاب الى الخارج ، ولكننى انتهيت الى البقاء سبع سنوات هناك ، سبع سنوات راوحت فيها بين فئات مختلفة وأفكار متعددة وتغيرت فيها العلاقات وموازين القوى ، فضعف الأمراء الذين يقودهم والدي ولم يعودوا قادرين على منحى دعما حقيقيا . ولم أعد أرى جونستون معلمي الخصوصى ، ولكنه زارنى عام ١٩٢٦ ، فى محاولة لاقامة تعاون بينى وبين أمير الحرب وو بى فو وأتباعه ولم ينجح فى ذلك ، فعاد الى انكلترا .

ويمكننى تقسيم الناس الذى سعوا لكسب ودى ابان تلك السنوات السبع الى فئات . فهناك " كبار الموظفين " بقيادة تشن باو تشن ، وكانوا فى البداية يأملون اعادة بنود المعاملة التفضيلية ثم اكتفوا فيما بعد بالرغبة فى الحفاظ علي

الوضع الراهن . ويمكن تسمية هؤلاء " فئة العودة الى القصر " . وهناك فئة أخرى حول لوه تشن يوى علقت آمالها على ذهابى الى الخارج وحصولى على مساعدة من البلدان الأجنبية ، وعلى رأسها اليابان ، ويمكن اعتبارهم " حلفاء اليابان " او فئة " الذهاب الى الخارج " وقد ضمت مخضرمى أسرة تشينغ وواحد او اثنين من الأمراء المانشويين مثل بو وى . والفئة الثالثة هى التى كنت أقودها انا وكانت ترى خير وسيلة هو الاتصال بأمراء الحرب وشراؤهم . ومجموعتنا من " العسكريين " كانت متنافرة نوعا ما ، وهى تضم مخضرمى أسرة تشينغ وسياسيين جمهوريين .

وعندما عاد تشنغ شياو شيوى للعمل معى لم يربط نفسه بأية زمرة . وبدا انه يمتدح ويهاجم معا الاقتراحات التى يقدمها الآخرون ، ثم يقترح أفكارا لم يتوصل اليها أى منهم ، كاستخدام المرشدين الأجانب وسياسة " الباب المفتوح " (التعاون مع اى بلد يرغب فى المساعدة على اعادة الملكية) ، وقد لقيت اقتراحاته هذه معارضة جميع الفئات الأخرى . وعندما استقر أخيرا على سياسة الاعتماد على اليابان تغلب على جميع مناوئيه ومن بينهم منافسه القديم لوه تشن يوى ، صدر الزمرة المؤيدة لليابانيين .

ولنترك هذه التطورات الأخيرة جانبا ، ونبدأ أولا بالقاء نظرة على لوه تشن يوى وهو موظف كبير فى أسرة تشينغ كان فى حوالى الخمسين عندما جاء الى المدينة المحرمة ، مربوع القامة يلبس نظارة ذهبية الاطار (كان يخلعها دائما فى حضرتى) ، له لحية يختلط فيها البياض الصفرة وضفيرة بيضاء . وكان يتكلم ببطء بلكنة ناحية شاوشينغ من مقاطعة تشجيانغ التى جاء منها . وكنت قد قابلته لأول مرة بعد زواجى عندما عين " مرشد المكتبة الجنوبية " واشترك فى عمل التقييم الفنى لبرونزيات القصر القديمة . والى جانب احرازه شهرة واسعة بوصفه أديبا جذب اهتمامى كذلك بوصفه ملكيا .

اقام لوه فى اليابان ، او فى منطقة الامتيازات اليابانية داخل الصين طوال

المدة التى اعقبت ثورة ١٩١١ . وكون نفسه بوصفه " مرجع " فى الاثريات بشتى الوسائل الماكرة . وكان يزاول تجارة تلفيق الأدوات العتيقة والأختام واللوحات والتخطيطات وانتحل دون حياء معرفة زميله وانغ قوه وى ، الذى انتحر — ربما لانه لم يتحمل قسوته . وبلغ به الحذق فى التلفيق ان زور مذكرة انتحار من وانغ يزعم فيها انه انتحر بسبب ولائه لأسرة تشينغ . وبهذه الطريقة حصل لوه على الحظوة عندي .

وكان أول شيء تخاصم عليه لوه تشن يوى وتشنغ شياو شيوى هو مسألة ذهابي الى الخارج . وكان انتقالى من المفوضية اليابانية الى منطقة الامتيازا ت اليابانية فى تيانجين قد اوصل معارضة الرأى العام الى ذروتها . فظهرت " عصبة مناهضة تشينغ " فى تيانجين بهدف مهاجمتى ليس الا وقد انتهز لوه تشن يوى وزملاؤه هذه الفرصة للضغط علي متذرعين بأنه لم يعد أمامى من خيار الا الذهاب الى الخارج ، وبأن خروجي ضرورى لسلامتي ولإعادة الملكية . وقد حظى رأيهم هذا لبعض الوقت بتأييد حماسي بين كبار موظفى الأسرة .

واعتبر تشن باو تشن وزمرته أفكارا كهذه تهورا . فقد رأوا أننى لم أكن فى وضع شديد الخطورة ، وخافوا ألا ألقى ترحيبا فى اليابان . ولكن اذا كان من المتعذر على ان أقيم فى اليابان أو فى الصين ، فليس هناك مجال للتفكير فى ان دوان تشى روى وتشانغ تسوه لين وأمثالهما سيسمحون لي بالعودة الى المدينة المحرمة والعيش فيها كما كنت من قبل . ومع اننى لم أنجذب الى نصيحة تشن باو تشن ، الا ان تحذيراته لي جعلتنى أتشكك فى اقتراحات لوه تشن يوى .

وفى عام ١٩٢٦ تطور الوضع السياسى الى ما كان يأمله تشن باو تشن وجماعته . فقد تحول تشانغ تسوه لين الى التعاون مع وو بى فو واصطدم بزميله السابق فنغ يوى شيانغ . وهوجم جيش فنغ يوى شيانغ الوطنى من جيش فنغتيان التابع لتشانغ تسوه لين ، فاضطر فنغ الى سحب جنوده من تيانجين ،

وطوقت فى تلك الأثناء وحداته التى كانت فى بكين . وعندما اكتشف فنغ يوى شيانغ الصلات بين دوان تشى روى وتشانغ تسوه لين ، فر دوان من قبضته . لكن فنغ يوى شيانغ اضطر فيما بعد الى الانسحاب من العاصمة بعد تحرج وضعه فيها . وفى يوليو التقى "المارشالان" تشانغ تسوه لين و وو بى فو فى بكين ، فأثارت هذه الحركة التفاؤل بين أفراد "فئة العودة الى القصر" ودفعتهم الى ابداء نشاط كبير . وقد ذهب تشن باو تشن الى بكين ليرى بعض معارفه ورئيس الوزراء الجديد ، بينما ارسل كانغ يو وى ، أحد اصلاحيي ١٨٩٨ ، برقيات الى تشانغ تسوه لين و وو بى فو وتشانغ تسونغ تشانغ وغيرهم يدعوهم الى اعادة بنود المعاملة التفضيلية . وكتب كذلك رسالة طويلة الى وو بى فو عدد فيها "مآثر وفضائل" أسرة تشينغ وحثه على السعى لاعادتها الى السلطة .

ولكن هذه كانت فى الواقع الأيام الأخيرة لأمراء الحرب التابعين لعصبة بييانغ . ومع ان جميع أمراء الحرب الشماليين كانوا قد بدأوا بالتعاون فيما بينهم وعين تشانغ تسوه لين نفسه قائد "جيش التهدئة" ، الا ان الحملة الشمالية التى ولدت من التعاون بين الكومينتانغ والحزب الشيوعى كانت قد اخذت عام ١٩٢٥ بضرب قوات أمراء الحرب الشماليين ، فلم تترك لهم مجالا للتفكير فى بنود المعاملة التفضيلية . وكذلك لم تثمر نشاطات تشن باو تشن شيئا ، بينما رد وو بى فو على رسالة كانغ يو وى ردا مقتضبا منافقا : "ان ولاءك ثابت لا يتغير كالحجر والمعدن ، ولكن اذا ارتفعت نبرة الغناء ارتفاعا مفرطا فلا أحد يستطيع الاشتراك فيه" . وبعد سنة من ذلك مات كانغ يو وى خائبا فى تشينغداو .

ومع تلاشى جميع الآمال فى العودة الى القصر يئس تشن باو تشن وزمرته وأصبح لوه تشن يوى أكثر نشاطا . وفى مارس ١٩٢٦ ، الفترة التى جعلنى فيها اقتراب جيش الحملة الشمالية فى غاية القلق ، أرسل الي النبيل المانشوى

بو وى رسولا من مدينة ليوشون التى كانت فى قبضة اليابانيين بمذكرة لي ورسالة الى لوه تشن يوى قال فيهما انه على علاقة حميمة بالموظفين اليابانيين وانه يتمنى لو انتقل الى ليوشون حيث سأكون " أولا فى مأمن من الخطر ثم يمكن وضع خطط بعيدة المدى . . . على المرء ان يؤمن اقامة مستقرة قبل رحيله الى الخارج " . وسمعت كثيرا من الثرثرة حول لوه تشن يوى لم تساعدنى على الثقة به تماما ، ولكننى خرجت بانطباع جيد عن بو وى . فبعد وقت قصير من وصولي الى تيانجين جاء هو من ليوشون ليرانى ، وقد هزنى من الأعماق بملاحظته التالية : " لن تفنى أسرة تشينغ العظيمة ما دمت حيا ! " ولذلك كان طبيعيا ان تحركنى مذكرته التى تنصحنى بالذهاب الى ليوشون ، وتضاءل شكى فى لوه تشن يوى لأن بو وى اختاره ناطقا باسمه .

وعندما استولى جيش الحملة الشمالية على ووتشانغ عام ١٩٢٦ وتضعضعت جبهة أمراء الحرب الشماليين بكاملها ، أخبرنى لوه تشن يوى ان الجيش الثورى عبارة عن " فيضانات مدمرة ووحوش مفترسة " و" قتلة وحراقين " ، وانى اذا وقعت فى أيديهم فلن يكون هناك أمل فى بقائى حيا . فقررت ان أذهب معه الى ميناء داليان الذى يحتله اليابانيون ، ولكننى غيرت رأيى بناء على نصيحة تشن باو تشن . فقد سمع تشن من المفوضية اليابانية ان الوضع ليس سيئا كما يقال ، وهو ما بدا واضحا فيما بعد مع وصول الاخبار عن التطهيرات التى قام بها الكومينتانغ ضد الشيوعيين الذين قام تشيانغ كاى شيك بتذبيحهم قائلا انهم " فيضانات مدمرة ووحوش مفترسة " . وفى نفس الوقت تقريبا تلقينا تقارير عن قصف البحرية البريطانية لنانجينغ وعن تحركات القوات اليابانية فى شاندونغ لاعتراض تقدم القوات الجنوبية نحو الشمال . وهذا كله أعطانى المزيد من الثقة فى الموقف الراسخ لتشن باو تشن ومجموعته وجعلنى أتأكد من ان الوضع ليس خطيرا كما استنتج لوه تشن يوى وغيره ، حيث بدا واضحا ان تشيانغ كاى شيك كان جبانا امام الأجانب ، شأنه

شأن يوان شى كاى ودوان تشى روى وشانغ تسوه لين وأمثالهم . وأقمت فى منطقة الامتيازات الأجنبية آمنا كعهدى من قبل .

وبالطبع لم يختلف انصار " العودة الى القصر " وانصار " ذهابى الى الخارج " فى أملهم النهائى فى اعادة الملكية . وبعد ان رأى تشن باو تشن وزمرته ان آمالهم فى العودة الى القصر قد خابت انقلبوا الى فكرتهم السابقة بأن " أعيش مغمورا وأنتظر فرصتى " . ولكنهم فى مسألة التحالف مع اليابان لم يكونوا معارضين حقا لزمرة لوه تشن يوى . وذهب تشن باو تشن نفسه الى التسليم بانه اذا لم يكن هناك من خيار غير ذهابى الى الخارج ، فان المشكلة الوحيدة هى اختيار الناس الصالحين لمرافقتى .

أما كبار الموظفين السابقين فى أسرة تشينغ فهم الذين عارضوا فكرة ذهابى الى الخارج معارضة صلبة من بين قليلين جدا على ما أذكر . وقد قال أحدهم " ان اليابان مهتمة بمصالحها فقط وغير قادرة على التفرغ لقضية اعادة الملكية " . وكان هؤلاء يعتقدون بأن اعادة الملكية لا يمكن ان تتم الا على أيدى كبار الموظفين السابقين فى أسرة تشينغ ، وقد ودوا لو يطرد لوه من صفوفهم.

ولم يكن النزاع بين هاتين الفئتين صراعا على المقترحات والوسائل وانما هو عراك بين الأفراد . فالى جانب المذكرات المقترحة والنقاشات كان هناك صراع سرى عنيف لكسبى الى جانبهم . وقد استخدم لوه تشن يوى كثيرا من الحيل البارعة ، الا انه خسر فى السجال .

جاءنى ذات يوم الى حجرة المقابلات الصغيرة حاملا صرة طويلة رقيقة ملفوفة بقماش ، وقال :

— ان تابعك يستحق الموت لازعاجه القلب السماوى الى هذا الحد . فلو كان علي التجاوز عن اخطاء الغير بسبب الصداقة لكنت عديم الولاء والاستقامة .

فسألته :

— عم تتحدث ؟

ثم نظرت اليه فى حيرة ، وراقبته وهو يفتح الصرة ببطء وترو مثل خصى عجوز يغسل وجهه ويسرح شعره . وكان فى الصرة لفيفتان بسطهما دون تعجل وتبين ، قبل ان ينتهى من نشرهما أنهما مقطع شعرى كتبته فى الثناء على تشن باو تشن .

— لقد وجد تابعك هاتين اللفيفتين المكتوبتين بالفرشاة الامبراطورية فى السوق ، وبتوفيق كبير تمكنت من اعادتهما .

ولم أكن أعرف فى ذلك الوقت ان لوه تشن يوى وأصدقاءه كانوا غارقين فى أعمال ماكرة كشراء خدم منافسيهم ، ولذلك اعتقدت حقا ان تشن باو تشن لم يحترم " الهبة الكريمة " للامبراطور فسمح بأن تباع بعض تخطيطاتى فى السوق . وغضبت غضبا شديدا لم أعرف معه ماذا أقول . ولوحت الى لوه بالانصراف حالا .

كان تشن باو تشن حينذاك فى بكين ، وعندما سمع صديقه هو سه يوان بهذا الأمر أصر على انه لا يمكن أن يرتكب غلطة كهذه . كما لم يصدق ان خادما من خدم تشن يجرؤ على سرقة اللفيفتين لبيعهما فى السوق . وقال انه لمن الأكثر احتمالا ان يكون احد خدام تشن سرقهما ليبيعهما . وكيف وصلتا الى يد لوه تشن يوى ؟ هذه كانت أسئلة لم يجب هو سه يوان عنها . وعندما الححت عليه حدثنى فقط بقصة وزير لأحد أسلافى من الأباطرة لم يرغب فى التكلم مع الامبراطور بصراحة حول القيام برحلة لم يحبذها الوزير لان الامبراطور كان مريضا من جهة ولانه من جهة اخرى كان لا يثق بأعوانه . واكتفى الوزير بأن نصح الامبراطور بعدم السفر ولم يذكر الأسباب . ثم ظهر ان رأى الوزير كان سليما حيث مات امبراطور فى أثناء الرحلة .

فسألته :

— ماذا تعنى بهذه القصة ؟ وما علاقتها بتشن باو تشن ؟

— ان تابعك يشير الى تشن باو تشن . ان لديه شيئا يقوله ولكنه لن يقوله حرفيا .

ولم استطع صبرا ، فطلبت منه ان يطرق الموضوع مباشرة ، ولكنه اكتفى بالقول بأن تشن تابع مخلص واننى ذكى بما فيه الكفاية لأستخلص مغزى هذه القصة بنفسى . ومع اننى لم أفهمها جيدا ، الا اننى ارتحت لسماع هو سه يوان يثنى على تشن باو تشن ، وزال عنى ذلك الاستياء الذى أحدثه موضوع اللفيفتين . وعلى اى حال فبعد سلسلة من الهزائم انتقل لوه تشن يوى أخيرا الى ليوشون فى نهاية عام ١٩٢٨ ليزاول عملا آخر .

ولنغير الحديث عن نزاعات الموظفين فى أسرة تشينغ الى الحديث عن سبب بقائى فى تيانجين وعدم سفرى الى الخارج : انها الآمال التى عقدتها على أمراء الحرب .

علاقاتى بقادة زمرة فنغتيان

كنت قادرا على التعاون مع أكبر عدد من أمراء الحرب خلال سنواتى السبع فى تيانجين . وكان لكل منهم اوهامه بشأن قضيتى . ووبى فو سمى نفسه " تابعى " فى احدى رسائله ، وتشانغ تسوه لين سجد لي ، ودوان تشى روى طلب مقابلة معى بمبادرة منه . لكن أمراء الحرب الذين عقدت عليهم أعز الآمال هم زمرة فنغتيان الذين أقمت معهم أوثق العلاقات وأطولها زمنا ، منذ ان سجد لي تشانغ تسوه لين .

حدث هذا حين جاء والد زوجتى رونغ يوان فى يوم من أيام يونيو عام ١٩٢٥ ليخبرنى فى فرحة غامرة بأن تشانغ تسوه لين قد أرسل مبعوثا موثوقا به ليعطينى ١٠٠ ألف يوان ومعه رسالة يأمل فيها تشانغ ان يتمكن من مقابلتى

فى البيت الذى يقيم فيه . فعارض تشن باو تشن هذا الأمر حالما سمع به ، وقال انه لايجوز أبدا ان يذهب الامبراطور لزيارة ضابط جمهورى، لاسيما ان المكان المقترح يقع خارج منطقة الامتيازات الأجنبية . ووافقت أنا على ان هذا سيكون مدعاة للاذلال والخطر ، ولذلك رفضت . وأدهشنى ان رونغ يوان جلب مبعوث تشانغ تسوه لين ثانية فى الليلة التالية ، وقال ان تشانغ ينتظرنى فى بيته وانه لن ينالنى خطر داخل الأراضى الصينية ، وانه من غير الملائم له ان يدخل منطقة الامتيازات الأجنبية ، وهذا هو السبب فى تكرار دعوته لي الى الذهاب لرؤيته . وركز رونغ يوان مرارا على ولاء تشانغ تسوه لين ، وتذكرت الاهتمام الذى أظهره لي مؤخرا وما بلغت به عندما كنت مقيما فى القصر من ان تعاطف تشانغ تسوه لين مع أسرة تشينغ يأتى فى الدرجة الثانية بعد تعاطف تشانغ شيون . فركبت سيارة وتوجهت اليه دون ان أخبر أحدا .

فى ذلك المساء من أوائل الصيف كانت مغامرتى الاولى فى الخروج من منطقة الامتيازات اليابانية . وعندما وصلت الى حديقة أسرة تشاو حيث كان تشانغ تسوه لين يقيم ، رأيت حرس شرف غريبا متكونا من جنود يلبسون بزات رمادية ويمسكون حرابا وسيوفا وبنادق حديثة ويصفون عند البوابة الرئيسية . وقد مرت السيارة من بينهم الى داخل الحديقة .

وعندما خرجت من السيارة أخذت الى قاعة شديدة الانارة ، حيث رأيت رجلا قصيرا بشارب ، يلبس ثيابا مدنية ويقبل نحوى . وعرفت حالا انه تشانغ تسوه لين . ولم أعرف كيف ينبغى لي ان أحييه اذ كانت تلك هى المرة الأولى التى أخرج فيها لزيارة شخصية جمهورية هامة ، ورونغ يوان لم يقدم لي أية توجيهات . ولكننى ذهلت حين جثا أمامى من غير أدنى تردد وسجد سائلا :

ــ كيف صحة جلالتكم ؟

فقلت :

ـــ كيف حالك أيها المشير ؟

وخففت الى مساعدته على النهوض ، ومشينا معا الى داخل قاعة الاستقبال . ورفع ذلك من معنوياتى وجعلنى متشكرا لأنه خفف من شعورى بعدم الارتياح الناتج عن تصاغر هيبتى بمجيئى لرؤيته . وما جعلنى أكثر ارتياحا هو بالطبع اكتشافى ان هذا الرجل البالغ الأهمية لم ينس الماضى .

كانت القاعة مؤثثة على نحو فاخر بمناضد وكراسى من الخشب الصلب ، وأرائك غربية الطراز وحاجز زجاجي ولكنها غير منسجمة مع الذوق الصينى . وجلسنا حول مائدة مستديرة ، وبدأ تشانغ تسوه لين يتحدث وهو يدخن سيجارة بعد أخرى . ولم يكد يفتح فمه بالحديث حتى شرع يشتم فنغ يوى شيانغ على اخراجه اياى من المدينة المحرمة بالقوة لكى يستولى على كنوز القصر . وقال انه هو نفسه من ناحية أخرى شديد الاهتمام بصيانة حضارة الصين القديمة وكنوزها الأثرية ، وانه اعتنى بصيانة قصر تشينغ فى فنغتيان عناية جيدة ، وانه اراد ان يخطط لأخذ المجموعة الكاملة الشهيرة من كتب المكتبات الأربع (٢٨) من بكين ليحفظها بكاملها . وقال بلهجة تأنيبية انه كان ينبغى لي ألا أهرب الى المفوضية اليابانية بعد ان وصل هو الى بكين بجنوده اذ كان يستطيع ان يضمن سلامتى . وسألنى عن حياتى منذ خروجي من القصر ، وطلب منى ان أخبره بأى شىء أريده .

فقلت له اننى كنت مدركا لمدى تفكيره بي ، ولكننى كنت مجبرا على الهرب الى المفوضية اليابانية لأن رجال فنغ يوى شيانغ كانوا ما يزالون فى بكين فى ذلك الوقت . وذكرت له اننى أعرف منذ وقت طويل مدى العناية الفائقة بالقصور الامبراطورية والأضرحة فى فنغتيان ، واننى كذلك أفهم مشاعره .

ـــ اذا كان جلالتكم راغبا فى المجىء الى فنغتيان والاقامة فى القصر هناك ، فسيكون من الممكن لي ترتيب هذا الأمر .

— أيها المشير تشانغ ، انك فى غاية اللطف .
ولكن المشير غير الموضوع الى الحديث عن حياتى اليومية وقال :
— اذا اردتم اى شىء فى المستقبل فاكتبوا لي .
وكان الشىء الوحيد الذى ينقصنى هو العرش ، ولكننى لا أستطيع قول ذلك علنا .
وخلال محادثتنا كنا وحيدين فى القاعة ماعدا بعض الذباب الذى لم أكن أراه فى مثل هذا الوقت فى منطقة الامتيازات .
ودخل ضابط كبير بعد قليل وقال :
— رئيس الأركان يريد ان يراكم يا سيدى .
فلوح تشانغ تسوه لين بيده وقال :
— ليس هناك ما يدعو الى العجلة ، أطلب منه ان ينتظر لحظة .
فنهضت فى الحال وقلت اننى سأغادر لأنه مشغول جدا . فأجاب فورا : " ليس هناك أمر مستعجل ، ليس هناك أمر مستعجل " . ولمحت وجه امرأة خلف الحاجز الزجاجى (فيما بعد سمعت انها حظيته الخامسة) ، وشعرت انه لابد ان يكون فى عجلة من الأمر ، فاستأذنت ثانية ، ولم يحاول هذه المرة ان يستبقينى .
كل مرة كنت أخرج فيها كان يصحبنى أحد رجال البوليس السرى اليابانى الذين كانوا متمركزين فى حديقة تشانغ . وهذا المساء لم يكن استثناء . ولم أكن متأكدا من ان تشانغ تسوه لين لن يلاحظه واقفا بجانب سيارتى ، وفيما كان يودعنى قال بصوت عال :
— اذا ما اعترضك هؤلاء اليابانيون بأدنى ازعاج ، فأخبرنى وسأواجههم بكل وسيلة .
ومشت بنا السيارة مارة بحرس الشرف الى منطقة الامتيازات . وفى اليوم التالى جاء القنصل اليابانى ليقدم لي تحذيرا :

ـ اذا قام جلالتكم برحلة أخرى الى الأراضى الصينية ، فان الحكومة اليابانية لن تعود قادرة على ضمان أمنكم !

رغم ادعاء تشانغ تسوه لين بأنه يعرف كيف يتعامل مع اليابانيين ورغم احتجاج القنصل ، فقد كان من المعروف لدى الجميع فى ذلك الوقت انه كانت هنالك روابط بين اليابانيين وتشانغ تسوه لين ، وانه لو لا الذخيرة التى يتزود بها تشانغ من اليابان لما كان قادرا على الاحتفاظ بجيش كبير كجيشه . لذا فان الآمال التى نتجت عن هذا اللقاء لم تضعف بهذا الاحتجاج او باعتراضات تشن باو تشن وجماعته .

عندما جاءت حكومة تاناكا الى السلطة فى اليابان عام ١٩٢٧ ، تعززت آمالى باعادة الملكية . فرئيس هذه الحكومة معروف بمخططاته التوسعية فى شرقى آسيا وغيرها . وقد اولى اهتماما خاصا بشمال شرقى الصين ، الجزء الذى اعتبره هو مختلفا تماما عن الأجزاء الأخرى من البلاد . وقد اعطت هذه الحكومة الدليل على الاستعداد للتدخل العسكرى لحماية مصالح اليابان .

وقد كسب تشانغ تسوه لين دعم وزارة تاناكا فصار زعيما لأمراء الحرب فى شمالى الصين وقائد عام لجيش التهدئة ، وعندما تقدمت قوات تشيانغ كاى شيك شمالا تقدم الجنود اليابانيون الذين كانوا " يحمون المصالح الشرعية " لليابان فى الشمال الشرقى ومنغوليا الداخلية الى الجنوب حتى جينان ، مجتازين مئات الأميال حيث قاموا بمذبحة جينان الكبرى . وأصدر القائد اليابانى أوكامورا انذارا الى تشيانغ كاى شيك (ارسل لي ضابط ركن الحامية اليابانية فى تيانجين نسخة من هذا الانذار دليلا على الاهتمام الذى يحيطنى به) . فقام تشيانغ كاى شيك المتحمس لكسب عطف الامبريالية ، والذى كانت يده ماتزال ملطخة بدماء الشيوعيين والعمال والطلبة الذين ذبحهم منذ خان الثورة فى ١٢ أبريل ١٩٢٧ ، قام بالانسحاب الذليل من جينان لدى تسلمه هذا الانذار ومنع الشعب من القيام بأى نشاط معادى لليابانيين .

فى ذلك الوقت كانت علاقتى بأمراء الحرب فى فنغتيان تزداد متانة ، وكنا نتبادل الزيارات علنا بعد مقابلتى لتشانغ تسوه لين . وكان قهرمان والدى الذى له كثير من الاخوان بالمؤاخاة بين آمرى زمرة فنغتيان احد الذين قدموا لي هؤلاء الضباط . وكانت اصول المقابلات فى حديقة تشانغ قد تغيرت عما هي فى المدينة المحرمة : فهم لم يسجدوا لى وأنا لم أمنحهم الحق بركوب الخيل او بأن يحملوا فى محفة داخل البلاط ، وانما ينحنون لي أو يصافحوننى ، ومنذ ذلك الحين ونحن نتصرف بصفة أنداد ، ولم أتبع فى الكتابة اليهم لغة الاباطرة . وكانت درجة العلاقة بينى وبين اى منهم تتحدد على اساس موقفه من اعادة الملكية .

كان أحد ضباط فنغتيان ممن عقدت عليه أكبر الآمال هو تشانغ تسونغ تشانغ . وقد التقيت به فى تيانجين وكان رجلا متين البنية فوق الأربعين من عمره تعلو وجهه المنتفخ زرقة الأفيون . وكان قد بدأ حياته متشردا فى ينغكو واشتغل فى وكر للقمار وهو لايزال غلاما حيث أمضى وقته مع المحتالين والمتشردين والمقامرين . وبعد فترة قضاها قاطع طريق فى الشمال الشرقى ذهب الى ميناء فالديفوستوك الروسى وصار شرطيا سريا خاصا لغرفة التجارة الصينية . ولما كان يبدد نقوده على من حوله بسخاء ويجيد بناء علاقاته بالآخرين ، فقد أصبح شخصا قياديا فى عالم فالديفوستوك السفلى وذلك بالتعاون الوثيق مع الشرطة العسكرية القيصرية . وأدار الكثير من المواخير و اوكار القمار ومباءات الأفيون . وبعد انتفاضة ووتشانغ عام ١٩١١ ارسل ثوار الجنوب مبعوثين الى اقليم الحدود الصينية الروسية قاموا باقناع قاطع طريق محلى يدعى " الرصاصة ليو " بالانضمام اليهم مع رجاله ، وحولوهم الى فوج فرسان تحت قيادة ليو . وكان تشانغ تسونغ تشانغ وسيطا فى هذه الصفقة فرافقهم الى شانغهاى واستطاع ان يصبح آمر فوج فى الجيش الثورى ووضع " الرصاصة ليو " تحت امرته بصفة قائد كتيبة . ومع اندلاع " الثورة الثانية " (محاولة الاطاحة بيوان شى كاى

عام ١٩١٣) انتقل تشانغ الى جانب المعادين للثورة وحظى باعجاب فنغ قوه تشانغ أمير الحرب فى عصبة بييانغ لما قام به من تقتيل الثوار ، وعين رئيسا لكتيبة حرس فنغ قوه تشانغ . وفيما بعد ارتقى بمختلف الاساليب الى قيادة الفرقة الحادية عشرة .

وبعد هزيمته فى جيانغسو وآنهوى هرب الى الشمال الشرقى حيث انضم الى تشانغ تسوه لين وتسلم امرة فوج . ومع ازدهار أحوال جيش فنغتيان ارتقى الى قائد فرقة ثم الى قائد جيش ، فالى مفوض للشؤون العسكرية فى شاندونغ والى قائد عام لحملة ابادة قطاع الطرق فى جيانغسو وآنهوى وشاندونغ . واستمر بعدها ليصبح قائدا لجيوش تشيلى وشاندونغ المتحالفة ، ذلك المركز الذى جعل منه اشبه بامبراطور محلى . وبسبب دناءة منشئه أعطته الصحافة الجنوبية لقب " الضابط ابو لحم الكلب " ، كما لقب فيما بعد " الضابط الطويل الساقين " لانه اشتهر بسرعة فراره من المعركة بمجرد ان يشم رائحة الخسارة .

وفى أبريل ١٩٢٨ هرب الى اليابان بعد انهيار جيشه امام هجوم — كماشة على نهر لوان فى مقاطعة خبى شنه تشيانغ كاى شيك وتشانغ شيويه ليانغ ابن تشانغ تسوه لين . ثم عاد الى شاندونغ عام ١٩٣٢ بحجة زيارة قبور اسلافه ، وقام سرا باقناع ضابط محلى بالتمرد ، على أمل ان يصبح قادرا على استخدام جنده لاعادة حكمه فى شاندونغ . لكنه قتل فى سبتمبر بتدبير من حاكم شاندونغ . وقد تركت جثته فى العراء ، اذ لم يجد غلامه أحدا يرغب فى نقلها مقابل أى ثمن ، كما رفض النجارون عمل تابوت له ، مما اضطر سلطات المقاطعة التى دبرت مقتله الى ان تدفن جثته على حسابها .

هذا الوحشى الذى انتهى مثل هذه النهاية المخزية رحبت به كضيف كريم فى حديقة تشانغ وأصبح رجلا عقدت عليه أكبر آمالي . وكان قد زارنى متنكرا عندما كنت مقيما فى القصر الشمالى ببكين . وبعد ان انتقلت الى تيانجين أخذ يأتى لزيارتى كلما حضر الى المدينة . وكان يزورنى فى نصف الليل

لانه ينام فى النهار ولا يأتينى الا بعد أن يدخن الأفيون فى المساء . حيث يصبح بعد ذلك منشرح الأسارير ويتحدث ساعات طويلة حديثا كله ثرثرة فارغة .

عام ١٩٢٦ شنت قوات تشانغ تسوه لين و وو بى فو هجوما مشتركا ضد فنغ يوى شيانغ حيث دارت معركة حامية فى نانكو فى الشمال الغربى من بكين . وكانت الوحدات الأولى التى تحتل نانكو بعد انسحاب فنغ يوى شيانغ هى وحدات تشانغ تسونغ تشانغ . ولدى سماعى بنجاح تشانغ تسونغ تشانغ بعثت اليه برسالة تهنئة على انتصاره على " الحمر " وتخليص الصين من " الشيوعية " .

ولم أنتظر تقارير الصحف لأسمع بانتصار تشانغ تسونغ تشانغ حيث كانت لي مخابراتى الخاصة . كان هناك أناس يجمعون لي المعلومات وآخرون يترجمون لي الصحف الأجنبية . وعندما علمت من الصحف الصينية والأجنبية ومن تقارير مخابراتى الخاصة بانتصار تشانغ تسونغ تشانغ وبنفوذه المتزايد طرت من الفرح . ورجوت ان يصبح انتصار تشانغ تسونغ تشانغ كاملا ويضع بذلك أسس اعادة الملكية . ولكن هذا الضابط " ابو لحم الكلب " لم يكن يتحدث عما فكرت فيه على نحو واضح ايام صعوده الا بعد ان أصبح يعرف بـ " الضابط الطويل الساقين " .

عام ١٩٢٨ شن تشيانغ كاى شيك وفنغ يوى شيانغ ويان شى شان (أمير الحرب الحاكم فى مقاطعة شانشى) هجوما منسقا فى شمالى الصين . واستطاعوا ، بعد تحاشى الجنود اليابانيين الذين كانوا يساعدون تشانغ تسونغ تشانغ على امتداد سكة حديد تيانجين — بوكو ، ابتلاع قاعدة شاندونغ التابعة لتشانغ تسونغ تشانغ وأجبروه على الهرب الى الشمال الشرقى . وفى هذا الوقت قتل تشانغ تسوه لين على يد اليابانيين فى أحد الانفجارات ، ورفض ابنه تشانغ شيويه ليانغ " المشير الشاب " السماح لتشانغ تسونغ تشانغ بالمرور بالطرق المؤدية الى الشمال الشرقى .

وأصبح جنود تشانغ تسونغ تشانغ فى وضع يائس بمنطقة لوتاى — لوانتشو حيث كانوا عرضة لهجوم من اتجاهين ، وكانت النكبة عظيمة . وفى ذلك الوقت جاء ضابط ركن لدى تشانغ ليرانى ، ومعه رسالة منه تباهى فيها بكثرة ما لديه من الجند والمدفعية ، وادعى انه لن يعانى أية صعوبة فى استعادة بكين وتيانجين . وتابع يقول ان تدريب جيوش جديدة يتكلف مليونين وخمسمائة الف يوان شهريا . " اننى أرجو بكل تواضع انكم فى حكمتكم ستمنحوننى شيئا ، فتمكنون بذلك جنديكم المتواضع من ان يعرف ان لديه ما يستطيع الاعتماد عليه . " وقد أكد الضابط الذى جلب هذه الرسالة ان تشانغ تسونغ تشانغ على وشك الانتصار وان كل ما يحتاج اليه هو بعض الدعم منى .

عندما سمع تشن باو تشن وهو سه يوان باننى أفكر فى تبديد اموال اضافية جاءا ونصحانى بالعدول عن ذلك ، فانتهيت الى ارسالى بمجرد أمر وعقلى بتشجيعه . وبعد ذلك مباشرة حدث الانهيار التام لتشانغ تسونغ تشانغ وهرب الى اليابان . وصار كلما ابتعد عنى كثرت رسائله الي وكانت رسائله الغاصة بتعابير الولاء لبيت تشينغ تنتهى دائما بطلب المال . لكننى عملت برجاء تشن باو تشن وتوقفت عن اعطائه الاموال او الكتابة اليه . ومع ذلك بقيت أشعر بالامتنان الى زمرة فنغتيان مع ان تشانغ تسوه لين قد مات .

كان معروفا لدى الجميع ان تشانغ تسوه لين قد قتل على يد اليابانيين . وقد سمعت فيما بعد ان السبب فى قتلهم اياه انه اصبح أقل فأقل اطاعة ، وهذا بسبب وقوعه تحت تأثير ابنه " المشير الشاب " تشانغ شيويه ليانغ الذى أراد ان يقطع العلاقة باليابان ويصادق أمريكا . وبسبب هذا قال اليابانيون انه " ناكر للجميل وغير ودى " .

وقد سمعت فيما بعد وصفا لمقتل تشانغ من مجرم الحرب اليابانى العقيد كاواموتو الذى اشترك فى المؤامرة حيث اعترف انه امر عناصر جيش قواندونغ اليابانى بترتيب المكان الذى سيلقى فيه تشانغ مصرعه — وهو محطة

القطار فى هوانغقوتون عند ملتقى خط بكين ــ فنغتيان وخطوط مانشوريا الجنوبية وقال : " دفنا ثلاثين كيسا من المتفجرات الشديدة عند الملتقى ، وركبنا معدات كهربائية فى برج مراقبة على بعد ٥٠٠ متر تقريبا ، ووضعنا جهاز تغيير الخط الحديدى فى شمال الملتقى ، كما أخفينا فصيلة صدامية هناك ، وفى الساعة الخامسة والنصف من يوم ٤ يونيو ١٩٢٨ وصل قطار تشانغ تسوه لين المدرع الأزرق . فضغط الزر ودمر تشانغ والقطار معا " . ولاخفاء الحقيقة ارسل جيش قواندونغ على الفور جنودا وعمالا لاصلاح الخط المتعطل ، وقتلوا اثنين من الصينيين وضعوا جثتيهما فى مكان الحادثة بعد ان حشوا جيوبهما برسائل ووثائق مزيفة من جيش الحملة الشمالية وألقوا القبض كذلك على عشرة من السكان الأبرياء قائلين ان كل ما جرى كان من تخطيط جيش الحملة الشمالية . وقال كاواموتو : " لقد وضعنا جميع أمراء الحرب الموالين لليابانيين تحت رقابة مشددة . فعندما يكونون نافعين لنا نساعدهم ، وعندما لا يكون اى نفع لنا فيهم فاننا نجد وسائل لابادتهم . "

ومع ان مصرع تشانغ تسوه لين قد أجفلنى وان بعض كبار موظفى أسرة تشينغ السابقين حاول ان يجعل منه انذارا لي ، الا اننى تجاهلت نصيحتهم لاننى أعتبر نفسى مختلفا عن تشانغ تسوه لين . لقد كان مجرد قائد عسكرى ، يمكن لليابانيين ان يجدوا آخرين يحلون محله . اما انا فكنت امبراطورا ، ولا يستطيع اليابانيون ان يجدوا امبراطورا آخر فى الصين كلها . وعرض أفراد حاشيتى الرأى التالى : " ان الناس فى الشمال الشرقى يكرهون اليابانيين من صميم قلوبهم ، واليابانيون يحاولون منع تشانغ شيويه ليانغ من التعاون مع الكومينتانغ . هم أقوياء الى الحد الذى يمكنهم من الاستيلاء على الشمال الشرقى بالقوة ، ولكنهم عاجزون عن ادارة هذا الاقليم ، ومن دون وجود جلالتكم على العرش سيجدون من الصعب جدا انجاز أى شيء " . واقتنعت تماما بأن اليابان تعرف هذه الحقيقة ، وبنيت سياستى على هذا الافتراض :

اذا أردت الاعتماد على قوة اليابان فعلي أولا ان استميل قلوب الناس فى الشمال الشرقى . لذلك بحثت عن الرؤساء العسكريين السابقين لدى تشانغ تسوه لين الذين يمكن ان استخدمهم فى نشاطاتى لاعادة الملكية . وكان الرجل الذى عمل باسمى بين قادة زمرة فنغتيان هو شانغ يان ينغ ، وهو من كبار الأعوان انحدر من عائلة مانشوية وكان مركزه فى قوانغدونغ ، وكان عضوا فى أكاديمية هانلين ، ثم أصبح عضوا فى جمعية الصليب الأحمر فى الشمال الشرقى . ولما كان تشانغ شيويه ليانغ قد أبدى بكل وضوح رغبته فى التعاون مع تشيانغ كاى شيك ، فقد اضطر شانغ يان ينغ الى العمل بأقصى السرية ، ولم تعد نشاطاته تأتى بأية ثمار .

سيميونوف و"تشوقه ليانغ الثانى" (٢٩)

لا أستطيع ان أتذكر كم أنفقت من الاموال او اليشب او اللآلىء والمجوهرات لكسب صداقة العسكريين وشرائهم ، ولكننى أعرف تماما ان الذى ظفر بأكبر قدر منها هو الروسى الابيض سيميونوف .

كان سيميونوف جنرالا قيصريا قاد بقايا جنده الى المناطق الحدودية الصينية فى الشمال الشرقى ومنغوليا الداخلية بعد هزيمته على يد الجيش الأحمر السوفياتى ، حيث قاموا بالسلب والاغتصاب والاحراق وكل ما يخطر على البال من الأعمال الشريرة . وحاولوا مرة غزو جمهورية منغوليا الشعبية ، وبعد ان هزموا هزيمة منكرة حاولوا انشاء قاعدة على الحدود الصينية المنغولية فطردتهم القوات الصينية المتمركزة هناك . وقد تناقص عددهم حتى صاروا مع حاول عام ١٩٢٧ شرذمة من قطاع الطرق . اما سيميونوف فأخذ ينشط فى بكين وتيانجين وشانغهاى وليوشون وهونغ كونغ واليابان وغيرها من الأماكن ، بحثا عن نصير بين أمراء الحرب الصينيين والسياسيين الأجانب . وعندما لم يجد سوقا

لبضاعته أصبح مجرد محتال بسيط . ثم أسرته القوات السوفياتية بعد الحرب العالمية الثانية وحينما كنت انا سجينا فى الاتحاد السوفياتى وسمعت انه أعدم . وخلال سنواتى السبع فى تيانجين كنت على صلة دائما بهذا السفاك الذى قتل الكثير من الصينيين والسوفيات والمغول . وتلقى منى مبالغ ضخمة ، كما اننى عقدت عليه آمالا لا تحد .

عرفنى على سيميونوف وزكاه لي النبيل المغولى شنغ يون واوه تشن يوى ، ولكن تشن باو تشن عارض لقائى معه فرفضت رؤيته . وفيما بعد قابل تشنغ شياو شيوى سيميونوف بواسطة لوه تشن يوى الذى اعتبره من أكثر الأعوان الأجانب كفاءة . وقد أشاد لي به وأوصانى بالمحالفة بينه وبين تشانغ تسونغ تشانغ (الضابط ابو لحم الكلب) وكنت حينذاك أعلق آمالى على تشانغ تسونغ تشانغ فوافقت على اقتراح تشنغ شياو شيوى . وبفضل نشاطات تشنغ شياو شيوى تلقى ابو لحم الكلب مرتزقة أجانب من سيميونوف واعدادا كبيرة من الجنود الروس البيض . وفيما بعد وقع الطرفان " اتفاق عسكرى صينى — روسى ضد البلاشفية " .

وبعد تشجيع وحث من تشنغ شياو شيوى قابلت سيميونوف فى حديقة تشانغ فى أكتوبر ١٩٢٥ . وقد سررت غاية السرور بتلك المقابلة واعتقدت ان هذا الرجل قادر على ان " ينجز أعمالا عظيمة فى مواجهته للصعوبات ، ويطيح بالشيوعية ويعيد الحكم القيصرى " ، وأعطيته ٥٠ ألف يوان لمساعدته فى نشاطاته . وقد التقط تشنغ شياو شيوى وسيميونوف وليو فنغ تشى وغيرهم صورة مشتركة لهم وتآخوا فيما بينهم على الولاء لبيت تشينغ .

كانت تلك الأيام تشهد موجة من النشاطات المعادية للسوفيات والشيوعيين اجتاحت العالم بعد هزيمة تدخل الأربع عشرة دولة ضد الاتحاد السوفياتى . وأذكر ان تشنغ شياو شيوى وسيميونوف أخبرانى بأن بريطانيا وأمريكا واليابان قد اتفقت على جعل جيش سيميونوف قوة صدامية ضد السوفيات وانه يجب

ان يدعم بالذخائر الحربية والاموال وان " الأسرة الامبراطورية الروسية " عقدت آمالا كبيرة عليه . وكان ممثلو القيصر على اتصال بتشنغ شياو شيوى ، ولكننى لا أستطيع ان أتذكر التفاصيل . وما أذكره تماما هو ان سيميونوف وضع خطة جمعتني معه على نحو وثيق : كان سيستخدم مؤيديه وجنده فى الشمال الشرقى ومنغوليا الداخلية لاقامة قاعدة " ضد الشيوعيين " على ان أتولى الحكم هناك . وفتحت حسابا مصرفيا لسيميونوف لمساعدته على تغطية نفقات نشاطه ، وقد تولى تشنغ شياو شيوى تنظيم هذا الحساب وتزويد سيميونوف بالأموال كلما احتاج اليها . وأظن ان الوديعة المصرفية الأولى كانت ١٠ آلاف يوان .

وكان سيميونوف قد اوضح لي ذات مرة انه لا يحتاج للمال لانه سيتسلم ١٨٠ مليون روبل من اللاجئين السياسيين الروس البيض (فيما بعد رفع الرقم الى ٣٠٠ مليون) ، كما سيتلقى دعما ماليا من أمريكا وبريطانيا واليابان .

لكن طلباته على الاموال لم تتوقف متذرعا بأن " المبالغ الضخمة " لم تصل الى يديه بعد ، وكان فى كل مرة يمد يده الي يحدثنى عن مشروعه المذهل ، قال فى احدى المرات ان القائد العسكرى اليابانى فى تيانجين قد تفاهم مع تشانغ تسوه لين على السفر الى فنغتيان لمناقشة " الخطة الكبرى " ، ولكنه لم يجد لسوء الحظ سبيلا لتغطية نفقات سفره . وفى مرة أخرى قال ان القنصل السوفياتى فى شانغهاى أراد مقابلته بناء على تعليمات من رؤسائه للتفاهم معه على اتفاق تمنحه الحكومة السوفياتية بموجبه قسما من الشرق الأقصى لينشىء فيه حكما ذاتيا له ، وطلب منى مبلغا لسد تكاليف سفره الى طوكيو لاستقصاء هذا الأمر . وليس من المتيسر لي ان أحسب ما أخذه منى من الاموال ، ولكننى أذكر انه تلقى منى فى الأشهر الثلاثة التى سبقت " حادثة ١٨ سبتمبر" (٣٠) ٨٠٠ يوان .

كان من بين الوسطاء العديدين بينى وبين سيميونوف شخص يدعى

وانغ شى ادعى انه يتمتع بثقة سيميونوف المطلقة وانه على صلات وثيقة أيضا باليابانيين وأمراء الحرب الصينيين . وكنت أسمع منه دائما عبارات كهذه : " هذه أشد المراحل خطورة " ، " هذه هى الفرصة الأخيرة " ، " هذه اللحظة هى اللحظة الحاسمة التى لا تمر الا كل الف عام : هذه الفرصة يجب ألا تفوت " ، " لا تضيعوا هذه الفرصة — انها لن تعود ثانية قط " وهلم جرا . وكانت له القدرة على التحدث الي بحماس شديد . وقد دأب كذلك على كتابة مذكرات ملأها ببيانات عنيفة منها ان اليابانيين قرروا تجنيد ٨٠٠٠ كورى تحت قيادة سيميونوف مع تزويده بجميع الامدادات المالية ، وانه سيجند عشرة آلاف روسى أبيض بنفس الطريقة ، وان بريطانيا ستقطع علاقاتها بروسيا السوفياتية وتعطيه ٨٠ مليون يوان تودع فى مؤسسة هونغ كونغ وشانغهاى المصرفية . و" انهم ينتظرون فقط توثيق تقريره قبل تسليم الاموال . . . وان فرنسا وايطاليا تعطفان عليه أيضا وكلتاهما تريد ان تتعاون معه وان أمريكا سوف تقدم ٥ ملايين دولار اولا كما ستقدم مساعدة اخرى لتنظيم جيش دولى ضد الشيوعيين من المتطوعين فى مانشوريا ومنغوليا تحت قيادته ، لتدمير روسيا السوفياتية . "

ولما لم يكن تشنغ شياو شيوى فى حديقة تشانغ فى ذلك الوقت ، فان طلب وانغ شى لاجراء مقابلة شخصية معي لمناقشة خطته الجهنمية هذه قد لقى معارضة تشن باو تشن وهو سه يوان فلم يتمكن قط من دخول حديقة تشانغ .

كان هو سه يوان مسؤولا عن مكتبى فى تيانجين ، وكان هو الذى ينخل لي الناس والمذكرات ويحدد لي من يجب ان أراه وما سأقرأه . وقد اسندت اليه هذه المهمة لاننى رأيت انه أمين . وكان قد بين لي ان مذكرات وانغ شى عبارة عن نسيج من الكذب ، فقبلت نصيحته ونصيحة تشن باو تشن بأن لا تكون لي علاقة بوانغ شى او أى مندوب آخر عن سيميونوف .

ولكن تشنغ شياو شيوى كلمنى حال عودته الى تيانجين فى دفع المزيد من الأموال الى " المرشدين الأجانب " ، ومن بينهم نمساوى وانكليزى . وكان النمساوى نبيلا سابقا تولى ادارة مكتب فى ادارة منطقة الامتيازات النمساوية فى تيانجين . وقال انه رجل بالغ الأهمية فى اوروبا ويمكنه ان يقدم لنا دعمه هناك ، فعينته مرشدا ، وأرسلته الى أوروبا ليعمل باسمى ، وأعطيته ١٨٠٠ يوان راتبا لستة أشهر . وكان الانكليزى صحفيا يدعى روس ، قال ان من الضرورى ان تكون لي جريدة تنطق بلساني ، وطلب منى ٢٠ الف يوان لانجاز هذا الهدف . فأعطيته ثلاثة آلاف ولكن الصحيفة توقفت بعد بضعة أيام .

تمكن كثير من الناس من النفاذ الى داخل حديقة تشانغ بحجة ان لهم صلات بالعسكريين او انهم يؤيدون اعادة الملكية ، وذلك على الرغم من محاولات هو سه يوان لابقائهم فى البوابة . ومنذ عام ١٩٢٦ وحشد وراء حشد من الضباط المهزومين والساسة الفاشلين يتدفقون على مناطق الامتيازات الاجنبية ، بينما ازداد عدد الداخلين فى حمايتى عما كان عليه سابقا .

من اجدر هؤلاء بالذكر هو ليو فنغ تشى ، " تشوقه ليانغ الثانى " الذى زكاه أحد معاونى تشانغ شيون قائلا انه " تشوقه ليانغ حديث " وانه استراتيجى من الدرجة الأولى ، وبوجوده الى جانبكم فان مشروع اعادة الملكية العظيم سينجح بالتأكيد . كان ليو فنغ تشى فى الأربعين من عمره تقريبا ، وعندما قابلته ادعى أولا انه رجل ذو مقدرة جبارة ، ثم طلب منى تحفا ولوحات وتخطيطات وساعات ذهبية يستطيع بواسطتها ان ينشىء صلات مع أرباب السلطة .

" ان اللفائف المكتوبة بخط جلالتكم لا تعنى شيئا بالنسبة لأناس من هذا النوع . " كانت هذه هى المرة الاولى التى أسمع فيها شيئا كهذا . ومع اننى شعرت بعدم الارتياح لهذا القول ، الا اننى أعجبت به لصراحته . لقد شعرت انه تجرأ على قول أشياء لا يقولها الآخرون ، وكلماته كانت صادقة

بالتأكيد . وكنت متساهلا معه غاية التساهل ، فسمحت له بأخذ اعداد كبيرة من أثمن الأشياء التي فى حوزتي . وفيما بعد حدد بالضبط ما أراد . فقد طلب لواحد من معاوني تشانغ تسوه لين مجوهرات بلغت قيمتها عشرة آلاف يوان . ولكي يكسب ثلاثة ضباط آخرين من زمرة فنغتيان أشار الى انه يجب ان يعطى كل منهم عشر لؤلؤات من لآلىء البلاط ، كما طلب لاحدهم الدرة التى كانت فى أعلى القبعة الامبراطورية . وكانت رسائله المتضمنة مثل هذه الطلبات تصلني كل ثلاثة او خمسة أيام ، وكانت تغص بمثل هذه الجمل : " لكى يكسب المرء عبقريا حقيقيا يجب ان يكون سخيا . والبخل مطنة استصغار لصاحبه ، وعلى من يسعى الى هدف جليل ان لا يكون تفكيره ضيقا . "

ولو اننا أخذنا بهذه التقارير فان جميع ضباط زمرة فنغتيان تقريبا ، من رتبة قائد فيلق فما فوق (وبعض آمرى الأفواج أيضا) ورؤساء جمعية الرمح الأحمر الذين ينضوى تحت ألويتهم ٤٠٠ ألف رجل وابطال الغابات من قطاع الطرق يجب ان يتسلموا منى لآلىء وخزفيات اثرية والماسا ، ولكانوا جميعا قد أثيروا بافتقارى الى دقيق التفكير ، ولمكثوا ينتظرون فقط أمري لقيامهم بانتفاضة مسلحة ! ولكن مع انه لم يكن هناك حد لعدد الكنوز التى أخذها ليو فنغ تشي ، الا انه لم تظهر أية علامة على نشاط تلك القوات . وساعدتني نصائح تشن باو تشن على الشك فى هذه الأمور ، وأصبحت أقل رغبة فى العطاء . لقد تعود " تشوقه ليانغ الثانى " ان يستخدم فى محادثاته ورسائله النقاط التالية : " لقد انفقت كذا وكذا مبلغا ، وهذا لا يشمل نفقات سفرى وضيافتى " ، و" اننى أجد صعوبة كبيرة فى دفع اى مبلغ بدلا منكم بعد ان أنفقت ثروة أسرتى كلها " ، و" الحالة ملحة وهذه هى الفرصة الحاسمة . يجب ان تعطيني ٢٠ ألف يوان مهما كلف الأمر " .

وأدركت ان فى الأمر ما يسوء ولذلك لم أرسل له بعدها أى مبلغ . وأخيرا كتب الي والدموع فى عينيه ، يطلب عشر يوانات فقط . ثم بلغنى

انه قتل برصاص جيش فنغتيان بسبب اعمال احتيال ونصب قام بها فى الشمال الشرقى .

كنت على مشارف حادثة ١٨ سبتمبر عندما اختفى آخر واحد من قبيلة " المرشدين " عن نظرى ، فبعد ذلك بوقت قصير اعترف جميع أمراء الحرب الشماليين بسلطة حكومة الكومينتانغ . وعندها لم يبق عندي أى وهم بشأنهم ، فتوجهت بآمالى الى مكان آخر .

حادثة المدفن الشرقى

كانت سنة ١٩٢٨ بالنسبة لي سنة انفعالات وصدمات .

فى تلك السنة أصدرت حكومة تاناكا اليابانية بلاغا بعدم السماح للقوات الصينية بالدخول الى " مانشوريا او منغوليا " واردفته بارسال قوات الى جينان لاعتراض زحف قوات الكومينتانغ شمالا . ولاذت بالفرار جيوش تشانغ تسوه لين و وو بى فو وتشانغ تسونغ تشانغ ، أمراء الحرب الذين كنت على صلة بهم ، بعد ان لحقت بها سلسلة من الهزائم . وفيما كان عملائى يرسلون الي أخبارا طيبة مثيرة عن الطريقة التى يكسبون بها دعم أمراء الحرب ، كنت غالبا ما أقرأ فى الصحف ان واحدا او أكثر من هؤلاء العسكريين الموالين قد نفى أو قتل .

وسمعت ان كلا من حكومتى الشمال والجنوب فى الصين قد قطعت العلاقة بالاتحاد السوفياتى ، كما فعلت بريطانيا ، وان الكومينتانغ كان يقوم بحملة تطهير كبيرة فى صفوف الحزب . وبدا ان التهديد الذى كنت عرضة له من " الفيضانات المدمرة والوحوش المفترسة " الذين حدثنى عنهم تشنغ شياو شيوى وتشن باو تشن قد أصبح ضئيلا . ولكن هؤلاء أنفسهم أخبرونى أننى فى خطر شديد وان خصومى ينشطون فى كل مكان كما قرأت فى الصحف ان

هناك انتفاضة فى قوانغدونغ ، وفى تلك الأثناء تحالف فنغ يوى شيانغ الذى طالما اعتبرته "متطرفا" و"أحمر" مع تشيانغ كاى شيك وشن هجوما على أمراء الحرب الشماليين على امتداد سكة بكين ــ هانكو الحديدية . وفى النصف الثانى من عام ١٩٢٨ جاءت الأخبار المغمة كثيفة وسريعة : تشانغ تسوه لين مات ، والمفوض الأمريكى لدى الصين رتب تحالفا بين ابنه تشانغ شيويه ليانغ وتشيانغ كاى شيك ، وما الى ذلك من أخبار . ولكن الحادثة التى سببت لي أكبر صدمة هى سرقة المدفن الشرقى .

يقع هذا المدفن فى وادى مالان فى محافظة تسونهوا بمقاطعة خبى ، ويضم قبرى الامبراطور تشيان لونغ والامبراطورة الأرملة تسى شى . اما السارق فهو سون ديان ينغ مقامر وبائع أفيون ومعاون لتشانغ تسونغ تشانغ سابقا ، وقائد جيش تحت لواء تشيانغ كاى شيك لاحقا . وقد تمت السرقة تحت ستار مناورات عسكرية اعلن عنها المذكور وقطع على اثرها جميع الطرق المؤدية الى المدفن ، ثم طلب من جنده ان يحفروا . واستمر الحفر ثلاثة أيام بلياليها استخرجت خلالها جميع الكنوز التى كانت مدفونة مع تشيان لونغ وتسى شى .

كان تشيان لونغ وتسى شى من أكثر حكام أسرة تشينغ تبذيرا . وقد قرأت وصفا للقبرين سأوجزه فيما يلى ولو انه قد لا يكون دقيقا :

> يقع المدفن فى سرداب يؤدى اليه نفق مرصوف بالرخام الأبيض وتقطعه اربع بوابات حجرية ، وسقف المدفن مؤلف من قبة ثمانية الزوايا نقشت عليها تسعة تنانين ذهبية لامعة . والمدفن مقارب فى حجمه لقصر الوئام الأوسط فى المدينة المحرمة . وقد وضع الجسدان داخل تابوتين منجورين من خشب صلب مر بعملية تجفيف طويلة الامد ، وهما موضوعان فوق بئر ثمانية الزوايا . وقد دفن فى داخل الضريحين سبائك من الذهب والفضة واوعية جنائزية من الذهب والفضة أيضا ، هذا الى جانب مقادير كبيرة من المجوهرات النادرة . واحتوى ضريح تسى شى على مواد جنائزية من اللآلىء والأحجار الكريمة والزمرد

والماس ، ومن بينها تاج العنقاء الذى كانت تلبسه وكان مصنوعا من درر منظومة بأسلاك من الذهب . وكان على غطائها زهرة فاوانيا مصنوعة كليا من الاحجار الكريمة ، وعلى ذراعها سوار يبهر فى لمعانه ، صيغ على شكل أقحوانة وست زهرات برقوق صغيرة مرصعة كلها بماسات مختلفة الأحجام . وكان فى يدها صولجان لصيد الشياطين طوله أكثر من عشرة سنتيمترات مصنوع من الزمرد ، وفى قدميها حذاء من اللؤلؤ . والى جانب هذا كله يحتوى التابوت على سبع عشرة سبحة من اللآلىء والأحجار الكريمة وعدة أزواج من اساور الزمرد . ودفنت مع تشيان لونغ تخطيطات ولوحات وكتب وسيوف وحلى من اليشب والعاج والمرجان وتماثيل لبوذا من الذهب وما الى ذلك . أما الأشياء المصنوعة من الحرير فقد بليت ولم يعد من الممكن استبيانها .

وردنى التقرير بالسرقة من الموظف المسؤول عن حماية المدفن الشرقى ، وسبب لي صدمة أشد من تلك التى تلقيتها عندما طردت من القصر . كما سبب صدمة مماثلة للعشيرة الامبراطورية وكبار موظفي أسرة تشينغ السابقين . وتدفق الى منزلى أناس من جميع الفئات ، عبروا عن اشمئزازهم من جنود تشيانغ كاى شيك ، وأرسل كبار الأعوان السابقين فى كافة أنحاء البلاد مبالغ كبيرة من أجل اعادة ترتيب المدفن كما كان . واقيمت لوحات تأبين لتشيان لونغ وتسى شى فى حديقة تشانغ مع مناضد للبخور ، وجاء رجال أسرة تشينغ فى سيل لا ينقطع لينوحوا ويسجدوا ويبكوا امام اللوحات . وبعث بيت تشينغ واعوانه السابقون برقيات الى تشيانغ كاى شيك ويان شى شان قائد حامية منطقة بكين — تيانجين يطلبون فيها معاقبة سون ديان ينغ ويصرون على ان تقوم السلطات باصلاح القبرين . وتقرر ان تستمر المراسم الجنائزية فى حديقة تشانغ الى ان يتم الاصلاح .

وكانت ردة الفعل الأولية لدى حكومة تشيانغ كاى شيك مرضية . فقد أمر يان شى شان باجراء تحقيق ، كما ألقي يان هذا القبض علي قائد الفرقة

الذى أرسله سون ديان ينغ الى بكين . ولكن لم يمض وقت طويل حتى انتشر خبر اطلاق سراح ذلك الضابط ، وقرر تشيانغ كاى شيك ألا يتابع البحث فى هذه المسألة . وقيل ان سون ديان ينغ قد أرسل شيئا مما غنمه الى عروس تشيانغ كاى شيك الجديدة سونغ مي لينغ ، حيث أصبحت درر تاج العنقاء الذى كانت تلبسه تسى شى زينة فى حذاء عقيلة تشيانغ كاى شيك . واشتعل قلبي بحقد لم أستشعره من قبل . ووقفت أمام القاعة الجنائزية الكئيبة المظلمة وأخذت على نفسى هذا العهد امام رجال عشيرتى الباكين :

— اذا لم أنتقم من هذا الفعل الشنيع فلست آيشين — جيولوه !

وتذكرت ما قاله لي بو وى حين رآنى فى تيانجين لاول مرة فأعلنت قائلا :

— لن تفنى أسرة تشينغ العظيمة مادمت حيا !

وبلغ حماسى لاعادة الملكية والانتقام ذروته من جديد .

وفى تلك الأيام كان تشنغ شياو شيوى واوه تشن يوى من أقرب الناس الي وهما اللذان شحذا عزمي وزادا من سخطى ورغبتى فى الانتقام بما كانا يقصان علي من نوادر التاريخ وما ينقلان الي من الأخبار المستجدة . وقد حددا لي فى ذلك مهمتين اساسيتين : النضال ضد حكومة الكومينتانغ الى النهاية ، ومواصلة مراسم التأبين الى ان يتم اصلاح المدفن .

لكن الوضع استمر يتطور فى غير صالحنا وتوقف التحقيق فى سرقة المدفن ، ولم تعد السلطات الجديدة فى منطقة بكين — تيانجين تضم أصدقاء قدامى مثل دوان تشى روى ، وانتقل والدى وعائلته كلها من بكين الى تيانجين لأنه خاف من ان يستمر فى اقامته هناك . وتغير مزاجي من السخط الى الاكتئاب. وأدرك نزلاء حديقة تشانغ ان زواج تشيانغ كاى شيك السمسار المرتبط بعالم الرذيلة والاجرام من سونغ مى لينغ ابنة العائلة الكومبرادورية العاملة فى خدمة مصالح بريطانيا والولايات المتحدة دليل على ان تشيانغ كاى شيك أشد تبعية للمستعمرين من دوان تشى روى او تشانغ تسوه لين أو سون تشوان فانغ

او وو بي فو . ومع نهاية هذه السنة أصبحت حكومة تشيانغ كاي شيك فى نانجينغ معترفا بها من جميع البلدان بما فى ذلك اليابان ، وأصبحت سلطته أكبر من سلطة أى من أمراء الحرب السابقين . وشعرت بأن مستقبلي كئيب جدا وانه فى ظل رجل طماع كهذا ، لا مجال مطلقا للتفكير ليس فقط فى اعادة الملكية ، بل وحتى الاحتفاظ بموطىء قدم فى البلاد . ولم أجد سبيلا ، غير ان ألجأ الى العرافين لأحاول استفتاح مصير حكومة تشيانغ كاي شيك ومصيرى .

كنت ألتهب شوقا الى الانتقام والسعي لتحقيق أهدافى بالاعتماد على ارادتى دون انتظار ما تفعله السماء . ان خبرتى التى اكتسبتها خلال السنوات الماضية مع تجربة ظهور تشيانغ كاى شيك جعلتنى أعتقد بأنه اذا ما أراد المرء انجاز شيء ما ، فان من الضرورى ان تكون له سلطة عسكرية ، لأن الأجانب يدعمون فى الواقع الرجل الذى لديه جيش . فعندما يكون لـ " أمبراطور أسرة تشينغ العظيم " قوات فلا بد ان الأجانب سيكونون معه أصدق مما هم مع اولئك العسكريين المنحدرين من عصابات قطاع الطرق والمتشردين . وقررت ان أرسل بعض أفراد أسرتى الموثوقين الى المدرسة العسكرية فى اليابان ، معتبرا ذلك أهم من ذهابى انا الى الخارج .

وقد وقع اختيارى اول الامر على شقيقى بو جيه وزوج شقيقتى رون تشى ، فطلبت من القنصل اليابانى فى تيانجين ان يزكى لهما معلما " خصوصيا " يعلمهما اللغة اليابانية . واختار تویاماتاكيو لهذا العمل ، عضوا فى " جمعية التنين الأسود اليابانية " كان يعرف كثيرا من الساسة اليابانيين . (سار هذا الرجل فيما بعد الى اليابان ليعمل من اجل تحقيق حلمي فى اعادة الملكية ، لكنه أبعد عنى مكرها بعد ان ذهبت الى الشمال الشرقى لأنه لم يكن منتميا الى زمرة الجيش .) وبعد أن اعطى بو جيه ورون تشى بعض الدروس اليابانية عاد الى اليابان لترتيب دراستهما هناك . وبعث من هناك يقول انه على الرغم من

أنهما لن يتمكنا حاليا من الدخول الى المدرسة العسكرية التابعة للجيش اليابانى ، الا أنهما يستطيعان أولا ان يذهبا الى مدرسة خصوصية لأبناء النبلاء اليابانيين . وغادر جنرالا المستقبل الى اليابان مع تويياما فى مارس ١٩٢٩ ، بعد سبعة أشهر من حادثة المدفن الشرقى .

القنصلية والحامية وجمعية التنين الأسود

مع حلول عام ١٩٢٨ رأى معظم مرشدي ان الأمل الوحيد فى اعادة الملكية يكمن فى اليابان التى يمكن ان أكون نافعا جدا لها فى الشمال الشرقى . ونصحونى أخيرا باجراء مفاوضات حذرة مع اليابانيين الذين وجدت نفسى أكثر فأكثر اتفاقا معهم .

بينت قبل الآن كيف بدأت أثق باليابانيين بعد ان أصبحت موضع " اهتمامهم " منذ دخلت القصر الشمالى . وبعد اقامتى فى المفوضية اليابانية وانتقالى الى تيانجين ازددت ثقة بأن اليابان ستكون المصدر الرئيسى للدعم الأجنبى من أجل اعادة ملكي فى المستقبل .

ولقد دعانى القنصل اليابانى الى زيارة مدرسة ابتدائية للصبيان اليابانيين خلال سنتى الأولى فى تيانجين . فاصطف صبيان المدرسة على طول الطريق يحملون الأعلام الورقية ، واستقبلونى يهتفون : " بانتساى " (عاش ! عاش !). وقد ملأ هذا المشهد عيني بالدموع ، ورحت أتنهد لحالتى . وعندما كان القتال فى احدى الحروب بين أمراء الحرب يقترب من تيانجين انتظمت جميع الحاميات الأجنبية داخل المدينة فى جيش متحالف ، ولما أعلنوا انهم سيتدبرون أمر الجيش الوطنى اذا هو اقترب كثيرا من مناطق الامتيازات قام قائد الحامية اليابانية بزيارة الى حديقة تشانغ خصيصا ليقول لي : " نرجو جلالتكم ألا تقلق . لقد صممنا على عدم السماح للجنود الصينيين بأن يطأوا

مناطق الامتيازات . " ولقد سررت كثيرا لسماعي هذا القول .

وفى عيد رأس السنة او عيد ميلادى اعتاد القنصل اليابانى والضباط الكبار فى الحامية ان يأتوا لتهنئتى . وكانوا يدعوننى أيضا لمشاهدة العرض العسكرى فى عيد ميلاد الامبراطور اليابانى . وأذكر ان القائد اليابانى دعا عددا من اللاجئين السياسيين ذوى المراتب العالية الى أحد هذه العروض . وعندما وصلت مرة الى ساحة العرض تقدم القائد على حصانه خصيصا ليحيينى ، ولما انتهى العرض هتف جميع الضيوف الصينيين مع اليابانيين بصوت واحد :

" تنوبانتساى " (عاش الامبراطور اليابانى) .

وقد اعتاد العقداء فى هيئة أركان الحامية اليابانية ان يأتوا ويخبرونى بالشؤون الجارية ، وظلوا يفعلون ذلك سنوات طويلة على النحو الذى يمليه الواجب : كانوا أحيانا يجلبون معهم رسوما بيانية وجداول أعدوها خصيصا . وكان أحد هؤلاء هو يوشيوكا الذى أصبح فيما بعد " ملحقا لدى البيت الامبراطورى"، وقد ظل معي عشر سنوات فى عهد " امبراطورية مانشوريا " ، وسأتحدث عنه كثيرا فى الفصل السادس .

المواضيع الرئيسية التى كنت أبحثها مع ضباط الأركان اليابانيين هى الحروب الأهلية ، وكانوا غالبا ما يقدمون تحليلات مثل " ان السبب الاساسى فى الفوضى التى تعم الصين هى انها تفتقر الى قائد وليس فيها امبراطور . " وكانوا يتحدثون عن تفوق النظام الامبراطورى اليابانى ويقولون ان قلوب أبناء الشعب الصينى لا يكسبها الا " الامبراطور شيوان تونغ " . وكان ضعف القوات المسلحة الصينية وانحلالها يشكل الموضوع المفضل لديهم ، وقد قارنوها بالطبع مع الجيش اليابانى الامبراطورى . وهذا الائتلاف بين الأحاديث والعروض العسكرية جعلنى أومن ايمانا قويا بقدرة القوات المسلحة اليابانية وأثق ثقة كبيرة بالدعم الذى تقدمه لي .

كنت أتمشى ذات مرة بجانب نهر باى فرأيت مركبا حربيا يابانيا

يرسو فى النهر . ولا أدرى كيف ميزنى الربان ، ولكنه ظهر فجأة على ضفة النهر ودعانى بكل احترام الى زيارة مركبه . وعندما صعدت المركب ، المسمى فوجى ، اصطف ضباط البحرية اليابانيون لتحيتى . ولما كانت هذه مناسبة مفاجئة ولم يكن بيننا مترجمون فقد اضطررنا الى التحدث كتابة (٣١) . ورد لي الربان فيما بعد الزيارة مع عدد من الضباط ، وأعطيته صورة لي موقعة بناء على طلبه ، وأشار الى انه قد اعتبر ذلك شرفا عظيما . وجعلتنى هذه الحادثة أشعر بأن اليابانيين يحترموننى من صميم قلوبهم . وقد صاروا الآن يشغلون مجالا أرحب فى تفكيرى بعد اخفاقى فى كسب أمراء الحرب وشراء السياسيين والمرشدين الأجانب .

كان اليابانيون فى البداية يمثلون فى نظرى كيانا منفردا لا يشمل بالطبع سكان اليابان العاديين وانما يتكون من اعضاء المفوضية اليابانية والقنصلية وحامية تيانجين ، وكذلك بعض السماسرة الذين كانوا على صلة مع لوه تشن يوى وشنغ يون ممن ليس لهم منصب عسكرى او مدنى . فهؤلاء هم الذين " حمونى " وعاملونى كـ " امبراطور " وشاركونى جميعا فى نفس الازدراء للجمهورية ، كما اظهروا اشادتهم بأسرة تشينغ العظيمة ، وعبروا جميعا عن عزمهم على مساعدتى عندما أثرت فى البداية مسألة ذهابى الى اليابان .

كنت قد قررت الذهاب الى اليابان باقناع من لوه تشن يوى عندما كنت خائفا من اقتراب جيش الحملة الشمالية عام ١٩٢٧ ، وبعد المناقشات مع القنصل اليابانى أحيلت المسألة الى اليابان . فعبرت حكومة تاناكا عن الترحيب وتقرر ان أستقبل هناك بالاسلوب الملائم لعاهل أجنبى . وأخبرنى لوه تشن يوى ان السلطات العسكرية اليابانية قد قامت باستعدادات لتزويدي بحراسة عسكرية اثناء سفرى . ولكن بعد ان هدأت الأزمة أقنعنى تشن باو تشن وتشنغ شياو شيوى بعدم الذهاب . ولما لم تعد شعارات " تسقط الامبريالية " و" ألغوا المعاهدات غير المتكافئة " سائدة بعد تأسيس الحكومة الوطنية فى

نانجينغ ، بدأت أدرك ان اليابانيين الذين ظلوا يعاملونني بنفس " الاحترام " و" الحماية " السابقين ، قد انقسموا فى مواقفهم ازاء ضرورة ذهابي الى الخارج . وقد اسخطنى هذا الانقسام أشد السخط .

قال لي لوه تشن يوى فى النصف الثانى من عام ١٩٢٧ : " على الرغم من ان منطقة الامتيازات اليابانية آمنة نوعا ما ، الا ان هناك أناسا من جميع الفئات حول هذه المنطقة . ان هيئة اركان الحامية اليابانية قد ابلغت بتسلل عدد من العملاء السريين (يشير الى الناس الذين كانوا يعملون سرا فى اماكن شتى من الصين) من الحزب الثورى (عبارة استخدمت فى حديقة تشانغ للاشارة كل من الحزب الشيوعى والكومينتانغ) ، لذا فان أمن جلالتكم يجب ان يثير الاهتمام . وفى رأى تابعكم سيكون من الأفضل ان تقيموا فى اليابان فى مثل هذه الظروف ، ولن يكون هناك اعتراض على الذهاب الى ليوشون أولا . فالأمير قونغ (بو وى) قد رتب كل شيء هناك ، والسلطات العسكرية اليابانية راغبة فى تقديم المساعدة وتحمل مسؤولية حماية جلالتكم . " وكنت قبل هذا منزعجا من " العملاء السريين للحزب الثورى " ، فتجدد عزمي على الذهاب الى ليوشون بعد سماع هذا التقرير . ولذا أمرت تشنغ ، متجاهلا احتجاجات تشن باو تشن وتشغ شياو شيوى ، بأن يذهب الى القنصل اليابانى كاتو ويطلب منه رؤيتى شخصيا . فتردد تشنغ شياو شيوى لحظة ، ثم سألنى :

ـــ اذا جلالتكم دعوتم كاتو الى القدوم لرؤيتكم ، فمن سيترجم ؟ شيه جيه شى ؟

وأدركت ما قصد . كان شيه جيه شي مقربا جدا الى لوه تشن يوى ، وكان تشنغ شياو شيوى لا يرتاح للاستعانة بأحد رجال لوه تشن يوى ، وكنت مدركا أن لوه لن يكون مسرورا بأن يقوم ابن تشنغ او ابن شقيقة تشن باو تشن بهذه المهمة . وفكرت فى الأمر مليا وأعلنت قراري التالي :

ـــ سآتى بمترجم للانكليزية . كاتو يعرف الانكليزية .

ووصل كاتو مع مساعديه الاثنين . وبعد أن استمع لطلبى قال :

— لا أستطيع ان أعطى جلالتكم جوابا فوريا عن هذه المسألة ، اذ لابد لي من احالتها الى طوكيو .

وتساءلت ان كان ضروريا احالة هذه المسألة الى طوكيو ؟ أليست هيئة اركان الحامية اليابانية قد أخبرت لوه تشن يوى بأنه لن تكون هناك مشكلة بهذا الخصوص لاسيما وان بعض اللاجئين الاثرياء فى تيانجين كانوا يذهبون الى ليوشون فرارا من القيظ حتى دون ان يبلغوا القنصل اليابانى بذلك ، فلماذا اذن كل هذه الضجة بخصوصى ؟ وقبل ان أنتهى من قول هذا كله سألنى كاتو سؤالا مربكا :

— هل يمكن ان أسأل ان كانت هذه رغبة جلالتكم ؟

فأجبت دون أدنى تردد :

— نعم ، انها رغبتى .

وقلت مرة ثانية انني سمعت مؤخرا بأنني سأكون عرضة للخطر فى تيانجين . فبناء على معلومات الحامية اليابانية عرفت ان الثوريين قد ارسلوا مؤخرا عددا من عملائهم السريين الى هنا : والقنصل يدرك هذا بالتأكيد .

فقال كاتو مغتما :

— هذه كلها اشاعات ، لا داعي الى ان يصدق جلالتكم ذلك .

واستغربت كيف يعتبر تقارير المخابرات العسكرية اشاعات . فقد سبق لي على اساس هذه التقارير ان طلبت منه زيادة قوة حرسي واستجاب هو لطلبي فكيف هو الآن لا يصدق بالتقارير ؟

— كيف يمكن لتقارير المخابرات العسكرية ان تكون اشاعات ؟

وظل كاتو صامتا وقتا طويلا ، بينما تململ مساعداه على الأريكة فى عدم ارتياح . ثم قال أخيرا :

— يمكن لجلالتكم ان تثقوا تمام الثقة بأنه لا خطر هناك أبدا . وطبيعى

ان أحيل الى حكومتى مسألة الذهاب الى ليوشون التى عرضها جلالتكم .
هذه المحادثة أعطتنى الايحاء الأول بالتنافر القائم بين القنصلية والحامية . واعتبرت هذا أمرا غريبا ومزعجا فى نفس الوقت ، فأرسلت فى طلب لوه تشن يوى وشيه جيه شى وسألتهما عن ذلك ، فاخبرانى بأنهما سمعا من افراد الحامية اليابانية او من أصدقائها ما أكد على ان الأمور كانت كذلك . وقالا أيضا :

ـ ان تقارير المخابرات العسكرية موثوق بها تماما . وهى تعطى دائما صورة واضحة عن كل تحرك للثوريين . وعلى أية حال ، حتى اذا كانت تقارير الاغتيال مجرد اشاعات ، فان علينا ان نظل حذرين .

وبعد بضعة أيام أخبرنى والد زوجتى رونغ يوان ان بعض أصدقائه ممن يقيمون فى مناطق الامتيازات الاجنبية أخبروه بأن السفاكين الذين يعملون لصالح فنغ يوى شيانغ قد وصلوا مؤخرا الى داخل منطقتي الامتيازات البريطانية والفرنسية ، لذا فان الوضع مخيف جدا . كما أخبرنى احد أفراد بيت تشينغ بأنه رأى أناسا مريبين بالقرب من البوابة الرئيسية يتطلعون الى داخل الفناء . فاستدعيت فى الحال رئيس مكتب شؤونى العامة وقائد الحرس وأخبرتهما بأن يطلبا من البوليس اليابانى تشديد الاحتياطات الأمنية عند البوابة . وأصدرت كذلك تعليمات الى الحرس بأن يراقبوا الغرباء خارج البوابة مراقبة دقيقة وألا يسمحوا لأحد بالخروج او الدخول ليلا .

وذات ليلة نهضت على ازيز طلقة خارج النافذة ، تبعتها على الفور طلقة أخرى . فقفزت من سريرى وأمرت الحرس بالتجمع ، مقتنعا بأن عملاء فنغ يوى شيانغ السريين قد وصلونا أخيرا ونهض البيت كله ، وانتشر الحرس فى كل مكان . واستنفر البوليس عند البوابة الرئيسية ، وخرج أفراد البوليس السرى اليابانى المتمركزون فى المنزل للقيام بالتحريات . وعندما قبضوا على الرجل الذى أطلق الرصاصتين تبين لدهشتى أنه يابانى .

وفى اليوم التالى أخبرنى تونغ جى شيوى ، رئيس مكتب شؤونى العامة ان هذا الشخص هو عضو فى جمعية التنين الأسود يدعى كيشيدا ، وانه عندما أخذ الى دار البوليس اليابانى أبعدته هيئة اركان الحامية اليابانية على الفور . فأصبحت لدي الآن فكرة واضحة عن مجرى الأمور .

وكان لي بعض الاتصالات المسبقة بأعضاء جمعية التنين الأسود . ففى عام ١٩٢٥ قابلت تسوكودا تويو . وهو شخصية هامة فى الجمعية بتشجيع من اوه تشن يوى . وكان لوه قد أخبرنى بأن كثيرا من المتنفذين وغيرهم فى اليابان ، ومن بينهم بعض العسكريين ، يخططون لمساعدتى على اعادة الملكية ، وانهم أرسلوا ممثلهم تسوكودا ليجرى معى حديثا خاصا . وقال ان هذه فرصة يجب ألا تفوت وان علي الاجتماع به حالا ولم أكن قد سمعت بتسوكودا هذا من قبل ، ولكن بعض موظفى ادارة الأسرة ممن يعرفونه قال لي انه كان يكثر التردد الى القصور الأميرية منذ ثورة ١٩١١ وانه كان على علاقة جيدة بعدد من أمراء العشيرة الامبراطورية . وقد تأثرت بما قاله لي لوه تشن يوى ، الا اننى شعرت بأن القنصل اليابانى الذى هو الممثل الرسمى لبلاده والذى هو سيحمينى، يجب ان يدعى لحضور المحادثة . فأرسلت له شخصا ليبلغه بذلك ويدعوه للحضور . وحالما رأى تسوكودا القنصل استدار هاربا ، وهذا ما أدهش تشن باو تشن وتشنغ شياو شيوى وكل من كان حاضرا . وعندما أنظر الى هذا الأمر اليوم يبدو واضحا ان هذه الحركة من لوه تشن يوى ومحاولة كيشيدا اخافتى بالطلقتين ليلا كان لهما علاقة بنشاطات تسوكودا التى كانت بدورها مدعومة دون شك من هيئة اركان الحامية اليابانية .

فيما بعد أرسلت فى طلب تشن باو تشن وتشنغ شياو شيوى لأسألهما عن رأيهما بمسألة الطلقتين . فقال تشنغ : " يبدو ان كلا من الجيش والحكومة اليابانيين يريد لجلالتكم .ان تقيموا تحت حمايتهم فى المناطق الخاضعة لسيطرتهم . ومع انهما لا يتعاونان مع بعضهما ، الا ان هذا لا يسبب أدنى سوء

لنا . ولكن تصرفات لوه تشن يوى متهورة جدا وقد تؤدى الى نكبة ، فيجب ألا تعهد اليه بعمل هام قط . "

ولكن رأى تشن باو تشن كان كما يلى : " ان كلا من هيئة اركان الحامية اليابانية وجمعية التنين الأسود يتصرف دون أدنى مسؤولية . فلا تخضع لأى احد ماعدا المفوض اليابانى والقنصل اليابانى . " وبعد التفكير فى هذه المسألة شعرت انهما مصيبان ، وقررت ألا أطلب من القنصل سماحا بمغادرة تيانجين . ولم أعد أهتم بلوه تشن يوى ، الذى باع منزله فى تيانجين فى السنة التالية وذهب الى داليان .

ومن الغريب انه حالما غادر لوه تشن يوى قلت الاشاعات ، ولم يعد رونغ يوان وتشى جى تشونغ يجلبان تقارير المخابرات العسكرية المدهشة . لكنى لم أبدأ فى فهم السبب الا بعد ذلك بوقت طويل .

وكان مترجمى للغة الانكليزية هو الذى أوضح لي الأمور ، لانه كان سلفا لوالد زوجتى رونغ يوان . ولانه كان يحكم عمله على صلة بهيئة اركان الحامية اليابانية وقد عرف شيئا عما كان يجرى خلف الكواليس أخبرنى به فيما بعد . من ذلك ان هيئة اركان الحامية اليابانية قد أنشأت منظمة سرية خاصة لمعالجة شؤون حديقة تشانغ ، وأن لوه تشن يوى ورونغ يوان وشيه جيه شى على الأقل كانوا على صلة بهذه المنظمة ، التى كانت قاعدة فى بيت معروف لعامة الناس بأنه دار مينو .

وبعد ان قام مترجمى بالترجمة لي فى مقابلتى مع كاتو استبقاه لوه ورونغ وشيه لأنهم أرادوا ان يعرفوا ما جرى فى المحادثة . واثاروا ضجة عندما سمعوا ان كاتو لم يكن متحمسا لذهابى الى الخارج ، وقد استخلص المترجم من نقاشهم ان عضوا من هيئة أركان الحامية اليابانية قد أخبر لوه بأنهم يريدون أخذي الى ليوشون . وقام لوه والآخرون بأخذ المترجم الى دار مينو ليروا ضباط الأركان ، ومع انهم لم يجدوه الا ان المترجم استطاع حينئذ اكتشاف

المنظمة المذكورة . وفيما بعد سمع من رونغ يوان والآخرين بأنهم كانوا يحصلون هناك على أفيون وفتيات واموال .

كان مينو تومويوشى ، صاحب الدار ، رائد ركن يكثر التردد الى حديقة تشانغ مع قائد الحامية اليابانية . ولم اتخيل قط فى ذلك الوقت ان هذا الرجل قد أنشأ صلات سرية مع اعضاء أسرتى ، وعرف كل ما كان يجرى فى حديقة تشانغ ، وانه قد استخدم رونغ يوان وغيره لبث الاشاعات التى جعلتنى أرغب فى الهروب الى ليوشون . وعندما سمعت بعض الحقائق عن دار مينو أدركت ان السبب الذى دفع الجيش اليابانى الى بذل جهوده لكسب رونغ يوان وأمثاله هو انهم كانوا على صراع مع القنصلية اليابانية بشأنى . وهذا الصراع ، كما أشار تشنغ شياو شيوى ، لم يكن الا فى صالحى .

اما جمعية التنين الأسود فقد افادنى تشنغ شياو شيوى بشىء عنها فيما بعد . كانت هذه الجمعية ، أكبر منظمات السماسرة اليابانيين وكان اسمها اولا " جمعية المحيط الأسود " . وقد تأسست على يد هيراوكا كوتارو بعد الحرب الصينية — الفرنسية (١٨٨٣—١٨٨٥) . وكانت عبارة عن منظمة للوكلاء السريين مهمتها القيام بنشاطات تجسسية فى الصين . وقد انشأت لهذا الغرض قواعد فى فوتشو ويانتاى (تشيفو) وشانغهاى ، ونشطت تحت ستار قنصليات ومدارس ومحلات تصور . ويشير اسم جمعية التنين الأسود الى " اجتياز نهر آمور " (الاسم الصينى لهذا النهر هو نهر التنين الأسود) ، وقد ظهرت هذه الجمعية لاول مرة عام ١٩٠١ ، ولعبت دورا هاما فى الحرب الروسية — اليابانية (١٩٠٤—١٩٠٥) ، وقيل ان تعداد عضويتها قد وصل الى مئات الآلاف ، وان لها اعتمادات مالية هائلة . وكان تویاما میتسورو من أشهر قادتها ، وقد تغلغل أعضاؤها تحت توجيهه الى كل طبقة من طبقات المجتمع الصينى من نبلاء أسرة تشينغ وكبار موظفيها الى الباعة المتجولين وحتى العاملين فى حديقة تشانغ . وكان كثير من الشخصيات اليابانية (مثل دويهارا وهيروتا كوكى

وهيرانوما كيتشيرو وآريتاها تشيرو وكاتسوكى سايجى) من أتباع توياما . وقد ذكر تشنغ شياو شيوى ان توياما هو بوذى مؤمن له لحية شمطاء طويلة ووجه " سمح " ، وكان شغوفا بالورود ويكره ان يغادر حديقته . ومع ذلك فقد خطط هذا الرجل ونفذ مؤامرات وجرائم مرعبة .

ويجب ان يرد الفضل الى لوه تشن يوى فى اعتراف تشنغ شياو شيوى بسلطة جمعية التنين الأسود والجيش اليابانى . ان تشنغ ولوه وتشن باو تشن يمثلون أصلا ثلاث مدارس مختلفة . فقد اعتبر لوه كل ما يقوله العسكريون او شخصيات التنين الأسود موثوقا تماما ، والسبب الرئيسى فى ثقته بسيميونوف يرجع الى انه هو الآخر على صلة بالجمعية . ورأى تشن باو تشن من ناحية أخرى انه لايمكن الثقة بأحد من اليابانيين ما عدا أعضاء القنصلية الذين يمثلون الحكومة اليابانية . ووقف تشنغ شياو شيوى اول الامر صراحة الى جانب تشن باو تشن ، ولكن ادعاءات لوه وسلوك جمعية التنين الأسود الشائن مكنته فيما بعد من أن يرى الطريقة التى كانت تسلكها بعض القرى فى طوكيو وان يتكهن بالنوايا الحقيقية للسلطات اليابانية . لقد رأى ان اليابان قوة يمكنه الاعتماد عليها ، فقرر ان يترك مؤقتا فكرة الادارة المشتركة للصين من جانب جميع الدول الأجنبية ، وذهب الى اليابان ليطلب مساعدة جمعية التنين الأسود وهيئة الأركان العامة اليابانية .

كان تشنغ شياو شيوى يأمل اول الامر بزيادة تدخل اليابان فى السياسات الصينية بعد أن يئس من الحصول على دعم دولي لقاطع الطريق الروسى الأبيض سيميونوف . وعندما غير خطه أصبحت لديه وجهة نظر أعمق بكثير مما لدى لوه تشن يوى ، ولم يعد يولى اهتماما بـ " دار مينو " او هيئة اركان الحامية اليابانية او القنصلية اليابانية فى تيانجين . كان هدفه طوكيو . ولكنه فى ذلك الوقت لم يعتبر اليابان مساعدنا الاجنبى الوحيد ، فقد رأى انها مساعدنا الأول الى حد ما .

وكان قد ذهب الى اليابان باذن منى وبموافقة من المفوض اليابانى يوشيزاوا . وهناك أجرى اتصالا بالجيش وجمعية التنين الأسود ، وأبلغنى بارتياح كبير لدى عودته ان أكثرية المتنفذين فى اليابان قد عبروا عن " اهتمامهم " بى و" تعاطفهم " معى بخصوص اعادة الملكية وأظهروا اهتماما بخططى للمستقبل . وقال انه يجب علينا ان نتحين الفرصة لنطلب المساعدة .

وخلال وجوده فى اليابان قابل مختلف أصناف الناس الذين كانوا مهتمين باعادة الملكية ، من بينهم موظفون عسكريون ومدنيون كانوا قد اتصلوا بى فى بكين وتيانجين ، وكذلك تسوكودا الشخصية الهامة فى جميعة التنين الاسود والذى كان قد هرب لدى رؤيته القنصل اليابانى ، وكيشيدا عضو الجمعية الذى أطلق الطلقتين فى تلك الليلة . وقابل أيضا بعض الشخصيات الهامة ممن كانوا سابقا بعيدين عن الأنظار وأصبحوا فيما بعد رؤساء وزارات او وزراء حرب او شغلوا مناصب هامة أخرى (٣٢) . وربما كان تشنغ شياو شيوى قد استثير جدا بطريقة رد فعلهم على سياسته " سياسة فتح البلد كله " . وعندما تدفق الحشد الأول من " الضيوف " اليابانيين من خلال " الباب المفتوح " بعد تأسيس " امبراطورية مانشوريا " كان ما يزال متشبثا بحلمه فى الادارة المشتركة واعلان سياسة " الباب المفتوح والفرص المتساوية " على العالم الخارجى . لقد كان كخادم ساعد عصابة لصوص على فتح بوابة منزل سيده ، لكن كرمه لم يقف عند هذا الحد فاراد ان يوجه الدعوة الى جميع العصابات الاخرى لتدخل ، مما حدا بالعصابة الأولى الى رفسه فى فورة غضب .

الحياة فى القصر المؤقت

بعد ان أمضيت مدة فى حديقة تشانغ شعرت بأنها أفضل مكان الى ان يصبح الوقت مؤاتيا لاعادة الملكية او أجبر على المغادرة . وهذا كان أحد

الأسباب فى فتور تحمسى للذهاب الى الخارج .

لقد بدا لي ان حديقة تشانغ (وفيما بعد الحديقة الهادئة) خالية من جميع الأشياء التى كنت أكرهها فى المدينة المحرمة الى جانب احتفاظها بكل الضروريات . ان أكثر ما كرهته فى المدينة المحرمة هو اولا قيودها التى لم تسمح لي حتى بركوب سيارة او الخروج للتمشى فى الشوارع ، وثانيا هو ادارة الأسرة المزعجة للغاية . ان لدي الآن حرية التصرف كما يحلو لي ، وليس بوسع المعنيين بى الا ان يحتجوا ولكنهم لا يستطيعون التدخل كما كانوا .

ان العنصر الجوهرى فى حياتى داخل المدينة المحرمة ، وهو الهيبة الامبراطورية بقى هنا مصونا . ومع اننى الآن ألبس سترة وثوبا لصينيين عاديين ، او فى غالب الأحيان ملابس غربية بدلا من الثياب الامبراطورية الثقيلة ، الا ان الناس ظلوا يسجدون او يركعون لي . وكان مقر اقامتى هذا قد بنى فى الاصل منتزها ، بلا آجر مزجج او دعائم منقوشة ومطبوعة بالرسوم ، ولكنه مع ذلك ظل يدعى " قصرا مؤقتا " . وقد وجدت فيه منزلا أجنبى الطراز بمغاسل حديثة وتدفئة مركزية أفضل بكثير مما فى قصر تهذيب النفوس . وكان النبلاء يأتون من بكين بالتناوب ليقوموا بالواجبات المطلوبة . وقد اتخذت من حجرة بيع التذاكر السابقة فى الحديقة " مكتب حراسة بوابة السماء الصافية " . ومع انه لم تعد هناك " مكتبة جنوبية " او " قاعة الاجتهاد العظيم " او " ادارة الأسرة " ، الا ان الناس جعلوا من مكتب بيت تشينغ المرابط فى تيانجين دعامتهم الروحية المشتركة . وظللت أخاطب تماما بنفس الطريقة السابقة ، والتواريخ ظلت تعطى وفقا لعهد شيوان تونغ (٣٣) . وهذا كله بدا لي طبيعيا وضروريا .

كان الموظف الوحيد من كبار موظفى ادارة الأسرة والذى بقى معى هو رونغ يوان . اما الآخرون ، فتولى بعضهم تعهد ممتلكاتى فى بكين وتقاعد بعضهم لتقدمهم فى السن . وقد اصدرت دفعة اولى من المراسيم بعد وصولى

الى تيانجين تضمنت المرسومين التاليين ، أحدهما : " تعيين تشنغ شياو شيوى وهو سه يوان ويانغ تشونغ شى ورن سو وتشينغ فانغ تشانغ وشياو بينغ يان وتشن تسنغ شاو ووان شنغ شيه وليو شيانغ يه مستشارين لي فى تيانجين . والثانى : " تأسيس مكتب ادارى تحت اشراف تشنغ شياو شيوى وهو سه يوان ، ومكتب شؤون عامة تحت اشراف تونغ جبى شيوى ، ومكتب للمالية تحت اشراف تشينغ فانغ تشانغ ، ومكتب للعلاقات الخارجية تحت اشراف ليو شيانغ يه " . وكان تشن باو تشن ولوه تشن يوى وتشنغ شياو شيوى اعوانا مقربين أراهم يوميا . وكان عليهم المجيء كل صباح الى الغرف الغربية خارج المبنى الرئيسى لينتظروا " استدعاءهم لمقابلتى " . اما الذين يطلبون " مقابلتى " من غيرهم فكانوا ينتظرون فى حجرة صغيرة عند البوابة الرئيسية ، وكان فى عدادهم جنود وساسة وموظفون سابقون فى اسرة تشينغ ونوعيات شتى من الشخصيات الحديثة والشعراء والكتاب والأطباء والعرافين والمنجمين والفراسين ورئيس حزب الشباب الرجعى وبعض نجوم التنس والصحفيين واحد أعضاء لجنة الانضباط فى الكومينتانغ . وكان البوليس اليابانى المتمركز فى حديقة تشانغ ، قد أقام فى منزل مقابل ، وكان يلاحظ القادمين والمغادرين ويسجل اسماءهم . وكنت كلما خرجت يتبعنى واحد منهم .

وكانت الحالة الاقتصادية فى حديقة تشانغ اقل بحبوحة بالطبع مما كانت عليه فى المدينة المحرمة ، ولكن ما تزال عندى ثروة هائلة . فقد تحولت بعض النفائس العديدة التى جلبتها معي من المدينة المحرمة الى اموال نقدية تدر علي فوائد منتظمة فى المصارف الأجنبية ، وبعضها الآخر تحول الى عقارات تدر على ايجارات شهرية . ومازلت أملك مساحة كبيرة من الأراضى فى الشمال والشمال الشرقى . وقد أنشأ بيت تشينغ والسلطات الجمهورية معا مكتبا خاصا لمعالجة تأجير وبيع هذه الأراضى التى كانت " ممتلكات خاصة للامبراطور " . وكانت حصتنا من بيع هذه الممتلكات أحد مصادر دخلنا ، رغم ان الجانبين

كان لهما سهم فى الغنيمة . وبالاضافة الى ذلك ما زلت أملك مقادير كبيرة من الكنوز الفنية التى نقلتها انا وبو جيه فى خطتنا السابقة للهروب فى القصر كما وصفت فى الفصل الثالث .

وبعد ان انتقلت الى تيانجين كانت هناك أماكن كثيرة ترسل اليها الاموال شهريا ، وأنشىء لهذا الغرض عدد من المكاتب : " مكتب بكين " ، " مكتب المدافن والمعابد " ، " مكتب لياونينغ " ، " مكتب العشيرة الامبراطورية " ، " مكتب ادارة الممتلكات الخاصة (ممتلكات الامبراطور) " (وهو المكتب التشينغي – الجمهورى المشترك الذى ذكرته آنفا) . وعين أيضا موظفون للعناية بالقبور الامبراطورية . واستنادا الى وثيقة عثرت عليها فيما بعد كانت النفقة الشهرية لبكين والمدفن الشرقى والمدفن الغربى تبلغ ١٥٨٣٧ يوان ، والنفقة الشهرية فى تيانجين أكثر من عشرة آلاف يوان . وكان الباب الأكبر فى الميزانية هو الاموال التى صرفت لشراء أمراء الحرب او التأثير فيهم ، وهذا لا علاقة له بالنفقة الشهرية المذكورة . وربما وصلت المشتريات المختلفة الى ثلثى معدل المصروفات الشهرية . وقد صرفت انا على المشتريات عندما كنت فى تيانجين أكثر بكثير مما صرفته فى بكين ، وكان المبلغ يزداد كل شهر ، ولم أسأل قط من شراء البيانوات او ساعات اليد او الساعات المنبهة او أجهزة الراديو او الملابس الغربية او الأحذية الجلدية او النظارات .

وكانت وان رونغ سيدة شابة فى تيانجين تعرف من طرق التبذير على الأمور التافهة أكثر مما أعرف . وكان بينها وبين ون شيو الزوجة الثانية مباراة فى الشراء اجبرتنى فيما بعد على تقنين مصروفاتهما . وكانت نفقة وان رونغ ألف يوان ، ونفقة ون شيو حوالى ثمانمائة . وعندما تعرضنا لصعوبات مالية خفضت هاتين النفقتين الى ثلاثمائة للامبراطورة ومائتين للزوجة . ولم يكن هناك بالطبع حد لمصروفى الشخصى .

ونتيجة لتبذيرنا المذهل تعرضت حديقة تشانغ لعسر مادى ميئوس منه تماما كما حدث فى المدينة المحرمة حتى صرنا أحيانا غير قادرين على دفع فواتيرنا او الأجور المطلوبة منا وحتى رواتب الاعوان الكبار و" المستشارين " .

ولما كنت أنفق مبالغ لا تحصى على شراء كميات هائلة من التوافه ، فقد أصبحت أكثر قناعة من السابق بآراء معلمى جونستون بأن كل ما هو أجنبى جيد وكل ما هو صينى ، ما عدا النظام الامبراطورى ، سيىء . ان حبة من علكة النعناع او قرصا من أسبرين باير تكفى لأن تجعلنى أزفر من الغباء الكامل لدى الصينيين ، ولو ان هذا لا يشملنى لأنى كنت أرقى من جميع الناس كما كنت واثقا ان الأجانب الأذكياء يشاركوننى هذا التقدير لنفسى .

كانت المعاملة التى لقيتها فى مناطق الامتيازات الاجنبية مختلفة تماما عن تلك التى لقيها أى صينى آخر . فبالاضافة الى اليابانيين كان القناصل والضباط الكبار من أمريكا وبريطانيا وفرنسا وايطاليا ومدراء الشركات الأجنبية يحترموننى جميعا غاية الاحترام ويخاطبوننى بعبارة " جلالتكم الامبراطورية " . وكانوا يدعوننى فى أعيادهم الوطنية لأستعرض جندهم وأزور ثكناتهم وأشاهد طائراتهم وسفنهم الحربية الحديثة الوصول . وكانوا جميعا يأتون لتهنئتى فى عيد رأس السنة وفى عيد ميلادى .

وكان جونستون قدمنى ، قبل ان يفارقنى ، الى القنصل البريطانى وآمر الحامية البريطانية ، وهما قدمانى الى خلفيهما اللذين قدمانى بدورهما الى خلفيهما ايضا ، لذلك استمرت علاقتى الاجتماعية بالضباط البريطانيين دون انقطاع . وعندما جاء دوق غلاوسيستر ، الابن الثالث للملك جورج الخامس ملك انكلترا ، الى الصين زارنى فى تيانجين وقبل صورة منى ليحملها الى والده الذى كتب لي فيما بعد رسالة يشكرنى فيها على ذلك ، وأرسل بدوره صورته الى القنصل البريطانى ليقدمها لي . وتبادلت الصور كذلك مع ملك ايطاليا

بواسطة القنصل الايطالى .

وزرت عددا من الثكنات ، وشاهدت كثيرا من العروض العسكرية الأجنبية . وعندما كان هؤلاء الجنود — الذين سمحت لهم الامبراطورة الارملة تسى شى بالدخول الى أراضى الصين بناء على اتفاقية ١٩٠١ — يستعرضون امامي بزهوهم العسكرى ، كنت فى غاية السرور لأننى شعرت ان الطريقة التى يعاملنى بها الأجانب تدل على انهم مايزالون يعتبروننى أمبراطورا .

وكان فى تيانجين " نادى ريفى " يديره الانكليزى هو عبارة عن مسلاة فاخرة لم يكن يسمح الا للرؤساء الأجانب بدخولها ، اما الصينيون فكانوا ممنوعين منعا باتا من الوصول اليها . وكنت أنا المستثنى الوحيد من هذا المنع (٣٤) وكان مسموحا لي بأن أدخلها بحرية وان آخذ معى أفرادا من عائلتى . وقد تمتعنا بهذا الامتياز المبهج بوصفنا من " خواص الصينيين " .

وكنت أحب شراء الملابس والماس من المخازن الأجنبية مثل مخزن " الطريق الباهر " ومخزن " ليدلو وشركاه " لأتزين بها كسيد أجنبى من فرسان " الاسكواير " . وكنت كلما خرجت ألبس أحدث الملابس الغربية المفصلة من قماش انكليزى ، وأضع دبوسا من الماس فى ربطة عنقي وأزرارا ماسية فى أكمامى واتختم بالماس وأحمل " عصا الحضارة " فى يدى واضع نظارة سايز ألمانية . وكنت أتطيب بعطور من مستحضرات ماكس فاكتور وأصطحب كلبين ألزاسيين او ثلاثة وزوجة وحظية بملابس غربية الشكل . . .

وقد اثارت طريقة حياتي هذه اعتراضات شديدة من تشن باو تشن وهو سه يوان ، اللذين لم يعارضا مطلقا عاداتى فى الانفاق او علاقاتي بالأجانب ، ولكنهما كانا يعترضان عند ذهابى الى شركة تشونغ يوان للحلاقة او عندما كان يصادف ان أذهب الى المسرح او السينما لابسا ملابس غربية ، لأنهما يعتبران ذلك تهاونا فى مراسم الهيبة الامبراطورية . ولما لم تؤثر النصائح المتكررة التى قدمها لي هو سه يوان رفع مذكرة انحى فيها على نفسه باللائمة وطلب منى

اذنا بالتقاعد .

وكان سابقا قد طلب اذنا بالتقاعد عندما رأى اننى فقدت شيئا من هيبتى الامبراطورية بسبب ذهابى الى المسرح مع زوجتى وان رونغ لأشاهد ممثل أوبرا بكين الشهير مى لان فانغ . وبعد ان كررت رجائى له بأن يبقى وكافأته ببطانتى معطف من فرو الثعلب واكدت له عزمى على قبول انتقاداته ، تهللت اساريره وامتدحنى بأننى " حاكم لامع " لاننى قبلت النصائح ، وأصبح كلا الطرفين مسرورا . وقد سويت الازمة الناتجة عن زيارتى لصالون الحلاقة ، بنفس الطريقة تماما .

وحل عيد ميلاد وان رونغ العشرون (٣٥) خلال سنتنا الأولى فى تيانجين ، فرتب والدها الأمور لاحضار جوقة أجنبية للعزف فى هذه المناسبة . وحالما سمع أحد مخضرمى تشينغ بذلك سارع الى الاعتراض علي قائلا بأن " فى الموسيقى الأجنبية رنة حزن " ولا يمكن ان تعزف فى عيد ميلاد امبراطورة . فأعطيته مائتى يوان ليلغى هذه الفقرة من الاحتفالات . وهذا لابد انه كان فى الوقت الذى بدأت أقدم فيه مكافآت للأعوان الذين كانوا ينتقدوننى .

ومنذ ذلك الحين الى ان سجنت لم أخرج قط الى المسرح او الى صالون الحلاقة . ولم يكن السبب فى اتباعى نصيحة هو سه يوان اننى خشيت ان يستمر فى تذمره ، بل لأننى رأيت انه كان مصيبا فى قوله ان مما يتعارض مع هيبتى ان أذهب الى المسرح . ويمكن ان أعطى هنا مثالا على " التقدم " الذى أحرزته فى هذا المضمار ، فعندما زار أمير سويدى مدينة تيانجين وأراد ان يقابلنى رفضت ذلك لاننى رأيت صورة له مع الممثل مى لان فانغ فى الصحف ، ورأيت اننى يجب ان أظهر عدم استحسانى لتصرفه المشين .

وكان هو سه يوان وغيره من أعضاء فريق تشن باو تشن مختلفين عن تشنغ شياو شيوى ولوه تشن يوى وزملائهما فى انهم بدوا يائسين من اعادة الملكية وكانوا معارضين للاقدام على اى مخاطرة . وعلقوا الكثير من الأهمية

على هيبتي الامبراطورية أكثر مما فعل تشنغ شياو شيوى والآخرون ، وهذا كان سببا آخر فى اننى اطعتهم فيما طلبوا منى . ومع اننى وجدت الكثير من اقتراحاتهم متزمتا ، الا اننى كنت أقبل دائما الاقتراحات التى يظهرون فيها ولاءهم . ورغم اننى كنت أعيش حياة غريبة فى مستوطنة أجنبية الا اننى لم أنس قط مركزى وتذكرت ان " الامبراطور يجب ان يبقى امبراطورا " .

وعندما فاجأتنى زوجتى ون شيو بطلب الطلاق وحصلت عليه عام ١٩٣١ ، ولم يهمل المخضرمون مطالبتى بأن أصدر مرسوما بخفض درجتها من مرتبة زوجة امبراطور الى امرأة عادية ، وبالطبع استجبت .

ان طلاق ون شيو يذكرنى بعلاقتى الشاذة بها . فلم يكن السبب الذى هجرتنى من أجله مسألة عواطف بقدرما كان مسألة الفراغ الروحى فى حديقة تشانغ . فقد انصب اهتمامى الوحيد فى الحياة على اعادة الملكية . ولم أكن أعرف معنى للحب . وبينما كان الزوج والزوجة متساويين فى الزيجات العادية ، فان كلا من زوجتى وحظيتى كانتا عبدتين وأداتين لسيدهما .

لقد نشأت ون شيو منذ سنواتها المبكرة على التسليم بـ " الطاعات الثلاث والفضائل الأربع " الخاصة بالمرأة ، وبدأت حياتها كـ " عقيلة قصر " قبل ان تبلغ الرابعة عشرة فكانت افكار الولاء للعاهل والزوج مدفونة فى أعماقها . وحين تجرأت على طلب الطلاق على الرغم من هذا كله ، فقد برهنت على شجاعة كبيرة . لقد كان عليها ان تجتاز عقبات كثيرة للحصول على الطلاق ، وعوملت بعد ذلك معاملة سيئة . وقد قيل ان أسرتها حثتها على ذلك من أجل حقوق الطلاق الضخمة . ولكن المشاكل التى سببتها لها أسرتها كانت فى منتهى الايلام ، فقد حصلت على قدر ضئيل من الحقوق البالغة ٥٠ ألف يوان ، بعد ان دفعت ما دفعت الى محاميها والى الوسطاء ، وبعد ان أخذت أسرتها ما أخذته . ويمكن ان يضاف الى ذلك خسارتها النفسية التى كانت أسوأ بما لا يقاس .

وقد نشر أحد أشقائها رسالة مفتوحة فى احدى صحف تيانجين هاجمها فيها واتهمها بالتنكر لبيت تشينغ .

وشاع أخيرا ان ون شيو قد أجبرت على ذلك من " الامبراطورة " وان رونغ ، ومع ان هذه لم تكن هى الحقيقة بكاملها الا انها كانت بالتأكيد أحد أسباب رحيل ون شيو . ولا أعرف كثيرا عما حدث لها بعد طلاقها سوى انها أصبحت معلمة مدرسة ابتدائية ، وماتت عام ١٩٥٠ . ولم تتزوج ثانية .

الفصل الخامس

الى الشمال الشرقى

الحديقة الهادئة غير الهادئة

فى يوليو ١٩٢٩ انتقلت من حديقة تشانغ الى " الحديقة الهادئة " . وكان لهذا المنزل فى السابق اسم آخر ، وتغييره الى " الحديقة الهادئة " لم يكن خاليا من مغزى .

بعد الحملة الشمالية امتدت سلطة الكومينتانغ الى شمالى الصين . وأخذ أمراء الحرب الذين كنت على علاقة جيدة بهم فى الانهيار ، وأعلن الشمال الشرقى الذى كنت أعلق عليه الآمال الكبيرة تحالفه مع حكومة نانجينغ الوطنية . ويئس كل واحد فى حديقة تشانغ . وتبعثر بعض كبار الموظفين فى أسرة تشينغ ممن كانوا فى حاشيتى ، وبقى بعض الأعوان ملازمين لي . ولكن لم يبق ممن يتكلم عن اعادة الملكية الا تشنغ شياو شيوى ولوه تشن يوى وبضعة آخرين . والمسألة الوحيدة التى شغلت معظم هؤلاء الناس هى كيف ستعاملنى أسرة تشيانغ كاى شيك الجديدة . وانا نفسى كنت شديد القلق بخصوص ذلك .

ولكن قلقنا لم يستمر طويلا ، اذ سرعان ما رأينا الحروب الأهلية فى ظل حكومة نانجينغ الكومينتانغية تستمر كما كانت عليه فى ظل نظام أمراء الحرب فى بكين . و" التوحيد " الذى أنجزه تشيانغ كاى شيك بدا أكثر فأكثر خداعا ، وتجددت الآمال فى حديقة تشانغ . وخيل لنا ان مشروع التوحيد العظيم لا يمكن ان ينجزه أحد غيرى ، وهذا لم يكن فقط رأى الأعوان الكبار فى أسرة تشينغ ممن كانوا فى خدمتى بل وضباط الأركان اليابانيين الذين كانوا يأتون الى الحديقة الهادئة لاحاطتى علما بالتطورات

الجارية كل أسبوع . وكان الاسم الذى اخترته لمنزلي الجديد — الحديقة الهادئة — لا يعنى اننى أردت السلم والهدوء بل اردت به اننى عزمت على انتظار فرصتى بهدوء .

وهكذا بعد سنتين من الانتظار فى الحديقة الهادئة حصلنا على بعض الأخبار فى صيف ١٩٣١ .

قبل شهرين من "حادثة ١٨ سبتمبر" تلقى شقيقى الأصغر بو جيه الذى كان يدرس فى طوكيو ، والذى كان على وشك العودة الى الصين فى عطلة صيفية ، دعوة من قائد كتيبة يدعى يوشيوكا ياسونورى للمكوث معه بضعة أيام قبل العودة الى الصين ، وكان يوشيوكا سابقا ضابط ركن مع القوات اليابانية فى تيانجين وقد تردد كثيرا الى حديقة تشانغ ليلخص لي التطورات الجارية . وقوبل بو جيه بضيافة كريمة من الآمر يوشيوكا وزوجته . وعندما استأذنهما مودعا أخذه يوشيوكا جانبا وقال له : " عندما تصل الى تيانجين يمكنك ان تخبر شقيقك الكبير بأن تشانغ شيويه ليانغ قد تصرف مؤخرا تصرفا مشينا وان شيئا قد يحدث قريبا فى مانشوريا . أرجوك ان تطلب من الامبراطور شيوان تونغ ان يعتني بنفسه : ان وضعه ليس ميئوسا منه . " وأخبرنى بو جيه بهذا عندما وصل تيانجين فى ١٠ يوليو . وفى ٢٩ يوليو جاء النبيل اليابانى ميتسونو كاتسوكونى لزيارتى ، واستقبلته بحضور تشنغ شياو شيوى وبو جيه . وخلال هذا اللقاء العادى قدم لي زائرى هدية فوق العادة : مروحة يابانية كتب عليها هذا البيت : " السماء لن تدع قو جيان يفشل . والدنيا لا تخلو من فان لى" (٣٦) .

وقام ميتسونو كاتسوكونى بزيارة بو جيه قبل عودته الى الصين وشرح له مغزى ذلك البيت . وكتب بو جيه الي يخبرنى بذلك . والبيت يشير الى قصة من قصص الحرب الأهلية فى اليابان بين الأسر الشمالية والجنوبية تتعلق بالامبراطور غودايقو الذى انتفض على المتغلب كاماكورا ، لكنه فشل وأسره

المتغلب المذكور ، ثم نفاه الى اوكى . غير ان الامبراطور استطاع فيما بعد ان يقهر كاماكورا بمساعدة أعوان من طراز فان لى وعاد الى كيوتو كما عاد الملك قو جيان الى دولة يوه . وكان ذلك بداية لعودة الملك الى كيمو . وهذا ما اراده ميتسونو من كتابة البيت المذكور ، ولو انه لم يذكر ما جرى فيما بعد للامبراطور غودايقو الذى طرد بعد ثلاث سنين فقط على يد متغلب آخر هو اشيكاجا تاكاوجى . وعلى اى حال فأنا لم أكن مهتما بالخلفية التاريخية بل بتلقى هذا التلميح من يابانى . وفى ذلك الوقت بدأت أزمة الشمال الشرقى تتضح ، وصرت أحلم فى ارتقاء العرش من جديد . وقد عزز هذا التلميح من حماسى فاندفعت الى العمل بغض النظر عما ان كان ذلك قد صدر عن مجرد اهتمام شخصى منه او بدفع من جهة رسمية .

ان الهجوم الذى شنته القوات اليابانية فى شنيانغ فى ١٨ سبتمبر وانسحاب القوات الصينية قد أثارا الحديقة الهادئة . فحالما سمعت هذا الخبر اشتقت الى الذهاب الى الشمال الشرقى ، ولكننى عرفت ان هذا كان مستحيلا من غير موافقة اليابانيين . وأخبرنى تشنغ شياو شيوى ان الوضع فى شنيانغ مايزال مضطربا ، ونصحنى بألا أكون متسرعا ، فعاجلا او آجلا سيدعونى اليابانيون لا محالة الى الذهاب ، وأفضل شيء فى اللحظة الراهنة هو ان أتصل بأكبر عدد ممكن من الناس . لذلك قررت ان أرسل ليو شيانغ يه ليرى الضباط اليابانيين الكبار فى الشمال الشرقى ، ومن بينهم أوتشيدا ياسودا (مدير سكة مانشوريا الجنوبية) ، وهونجوشيجرو (قائد جيش قواندونغ) . وأرسلت كذلك قهرمانى تونغ جى شيوى الى الشمال الشرقى للاتصال بكبار الأعوان فى أسرة تشينغ هناك . وفكر عضو آخر من حاشيتى هو شانغ يان ينغ ، بزيارة القادة العسكريين فى الشمال الشرقى الذين يعرفهم . وبعد ذهاب هؤلاء الثلاثة بوقت قصير تحققت نبوءة تشنغ شياو شيوى وجاء مبعوث من جيش قواندونغ اليابانى لرؤيتى .

ففي عصر يوم ٣٠ سبتمبر جاء الى الحديقة الهادئة مترجم من الحامية اليابانية في تيانجين يدعى يوشيدا ليخبرني بأن القائد الياباني ، الفريق كاشي كوهوي يريدني ان أذهب وحدي لأراه بخصوص مسألة هامة . فذهبت الى الثكنة اليابانية مفعما بالتوقعات السعيدة . وعندما وصلت الى الثكنة وجدت الجنرال كاشي ينتظرني خارج باب منزله الأمامي . وكان في قاعة الاستقبال اثنان يقفان باحترام : لوه تشن يوي لابسا ثوبا وسترة صينيين وآخر غريب بملابس غربية ، حزرت من انحناءته انه ياباني . وبعد ذلك قدمه الجنرال كاشي لي . كان اسمه كايسومي توشيتشي ، وكان مرسلا من العقيد اتاجاكي من هيئة أركان جيش قواندونغ . وبعد تقديمه انصرف الجنرال كاشي .

ولم يبق في القاعة الا نحن الثلاثة . فحياني لوه تشن يوي وقدم لي مغلفا يحتوي رسالة من شخص من ارحامي الابعدين ، اسمه شي تشيا كان رئيس أركان تشانغ تسوه شيانغ نائب مدير الأمن العام في الشمال الشرقي وكان شي تشيا قد استغل فرصة غياب تشانغ تسوه شيانغ الذي كان ايضا حاكم مقاطعة جيلين وامر بفتح بوابات مدينة جيلين لاستقبال الجند اليابانيين الذين تمكنوا بذلك من الاستيلاء على جيلين دون اطلاق أية طلقة . وقد قال شي تشيا في رسالته ان الفرصة التي ظل ينتظرها عشرين عاما (منذ ثورة ١٩١١) قد حانت أخيرا ، ورجاني ألا أفوت هذه الفرصة وأذهب حالا الى " الأرض التي ظهر فيها أسلافنا " لأتولى مسؤولية الخطة . وقال ايضا ان بوسعي ان أكسب الشمال الشرقي مع الدعم الياباني ، ومن ثم أفكر في بقية البلاد ، وحالما أصل شنيانغ ستعلن جيلين اعادة الملكية .

بعد ان انتهيت من قراءتي الرسالة كرر لوه تشن يوي فكرتها الرئيسية ، وأخبرني بالتفصيل عن نشاطاته وعن " المساعدة الغير مغرضة " من جيش قواندونغ . وحسب كلامه يمكن لـ " اعادة الملكية " ان تتحقق في الشمال الشرقي كله خلال أيام ، وأن " رعيتي " تتشوق الى عودتي ، وان جيش قواندونغ

قد وافق على ارتقائي العرش من الجديد وأرسل كايسومي لابلاغي بذلك . وان كل شيء قد أعد ، فليس علي الا ان اتحرك ، وسيحملني مركب ياباني الى داليان . وكان منفعلا غاية الانفعال وهو يتكلم بحيث احمر وجهه وارتعش جسده بكامله وجحظت عيناه .

ونظرت الى لوه تشن يوى وكايسومي وانا مضطرب . كان واضحا ان هذا اللقاء مع لوه مختلف عن أى لقاء سابق ، لاننا نتحدث الآن فى الحامية اليابانية بحضور مندوب جيش قواندونغ . هذا أولا ، وثانيا انه جاء برسالة من شي تشيا . وكنت فوق ذلك قد قرأت فى صحف داليان فى اليوم السابق ان "جميع الأوساط فى شنيانغ مستعدة للترحيب بأمبراطور تشينغ السابق" ، وكانت صحف تيانجين ملآى بأخبار عن انسحابات القوات الصينية فى الشمال الشرقى وعن مساعى بريطانيا فى عصبة الأمم للتستر على أعمال اليابان الشنيعة .

فأخبرت لوه وكايسومي انني سأعطيهما جوابا بعد ان أفكر فى الأمر . من ثم ظهر الجنرال كاشي وقال انني سأكون عرضة للخطر اذا انا مكثت فى تيانجين ، وانه يأمل فى ان آخذ بنصيحة العقيد اتاجاكي وأذهب الى الشمال الشرقى . وبدت لي هذه الكلمات صحيحة تماما ، فيما كنت متجها الى البيت فى سيارتى .

لكن حرارتى سرعان ما هبطت حين وصلت الى الحديقة الهادئة . وكان اول معارض للخطة هو سه يوان وتشي تسنغ شو (معلم وان رونغ الخصوصى) . وقد ردوا علي بأن لوه تشن يوى قد تهور كعادته وان على المرء الا يضع ثقته بمنتهى البساطة فى مبعوث هو مجرد عقيد . وقالوا ان الوضع فى الشمال الشرقى وموقف الدول الحقيقى وميول الرأى العام لم تتضح بعد ، ويجب ان أنتظر على الأقل حتى يعود ليو شيانغ يه من مهمته الاستقصائية قبل ان أتخذ أى قرار . فهززت رأسى فى جزع من هذه النصيحة المخيبة للأمل ، وقلت :

ـــ ان رسالة شي تشيا لا يمكن ان تكون هراء .

كان تشن باو تشن ذو الأربعة والثمانين عاما فى غاية الارتباك ، وقد تردد بعض الوقت ثم قال فى حزن :

ـــ كان أمل تابعك المتواضع على الدوام هو اعادة النظام القديم ، لأن من الطبيعى ان تستجيب السماء لرغبة الشعب . ولكن التسرع فى هذا الوضع المضطرب قد يعرضنا الى صعوبات يتعذر التغلب عليها !

ولما رأيت انى لا أستطيع اقناع هؤلاء الشيوخ أرسلت فى طلب تشنغ شياو شيوى فى الحال . وتخيلت ان تشنغ المفعم بالحيوية رغم عمره البالغ الواحدة والسبعين سيكون مسرورا بدعوة جيش قواندونغ ، وبرسالة شى تشيا . ولكن رده لم يكن كما أملت .

ـــ بعد تعاقبات المد والجزر الماضية يبزغ فجر جديد . ان اعادة الملكية ستتم بلا شك بدءا من مانشوريا ولن يحول شيء دون تحقيقها حتى وان لم يرحب اليابانيون بجلالتكم .

وبعد لحظة تفكير أضاف يقول :

ـــ ولكن سيكون آمن لجلالتكم ان تنتظروا عودة تونغ جى شيوى .

الخلافات بين اليابانيين

فيما كانت الفئات داخل الحديقة الهادئة ما تزال على خلاف ، جاء نائب القنصل اليابانى فى تيانجين فى اليوم التالى . لقد عرفت القنصلية كل شيء عن زيارتى للثكنة اليابانية . وفهموا مشاعرى وظروفى فهما تاما ، ولكنهم رأوا ان من الأفضل ان أتصرف بحذر وأمكث فى تيانجين فى ذلك الوقت . وبينوا لي انهم يقدمون هذا التحذير بوصفهم مسؤولين عن حمايتى .

ومنذ ذلك اليوم ونائب القنصل ينصحنى بالتريث اما شخصيا واما من

خلال تشن باو تشن وابن أخته او تشنغ شياو شيوى وابنه بينما ظل يوشيدا ، المترجم الملحق بالحامية اليابانية ، يخبرنى على الدوام بأن العسكريين اليابانيين مصممون على مساعدتى فى العودة الى العرش ويحاول اقناعى بالذهب الى الشمال الشرقى حالا .

واختلفت وجهة نظرى حول الجيش والحكومة اليابانيين عن وجهة نظر تشن باو تشن ، لقد اعتقد بأنه وفقا للنظام الطبيعى يجب ان يحكم المدنيون البلاد ، وطالبنى بالحاح ان أفعل ما يقوله العسكريون دون ان تكون هناك أية اشارة من طوكيو . أما رأيى فكان مختلفا . لقد رأيت ان مصيرى فى أيدى العسكريين لا الساسة . فالمسئولون اليابانيون يعلنون على العالم انهم مستعدون لحل " الخلافات الصينية اليابانية " سلما ، بينما جيش قواندونغ مستمر فى زحفه ومهاجمته للقوات الصينية المتراجعة . ومع اننى لم أفهم ان صيحات تشيانغ كاى شيك ووانغ جينغ وى الاحتجاجية عند تسليمهم أراضى الوطن للعدو لم تكن الا خداعا ، الا أننى استطعت ان أرى ان العنصر الحاسم فى الوضع هو العسكريون اليابانيون . وقد اشار تشن باو تشن الى ان موقف القوى الأجنبية المبهم يبعث على القلق ، ولكن رأيت انا ان بريطانيا على الأقل تدعمنى . فبعد زيارتى الى الثكنة اليابانية بوقت قصير جاء العميد ف . هـ . بورنل نوجنت ، قائد القوات البريطانية فى تيانجين ليرانى وقدم تهانيه الشخصية بالفرصة التى وفرتها لي " حادثة ١٨ سبتمبر " ، وقال انه سيكون فخورا بأن يخدم جنديا تحت امرتي اذا انا عدت الى العرش فى مانشوريا . وبعد ذلك بفترة قصيرة رأيت جونستون ثانية . وقيل انه أتى الى الصين فى هذه المرة بصفته مندوبا للخارجية البريطانية ، وانتهز الفرصة ليزورنى . وكان مسرورا بخصوص " مستقبلى " ، وطلب منى ان أكتب مقدمة لكتابه « الشفق داخل المدينة المحرمة » . وقال انه سيضيف خاتمة بعنوان « التنين يعود الى البيت » .

كانت الأخبار التى حملها ليو شيانغ يه وتونغ جى شيوى لدى عودتهما

من الشمال الشرقى مشجعة نوعا ما . عاد تونغ جى شيوى أولا وقال ان رأى اعوان تشينغ الذين لقيهم فى شنيانغ هو أن الوقت مواتي وان علي ألا أتأخر فى السفر. وعندما عاد ليو شيانغ يه قال انه على الرغم من عدم تمكنه من رؤية اوتشيدا او هونجو ، الا انه قابل ضابط أركان جيش قواندونغ العقيد اتاجاكى وأحد كبار الأعوان فى الاسرة ، جين ليانغ ، وتأكد ان ما أخبرنى به لوه تشن يوى وكايسومى كان صحيحا تماما . لقد كان جين ليانغ يقول فى تفاؤل مفرط : " كل شيء فى فنغتيان جاهز واننا ننتظر فقط قدوم جلالتكم . " وكان قد ذهب الى جيلين أيضا ووجد حقا ان الجيش اليابانى مسيطر على المنطقة كلها ، وان شى تشيا وغيره مستعدون لاسناد " اعادة الملكية " فى اى وقت .

وبالاضافة الى هذا كانت هناك اشاعات جعلتنى أجزع من بقائى راكدا فى الحديقة الهادئة . كان صحفيو تيانجين سريعين فى التقاط الأخبار ، فسرعان ما انتشر خبر زيارتى للثكنة اليابانية ، حتى ان بعض الصحف قالت اننى قد ذهبت الى الشمال الشرقى فى القارب . كما ظهرت اشاعات اخرى من مصدر غير معروف تقول ان الصينيين يخططون لاتخاذ اجراء ما ضدى . وأصبحت أكثر اقتناعا مما سبق بأنه لم يعد من الممكن ان أمكث فى تيانجين .

وأرسلت تشنغ تشوى ، ابن تشنغ شياو شيوى ، ليقول للقنصل اليابانى انه وان لم يكن الوقت قد حان لذهابى الى شنيانغ فليس من ضير فى ذهابى الى ليوشون أولا ، حيث سأكون هناك أكثر أمنا . فأجاب القنصل على الفور بأنه لاحاجة لذهابى الى ليوشون ، وطلب من تشنغ تشوى ان يخبرنى بأن أوتشيدا ياسودا لا يمكن ان يوافق على انتقالى فى الوقت الحاضر . ونظر الى ان اوتشيدا سياسى محنك يحظى باحترام عظيم لدى الجيش فسيكون من الأفضل التصرف بحذر . اما بالنسبة لأمنى فانه مستعد لتحمل المسؤولية كاملة . وانتهى القنصل الى القول بأنه نوى ان يتبادل وجهات النظر مع قائد الحامية ،

الجنرال كاشي . وفى اليوم التالى جاء نائبه ليخبر تشنغ تشوى بأنه هو والجنرال قد اتفقا على ان أيا منهما لا يؤيدنى فى مغادرة تيانجين حالا .

وجعلتنى هذه المعلومات أشعر بالاضطراب ، ودعوت مترجم الحامية ليوضح لي الوضع ، فأدهشنى عندما أخبرنى بأن اللقاء بين القنصل وقائد الحامية لم يتم قط وان الجنرال كاشي يريدنى ان أغادر مع كايسومى حالا . واقترح علي ان أكتب رسالة الى قيادة الحامية أبين فيها بوضوح اصرارى على الذهاب . فكتبت الرسالة . وبطريقة ما سمع القنصل اليابانى بذلك ، وخف لرؤية تشن باو تشن وتشنغ شياو شيوى ليتأكد ان كنت حقا قد كتبت هذه الرسالة .

انزعجت انزعاجا شديدا لهذا الخلاف بين السلطات اليابانية المدنية والعسكرية ، ولكن لم أعرف كيف أتصرف ازاء ذلك . وعندها جاءت رسالة من ليو شيانغ يه الذى ذهب الى الشمال الشرقى ثانية قال فيها انه اكتشف الافكار الحقيقية لهونجو ، قائد جيش قواندونغ : فنظرا الى ان مقاطعات الشمال الشرقى الثلاث لم تصبح كلها الى الآن تحت سيطرة الجيش اليابانى ، فان من الأفضل الانتظار الى ان توحد هذه المقاطعات وتستقر . ولما كان هذا هو رأى صاحب الكلمة العليا فى مصيرى ، فلم يبق عندى خيار الا ان أطيعه وأنتظر . وأدركت الآن انه بالاضافة الى اختلاف الرأى بين القنصل والحامية فى تيانجين كان هناك نزاع داخل جيش قواندونغ .

وبعد ان أخبرت لوه تشن يوى وكايسومى بأننى لن أغادر فى الوقت الراهن ، مكثت أترقب الأخبار فى ايام كأنها سنين . وأصدرت حينها عددا من " المراسيم الامبراطورية " وأرسلت ابنى اخى ، شيان يوان وشيان جى ، الى الشمال الشرقى لاستمالة بعض الأمراء المغول وتقديم هدايا اليشب الى تشانغ هاى بنغ وقوى فو اللذين كانا من اوائل المستسلمين لقوات الاحتلال اليابانى . وبناء على طلب ضابط يابانى كتبت رسائل الى ما تشان شان الذى رفض الاستسلام والى بعض الأمراء المغول الذين استبسلوا فى المقاومة أدعوهم للاستسلام .

ووزعت عليهم الألقاب ، وأعددت احتياطيا كبيرا من مراسيم التعيين فى مناصب رسمية مع ابقاء اعمدة شاغرة للأسماء .

ويجب أن أذكر اننى عملت فى ذلك الوقت بموجب اقتراح من تشنغ شياو شيوى الذى أصبح أقل حذرا حينذاك ، وأرسلت معلم شقيقى اليابانى الى اليابان ليجرى اتصالا بوزير الجيش الجديد مينامى جيرو وقائد جمعية التنين الأسود تویاما ميتسورو . وكتبت لكل منهما رسالة نسخت كلا منهما عن مسودتين وضعهما تشنغ شياو شيوى (انكرت فيما بعد موثوقيتهما امام المحكمة العسكرية الدولية للشرق الأقصى) وبعد ثلاثة أسابيع قابلت ، دويهارا ، ضابط أركان جيش قواندونغ ، وتقرر ان أذهب الى الشمال الشرقى .

لقاء دويهارا

ومن بين الخمسة والعشرين من مجرمى الحرب الذين حاكمتهم المحكمة العسكرية الدولية للشرق الأقصى تبين ان المجرمين المسؤولين عن أكثر الجرائم هما دويهارا واتاجاكى . وكانت التهم الموجهة ضدهم متشابهة الى حد ما ، وقد شملت سبع " جرائم ضد السلم " الى جانب أخطر " جرائم الحرب العادية والجرائم المرتكبة ضد الانسانية " وفى مقدمتها " الأمر والسماح بانتهاك المعاهدات " . وقد شنقا عام ١٩٤٨ .

كان دويهارا عسكريا جنى ثروات طائلة من اعمال العدوان على الصين. وكان قد جاء الى الصين لاول مرة عام ١٩١٣ وعمل مساعدا لاحد قادة جيش قواندونغ اليابانى ولأمراء الحرب فى الشمال الشرقى طوال عشر سنوات ونيف . وكان دويهارا على علاقة حميمة بتشانغ تسوه لين . ولكن عندما قرر جيش قواتدانغ تصفية تشانغ عام ١٩٢٨ اشترك هو فى تحقيق هذه المهمة . وبعد ذلك بوقت قصير رفع الى رتبة عقيد ، وأصبح مسؤولا عن منظمة سرية

فى شنيانغ . وكانت له ما بين ١٩٣١ الى ١٩٣٥ ادوار فى كثير من المؤامرات اليابانية ضد الصين ، كالتخطيط لاثارة الفتن ، وانشاء سلطات محلية عميلة ، واثارة الاقتتال .

وبعد مدة قصيرة قضاها دويهارا قائد فيلق أصبح مسؤولا عن قيادة منظمة سرية لجيش قواندونغ . ثم تحول بعد " حادثة ٧ يوليو " ١٩٣٧ من العمل السرى الى العمل العسكرى المكشوف بصفة قائد فرقة اولا ، ثم قائد للجيوش اليابانية فى الصين وجنوب شرقى آسيا .

وبسبب القصص الغامضة التى أشيعت عنه وصفته الصحافة الغربية بلقب " لورنس الشرق " تشبيها له بالجاسوس الانكلزى المعروف . وقالت الصحف الصينية انه كان يرتدى الملابس الصينية ويتقن الكلام بعدة لهجات صينية . ولكن نشاطاته فى الحقيقة لم تكن فى حاجة الى قدر خارق من الاحتيال الذى عرف به لورنس ، ففى مهمة من قبيل اقناعى بالتوجه الى الشمال الشرقى لم يكن فى حاجة الى اكثر من القدرة على اعطاء وجهه ملامح الجد والصدق . وعندما قابلته لم يكن يلبس ملابس صينية بل فرنجية يابانية الطراز ، ولم يكن فى صينيته التى يتكلمها شيء مدهش ، فقد كان مضطرا الى الاعتماد على يوشيدا مترجم الحامية اليابانية فى تيانجين ليتأكد من عدم حصول سوء فهم .

كان حينذاك فى الثامنة والأربعين ، وكانت محاجر عينيه فى حالة ترهل . وله شارب صغير على شفته العليا ، وقد علت وجهه خلال مقابلتنا كلها ابتسامة لطف واحترام . وكانت هذه الابتسامة كافية لأن تجعلنى أثق بكل كلمته يقولها .

وبعد سؤال مهذب عن صحتى دخل فى الموضوع الرئيسى . فوضح لي أولا النشاط اليابانى ، وقال انه يستهدف فقط معالجة أمر " المشير الشاب " تشانغ شيويه ليانغ الذى أصبح " أهالى مانشوريا تحت حكمه فى حالة فقر شديد ، وليس لدى اليابانيين أية وسيلة لضمان حقوقهم وأمنهم ، غير اتخاذ

اجراء عسكرى". وادعى ان ليس لجيش قواندونغ أية مطامع فى أراضى مانشوريا بل " هو يريد بكل صدق مساعدة أهالى مانشوريا على انشاء دولتهم المستقلة ". ورجانى ألا أفوت هذه الفرصة وأعود سريعا الى الأرض التى ظهر منها أسلافى لأتولى قيادة الدولة الجديدة . وستوقع اليابان اتفاقية دفاع متبادل مع هذا البلد وستحمى سيادته وسلامة أراضيه . وبوصفى رئيسا لهذه الدولة سأكون قادرا على تولى مسؤولية كل شيء .

ومنعتنى نبرته الودود وابتسامته المفعمة بالاحترام وسمعته ومركزه من ان أتخذ ازاءه نفس الموقف الذى اتخذته من لوه تشن يوى وكايسومى . وبدت لي الآن مخاوف تشن باو تشن من ان كايسومى لا يمثل جيش قواندونغ وان جيش قواندونغ لا يمثل الحكومة اليابانية دون أساس . فقد كان دويهارا شخصا هاما فى جيش قواندونغ ، وقد أكد على نحو لا غموض فيه ان " جلالة الامبراطور (امبراطور اليابان) يثق بجيش قواندونغ " .

وظلت هناك مشكلة كبيرة واحدة تقلقنى . فسألته :

ــ ما هو الشكل الذى ستتخذه الدولة الجديدة ؟

ــ كما قلت قبل لحظة ستكون دولة مستقلة ذاتية الحكم ، وستكون تحت سيطرة جلالتكم كليا .

ــ هذا ليس ما سألت عنه . أريد ان أعرف ماذا ستكون ، جمهورية ام ملكية ؟

ــ هذه المشكلة ستحل بعد مجيئكم الى شنيانغ .

فقلت فى اصرار :

ــ كلا ، لن أذهب الا اذا كانت ستتم اعادة الملكية .

فابتسم ابتسامة خفيفة وأجاب دون أن يغير نبرة صوته :

ــ طبعا ستكون ملكية ، لا شك فى ذلك .

ــ حسن جدا . ان كانت ستصبح ملكية فسوف أذهب :

— فى تلك الحالة يجب ان أطلب من جلالتكم المغادرة بأسرع ما يمكن ، وان تكونوا فى مانشوريا قبل اليوم السادس عشر دون تأخر . ويمكننا ان نناقش التفاصيل فى شنيانغ . ويوشيدا يمكن ان يرتب رحلتكم .

وتمنى لي رحلة مصحوبة بالسلامة ، وانحنى لي فى أدب كما فعل من قبل . وانتهت بذلك مقابلتنا . وبعد ان غادر قابلت جينغ ليانغ الذى جاء معه . فجلب لي أخبارا من بعض كبار الأعوان فى أسرة تشينغ فى الشمال الشرقى تفيد انهم استطاعوا كسب ولاء جيش الشمال الشرقى السابق . فشعرت انه لم تبق عقبات فى طريقى .

وبعد رحيل دويهارا طلب مني يوشيدا ، مترجم الجيش اليابانى ، ألا أخبر القنصل بهذه المقابلة وهو سيرتب أمر رحلتى الى داليان . فقررت ألا أناقش المسألة الا مع تشنغ شياو شيوى ، ولكن نظرا الى ان خبر مقابلتى مع دويهارا قد انتشر فى الصحف فى اليوم التالى مما كشف النقاب عن مؤامرة دويهارا ، فقد اضطررت ان أرد على نصح ونقد كثير من الجهات . وبدا تشن باو تشن مذعورا فوعدت بالمداولة مع عدد آخر من مستشاري المقربين .

بعد ثلاثة أيام من زيارة دويهارا وافقت على رؤية مبعوث من حكومة تشيانغ كاى شيك فى نانجينغ ، عرض اعادة بنود المعاملة التفضيلية واقرار دفع مبالغ سنوية او مبلغ اجمالى دفعة واحدة مقابل ان أقيم فى اى مكان ما عدا اليابان او الشمال الشرقى . ولكننى تذكرت انتهاك جنود الكومينتانغ للمدفن الشرقى ، كما تذكرت تشيانغ كاى شيك الذى لم يكن موضع ثقة ، وشككت فى انه ليس مهتما الا بابقائى بعيدا عن اليابانيين للحفاظ على ماء وجهه ، وسأصبح عاجزا بمجرد وضعى تحت سيطرته . وبالاضافة الى ذلك ، ماذا كان اللقب الامبراطورى الذى يعرضه علي يساوى بالقياس الى العرش الامبراطورى الذى وعدنى به دويهارا ؟ وكيف يمكن لمبلغ من النقود ان يكون أكثر اغراء من الشمال الشرقي بكامله ؟ فأعطيت المبعوث جوابا غير

واضح ، وعندما جاء ثانية ليرانى كنت قد غادرت تيانجين .

بالاضافة الى الزوار الكثيرين الذين حاولوا ان يقدموا لي نصائح صادقة او يستقصوا عني تلقيت كذلك مقادير وافرة من الرسائل . وقد تضمنت بعض الرسائل نصائح وتحذيرات وكان منها رسالة من أحد أبناء عشيرتى ، آيشين — جيورلوه ، رجانى فيها ألا " أضم قاطع طريق الى حضنى " ، ونصحنى الأضيع كرامة الصينيين . ولكننى كنت محلقا بعيدا جدا بحلمى فى اعادة الملكية بحيث لم ينفع معى اى تحذير . وبالطبع لم أعبر عن مشاعرى الحقيقية امام الناس . وفى مقابلة مع صحفى فى تيانجين أنكرت بشدة ان تكون لدى أية نية بالذهاب الى الشمال الشرقى ، ولكننى كنت مبحرا على متن مركب يابانى قبل ان تصدر الصحيفة .

قبل يومين من رحيلى عن تيانجين وقعت حادثة أجد من الضرورى ان أذكرها . فقد هرع الى غرفتى مساعد شخصى يدعى تشى جى تشونغ هو يصيح :

— قنبلتين ، قنبلتين ! . . .

وكنت جالسا فى أريكة، فأخافنى هذا الخبر خوفا عجزت معه عن النهوض. ومن خلال الاضطراب الذى تلا ذلك اكتشفت ان غريبا قد جاء بهدية مع بطاقة من مستشار سابق لهيئة القيادة العامة لقوات الأمن فى الشمال الشرقى ووضعها على الطاولة ثم اختفى على الفور . وعندما فحصها تشى جى تشونغ عثر فيها على قنبلتين داخل سلة فاكهة .

وقبل ان يخف الهياج وصل البوليس اليابانى وضباط الجيش اليابانيون واخرجوا القنبلتين . وفى اليوم التالى اخبرنى المترجم يوشيدا انه ثبت بالتحقيقات ان القنبلتين قد انتجتا فى مصنع الاسلحة التابع لتشانغ شيويه ليانغ .

ونصحنى يوشيدا :

— ينبغى لجلالتكم ألا تستقبلوا اى غريب بعد ذلك ، وكلما اسرعتم

فى المغادرة كان ذلك افضل :

— حسن جدا . ارجو ان تقوموا بالترتيبات بأسرع ما يمكن .

— اجل يا صاحب الجلالة . آمل ألا تخبروا احد بذلك ان لم يكن يعنيه الامر مباشرة .

— لن اخبر احدا سآخذ فقط تشنغ شياو شيوى وابنه واثنين من المساعدين .

وخلال هذه الايام تلقيت عددا من رسائل التهديد ومكالمة هاتفية رد عليها مساعدى الشخصى تشى جى تشونغ . ووفقا لما قاله تشى ، فان المكالمة جاءت من نادل في مقهى فيكتوريا حذرنى فيها من ان أذهب الى ذلك المكان وآكل فيه فى الوقت الحاضر ، لأن بعض " المريبين " يقوم باستجوابات عنى . ومضى هذا النادل الحذر يقول بوضوح ان تلك الشخصيات المريبة بدت كأنما لديها أسلحة تخفيها داخل الثياب . وأكثر ما كان مدهشا فى ذلك هو انه تمكن من معرفة انهم قد ارسلوا من لدن تشانغ شيويه ليانغ .

ولا أعرف من كان ذلك النادل ، هذا اذا كان له وجود اصلا . ولكن المساعد تشى جى تشونغ الذى كان قد نقل الي خبر القنبلتين صحبنى من بكين الى تيانجين وهو تابع أمين كان من المفضلين عندي وواحدا من المساعدين الشخصيين الثلاثة الذين صاحبونى الى الشمال الشرقى ، ولا شك فى انه ساعد تشنغ شياو شيوى واليابانيين للحصول على معلومات دقيقة واضحة عن نشاطاتى ومزاجى . وقد أرسلته الى أكاديمية عسكرية فى اليابان ليحصل بعدها على رتبة لواء فى جيش شمالى الصين العميل الى ان اعدم بعد التحرير لنشاطاته المعادية للثورة .

وبعد القنبلتين ورسائل التهديد والمكالمة الهاتفية وقعت " حادثة تيانجين " . وهذه كانت احدى " مآثر " دويهارا . لقد استحث اليابانيون بصورة منتظمة عملاءهم الصينيين على القيام باضطرابات عنيفة فى اجزاء المدينة الأخرى التى تحت الادارة الصينية . واعلنت حينذاك حالة الطوارئ فى منطقة الامتيازات

اليابانية وقطعت المواصلات بينها وبين اجزاء المدينة الأخرى . وانطلقت سيارات مصفحة لكى " تحمى " الحديقة الهادئة مما جعلها حينذاك معزولة عن العالم الخارجى . وكان الشخصان الوحيدان المسموح لهما لدخول والخروج تشنغ شياو شيوى وابنه تشنغ تشوى .

ولدى عودتى الآن بذاكرتى الى الوراء اعتقد ان السبب الذى جعل دويهارا يستعجل ذهابى الى الشمال الشرقى كل تلك العجلة ربما يكون لان الضباط الشباب فى جيش قواندونغ كانت لهم حاجة ملحة فى التغلب على زمرة منافسة . ولئن كان ذلك لمجرد انه خشى ان أغير رأيى ، فلقد بالغ فى تقدير نفوذ حاشيتى علي . لقد قررت ان أذهب ، حتى ان من تبقى من المستشارين الذين كانوا مؤيدين لتشن باو تشن قد بدأوا يؤيدون التعاون النشيط مع اليابان ، مع انهم ما يزالون حتى تلك اللحظة غير واثقين بالجيش اليابانى ثقة كبيرة ويرون ان من الأفضل التعامل مع الحكومة اليابانية . ومع ذلك كانوا أكثر منى رغبة فى عدم اضاعة هذه الفرصة . ولكنهم خافوا من ان خدمة اليابان قد لا تجلب الا الخزى ولا تعود بأية مكافآت تعويضية . وكان الشرط الذى اقترحوا بمقتضاه وجوب تعاونى مع اليابان هو ان يكون لي الحق فى القيام بالتعيينات . لقد كانوا يخشون ألا يتمكنوا من ان يصبحوا موظفين كبارا فيما بعد . وكانوا على استعداد تام للمساومة على شرف الوطن ومصالحه الاقتصادية مقابل الحصول على مراكز .

العبور السرى لنهر باى

كان علي ان أغادر الى الشمال الشرقى فى ١٠ نوفمبر ١٩٣١ . ووفقا للخطة تعين علي ان أتسلل خارجا من البوابة الرئيسية للحديقة الهادئة فى ذلك المساء دون ان يرانى أحد . وهذا بعث فى نفسى كثيرا من القلق . ففكرتى

الاولى كانت ان لا أخرج من البوابة الرئيسية ، بل ان أطلب من سائقي في اللحظة الأخيرة ان يخرج من بوابة المرأب . وعندما أرسلت أوثق مساعدى الشخصيين ، لي الكبير ، ليذهب ويرى ان كان ممكنا فتح باب المرأب أبلغني بأنه لم يستخدم منذ وقت طويل وان ظاهره من الخارج قد غطى بالاعلانات . وكانت الوسيلة التى استخدمتها فى النهاية هي تلك التى اقترحها تشى جى تشونغ . فاختبأت فى مؤخرة السيارة المعدة للأمتعة ، وقام واحد من خدمي بدور السائق وجلس تشى جى تشونغ بجانبه ، وهكذا غادرنا الحديقة الهادئة .

وفى نقطة غير بعيدة عن البوابة الرئيسية كان المترجم يوشيدا ينتظرنا فى سيارة أخرى ، وعندما رأى سيارتنا تخرج من البوابة مشى خلفنا بمسافة معقولة .

كان هذا هو اليوم الثالث من اضطرابات تيانجين ، وكانت هناك حالة من الحكم العرفى فى منطقة الامتيازات اليابانية والمنطقة المجاورة الصينية الادارة . ولا أستطيع ان أجزم ان كانت تلك الاضطرابات والحكم العرفى متعمدة ام انها مصادفة ، ولكنها هيأت لي أكثر الظروف ملاءمة لهربى . حيث لم يكن يسمح لأية عربة صينية بالمرور . وحين أوقف الجنود اليابانيون سيارتى عند حاجز فى الطريق ، تركونا نمر بعد ان لوح لهم المترجم بيده . ورغم قلة كفاءة سائقى (اول شيء فعله بعد الخروج من الحديقة الهادئة انه اصطدم بعمود كهربائى وأدى الى ارتطام رأسى على نحو مؤذى) ، الا اننا تمكنا من الوصول الى المطعم اليابانى الذى تواعدنا فيه .

وبعد ان توقفت السيارة أمر تشى جى تشونغ السائق بالعودة ، وفتح المترجم مؤخرة السيارة وساعدنى على الخروج ، ثم دخل معى الى المطعم . وهناك كان ينتظرنا ضابط يابانى ، فأخرج معطفا عسكريا يابانيا وقبعة وألبسنى اياهما . ثم رافقنى مع المترجم فى سيارة عسكرية يابانية سارت بنا مباشرة الى رصيف على ضفة نهر باى دون ان يعترضنا اى عائق . وساعدانى على الخروج من السيارة .

وعندما رأيت اننا لم نعد داخل منطقة الامتيازات اليابانية شعرت بالخوف الشديد . فقال لي المترجم يوشيدا بصوت خافت ان ذلك ليس هاما لأننا الآن داخل منطقة الامتيازات البريطانية .

وأسرعت على امتداد الرصيف الاسمنتي مسنودا من جانبي بالضابطين الى ان ظهر أمامنا زورق بخارى صغير غير مضاء . ولمحت فى داخل مقصورة الزورق تشنغ شياو شيوى وابنه تشنغ تشوى ، فشعرت بالاطمئنان . وكان هناك أيضا ثلاثة يابانيين ، أحدهم كايسومى الذى قابلته فى الحامية والثانى سمسار يدعى كودو تيتسوسابورو عمل سابقا لصالح النبيل المغولى شنغ يون . وأخبرنى الربان ان هناك عشرة جنود على متن المركب لحمايتى . وكان المركب تابعا لقسم النقل فى الحامية ، وقد ملىء خصيصا بأكياس الرمل وصفائح فولاذية من أجل هذه " المهمة " . بعد عشرين سنة تقريبا قرأت مذكرات كتبها كودو تيتسوسابورو فى المجلة اليابانية « بنغوى شونجو » ذكر فيها انه كان هناك برميل نفط كبير مخفى داخل المركب ، واننا اذا ما اكتشفتنا القوات الصينية وعجزنا عن الهرب منها ، فان الجنود اليابانيين سيشعلون به النار ويدمرون المركب بمن عليه . وفى ذلك الوقت كنت على بعد بضع أقدام فقط من هذا البرميل عندما ظننت اننى كنت أكثر فأكثر قربا من " السعادة " .

عاد المترجم والضابط اللذان رافقانى حتى المركب الى الشاطىء ، وغادر المركب الرصيف . وتأملت الشاطىء فى ضوء مصابيح المركب ، ثم تجولت بنظرى فى انحاء النهر فغمرتنى احاسيس لذيذة . لقد سبق لي ان جئت الى نهر باى فى وضح النهار عدة مرات ، بل ، وبدأت أحلم به فيما كان مستقبلى ييمم شطر الجانب الآخر من المحيط . اما وانا الآن أبحر حقا فقد سيطرت على حالة اهتياج لم أجد الكلمات التى أعبر بها عنها .

غير ان هذا الشعور بالسعادة كان لا يزال مبكرا ، فقد عرفت من تشنغ تشوى اننا بمجرد خروجنا من مناطق الامتيازات الأجنبية سندخل فى دائرة

السلطة الصينية وربما نواجه قوات صينية هناك .

وقفز قلبي الى فمي ، وبدا كل من حولي واجما . وبعد ساعتين من الصمت التام ، انبعثت فجأة صيحة من ضفة النهر : "قف !"

واستلقيت على الأرض مشلولا كأنما أعصابي كلها قطعت . وصعد الجنود اليابانيون من مقصورة المركب الى سطحه ، ومن السطح سمعت الأوامر تعطى بصوت خافت ، كما سمعت وقع خطوات .

ورأيت عبر النافذة جنودا خلف كل كيس من أكياس الرمل مستعدين لاطلاق النار . وبدا ان القارب يبطىء سيره ويتجه الى الضفة . وأطفئت الأضواء وانبعث من الشاطىء ازيز بندقية . وعلى الفور تقريبا دوى المحرك ، واندفع المركب الى الأمام مبتعدا عن الضفة . وأخذ يخبو صوت الطلقات والصيحات على الشاطىء شيئا فشيئا . ونجحت الخطة اليابانية . لقد اتجهوا فى البداية نحو الضفة كأنما استجابوا للأوامر ، ومن ثم ارتدوا هاربين ، مفاجئين بذلك الجنود الواقفين على الضفة .

وبعد لحظة أشعلت الأنوار فى المركب ثانية ، واستعاد جو المركب حيويته . وفى منتصف الليل وصلنا مصب النهر عند داقو . وفيما كنا ننتظر الباخرة "أواجي مارو" أخرج الجنود اليابانيون حساء ميزو وملفوفا مع مخلل (طرشي) ومشروبا يابانيا يدعى ساكي وازداد تشنغ شياو شيوى حيوية وبدأ يتحدث عن الروابط العريقة والثقافية بين الصين واليابان ، كما ارتجل بعض القصائد واصفا هذه الحادثة بأنها جزء من "مغامرة بطولية" .

على ان هذا لم يكن السبب الوحيد للابتهاج فى ذلك المساء ، فقد أدرك هو قبل اى مستشار آخر انه تحت سطح الخلاف القائم بين الجيش والحكومة اليابانيين تكمن الوحدة . ومع انه لم يوضح عن تلك الحقيقة فى حينها فقد كتب فى يومياته بعد يوم من زيارة دويهارا لي ان القنصل اليابانى اخبر ابنه تشنغ

تشوى بأن الهدف من زيارة دويهارا هو دعوتى الى شنيانغ وان القنصل كان يتظاهر بأنه لا يعرف شيئا عن ذلك .

معزولا

على متن المركب " أواجى مارو " ظل تشنغ شياو شيوى يتحدث طوال النهار عن طموحه فى ان يحكم البلاد ، وفى صباح اليوم الثالث عشر وصلنا الى رصيف سكة جنوبى مانشوريا فى ينغكو بمقاطعة لياونينغ .

لم أفكر قط بالسبب الذى دعانا الى النزول فى ينغكو كى نذهب الى شنيانغ ، فما كنت أفكر فيه فقط هو كيف سيستقبلنى أهالى الشمال الشرقى فى الميناء . وتخيلت انه سيكون هناك حشد سيحييني بنفس الحفاوة التى لقيتها عندما ذهبت الى المدرسة الابتدائية اليابانية فى تيانجين — أناس يلوحون بالأعلام ويهتفون . ولكن كلما اقترب المركب من الرصيف كانت أخيلتى تتراجع . فلم يقع نظرى على حشود ولا أعلام وعندما نزلت الى الشاطىء وجدت ان الحفنة التى جاءت لاستقبالى كلها من اليابانيين .

وعندما قدمت اليهم علمت أنهم أرسلوا جميعا من لدن العقيد اتاجاكى وانهم تحت قيادة أماكاسو ماساهيكو . وهذا الشخص لم يشتهر اسمه فى الصين ، ولكنه كان سىء السمعة فى اليابان . ففى اثناء الزلزال الكبير لعام ١٩٢٣ اراد الجيش انتهاز الارتباك الناجم عن النكبة لتوجيه ضربه لليسار فتولى اماكاسو قتل التقدمى اوسوجى وزوجته وابنه بنفسه . وقد أجبر الرأى العام الجيش على جعله كبش فداء والحكم عليه بالسجن مدى الحياة فى محكمة عسكرية ، ولكن سرعان ما أطلق سراحه وأرسل للدراسة فى فرنسا . وكان الموضوعان اللذان اختارهما هناك هما الفن والموسيقى . وبعد بضع سنوات عاد الى اليابان وأسندت اليه مهمة فى منظمة سرية لجيش قواندونغ . ووفقا لما

جاء فى كتاب نشر فى اليابان بعد الحرب العالمية الثانية فان الانفجار على الخط الحديدى فى ليوتياوقوه ، الذى كان أدى الى " حادثة ١٨ سبتمبر " ١٩٣١ هو من عمل أماكاسو هذا . ولكنني عندما قابلته على رصيف ينغكو لم أتصور قط ان هذا الرجل المهذب الذى يضع على عينيه نظارة وقورة ، له مثل ذلك الماضى العجيب ، او أنه من دون جهده ربما لم يكن بوسعى أبدا ان أذهب الى الشمال الشرقى .

أخذنا أماكاسو أنا وتشنغ شياو شيوى وتشنغ تشوى الى عربة كانت فى انتظارنا ، وأقلتنا العربة الى المحطة . وبعد ساعة تقريبا نزلنا من القطار الى عربة أخرى . ودون ان يقدم الينا أى توضيح عن الرحلة وصلت الى ناحية تانغقانغتسى وهى مصح يقع حول ينبوع دافىء ، ودخلت فندق دويتسويقه وقلبي عامر بالشكوك .

كانت تدير هذا الفندق شركة سكك جنوبى مانشوريا اليابانية ، وهو مؤلف من مبنى غربى على الأسلوب اليابانى ومؤثث بأثاث فاخر . وكان مخصصا لضباط الجيش اليابانى والموظفين الكبار فى سكة جنوبى مانشوريا وللبيروقراطيين الصينيين . واخذت الى قاعة استقبال كبيرة فى الطابق الأول حيث كان فى انتظارنا لوه تشن يوى وشانغ يان ينغ وتونغ جى شيوى . وبعد ان حيانى لوه تشن يوى أخبرنى انه قد وصل الى نصف الشوط فى تدارس اعادة الملكية وتأسيس دولة جديدة مع جيش قواندونغ ، ووضح انه لن يكون من الملائم ان يتسرب خبر وصولى قبل انتهاء المداولات ، وسيكون من الخطأ أيضا اذا شوهد أى منا فى الخارج فيما عداه هو . ولم أفهم المغزى الحقيقى لهذا الأمر ، ورأيت ببساطة اننى قد اكتشفت الآن لماذا لم يأت أحد لاستقبالى . وكنت أظن ان المحادثات مع جيش قواندونغ لن تخلق أية مشكلة وانه سيعلن عما قريب اننى ، أمبراطور أسرة تشينغ العظيمة ، قد عدت الى العرش في قصر أسلافي فى شنيانغ . وأثارتني هذه الفكرة بشدة بحيث لم

أنتبه لتعابير القلق التي ارتسمت على وجهي تشنغ شياو شيوى وتشنغ تشوى . وتناولت بكل سرور وجبة عشاء على الطراز اليابانى وتطلعت من النافذة الى الغروب الجميل ثم رقدت مطمئن البال .

وفى الصباح التالى اكتشفت ان فرحتى كانت سابقة جدا لأوانها . فبعد ان غسلت وجهى استدعيت مساعدى تشى جى تشونغ وقلت له اننى أريد ان أخرج للتمشى والتمتع بالمناظر الطبيعية . فقال تشى جى تشونغ وعلى وجهه ملامح قلق :

— ليس هذا ممكنا . انهم لن يدعوا أحدا يخرج .

فسألت فى دهشة :

— لم لا ؟ من قال ذلك ؟ انزل الى الأسفل واسأل .

— انهم لن يسمحوا لنا حتى بالنزول الى الأسفل .

وتبين لي اننى معزول فى فندق دويتسويقه : فالغرباء منعوا من الاقتراب من الفندق ، ونزلاء الطابق السفلى منه لم يسمح لهم بالصعود الى الطابق الأول الذى كنت أسكن فيه مع حاشيتى . والذى حيرنى أشد الحيرة هو عدم السماح لنا بالنزول الى الأسفل . وأرسلت فى طلب لوه تشن يوى ولكن لم يعرف أحد أين ذهب ، واستاء تشنغ شياو شيوى وابنه استياء شديدا وطلب منى ان أطلب توضيحا من اليابانيين . وكان معنا من الضباط اليابانيين الكبار كايسومى وأماكاسو ، وعندما جلب تشى جى تشونغ كايسومى لرؤيتى وقال لي بالصينية بلكنة يابانية وهو يبتسم :

— هذه احتياطات أمنية ، احتياطات أمنية لجلالتكم .

فسأله تشنغ شياو شيوى :

— كم سنمكث هنا ؟

— ذلك يعتمد على العقيد اتاجاكى .

— ماذا عن شى تشيا والآخرين ؟ ألم يقل لوه تشن يوى أن شى تشيا سيأخذنى

الى فنغتيان ؟

ـ ذلك أيضا يتوقف على العقيد اتاجاكى .

فسأله تشنغ تشوى :

ـ أين لوه تشن يوى ؟

ـ ذهب الى فنغتيان لرؤية العقيد اتاجاكى . انهم ما يزالون يتناقشون حول الدولة الجديدة ، وعندما يصلون الى اتفاق سيأتى لوه ويأخذ جلالتكم الى فنغتيان .

فابتعد تشنغ تشوى وعلى وجهه ملامح الغضب ، وقال : " هذا مريع ! " وفوجئت بهذا الخرق لأتكيت البلاط ، ولكن الذى لفت انتباهى حقا هو ما قاله كايسومى بأن شكل " الدولة الجديدة " ما يزال قيد المداولة . وكان هذا غريبا جدا . ألم يقل دويهارا وشى تشيا انه ليست هناك أية مشكلة وان كل ما يلزم بالنسبة لي هو أن آتى لارتقاء العرش ؟ ماذا قصد كايسومى عندما قال ان الامر ما يزال قيد المداولة ؟ وعندما سألت كايسومى هذا السؤال أجابنى اجابة غامضة :

ـ ان انجاز مشروع عظيم كهذا أسهل فى الكلام منه فى الفعل . تحلوا بالصبر يا جلالة الامبراطور ! عندما يحين الوقت سيدعى جلالتكم للتوجه .

فتدخل تشنغ تشوى قائلا :

ـ التوجه الى أين ؟ الى فنغتيان ؟

ـ ذلك يقرره العقيد اتاجاكى .

وتركتهما فى انفعال واستياء ، ودعوت تونغ جى شيوى لرؤيتى فى غرفة أخرى وسألته لماذا أرسل لي برقية من شنيانغ يقول فيها " كل شيء جاهز " . فأجاب تونغ بأن يوان جين كاى قد طلب منه ارسالها ولا يعرف شيئا عن ذلك . فسألت شانغ يان ينغ عن رأيه فى هذه المسألة . ولكنه عجز عن اعطائى جوابا معقولا ، وكم تمنى لو ظهرت له مائدة صلاته ، وعندها سيتمكن من

الحصول على توضيح من الآلهة .

لم أعرف فى ذلك الوقت ان اليابانيين كانوا فى حالة من الاضطراب المسبب لليأس . كانت اليابان معزولة دوليا وكان ما يزال فى داخلها اختلاف فى الآراء حول شكل الحكم الذى يجب ان تتخذه هذه المستعمرة الجديدة ، لذلك لم يستطع جيش قواندونغ ان يسمح لي بالظهور امام الناس . وكانت ردة الفعل الوحيدة عندى اننى فكرت بأن اليابانيين ليسوا متسمين بالاحترام فى تعاملهم معى كما كانوا فى تيانجين ، وان كايسومى يتصرف على نحو مختلف عما كان عليه عندما قابلته هناك .

وبعد أسبوع من الانتظار القلق تلقيت مكالمة هاتفية من اتاجاكى طلب منى فيها ان أنطلق الى ليوشون .

لماذا لم يتعين علي ان أذهب الى شنيانغ ؟ وضح كايسومى بابتسامة ان هذا سيحل عندما أتحدث مع اتاجاكى . لماذا أذهب الى ليوشون ؟ أجاب كايسومى باننى كنت فى تانغقانغتسى عرضة لخطر كبير من " قطاع الطرق " وان من الأفضل لي بكثير ان أذهب الى ليوشون حيث انها مدينة كبيرة وأكثر ملاءمة . وهذا بدا لي معقولا ، فأخذت قطارا وصل بى الى ليوشون صباح اليوم التالى .

وفى ليوشون أقمت فى فندق ياماتو اليابانى . وهنا ، كما فى الفندق السابق ، حجز لنا القسم العلوى من المبنى . وأبلغت بعدم النزول الى الأسفل . ولم يسمح للناس بالصعود الى الأعلى . وأخبرنى كايسومى وأماكناسوبأن المحادثات حول الدولة الجديدة مستمرة وانه لاحاجة لي الى التعجل ، حيث ان شخصا سيأتي ويدعونى الى شنيانغ فى الوقت المناسب . وبعد بضعة أيام منح تشنغ شياو شيوى وتشنغ تشوى نفس معاملة لوه تشن يوى ، وسمح لهما بالخروج بحرية ، بل أصبحا قادرين كذلك على الذهاب الى داليان . واختفت تعابير الاكتئاب من وجه تشنغ شياو شيوى ، وشرع يتحدث بنفس الطريقة مثل

لوه تشن يوى : " انه سيكون من المؤذى لهيبة جلالتكم السماوية ان تظهروا امام الناس الآن . اذا انتظرتم الى ان يرتب وزراؤكم كل شيء فمن ثم يمكن لجلالتكم ارتقاء العرش فى الوقت الملائم . " وقال ايضا انه يجب الا أقابل أحدا اذ ليس من الصواب ان اعلن عن حضورى قبل ان يسوى كل شيء ، وكان جيش ڤواندونغ هو مضيفى حينذاك، وكان علي ان أعتبر نفسى ضيفا عليه الى ان أرتقى العرش . وكان علي فى ذلك الوقت ان أفعل وفقا لما يراه مضيفى مناسبا . ولذلك لم يكن أمامى من خيار الا ان أكره نفسى على الانتظار ، على الرغم من اننى كنت ما أزال أشعر بعدم القدرة على التحمل .

وأضيف ان أولئك الناس الذين كانوا يخاطبوننى دائما بعبارة " جلالتكم " ويخدموننى باهتمام ملحوظ لم ينظروا الي على اننى سلطان حقيقى بل كأنى الملك المطبوع على ورق اللعب . فاليابانيون الذين كانوا تحت ضغط الدول الغربية والرأى العام الداخلى ارادوا الاحتفاظ بى فى جيوبهم ، الى ان يحين الوقت لاستعمالى . اما تشنغ شياو شيوى ولوه تشن يوى والآخرون فأرادنى كل منهم ايضا لنفسه لكى يضرب مناوئيه ويكون الوحيد الذى يتلقى المكافآت من اليابانيين . ولهذا السبب كنت معزولا . وعندما كنت فى تانغقانغتسى انتهز لوه تشن يوى فرصة القيود المفروضة من اليابانيين ليمنعنى من اجراء اى اتصال ، قاطعا بذلك صلتى مع تشنغ شياو شيوى من جهة وجيش ڤواندونغ من جهة ثانية . وبمجرد وصولنا الى ليوشون اصبح تشنغ شياو شيوى قادرا على انشاء صلاته مع اليابانيين منافسا بذلك لوه . ومن ثم اتحد الاثنان ليبعدا أى منافس ثالث فيما راحا يتصارعان على كسب ود اليابانيين .

لم أفهم هذا كله فى ذلك الوقت . وكل ما استطعت رؤيته هو أن لوه وتشنغ وابن تشنغ كانوا مع اليابانيين فى عزلي عن الخارج ، ولم يكونوا قلقين بخصوص تونغ جى شيوى او شانغ يان ينغ الذى لم يعرف الا اللجوء الى العرافة والدعاء من السماء ، ولكنهم اتخذوا أشد الاجراءات ازاء الناس الذين

جاءوا من تيانجين لرؤيتي ، بل كانوا كذلك أفظاظا مع زوجتي وان رونغ .
كنت قبل رحيلي من تيانجين قد تركت أمرا مع خادم ليسلمه الى هو سه يوان . وطلبت منه فى هذا الأمر ان يتبعني الى الشمال الشرقي وأبلغت تشن تسنغ شو (ابن شقيق تشن باو تشن) ان يجلب وان رونغ الي . وعندما سمعوا انني فى ليوشون ذهبوا الى داليان . فأخبرهم لوه تشن يوى ان جيش قواندونغ قد أصدر أوامر بعدم السماح لهم بالذهاب الى ليوشون . فشكت وان رونغ بهذا الأمر وظنت ان شيئا لابد ان يكون قد حدث لي ، لذلك بدأت تبكي وتصرخ . وبهذه الطريقة تمكنت من الحصول على اذن بالمجيء الى ليوشون لتراني فى الحال . وبعد شهر تقريبا نقلني جيش قواندونغ الى منزل ابن الأمير السابق سو ، وعندها فقط سمح لوان رونغ وشقيقتي الثانية والثالثة بالاقامة معي فى نفس المكان .

وأردت من تشن تسنغ شو وهو سه يوان ان ينتقلوا معي ، ولكن تشنغ شياو شيوى أخبرني بأن جيش قواندونغ قد أمر بأن لايراني أحد باستثنائه هو وابنه ولوه تشن يوى ووانغ شنغ شي . فطلبت منه ان يحاول تدبير الأمر مع أماكاسو وكايسومي . وكانت النتيجة الوحيدة ان سمح لهو سه يوان برؤيتي مرة واحدة بشرط ان يعود الى داليان فى نفس اليوم .

وحالما رآني هو سه يوان بدأ يبكي ويقول انه لم يخطر فى ذهنه قط ان يمنع من رؤيتي بعد هذه السنوات الطويلة من عمله فى خدمتي . وبالرغم من شعوري انا بالوحشة والارتهاب فقد حاولت تعزيته قائلا بأنني عندما أصبح حر فى تصرفي سأرسل أمرا بدعوته هو وتشن تسنغ شو الى جانبي . فوقف يبكي وأخبرني بالتفصيل كيف يقوم تشنغ شياو شيوى ولوه تشن يوى بوضع العراقيل أمامهم ويسعون وراء مطامحهم الخاصة ويحاولون اقصاء "المخلصين الصالحين" .

ولم ينجح هو سه يوان وأصدقاؤه أبدا فى التغلب على لوه تشن يوى وتشنغ شياو شيوى . وجاء تشن باو تشن الى ليوشون عندما كنت هناك حوالى شهرين ، ولكن تشنغ شياو شيوى الذى بز الجميع فى كسب ود جيش قواندونغ عدا لوه.

تشن يوى ، لم يرد منافسا آخر أمامه ، فرتب الأمر لابعاده بعد يومين فقط .

خلال أسابيعى الأولى فى الشمال الشرقى خاض لوه تشن يوى وتشنغ شياو شيوى معركتهما الأخيرة وأخذ لوه تشن يوى بزمام المبادرة أولا ، ولكنه كان غبيا بما فيه الكفاية حين أصر على اعادة ملك تشينغ فى مفاوضاته مع اليابانيين الذين كانوا يعتقدون ان رأيه سيكون مربكا لهم من الناحية السياسية . وبعدما انتقلت أنا وتشنغ شياو شيوى الى ليوشون دهش لوه حين رأى جيش قواندونغ قد دعا تشنغ للاشتراك فى المحادثات ، فهو لم يعلم شيئا عن صلات تشنغ بالعسكريين اليابانيين فى طوكيو او صلته بكايسومى فى تيانجين . وكما كان تشنغ شياو شيوى قد تولى فى السابق الاشراف على صلة لوه تشن يوى بالعقيد تاكيموتو فى السنة التى تركت فيها المدينة المحرمة ، فانه قد كسب الآن صداقة كايسومى صديق لوه . وبعد بضع محادثات أجراها أماكاسو مع تشنغ شياو شيوى وابنه تشنغ تشوى أدرك انهما ألين بكثير من لوه تشن يوى الذى كان يريد باصرار استعادة جميع طقوس ومراسم امبراطورية تشينغ السابقة . ومع ان تشنغ شياو شيوى دهش فى البداية عندما سمع بأن جيش قواندونغ يريدنى ان أكون " رئيس جمهورية مانشوريا ومنغوليا " ، الا أنه سرعان ما اخذ يروج بأن اليابانيين لا يريدون امبراطورا ، واوضح انه باعتباره سيكون رئيس وزراء النظام الجديد سيعمل على ان أصبح انا رئيس الدولة .

بعد تأسيس " امبراطورية مانشوريا " لم يرض لوه تشن يوى بالمنصب الذى عرض عليه وعاد الى تجارة التحف ، بينما أصبح تشنغ شياو شيوى رئيس الوزارة العميل بدلا منه .

خيبة أمل

اجتاحتنى نوبة قلق وانا فى ليوشون . فقد علمت من كايسومى وغيره من اليابانيين ان جيش قواندونغ لم يستقر بعد على شكل الدولة الجديدة . وكان ذلك أكثر ازعاجا لي من عدم استقبالى فى الميناء ، فقد كان بامكانى حينذاك تعزية نفسى بأن الاستعدادات لم تكتمل بعد او أن وصولي " لم يعلن عنه " . ولكن ماذا قصدوا عندما قالوا ان شكل الدولة لم يقرر بعد ؟ ولماذا اذن طلب منى دويهارا ان آتى الى الشمال الشرقى ؟

وأخبرنى تشنغ شياو شيوى وكايسومى ان دويهارا لم يكن كاذبا وان دعم جيش قواندونغ لاعادة الملكية ليس بهتانا ، ولكن لما كانت تلك مسألة مانشوية فقد تعين ان تناقش مع المانشويين ، وبالطبع فالمسألة " لا تقرر " الا بعد انتهاء المشاورات .

وفى ١٩ فبراير ١٩٣٢ جاء خبر بأن " اللجنة الادارية للشمال الشرقى " قد اتخذت قرارا باقامة جمهورية فى الشمال الشرقى . وكانت هذه اللجنة تتألف من عدد من الموظفين الكبار الموالين لليابانيين يتصدرهم تشانغ جينغ هوى ، وقد اصدرت : "بيان الاستقلال " فى نفس اليوم . وانتاب كل واحد فى حاشيتى احساس بالذعر والغضب ما عدا تشنغ شياو شيوى وابنه .

كنت أتميز غيظا وحقدا على دويهارا واتاجاكى وانا أندفع هنا وهناك كالمجنون فى البهووأطفىء السجاير من نصفها . وألقيت كتاب العرافة الذى كنت استخدمه على الأرض . وتذكرت فجأة حديقتى الهادئة ، ورأيت اننى ان لم أستطع ان أكون امبراطورا حقيقيا فسيكون من الأفضل لي بكثير ان أعيش حياة مريحة فى المنفى . فبوسعى ان أبيع بعض كنوزى وأمضى وقتا طيبا فى الخارج . وقررت اخطار جيش قواندونغ بأننى سأعود الى تيانجين اذا

لم يوافقوا على مطالبى . ولم يعارض لوه تشن يوى ولا تشنغ شياو شيوى هذه الفكرة عندما أخبرتهما بها . ووافقت على اقتراح لوه بضرورة ارسال هدية الى اتاجاكى وأعطيته بعض الأشياء الثمينة التى جلبتها معى ليأخذها اليه . وعندها اتصل اتاجاكى هاتفيا بنا وطلب من لوه وتشنغ ان يأتياه للتباحث . وطلبت انا من تشن تسنغ شو ان يحرر وثيقة بالأسباب التى تجعل " النظام الصحيح " (اعادة ملكية تشينغ) ضروريا ، وأعطيت الوثيقة كلا من تشنغ ولوه ليسلماها الى اتاجاكى ، بعد ان اكدت عليهما ان يتخذا موقفا ثابتا ويوضحا وجهة نظرى له .

وقد تضمنت الوثيقة اثنى عشر سببا ، أربعة منها أضافها تشن تسنغ شو :

١- ان الملكية هى النظام الصحيح حسب ناموس الاخلاق المقدسة لشرقى آسيا الذى يرجع الى خمسة آلاف سنة .

٢- ان اعادة النظام الصحيح هى اساس لتنفيذ الطريقة الملكية (٣٧) والمبادىء الخلقية .

٣- على المرء لكى يحكم الدولة ان يحوز ثقة الشعب واحترامه ، وهذا لايتم الا فى النظام الصحيح .

٤- ان الصين واليابان بلدان شقيقان ، ومن أجل بقائهما وصالحهما المشتركين يجب ان يحترما الأخلاق المقدسة منذ القدم ويؤكدا على ان للشعبين روحا متطابقة . ولضمان ذلك يجب اعادة الملكية .

٥- لقد عانت الصين من كوارث الديمقراطية لأكثر من عقدين ، وباستثناء أقلية أنانية فان الأكثرية العظيمة من أبناء الشعب يكرهون الجمهورية ويتشوقون الى أسرة تشينغ . ولهذا السبب يجب اعادة الملكية .

٦- ان الشعبين المانشوى والمغولى محافظان دائما على العادات القديمة ، فيجب اعادة الملكية اذا كنا نريد ولائهما وثقتهما .

٧- النظام الجمهورى واسع الانتشار الى حد كبير بينما عدد العاطلين عن العمل يزداد يوميا . وهذا يشكل تهديدا خطيرا للامبراطورية اليابانية ،

ولكن اذا أعيد النظام الامبراطورى فى الصين ، فهذا سيلعب دورا كبيرا فى الحفاظ على المؤهلات الثقافية والروحية لدى شعبى بلدينا ، ولهذا السبب يجب اعادة الملكية .

٨- ان لأسرة تشينغ العظيمة تاريخا الى ما قبل مائتى سنة فى الصين والى أكثر من قرن فى مانشوريا قبل ذلك . ولكى نراعى طريقة حياة الناس ونريح بالهم ، ونصون السلم فى جميع انحاء البلاد ، ونحافظ على الروح الشرقية ، وننفذ احياء الحكم الملوكى ، ونرسخ النظام الامبراطورى فى بلدينا ، يجب اعادة الملكية .

٩- ان نهوض اليابان يؤرخ ببدء الحكم الملكى للامبراطور ميجى . وأوامره الى وزرائه تدعو كلها الى التمسك بالأخلاق ، وتوصى بالولاء والاستقامة . وبينما العلم أخذ عن أوروبا وأمريكا ، فان الأخلاق اعتمدت على كونفوشيوس ومنشيوس . ولما كانت روح الشرق مصونة والشعب قد انقذ من عدوى السلوكيات الاوروبية المشينة ، فأبناء الشعب يحبون كبارهم ويوقرونهم ويحمون بلادهم كما تحمى يد المرء رأسه آليا . هذا هو قوله وهذا هو السبب فى احترامى له . فاذا اردنا اتباع خطوات الأمبراطور ميجى العظيم فيجب اعادة الملكية .

١٠- ان الأمراء المغول مستمرون فى استخدام ألقابهم السامية القديمة ، واذا ما ألغيت هذه الألقاب فى ظل حكومة جمهورية فان ذلك سيسبب لهم سخطا وخيبة أمل ، ولن يكون هناك سبيل لحكمهم . ولهذا السبب يجب اعادة الملكية .

١١- ان اليابان تستحق أشد اعجابنا للطريقة التى ساعدت بها المقاطعات الشرقية الثلاث (الشمال الشرقى) . وفكرت من خلالها بصالح الثلاثين مليونا من اهلها . ورغبتى هى اننا يجب ألا نحصر أنفسنا فى هذه الملايين الثلاثين من أبناء الشعب ، بل يجب ان نتخذ المقاطعات الشرقية الثلاث قاعدة ننطلق منها الى الوطن بكامله وننقذ الشعب من النكبات التى نزلت به . وهذا سيقود الى البقاء الطبيعى لشرقى آسيا وازدهارها . وتلك قضية تهم الملايين التسعين من أبناء الشعب اليابانى جميعا . ولذلك يجب ألا يكون هناك اختلاف بين النظامين

السياسيين لبلدينا . ولكن نحقق الرخاء لكلا البلدين فان اعادة الملكية لا غنى عنها .

١٢- منذ ان تقاعدت من منصبي عام ١٩١١ وانا أعيش بين الناس مدة تزيد عن عشرين عاما . ولم يكن عندى تفكير فى مجدى الشخصى ، بل كانت تحدونى دائما الرغبة فى انقاذ الشعب . فاذا كان هناك شخص آخر سيتولى مسؤولية البلاد ويضع حدا للويلات بسلوك الطريق الصحيح ، فسأكون سعيدا بان أبقى شخصا عاديا . واذا أنا أجبرت على استئناف حمل هذا العبء ، فان رأيى الشخصى انه بغير اللقب الصحيح والسلطة الحقيقية لتعيين الموظفين وادارة البلاد لن أكون قادرا على وضع حد لعشرين سنة من سوء الحكم . أما اذا كنت مجرد حاكم بالاسم ومكبلا بالقيود فلن يكون بوسعى تقديم اية مساعدة للشعب بل سأزيد حالته سوءا . وهذه لن تكون نيتى الأصلية ، بل ستزيد شعورى بالاثم ، اننى لأرفض رفضا تاما ان أتحمل مسؤولية ذلك . ولو اننى كنت مهتما بمجدى الشخصى فقط ، لأصبحت مسرورا جدا بأن أمنح الأرض والشعب بعد عقدين من العيش مغمورا . ماذا يعنينى اذا انا أصبحت رئيسا او سلطانا ؟ ان هذا ليس الا من أجل الشعب والدولة وبلدينا الصين واليابان ومن أجل شرقى آسيا كله ، وليس من أجل أدنى مصلحة ذاتية ، لذلك أصر على أن اعادة الملكية لاغنى عنها .

ولكن على الرغم من ان تشنغ شياو شيوى وافق على آرائى ووعدنى بنقلها الى اتاجاكى ، الا انه لم يقدمها قط . بل وقد وافق بدلا من ذلك على الاقتراح اليابانى بأن تكون الدولة الجديدة جمهورية ، وتعهد باقناعى بأن أصبح " رئيسها التنفيذى " . وأخبرت بأكثر من ذلك فيما بعد ، بأنه قال لاتاجاكى : " ان جلالته مثل قرطاس أبيض يمكن لجيشكم ان يرسم عليه ما يشاء " . ولما كنت لا أعرف حينذاك انه قال ذلك ، فقد غضبت منه ومن الآخرين أشد الغضب لأنهم سمحوا لأنفسهم بأن تنطلى عليهم خدعة اليابانيين . وحاول تشنغ شياو شيوى تهدئتى باستشهاده بسوابق تاريخية وباخبارى بأن

آمالى فى اعادة الملكية سوف تتلاشى اذا انا لم أساير اليابانيين الآن . وعندما لم ينفع ذلك معى قال لي ان بوسعى ان أتكلم بنيتى مع اتاجاكى حيث انه يريد ان يرانى عصر ذلك اليوم . فأجبته فى غضب :

— دعه يحضر .

لقاء اتاجاكى

قابلت اتاجاكى سايشيرو (٣٨) بعد عصر يوم ٢٣ فبراير ١٩٣٢ بحضور مترجم من جيش قواندونغ . كان اصلع قصيرا . بوجه حليق بادى الشحوب متباين مع سواد حاجبيه وشاربيه الصغير . وكان من أكثر الضباط اليابانيين الذين رأيتهم أناقة : طرفا كمي قميصه ناصعا البياض ، وثنية الكى فى بنطالة كأنها السكين . وكانت أناقته هذه مع عادته فى فرك يديه برقة توحى بأنه مهذب ودمث .

شكرنى أولا على الهدايا التى أرسلتها اليه ، ثم مضى يقول انه جاء بناء على أوامر الجنرال هونجو ، قائد جيش قواندونغ ، ليبلغنى بقضية " تأسيس دولة مانشوريا الجديدة " . وبدأ بالحديث عن " اخفاق حكومة تشانغ شيويه ليانغ المستبدة فى كسب ثقة الشعب وعن الغياب التام لأية ضمانات لمصالح اليابان فى الشمال الشرقى " . وتابع يتحدث بتفصيل عن " عدالة " نشاطات الجيش اليابانى وعن " اخلاصه فى مساعدة الشعب المانشوى على تأسيس فردوس وفقا للطريقة الملكية " . وكنت ، فيما هو يتحدث ، أهز رأسى بالموافقة آملا أن يقول لي بسرعة ويجيب عن السؤالى الذى كنت مهتما به حقا . وأخيرا وصل الى الموضوع الرئيسى .

— ستدعى الدولة الجديدة مانتشوقوه (دولة مانشوريا) ، وعاصمتها ستكون تشانغتشون التى ستعطى اسما جديدا ، شينجينغ (العاصمة الجديدة) ،

وستكون مؤلفة من خمسة اقوام : المانشو ، الهان ، المغول ، اليابانيين والكوريين .
ونظرا الى جهود اليابانيين فى مانشوريا خلال عقود كثيرة فان وضعهم القانونى والسياسى سيكون بالطبع مثل الاقوام الأخرى ، فهم مثلا سيتمتعون بنفس الحقوق التى يتمتع بها الآخرون فى الحصول على مناصب فى هذه الدولة الجديدة .

ومن غير ان ينتظر المترجم حتى ينهى ترجمته أخرج من محفظته « بيان استقلال الشعب المانشوى والمنغولى » و" علم مانتشوقوه " المكون من خمسة ألوان ، ووضعهما على الطاولة امامى . وكدت عندها أنفجر غضبا ، فأزحت هذه الأشياء جانبا بيد مرتجفة وسألته :

ـ ما نوع هذه الدولة ؟ انها بالتأكيد ليست امبراطورية أسرة تشينغ العظيمة !

فأجاب اتاجاكى فى عدم ارتباك كالمعتاد :

ـ بالطبع هذه لن تكون اعادة لامبراطورية اسرة تشينغ العظيمة . هذه ستكون دولة جديدة ، فاللجنة الادارية للشمال الشرقى قد أصدرت قرارا اجماعيا بالمناداة بسعادتكم رئيسا للدولة . وستكونون " الرئيس التنفيذى " .

وجعلت عبارة " سعادتكم " الدم ينفر الى وجهى . اننى لم أخاطب قط قبل ذلك على هذا النحو من اليابانيين ، ولم أكن مستعدا للتساهل بالغاء لقبى الامبراطورى ، ولا بابدال الشمال الشرقى بمليونى لى مربع وثلاثين مليون نسمة . وكنت من الاهتياج بحيث لم أستطع ان اتماسك فى مقعدي . وقلت له بصوت عال :

ـ اذا كانت الاسماء غير صحيحة كان الكلام غير مرتب ، واذا لم يكن الكلام مرتبا فلن يتم انجاز أى شيء ! ان ابناء مانشوريا لا يشتاقون الي شخصيا بل الى امبراطور اسرة تشينغ العظيمة . فاذا انتم ألغيتم مثل هذا اللقب ، فسنخسر ولاءهم . فينبغى لي ان أطلب من جيش قواندونغ ان يأخذ هذا بعين الاعتبار .

ففرك اتاجاكى يده برقة وقال ، وقد علت وجهه الابتسامات :

— ان ابناء مانشوريا قد عبروا عن رغبتهم فى ترشيح سعادتكم رئيسا للدولة الجديدة ، وهذا يدل على ولائهم لكم بينما وافق جيش قواندونغ تمام الموافقة على رغبتهم .

— ان فى اليابان نظاما امبراطوريا ، فكيف يمكن لجيش قواندونغ ان يوافق على تأسيس جمهورية ؟

— اذا كان سعادتكم لا يرغب فى كلمة "جمهورية" ، فاننا لن نستخدمها . وهذه ستكون دولة قائمة على النظام التنفيذى .

— اننى ممتن غاية الامتنان لكل ما قدمته دولتكم من مساعدة متحمسة ، ولكننى لا أستطيع الموافقة على هذا "النظام التنفيذى" . لقد ورثت اللقب الامبراطورى عن أسلافى ، واذا انا تخليت عنه فسأكون بذلك مفتقرا الى الولاء والبر .

فبدا اتاجاكى كأنه تفهم الأمر جيدا ، فقال :

— ان منصب رئيس تنفيذى سيكون موقتا فقط . انه لمن المعروف تماما ان جلالتكم هو الامبراطور الثانى عشر لأسرة تشينغ العظيمة ، واننى متأكد من انه بعد تشكيل مجلس وطنى سيشرع دستور لاعادة النظام الامبراطورى .

أغضبتنى عبارة "مجلس وطنى" مرة ثانية ، فقلت هازا رأسى مؤكدا :

— ليست هناك مجالس وطنية جيدة ، ان امبراطور أسرة تشينغ العظيمة الأول لم يحصل على لقبه من أى مجلس وطنى .

واستمر النقاش أكثر من ثلاث ساعات دون ان نصل الى اتفاق . وأخيرا تناول اتاجاكى الذى ظل طوال المناقشة مبتسما ، حقيبته مشيرا بذلك الى انه لم يعد يرغب فى استمرار النقاش . واختفت الابتسامة من وجهه الذى أصبح الآن أكثر شحوبا من السابق ، وخاطبنى بـ"سعادتكم" بدلا من "جلالتكم" :

ــ ينبغى لسعادتكم ان يفكر فى ذلك بعناية . وسنستأنف نقاشنا غدا .

وبهذه العبارة الباردة تركنى وانصرف .

فى ذلك المساء أقمت مأدبة لاتاجاكى لان تشنغ شياو شيوى حذرنى من خطورة جعل العلاقة باليابانيين سيئة ، مذكرا اياى بمصير تشانغ تسوه لين . ومرت المأدبة بهدوء ، وتجنب اتاجاكى بحذر موضوع نقاش النهار .

وفى الصباح التالى استدعى اتاجاكى كلا من تشنغ شياو شيوى ولوه تشن يوى وغيرهما من مرشدى الى فندق ياماتو وطلب منهم ان يعطونى قراره النهائى :

ــ ان مطالب الجيش لا يمكن تغييرها نهائيا . اننا سنعتبر رفضهم دليلا على موقف معادى ونتصرف وفقا له . وهذه هى كلمتنا الأخيرة !

ولسعنى هذا الجواب . وخارت القوة فى ساقي ، وتهالكت فى اربكتى فى صمت .

وبينما كان لوه تشن يوى والآخرون صامتين حثنى تشنغ تشوى على قبول الاقتراحات اليابانية . وأيده أبوه قائلا فى صوت متهيج :

ــ ان اليابانيين يفعلون دائما ما يقولون فعلينا ألا نلقى بأنفسنا فى المهالك . وهم اضافة الى ذلك متعاطفون معكم وسيسمحون لجلالتكم بأن تكونوا رئيس الدولة ، وهى نفس مرتبة الأمبراطور . لقد حصلنا على فرصة اليوم بشق الانفس وهى سبب خدمتى لجلالتكم كل هذه السنوات . فاذا أصر جلالتكم على الرفض فسأضطر الى حزم أمتعتى وأعود الى بيتى .

وجعلنى هذا التهديد أشعر باليأس . ثم أضاف تشنغ تشوى يقول :

ــ اذا وافق جلالتكم على مطالب الجيش اليابانى ، فسيكون فى وسعكم تقوية مركزكم فى المستقبل ، وسنكون قادرين على ان نتصرف بالطريقة التى نريدها .

وقال لوه تشن يوى فى حزن ويأس :

— مع ان المرء يمكن ان يتأسف للوضع الحاضر ، الا انه ليس أمامنا ما نستطيع فعله . ان السبيل الوحيد امامنا هى ان نعطى مهلة سنة ، فاذا لم تتم اعادة النظام الامبراطورى ، فبوسع جلالتكم عند ذلك ان تستقيلوا . دعنا ننظر الى ردة فعل اتاجاكى ازاء ذلك .

ولما رأيت ان لا مخرج أمامنا تنهدت ، ثم أرسلت تشنغ شياو شيوى ليرى ان كان اتاجاكى سيوافق على ذلك .

وعاد تشنغ حالا منشرحا ، وقال ان اتاجاكى قد وافق وانه سيقيم " مأدبة متواضعة للرئيس التنفيذى القادم " هذا المساء .

وهكذا أصبحت ، انا أرتجف خوفا وأحلم باعادة ساطانى ، خائنا مكشوفا دون شعور بالخجل وغطاء لنظام دموى حول قسما كبيرا من بلادي الى مستعمرة وانزل المآسى الشديدة بثلاثين مليونا من المواطنين . كما أرسيت الأسس لصعود هونجو واتاجاكى وغيرهم من اليابانيين حيث بين تشنغ شياو شيوى فى يومياته ان مساعيهم كانت ستخيب لواننى رفضت التعاون .

ملاحظات

(١) حكمت من (١٦٤٤-١٩١١) ، وهى أسرة أسستها قبيلة آيشين — جيولوه ، من قومية المانشو ، جاءت من شمال شرقى الصين .

(٢) من عام ١٨٥٦ الى ١٨٦٠ شنت بريطانيا وفرنسا عدوانا مشتركا على الصين . وكانت حكومة تشينغ آنذاك متوجهة بكل طاقتها لقمع ثورة اتاى‌بينغ الفلاحية فلم يسعها التصدى الحازم للمعتدين الأجانب ، مما عرض الصين لهزيمة شنيعة .

(٣) حركة يى خه توان (رابطة التعاون على البر) انتفاضة شعبية قامت ضد المستعمرين الأجانب عرفت عند الكتاب الغربيين باسم "حركة الملاكمين" على سبيل الثلب لها — المترجم .

(٤) فى ١٠ اكتوبر من تلك السنة قام قسم من الجيش الجديد بدفع من المنظمات الثورية للبرجوازية والبرجوازية الصغيرة بانتفاضة فى ووتشانغ . وقد أتبعت هذه الانتفاضة بانتفاضات أخرى فى غيرها من المقاطعات ، مما عجل فى انهيار أسرة تشينغ .

(٥) الانتفاضة التى فجرت ثورة ١٩١١ .

(٦) يضع الصينيون لتأبين المتوفى قبل دفنه لوحة مكتوب عليها اسمه تحاط بالقرابين والمباخر ويأتى المعزون لينحنوا أمامها ـ المترجم .

(٧) الكانغ : دكة للجلوس والنوم مبنية بالآجر ويمكن تدفئتها بوضع مجمرة فى اسفلها ، شائعة جدا فى شمالى الصين .

(٨) أصبح وانغ جينغ وى فيما بعد قائدا كومينتانغيا سيء السمعة وعميلا لليابانيين . فقد استسلم علانية للغزاة اليابانيين فى ديسمبر ١٩٣٨ عندما كان نائب رئيس الكومينتانغ ورئيس المجلس الاستشارى السياسى الشعبى . وفى آذار ١٩٤٠ اصبح رئيسا

للحكومة المركزية العميلة التى تشكلت حينذاك فى نانجينغ . ومات فى اليابان فى نوفمبر ١٩٤٤ .

(٩) الزوجتان الأرملتان من الدرجة الأولى ، أرملتا الامبراطورين تونغ تشى وقوانغ شيوى .

(١٠) اطباق الموقد (هوه قوه) اطباق مزودة بموقد تقدم ضمن الوجبات ، وهى عادة مغولية الإصل—المترجم .

(١١) حرفيا " عشرة آلاف سنة " ، ويشار بها فى الصين الى العمر المديد او الشيء اللامحدود — المترجم .

(١٢) جين : يعادل نصف كيلوغرام—المترجم .

(١٣) " اسم الحليب " هو اسم الدلال فى الطفولة .

(١٤) مقتبس من المؤلف الكلاسيكى القديم « كتاب التغيرات » .

(١٥) الماجيانغ : لعبة صينية—المترجم .

(١٦) اللامات جمع لاما اسم يطلق على أعضاء الاكليروس فى طائفة اللاما البوذية—المترجم .

(١٧) ان حركة اعادة الملكية لم تنته على وجه التحديد حينذاك لان بعض الناس عمل من اجل تأسيس " حكم تشينغ اللاحق " بعد الغزو اليابانى لشمالى الصين . ولكن نظرا لعدم موافقة سادتهم اليابانيين فقد ذهبت جهودهم عبثا .

(١٨) كان غودناو استاذا فى جامعة كولومبيا فى أمريكا . ومقالته هذه التى عنونها " حول الجمهورية والملكية " وضعت الأساس النظرى لملوكية يوان شى كاى بالتأكيد على سخافات مثل " ان الملكية أكثر ملاءمة للصين من الجمهورية " .

(١٩) تسنغ قوه فان (١٨١١—١٨٧٢) ، مالك أرض هانى وبيروقراطى من هونان ، لعب دورا رئيسيا فى قمع ثورة مملكة تايبينغ السماوية ، مشاركا بذلك فى انقاذ أسرة تشينغ من دمار محتوم .

(٢٠) يقصد انهم لبسوا ملابس بلاط تشينغ التى جعلتهم يشبهون تماثيل وصور اسلاف .

(٢١) زفافى .

(٢٢) لقب " هو " فى اللغة الصينية يلفظ كما تلفظ كلمة " قرد " .

(٢٣) يشير المؤلف هنا الى ان جونستون كان ينطق بالفصحى الصينية التى يتعلمها الأجانب فى العادة وهو السبب فى سهولة فهمه له خلافا للمعلمين الصينيين الناطقين بلهجاتهم المحلية — المترجم .

(٢٤) كانت القطارات خلال الحروب الأهلية محتجزة غالبا لأمراء الحرب ، لذلك كانت الخدمة بين بكين وتيانجين فى فوضى شديدة . وتلبية لمطلب المفوضيات الأجنبية نظم " قطار دولى " ، كان فى مأمن من تدخل الاطراف المتحاربة .

(٢٥) كان شارع تشانغآن هذا خارج حى المفوضيات ، اى انه ليس تحت السيطرة الأجنبية . وهذا الشارع الذى يعنى اسمه " السلام الدائم " هو الشارع الرئيسى لمدينة بكين .

(٢٦) وفقا للتقويم الغربى يكون عيد ميلادى التاسع عشر .

(٢٧) المو وحدة مساحة صينية تعادل ٠٦٦ر٠ هكتار—المترجم .

(٢٨) مجموعة ضخمة من الكتب ألفت بناء على أوامر من الامبراطور تشيان لونغ .

(٢٩) تشو قه ليانغ (١٨١—٢٣٤) ، من شخصيات عصر الممالك الثلاث كان نموذجا يحتذى فى السياسة والمهارة العسكرية .

(٣٠) فى ١٨ سبتمبر ١٩٣١ شن الامبرياليون اليابانيون غزوا واسع لنطاق لشمال شرقى الصين .

(٣١) يمكن للصينيين واليابانيين ان يتفاهموا بالكتابة ، لان معانى الكلمات المكتوبة متماثلة فى اللغتين والاختلاف بينهما هو فى التلفظ .

(٣٢) من بين هؤلاء : فيومايرو وأوجاكى كاتسو شيج ويوناى ميتسوماسا وهيرانوما كتيشيرو وسوتسوكى كانتارو وميناى جيرو ويوشيدا شيجرو .

(٣٣) يقصد نفسه وكان الصينيون حتى العصر الحديث يؤرخون بعهد الامبراطور القائم — المترجم .

(٣٤) فى الايام الأخيرة لهذا النادى سمح لقليل من الرأسماليين الكومبرادوريين الصينيين بدخوله اذا صحبهم أعضاء أجانب . وقد حول هذا المكان بعد التحرير

الى نادى شعبى .

(٣٥) التاسع عشر وفقا للتقويم الميلادى .

(٣٦) قو جيان هو ملك دولة يوه فى حقبة الربيع والخريف هزم هزيمة منكرة على يد دولة وو المجاورة ، وكان له وزير كفوء يدعى فان لي عضده فى محنته ودبر له من الخطط ما مكنه من الانتقام لهزيمته وتحطيم دولة وو .

(٣٧) " الطريقة الملكية " اصطلاح كونفوشيوسى يشير الى حكم البلاد بالاحسان والاستقامة تبعا للسياسات الكونفوشية المرتبطة بأخلاقيات النظام الاقطاعى .

(٣٨) أصبح اتاجاكى سايشيرو رئيس أركان جيش قواندونغ منذ عام ١٩٢٩ ، وكان واحدا من المدبرين الرئيسيين لحادثة ١٨ سبتمبر ولاقامة دولة عميلة لليابانيين فى الشمال الشرقى بعد ذلك . وقد لعب فيما بعد دورا قياديا قذرا فى أحداث أخرى مثل الغزو اليابانى لبقية الصين واقامة الأنظمة العميلة الصينية الأخرى والهجوم على الاتحاد السوفياتى عند بحيرة قازان .

شجرة بيت تشينغ

حكموا فى الشمال الشرقى:

نوهاتشى
تيان مينغ
١٦٢٦-١٥٥٩

هوانغ تاى جى
تيان تسونغ
تشونغ ده
١٦٤٣-١٥٩٢

(١)
فو لين
شون تشى
١٦٦١-١٦٣٨

(٢)
شيوان يه
كانغ شى
١٧٢٢-١٦٥٤

(٣)
ين تشن
يونغ تشنغ
١٧٣٣-١٦٧٨

(٤)
هونغ لي
تشيان لونغ
١٧٩٩-١٧٠٧

(٥)
يونغ يان
جياتشينغ
١٨٢٠-١٧٦٠

(٦)
مينغ يننغ
داو قوانغ
١٨٥٠-١٧٨٢

(٧)
يى نينغ
شيان فنغ
١٨٦١-١٨٣١
م. ينوهولو ، فيما بعد الامبراطورة الأرملة الشرقية تسى آن ، ت . ١٨٨١ ، يهونالا ، فيما بعد الامبراطورة الارملة الغربية تسى شى ت . ١٩٠٨

يى هوان
الامير تشون الأول
١٨٩٠-١٨٤٠
——
م. شقيقة يهونالا

(٨)
تساى تشون
تونغ تشى
١٨٧٤-١٨٥٦
بلا ذرية

(٩)
تساى تيان
قوانغ شيوى
١٩٠٨-١٨٧١
م . ابنة شقيق يهونالا ، فيما بعد الامبراطورة الأرملة لونغ يوى ت . ١٩١٣ ——
بلا ذرية

تساى فنغ
الامير تشون الثانى
١٩٥١-١٨٨٣
م . ابنة رونغ لو

(١٠)
بو يى
شيوان تونغ
١٩٦٧-١٩٠٦

بو جيه
بو تشى
بو رن
يون يينغ
يون هو
يون ينغ
يون شيان
يون شينغ
يون يوى
يون هوان

الأرقام : (١) ، (٢) ، الخ ، تشير الى أباطرة أسرة تشينغ بعد ان اتخذت الأسرة بكين عاصمة لها . والخط المنقط يشير الى انتقال الملك بالتبنى .

مطبعة اللغات الأجنبية بكين
توزيع
الشركة الصينية العالمية لتجارة الكتب
(كوزى شوديان)
ص.ب ٣٩٩ بكين - الصين

从皇帝到公民
——我的前半生——
上 册
爱新觉罗·溥仪著
阿卜杜·卡里姆译
*
外文出版社出版
（中国北京百万庄路24号）
外文印刷厂印刷
中国国际图书贸易总公司
（中国国际书店）发行
北京399信箱
1985年（大32开）第一版
编号：（阿）11050—173A
00415
11—A—619PA

دار النشر باللغات الاجنبية بكين

صدر منها :

قصص لوشيون المختارة

ديدان القز الربيعية وقصص اخرى

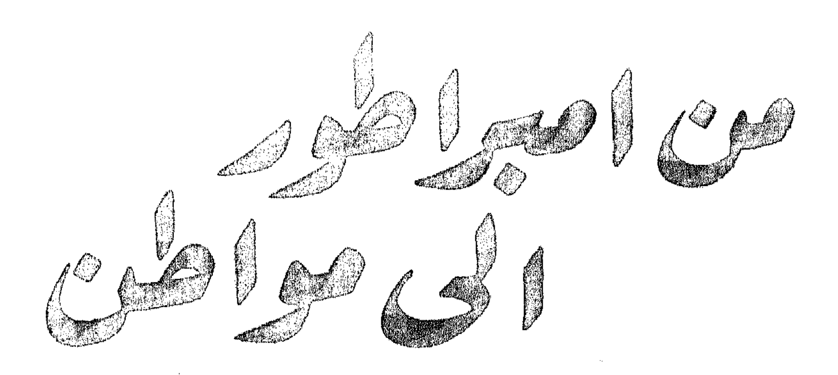
طلوع الشمس

عاصفة رعدية

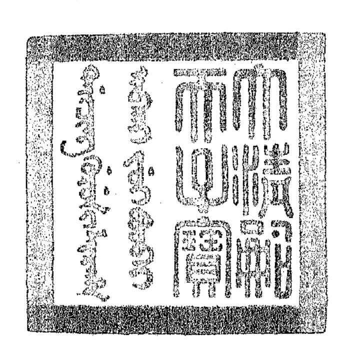
الاسرة

الغانية وصندوق المجوهرات

الخنجر السحرى



السيرة الذاتية
رآيشين - جيولوه
بويى





المجلد الثانى

ان كتاب « من امبراطور الى مواطن » يحكى السيرة الذاتية للرجل الذى كان آخر امبراطور فى الصين ، والذى اصبح فيما بعد امبراطورا عميلا لـ " امبراطورية منشوريا " الخاضعة للامبريالية اليابانيسة فى شمال شرقى الصين .

فى المجلد الأول من هذا الكتاب يقدم المؤلف صورة واضحة للحياة فى بلاط تشينغ المتفسخ فى اخريات ايامه ، يكشف كيف قام ، بعد الاطاحة بالاسرة ، هو والقوى الاقطاعية الاخـرى بالتآمـر مع السلطات الاجنبية لاعادة الملكية ، وكيف اصبح عميلا للامبرياليين اليابانيين . وفى المجلد الثانى يصف بو يى حياته فى بلاط منشوريا ، ويتحدث كيف وقع فى قبضة الحكومة الشعبية ، ويقدم وصفا حيا لاعادة تكوين نفسه عبر العمل والدراسة داخل سجون مجرمى الحرب ، وكيف تغير تفكيره . وفى الفصل الاخير من الكتاب يصف كيف عاش بعد العفو عنه ، بوصفه مواطنا عاديا فى جمهورية الصين الشعبية .



من امبراطور الى مواطن

السيرة الذاتية

رآيشين - جيولوه
بويى

المجلد الثانى



دار النشر باللغات الاجنبية بكين

الطبعة الاولى ...... عام ١٩٨٥

ترجمة : محمد نمر عبد الكريم

دار النشر باللغات الاجنبية
٢٤ شارع باى وان تشوانغ
بكين – الصين

طبع فى جمهورية الصين الشعبية

الفهرس

الفصل السادس

اربعة عشر عاما من حكم
" امبراطورية منشوريا "

الدور العميل يبدأ

كانت مشاعرى مضطربة ومتناقضة وانا اجلس على المائدة الخاصة التى اقامها لى الكولونيل اتاجاكى مساء ٢٤ فبراير ١٩٣٢ احتفالا بموافقتى على ان اصبح " رئيسا تنفيذيا لدولة منشوريا " العميلة اليابانية الجديدة . وقدم اتاجاكى مومسات يابانيات الضيوف ، وقد لاطفهن وعانقهن دون ان ينزعج بخصوص تقاليد السلوك المهذب . ونظرا الى انه شرب بحرية وجلجل صوته بالضحك فانه لم يحاول اخفاء سروره بنجاحه فى اجبارى على القبول بشروطه . وفيما كان ما يزال يسيطر على نفسه الى حد ما شرب نخبى بمنتهى الاحترام ، متمنيا لى مستقبلا باهرا وتحقيقا تاما لمطامحى ، وقد سررت غاية السرور لسماعى ذلك . ولكن مع انقضاء المساء وشربه المزيد المزيد من الخمر ازداد وجهه شحوبا ، وبدأت الامور تسوء . وسألتنى مومس يابانية بصينية متكلفة : " هل عندك تجارة ؟ " وعندما سمع اتاجاكى ذلك انفجر بضحك غريب ، وادركت انه ليس هناك ما يسر .

وفى ٢٨ فبراير وبأمر من جيش قواندونغ اليابانى اتخذ " مجلس جميع منشوريا " فى شنيانغ قرارا بخصوص اعلان استقلال الشمال الشرقى وتعيينى " رئيسا تنفيذيا للدولة الجديدة " . واخبرنى كايسومى وتشنغ شياو شيوى بأن مندوبى هذا " المجلس " سيأتون الى ليويشون كى يدعونى الى قبول المنصب ، وسنحتاج الى اعداد جواب او جوابين . الاول سيكون رفضا والثانى قبولا ، ليكون هذا الجواب جاهزا عندما يضغط على المندوبون مرة ثانية . وفى ١ مارس وصل الوفد المكون من تسعة رجال الى ليويشون ، وسلمهم تشنغ شياو

شيوى الذى قابلهم باسمى بالجواب الاول . وبعد ذلك قابلتهم بنفسى ، والقى كلا الطرفين الخطب التى طلب منه القاؤها ؛ و" توسلوا الى بحماسة " ولكننى " رفضت بتواضع " ، وقبل ان تنقضى عشرون دقيقة انتهى اللقاء . وفى ٥ مارس ازداد عدد " الوفد " الى تسعة وعشرين عضوا بأمر من القسم الرابع (١) لجيش قواندونغ وجاء مرة اخرى كى " يتوسل الى بحرارة " . وهذه المرة انجز الوفد مهمته ، وكان جوابى النهائى كما يلى :

نظرا الى انكم تعهدون الى بهذه المسؤولية العظيمة ، كيف يسعنى ان اتجرأ على الرفض بدافع التوانى والراحة ؟ ولكن بعد تفكير عميق اشعر اننى قد اخيب آمال الجماهير . . . سوف اعتصر امكاناتى الضعيفة واعمل لمدة سنة رئيسا تنفيذيا مؤقتا ؛ واذا كانت نواقصى مفرطة فاننى سأتقاعد باحترام بعد مرور تلك السنة . واذا ما تم ايجاد دستور خلال تلك السنة واقر شكل الدولة وفقا لمقصدى الاصلى فسأعيد حين ذاك النظر بدقة فى فضلى وقوتى واقرر ماذا افعل .

وانتهت هذه الفترة الفاصلة ، وغادرت الى تشانغتشون فى اليوم التالى مع وان رونغ وتشنغ شياو شيوى وتشانغ جينغ هوى والآخرين . ولدى توقف قطارى فى محطة تشانغتشون فى الساعة الثالثة بعد الظهر من ٨ مارس ، سمعت صوت الفرق الموسيقية العسكرية وهتاف الحشود . وعندما خطوت على رصيف المحطة محاطا بتشانغ جينغ هوى وشى تشيا واماكاسو وكايسومى وغيرهم رأيت رجال الدرك اليابانيين وصفوفا من الناس يلبسون مختلف انواع الملابس ؛ بعضهم بستر واثواب صينية ، وبعضهم ببدلات غربية ، وآخرون بملابس يابانية تقليدية ، وكانوا جميعا يمسكون بأيديهم اعلاما صغيرة فتأثرت بذلك ، وفكرت فى اننى ارى الآن المشهد الذى افتقدته عند الميناء . وفيما كنت امر بهم اشار شى تشيا الى صف من اعلام التنين بين الاعلام اليابانية وقال ان الناس الذين يمسكون بهذه الاعلام هم من رجال الرايات المانشويين الذين

كانوا ينتظرون قدومى منذ عشرين سنة . فدمعت عيناى لسماع هذه الكلمات ، وازددت قناعة ان مستقبلى سيكون مشرقا .

وعندما صعدت سيارتى عادت بى افكارى الى مدينتى المحرمة وطردى منها وسرقة المدفن الشرقى والعهد الذى قطعته على نفسى نتيجة ذلك . وشغلنى التفكير فى آمالى واحقادى عن الانتباه الى الشوارع التى مررت بها او عن ملاحظة الترحيب الفاتر الذى لقينى به اهالى تشانغتشون ، وهم صامتون رعبا وبغضا . وبعد رحلة قصيرة دخلت السيارة الى رحبة مبنى قديم . وهو الذى سيكون "مقر الرئيس التنفيذى" ، مع انه لم يكن كما بدا لى واحدا من افخم المنازل فى المدينة .

وفى اليوم التالى تسلمت المنصب وفقا للمراسم المتبعة فى قاعة استقبال كبيرة رتبت على عجل . وكان بين الحاضرين اوتشيدا ، مدير سكة حديد جنوبى منشوريا اليابانية ، وهونجو ، قائد جيش قواندونغ ، ومايبلك ، رئيس اركانه ، وضابط الاركان اتاجاكى . وحضر كثير من "وزرائى القدامى" : وكان بينهم ، بالاضافة الى تشنغ شياو شيوى ولوه تشن يوى وهو سى يوان وتشن تسنغ شو ، عدد آخر من موظفى اسرة تشينغ السابقين ومن الامراء المنغوليين . وكان هناك ايضا عدد من رجال عصبة فنغتيان السابقين مثل تشانغ جينغ هوى وتسانغ شى يى وشى تشيا وتشانغ هاى بنغ ؛ وكان هناك كذلك ضابط اركان سابق لدى الجنرال ابو لحم الكلب تشانغ تسونغ تشانغ .

ولبست بدلة رسمية غربية . وتحت نظر ذوى المقامات الرفيعة من اليابانيين انحنى لى "مؤسسو الوطن" ثلاث مرات وانحنيت لهم مرة واحدة . ومن ثم قدم لى تسانغ شى يى وتشانغ جينغ هوى باسم "شعب منشوريا" "ختم الرئيس التنفيذى" ملفوفا بقطعة من الحرير الاصفر . وبعد هذا قرأ تشنغ شياو شيوى "بيان الرئيس التنفيذى" نيابة عنى :

ينبغي للنوع البشري ان يحترم الاخلاق ، ولكن نظرا لوجود تمييز عنصري فان الناس يضطهدون الآخرين ليرفعوا من شأن انفسهم ، مضعفين بذلك القيم الخلقية . كما ينبغي للنوع البشري ان يحترم نزعة الخير ، ولكن بسبب النزاع الدولي فان بعض الناس يحاول ايذاء الآخرين من اجل المصلحة الشخصية ، مضعفا بذلك نزعة الخير . والاخلاق ونزعة الخير هما المبدءان اللذان تؤسس عليهما دولتنا ، التي من المحتم ان تصبح بازالة التمييز العنصري والنزاع الدولي جنة على الطريقة الملكية . وآمل ان يسعى جميع ابناء شعبي الى تحقيق ذلك .

وعندما قابلت الضيوف الاجانب بعد انتهاء المراسم القى مدير سكة جنوبي منشوريا اليابانية خطاب تهنئة ، وقرأ لوه تشن يوى جوابي . وبعدها دخلنا الفناء لرفع العلم الجديد والتقاط الصور ، وانتهى ذلك بمأدبة .

وبعد ظهر ذلك اليوم جاء تشنغ شياو شيوى ببعض " الاعمال الرسمية " الى " مكتب الرئيس التنفيذي " . وانحنى قائلا بصوت رقيق ورأسه الاصلع يلتمع :

— ان الجنرال هونجو قد اوصى بأن يصبح خادمكم رئيس وزراء ويؤلف وزارة . وهذه قائمة للتعيينات (٢) فهل تسمح جلالتكم بأن توقعوا عليها .

ونظرا الى ان الوكيل الياباني اماكاسو كان قد ناقشني بها قبل ذلك في ليويشون تناولت فرشتي ووقعت . وبذلك قمت بأول عمل من اعمال " دولة منشوريا " .

وقد تأثرت تأثرا عميقا بالجوقة العسكرية واعلام التنين في محطة تشانغتشون وبمراسم تسلم المنصب وبخطاب التهنئة الذي القي عندما قابلت الضيوف الاجانب ، وشعرت اني بتسلمي المنصب على المكشوف قد وضعت نفسي في موضع لا انسحاب منه . وفوق ذلك قد يساعدني اليابانيون في استعادة لقبي

الامبراطورى اذا انا مضيت فى التعاون معهم . وعندما نظرت الى الجانب المشرق فى ذلك ، بدا لى كونى " رئيسا تنفيذيا " ليس امرا هينا بل خطوة نحو العرش الامبراطورى . وكانت المشكلة التى اعطيتها انتباهى الآن هى كيف استفيد من هذا المنصب الى ابعد حد . وبعد ان فكرت فى ذلك عدة ايام اعلنت خلاصة ما توصلت اليه على تشن تسنغ شو وهو سى يوان اللذين اصبحا الآن من امنائى :

" ان عندى عهدين وامنية ، واننى اود ان اخبركما بها . اولا ، اننى سأعمل على التخلص من جميع اخطائى السابقة ، وقد عاهدت نفسى ألا اكون كسولا قط او عابثا كما وصفنى تشن باو تشن قبل عشر سنوات . ثانيا ، عاهدت نفسى بأن لا استريح حتى اتغلب على جميع العقبات واعيد ميراثى السلفى . ثالثا ، ارجو ان ترسل لى السماء وريثا ليتابع مسيرة اسرة تشينغ العظيمة . واذا تحققت هذه الاشياء الثلاثة فسيكون بوسعى ان اموت سعيدا . "

بعد شهر تقريبا من تسلمى المنصب انتقل " مقر الرئيس التنفيذى " الى مبنى اعيد تزيينه ، كان فى السابق مكتب مكوس الملح لمقاطعتى جيلين — هيلونغجيانغ . وفى البداية اخذت انهض باكرا كل صباح واذهب الى مكتبى مباشرة ، ولا اعود الى مسكنى حتى المساء . واتبعت تعليمات جيش قواندونغ فى عملى ساعات طويلة تحت وهم ان اصبح قادرا على استخدام السلطة بصفتى رئيس دولة ، آملا خلال ذلك ان انجز العهدين اللذين قطعتهما على نفسى واعود الى العرش . ولكن هذا الاجتهاد لم يستمر طويلا لأنه لم يكن هناك عمل اقوم به ، وسرعان ما اكتشفت ان سلطات " الرئيس التنفيذى " ليست الا حبرا على ورق .

سلطان بلا سلطة

لقد حددت المواد الثلاث عشرة من القسم الاول من « قانون دولة منشوريا التنظيمي » سلطاتي بكل وضوح . وقد نصت المادة الاولى على ان " الرئيس التنفيذي يحكم دولة منشوريا " ، والثانية الى الرابعة على ان لي سلطة تشريعية وتنفيذية وقضائية . والمواد الاخرى نصت على ان بلاغاتي سيكون لها قوة القانون ، وانني انا الذي اقرر بنية الادارة والتعيينات الرسمية ، وانني القائد الاعلى للقوات البرية والبحرية والجوية ، وان لدى السلطة في اصدار قرارات الصفح والعفو العام ، وفي تخفيف العقوبات واعادة الحقوق الى ذويها من الناس الذين كانت قد جردت منهم ، وما الى ذلك .

والواقع انني لم اكن املك حتى السلطة التي تخولني ان اقرر الخروج من بوابات مسكني الداخلية متى شئت . وذات يوم فكرت في الخروج للتمشي ، فأخذت زوجتي وان رونغ واثنتين من شقيقاتي للقيام بنزهة في " منتزه داتونغ " ، ولكن لم تمض علينا عدة دقائق في المنتزه حتى جاء رجال الدرك اليابانى ورجال " مكتب الامن التابع لمقر الرئيس التنفيذي " في سيارة وطلبوا مني ان اعود ، حيث ان غيابي عن مقري قد بلغ عنه فورا ، فحشدت اعداد كبيرة من الجند ورجال البوليس للتفتيش عني ، مثيرين اهتياجا عظيما في كافة انحاء المدينة . وبعد انتهاء الامر قال لي مستشاري كايسومي انه من اجل هيبتي وامني يجب ألا اخرج وحدي مرة ثانية . ومنذ ذلك الحين لم اجتز البوابة الامامية قط الا في الارساليات التي رتبها جيش قواندونغ .

وقد صدقت في البداية التوضيح الذي قدم لي بخصوص وجوب عدم خروجي من تلقاء نفسي ، ولكن بعد بضعة ايام من القيام بـ " اعمال الدولة " في مكتبي بدأت تنتابني الشكوك . وعلى الرغم من انني بدوت مشغولا جدا باستقبال زوار كثيرين ، معظمهم من الوزراء والمستشارين ذوي المراتب

العالية ، كانوا يعبرون عن ولائهم ويقدمون الهدايا الى ، الا انهم لم يناقشوا معى اى عمل رسمى قط . واذا ما سألتهم عن امور رسمية كان جوابهم اما " نائب الوزير يهتم بذلك " ، واما " يجب ان اسأل نائب الوزير عن ذلك " : ونواب الوزراء كانوا يابانيين ، وهم لم يحضروا مطلقا لرؤيتى .

وكان هو سى يوان اول من فقد صبره . فقد وضح لتشنغ شياو شيوى الذى اصبح الآن رئيس وزراء النظام العميل بأن الوزراء يجب ان تكون لهم السيطرة على وزاراتهم ، وان القرارات الهامة يجب ان يتخذها اولا الرئيس التنفيذى ومن ثم ينفذها الوزراء ، وانه لمن الخطأ تماما ان يقرر نواب الوزراء كل شيء . فكان جواب تشنغ " اننا نطبق حكما وزاريا مسؤولا ، وشؤون الدولة يجب ان تقرر اولا فى اجتماعات مجلس الدولة . ان مجلس الوزراء مسؤول امام الرئيس التنفيذى ، وكل اسبوع يعكس رئيس الوزراء الاقتراحات التى تبناها فى اجتماعاته الى الرئيس التنفيذى لاتخاذ القرار : وهذه هى الطريقة المتبعة فى اليابان . " ووافق تشنغ على ضرورة ان يضبط كل وزير وزارته ، وقال انه سيعرض هذه النقطة على قائد جيش قواندونغ . وقد واجه فى الواقع نفس المشكلة فى علاقته بالرئيس اليابانى لمكتب الشؤون العامة لمجلس الدولة .

لا ادرى كيف كانت محادثة تشنغ شياو شيوى مع قائد جيش قواندونغ فى هذا الموضوع ، ولكننى علمت ما قصد حقا بعبارة " الحكم الوزارى المسؤول " وبالعلاقة بين الوزراء ونواب الوزراء من الوصف الذى قدمه لى هو سى يوان عن احد اجتماعات مجلس الدولة .

كان موضع البحث هو رواتب الموظفين . وكالمعتاد اعد الاقتراح من قبل مكتب الشؤون العامة لمجلس الدولة ، وسلمت نسخة مطبوعة منه لكل من الوزراء . وكان قد سبق للوزراء ان وافقوا فورا على لوائح بشأن الاستيلاء على ممتلكات حكومة الشمال الشرقى السابقة وتزويد الجيش اليابانى بالحبوب

والعاف ومصادرة مصارف الشمال الشرقى الرئيسية الاربعة . ولكنهم هذه المرة لا يمكن ان يكونوا غير مبالين لأن الموضوع يمس مصالحهم مباشرة فدققوا فيه وعندما وجدوا ان درجات رواتب الموظفين اليابانيين اعلى من درجات الموظفين " المانشويين " بحوالى ٤٠ فى المئة ، اعربوا عن استيائهم بوضوح فى النقاش الغاضب الذى يلى ذلك . واحتج شى تشيا ، وزير المالية ، ان الرواتب الاعلى لليابانيين متناقضة مع المساواة العرقية والصداقة اللتين يفترض ان الدولة قد اسست عليهما . ولما رأى رئيس مكتب الشؤون العامة لمجلس الدولة ، كوماى توكوتسو الاتجاه المزعج الذى يتجه اليه الاجتماع ، اوقف النقاش وارسل فى طلب الذى وضع مسودة الاقتراح ، وهو الرئيس اليابانى لدائرة شؤون الموظفين ، ليجيب عن اسئلتهم . فوضح المذكور بهدوء ان على المرء ان يكشف اولا ما اذا كان الناس متساوين فى المقدرة قبل ان يفكر فى المساواة بينهم . ونظرا الى ان اليابانيين مقتدرون جدا فمن البديهى ان تدفع لهم رواتب اكثر ؛ كما انهم قد اعتادوا على مستوى معيشى اعلى ، فاعتادوا اكل الرز لا الذرة الرفيعة مثل " المانشويين " . اما بالنسبة للصداقة ، فهى من باب اولى توجب اعطاء اليابانيين رواتب اعلى . ولكن هذا الخطاب لم ينجح فى ارضاء الوزراء ، فاضطر كوماى الى تأجيل الاجتماع لليوم التالى .

وفى اليوم التالى افتتح كوماى الاجتماع بقوله انه قد بحث المسألة مع نواب الوزراء ، وان جيش قواندونغ قد وافق على رفع رواتب الوزراء الى نفس مستوى رواتب نواب الوزراء . واضاف يقول : " ولكن نظرا الى ان الموظفين اليابانيين سيقيمون بعيدا عن موطنهم وسيقومون ببناء فردوس على الطريقة الملكية للمانشويين ، فعلينا ان نكون ممتنين لهم . ولذلك فاننا سنعطيهم علاوات خاصة . وهذا القرار قرار نهائى لا ضرورة للمزيد من المناقشة . " وشعر معظم الوزراء انهم حصلوا على نقودهم وان خلق المزيد من المتاعب لن

يجديهم نفعا ، ولكن شى تشيا الذى رأى انه على علاقة جيدة بقائد جيش قواندونغ لم يرض بأن يصده كوماى فعلق قائلا :

— اننى لن اناقش فى مسألة بعض النقود ، ولكننى اود ان اسأل اين سيقيم اليابانيون هذا الفردوس ان لم يكن فى منشوريا . وهل يمكنهم ان يقيموه من دون المانشويين ؟

فاستاء كوماى وقرع الطاولة ، وجأر بصوت عال :

— هل تعرف تاريخ منشوريا ؟ ألا تدرك ان اليابانيين قد دفعوا مقابلها دماءهم وعرقهم عندما اخذوها من الروس ؟

فرد عليه شى تشيا وقد شحب وجهه :

— هل تسمح لى بالتحدث ؟ ان الجنرال هونجو لم يصرخ فى وجهى قط .

فرد كوماى مزمجرا :

— اننى اقول لك ان هذا قد قرره الجيش .

ولم يبق هناك ما يمكن ان يقوله شى تشيا ، وعم الصمت القاعة .

ومنذ ذلك الحين و " الحكم الوزارى المسؤول " و " اجتماعات مجلس الدولة " لم تخدع احدا . ولم يكن رئيس الوزراء الحقيقى هو تشنغ شياو شيوى بل كوماى ، رئيس مكتب الشؤون العامة لمجلس الدولة . وحتى اليابانيين لم يخفوا هذا ، وقد اشارت مجلة « الاصلاح » اليابانية الى كوماى صراحة على انه " رئيس وزراء دولة منشوريا " . وهو بدوره اعتبر قائد جيش قواندونغ رئيسه الاعلى ، وليس الرئيس التنفيذى الاسمى . وكانت الاقتراحات التى نوقشت فى اجتماعات مجلس الدولة يتم تقريرها فى النقاشات الاسبوعية التى يعقدها نواب الوزراء الذين شكلوا مجلس الوزراء الحقيقى فى " دولة منشوريا " وهو المسؤول امام " الحاكم الاعلى " قائد جيش قواندونغ . وكان القسم الرابع من جيش قواندونغ يشترك دائما فى مثل هذه المناقشات ،

وكثير من الاقتراحات كانت تصاغ وفقا لمطالب مندوبيه .

وهذا كله سرعان ما اصبح واضحا لكل شخص وكان يجب ان يبدد اوهامي ، ولكنها لم تتبدد . وكان الثرثار هو سي يوان يذكرني دائما بوضعي الفريد ، ولقد تذكرت رأيا كنت اعتقدته خلال اقامتي في تيانجين : " من دوني انا الامبراطور الحقيقي ، سيصبح اليابانيون في وضع صعب جدا . " ان الطريقة القائمة على الاحترام الظاهري التي عاملني بها اليابانيون جعلتني اعتقد خطأ انني مختلف تمام الاختلاف عن شي تشيا ، وان اليابانيين مضطرون الى معاملتي باحترام . وهذا ما ظننته في ايام تأسيس " جمعية الوئام " .

ذات يوم ، بعد شهر تقريبا من تسلمي المنصب ، اخبرني تشنغ شياو شيوي في مجرى احد تقاريره المنتظمة بأن جيش قواندونغ يريد ان يشكل حزبا سياسيا ويسميه " حزب الوئام " . وكان هدف الحزب " تنظيم الجماهير للتعاون في بناء الوطن " وايجاد روح " احترام الشعائر الدينية وتقبل الأوامر السماوية بابتهاج " . وكانت كلمة " حزب " تفزعني دائما ، لذلك كان ذعري لدى سماعي هذه الاخبار اكثر منه عندما بلغت بقرع كوماي للطاولة . فقطعت حديث تشنغ ولوحت بيدي مشيرا الى عدم الموافقة . وقلت :

ــ لماذا يريدون حزبا ؟ ما الفائدة التي يمكن ان يقدمها الحزب ؟ ألم يكن سقوط الاسرة من جراء عمل الحزب ؟ هل نسيت ان كونفوشيوس قال بأن الرجل الكريم لا حاجة به الى التحزبات ؟

فقال تشنغ شياو شيوي وقد امتقع وجهه :

ــ ان جلالتكم على صواب تام ، ولكن الجيش قد اتخذ قراره :

وكان يأمل ان يسكتني بهذا الكلام ، ولكنه دهش عندما رآني اعتبر هذا الامر مسألة حياة او موت وارفض الموافقة عليه . لقد آلمني سماع ان كل شيء قد قرره الجيش . وقلت في غضب :

ــ اما ان تذهب وتبلغ اليابانيين ، واما ان تطلب منهم القدوم الى :

وبعد يومين جاء اتاجاكى وضابطان آخران من القسم الرابع لجيش قواندونغ ليقدموا لى توضيحات ، ولكنهم اخفقوا فى اقناعى ، لذلك ظلت المسألة دون حل .

وفى يوليو ، بعد ثلاثة اشهر ، ظننت اننى انتصرت . فقد قرر جيش قواندونغ ان يشكل " جمعية وئام " لا " حزب وئام " ومهمتها ان تدعم الحكومة . وكانت الجمعية والمنظمات الملحقة بها تشمل كافة سكان " دولة منشوريا " فوق سن العاشرة .

ان السبب الحقيقى فى تغيير جيش قواندونغ اسم " حزب " الى " جمعية " لم يكن له اية علاقة بى . فقد رأى الجيش ان الجمعية اكثر فاعلية من الحزب السياسى بالنسبة للدعاية والتجسس واستعباد الناس . وانا بالطبع لم ادرك هذا ، وظننت انهم استجابوا لرغبتى . ونظرا الى اننى كنت مقتنعا بهذا الوهم فلم يكن من المدهش ان لا يبقى لى موقع بعد توقيع المعاهدة السرية بين " دولة منشوريا " واليابان .

توقيع المعاهدة السرية وما بعدها

منذ زمن يرجع الى اقامتنا فى ليويشون اتفق تشنغ شياو شيوى مع هونجو على الشروط التى سأتسلم بها منصب الرئيس التنفيذى حيث سيكون هو رئيسا للوزراء . وقد اخبرنى تشنغ بذلك عشية استقالة هونجو .

وفى ١٨ اغسطس ١٩٣٢ جاء تشنغ شياو شيوى الى مكتبى يحمل رزمة من الوثائق ، وقال :

— هذه اتفاقية عقدها تابعكم مع الجنرال هونجو ، فهل لجلالتكم ان تتفضلوا بالموافقة عليها ؟

فنظرت الى الاتفاقية ، وقلت غاضبا :

ــ من طلب منك التوقيع عليها ؟

فأجاب ببرود :

ــ هذه هى جميع الشروط التى اقرها اتاجاكى فى ليويشون . وقد اخبر اتاجاكى جلالتكم بها منذ وقت طويل .

ــ هراء ! لم يخبرنى مطلقا ، وحتى اذا كان قد اخبرنى لا يحق لك ان توقع قبل ان تستشيرنى .

ــ لقد فعلت ذلك وفقا لتعليمات اتاجاكى . فقد قال انه يخشى ان تحدث متاعب اذا رآها هو سى يوان والآخرون مقدما وهم لا يفهمون الوضع .

ــ من المسؤول هنا ؟ انت ام انا ؟

ــ ما كان لتابعكم ان يتجرأ على ذلك . ان هذه الاتفاقية اجراء مؤقت . فكيف يمكن لجلالتكم ان ترفضوا توقيعها اذا كنتم تريدون مساعدة اليابانيين ؟ كل ما تقدمه الاتفاقية لليابانيين من سلطات هو ما يتمتعون به فى الواقع ، ويمكننا ان نوقع فى المستقبل معاهدة اخرى تنص على ان تستعيدوا هذه الحقوق بعد بضع سنوات .

وكان محقا فى قوله ، فان اليابانيين كانوا قد حصلوا على الحقوق التى نصت عليها الاتفاقية . وكان جوهر الاتفاقية هو ان اليابان ستكمل سيطرتها على " دفاع وامن " " دولة منشوريا " ؛ وانها ستدير خطوط السكك والموانئ والطرق المائية والطرق الجوية فى " دولة منشوريا " وتنفذ المزيد من الانشاءات ؛ وان " دولة منشوريا " ستزود القوات اليابانية بالامدادات والمعدات اللازمة ؛ وان اليابانيين سيكون لهم الحق فى فتح المناجم واستغلال المصادر الطبيعية ؛ وانه سيسمح لهم بتسلم مناصب فى " دولة منشوريا " ؛ وان اليابان سيكون لها الحق فى نقل المهاجرين الى " دولة منشوريا " ؛ واشياء اخرى كثيرة . وانتهت الاتفاقية الى النص على انها ستكون اساسا لمعاهدة رسمية بين البلدين . وكان تشنغ شياو شيوى مصيبا فى قوله اننا لا بد ان ندفع ثمن " دعم "

اليابان لنا . ومع ذلك لم يسعني الا ان اشعر بالاستياء . لقد احسست ان تشنغ شياو شيوى قد اشتط كثيرا فى مبادرته ببيع " بلادى " لليابانيين . وغضبت كذلك من اليابانيين على خداعهم اياى . فمع انهم رفضوا اعطائى عرشا امبراطوريا ، الا انهم كانوا ما يزالون يريدون اخذ المزيد منى .

وعلى الرغم من اننى غضبت ، الا انه لم يكن امامى ما استطيع فعله ، لأن المسألة كانت قد انتهت . فوقعت الاتفاقية السرية ، واخذها تشنغ معه . ودخل هو سى يوان ، واستشاط غضبا عندما اخبرته بما جرى :

— ان تشنغ شياو شيوى رجل مخزى . لقد قال تشن باو تشن عنه منذ وقت طويل انه يعطى من مال غيره ، وها هو الآن قد تجرأ على ان يفعل ذلك من تلقاء نفسه .

فقلت مكتئبا :

— فات الأوان لعمل شيء بخصوص ذلك .

— يمكن ان لا يكون الامر كذلك . يجب ان ننتظر الاخبار التى نحصل عليها من طوكيو .

وقبل ذلك ببعض الوقت كنا قد علمنا ان هونجو ، قائد جيش قواندونغ سوف يحل محله قائد آخر ، وان اليابان سوف تعترف بـ " دولة منشوريا " . وعلق هو سى يوان اهمية كبيرة على هذه الاخبار ، لأنه رأى ان تغيير القيادة قد يشير الى تغير طفيف فى موقف طوكيو ، ورأى ان علينا ان نرسل شخصا الى اليابان لاستغلال هذه الفرصة . وكان من المستحيل فى رأيه تجنب اعطاء اليابان بعض الامتيازات مثل السيطرة على تعدين البلاد وسككها ومواردها الطبيعية ودفاعها ، ولكن كان ضروريا جدا ان اظل محتفظا بتعيين الموظفين فى يدى . وبناء على توصية هو سى يوان ارسلت مبعوثين الى طوكيو لرؤية بعض العسكريين الكبار ، فقدما مطالبى الى رئيس اركان الجيش اليابانى والى كاشى ، القائد اليابانى السابق فى تيانجين ، والى موتو نوبويوشى ، قائد

جيش ڤواندونغ لاحقا . وبناء على نصيحة هو سى يوان غاليت فى مطالبى لأترك مجالا للتنازل دون التخلى عن الموضوع الاساسى ـ التحكم بالتعيينات . وكانت المطالب الاضافية هى ان يكون للوزراء السيطرة الحقيقية على وزاراتهم ، وان يلغى نظام ادارة اليابانيين لمكاتب الشؤون العامة ، وان تدرب قوات جديدة ، وان يقرر المجلس التشريعى شكل الدولة ، وان يكون مسموحا لى باعادة تنظيم مجلس الوزراء .

وبعد يومين اخبرنى هو سى يوان وهو ثائر بأن رسالة قد جاءت من مبعوثى الاثنين فى طوكيو يقولان فيها ان بضعة من رجال الدولة اليابانيين الكبار والعسكريين ممن تعاطفوا معى ولم يعجبهم موقف هونجو منى راغبون فى تأييد جميع مطالبى . ومضى يقول ان هذا يبين ان الامور ستتغير مع وصول قائد جيش ڤواندونغ الجديد ، واننى سأصبح قادرا على اختيار موظفى وحكم بلادى . ولكن سأحتاج حتى احكمها بنجاح الى رئيس وزراء مطيع . فوافقت ، وقررت ان اطرد تشنغ شياو شيوى واستبدل به تسانغ شى يى الذى سيشعر نحوى بالامتنان ويطيع توجيهاتى . وارسلت فى طلب تسانغ شى يى ، ولكن جاء بدلا منه تشنغ تشوى ليرانى ويحتج على التقرير الذى يشير الى رغبتى فى اعادة تنظيم مجلس الوزراء . وبعد ذلك بقليل رفض تسانغ شى يى ان يصبح رئيسا للوزراء . فقد ادرك انه سيجلب المتاعب لنفسه اذا هو وافق دون اذن من جيش ڤواندونغ .

وعندما سمع تشنغ شياو شيوى بأن تسانغ شى يى قد رفض ، قرر ان يسلك خطة طلب اذن بالاستراحة بحجة انه موعوك . وكنت قد تقويت بالأخبار المشجعة القادمة من طوكيو ، فانتهزت الفرصة للتخلص منه ، وقلت دون ان ابذل ادنى جهد لاقناعه فى البقاء :

ـ لقد حان وقت تقاعدك . لن احتفظ بك . ارجو ان ترشح خلفا لك .
فخبا البريق من رأسه الاصلع وقال :

— خادمكم اراد فقط اذن مرض لبضعة ايام :
— حسن جدا .
وحالما غادر تشنغ شياو شيوى ارسلت فى طلب تسانغ شى يى وكلفته بأن يصبح رئيس وزراء بالنيابة ، ظانا اننى استطيع ان اجد طريقة للتخلص من تشنغ شياو شيوى فيما بعد . ولكن قبل ان يتعهد تسانغ شى يى بذلك عاد تشنغ الى منصبه .
وقررت ان اقدم مطالبى شخصيا عندما يصل قائد جيش قواندونغ الجديد . وايدنى هو سى يوان فى ذلك ، وذكرنى بالاصرار على ازاحة تشنغ شياو شيوى :
وهذا كله حدث فى بداية سبتمبر : وفى منتصف الشهر وصل الى تشانغتشون موتو نوبويوشى ، القائد الجديد لجيش قواندونغ و" السفير " اليابانى الاول لدى " دولة منشوريا " . وفى اليوم الخامس عشر وقع موتو وتشنغ شياو شيوى « بروتوكول اليابان — دولة منشوريا » . وكانت هذه هى المعاهدة العلنية المبنية على اساس الاتفاقية السرية . وبعد ان انتهت المراسم وشربنا الشامبانيا كنت فى غاية التعجل لاجراء حديث خاص مع موتو . وكنت واثقا من نتيجة هذا الحديث ، حيث ان مبعوثى فى طوكيو قد بلغانى بتعاطفه مع مطالبى ورغبته فى النظر فى اعادة لقبى الامبراطورى . كان موتو قد قاد القوات اليابانية التى احتلت سيبيريا خلال الحرب العالمية الاولى . وقد جاء الى الشمال الشرقى هذه المرة بمناصبه الثلاثة — قائد جيش قواندونغ ، وحاكم " اراضى قواندونغ المؤجرة " و" سفير لدى دولة منشوريا " . وكان الحاكم الفعلى للشمال الشرقى ، الامبراطور الحقيقى لـ " دولة منشوريا " . وقد لقبته الصحافة اليابانية " الاله الحارس لمنشوريا " ، وكان هذا العجوز الابيض الشعر ذو الخمسة والستين ربيعا قويا فى نظرى كاله . وعندما انحنى لى فى المرة الاولى انحناءة تطفح بالأدب الجم ، تملكنى شعور بأننى مدعوم من السماء . وبعد

ان سمع كلامى اجاب فى كياسة : " سأبحث اقتراحات جلالتكم بمنتهى الدقة . "

واخذ معه قائمة الطلبات التى كتبها لى هو سى يوان ، ولكن مرت الايام دون ان اسمع نتائج هذا البحث المتروى . ولما كان من المفروض ان اقابل قائد جيش ڤواندونغ ثلاث مرات فى الشهر ، فقد قابلته ثانية بعد عشرة ايام . وسألته عن النتائج التى توصل اليها ، فأجاب بأنه ما زال يدرس المطالب .

وفى كل مرة رأيته فيها كان يبدو لطيفا على نحو ناجح ، فينحنى بشدة ويبتسم قائلا : " سعادتكم " ، ويتحدث عن كل واحد من اسلافى بعظيم الاحترام ، ولكنه لم يشر مرة واحدة الى مطالبى . وكنت اذا ما حاولت توجيه المحادثة الى تلك الوجهة يقبر الموضوع فورا . وبعد ان زاغ على هذا النحو مرتين لم تعد عندى اعصاب تمكننى من ان اسأله حول المطالب مرة اخرى . ومنذ ذلك الحين والى موته فى يوليو ١٩٣٣ لم نكن نتحدث كلما التقينا الا حول البوذية والكونفوشية و" الصداقة " . وقد بدت لى سلطته تزداد يوما بعد يوم بينما لم يكن هناك اى نمو فى سلطتى .

« تقرير لجنة التحقيق التابعة لعصبة الامم »

فى مايو ١٩٣٢ وصلت لجنة التحقيق لعصبة الامم الى الشمال الشرقى : فعلق تشنغ شياو شيوى وتشنغ تشوى آمالا كبيرة على هذه اللجنة ، وعندما نشر تقريرها فى اكتوبر من تلك السنة ، تأكدا من ان حلمهما فى الادارة الدولية سيتحقق فى المستقبل المنظور . ولكننى لم اشاركهما هذا التفاؤل ، بل علمت الكثير عن الشؤون الدولية من مناقشاتهما . وخلافا لهما اصبح اعتقادى بقوة اليابان اقوى منه باللجنة .

كان تشنغ وابنه كثيرا ما يتكلمان عن موقف القوى الغربية من " مسألة

منشوريا " ، وما قالاه كان عادة كما يلى : " لا تظهروا ادنى اهتمام للاجتماعات الصاخبة (اجتماعات عصبة الامم) فى جنيف وباريس . فلا احد من هذه البلدان مستعد فى الواقع لصدام مباشر مع اليابان ؛ وامريكا ، الدولة القوية الوحيدة منذ الحرب العالمية ، لا تريد ان تتخذ موقفا مشددا ازاء اليابان كذلك . " وكثيرا ما كان تشنغ تشوى البارع فى الانكليزية واليابانية يخبرنى بما تقوله الصحافة الاجنبية . فقال ان عددا لا بأس به من الصحف الامريكية موالية لليابانيين ، وكشف لى ذات مرة عن اتفاقية سرية بين الولايات المتحدة واليابان ورد فى احد بنودها ان امريكا تتفهم نشاطات اليابان فى الشمال الشرقى . واخبرنى ايضا بمزيد من التفصيل انه قبل احداث ١٨ سبتمبر عام ١٩٣١ نصحت شخصية امريكية هامة تشيانغ كاى شيك ببيع منشوريا لليابان حتى تجلب اليابان الى نزاع مباشر مع الاتحاد السوفياتى .

قال تشنغ شياو شيوى : " لقد جاءت لجنة التحقيق بدعوة من الكومينتانغ . ان الكومينتانغ يأمل بأن تساعده اللجنة على تدبر شأن اليابان ، ولكنه سيصاب بخيبة امل حيث ان اللجنة مهتمة بالباب المفتوح ، وبتساوى الفرص ، وبمقاومة روسيا السوفياتية ، وهذا ما كانوا قد ناقشوه مع اوتشيدا (٣) فى طوكيو . ولا حاجة الى القلق ؛ فعندما يحين الوقت ستحتاجون فقط الى قول بضع كلمات لهم . ان الكومينتانغ ، فى رأى تابعكم ، يعرف ان اللجنة لن تحقق شيئا ، وربما يدرك جيدا فوائد الادارة الدولية لمنشوريا . " وفيما بعد اظهرت الاحداث ان تشنغ وابنه لم يكونا مخطئين كثيرا فيما قالاه .

وبعد نشوب القتال فى الشمال الشرقى فى ١٨ سبتمبر ١٩٣١ ابلغ تشيانغ كاى شيك تشانغ شيوه ليانغ مرارا بأن يأمر جنده فى الشمال الشرقى " بألا يقاوموا تحت اى ظرف من الظروف لكى يتجنبوا توسيع القتال " . وبعد اربعة ايام ، فى ٢٢ سبتمبر ، اعلن تشيانغ كاى شيك فى اجتماع حاشد للكومينتانغ فى نانجينغ (نانكين) ان الصين يجب " ان تقابل القوة بالحق ،

وتقابل الوحشية بالسلم ، وتتحمل الاذلال الذى لحق بها ، وتكبح غضبها ، وتقبل موقتا ما لا يقبل الى ان تعطى العدالة الدولية حكمها " . ولكنه فى الوقت نفسه كان يواصل الحرب الاهلية داخل الوطن بمنتهى الوحشية ضاربا بـ " السلم " و" الحق " عرض الحائط .

وفى ٣٠ سبتمبر طلب الكومينتانغ من عصبة الامم ان ترسل لجنة تحقيق حيادية الى الشمال الشرقى . وبعد نقاشات مطولة وافقت اليابان على ذلك فى ١٠ ديسمبر ، وصدر قرار بالدعوة الى انشاء لجنة تحقيق . وقد شكلت اللجنة من مواطنى خمسة بلدان وهم اللورد ليتون من بريطانيا (رئيسا) واللواء فرانك روس مكوى من الولايات المتحدة الامريكية والفريق هنرى كلوديل من فرنسا والكونت آلدروفانى من ايطاليا والدكتور هانرتش سناى من المانيا . وتحركت هذه اللجنة فى ٣ فبراير ١٩٣٢ ، وبعد زيارة انحاء من الصين وطوكيو وصلت الى الشمال الشرقى فى مايو . وكان اليابانيون فى ذلك الحين يشنون اوسع حملاتهم العدوانية بينما كانت حكومة نانجينغ تقدم المزيد من التنازلات .

وفى ٣ مايو اجتمعت بلجنة التحقيق مدة استغرقت حوالى ربع ساعة سألونى خلالها سؤالين : كيف جئت الى الشمال الشرقى ؟ وكيف اسست " دولة منشوريا " ؟

وقبل ان اجيبهم اومضت فى ذهنى فكرة . لقد تذكرت ان جونستون اخبرنى فى الماضى ان بوابات لندن مفتوحة لى ، وتساءلت ان كانوا يوافقون على اخذى الى لندن اذا انا اخبرتهم بأننى لم اصبح " الرئيس التنفيذى لدولة منشوريا " الا نتيجة لخداع دويهارا وتهديدات اتاجاكى . ولكننى تذكرت ان اتاجاكى ورئيس اركان جيش قواندونغ ، هاشيموتو تورانوسيوك ، كانا جالسين بجانبى . وبنظرة الى وجه اتاجاكى البغيض شرعت اقول فى اذعان ما قيل لى مسبقا : " لقد جئت الى منشوريا بعد ان اختارتنى الجماهير المانشوية . ان بلادى مستقلة تماما . . . "

فهز اعضاء لجنة التحقيق جميعا رؤوسهم وابتسموا ، ولم يسألوا اى سؤال آخر . ومن ثم التقطنا صورة جماعية وتبادلنا معا انخاب الشامبانيا . وبعد ان غادرت اللجنة تهلل وجه اتاجاكى الشاحب الفاتر بالابتسامات وهو يشيد بأدائى : " ان اسلوب سعادتكم رائع جدا ؛ لقد تكلمتم على نحو ممتع . " وهنأنى كذلك تشنغ شياو شيوى .

عرضت على فيما بعد ترجمة لمقالة نشرها كوماى فى المجلة اليابانية « تشوكورون » فى اكتوبر ، وبعد تلك المقالة مباشرة وقع « تقرير لجنة التحقيق » بين يدى . وكلتا الوثيقتين تؤكد رأى تشنغ وابنه بأن المسألتين اللتين جذبتا انتباه اللجنة حقا هى "الفرص المتساوية" و"الباب المفتوح" .

كان عنوان مقالة كوماى « دولة منشوريا تتحدث الى العالم » ، وقد تضمنت وصفا لمحادثاته مع اللورد ليتون والآخرين . وقال كوماى ان السؤال الاول الذى سأله ليتون هو : " ألم يكن تأسيس دولة منشوريا سابقا لأوانه بعض الشيء ؟ " فأجاب فى شيء من الهذيان انه كان متأخرا جدا لا مبكرا . واستمرت المحادثة كما يلى :

سألنى الجنرال مكوى : " هل اعلان دولة منشوريا لمبدأ الباب المفتوح مطبق ؟ " فأجبت فى الحال ان الباب المفتوح والفرص المتساوية هما من المبادئ الاساسية فى البلاد . واستطردت : " من بين جميع البلدان التى كان لها تعامل فى السابق مع الصين ، كانت امريكا الروح المرشدة فى مبادرتها الى اتباع هذه السياسة . ولكن بينما هذا المبدأ يقبل الآن فى كل مكان من العالم ، اغلقت الصين ابوابها . أيمكن ان توجد فى الصين الآن ابواب مفتوحة ؟ لقد فتحنا الآن ابواب دولة منشوريا بمفتاح قوى جدا ، واننا لنستحق الشكر على ذلك لا احتجاجاتكم ايها السادة . . . ويجب ان اضيف ايضا انه ليس هناك باب مفتوح عندما يصبح الامر متعلقا بالدفاع الوطنى ، ان هذا لا مثيل له فى اى بلد آخر فى العالم . "

ثم سألنى ليتون : " هل تضع دولة منشوريا مبدأ الفرص المتساوية موضع التطبيق ؟ "

فأجبت دون تردد : " ان بلادك هى التى سبقت الى تطبيق الفرص المتساوية فى الصين . ففى اواخر اسرة تشينغ السابقة ، حيث جلب الانحلال السياسى فى الصين البلاد الى حافة التجزئة ، حذر روبرت هارت بلاط تشينغ من انه اذا ما استمرت الصين فى الطريق الذى تسلكه ، فانها ستتوقف عن اداء اى دور فى الشؤون الدولية . وسيكون من الافضل لها ان تعتمد على الغرب ، كما ان الادارة الجمركية ضرورية تماما . وعندها عينت حكومة تشينغ هارت هذا مفتشا عاما لجمارك الملاحة البحرية الامبراطورية . واسست بذلك ادارة جمارك الملاحة البحرية الامبراطورية . ونظرا الى ان هذه الادارة استخدمت كثيرا من الانكليز والفرنسيين واليابانيين ، فقد عرفت بأنها من اكثر المؤسسات الحكومية المعتمد عليها فى الصين ، وبسببها قدمت الدول قروضا للصين كانت بمثابة مساعدة مالية كبيرة . واعتبر البريطانيون الجمارك تساويا فى الفرص ، ولكن اذا اردنا نحن اليابانيين ان نعمل للجمارك فعلينا ان نجتاز امتحانا قاسيا فى اللغة الانكليزية يتعذر اجتيازه تقريبا .

" . . . ان دولة منشوريا دولة اسست من خلال تعاون المانشويين واليابانيين ، ولهذا السبب تنشر جميع وثائق الدولة باللغتين المانشوية واليابانية . واننا سنرحب ترحيبا حارا بأى شخص من اية جنسية يجيد اللغتين المانشوية واليابانية ويقبل بالشروط التى تقدمها دولة منشوريا . هذا ما نعنيه بتساوى الفرص . "

وسألتهم ان كانت لديهم اية اسئلة اخرى ، فأجابوا جميعا : " لا حاجة لطرح اى سؤال آخر حيث اننا فهمنا تماما وضع دولة منشوريا . واننا راضون تماما . "

وعندما كنت فى وداع اعضاء لجنة تحقيق عصبة الامم فى محطة شينجينغ (تشانغتشون) صافحنى ليتون بحرارة وقال فى خفوت : " اتمنى لدولة منشوريا الجديدة تطورا سليما . "

وسرت هذه المحادثات تشنغ شياو شيوى وابنه سرورا كبيرا ، حتى ان تشنغ تشوى قدر ان عصبة الامم ربما تتخذ قرارا للعمل على ايجاد ادارة دولية لمنشوريا . بل كانا متأكدين اكثر فأكثر من ان هذا سيحدث عندما نشر تقرير لجنة التحقيق . وقد نصت هذه الوثيقة صراحة على ان الصين يجب ان تقبل باشراف دولى . ووصفت رغبة اليابان فى انشاء " حكومة مستقرة " بأنها رغبة ليست " غير معقولة " ، ولكنها اضافت تقول : " انه لفى مجرد جو من الثقة الخارجية والسلم الداخلى . . . سيتحصل وشيكا رأس المال اللازم للتطور السريع فى اقتصاد منشوريا . " وبدا كأن تشنغ وابنه كانا مصيبين فى توقعهما ان تؤيد اللجنة الادارة الدولية مع تأمين حصص لجميع الدول.

تحققت كذلك نبوءة تشنغ شياو شيوى وابنه بمعاداة السوفيات . فقد عبرت اللجنة عن تعاطفها مع اليابان فى اعتبار منشوريا " شريان حياتها " . واعترفت بـ " مصلحة اليابان فى منع منشوريا من ان تكون قاعدة للعمليات الموجهة ضد اراضيها وحتى برغبتها فى ان تكون قادرة على اتخاذ جميع الاجراءات المناسبة اذا ما اخترقت دولة اجنبية فى ظروف معينة حدود منشوريا . " ولكن اللجنة مضت تقول : " انه لمن الممكن ان يسأل ان كان الاحتلال العسكرى لمنشوريا لمدة غير محددة مع ما يستلزم من عبء مادى ثقيل ، هو حقا الطريقة الاكثر فاعلية فى الضمان من هذا الخطر الخارجى ؛ وان كان . . . الجنود اليابانيون لن يصابوا بارتباك شديد اذا هم احيطوا بسكان حرونين او متمردين مدعومين من صين معادية . " ان اليابان " قد تجد من الممكن ، مع تعاطف وارتياح بقية بلدان العالم وعدم تكبدها اية خسارة ، ان تحقق امنا افضل من الذى تحققه بالوسيلة المكلفة التى تسلكها فى الوقت الحاضر " اذا هى اهتدت الى حل " مشابه للترتيبات التى توصلت اليها الدول العظمى الاخرى فى اجزاء متعددة من العالم . "

وعارضت اللجنة العودة الى الوضع السابق او المراهنة على الوضع الراهن

واقترحت بدلا من ذلك ان " نظاما مرضيا للمستقبل يمكن ان ينشأ عن النظام الحالى (اى نظام " دولة منشوريا ") دون اى تغير عنيف " ، ويمكن ان يعطى درجة كبيرة من الحكم الذاتى ويضم اجانب من جميع البلدان للعمل مستشارين . ونظرا الى ان مصالح اليابان فى الشمال الشرقى اكثر من مصالح اية دولة اخرى ، فستكون هناك حصة كبيرة لليابانيين ، ولكن ستكون هناك ايضا حصص محددة للمواطنين من ابناء البلدان الاخرى . ولوضع هذا الشكل الجديد للحكومة موضع التنفيذ اقترحت اللجنة الخطوة الاولى وهى انشاء مؤتمر استشارى يتكون من ممثلى الحكومتين الصينية واليابانية ومن " مراقبين حياديين " . وهذا المؤتمر سيعكس الامر الى مجلس عصبة الامم اذا هو اخفق فى ان يتوصل الى تسوية . وكانت اللجنة مؤيدة للرأى القائل ان طريقة " التعاون الدولى " مناسبة لبقية اجزاء الصين كما هى مناسبة لـ " منشوريا " . والسبب الذى قدموه لذلك هو السبب الذى قدمه تشنغ وابنه : ان الصين تملك فقط قوة عاملة ، واذا هى لم تستورد رأس المال والتكنولوجيا والمواهب فستكون عاجزة عن بناء نفسها .

بعد ايام قليلة من الاطلاع على تقرير اللجنة اخبرنى تشنغ شياو شيوى بنشوة عظيمة ان الامور " تبشر بالخير " . وقال ان هو شى قد نشر مقالة اعلن فيها ان التقرير عبارة عن " حكم عالمى " .

ولكن تشنغ وابنه اصيبا باكتئاب شديد من جراء ردة الفعل اليابانية . فمع ان اللجنة قد ركزت مرارا على انها تحترم حقوق اليابان ومصالحها فى الشمال الشرقى حتى انها وصفت " حادثة ١٨ سبتمبر " بأنها اجراء دفاعى من اليابان ، الا ان ناطقا باسم وزارة الخارجية اليابانية لم يتفق مع اللجنة الا فى نقطة واحدة : " اقتراحات لجنة التحقيق بخصوص منشوريا قد يمكن تطبيقها على العلاقات بين الصين والقوى الاخرى والاستفادة من ذلك كخطة الاشراف الدولى على سبيل المثال . " ولكن اليابان لم تكن مهتمة ابدا

بالخطط الخاصة بالادارة الدولية للشمال الشرقى . وكما ذكرت آنفا ان تحمس تشنغ شياو شيوى لـ " الباب المفتوح " و" الفرص المتساوية " هو السبب فى خسارته فيما بعد عطف اليابانيين ونبذهم له فى النهاية .

وقبل اعلان تقرير اللجنة تخيلت انه اذا ما وضع الشمال الشرقى تحت اشراف دولى كما امل تشنغ وابنه ، فسيكون هذا افضل بكثير بالنسبة لى من ان اكون مع اليابانيين وحدهم . ولكن ظل عندى امران مقلقان . الاول هو ان حكومة تشيانغ كاى شيك فى نانجينغ يمكن ان تشترك فى " الاشراف الدولى " ، وهذا سيجعلنى فى وضع صعب ؛ والثانى هو انه حتى اذا تركتنى حكومة نانجينغ وشأنى ، فان لجنة الاشراف الدولية لا تريدنى امبراطورا اذا لم تكن " الحكومة الذاتية الحكم " ملكية . ولكن الاكثر خطورة هو الانطباع العميق الذى شكلته عن وحشية اليابان التى لم يكبح جماحها اى اجراء دولى . وعندما تذكرت الفكرة التى اومضت فى ذهنى عندما قابلت اللجنة رأيت ان من حسن الحظ اننى لم اتصرف تصرفا احمق ، والا فان اجلى كان قد انقضى . واهم شىء الآن هو عدم ازعاج اليابانيين ، ذلك لأننى لن اكون قادرا على ارتقاء العرش من جديد دون مساعدتهم .

" امبراطور " للمرة الثالثة

وكان قد تم الاتفاق على انه اذا لم يقم جيش قواندونغ بتأسيس ملكية بعد ان تمضى على سنة رئيسا تنفيذيا ، فبوسعى ان استقيل . ولكننى لم افعل ذلك حيث كنت افتقر الى الشجاعة اللازمة ، وحتى اذا سمح لى جيش قواندونغ بذلك فليس امامى مكان اذهب اليه .

وبعد بضعة ايام من الذكرى السنوية لتسلمى المنصب دهشت لقيام

موتو قائد جيش قواندونغ بطرح هذه المسألة خلال احد اجتماعاتنا المنتظمة : وقال ان اليابان تبحث فى شكل " دولة منشوريا " ، وان هذه المشكلة ستحل عندما يحين الموعد الملائم .

وبعد ذلك بوقت قصير ، فى ٢٧ مارس ١٩٣٣ ، انسحبت اليابان من عصبة الامم لتزيد من حريتها فى التحرك . وفى الوقت نفسه انطلقت فى هجوماتها العسكرية على الصين ، مقتحمة جنوب السور العظيم ومطوقة بكين وتيانجين . وفى نهاية مايو قدمت حكومة نانجينغ المنهمكة فى الحرب الاهلية ضد الشيوعيين مزيدا من التنازلات لليابان فى توقيعها على " اتفاقية تانغقو " . وبموجب هذه الاتفاقية انسحب الجنود الصينيون من منطقة واسعة جنوب السور العظيم حيث اشتد تحكم اليابان بشمالى الصين . وكانت هذه الاحداث حافزا قويا لمؤيدى اعادة الملكية الذين نشطوا ثانية فى الشمال الشرقى وفى شمالى الصين . وفى يوليو استقال كوماى ، رئيس مكتب الشؤون العامة فى " مجلس دولة منشوريا " ، من منصبه ليذهب ويعمل سرا من اجل " استقلال " شمالى الصين . واخبر تشنغ شياو شيوى بأنه ذاهب للعمل على اعادة ملكى فى انحاء البلاد كلها . وهذه الاخبار كلها جعلتنى وزملائى مسرورين غاية السرور .

واصبحت احلامى بالامبراطور اكثر حيوية . وتتبعت الاخبار ببالغ الاهتمام معلقا آمالى على الجنود اليابانيين الذين كانوا يذبحون ابناء وطنى : وبعد احتلال اليابانيين لمقاطعة رخه (٤) عام ١٩٣٣ اقمت مأدبة لتهنئة موتو والضباط الآخرين الذين اشتركوا فى القتال ، ولأتمنى لهم دوام الانتصارات العظيمة . وعندما توقف الرتل اليابانى بعد احتلاله ميبون ، على بعد خمسين كيلومترا فقط عن بكين ، اصبت بخيبة امل شديدة . واخبرنى تشنغ شياو شيوى ان الاحتلال العسكرى اليابانى لشمالى الصين وحتى لجنوبيها ليس الا مسألة وقت ، والمسألة الملحة حاليا هى اقرار شكل " دولة منشوريا " وقال ان

هذا لا يقرره جيش قواندونغ بل طوكيو ؛ فقد سمع ان كثيرا من رجال الدولة اليابانيين الكبار مؤيدون لعودتى الى العرش . لذلك شعرت بضرورة ان يكون لى شخص فى طوكيو يعمل على كسب تأييدهم ، او ليزودنى على الاقل بآخر الاخبار :

وكان الرجل الذى اخترته لهذه المهمة هو حارسى كودوتيتسو سابورو ، اليابانى الذى رافقنى من تيانجين الى الشمال الشرقى . فقد اعطانى انطباعا عن عدم ارتياحه لموقف جيش قواندونغ ، وكان اليابانى الوحيد الذى يخاطبنى بعبارة " جلالتكم الامبراطورية " بعد ان اصبحت رئيسا تنفيذيا . وقد اظهر ذات مرة ولاءه لى بتذوقه كوب شاى شككت فى انه يحتوى سما ومنحته الاسم الصينى تشونغ (" مخلص ") وعاملته على انه واحد من ابناء اسرتى . وعندما عاد من اقامته القصيرة فى اليابان اخبرنى بأنه رأى مينامى جيرو وبعض الاشخاص القياديين فى جمعية التنين الاسود ، وانه سمع بأن السلطات العسكرية مؤيدة للملكية . وهذه الاخبار جعلتنى اعتقد بأن فرصتى قد اصبحت وشيكة .

وتأكدت تقارير كودو فى اكتوبر ١٩٣٣ . فقد ابلغنى هيشيكارى تاكاشى ، قائد جيش قواندونغ الجديد ، رسميا بأن الحكومة اليابانية على وشك الاعتراف بى " عاهلا لامبراطورية منشوريا " .

فطرت فرحا ، واول ما خطر لى ان احدد ملابس التنين الامبراطورية .

وقد جلبت هذه الملابس من بكين حيث كانت محفوظة عند احدى الزوجات العليات ، ولكننى لم استطع لبسها لأن جيش قواندونغ وضح لى ان اليابان اعترفت بى " عاهلا لامبراطورية منشوريا " وليس لأسرة تشينغ العظيمة . وتعين ان البس بدلا من ذلك " بزة القائد العام للقوات البرية والبحرية والجوية لامبراطورية منشوريا " . فقلت لتشنغ شياو شيوى :

ــ هذا لا يمكن ان يتم اطلاقا . اننى سليل آيشين ــ جيولوه ، لذلك سأستمر فى النظام الامبراطورى . واضافة الى ذلك ماذا سيقول ابناء عشيرة

آيشين ــ جيولوه اذا رأوني ارتقى العرش ببزة اجنبية الطراز ؟

فقال تشنغ شياو شيوى وهو ينظر الى ثياب التنين الموضوعة على الطاولة :

ــ ان جلالتكم على صواب تام ، ولكن ماذا سيقول جيش قواندونغ ؟

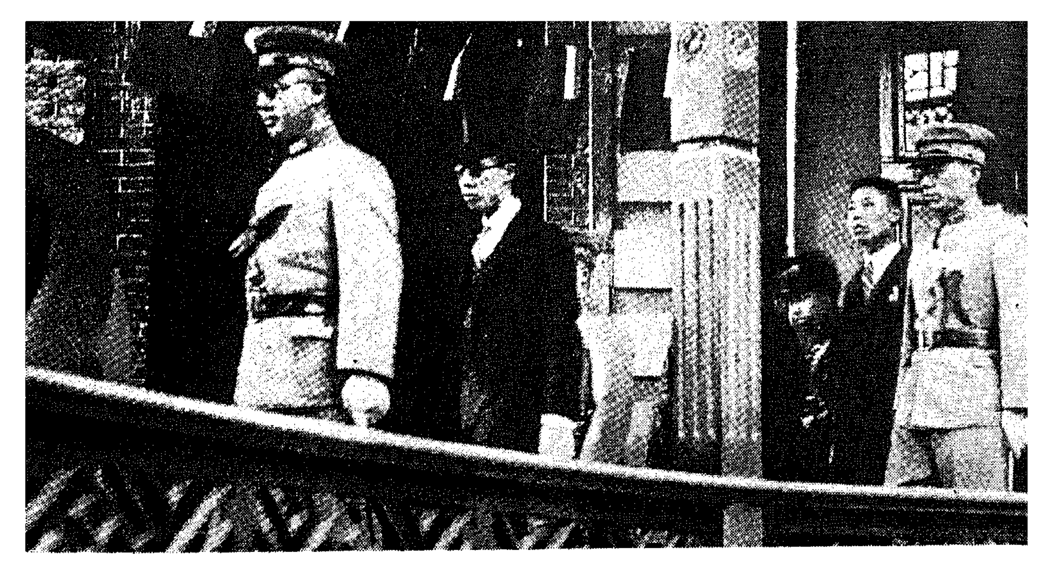
ــ اذهب وحدثهم نيابة عنى .

وبعد ان غادر حدقت الى ثياب التنين بعاطفة مشبوبة ، تلك الثياب التى حفظتها الزوجة العلية رونغ هوى اثنتين وعشرين سنة . لقد كانت ثياب تنين امبراطورية حقيقية لبسها قبلى الامبراطور قوانغ شيوى ، ثيابا ظللت احلم بها اثنين وعشرين عاما . سوف البسها لأرتقى العرش من جديد ، وهذا سيحدد اعادة ملكية اسرة تشينغ .

ورجع تشنغ شياو شيوى قبل ان يعاودنى الهدوء ، وقال ان جيش قواندونغ يصر على ان البس بزة عسكرية من اجل التتويج . فلم ارض بذلك ، وارسلت تشنغ للتفاوض معهم مرة ثانية . وفيما بعد وافقوا على السماح لى بلبس ثياب التنين لأداء مراسم " اعلان الارتقاء الى السماء " ، فرضيت بذلك .

وفى ١ مارس ١٩٣٤ اديت الشعائر القديمة لاعلان ارتقائى فوق " مذبح سماوى " ترابى نصب فى ضاحية تشانغتشون الشرقية ، وبعد هذا عدت الى مقرى حيث بدلت ثياب التنين الى بزة " القائد العام " لأؤدى مراسم التتويج . وقد اعطى " مكتب الرئيس التنفيذى " اسما جديدا هو " مكتب القصر " ، واصبح المكان الذى كنت اقيم فيه يدعى " قصر الامبراطور " . (عبارة " القصر الامبراطورى " لم يكن ممكنا استخدامها لأن ذلك كان اسم القصر للامبراطور اليابانى .) وباستثناء مبنى جديد آخر فان القصر كان بالضبط هو " مقر الرئيس التنفيذى " بعد ان اعيد تزيينه واعطى اسما جديدا . وفى احدى قاعاته اقيمت حفلة التتويج .

فرشت الارض بسجادة قرمزية . وعلق على جزء من الجدار الشمالى ستائر حرير وضع امامها كرسى عالى الظهر نقش عليه " الشعار الامبراطورى "



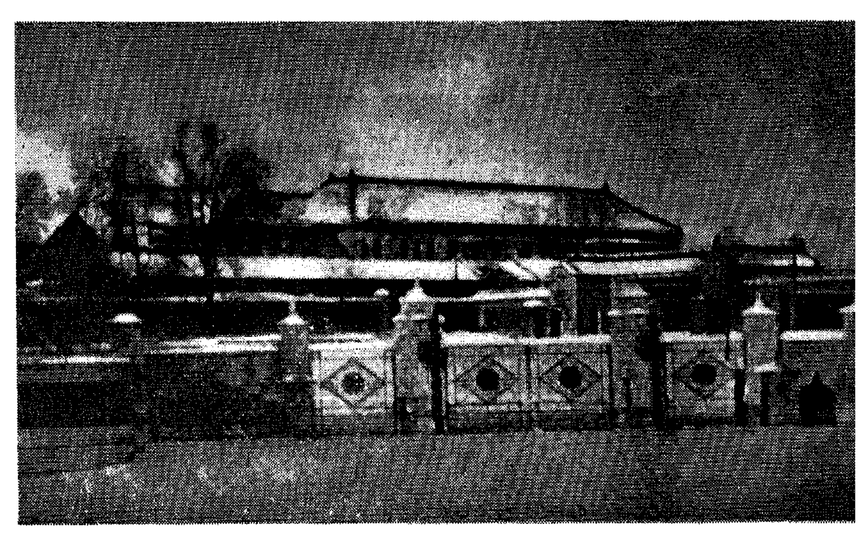
فى الطريق لتسلم منصبى " رئيس تنفيذى
لدولة منشوريا " فى ٩ مارس ١٩٣٢

التوجه لتقديم القرابين للسماء قبيل الاحتفال بـ "ارتقائى"
عرش " امبراطورية منشوريا" فى ١ مارس ١٩٣٤



المقر العام لجيش قوانْدونغ اليابانى

" قصرى " فى تشانغتشون

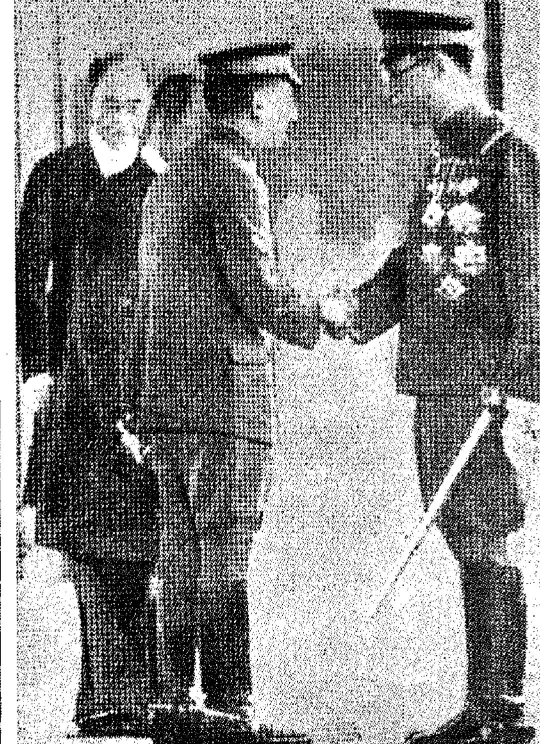


تشنغ شياو شيوى يقابل لجنة ليتون . الثانى من اليمين : اللورد ليتون ، السادس من اليمين :
تشنغ تشوى ، السابع من اليمين : تشنغ شياو شيوى ، العاشر من اليمين : كوماى توكيوزو

بعد توقيع " بروتوكول اليابان — امبراطورية منشوريا ". الصف الامامى، الرابع من اليمين : موتو نوبويوشى ، قائد
جيش قواندونغ . السابع من اليمين : تشانغ جينغ هوى . الصف الثانى ، السابع من اليمين : اتاجاكى سايشيرو

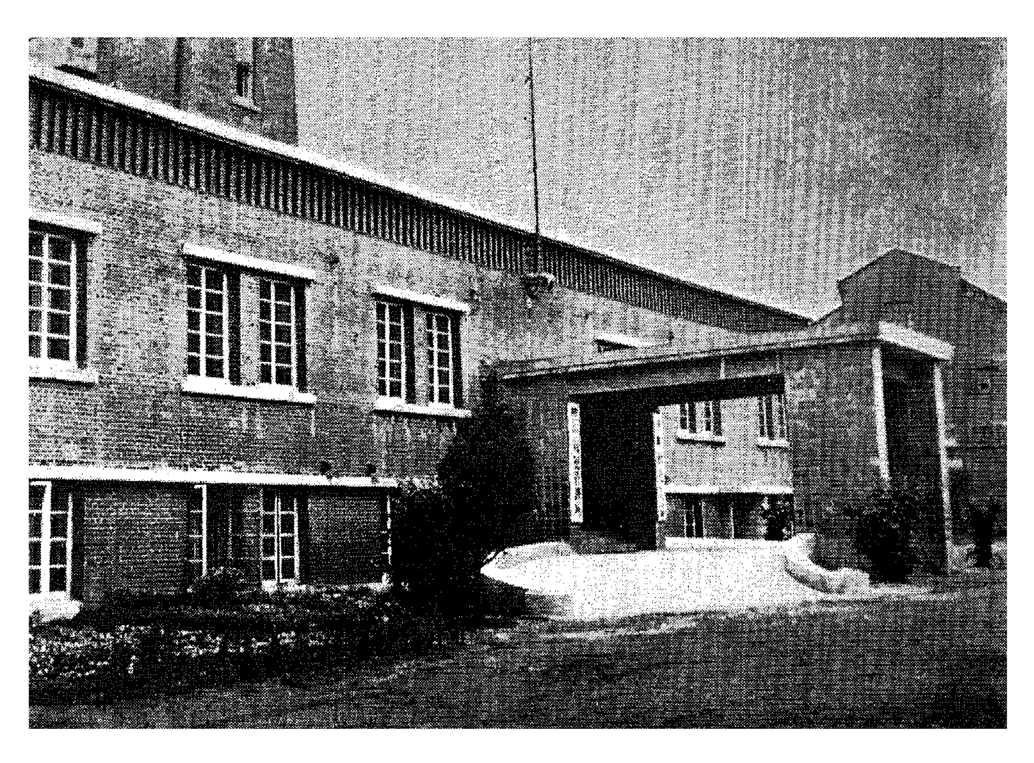
صورة جماعية تضم "امبراطورى الاعلى" ، قائد جيش قواندونغ هيشيكارى تاكاشى (الخامس من اليسار) ، التقطت بعد تتويجى امبراطورا عميلا

لقائى مع الامبراطور اليابانى هيروهيتو خلال زيارتى الى اليابان عام ١٩٣٥



التعبد فى " معبد التأسيس الوطنى "





سجن مجرمى الحرب فى فوشون

التعلم من لا شيء

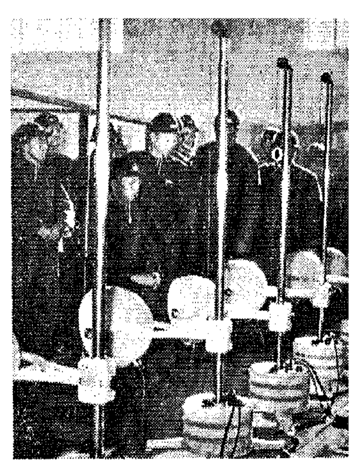
سقى النباتات
داخل الدفيئة

العمل

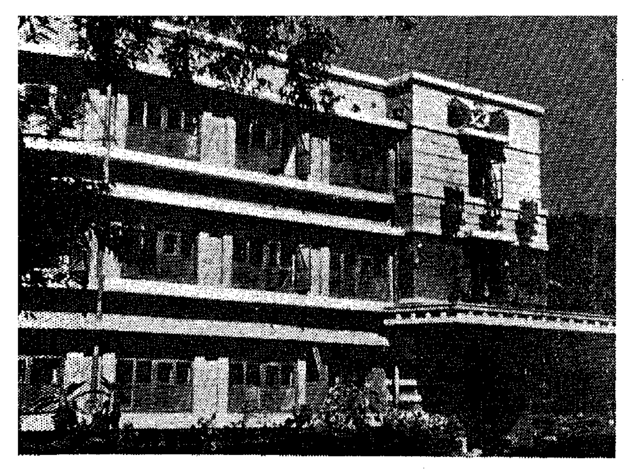
تحسين الفناء

حانوت تحت الارض

زيارتنا الى مناجم فوشون



قاعة المصباح الشمسى



دار العمال العجزة







الدراسة والحياة اليومية

فى الاعلى : مراجعة المصادر

فى الوسط : مطالعة آخر عدد من صحيفة الحائط

فى الاسفل : دراسة الطب التقليدى الصينى

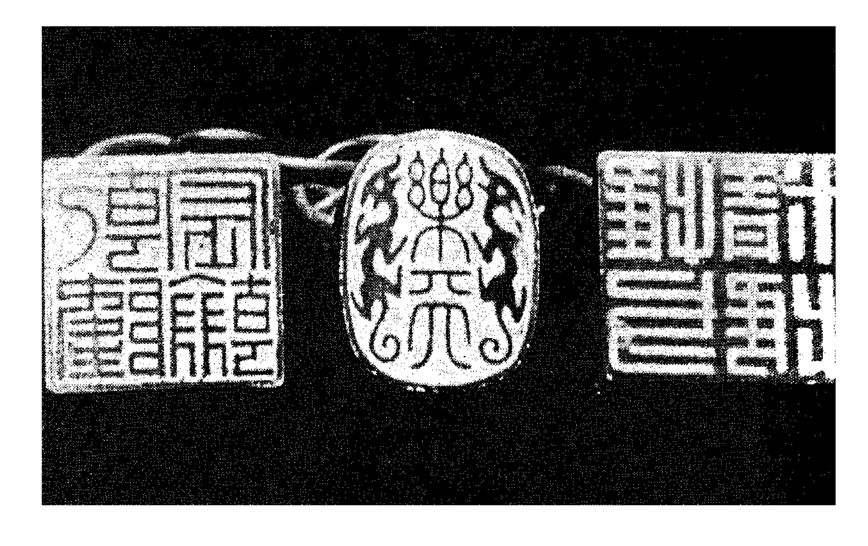


التمارين الصباحية



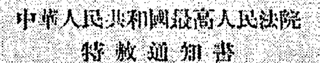
لعبة ويتشى مع بو جيه

الظهور شاهدا فى المحكمة العسكرية للمحكمة
الشعبية العليا . واقفا على اليمين فورومى تادايوكى



تراث الاسرة الذى سلمته للدولة :
الأختام الامبراطورية من حجر "تيانهوانغ"

استلام العفو الخاص
فى ٤ ديسمبر ١٩٥٩



中華人民共和國最高人民法院
特赦通知書

1959年度特赦字第 011号



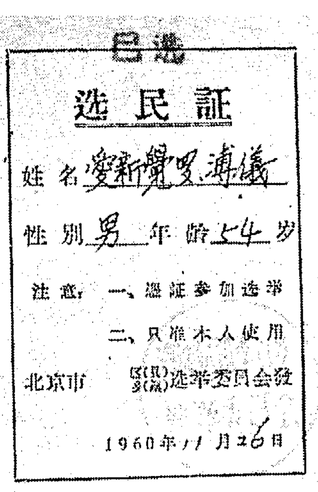
الاشعار الرسمى المتضمن العفو الخاص



العمل فى حديقة
بكيـن للنباتـات

دراسة الأدب والتاريخ مع
زميلى يانغ بوه تاو (الاول
من اليسار) ووانغ ياو
وو (الثانى من اليسار)

ثلاثة اجيال من عشيرة آيشين — جيولوه يمضون عيد الربيع عام ١٩٦١ فى بيت تساى تاو . تساى تاو يليني الى اليمين ، و بو جيه خلفى


已選

选民証

姓名 愛新覺羅溥儀

性別 男 年龄 54 岁

注意：一、憑証参加选举

二、只准本人使用

北京市 区(县)选举委员会發

1960年11月26日

بطاقتى الانتخابية

صورة اخذت بمناسبة الذكرى السنوية الخمسين لثورة ١٩١١ .
من اليسار : لو تشونغ لين ، من اليمين : شيونغ بينغ كون

جانب من الزفاف يوم عيد العمال عام ١٩٦٢ ، عروستى لى شو شيان وانا ، الثانى والثالث من اليمين ، الصف الاوسط



التوجه الى العمل فى الصباح مع زوجتى لى شو شيان

من نبات السلحب ووقفت امام هذا الكرسى وعلى جانبى الاثنين موظفو القصر . ووقف الموظفون المدنيون والعسكريون ، وعلى رأسهم رئيس الوزراء تشنغ شياو شيوى ، فى صف امامى وانحنوا لى انحناءة شديدة ثلاث مرات . وانحنيت ردا على انحناءاتهم . ومن ثم قدم لى هيشيكارى قائد جيش قواندونغ اوراق اعتماده " سفيرا " يابانيا وهنأنى . وانتهت المراسم ، وجلست على كرسى العرش ، فأدى لى ابناء عشيرة آيشين — جيولوه الذين جاءوا من بكين وبعض اعضاء ادارة الاسرة السابقين السجدات التسع وانا جالس على الكرسى .

وارسل لى مخضرمو اسرة تشينغ من الصين جنوبى السور العظيم مذكرات التهنئة ، وكان زعيم عالم الرذيلة والاجرام فى شانغهاى تشانغ يوى تشينغ بين اولئك الذين اعلنوا عن انفسهم اتباعا لى .

وفى ٦ يونيو جاء الامير تشيتشيبو (تشيتشيبو — نو — ميا ياسوهيتو) ، ليهنئنى باسم شقيقه الامبراطور اليابانى . واعطانى الوشاح اليابانى الكبير الاقحوانى ، كما اعطى وان رونغ وسام التاج .

ولم احصل على جميع الحقوق التى كان هو سى يوان يذكرنى بالمطالبة بها دائما ، ولكننى كنت غافلا عن ذلك . وكانت الطريقة التى استقبلت بها والدى فى محطة تشانغتشون عندما جاء من بكين مع اشقائى وشقيقاتى بعد شهر ، صورة رائعة للنشوة العظيمة التى كنت استشعرها .

فقد ارسلت مجموعة من موظفى القصر والحرس ليصطفوا على رصيف محطة القطار لاستقباله ، بينما انتظرت انا ووان رونغ خارج بوابة القصر . ولبست هى ملابس البلاط بينما لبست انا البزة العسكرية ، وغطى صدرى بالنياشين اليابانية و" المانشوية " ونياشين من " امبراطورية تشينغ العظيمة " ارسلت فى طلبها من جنوب السور العظيم . ولما كنت لا اجرؤ على لبس نياشين تشينغ هذه امام جيش قواندونغ ، فقد سررت بهذه المناسبة لاظهارها .

وعندما وصلت سيارة والدي الي القصر حييته تحية عسكرية وركعت له

وان رونغ ، ومن ثم رافقته الى قاعة جاوس لم يكن فيها احد سوانا . فركعت له وحييته على الطراز القديم .

واقيمت فى ذلك المساء مأدبة كبيرة ، وكان اسلوب الطبخ وقاعدة التشريفات غربيين ، وجلست انا ووان رونغ على رأس الطاولة بصفة مضيف ومضيفة . ورتبت الامور بحيث تعزف جوقة موسيقية منذ اللحظة التى ندخل فيها قاعة المأدبة ؛ ولا اذكر الآن ما عزفته تلك الجوقة ، وربما لم اختر اى مقطوعة خاصة لأننى كنت احب اى شيء يعزف على البوق .

وعندما حان وقت شرب الشامبانيا رفع اخى بو جيه كأسه ، وفقا لما رتبت مقدما ، وهتف : " عاش الامبراطور صاحب الجلالة ! " فاشترك جميع افراد اسرتى فى ترديد هذا الهتاف ، مما جعلنى اتيه زهوا .

.. وفى اليوم التالى اخبرنى موظف القصر الكبير ، باو شى ، ان القيادة العامة لجيش قواندونغ قد ارسلت شخصا ليحتج باسم السفير اليابانى على اختراقى للاتفاقية بين سلطات الشمال الشرقى السابقة واليابان والتى على " امبراطورية منشوريا " الالتزام بها ، وذلك بارسالى حرسا مسلحا الى المحطة . فبموجب هذه الاتفاقية اعتبر شريط الارض الذى على جانبى خط السكة الحديدية ارضا لادارة سكة حديد جنوبى منشوريا ، ولم يكن مسموحا لأى مسلح بدخولها ما عدا افراد الجيش اليابانى . وارادت القيادة العامة لجيش قواندونغ – لا ، السفير اليابانى – ضمانا بألا يتكرر مثل هذا التجاوز ثانية .

وكان هذا كافيا لأن يردنى الى صوابى ، ولكن اليابانيين ابقوا لى كثيرا من ماء الوجه . فلم يقوموا بأى احتجاج علنى ، ولم يقولوا عن تلك الحادثة اكثر من ذلك بعد ان ارسلت شخصا ليعتذر ويعد بأن لا يحدث ذلك ثانية . والأهم من هذا انهم رتبوا اشياء كثيرة من الابهة والحفاوة لارضاء غرورى وابقائى اعمى عن الحقيقة .

واكثر ما وجدته باعثا على النشوة فى نفسى هو تلك الزيارات والجولات

" الامبراطورية " ؛

فقد رأى جيش قواندونغ وجوب قيامى برحلة او رحلتين الى خارج تشانغتشون كل سنة ، وسموا هذه " الجولات الامبراطورية " . وتعين ان اشترك كذلك فى اربعة احتفالات رسمية سنويا فى تشانغتشون . احدها تقديم القربان عند " باغودا الارواح المخلصة " لليابانيين الذين قتلوا فى الحرب العدوانية ؛ والثانى تقديم القربان للجنود الموتى من جيش " امبراطورية منشوريا " العميل فى " معبد الارواح المخلصة التى اسست البلاد " ؛ والثالث زيارة مقر القيادة لجيش قواندونغ لتقديم التهانى فى عيد ميلاد الامبراطور اليابانى ؛ والرابع هو حضور الاجتماع السنوى لـ " جمعية الوئام " . ووصف زيارتى الى اجتماع " جمعية الوئام " يمكن ان يوضح الضجة السخيفة التى صاحبت هذه المناسبات .

لقد انطلقت الى هناك فى موكب من السيارات جدير بامبراطور . وتحركت فى البداية سيارات الدرك ، وتلتها على مسافة سيارة حمراء مكشوفة يجلس فيها مدير الشرطة . وخلفها اتت سيارتى ، وكانت حمراء ايضا ، وعلى كل جانب من جانبيها دراجتان ناريتان . وفى مؤخر الموكب سيارات اتباعى وسيارات اخرى للدرك .

وقبل يوم من خروجى كان بوليس ودرك تشانغتشون يقبضان على جميع " الشخصيات المريبة " و" المتشردين " القبيحين ، وفى اليوم نفسه انتشر رجال الدرك على طول الطريق التى سأسلكها ليمنعوا الناس من السير فيه ، ولم يكن يسمح لأحد بالدخول الى المحلات والمنازل المحاذية للطريق والخروج منها او حتى بأن يطلوا برؤوسهم من النوافذ ، وكان الرمل يذر على الطريق المؤدية الى " جمعية الوئام " . وقبل ان تغادر سيارتى القصر تعلن محطة الاذاعة على المدينة كلها باللغتين الصينية واليابانية ان " عربة الامبراطور صاحب الجلالة تغادر القصر " . ولدى سماع هذا الاعلان يخرج جميع

موظفي " جمعية الوئام " للقائي ، وعندما تصل سيارتي ينحنون لي انحناءة شديدة يرافقها عزف " النشيد الوطني " . وبعد استراحة قصيرة اقابل "وز رائي" . وعندما ينتهي هذا الفصل اذهب الى القاعة الرئيسية واعتلي المنصة على انغام موسيقى ، وينحني المجلس بكامله انحناءة شديدة ، وينحني قائد جيش قواندونغ انحناءة خفيفة ، فأهز رأسي ردا على تحيته . ثم اتلو خطابا على اعضاء المجلس الذين يقفون جميعا ناكسي الرؤوس اذ لا يسمح لهم بالنظر الى الاعلى ، ويختم ذلك بانحناءة جماعية شديدة لدى مغادرتي القاعة . وعندما اتحرك عائدا الى القصر يذاع اعلان آخر من مكبرات صوت في كافة انحاء المدينة ، واعلان ثالث لدى وصولي القصر .

وقيل ان هذا كله قد اخذ عن اليابان . وكانت الكلمات المطبوعة على صورتي الفوتوغرافية ايضا مأخوذة عن اليابان . وكان يكتب على صورتي " السيماء الامبراطوري " ، ولكن عندما اخذت اشجع اللغة الصينية ذات الطراز الياباني ، التي مال اليها اليابانيون تحت اسم " اللغة الوئامية " اعيدت تسميتها الى " صورة الامبراطور الحقيقية " . وكانت هذه الصور تعرض في الدوائر والمدارس ووحدات الجيش وجميع المؤسسات العامة . فمثلا كان يقام نوع من المشكاة في قاعات اجتماع الدوائر ومكاتب مدراء المدارس ؛ وفي خارج المشكاة تعلق ستارة ، وخلفها تعلق صورتي مع نسخة عن " مرسوم الامبراطوري " . وكل من يدخل القاعة عليه ان ينحني اولا نحو الستارة . ومع انه لم يكن هناك قانون يأمر المواطنين العاديين باقتناء " صورة الامبراطور الحقيقية " في بيوتهم ، الا ان " جمعية الوئام " غالبا ما كانت تجبر الناس على شراء صورتي المشتركة مع صورة وان رونغ وتعليقها في حجراتهم الرئيسية .

والمراكز الرئيسية التي كانت تنتشر فيها هذه الوثنية هي المدارس والقوات المسلحة . فكان يعقد اجتماع في المدارس ووحدات الجيش كل صباح يترتب فيه على المشتركين الانحناء الشديد ، اولا في اتجاه القصر الامبراطوري

فى طوكيو ، ومن ثم باتجاه قصرى فى تشانغتشون . وكلما مرت الذكرى السنوية لصدور احد " مراسيمى " ، كان يقرأ عاليا . وسأقول المزيد عن هذه " المراسيم " فيما بعد .

وان اخوض فى الحديث عن " الجولات الامبراطورية " التى بنى بها اليابانيون سلطانى . فقد قاموا بها على اكمل وجه ، وهذا بحسب خبرتى لم يكن لمجرد جعل الصينيين يتعودون الطاعة العمياء ويؤمنون بالمعتقدات الخرافية والاقطاعية ، بل لترك نفس التأثير فى الشعب اليابانى ايضا . فما زلت اذكر ان كبير العمال اليابانى فى احد مناجم الفحم قد تأثر حتى البكاء بسماع كلمات قلتها له على انها " وسام شرف " . وهذا جعلنى بالطبع اشعر اننى ذو شأن حقا .

بلغت اوهامى وافكارى الخاطئة اوجها عند زيارتى لليابان فى نيسان ١٩٣٥ حيث ظننت انى قد وصلت الى قمة السطعة . قام بكل ترتيبات هذه الزيارة جيش قواندونغ . وقالوا انها ستكون ضرورية لأعرب عن امتنانى للامبراطور اليابانى على ارساله الامير تشيتشيبو لتهنئتى بارتقاء العرش ، ولأتمكن من ابداء دليل شخصى على " الصداقة اليابانية — المانشوية " .

وشكلت الحكومة اليابانية لجنة استقبال من اربعة عشر عضوا يترأسها البارون هاياشى غونسيوك ، عضو المجلس الاستشارى . وارسلت البارجة " هاى مارو " لتحملنى ، وبصحبتها سفن حربية اخرى للحماية . وعندما ابحرت من داليان استعرضت المدمرات اليابانية وكانت هناك مائة طائرة تحلق تحية لى فوق سماء يوكوهاما . واذكر اننى نظمت قصيدة تملق وانا اعانى من دوار البحر واشعر بأننى غمرت بالتشريف الذى استقبلت به فى هذه الرحلة .

البحر منبسط كمرآة
وانا اقوم برحلة طويلة .

البلدان يرفعان أيديهما ،
من اجل عزة الشرق .

وفي اليوم الرابع من هذه الرحلة شاهدت مناورات قامت بها سبعون سفينة حربية ، فكتبت بعض الابيات الاخرى :

القوارب التى تبحر عشرة آلاف لى
تمخر عباب الامواج المحلقة ،
بينما السماء والارض
تمتزجان فى زرقة لازوردية واحدة .
لم اقطع هذه المسافات
لأتمتع بمرآى الجبال والمياه ،
ولكن لكى نجعل تحالفنا مشرقا
مثل الشمس والقمر .

وهكذا حتى قبل ان تطأ قدمى ارض اليابان اخذت بعظمتها ، واعتبرت جميع التشريفات التى لقيتها فى الرحلة دليلا على ان اليابان تحترمنى احتراما وديا وتساعدنى مساعدة حقيقية . وبدت لى جميع هواجسى الماضية لا اساس لها الآن .

وعندما وصلت الى طوكيو جاء الامبراطور هيروهيتو نفسه ليستقبلنى فى المحطة . ثم اقام لى مأدبة . وعندما ذهبت لزيارته ، رد لى الزيارة . واستقبلت ارباب دولة يابانيين كبار قدموا لى تهانيهم ؛ واستعرضت الجنود مع هيروهيتو ؛ وذهبت لزيارة ضريح الامبراطور ميجى ومستشفى عسكرى كان فيه بعض الجنود ممن جرحوا فى غزوهم الصين . وذهبت كذلك لأقدم احتراماتى لأم هيروهيتو . ووصفت الصحافة اليابانية نزهة خرجنا فيها معا ، قائلة ان الروح التى ساعدت بها ام الامبراطور اليابانى على صعود مرتفع من الارض هى نفس الروح التى ساعدت انا فيها والدى على صعود السلالم

داخل القصر فى تشانغتشون . والواقع اننى لم اساعد والدى مطلقا على صعود درجة واحدة ، وما اسندت والدة هيروهيتو الا لأفوز بالحظوة لديها . وفى اليوم الاخير من زيارتى كان ياسوهيتو (الامير تشيتشيبو) فى المحطة ليودعنى نيابة عن شقيقه الامبراطور .

وقال فى خطابه الوداعى : " ان زيارة جلالتكم الامبراطورية هذه لليابان اسهام عظيم فى تعزيز الصداقة بين اليابان وامبراطورية منشوريا وان املى ان تعود جلالتكم الى بلادكم مقتنعين الاقتناع الصحيح بأن الصداقة بين بلدينا يمكن ان تتحقق بالتأكيد . "

وكان جوابى متزلفا كالسابق : " لقد تأثرت تأثرا عميقا بالحفاوة الرائعة التى قدمتها لى الاسرة الامبراطورية اليابانية وبالترحيب الحار الذى قدمه لى الشعب اليابانى . اننى مصمم على ان ابذل كل ما فى وسعى لأكافح من اجل صداقة ابدية بين اليابان وامبراطورية منشوريا . "

وعندما صعدت متن سفينتى دمعت عيناى وانا اطلب من البارون هاياشى ان ينقل شكرى الى الامبراطور ووالدته ، واثاره ذلك ايضا فبكى . ولم يكن فى اى شيء صينى على الاطلاق .

ان المعاملة التى لقيتها من البيت الامبراطورى اليابانى قد اثرت فى نفسى حقا ، وبدا للهواء نكهة مختلفة بعد ان اصبحت الآن امبراطورا . وحسب منطقى كنت مساويا للامبراطور اليابانى ، وشعرت انى اشغل فى " امبراطورية منشوريا " المنزلة التى يشغلها هو فى اليابان ؛ لذلك ينبغى لليابانيين ان يعاملونى بنفس الطريقة التى يعاملون بها عاهلهم .

وامتلأ ذهنى بهذه الاوهام ، فعدت الى تشانغتشون واصدرت " المرسوم التذكيرى بمناسبة عودة الامبراطور " الذى دعم بتعابير التملق . ودعوت قائد جيش قواندونغ الجديد ، الجنرال مينامى جيرو ، ليأتى لزيارتى حتى اعبر له عن امتنانى ؛ وفى اليوم التالى (٢٩ ابريل) كنت مشاركا متحمسا

فى الاحتفال بعيد ميلاد هيروهيتو . وفى اليوم الثالث اصدرت امرا بأن يحضر الى جميع الموظفين الكبار فى العاصمة ، سواء منهم الصينيون ام اليابانيون ، ليستمعوا الى حديثى عن زيارتى الى اليابان . ولم اناقش هذا الامر مع اليابانيين مقدما ، كما لم احضر اية مذكرات آخذ عنها حديثى . وعندما حان الموعد تدفقت فى الحديث ارتجالا عن زيارتى ، واصفا بالتفصيل كيف قابلنى الامبراطور اليابانى ومتوسعا فى وصف الاحترام الذى عاملنى به اتباعه . وانتهى خطابى بالفقرة التالية :

ان الصداقة بين اليابان وامبراطورية منشوريا قد قادتنى الى الاعتقاد الراسخ بأنه اذا ما تصرف اى يابانى ضد مصالح امبراطورية منشوريا فسيرتكب بذلك ذنب عدم الولاء لصاحب الجلالة امبراطور اليابان ، وانه اذا ما تصرف اى مانشوى ضد مصالح اليابان فسيكون بذلك غير وفى لعاهل امبراطورية منشوريا . وان عدم الوفاء لعاهل امبراطورية منشوريا هو تماما كعدم الوفاء لامبراطور اليابان ، وعدم الوفاء لامبراطور اليابان يساوى عدم الوفاء لامبراطور منشوريا .

وبعد شهر من عودتى الى تشانغتشون اخبرنى مينامى قائد جيش قواندونغ فى احد اجتماعاتنا المنتظمة بأن " رئيس الوزراء تشنغ شياو شيوى يرغب فى ان يتقاعد لأنه مرهق من الجهود التى يبذلها . " ونصحنى بأن اوافق على الطلب واستبدل به رئيس وزراء جديدا . وكنت قد سمعت قبلها بأن اليابان غير راضية عن تشنغ وانني انا شخصيا كنت ابحث عن عذر ما للتخلص منه ، لذلك عندما عرض مينامى على هذه المسألة وافقت فى الحال واقترحت ان يكون تسانغ شي يى خلفا له . وظننت ان مينامى الذى سمع آرائى فى الصداقة اليابانية ــ المانشوية مرتين فى الايام الاخيرة سيستجيب حتما لأمرى ؛ ولكننى وجدت لدهشتى اننى اصطدم بجدار من الصخر . فقد اجابنى هازا رأسه :

ــ كلا ، ان جيش قواندونغ قد درس المسألة واختار رجلا مناسبا . فلا

داعى الى ان تقلق جلالتكم ؛ فكل شيء سيكون على ما يرام اذا انتم اخترتم تشانغ جينغ هوى لهذه المهمة .

والذى حدث انه منذ وقت غير طويل كان تشنغ شياو شيوى هذا قد ازعج سادته اليابانيين بقوله انه ما دامت " امبراطورية منشوريا " قد شبت فلم تعد هناك حاجة اليهم لممارسة تحكم شديد كهذا ؛ لذلك ركلوه جانبا . وجمد حسابه المصرفى ، ومنع من الخروج من تشانغتشون . واقام فى البيت يائسا تحت مراقبة الدرك اليابانى الى ان مات فجأة بعد ثلاث سنوات . وكان ابنه قد مات قبله بثلاث سنوات نفس الميتة . وقد اشيع ان موتهما كان من تدبير اليابانيين . وحتى اذا كان هذا غير صحيح فان سقوط تشنغ شياو شيوى كان كافيا بحد ذاته لتحطيم اوهامى ؛ ولكننى بقيت سادرا لمدة سنة اخرى قبل ان ابدأ رؤية ما كانت عليه حقيقة وضعى .

نهاية الوهم

منذ انسحاب اليابان من عصبة الامم فى بداية عام ١٩٣٣ وهى تندفع فى توسيع قواتها بأقل كبحا من السابق استعدادا للحرب . وقد افردت اهتماما خاصا لتعجيل ترتيباتها من اجل غزو الصين بكاملها . وحتى قبل وقوع حادثة لوقوتشياو فى ٧ يوليو ١٩٣٧ استأنفت اليابان استخدام القوة المسلحة واختلاق الحوادث فى شمالى الصين ، بينما قامت حكومة الكومينتانغ فى نانجينغ بتنازل اثر تنازل . فقد وقعت " اتفاقية خه — اميزو " عام ١٩٣٥ و" اتفاقية تشين — دويهارا " ومعاهدات سرية اخرى مكنت اليابانيين من التحكم بشمالى الصين ، وتغاضت عن نشاط " الحكومة العسكرية الذاتية الحكم فى منغوليا الداخلية " و" الحكومة الذاتية الحكم المعادية للشيوعيين فى شرقى خبى " وغير ذلك من الاجهزة العميلة . واكدت لليابانيين على نحو

متكرر " اننا ليس فقط لن نزج انفسنا فى نشاطات او افكار ضد اليابانيين ، بل ليس لدينا اى سبب يدعونا لأن نكون ضد اليابانيين " . واعلنت تعميما على الشعب بضرورة " الوئام مع الجيران " ، واصدرت كثيرا من اوامر الحظر على النشاطات المعادية لليابانيين تحت طائلة عقوبات شديدة . وهذا كله عزز كثيرا من وضع اليابان فى شمالى الصين ، وجعل من ضياع المقاطعات الخمس فى الشمال مسألة وقت ليس الا . وفى هذا الوقت كان المتعصبون لاعادة الملكية نشطين فى الشمال والشمال الشرقى ، وكنت انا نشوان بتتويجى الثالث . ولكن نظرا الى ان اليابان قد غرزت مخالبها على نحو اعمق فى شمالى الصين ، فقد شددت قبضتها على " امبراطورية منشوريا " ، الامر الذى بدأت احس به انا فى آخر المطاف .

ان عملية استعمار الشمال الشرقى كانت مربحة للخونة الصينيين . فعندما وضعت الملكية موضع التنفيذ مثلا حقق مؤيدوها اشياء اكثر من الرضى النفسى . فالخونة القياديون ، من تشنغ شياو شيوى فنازلا ، قدمت لهم " مكافآت على جهودهم فى انشاء الدولة " تراوحت من ٥٠ الف الى ٦٠٠ الف يوان لكل واحد وبلغ مجموعها ٨ر٦٠٠ الف يوان ؛ ومع كل عمل من اعمال النهب ، مثل " شراء الحبوب الاجبارى " او " التبرعات الوطنية " ، فان جميع الموظفين من رئيس الوزراء فنازلا كانوا يتلقون حصصهم . وبدلا من ان اخوض فى تفاصيل جميع الاجراءات اليابانية سأصف كيف تحولت احلامى باعادة الملكية الى ذعر شديد .

لقد اخبرنى جيش قواندونغ رسميا فى الوقت الذى قرروا فيه اقامة ملكية بأن هذا ليس اعادة لأسرة تشينغ . ولم يسمحوا لى بلبس ثياب التنين عند تتويجى ، وتجاهلوا رأيى فى اختيار رئيس وزراء . فتعين على ان اتحقق من مدى الخواء الذى كان عليه سلطانى ، ولكننى كنت شديد النشوة بحيث تعذر على حينذاك ان اعود الى صوابى ، الى ان جاءت الصدمة الاولى فى

حادثة لينغ شنغ :

كان لينغ شنغ ابن قوى فو — حاكم عسكرى سابق لأسرة تشينغ فى منغوليا ، وكان مستشارا فى القيادة العامة لجيش الحفاظ على الامن ، التابع لتشانغ تسوه لين . وكان واحدا من اعضاء الوفد الذى جاء الى ليويشون لدعوتى الى ان اصبح " رئيسا تنفيذيا " ، ومن جراء ذلك اصبح ضمن صفوف " مؤسسى الوطن " . وحين القى عليه القبض فجأة فى ربيع ١٩٣٦ من طرف جيش قواندونغ كان حاكما لمقاطعة شينغآن فى " امبراطورية منشوريا " .

ارسل جيش قواندونغ الكولونيل يوشيوكا ياسونورى ، " الملحق بالبيت الامبراطورى " ، ليخبرنى بأن لينغ شنغ قد انهمك فى نشاطات معادية لامبراطورية منشوريا واليابانيين . ووفقا للمعلومات التى بلغنى اياها تونغ جى شيوى فانه قد عبر عن تذمره فى الاجتماع المشترك الاخير لحكام المقاطعات ، مما اغضب اليابانيين . وكان من الواضح ان لينغ شنغ قد اتهم اليابانيين بعدم الوفاء بوعدهم ؛ فاتاجاكى كان قد اخبره اصلا فى ليويشون ان اليابان ستعترف بـ " امبراطورية منشوريا " دولة مستقلة ، ولكن اليابانيين فيما بعد تدخلوا فى كل مكان . واصبح لينغ شنغ لا سلطة له فى شينغآن ، لأن اليابانيين سيطروا على كل شيء . وبعد عودته من هذا الاجتماع الى شينغآن القى القبض عليه .

ووجدت ان هذا الخبر لا يمكن السكوت عنه ، لا سيما وقد تصاهرنا قبل ستة اشهر فقط حيث خطبت شقيقتى الرابعة لابنه . وفيما كنت اتساءل هل يجب ان اذهب واخبر جيش قواندونغ بذلك ، جاء يودا كنكيتشى ، القائد الجديد لجيش قواندونغ وسفير اليابان ، لرؤيتى وقال :

— قبل بضعة ايام امسكنا قضية كان المجرم فيها من معارف جلالتكم — لينغ شنغ ، حاكم مقاطعة شينغآن . لقد كان يدبر تمردا ومقاومة ضد اليابان بالتواطؤ مع البلدان الاجنبية . وقد ثبت للمحكمة العسكرية انه ارتكب

جرائم ضد اليابان وامبراطورية منشوريا ، وحكمت عليه بالاعدام :

فقلت مصدوما :

— اعدام ؟

فهز رأسه لمترجمه وهو يردد الكلمة ، قاصدا من ذلك التأكد من اننى فهمت :

— اعدام :

ومضى يقول :

— وهذا سيكون تحذيرا يا صاحب الجلالة . ان من الضرورى ان يقتل تحذيرا للآخرين .

وبعد مغادرة يودا اخبرنى الكولونيل يوشيوكا ان من الافضل ان افسخ الخطوبة بين اختى وابن لينغ شنغ فورا ، فاستجبت سريعا .

ونفذ الحكم بلينغ شنغ بقطع رأسه ، وقتل فى الوقت نفسه بعض افراد اسرته . وهذه كانت الحالة الاولى التى علمت بها من حالات اقدام اليابانيين على قتل موظف كبير من " امبراطورية منشوريا " ، وهو الرجل الذى اراد ان يصبح فى الوقت الاخير قريبا لى . ورأيت ان لينغ شنغ لا بد انه كان شديد الولاء لى ، ما دام قد اراد هذه المصاهرة ؛ ولكن المقياس الوحيد الذى حكمه به جيش قواندونغ هو موقفه من اليابان . ومما لا شك فيه انهم استخدموا نفس المقياس معى ايضا . ان عبارة يودا حول قتله — تحذيرا للآخرين — تبدو لى الآن نذير شؤم .

ثم تذكرت ان جيش قواندونغ كان قد سألنى فى ذلك الوقت عن بعض نشاطات " اعادة اسرة تشينغ " فى نهاية سنة ١٩٣٥ ، وقررت ان اكون اكثر حذرا فى المستقبل . كيف اذن يريد اليابانيون من الناس ان يتصرفوا ؟ وتذكرت رجلا كان مصيره مختلفا تماما عن مصير لينغ شنغ . انه تشانغ جينغ هوى ، رئيس الوزراء . ومن الواضح ان اليابانيين قد قصدوا ان يضعوا

امامى نموذجين مختلفين : تشانغ ولينغ . ويمكن للمرء ان يأخذ فكرة عن شخصية قاطع طريق تحول الى " رئيس وزراء " وعن التقدير الذى يكنه له اليابانيون من الطريقة التى يكررون بها احد اقواله : " ان اليابان وامبراطورية منشوريا مثل يعسوبين مربوطين بخيط واحد . " لقد استخدموا هذا القول لكى " يثقفوا " به الموظفين من حملة الجنسية " المانشوية " .

وعندما كان اليابانيون يطبقون سياستهم فى استيطان الشمال الشرقى ارادوا الحصول على مشروع قانون مصادق عليه من قبل " مجلس الدولة " يمكنهم من مصادرة الاراضى الزراعية فى الشمال الشرقى مقابل ربع او خمس ثمنها . فاحتج بعض " الوزراء " خوفا من ان يؤدى هذا الى تمرد او ان يفقدوا الكثير من الاراضى الواسعة التى تحت ايديهم . وابدى تشانغ جينغ هوى تعليقه قائلا : " ان لدى امبراطورية منشوريا مساحات كبيرة من الاراضى ، والمانشويون بسطاء جدا وجهلة . واذا ما جاء اليابانيون لاحياء ارض بكر ولتعليمهم التكنولوجيا الحديثة ، فان كلا الجانبين سيستفيد . " واقر المشروع . واصبحت عبارة " كلا الجانبين سيستفيد " ملاحظة اخرى مفضلة لدى اليابانيين .

وتلفظ تشانغ جينغ هوى بقول ثالث عندما كان اليابانيون يقومون بشراء اجبارى كبير للحبوب بحيث لم يترك لفلاحى الشمال الشرقى شيئا . وقد احتج بعض " الوزراء " ممن تأثرت مصالحه بتلك الاسعار المنخفضة فى " اجتماع مجلس الدولة " موضحا بأن الفلاحين يموتون جوعا ، واحدث ضجة بالمطالبة بأسعار اعلى . وهذا كان بالطبع شيئا ليس اليابانيون على استعداد للموافقة عليه . فقال تشانغ جينغ هوى : " ان جنود الجيش اليابانى الامبراطورى يبذلون ارواحهم فارسالنا نحن المانشويين بعض الحبوب لهم لا يعادل شيئا بالمقارنة الى عطائهم . ان الجياع سيكونون على ما يرام اذا هم شدوا الاحزمة على بطونهم . " واصبحت عبارة " شد الاحزمة " تعبيرا

مألوفا لدى اليابانيين ، مع انهم لم يستجيبوا هم انفسهم لهذا المطاب :

كان قائد جيش قواندونغ يشيد لى دائما بتشانغ جينغ هوى على انه رئيس وزراء جيد و" رجل يضع الصداقة اليابانية المانشوية موضع التطبيق" . ولم افكر فى السابق فى مغزى ذلك كله بالنسبة لى ، ولكننى الآن بعد ان عرفت مصير لينغ شنغ فهمت تمام الفهم .

وبعد حادثة لينغ شنغ ازعجنى جدا اجتماع لى مع الامير ده :

كان الامير ده ، او دمتشوك دونغرب ، اميرا منغوليا استخدمه اليابانيون لانشاء " الحكومة العسكرية الذاتية الحكم فى منغوليا الداخلية" . وكان قد ارسل لى نقودا ابان اقامتى فى تيانجين ، واعطى اخى بو جيه خيولا منغولية اصيلة ، وابدى ولاءه لى بوسائل اخرى كثيرة . ثم جاء لرؤية جيش قواندونغ فى امر ما ، وحصل منه على اذن بالمجىء لزيارتى ، فحدثنى عن خبرته خلال السنوات القليلة الماضية وعن تأسيسه " الحكومة العسكرية الذاتية الحكم". ثم اخذ يتذمر ويتشكى من ان اليابانيين فى منغوليا الداخلية مستبدون للغاية وان جيش قواندونغ لم ينفذ وعدا واحدا من سلسلة الوعود التى وعده اياها قبل تأسيس " حكومة" منغوليا الداخلية . وكان ما جعله فى غاية الغضب هو افتقاره التام الى السلطة . ووجدت نفسى استجيب لتذمراته واحاول التخفيف عنه . وفى اليوم التالى ارسل جيش قواندونغ يوشيوكا ، الملحق بالبيت الامبراطورى ، ليسألنى وعلى وجهه تعابير الامتعاض :

ــ ماذا ناقشتم يا صاحب الجلالة مع الامير ده البارحة ؟

ولما ادركت ان فى الامر ما يسوء قلت اننا كنا نتحدث احاديث عابرة . فتابع سؤاله دون ادنى تراخ :

ــ هل عبر عن عدم ارتياحه لليابان ؟

فأخذ قلبى يخفق بشدة . وادركت ان بوسعى ان اقوم بانكار ثابت او من الافضل " ان اتراجع عن طريق التقدم" . فقلت :

— لا بد ان الامير ده قد اخبركم بكثير من الكذب :

ومع ان يوشيوكا لم يتتبع هذه المسألة معى اكثر من ذلك ، الا اننى بقيت فى حالة من الذعر عدة ايام . واستبدت بى الظنون ، وفكرت باحتمالين . الاول ان يكون اليابانيون قد وضعوا فى غرفتى جهاز تنصت ، والثانى ان يكون الامير ده قد اخبرهم بكل شيء . وامضيت وقتا طويلا لحل هذا اللبس ، مفتشا الغرفة لعلى اجد جهاز تنصت . وعندما لم اجد شككت فى ان الامير ده قد خاننى ، ولكن لم يكن لدى دليل على ذلك ايضا . ووقعت فى حيرة تامة .

علمتنى هذه الحادثة اكثر مما علمتنى حادثة لينغ شنغ . فلم اعد منذ ذلك الحين اتكلم صراحة مع اى شخص خارجى ، وتصرفت بكل حذر ازاء جميع الزوار . والناس الذين كانوا يأتون من تلقاء انفسهم لرؤيتى اصبحوا اقل فأقل منذ اليوم الذى القيت فيه خطابى بعد ان عدت من اليابان ، ولقد توقفوا عن المجىء تقريبا بعد زيارة الامير ده . ثم استنبط جيش قواندونغ قاعدة جديدة عام ١٩٣٧ فأصر على ان " الملحق بالبيت الامبراطورى " يجب ان يكون حاضرا عندما استقبل شخصا غريبا .

واخذت اشعر بالتوتر اكثر فأكثر بدءا من ذلك العام . لقد انتهى اليابانيون من استعداداتهم لغزو واسع النطاق للصين خلال الاشهر الستة الاولى من تلك السنة ، ومارسوا قمعا واسع النطاق للوطنيين المعادين لهم فى الشمال الشرقى . واصدروا باسمى قانون عقوبات وشكلوا نظام " باو — جيا " للاشراف المتبادل ، واجبروا كل فرد على الانضمام الى " جمعية الوئام " ، واصلحوا الطرق وبنوا الحصون ، ووحدوا القرى . واستخدموا عشرين فرقة تقريبا ليحاولوا التصدى للجيش المتحالف المعادى لليابانيين الذى يعد بـ ٤٥ الف شخص والذى كان يقوم بعملياته فى الشمال الشرقى ، بينما القوا القبض فى الوقت نفسه على اعضاء جمعية انقاذ الوطن المعادية

لليابانيين وعلى غيرهم من الناس " المضطربين " . ولم تكن تلك العمليات ناجحة تماما فاضطروا الى تكرارها على نطاق اوسع فى السنة التالية باستخدام مليون من الجنود اليابانيين والعملاء . ولكن وفقا لما قاله تونغ جى شيوى فان الناس قد اختفوا فى كل مكان من الشمال الشرقى على حين ان عمليات القبض لم تنته قط .

لم اسمع فى هذه الاثناء مطلقا اى خبر صادق لا من محادثاتى مع قائد جيش قواندونغ ولا من تقارير " رئيس مجلس الوزراء " . وكان تونغ جى شيوى الشخص الوحيد الذى ظل يطلعنى على حقيقة ما جرى . فقد اخبرنى بأن تقارير الانتصارات فى حملات " التأديب" التى اعطانى اياها قائد جيش قواندونغ لم تكن موضع ثقة ، وان من الصعب القول من كان حقا " قطاع الطرق " الذين ابادهم اليابانيون . وقال ان احد اقربائه قد اخذ لأداء العمل الالزامى فى بعض المشاريع السرية ، وانه بعد ان انتهى العمل ذبح جميع العمال باستثنائه هو وقلة معه كانوا محظوظين اذ تمكنوا من الهرب . وفى رأيه ان احدى عصابات " قطاع الطرق " الذين اعلن عن سحقهم بزهو عظيم فى الصحافة كانت هذه المجموعة من العمال .

ولم يمض وقت طويل بعد ان سمعت بهذا حتى اختفى مترجم لغة انكليزية سابق عندى . ولم اعرف مصيره حتى اخبرنى شقيقى بو جيه ذات يوم انه قد القى القبض عليه بسبب صلته بالامريكان عندما كان يعمل فى " سفارتنا " فى طوكيو ، وقتل على يد رجال الدرك اليابانيين . وقال لى بو جيه ايضا ان هذا المترجم قد بعث اليه برسالة عن طريق حارسه يرجوه فيها ان يطلب منى التوسط له ، ولكنه لم يجرؤ ان يخبرنى بهذا فى ذلك الوقت . فطلبت من بو جيه ألا يقول اية كلمة اخرى حول هذا الامر .

كثير من السياسات والقوانين التى وافقت عليها فى تلك الايام كانت متعلقة باستعدادات اليابان الحربية وبتقوية حكمها فى مستعمرتها الشمال —

شرقية : وقد تضمنت هذه الموافقات : " الخطة الخمسية الاولى لتطوير الانتاج " و " قانون ضبط الممتلكات " و " اعادة تنظيم الحكومة " لتقوية حكم اليابانيين ، واعتبار اللغة اليابانية " لغة وطنية " ؛ ولكن لم يترك اى من ذلك تأثيرا كبيرا على كالذى تركه زواج بو جيه .

بعد ان انهى بو جيه دراسته فى مدرسة لصبيان النبلاء اليابانيين انتقل الى مدرسة الطلبة العسكريين التابعة للجيش اليابانى . وعاد الى تشانغتشون فى شتاء ١٩٣٥ واصبح ملازما اول فى الحرس الامبراطورى . ومنذ ذلك الحين وزملاؤه فى جيش قواندونغ يسعون فى زواجه ويشيدون بفضائل الزوجات اليابانيات . وقد اخبرنى يوشيوكا ، الضابط اليابانى الذى كان ملازما لى ، بأن جيش قواندونغ يأمل بأن يتزوج بو جيه من فتاة يابانية تعزيزا للصداقة بين البلدين .

وذعرت ذعرا شديدا لسماعى هذا الخبر وقررت ان احصل لبو جيه على زوجة من بكين لأحبط مسبقا هذه المؤامرة اليابانية . فمن الواضح انهم قصدوا وضع بو جيه تحت سيطرتهم الكاملة ، والاهم من ذلك ، قصدوا ان ينجب طفلا من اصل يابانى يمكن ان يحل محلى فى المستقبل . ووافق بو جيه على خطتى ، ولكن عندما ضغط عليه يوشيوكا باخباره ان الجنرال هونجو يعمل وسيط زواج له فى طوكيو ، اطاع . وفى ٣ ابريل ١٩٣٧ تزوج من ساجاهيرو ، ابنة الماركيز ساجا . وبعد اقل من شهر اقر " مجلس الدولة " مدعوما من جيش قواندونغ لائحة تنص على ان بو جيه وابنه سيكونان خالفين للعرش اذا انا لم ارزق بذرية ذكور .

وبعد عودة بو جيه من طوكيو قررت ألا اتكلم امامه بصراحة بعد ذلك او آكل طعاما ترسله لى زوجته الا اذا حين يشاركنى بو جيه فى طعامى وبشرط ان يذوق هو اولا طبخ زوجته . وعندما اوشك بو جيه ان يصبح ابا اصبحت شديد الاهتمام بأمنى وبأمنه كذلك لأن جيش قواندونغ بدا

قادرا تماما على قتل كلينا من اجل الحصول على امبراطور من اصل يابانى ؛ وتنفست الصعداء عندما تكشف المولود عن بنت .

وكنت قلقا كذلك حول ما سيحدث اذا رزقت ولدا ، لأن جيش قواندونغ جعلنى اوقع وثيقة تقول اننى يجب ان ارسل اى ولد لى الى اليابان عندما يصبح فى سن الخامسة ليربى لدى اناس معينين لديهم .

وفى ٢٨ يونيو ، قبل تسعة ايام من قتال ٧ يوليو فى لوقوتشياو ، اصبت بالذعر مرة اخرى . وهذه المرة كانت بسبب حادثة "حرس القصر" .

كانت هذه القوة مختلفة عن "الحرس الامبراطورى" الذى كان تحت سيطرة "وزارة الدفاع" ، فقد انفقت عليها من جيبى الخاص ، وكانت غايتى من تأسيسها ليست مجرد حمايتى بل لتكون تحت سيطرتى الشخصية ايضا قوة عسكرية اساسية . وقد تلقى رجالها البالغ عددهم ٣٠٠ جميعهم تدريبا خاصا بالضباط . وفى حينها اخبرنى تونغ جى شيوى الذى كان مسؤولا عن القوة ان جيش قواندونغ لم يكن مسرورا بها ، ولو انى لم اكن قبل الآن قادرا على فهم تحذيرات تونغ .

فى ٢٨ يونيو ذهب عدد من حرس القصر ليرفهوا عن انفسهم فى احد المتنزهات ، وراحوا يتجادلون مع بعض اليابانيين المرتدين ثيابا مدنية حول استئجار قوارب ، واذا بحشد من اليابانيين يطوقهم ويبدأ فى ضربهم . واضطر الحرس الى الدفاع عن انفسهم فضربوا اليابانيين ، ولكن الأخيرين افلتوا عليهم الكلاب . فأخذ حرسى يضربون الكلاب وقتلوا قسما منها ، ثم خرقوا الطوق من حولهم وعادوا الى ثكنتهم . ولم يخطر فى ذهنهم قط ان هذا سيتسبب فى وقوع كارثة . فبعد ذلك بوقت قصير ظهر رجال الدرك اليابانيون خارج مكتب القصر مطالبين بأن يسلم تونغ جى شيوى جميع افراد الحرس الذين ذهبوا الى المنتزه ، فاستجاب تونغ الى مطلبهم مذعورا . فأخذهم رجال الدرك اليابانيون وحاولوا اجبارهم على الاعتراف بأنهم كانوا

مشتركين فى نشاطات معادية لامبراطورية منشوريا واليابانيين . وعندما رفض افراد الحرس الاعتراف انزل بهم اليابانيون مختلف ألوان التعذيب ، وادرك افراد الحرس حينذاك ان تلك الحادثة كانت عبارة عن مؤامرة متعمدة دبرها جيش قواندونغ . فاليابانيون ذوو الملابس المدنية ارسلهم جيش قواندونغ الى هناك ، واثنان من ضباط هذا الجيش قد اصيبا فى ذلك العراك ، والكلاب التى ركلت حتى الموت كانت كلاب جيش قواندونغ كذلك .

وعندما سمعت بالقبض عليهم ظننت انهم لا بد ان يكونوا قد احدثوا بعض المتاعب على نحو عرضى ، ولذلك طلبت من يوشيوكا ان يذهب مباشرة الى مقر القيادة لجيش قواندونغ ويحادثهم بالامر . فعاد بثلاثة شروط يمكن بموجبها ان يطلق سراحهم : ان يعتذر تونغ جى شيوى للضابطين الجريحين ؛ ان يرحل افراد حرس القصر الذين " سببوا هذه المشكلة " ؛ وان اتعهد انا بألا تتكرر هذه الحادثة ابدا . وبعد ان استجبت لهذه الشروط اجبرت على طرد تونغ جى شيوى من منصبه كقائد لحرس القصر وتعيين يابانى خلفا له ، واضطررت كذلك الى خفض عدد حراس القصر وتبديل بنادقهم الى مسدسات .

كنت فى السابق قد ارسلت عددا من الشبان الى الاكاديميات العسكرية فى اليابان لأبنى لنفسى قوة عسكرية ، ولكن عندما عادوا نسبتهم " وزارة الدفاع " الى اعمالهم ، كما نسبت اخى بو جيه ، ولم يكن لى اى رأى فى هذا الموضوع . وتبين لى من ثم ان خططى لانشاء جيش تحت سيطرتى مباشرة لم تكن الا حلما .

عندما نشب قتال ٧ يوليو وادى الى احتلال اليابانيين لبكين كان بعض الامراء والشخصيات المخضرمة فى بكين يتطلعون لاعادة النظام القديم ، ولكننى ادركت الآن ان هذا مستحيل . ولم يبق من اهتماماتى سوى المحافظة على سلامتى من اليابانيين واتقان التعامل مع يوشيوكا " الملحق بالبيت

الامبراطورى" والذى كان تجسيدا تاما لجيش قواندونغ ؟

يوشيوكا ياسونورى

اذا شبه المرء جيش قواندونغ بمصدر تيار كهربائى عالى التحميل وشبهنى بمحرك كهربائى ، فان يوشيوكا سيكون عبارة عن سلك ذى ايصالية عالية .

كان رجلا قصيرا له شارب قصير ووجنتان ناتئتان لازمنى طيلة السنوات العشر منذ بداية قدومه الى القصر عام ١٩٣٥ الى استسلام اليابانيين عام ١٩٤٥ ، حيث اسره الجيش السوفياتى فى نفس الوقت الذى اسرنى فيه ايضا . وفى تلك السنوات ترفع من رتبة مقدم الى فريق . وكان لديه منصبان : احدهما ضابط اركان عالى الدرجة فى جيش قواندونغ ، والثانى "ملحق بالبيت الامبراطورى لامبراطورية منشوريا" . وهذا المنصب الثانى كان مصطلحا يابانيا ، ولكن لم يكن هناك فرق كبير فى كيفية ترجمته لأن الكلمات لا تصف وظيفته الحقيقية . كان هو السلك الذى ينقل لى جيش قواندونغ من خلاله نواياه . وان التجولات التى قمت بها والزوار الذين استقبلتهم ونظام التشريعات الذى تقيدت به والنصائح التى قدمتها الى اتباعى والانخاب التى شربتها حتى هز رأسى وابتساماتى ، كل ذلك كان تحت ارشادات يوشيوكا . وكان يقرر الاجتماعات التى احضرها ويكتب لى خطاباتى فى لغته الصينية اليابانية الطراز .

وبعد ان اطلق اليابانيون العنان لأنفسهم فى غزوهم الواسع النطاق للصين فى يوليو ١٩٣٧ احتاجوا الى الحبوب والرجال والامدادات من "امبراطورية منشوريا" فأمرت تشانغ جينغ هوى ان يقرأ فى اجتماع حكام المقاطعات العملاء تعليما كتبه يوشيوكا . وفى تلك الوثيقة حثتهم على "تنفيذ واجباتهم

باجتهاد لدعم الحرب المقدسة " . ان حرب الباسيفيك قد واجهت اليابان بنقص بالجنود ، وانهم ارادوا من جند " امبراطورية منشوريا " ان يحلوا محل بعض الوحدات اليابانية المنشغلة فى الصين . وقرأت تعليما آخر من صياغة يوشيوكا وكان هذه المرة فى مأدبة تقام لقادة المناطق العسكرية المختلفة ، عبرت فيها عن تصميمى على " ان اعيش او اموت مع اليابان ، وان اتحد معهم فى القلب والفضيلة . وان احطم نفوذ بريطانيا وامريكا " .

وفى كل مرة اخبرنى فيها يوشيوكا بأن اليابانيين قد احتلوا مدينة صينية رئيسية كان يضطرنى الى ان انهض معه وانحنى انحناءة شديدة فى اتجاه ميدان المعركة علامة للحداد على الجنود اليابانيين الذين قتلوا فى المعارك . وبعد ان جعلنى افعل ذلك عدة مرات ، لم اجد حاجة الى الحث لأقوم بانحناءتى عندما اخبرنى بالاستيلاء على ووهان .

وكان كلما حققت المزيد من التقدم يزيد فى عدد الدروس التى يلقننى اياها . فبعد سقوط ووهان مثلا اقترح على ان اكتب رسالة تهنئة الى السفاح اوكامورا الذى استولى على المدينة وارسل برقية الى الامبراطور اليابانى ؟

وبعد ان بنى " معبد التأسيس الوطنى " اصبحت اذهب اليه كل شهر لأصلى من اجل انتصار الجنود اليابانيين ، وهذا ايضا كان بعد تلقى دفعة قوية عبر السلك الكهربائى نفسه .

لم يتدخل جيش قواندونغ كثيرا فى شؤونى الشخصية والخاصة قبل حادثة ٧ يوليو ، ولكن الامور تغيرت بعد ذلك . فقبل الحادثة كان بعض الأقارب يأتينى من جنوب السور العظيم كل سنة لزيارتى فى عيد ميلادى وفى مناسبات اخرى ، ولكن بعد حادثة ٧ يوليو لم يسمح جيش قواندونغ الا لعدد قليل بالقدوم الى تشانغتشون فى فترات محددة . واصر الجيش اليابانى ايضا ان على اقربائى هؤلاء ان يكتفوا بالركوع لى دون التكلم معى ، عدا الحميمين منهم . وبريدى كله كان يقرأه اعوان يوشيوكا اليابانيون فى مكتب القصر ، وهو

الذى يقرر ما يمكن ان اطلع عايه من هذا البريد وما لا يمكن . وكان جيش قواندونغ بالطبع مدركا تماما اننى لم اكن ضد " امبراطورية منشوريا " او ضد اليابانيين ، ولكنه كان يخشى ان اشترك فى خطط لاعادة اسرة تشينغ جنوب السور العظيم ، وهذا كان مصدر ازعاج بالنسبة له .

لقد كان من المستحيل على تماما فى تلك الايام ان اقابل شخصا خارجيا او اتلقى رسالة دون علم يوشيوكا . وكان فى القصر مكتب للدرك غاص برجال درك يابانيين يلبسون بزات خضراء قاتمة ؛ ولا احد يمكن ان يدخل او يخرج دون ان يروه ، وكانوا يسمعون كل شىء مما يجرى داخل الفناء . يضاف الى هذا كله ان اليابانيين الذين فى مكتب القصر كانوا ادوات فى يد يوشيوكا ، يعنى اننى كنت تحت رقابة مشددة .

لقد اظهر يوشيوكا براعة هائلة فى الحصول على منصبه فى القصر ، مقيما صداقة مع بو جيه عندما كان احد معلميه فى مدرسة الطلبة العسكريين فى اليابان . وبعض الكتب تقول انه كان صديقا لى ايضا قبل ذهابى الى الشمال الشرقى ، والواقع انه قد حدثنى بضعة احاديث فقط عن الشؤون الجارية فى تيانجين . ومع ذلك فقد سعى للاستفادة من صداقته لبو جيه فى اقناع جيش قواندونغ بأنه صديق شخصى لى ، وهو بفعل ذلك حصل على هاتين الوظيفتين " ملحق بالبيت الامبراطورى لامبراطورية منشوريا " وضابط اركان عالى الدرجة لجيش قواندونغ .

واثناء وجوده معى قام بزيارات متعددة لليابان ، وكان ينقل غالبا هدايا صغيرة بينى وبين الامبراطورة اليابانية الام . وقد اقنعنى ذات مرة بأن اسجل بعض التحيات باللغة اليابانية الى الامبراطور اليابانى .

وكان اذا تكلم يقبع بـ " اه " " ها " ويرتعش حاجباه ، وازدادت هذه العادة سوءا مع مضى الوقت ، وكنت اجدها تزيد فى اغضابى ، اذ ان ازدياد التقلص فى عضلات وجهه يعنى تغير موقفه من علاقتنا .

وبعد زيارتى الى اليابان عام ١٩٣٤ كتبت لى الامبراطورة الام بعض قصائد " واكا " ، وما قاله يوشيوكا حينذاك كان بمثابة موسيقا فى اذنى :

" ان صاحبة الجلالة الامبراطورة الام مساوية لأم جلالتكم ، وما دمت انا واحدا من اقربائكم تقريبا فاننى اشعر بأن هذا شرف كبير لى . "

وفى ذلك الوقت قال لبو جيه : " انت وانا قريبين الى بعضنا بعضا كاليد والقدم ، ومع اننى لا استطيع ان ادعى قرابة كهذه مع جلالة الامبراطور ، الا اننى استطيع ان اشعر اننى بالنسبة اليه مثل اصبع القدم لأصبع اليد . اننا انسباء تقريبا . "

وفى عام ١٩٣٦ تقريبا قال لى :

" ان اليابان مساوية لوالد جلالتكم ، اه ، وجيش قواندونغ يمثل اليابان ، اه ، لذلك فان قائد جيش قواندونغ مساو لوالد جلالتكم ، ها . "

ولما كان جيش قواندونغ يواجه المزيد المزيد من المتاعب على الجبهة ، فان مركزى كان ينخفض فى اعين جيش قواندونغ . ومضى يوشيوكا فى النهاية بعيدا فقال : " ان جيش قواندونغ والدك ، وانا ممثل جيش قواندونغ ، اه . "

وكان من عادة يوشيوكا ان يقوم بزيارات متكررة الى القصر اثناء النهار . واحيانا كان يمكث عشر دقائق ثم يغادر ليعود بعد خمس دقائق فقط . وكان يقدم اسبابا سخيفة لهذا المجيء والذهاب المتكررين ، كأن يدعى مثلا بأنه نسى ان يقول شيئا ما ، او لم يتذكر ان يسألنى ان كنت بحاجة الى اى شيء منه ليفعله لى فى اليوم التالى . وبالطبع خفت من انه كان يستخدم هذه الاقتحامات المفاجئة وسيلة للتجسس على ؛ ورأيت ان الطريقة الوحيدة التى استطيع بها تجنب الريبة هى ان اوافق حالا على كل ما يقترحه ولا ادعه ينتظر مطلقا . وكنت اراه دائما فى منتصف وقت الاكل .

" مراسيم امبراطورية "

جميع الذين درسوا فى مدارس " امبراطورية منشوريا " اجبروا على حفظ " مراسيمى الامبراطورية " عن ظهر قلب . وفى الذكرى السنوية لصدور كل مرسوم تحتشد جميع المدارس والمكاتب الحكومية ووحدات القوات المسلحة لتستمع الى المرسوم يقرأ بصوت جهورى . ففى المدارس مثلا يقف جميع العاملين والطلبة ببزات " الوئام " الشديدة الاخضرار وقفة اجلال امام المنصة . ويدخل موظف المدرسة المسؤول عن الايديولوجية والانضباط لابسا قفازات بيضاء رافعا بيديه فوق رأسه علبة خشب صفراء ملفوفة بقماش اصفر . وينحنى الحشد كله حين يصعد بالعلبة الى المنصة ، ويضعها على طاولة ويفتحها . ثم يخرج منها المرسوم ويناوله بيديه الاثنتين الى مدير المدرسة الذى يستلمه بيدين فيهما قفاز ، ويبسط هذا المرسوم ثم يقرأه بصوت جهورى . واذا صادف ان كان التاريخ ٢ مايو فانه يقرأ " المرسوم التذكيرى بمناسبة عودة الامبراطور " :

منذ ان ارتقيت العرش وانا اتشوق الى القيام بزيارة شخصية للبيت الامبراطورى اليابانى لكى ابدى من خلال تعزيز صداقتنا والتمتع بصحبتهم اعجابى العظيم بهم . وبقيامى بهذه الرحلة الى الشرق تمكنت من تحقيق طموحى الذى يعمر نفسى منذ امد طويل .

وكان البيت الامبراطورى اليابانى فى اقصى درجات الكرم لدى استضافته لى حيث قام بالاستعدادات الرائعة ، على حين استقبلنى رعيته وودعونى بحماسة صادقة ، وهم جميعا دون استثناء على اقصى درجات اللطف والاحترام . ولقد انطبع هذا فى قلبى ، فلن انساه ابدا .

اننا مدركون ادراكا عميقا منذ تأسيس دولتنا الى اليوم الحاضر اننا معتمدون خلال ذلك كله على الانصراف التام للاستقامة ، وعلى الجهود العظيمة لهذا البلد الصديق فى تعزيز الاساس العظيم ؛ وفى هذه المناسبة كنا محظوظين

بما فيه الكفاية حيث تمكنا من التعبير عن تشكرنا القلبى . وفوق ذلك تأكدنا من خلال الملاحظة الدقيقة ان الحكومة فى ذلك البلد قائمة على الخير والحب ، بينما تشديد التربية قائم على الولاء والطاعة البنوية ؛ فالناس يحترمون امبراطورهم ويحبون رؤساءهم كما يحبون السماء والارض ؛ وكل واحد منهم مخلص وشجاع ومحب للخدمة العامة ومتفان فى سبيل وطنه الام . وهذا هو السبب فى انهم قادرون على التمتع بالسلم الداخلى وعلى مقاومة الدول الاجنبية والتعاطف مع جيرانهم لكى يحافظوا على الخط الامبراطورى الذى سيستمر دون تعطل عشرة آلاف جيل . ولقد احتككت شخصيا بالعالين والواطئين فى ذلك البلد ، فوجدتهم متحدين اخلص الاتحاد فى مزاج عام واخلاق مشتركة ؛ وثقتهم المتبادلة راسخة لا يمكن ان تهتز .

اننى وصاحب الجلالة امبراطور اليابان بروح واحدة . فعلى رعايانا ان تعى ذلك تمام الوعى وتكون قلبا واحدا وفضيلة واحدة مع حليفنا ، لكى نرسى اساسا راسخا وثابتا الى الابد لبلدينا ونظهر المعنى الحقيقى للاخلاق الشرقية . وعندها سيكون من الممكن للعالم ان يعيش فى سلام وللبشرية ان تكون سعيدة .

وليكافح جميع رعاياى من اجل التمسك بهذا المرسوم الى الابد .

بأمر من الامبراطور .

وكان مجموع تلك " المراسيم الامبراطورية " ستة :

" مرسوم ارتقاء العرش " الصادر فى ١ مارس ١٩٣٤ ؛

" المرسوم التذكيرى بمناسبة عودة الامبراطور " الصادر فى ٢ مايو ١٩٣٥ ؛

" مرسوم ترسيخ قاعدة الوطن " الصادر فى ١٥ يوليو ١٩٤٠ ؛

" المرسوم حول الوضع الراهن " الصادر فى ٨ ديسمبر ١٩٤١ ؛

" المرسوم حول الذكرى السنوية العاشرة لتأسيس الوطن " الصادر فى ١ مارس ١٩٤٢ ؛

" مرسوم التنازل " الصادر فى ١٥ اغسطس ١٩٤٥ .

واستبدل بـ " مرسوم ارتقاء العرش " " المرسوم حول الذكرى السنوية

العاشرة لتأسيس الوطن " . و" مرسوم التنازل " الصادر فى ١٥ آب ١٩٤٥ لم يقرأه احد على الاطلاق . وهكذا فان اربعة مراسيم هى التى كانت هامة . وكان على تلاميذ وطلبة المدارس والجنود ان يكونوا قادرين على استظهارها ، وكل من ينسى هذه المراسيم او يكررها على نحو غير ملائم كان يعاقب . وبالاضافة الى كون هذه المراسيم جزءا من الدعاية الاستعبادية التى طبقها اليابانيون فى الشمال الشرقى فقد استخدمت ايضا تسويغا قانونيا بعيد المدى لقمع جميع اشكال المقاومة . كان ممكنا لأدنى استياء يصدر عن اى مواطن من ابناء الشمال الشرقى من هذه النظم الاستعمارية ان يعرضه للعقوبة .

ولو تتبعنا اصل كل مرسوم من هذه المراسيم لتبين لنا الى اى مدى يمكن ان ينحدر الانسان . ونظرا الى اننى قد ذكرت الطريقة التى صدر بها المرسومان الاوليان ، سأتحدث الآن كيف تم نشر المرسوم الثالث المعنون " مرسوم ترسيخ قاعدة الوطن " .

كنت ذات يوم جالسا فى غرفتى مع يوشيوكا . وكنا نحن الاثنين صامتين لأنه قال الشيء الذى جاء ليقوله ، ولكن نظرا الى انه لم يغادر حزرت ان فى ذهنه امرا آخر هاما . فنهض وخطا الى ناحية من الغرفة فيها تمثال بوذا ، ووقف هناك واخذ يقبع كالخنزير . ثم التفت الى وقال :

" البوذية جاءت من الخارج ، اه ، دين اجنبى . ما دامت اليابان ومنشوريا تشتركان فى نفس الروح ، فمن الواجب ان تكون لهما نفس المعتقدات ، ها ؟ " .

ثم وضح لى ان الامبراطور اليابانى هو سليل الهة الاشراق المشع السماوى (٥) ، وان كل امبراطور هو تجسيد جديد للاله العظيم ، وان جميع اليابانيين الذين ماتوا من اجل الامبراطور سيصبحون هم انفسهم آلهة . ومن خبرتى عرفت ان جيش قواندونغ قد ارسل بذلك تيارا عبر هذا السلك ذى التوتر العالى ، ولكن بعد عبارة يوشيوكا هذه انقطع التيار . وامضيت اياما طويلة

افكر فى هذه الخرافات ، ولكننى لم اتوصل الى معرفة ما ترمى اليه .

كان جيش قواندونغ قد فكر حقا فى شىء ارادنى ان افعله ، ولكن قائده يودا كان منشغل البال فى الهزائم التى لحقت بجنده فى قتال الحدود الذى خاضوه مع الاتحاد السوفياتى والجمهورية الشعبية المنغولية . وقبل عودته الى اليابان معزولا عن منصبه لهذا الاخفاق ، اشار الى انه من اجل " الصداقة اليابانية — المانشوية " ووحدتهما فى الروح يجب ان يكون هناك تطابق دينى بين البلدين ؛ وامل ان افكر فى هذه المسألة .

وكنت دائما اتبع مذعنا تعاليم " امبراطورى الاعلى " ، ولكن فى هذه المرة لم ادر ماذا افعل . فجميع مستشارى القدامى اما انهم غادروا واما انهم نبذوا من اليابانيين ، وازواج شقيقاتى وابناء اشقائى كانوا من ضآلة الخبرة بحيث لا يرجى منهم اية فائدة . فاضطررت الى التفكير فى هذه المشكلة وحدى ، ولكن قبل ان اصل الى نتيجة وصل قائد جيش قواندونغ الجديد ، " السفير " الخامس لدى " امبراطورية منشوريا " ، اوميزو يوشيجيرو ؛ فأخبرنى من خلال يوشيوكا ان دين اليابان هو دين " امبراطورية منشوريا " ، واننى يجب ان ارحب بـ " الهة الاشراق المشع السماوى " ، السلف السماوى للاسرة الامبراطورية اليابانية وان ادخل هذه المعتقدات فى دين " امبراطورية منشوريا " . واضاف انه نظرا الى ان هذه السنة هى الذكرى السنوية الالفين والستمائة للامبراطور جيمو فانها مناسبة رائعة لتقديم الالهة العظيمة الى هذه البلاد . واقترح وجوب ذهابى الى اليابان لأقدم التهانى وارتب الامر .

وسمعت فيما بعد انه كان هناك اختلاف حول ذلك داخل جيش قواندونغ ، اذ ان بعض الضباط ممن خبروا الصين جيدا رأوا ان ذلك سيثير معارضة عنيفة بين اهالى الشمال الشرقى ويزيد من عزلة اليابان . وتقرر فيما بعد انه مع مرور الوقت يمكن لديانة شينتو ان تتغلغل بين الشباب بينما الكبار سيعتادونها شيئا فشيئا . ولكن تنفيذ القرار الخاص بهذه السياسة كان

غير مستحب لدى معظم الخونة الصينيين ، ناهيك عن ابناء الشعب العاديين ، اما انا فقد كان اصعب على كثيرا من سرقة المدفن الشرقى . وكنت قبل ذلك قد منعنى يوشيوكا من تقديم القرابين علانية عند قبور اسلافى الامبراطوريين ، كما دعيت اليوم الى ان اعترف بنفسى سليلا لجد اجنبى . وهذا كان من الصعب جدا احتماله .

وعلى الرغم من ان كل تصرف من تصرفاتى منذ ان استسلمت لضغط اتاجاكى فى ليويشون كان عبارة عن خيانة صريحة لوطنى واسلافى ، الا اننى كنت ابرر لنفسى هذه التصرفات . فقد اعتبرتها اعمال اطاعة بنوية تهدف لاعادة احياء قضية السلف ، واعتبرت ان التنازلات التى قدمتها ليست الا من اجل مكاسب المستقبل . واملت ان تتفهم ارواح اسلافى فى السماء هذا الامر وتحمينى . ولكن اليابانيين يجبروننى الآن على تبديل اسلافى والانتساب لغيرهم . ومن المؤكد ان اجدادى لن يسامحونى على ذلك ابدا .

غير انى تذكرت انه يجب ان اوافق على هذا الاقتراح اذا كنت اريد المحافظة على حياتى وامنى . وحتى فى الوصول الى هذه النتيجة كنت قادرا على تبرئة نفسى : سوف استمر فى تقديم التضحية لأسلافى سرا بينما اعترف علنا بالأسلاف الجدد . فاتخذت قرارى ، وقدمت القرابين لأرواح اجدادى ثم توجهت الى اليابان .

قمت بهذه الرحلة الثانية الى اليابان فى مايو ١٩٤٠ ، ومكثت هناك ثمانية ايام .

وعندما قابلت هيروهيتو القيت خطابا كان قد كتبه لى يوشيوكا . وجوهره اننى رجوت ان يسمح لى بعبادة الهة الاشراق المشع السماوى فى " امبراطورية منشوريا " من اجل " الوحدة التى لا تتجزأ فى القلب والفضيلة " بين البلدين .

فكان جواب الامبراطور اليابانى وجيزا جدا : " اذا كانت هذه هى رغبة جلالتكم ، فعلى ان استجيب لها . "

ثم نهض واقفا واشار الى ثلاثة اشياء موضوعة على طاولة : سيف ومرآة برونزية وقطعة من اليشب متقوسة ، وهى اشياء مقدسة كان الاعتقاد السائد انها تمثل الهة الاشراق المشع السماوى . ولما شرح لى سر هذه الاشياء تذكرت ان مخازن ليوليتشانغ للتحف فى بكين ملأى بأمثالها . فهل هى الاخرى الهة عظيمة ؟ وهل يمكن ان تكون تحفيات مخازن ليوليتشانغ من ضمن اسلافى ؟

وترقرقت عيناى بالدموع وانا فى طريق العودة .

وبوصولى الى تشانغتشون بنيت " معبد التأسيس الوطنى " بجانب قصرى ، واسست " مكتب عبادة " تحت اشراف رئيس اركان جيش قواندونغ السابق هاشيموتو تورانوسيوك . وفى اليوم الاول والخامس عشر من كل شهر كنت اقود قائد جيش قواندونغ والموظفين العملاء للذهاب وتقديم القرابين عند المعبد . وفيما بعد بنيت معابد كهذا المعبد فى كافة انحاء الشمال الشرقى ، وقدمت القرابين هناك فى المواقيت المحددة . وكان كل من يمر بأحد هذه المعابد عليه ان ينحنى انحناءة بتسعين درجة ، والا عوقب على " عدم الاحترام " . ونتيجة ذلك اصبحت الاماكن التى بنيت فيها تلك المعابد مهجورة .

وحاول جيش قواندونغ اغوائى بارتداء اغرب الملابس لتأدية هذه الشعائر ، ولكننى عارضت هذا الأقتراح بقولى ان الوقت الآن وقت حرب ، وان من الافضل ان ألبس البزة العسكرية وعليها النياشين اليابانية لأظهر تصميمى على دعم حليفتى اليابان .

وكنت دائما اسجد لأسلافى فى البيت قبل الذهاب الى المعبد ، وعندما كنت اركع لمذبح الهة الاشراق المشع السماوى عند المعبد كنت اقول فى نفسى : " اننى لست راكعا لذلك المذبح بل لقصر السلام الارضى (كون نينغ قونغ) فى بكين . "

واصدرت وسط احتقار شعب الشمال الشرقى لى وشتمهم اياى " مرسوم ترسيخ قاعدة الوطن " . وهذا المرسوم لم يكتبه تشنغ شياو شيوى (الذى

مات منذ سنتين) بل يابانى مختص باللغة الصينية يدعى ساتو تومو ياسو ، فوضه بذلك " مكتب الشؤون العامة لمجلس الدولة " . وكان نص المرسوم كما يلى :

حيث اننى اعمل باحترام على انشاء معبد التأسيس الوطنى لكى نرسخ بذلك قاعدة الوطن الى الابد وننشر مبادئ الوطن الى ما لا نهاية فاننى اصدر لكم هذا المرسوم ايها الرعية .

منذ بدء دولتنا اصبح اساس وطننا اقوى ومكانته اعظم . انه يتمتع بحكومة مرموقة تتحسن يوما بعد يوم . وعندما تأملنا فى هذا الانجاز العظيم ونظرنا الى مصدره ، وجدنا ان فضل ذلك كله يرجع الى البركة الالهية لالهة الاشراق المشع السماوى وحماية صاحب الجلالة امبراطور اليابان . لذلك قمت شخصيا بزيارة البيت الامبراطورى اليابانى ، ولكى نعبر عن تشكراتنا القلبية وامتناننا العظيم اصدرت مرسوما اليكم ايها الرعية لآمركم ان نكون على فضيلة واحدة وتفكير واحد مع اليابان . ومعنى هذا عميق جدا .

لقد كان الهدف من رحلتى الاخيرة الى الشرق هو الاحتفال بالذكرى السنوية الألفين والستمائة للامبراطور جيمو والقيام بعبادة الالهة الجليلة شخصيا . و بمناسبة عودتى الميمونة الى بلادنا فقد اسست على نحو مهيب معبد التأسيس الوطنى لنقدم فيه القرابين الى الهة الاشراق المشع السماوى . وسأصلى انا شخصيا ، وبأسمى آيات التبجيل ، من اجل ازدهار الوطن ؛ وسنجعل هذا مثالا ابديا يتبعه ابناؤنا واحفادنا الى الابد . وهكذا يمكن لأساس الوطن ان يترسخ من خلال تبجيل سبيل الآلهة (٦) ، كما يمكن لمبادئ الوطن ان تؤسس على تعليم الولاء والطاعة البنوية . وهذه الارض الآمنة بما فيها من خير وحب والمهذبة بالوئام ستكون نقية ومشرقة وستكون ضامنة للبركة السماوية .

وليفهم رعايانا جميعا مقصدى من ذلك . قووا القاعدة وانشروا المبادئ ؛ كافحوا لتنفيذ ذلك الى ما لا نهاية ، ولا توقفوا جهودكم الرامية الى جعل البلاد قوية .

بأمر من الامبراطور .

واصبحت منذ ذلك الوقت فصاعدا عبارتا التملق " البركة الالهية لالهة الاشراق المشع السماوى " و" حماية صاحب الجلالة امبراطور اليابان " جزءا اساسيا فى جميع المراسيم .

بذل جيش قواندونغ جهودا كبيرة لتهيئتى انا والوزراء العملاء لاستقبال " سبيل الآلهة " (شينتو) ، وزودونى بخبير شهير فى ديانة شينتو ليعلمنى . وكانت المواد التعليمية التى استخدمها غريبة للغاية ، احدها كان لفيفة عليها صورة شجرة . وقال لى ان اصل هذه الشجرة هو شينتو ، بينما الفروع هى جميع الديانات الاخرى فى العالم ؛ وبكلمة اخرى فانها تفرعت عن شينتو . وكان من الصعب على انا والوزراء العملاء ألا نضحك او ننام خلال تلك المحاضرات .

وعندما اعلنت اليابان الحرب على امريكا وبريطانيا فى ٨ ديسمبر ١٩٤١ جعل جيش قواندونغ " امبراطورية منشوريا " تصدر " مرسوما حول الوضع الراهن " ، اعلنت فيه دعمى لاعلان اليابان الحرب وطلبت من " رعيتى " ان يبذلوا اقصى ما يستطيعون للمساعدة فى المجهود الحربى اليابانى . وكانت المراسيم السابقة تصدر عن " مجلس الدولة " ، ولكن فى هذه المرة عقد اجتماع خاص لـ " المجلس الامبراطورى " مساء ٨ ديسمبر ١٩٤١ ، جعلنى يوشيوكا اقرأ المرسوم فيه بنفسى .

وكلما جاء قائد جيش قواندونغ لزيارتى كنت افتح فمى واطلق مثل هذه العبارة : " ان اليابان و 'امبراطورية منشوريا' واحد لا يتجزأ ، وانهما يعيشان او يموتان معا ؛ اننى مصمم على ان اخصص قوة هذا الوطن بكاملها للنضال من اجل انتصار الحرب المقدسة فى شرقى آسيا العظمى ومن اجل منطقة الازدهار المشترك فى شرقى آسيا العظمى بقيادة اليابان . "

وقام توجو هيدميتشى ، رئيس وزراء اليابان ورئيس اركان جيش قواندونغ السابق ، بزيارة خاطفة الى " امبراطورية منشوريا " عام ١٩٤٢ . وعندما

قابلته اندفعت مباشرة اقول " يمكن لسعادتكم ان تكون على يقين بأنني سأخصص موارد امبراطورية منشوريا بكاملها لدعم الحرب المقدسة التى تخوضها دولتنا الابوية اليابان . "

وفى وقت زيارة توجو كانت اليابان قد تحولت من " حايف " الى " دولة ابوية " . وهذا الاذلال الجديد قد قدم فى " المرسوم حول الذكرى السنوية العاشرة لتأسيس الوطن " . قد قال لى يوشيوكا عشية هذه الذكرى التى وقعت فى مارس ١٩٤٢ : " لا يمكن ان تكون هناك امبراطورية منشوريا من دون اليابان ، اه ، لذلك يجب ان تعتبر اليابان ابا لامبراطورية منشوريا . لذلك ، اه ، على امبراطورية منشوريا ألا تدعو اليابان حايفا او صديقا كما تفعل بقية الدول ؛ يجب ان تشير الى اليابان على انها دولة ابوية . " وفى الوقت نفسه كان الرئيس اليابانى لـ " مكتب الشؤون العامة لمجلس الدولة " يتحدث حديثا مشابها مع الوزراء العملاء . وبعد هذا صدر " المرسوم حول الذكرى السنوية العاشرة لتأسيس الوطن " . ومنذ اعلان هذا "المرسوم" واليابان يشار اليها على انها " دولة ابوية " .

وفى عام ١٩٤٤ عندما اصبح واضحا بما فيه المزيد ان اليابان فى طريقها الى ان تخسر الحرب ، بل استطعت انا ان الاحظ ان جنودها سيبادون قريبا ، جاء يوشيوكا ليرجونى ان اتبرع بالمواد ، لاسيما المعدنية ، للمجهود الحربى ليكون ذلك مثلا للآخرين . فقدمت تلقائيا اضافة الى قيامى بذلك مقدارا من الذهب والفضة والمجوهرات الى جيش قواندونغ . وفيما بعد قدمت لهم السجاجيد المفروشة داخل القصر ومئات القطع من الثياب . وقد اعلنت تبرعاتى هذه على نطاق واسع مما سهل مهمة السلب على الموظفين اليابانيين الذين ارسلوا مقادير ضخمة من البضائع ، تشمل ٣٠٠ الف طن من الرز الى اليابان فى الاشهر الاخيرة من الحرب .

حياة البيت

لما لم يكن مسموحا لى بأن ألعب اى دور فى السياسة ، او اخرج من القصر كما اشاء ، او ارسل فى طلب " وزرائى " لأستشيرهم ، لم يبق امامى ما افعله عندما لم يكن جيش قواندونغ يرسل الى تيارا ما . فتعودت اليقظة فى الحادية عشرة قبل الظهر والنوم بعد نصف الليل ، واحيانا اتأخر حتى الساعة الثالثة بعد نصف الليل . وكنت اتناول وجبتين يوميا : الفطور ما بين الظهيرة والساعة الواحدة ، والعشاء ما بين التاسعة والحادية عشرة ليلا ، او حتى بعد ذلك . وكنت آخذ قيلولة من الساعة الرابعة بعد الظهر حتى الخامسة او السادسة . وفيما عدا الاكل والنوم فان حياتى يمكن ان تلخص الى مزيج من الضرب والشتم والعرافة والتداوى والخوف .

وكانت جميع هذه العناصر متداخلة . ونظرا الى ان علامات انهيار اليابانيين اصبحت اكثر وضوحا ، فقد اصبحت اكثر فأكثر خوفا من ان يقتلنى اليابانيون ليوقفونى عن التكلم فيما بعد . لذلك اخذت اتملقهم وازداد اقترابا منهم ، بينما رحت اضرب واشتم من فى البيت حيث ازداد طبعى عنفا . واصبحت اكثر فأكثر تعلقا بالخرافة ؛ آكل الطعام النباتى ، واردد النصوص البوذية المقدسة ، وألجأ الى الاستخارة وانشد الحماية من بوذا والآلهة . واصبحت صحتى التى كانت قد تدهورت اكثر بؤسا بسبب هذه الحياة المتوترة المضطربة التى كنت اعيشها ، لذلك كنت اتناول الدواء والحقن فى يأس .

وعاودتنى نزعة القسوة والريبة التى كنت اعانى منها خلال سنواتى فى المدينة المحرمة ، والتى اشتدت فى تيانجين ، حيث وضعت هذه المجموعة من الانظمة الداخلية للخدم :

١ـ تمنع المحادثات غير المسؤولة تجنبا للمكايد .

٢ـ غير مسموح لكم بالدفاع او التغطية على بعضكم .

٣ـ يمنع الاختلاس والاستغلال ؛

٤ـ عندما يتصرف زملاؤكم تصرفا خاطئا عليكم ان تبلغوا عن ذلك فورا .

٥ـ الخدم الكبار يجب ان يضربوا من هم دونهم مرتبة فور اكتشافهم انهم ارتكبوا خطأ .

تزاد شدة العقوبة درجة اخرى اذا كان هناك ادنى توان فى الالتزام بهذه الانظمة .

بعد انتقالى الى الشمال الشرقى جعلت خدمى يأخذون على انفسهم العهد التالى : " لتعاقبنا السماء ويصعقنا الرعد اذا نحن خالفنا هذه الانظمة . "

ثم ازددت شراسة فصرت اضرب الخدم دائما ، بل واستخدمت معهم ادوات التعذيب . وكانت هناك صنوف مختلفة للضرب ، وكنت اجلب جلادين لهم خبرة بالتعذيب . كما كنت اكلف بهذه المهمة اى فرد من افراد البيت الحاضرين وآمرهم ان يجلدوهم بشدة ، والا شككت فى انهم متآمرون معهم . واذا حدث هذا فانهم يجدون انفسهم تحت الهراوات .

وكان ضحاياى فى هذه الحالة هم كل فرد فى البيت تقريبا باستثناء زوجتى واشقائى وازواج شقيقاتى . وكان فى تلك الايام عدد من ابناء اشقائى يدرسون فى القصر . وقد تعودوا ملازمتى والتحدث معى والقيام بخدمتى . وكنت اربيهم ليصبحوا اقربائى الموثوقين ، ولكن هذا لم ينقذهم من التوبيخ والضرب . واكثر الكلمات التى كانوا يخافون سماعها منى هى " خذه الى الطابق الاسفل " ، لأن ذلك يعنى انه سيؤخذ الى الجلد .

وتصرفاتى هذه كانت تظهر مدى القسوة والجنون والعنف والاضطراب الذى كنت متصفا به .

اصبت بالبواسير وانا فى تشانغتشون . وعندما لاحظ احد ابناء اشقائى الصغار الدواء الذى كنت استخدمه قال من دون تفكير ان ذلك الدواء

يشبه الرصاص . فكان هذا خرقا لأحد محظوراتى : هل قصد انه يريدنى ان اضرب بالرصاص ؟ وبناء على امرى ضربه ابن عمه بالعصا .

واكثر الضحايا تعاسة كانوا من الخدم الغلمان . وكان عندى مجموعة منهم ، وقد جيء بهم من ملجأ ايتام فى تشانغتشون . ومعظمهم ممن قتل اباؤهم على يد اليابانيين .

وخوفا من ان يكبروا وتنشأ عندهم الرغبة فى الانتقام قد اجبر اليابانيون الحكومة العميلة على وضعهم فى ملجأ للأيتام ، بعد تبديل اسمائهم وتعليمهم ان يكونوا عبيدا وارهاقهم بالأعمال الثقيلة . وكان بعضهم مفعما بالأمل عندما علم انه سيجلب الى القصر ، ظانا ان الحياة ستكون افضل مما هى عليه فى ملجأ الايتام . ولكن تبين انها اسوأ بكثير . لقد كانوا يأكلون الذرة الرفيعة من ادنى الدرجات ويلبسون ثيابا بالية ، ويعملون خمس عشرة او ست عشرة ساعة فى اليوم ، واحيانا يلزمون بالسهر فى الخدمة طوال الليل ايضا . وفى الشتاء كانوا يعانون من شدة التعب والبرد والجوع بحيث يأخذهم النعاس فينامون احيانا متكئين على اجهزة التدفئة المركزية فيما هم يعملون ثم يستيقظون وقد ملئت اجسامهم بالحروق . وكانوا يضربون على الدوام لنومهم فى العمل ، او لعدم التكنيس جيدا ، او لتكلمهم بصوت عال او عندما يكون المساعدون الشخصيون فى حالة نفسية سيئة يصبون جام غضبهم على الغلمان الذين هم تحت مسؤوليتهم ، وكانوا احيانا يحجزونهم فى قبو معزول . وقد عرقلت هذه الحياة التعيسة نموهم فكانوا يبدون وهم فى سن السابعة عشرة او الثامنة عشرة قماء كأنهم ابناء عشر سنين .

وحدث لأحدهم ويدعى سون بوه يوان ، ان حاول الهرب عندما وجد الحياة داخل القصر لا تطاق ، فقبض عليه وضرب بوحشية . ثم حاول مرة اخرى الخروج من نفق التدفئة المركزية ، وبعد ان زحف فى داخله مدة يومين لم يجد مخرجا . واضطر بعد ان انهكه الجوع والعطش الى

الخروج ليحصل على شربة ماء فألقى القبض عليه . وعندما اخبرني بذلك المساعدون امرتهم : " اعطوه شيئا يأكله ومن ثم لقنوه درسا جيدا . " ولكن قبل ان يعطى " درسا جيدا " ظل يضرب حتى اوشك على الموت . وبلغني ذلك فأفزعني بشدة ، حيث خشيت ان يتحول الى شبح وينتزع حياتي انتقاما ، لذلك اصدرت اوامري باستدعاء طبيب لانقاذه . ولكن فات الأوان .

وامضيت عدة ايام بعد ذلك اركع واتلو مقاطع من النصوص المقدسة امام مذبح بوذا ، واصلي لروحه كي تعبر الى العالم الآخر بأمان ، على امل ان اتجنب بذلك العقاب . وامرت ان يقوم المساعدون الذين ضربوه بضرب راحات ايديهم بمساطر من الخيزران يوميا لمدة ستة اشهر تكفيرا عن ذلك ، وكأن هذه الاجراءات سترفع عني مسؤولية قتله كاملة . وازدادت قسوتي على الخدم بعد ذلك الى حد الافراط بسبب حالتي المتوترة .

واخذت الاحتياطات الشديدة لأتأكد من انني لم اخدع بفن (فلس) واحد عندما يقوم الخدم في المطبخ بشراء الخضار فكنت ابعث جواسيس عليهم عند التسوق ، واسأل شقيقاتي عن اسعار لحم الخنزير والدجاج . وكان الطهاة يغرمون اذا لم يلائم الطبخ ذوقي او اذا وجدت فيه وسخا . وبالطبع كانوا يكافأون احيانا اذا سرني الطعام . هكذا بينما انا عاجز في الخارج كنت اتمتع بالسلطة المطلقة داخل بيتي .

في اواخر ايام " امبراطورية منشوريا " اصبحت هزيمة اليابان المنتظرة اكثر فأكثر وضوحا . وعززت اخبار الاذاعات المتحالفة وهبوط معنويات يوشيوكا شعوري بأن هذه هي نهاية فترتنا . واصبح طبعي اسوأ من ذي قبل ، واخذت اتصرف بمزيد من الشراسة في البيت . حتى وقع احد افراد عشيرتي الكبار الذي جاء ليهنئني بعيد ميلادي في اوائل عام ١٩٤٤ موضوعا لولعي في فرض سيطرتي على من حولي .

كان ذلك حينما نظم عرض للتزحلق داخل القصر للاحتفال بعيد ميلادى ، وكان قريبى هذا حاضرا فحيا بعض الضباط اليابانيين فى حضرتى بكل ادب . وهذا التصرف الذى يبدو واضحا انه خال من اى اساءة ، قد بلغنى به احد ابناء اشقائى عند المأدبة التى اقيمت بعد العرض ، لأن تقديم الإحترامات لأى شخص آخر فى حضور " ابن السماء " كان ممنوعا داخل القصر ، وقد تعلم ان مهمته هى التبليغ عن مثل هذه التصرفات . ونظرا الى اننى كنت منشرح الاسارير فى ذلك الوقت ولأن المذنب من جيل يكبرنى ، فقد تجاوزت هذه المسألة . ولكن الرجل كان من الفضول بحيث سأل ابن شقيقى عما همسه فى اذنى . وكان هذا التصرف الثانى دليلا اكبر على " عدم الاحترام " لا يمكن احتماله ، فانفجرت غاضبا وصحت به ضاربا على الطاولة . فشحب وجهه رعبا ، وجثا على الارض وسجد لى . ولكننى لم اهدأ ، فغادرت مقعدى متهما اياه بعدم الوفاء ليس لى فحسب بل لأسلافنا الامبراطوريين ايضا . وخيم الصمت على المجلس بكامله . ورأيت لغرورى ان هذا العجوز اسوأ من اليابانيين الذين كانوا على الاقل غير متسمين بالفظاظة مطلقا فى تعاملهم معى امام الناس .

اثناء وجودى فى تشانغتشون قرأت كمية ضخمة من الكتب الخرافية ، واصبحت شغوفا بها . ومما قرأته ان جوهر بوذا يحل فى جميع الكائنات الحية وجعلنى ذلك اخشى ان يكون اللحم الذى آكله تقمصا لبعض اقربائى . لذلك كنت الى جانب ما اتلوه من النصوص البوذية صباحا ومساء اقرأ كذلك صلواتى قبل كل وجبة من اجل التقمص الافضل لروح الحيوان الذى سآكل لحمه . وكنت فى البداية اتلو ذلك فى نفسى بصمت امام اى شخص آخر ، ولكننى فيما بعد اصبحت اطلب من الآخرين جميعا ان يغادروا الغرفة الى ان انتهى من تلاوة الصلاة ، وعندها فقط اسمح لهم بالعودة الى الغرفة . واذكر مرة اننى سجدت لبيضة ثلاث مرات فى ملجأ الغارة الجوية

التابع للقصر قبل ان آكلها . وفى ذلك الوقت كنت آكل الطعام النباتى فقط .

ولم اكن اسمح بقتل الذباب ، مصرا على الاكتفاء بطرده . ولما عرفت ان الذباب يحمل الجراثيم التى تسبب الامراض ، صرت لا آكل قط اى طعام تلمسه ذبابة . واذا ما حطت ذبابة على شفتى كنت امسح الموقع الذى وقفت فيه بقطعة من القطن مبللة بالكحول من علبة كنت احملها دائما ، واذا ما وجدت ساق ذبابة فى طعامى كنت اغرم الطباخ . ولكن على الرغم من هذا كله لم اسمح لأحد بقتل ولو ذبابة واحدة . وذات مرة عندما رأيت قطة تمسك فأرا امرت جميع الخدم بمطاردة القطة لانقاذ حياة الفأر .

وكلما اكثرت من قراءة الكتب البوذية ازددت اعتقادا بها ، وكانت احلامى بزيارة العالم الاسفل تقوى هذا الاعتقاد . لقد قرأت مرة انك اذا تلوت النصوص المقدسة طوال عدة ايام ، فان بوذا سيظهر وسيطلب شيئا يأكله . لذلك اعددت غرفة ، وبعد ان قرأت النصوص اعلنت لكل واحد ان "بوذا قد جاء" وزحفت الى الغرفة على ركبتى . وكانت الغرفة بالطبع فارغة ، ولكننى كنت ارتجف خوفا وانا ساجد الى لا شيء .

وبتأثير منى بدأ اهل البيت بكامله ترتيل النصوص البوذية ، على حين يضج الفناء بدوى الطبل الخشبى والصنج النحاسى . وبدا القصر كأنما اصبح معبدا .

وواصلت نشاطى القديم فى اللجوء الى الاستخارة ، وكنت اكرر القيام بالعرافة الى ان احصل على بشارة خير . وعندما كنت خائفا من ان يقدم جيش قواندونغ على قتلى ، تعودت ان استخير كلما زارنى يوشيوكا . واصبح تجنب الكارثة وجلب الحظ السعيد الفكرة الموجهة لكل تصرفاتى . وانتهيت الى ان اسأل نفسى اى مكان واى ثوب واى طعام هو الملائم والمبشر بالخير ، وايها الباعث على التشاؤم . ولم يكن هناك مقياس ثابت للاجابة من خلاله

عن هذه الاسئلة . فاذا كنت ماشيا فى طريق ورأيت امامى آجرة اتخذت بشأن ذلك حكما : " اذا انا مررت من الجانب الايسر فهذا فأل خير ، واذا انا مررت بها من الجانب الايمن فذلك نذير شؤم . " وعندئذ امر بها من الجانب الايسر . ويمكن ان اضرب امثالا اخرى كثيرة ، مثل : أ يعبر المرء العتبة بقدمه اليمنى او اليسرى اولا ، وأ يأكل شيئا ابيض قبل شيء اخضر ام العكس . وكانت وان رونغ منهمكة بذلك مثلى ، وقد اتخذت لنفسها قاعدة بأنها كلما واجهت شيئا مشؤوما فعليها ان ترمش او تبصق . واصبحت هذه عادة بالنسبة لها بحيث اخذت ترمش وتبصق فى غيرما سبب يدعو الى ذلك ، كأنما كانت تعانى من مرض عقلى . وتحول ابناء اشقائى جميعا وهم فيما يقارب العشرين من العمر الى شبه مترهبين تحت ارشادى . كان بعضهم يستغرق فى التأمل كل يوم ، وبعضهم لا يعود الى البيت مساء على الرغم من انه حديث عهد بالزواج ، وبعضهم كان يعلق صور هياكل عظمية فوق سريره ، وبعضهم يرتل الصلوات طوال اليوم يتمتم بالتعاويذ كأنما يرى اشباحا .

واعتدت ان استغرق فى " التأمل " كل يوم وامنع خلال ذلك جميع الاصوات بما فيها اللهاث . وكنت محتفظا بكركى فى الفناء ، وقد تجاهل الكركى هذه القاعدة فكان يصيح متى استهواه ذلك . فجعلت الغلمان مسؤولين عن ذلك ، وفرضت عليهم غرامة قدرها خمسون فنا كلما احدث الكركى ضجة . وبعد ان فقد الغلمان كثيرا من اليوانات بهذه الطريقة وجدوا طريقة لاسكات هذا الطير : كلما مد عنقه ضربوه ، فاحتفظ الكركى بعدها بالصمت :

وبسبب رعبى من الموت كنت شديد الخوف من المرض . واصبحت مدمنا على الدواء ، مسببا لنفسى وكذلك لأهل بيتى كثيرا من المتاعب . فقد تعودت جمع الادوية : فكان عندى مخزن للدواء الصينى التقليدى وصيدلية

للعقاقير الحديثة ، وانفقت آلافا بل عشرات الآلاف من اليوانات على استيراد العقاقير من الخارج ولو انى لم استخدمها قط . وكان عدد من ابناء اشقائى يضطرون الى تمضية الوقت عندما لا تكون لديهم دراسة فى الاعتناء بجميع هذه الادوية ، وكانوا هم وطبيبى الشخصى مشغولين فى اعطائى حقنا لعدة ساعات كل يوم .

عندما كنت مقيما فى المدينة المحرمة كنت كثيرا ما اعانى من امراض تخيلية ، ولكننى الآن مريض حقا . لقد قمت ذات مرة بـ " جولة امبراطورية " الى آندونغ لزيارة محطة كهرمائية بناها اليابانيون حديثا . وعندما وصلت الى هناك تحاملت على نفسى حتى ابقى ثابتا منتصبا امام اليابانيين حيث اننى ارتدى بزة عسكرية . وقبل ان امشى مسافة طويلة اخذت ألهث ، ولدى عودتى كدت افقد الوعى . وجعلنى ضعفى الجسمانى واضطرابى العقلى اخاف من ان اكون قد اصبحت على حافة القبر .

ذات يوم رأيت العبارة التالية مكتوبة بالطباشير على سور القصر : " أ لم تحصل على التحقير الكافى من اليابانيين ؟ " فنسيت كل شيء بخصوص لعبة التنس التى كنت خارجا من اجلها ، واصدرت اوامر بمسحها على الفور . وعدت الى غرفة نومى ، وقلبى يخفق شاعرا بمنتهى الضعف الذى لا امل معه بالبقاء . وذعرت من ان يكتشف اليابانيون ذلك ويقوموا بحملة استقصاء فى بيتى واسعة النطاق ، ولم ادر الى ماذا يمكن ان يؤدى هذا الامر . وذعرت اكثر فأكثر من اكتشاف ان هناك " عناصر معادية لامبراطورية منشوريا ومعادية لليابانيين " داخل بلاطى . اذا هو تجرأ على كتابة ذلك على السور ، فما الذى يوقفه عن قتلى ؟

ونظرا الى شدة اضطرابى وذعرى طوال النهار اصبحت اقل اهتماما بحياتى العائلية . لقد تزوجت اربع زوجات ، او ، لكى استخدم المصطلحات التى كانت متداولة حينذاك ، كانت لى امبراطورة وزوجة وزوجتان ادنى

مرتبة . ولكنهن فى الواقع لم يكن زوجات حقيقيات ، بل لمجرد العرض . ومع انني عاملتهن على نحو مختلف الا انهن جميعا كن من ضحاياى .

ان خبرات وان رونغ التى اهملت فترة طويلة سيكون من المتعذر ادراكها بالنسبة لفتاة صينية حديثة . ومع ان مصيرها لم يكن محددا منذ ولادتها ، فان نهايتها المحتومة تحددت منذ لحظة زواجها بى . كثيرا ما فكرت لو انها طلقتنى فى تيانجين كما فعلت ون شيو فاربما كان بوسعها ان تنجو . ولكنها حينذاك كانت مختلفة تماما عن ون شيو . فبالنسبة لون شيو كانت الحياة العائلية العادية اهم من المنزلة العالية والاخلاق الاقطاعية . ولكن وان رونغ علقت اهمية عظيمة على مركزها كـ " امبراطورة " ، وكانت على استعداد لأن تصبح زوجة اسميا من اجل المركز فقط .

بعد ان طردت ون شيو من قبل وان رونغ شعرت نحوها باشمئزاز ، ولم اعد احدثها كثيرا او اوليها ادنى اهتمام . لذلك لم تطلعنى على مشاعرها او آمالها واحزانها مطلقا ؛ وكل ما عرفته انها اصبحت مدمنة افيون وتتصرف بطريقة لا تليق بنا . وعندما افترق بنا السبيل بعد استسلام اليابانيين ، كان ادمانها الافيون قد تفاقم وكانت فى منتهى الضعف ؛ وقد ماتت فى السنة التالية فى جيلين .

عام ١٩٣٧ اخترت ضحية جديدة تدعى تان يوى لينغ معاقبة لوان رونغ ولأن زوجة ثانية كانت قطعة ضرورية من اثاث القصر . وقد رشحها قريب لى فى بكين ، فأصبحت زوجة من المرتبة الادنى وكانت من عشيرة تاتالا المانشوية القديمة ، وكانت طالبة مدرسة عندما تزوجتها وهى فى سن السابعة عشرة . وهى كذلك كانت زوجة بالاسم ، وقد احتفظت بها فى القصر كما احتفظ بطير الى ان ماتت عام ١٩٤٢ . وسبب موتها ما يزال غامضا بالنسبة لى . لقد كانت تعانى من نوبة تيفوئيد لم تكن مميتة وفقا لرأى الطبيب الصينى الذى رآها . وحينذاك قال يوشيوكا انه يريد " الاعتناء "

بها فنقلت الى مكتب القصر . وتحت اشراف يوشيوكا ومعالجة طبيب يابانى ماتت فجأة فى اليوم التالى .

وما بدا لى غريبا هو ان الطبيب اليابانى كان شديد العناية بها فى البداية ولكن بعد ان ذهب الى غرفة اخرى ليجرى حديثا مطولا مع يوشيوكا فقد حماسه وتوقف عن اعطائها الحقن وعن نقل الدم اليها . وجعل يوشيوكا رجال الدرك اليابانيين يواصلون الاتصال هاتفيا بالممرضات فى غرفة المريضة طوال الليل للحصول على المعلومات ، وفى الصباح التالى ماتت تان يوى لينغ .

وحالما ابلغت بموتها جاء يوشيوكا ليعبر عن تعازى قائد جيش قواندونغ ، وقدم على الفور اكليلا . فقوت هذه السرعة المذهلة شكوكى طبعا . وتذكرت ان تان يوى لينغ كثيرا ما كانت تحدثنى عن اليابانيين ، وقد عرفت الكثير عن تصرفاتهم جنوب السور العظيم عندما كانت تدرس فى بكين . وكنت قد شككت فى ان يكون اليابانيون قد استرقوا السمع الى محادثتى مع الامير ده ، وموت تان يوى لينغ ذكرنى طبعا بمخاوفى السابقة .

وبعد ذلك مباشرة قويت شكوكى فى ان جيش قواندونغ لا بد ان تكون له علاقة بموتها ، وذلك عندما جلب لى يوشيوكا مجموعة صور لفتيات يابانيات لأختار واحدة منهن .

ورفضت النظر فى مسألة كهذه بينما كانت جثة تان يوى لينغ ما تزال ساخنة . ولكنه اصر على انه يريد ان يرتب هذا الامر لى ليخفف عنى الحزن . فقلت له عند ذلك بأن هذا الامر يجب ألا يكون متعجلا ، ووضحت له ان هناك ، بالاضافة الى ذلك ، حاجز اللغة .

” ستكونان قادرين على فهم بعضكما بعضا ، اه . وهى ستكون قادرة على التكلم باللغة المانشوية . “

فأسرعت اوضح له ان المسألة ليست مسألة عرق ، بل اننى مضطر لأن اجد فتاة ملائمة لى فى ذوقها وعاداتها فى المعيشة . ولم اتجرأ على اية

حال ان اتكلم كثيرا حول رفض الاقتران بزوجة يابانية .

وبدا " الملحق بالبيت الامبراطورى" متمسكا بى حقا ، وظل يلاحقنى بهذا الموضوع يوما بعد يوم . وفى النهاية ادرك اننى عنيد — او ربما غير جيش قواندونغ رأيه ، فأخرج لى صورا لفتيات صينيات من مدرسة يابانية فى ليويشون . ومع ان اختى الثانية حذرتنى من ان هؤلاء الفتيات جميعا قد اشربن الروح اليابانية الى درجة ان اصبحن مثل يابانيات فى الواقع ، الا اننى شعرت بعدم القدرة على قطع الصلة بجيش قواندونغ الى الاخير . فاخترت فتاة صغيرة لم تتعلم الشيء الكثير ، ظانا اننى سأكون قادرا على معالجتها حتى وان كانت قد دربت على يد اليابانيين .

وهكذا اصبحت طالبة مدرسة فى الخامسة عشرة من عمرها ضحية رابعة لى بصفة زوجة من المرتبة الادنى . ولكن بعد سنتين من وصولها انهارت " امبراطورية منشوريا " ، فأعيدت الى بيتها .

الانهيار

بينما كنت فى سجن مجرمى الحرب اخبرنى قائد لواء سابق فى " امبراطورية منشوريا " انه قاد فى الشتاء الذى اندلعت فيه حرب الباسيفيك فصيلا من الجنود العملاء لمهاجمة بعض القوات المعادية لليابانيين بموجب امر من جيش قواندونغ . وقام رجاله بتفتيش فى الغابات ، فلم يجدوا الا مقاتلا مريضا من المعادين لليابانيين منزويا فى مخبأ . وكانت ملابس هذا الرجل رثة بالية وشعره اشعث بحيث بدا كأنه فى السجن منذ سنين . ولدى رؤيته قال له قائد اللواء :

— من الحالة التى انت فيها يتضح ان جماعتك لا يمكن ان تحقق شيئا . ألا تدرى ان الجيش اليابانى الامبراطورى قد احتل هونغ كونغ

وسينغافورة ؟

فانفجر الاسير بالضحك . فضرب اللواء المانشوى العميل الطاولة بيده وقال :

ـ علام تضحك ؟ ألا ترى انك قيد المحاكمة ؟

ـ من هو قيد المحاكمة ؟ ان نهايتكم قريبة ولن يمضى وقت طويل حتى يحاسبكم الشعب .

وكان جميع الضباط والموظفين المدنيين العملاء يعرفون ان الشعب فى الشمال الشرقى يكرههم ويكره اليابانيين اشد الكراهية ، ولكنهم لم يستطيعوا فهم السبب الذى جعل الشعب يتحلى بهذه الشجاعة وهذه الثقة العظيمة بالنفس او السبب الذى جعله متأكدا تمام التأكيد من ان حكامه الاقوياء محكوم عليهم بالهلاك . وكنت دائما اعتبر قوة الامبريالية اليابانية راسخة ومنقطعة النظير . ولم افكر حتى فى ان امبراطورية تشينغ العظيمة او جمهورية الصين ، سواء حكمها امراء الحرب من زمرة بييانغ او الكومينتانغ ، يمكن ان تكون ندا لليابان ؛ والشعب العادى لم يدخل فى حسابى مطلقا .

ومع ان حقائق لا يحصى عددها كان يجب ان تعلمنى من القوى حقا ومن الضعيف ، الا اننى بقيت غافلا عن ذلك تماما الى ان كشفه يوشيوكا لى . وحتى حينذاك لم افهم الا على نحو غامض .

ذات سنة كانت " الجولة الامبراطورية " السنوية التى يرتبها لى جيش قواندونغ الى منطقة يانجى التى يسكنها ، رئيسيا ، ابناء القومية الكورية . وعندما وصل قطارى الى هناك وجدت اننى محاط بأعداد ضخمة من رجال الدرك اليابانيين وبست كتائب من الجنود العملاء . وعندما سألت يوشيوكا عن سبب وجودهم هناك اجاب :

ـ للاحتراس من قطاع الطرق .

ـ لماذا كل هذه الاعداد الكبيرة من الجند للاحتراس من قطاع

الطرق ؟

ـ قطاع الطرق هؤلاء ليسوا من الطراز القديم ؛ انهم الجيش الشيوعي .

— كيف يكون لدى امبراطورية منشوريا قوات شيوعية ايضا؟ أليست الجيوش الشيوعية لدى جمهورية الصين ؟

— اجل ، يوجد هنا بعض الشيوعيين . . . ولكنهم قليلون جدا ؛

وغير يوشيوكا الموضوع حينذاك .

وفي مناسبة اخرى ، عندما كان احد ضباط اركان جيش قواندونغ يعد تقاريره المنتظمة عن الوضع العسكري قام بنشر اعلان خاص عن الانتصار . وفي هذه الحملة ضحى القائد المعادي لليابانيين الجنرال يانغ جينغ يوي بحياته . وقد اخبرني ضابط الاركان بنشوة كبيرة ان موت الجنرال يانغ قد ازال " تهديدا كبيرا لامبراطورية منشوريا " . وكلمتا " تهديد كبير" دفعتاني الى السؤال عن عدد قطاع الطرق الذين هم داخل " امبراطورية منشوريا " . فأجابني نفس الجواب الذي قدمه يوشيوكا : " قليلين جدا ، قليلين جدا . "

وفي عام ١٩٤٢ شنت القوات اليابانية حملة الاكتساح الكبيرة في شمالي ووسط الصين . وطبقوا في بعض الاماكن سياسة " التدميرات الثلاثة " القائمة على حرق كل شيء وقتل كل واحد وسلب كل شيء مدمرين بذلك بعض النواحي تدميرا تاما . واخبرني يوشيوكا ذات مرة كيف استخدم الجيش الياباني مختلف صنوف التكتيكات ضد " الجيوش الشيوعية " في شمالي الصين ، مثل " التطويقات الحديدية " و" استخدام المشط الدقيق " . " ان التاريخ القتالي للجيش الياباني الامبراطوري قد اثرى على نحو هائل . " وبسماعي هذا الوصف المتبجح سألته :

— ان الجيوش الشيوعية ضئيلة العدد ، فلماذا يحتاج صاحب الجلالة امبراطور اليابان الى استخدام كل هذه التكتيكات الجديدة ؟

فدهشت حين سخر منى قائلا :

ـــ لو كان لجلالتكم الامبراطور خبرة قتالية لما سألت هذا السؤال .

ـــ هل يمكن ان اسأل لماذا ؟

ـــ ان الجيش الشيوعى مختلف عن جيش الكومينتانغ . لا فرق عنده بين الجنود والشعب ، اه . انه مثل ، اه ، الباقلاء اليابسة المختلطة بحصى احمر .

ولما رأى عدم فهمى استخدم المثل الصينى " عيون السمك مختلطة باللآلئ " ليجعلنى افهم حديثه . وقال انه عندما كان الجيش اليابانى يقاتل الجيش الثامن او الجيش الرابع الجديد (٧) كان غالبا ما يجد نفسه مطوقا تماما . وفيما بعد اوضح لى ان الشعب لا يخاف من " الجيوش الشيوعية " اينما اتجهت . واكثر من ذلك ان المقاتل الذى ينضم اليها سنة واحدة لا يخرج منها ابدا ، وهذا ما جعل هذه الجيوش عديمة النظير فى تاريخ الصين . هذه الجيوش آخذة فى الازدياد وسيكون من المتعذر تماما التغلب عليها فى المستقبل . وتنهد وهز رأسه قائلا : " شىء مرعب ، مرعب تماما . " وجعلنى مرأى هذا الضابط من " الجيش اليابانى الامبراطورى " الذى يصف العدو " الضئيل " بهذه العبارات ، جعلنى فى غاية القلق وعدم الارتياح بحيث لم اعرف ماذا اقول . ثم استجمعت قوتى وقلت هذه الملاحظة :

ـــ انهم مخيفين حقا ، ولاسيما الطريقة التى يحرقون بها ويقتلون ويبيحون الممتلكات والزوجات .

فقاطعنى قائلا بفظاظة :

ـــ لا يصدق ذلك الا كل بليد .

وبعد لحظة نظر الى بتعابير ساخرة وقال :

ـــ هذه لم تكن ملاحظة رسمية ؛ يجب ان اطلب من جلالتكم الآن ان تصغوا الى تقرير رئيس اركان جيش قواندونغ .

وادركت تدريجيا ان ملاحظات يوشيوكا غير الرسمية اقرب الى الحقيقة من الاخبار الموجزة الرسمية التى يصرح بها قائد جيش قواندونغ ورئيس اركانه . وعندما بدأ جيش قواندونغ حملة نوماهان عام ١٩٣٩ دعانى قائده يودا مع بعض الموظفين العملاء لمشاهدة عرض لاظهار مدى زيادة سرعة الطائرات اليابانية عن الطائرات السوفياتية . ولكن اليابانيين هزموا فى تلك الحملة هزيمة مدمرة ، فقدوا فيها اكثر من ٥٠ الف جندى ، واقصى يودا عن منصبه . وكانت ملاحظة يوشيوكا غير الرسمية هى ان " المدفعية الثقيلة السوفياتية ابعد مدى من مدفعيتنا بكثير . "

وبينما كنت اصغى الى المذياع فهمت تدريجيا الكثير عن قلق يوشيوكا المخفى . كانت هناك مزيد من الاخبار عن الهزائم العسكرية اليابانية على جميع الجبهات ، وهذه الاخبار اكدتها اخبار " اليشب المحطم " (" التضحيات البطولية ") فى صحافة " امبراطورية منشوريا " . وحتى فى عزلتى استطعت ان ارى ان هناك عجزا فى امدادات المواد . فالنحاس القديم والحديد ، مثل مدقات الابواب والمباصق ، اختفت من القصر ، بينما اصبح موظفو البلاط يعانون عجزا فى الغذاء وطلبوا منى ان امدهم بالعون . وخوفا من ان اعرف مدى بؤس الطعام الذى كان يتناوله الجنود ، دعانى جيش قواندونغ لمشاهدة عرض خاص للمؤن العسكرية ؛ وللتصدى لتأثير الاذاعات الاجنبية ارسلوا الى افلاما للدعاية للانتصارات اليابانية . ولكن لم يصدق هذه الافلام لا انا ولا اصغر واحد من ابناء اشقائى .

والذى ترك فى نفسى اعمق الانطباعات هو الخوف الذى اظهره اليابانيون . فالضابط ياماشيتا تومويوكى الذى اعتز وانتفخ عندما نقل الى جيش قواندونغ بعد الاستيلاء على سنغافورة اصبح رجلا آخر عندما جاء ليستأذننى مودعا لدى ارساله الى جنوب شرقى آسيا عام ١٩٤٥ . فقد قال وهو يبكى مغطيا انفه : " هذا هو فراقنا الاخير . لن اعود ثانية ابدا . "

ورأيت كذلك المزيد من الدموع فى حفل الوداع الذى اقيم لـ " الرصاصات البشرية " . كانت الرصاصات البشرية عبارة عن جنود اختيروا من الجيش اليابانى وكانوا مسممين بالاعتقاد بـ " بوشيدو" والوفاء للامبراطور اليابانى كما انتخبوا لمهمة ايقاف الطائرات والدبابات بأجسامهم . وكان يوشيوكا يتكلم دائما عن افعال كهذه باحترام عظيم . وكان هذا الاحتفال قد خصصه جيش قواندونغ لأشجع الرجال الذين اختيروا " رصاصات بشرية " ولأتمنى لهم النجاح . وكان يوما غائما ، اجتاحته عاصفة هوجاء محملة بالاتربة . وكان فناء القصر اكثر مدعاة للغم بسبب اكياس الرمل التى كانت مركومة فوق بعضها حماية من الغارات الجوية . وقد وقف امامى حوالى بضع عشرة ضحية فى صف واحد ؛ والقيت عليهم الخطاب المفعم بالامانى الطيبة الذى كتبه يوشيوكا ، ثم شربت نخبهم . وعندها فقط رأيت الشحوب الرمادى فى وجوههم والدموع تنحدر على وجناتهم ، وسمعت بعضهم يهتدج .

وانتهى الاحتفال نهاية فوضوية وسط الغبار المحموم ، وفيما هرعت عائدا الى غرفتى لأغسل كان ذهنى فى اضطراب شديد وتبعنى يوشيوكا فعرفت ان لديه شيئا يود ان يقوله لى ، فتمهلت فى سيرى كى يدركنى . فجرد صوته وهمهم وقال :

— لقد تكلمتم يا صاحب الجلالة على نحو جيد واثرتم فى اولئك الجنود تأثيرا عميقا جعلهم يذرفون الدموع اليابانية الرجولية .

فقلت فى نفسى : " انك خائف حقا ، خائف من ان اكون قد اكتشفت حقيقة الرصاصات البشرية . حسنا ، اذا كنت خائفا ، فأنا اكثر منك خوفا . "

ان استسلام المانيا فى مايو ١٩٤٥ جعل اليابانيين فى يأس اشد من السابق ، ولم تعد المسألة الآن الا مسألة وقت حتى يدخل الاتحاد السوفياتى الحرب . بل وايقنت ان مأزق اليابان لا مخرج منه .

واخيرا جاء الانهيار النهائي . ففي صباح ٩ اغسطس ١٩٤٥ اتاني قائد جيش قواندونغ الاخير ياماتا اوتوزو ورئيس اركانه ليبلغاني ان الاتحاد السوفياتي قد اعلن الحرب على اليابان .

كان ياماتا رجلا عجوزا نحيفا قصيرا وكان جادا في تصرفه بطيئا في كلامه . ولكنه اليوم بدا مختلفا تماما ؛ فقد قدم لي وصفا سريعا كيف كان الجنود اليابانيون على اهبة الاستعداد ، واخبرني انهم واثقون بالنصر ثقة تامة . وقبل ان ينهي كلامه سمعنا صفارة الانذار فاختبأنا جميعا في ملجأ . ولم يمض وقت طويل حتى سمعنا قنابل تنفجر قريبا منا ، وفيما رحت اتضرع الى بوذا في سكون ظل هو صامتا . ولم يشر بعد ذلك ثانية الى ثقته بالنصر حتى افترقنا بعد انتهاء الغارة الجوية .

ومنذ تلك الليلة اخذت انام بثيابي التي ألبسها في النهار ، واحتفظ بمسدس في جيبي ، وحددت بنفسي كلمة السر داخل القصر .

وفي اليوم التالي جاء ياماتا ورئيس الاركان ليخبراني بأن الجيش الياباني سينسحب ويبقى محتفظا بجنوبي منشوريا ، لذلك فان " العاصمة " ستنتقل الى تونغهوا ، وان علي ان استعد للانتقال في نفس اليوم . ولما ادركت ان من المستحيل ان انقل بيتي الكبير وجميع ممتلكاتي بهذه السرعة الشديدة ، رجوت ان يؤجل الانتقال ، فظفرت بمهلة يومين .

بدأت الآن اعاني تعذيبا نفسيا جديدا يرجع من جهة الى التغير الكبير في موقف يوشيوكا ، ومن جهة الى شكوكي المرضية . لقد لاحظت التغير في موقف يوشيوكا من ملاحظة ابداها بعد انصراف ياماتا : " اذا لم تذهبوا يا صاحب الجلالة فستكونون اول من يقتل على ايدي الجنود السوفيات . " قال ذلك بطريقة ملؤها الشراسة والفظاظة . وما جعلني اكثر خوفا هو تشككهم في انني لا اريد ان اذهب وانني اخطط لخيانتهم .

" اذا هم يظنون بأنني يمكن ان تأسرني الجيوش المتحالفة ، أفلا يفكرون

فى قتلى ليحتفظوا بصمتى ؟ " جعلت هذه الفكرة شعرى يقف عن آخره ؛ ثم تذكرت حيلة كنت قد قمت بها قبل عشر سنوات لأظهر " وفائى واخلاصى" امام يوشيوكا فأرسلت فى طلب " رئيس الوزراء " تشانغ جينغ هوى وتاكيب روكوزو ، رئيس مكتب الشؤون العامة لمجلس الدولة ، وامرتهما قائلا : " يجب ان ندعم الحرب المقدسة التى تخوضها دولتنا الابوية بكل قوتنا ، ويجب ان نقاوم الاتحاد السوفياتى الى النهاية ، الى النهاية تماما . "

والتفت لأنظر الى تعابير وجه يوشيوكا ، فرأيت ان " الملحق " الذى لازمنى فى الاحوال العادية كظلى قد ذهب . فأخذت اذرع الغرفة جيئة وذهابا ، وقد استبدت بى نذر الخوف . ونظرت الى خارج النافذة فرأيت بضعة جنود يابانيين يتقدمون نحو المبنى وبنادقهم مشرعة . فكاد قلبى يطفر الى خارج فمى ، وظننت ان ساعتى قد حانت . ولما لم اجد مكانا اختبئ فيه ذهبت الى اعلى السلم لألقاهم . ولكنهم انصرفوا بعد ان رأونى .

وقدرت انهم لا بد قد جاؤوا لاختبار ما اذا كنت سأهرب ام لا . وكلما فكرت فى ذلك ازددت ذعرا فتناولت سماعة الهاتف كى اتصل بيوشيوكا ، فلم اجده وبدا الامر لى كأن اليابانيين غادروا من دونى ، وذلك ارعبنى ايضا .

وفيما بعد تمكنت من الاتصال بيوشيوكا . كان صوته ضعيفا جدا ، وقال انه مريض . فعبرت له عن اهتمامى ، وقلت بعض الكلمات الرقيقة ، فسمعته يقول : " شكرا لكم يا صاحب الجلالة " ، واغلقت الهاتف . وتنفست الصعداء . وتذكرت اننى لم آكل طوال النهار واننى جائع جدا . فطلبت من مرافقى الاخير ، وهو " لى " الكبير ان يحضر لى شيئا من الطعام ، ولكنه اخبرنى بأن الطباخين قد غادروا كلهم . فاضطررت الى تسكيت جوعى بالبسكويت .

وبعد التاسعة مساء بقليل من اليوم الحادى عشر وصل يوشيوكا . كان شقيقى وشقيقاتى وازواجهن وابناء اشقائى فى محطة القطار حينذاك ، ومن اسرتى بقى فقط انا وزوجتاى . فقال لى يوشيوكا وللخدم الذين كانوا ما يزالون معى بنبرة آمرة :

— سواء سنمشى او نركب فى السيارات ، فان الاشياء المقدسة التى يحملها هاشيموتو تورانوسيوك ستكون فى المقدمة . واذا مر اى شخص بها فعليه ان ينحنى انحناءة مقدارها تسعون درجة .

وادركت اننا يجب ان نتحرك الآن . فوقفت باحترام ونظرت الى هاشيموتو رئيس مكتب العبادة يحمل صرة تحتوى على مواد سينتو المقدسة ويدخل السيارة الاولى . وصعدت انا الى السيارة الثانية ، وعندما غادرنا القصر نظرت حولى فرأيت ألسنة اللهب ترتفع فوق "معبد التأسيس الوطنى" .

استغرق القطار ثلاثة ايام وليلتين حتى وصل داليتسيقو . وكانت الخطة الاصلية ان نذهب اليها عبر شنيانغ ، ولكن القطار سلك طريقا آخر على طول خط جيلين — ميخكو لتجنب الغارات الجوية . وخلال الرحلة كلها لم نتناول الا وجبتين وبعض البسكويت . ورأينا على امتداد الطريق عربات عسكرية يابانية تزدحم بخليط من الناس : جنود ولاجئين كما بدا لى . وتوقف القطار فى ميخكو ليصعد اليه قائد جيش قواندونغ ، ياماتا ، الذى اخبرنى بأن الجيش اليابانى حقق الانتصارات وانه قد دمر عددا من الطائرات والدبابات السوفياتية . ولكن روايته هذه كذبها ما رأيته فى محطة جيلين . فقد كانت هناك حشود من النساء والاطفال اليابانيين يصرخون ويصيحون ويندفعون نحو القطار باكين ويرجون رجال الدرك ان يسمحوا لهم بالمرور . وعند نهاية رصيف المحطة كان رجال الدرك والجنود اليابانيون يتضاربون .

وفى ١٣ اغسطس وصلت الى داليتسيقو التى تضم مجموعة مناجم للفحم وسط الجبال . وكانت جميلة ، ولكننى لم استطع تأملها لشدة رعبى . وبعد

يومين اعلن استسلام اليابانيين :

عندما قال يوشيوكا : " لقد اعان صاحب الجلالة الامبراطور انسحابنا ، والحكومة الامريكية قد تعهدت بضمان مركزه وامنه " جثوت على ركبتى وسجدت للسماء ، مرتلا : " اشكر السماء على حمايتها صاحب الجلالة الامبراطور" وركع يوشيوكا كذلك وسجد .

وقال يوشيوكا حينذاك بتعبير كئيب ان جيش قواندونغ على صلة بطوكيو ، وانه تقرر ارسالى الى اليابان . واضاف " ولكن صاحب الجلالة الامبراطور لا يمكن ان يتحمل مسؤولية غير مشروطة عن امن جلالتكم . وهذا سيكون فى ايدى الحلفاء . "

فشعرت ان الموت يشير الى :

وجاء تشانغ جينغ هوى وتاكيب روكوزو مع مجموعة من " الوزراء " و" اعضاء المجلس الاستشارى" . وكانت هناك مهزلة اخرى تتطلب تأديتها ، فجلبوا معهم كتابة جديدة من وضع خبير اللغة الصينية اليابانى ساتو ، تتضمن " مرسوم التنازل " . وبدوا كأنهم حشد من الكلاب الضالة وانا اقف امامهم واتلو عليهم المرسوم . لقد نسيت صياغة هذا المرسوم السادس ، ولكننى ما زلت اتذكر ان الاشارات التى لا غنى عنها الى " البركة الالهية لالهة الاشراق المشع السماوى وحماية صاحب الجلالة امبراطور اليابان " قد حذفها هاشيموتو بضحكة صفراوية . كان هاشيموتو فى السابق قائدا لفوج الحراسة الامبراطورية اليابانية ، واصبح فيما بعد رئيسا لـ " مكتب العبادة " فى " امبراطورية منشوريا " ومسؤوليته حراسة الهة الاشراق المشع السماوى وبهذا اصبح من اعرف العارفين بشؤون الامبراطور والآلهة .

لو كنت فى ذلك الوقت اعرف ان المنزلة التى اتمتع بها اقل من منزلة تشانغ جينغ هوى ومجموعته لكنت اكثر اكتئابا . عندما قرر اليابانيون ان اذهب الى طوكيو ، هيأوا امر العودة السرية لتشانغ جينغ هوى وتاكيب

الى تشانغتشون للقيام بترتيبات للمستقبل . وعندما عاد تشانغ جينغ هوى الى تشانغتشون قام باتصال لاسلكى مع تشيانغ كاى شيك فى تشونغتشينغ واعلن تأسيس " لجنة الحفاظ على النظام العام " التى كانت تستعد لاستقبال قوات الكومينتانغ ، وامل هو ومجموعته ان يتمكنوا من القيام بتحول سريع الى مندوبين عن جمهورية الصين قبل وصول القوات السوفياتية ، ولكن التقدم السوفياتى كان اسرع بكثير مما توقعوا ، والجيوش المتحالفة ضد اليابانيين التى يقودها الشيوعيون كانت تكتسح مقاومة الجنود اليابانيين فيما كانوا يقتربون من المدينة . وفى اليوم التالى بعد وصول الجيش السوفياتى الى تشانغتشون ، تبددت احلام تشانغ جينغ هوى ، عندما اخذ هو وزملاؤه الوزراء اسرى فى طائرة الى الاتحاد السوفياتى .

وفى ١٦ اغسطس علم اليابانيون ان هناك صدامات بين حرس القصر والجيش اليابانى فى تشانغتشون ، لذلك جردوا جماعة الحرس التى جاءت معى من اسلحتها . وفى الوقت نفسه اخبرنى يوشيوكا اننى سأذهب الى اليابان فى اليوم التالى . فهززت رأسى بسرعة موافقا ، وتظاهرت بأننى مسرور جدا .

وطلب منى يوشيوكا ان اقرر من سآخذ معى . ونظرا الى اننا سنذهب فى طائرة صغيرة ، لم اختر الا شقيقى بو جيه واثنين من ازواج شقيقاتى وثلاثة من ابناء اشقائى وطبيبا ومرافقى الشخصى لى الكبير . وسألتنى زوجتى الادنى مرتبة وهى تنتحب عما تفعله فأجبتها :

— الطائرة صغيرة جدا ، لذلك عليك ان تذهبى بالقطار .

— هل سيذهب القطار الى اليابان ؟

فأجبتها دون ان افكر لحظة واحدة :

— بالطبع سيذهب الى اليابان . بعد ثلاثة ايام على ابعد تقدير سترينني انت والامبراطورة مرة ثانية .

— ماذا يحدث اذا لم يأت القطار ؟ ليس لى اى قريب هنا اطلاقا .

ـ ستتقابل ثانية بعد يومين . ستكونين على ما يرام .

كنت شديد الانشغال بانقاذ حياتى فلم التفت الى انه سيكون هناك قطار لها ام لا .

ونزلنا فى شنيانغ فى الساعة الحادية عشرة صباحا منتظرين نقلنا الى طائرة كبيرة حيث جلسنا فى استراحة المطار .

وقبل ان يمضى على انتظارنا وقت طويل رددت ارض المطار ضجيج طائرات لكنها لم تكن طائرات يابانية بل سوفياتية . واندفع خارجا من الطائرات جنود سوفيات يحملون بأيديهم رشاشات ، وعلى الفور جردوا جميع الجنود اليابانيين فى المطار من اسلحتهم ، وسرعان ما غطى الجنود السوفيات ساحة المطار .

وفى اليوم التالى حملت على متن طائرة سوفياتية انطلقت بى الى الاتحاد السوفياتى .

الفصل السابع

فى الاتحاد السوفياتى

خوف ووهم

عندما هبطنا فى تشيتا كان الظلام يخيم على كل شيء . وكان جماعتى ، وهم الحشد الاول من مجرمى الحرب التابعين لـ " امبراطورية منشوريا " فى الاتحاد السوفياتى ، قد اخذوا من المطار فى سيارة من سيارات الجيش السوفياتى . وعندما نظرت من النافذة بدا لى كأننا ننطلق عبر سهل امتد امامنا اسود واسعا على كلا الجانبين . وبعد فترة دخلنا فى غابات وبدأنا نتسلق . اصبح الطريق ضيقا ومنحدرا ، واخذت السيارة تخفف سرعتها . وفجأة توقفت وسمعنا نداء وسط الظلمة باللغة الصينية : " اخرجوا اذا اردتم قضاء الحاجة . "

وذعرت ظانا ان الصينيين قد جاءوا ليعيدونى ؛ ولكن المتكلم تبين انه ضابط سوفياتى من اصل صينى . وكما كان يحدث لى غالبا فى الجزء الاول من حياتى ، عانيت كثيرا من الاضطرابات الذهنية التى لم يكن لها اى لزوم ، وذلك بسبب شكوكى المرضية . لقد ذعرت من الوقوع فى ايدى الصينيين ، فقد اعتقدت اننى سأحظى بفرصة البقاء على قيد الحياة اذا كنت فى يد سلطة اجنبية ، اما الصينيون فسيقتلوننى لا محالة . وكان من المضحك طبعا ان اتخيل بأننى سأعاد الى الصين فور وصولى الاتحاد السوفياتى .

وبعد ان استرحنا قليلا عدنا الى السيارة ، وبعد ساعتين توقفنا عند مبنى مضاء كبير فى واد جبلى . فنزلنا من سيارتنا ونظرنا الى هذا المبنى الجميل ؛ وتمتم احدنا قائلا : " هذا فندق . " فاسترد كل واحد معنوياته .

وعندما دخلنا الفندق استقبلنا رجل فى الاربعين من عمره يرتدى ملابس

مدنية ، وخلفه كانت مجموعة من الضباط السوفيات . واعلن بوقار ان الحكومة السوفياتية قد امرت بأن نحتجز هنا . وتبين فيما بعد ان هذا الرجل لواء فى قيادة حامية تشيتا . وبعد اعلانه هذا اخبرنا برقة اننا سننتظر هنا بهدوء الى ان يتخذ قرار حول كيفية معاملتنا . ثم اشار الى زجاجة ماء على طاولة واخبرنا بأن المكان مشهور بينابيعه ذات المياه المعدنية الصحية .

ولم استسغ المياه المعدنية فى البداية ، ولكن فيما بعد اصبحت مولعا بها . وامضينا فترة احتجاز رائعة فى هذا المصح ، كانت تقدم لنا فيه ثلاث وجبات روسية كبيرة ، كما يقدم لنا الشاى بعد الظهر . وكان هناك خدم للقيام بخدمتنا ، واطباء وممرضات للاعتناء بصحتنا ، واجهزة راديو وكتب وصحف وتسهيلات لأنواع اخرى من الاستجمام . وكان هناك ايضا اناس لأخذنا فى التمشى بين حين وآخر . لقد كانت حياة مرضية من البداية .

ولم يمض على وقت طويل هناك حتى برز عندى امل غريب هو ان من الممكن ان يسمح لى بأن اذهب واعيش فى بريطانيا او امريكا لاجئا ، ما دام البلدان حليفين للاتحاد السوفياتى ؛ وكنت قد جلبت معى ما يكفى من المجوهرات لبقية حياتى . ولكى احقق هذا الطموح كان على ان اتأكد اولا من انه سيسمح لى بالاقامة فى الاتحاد السوفياتى ، وباستثناء الطلبات الشفوية قدمت ثلاثة طلبات خطية الى السلطات السوفياتية خلال تلك السنوات الخمس طالبا ان يسمح لى بالاقامة الدائمة فى الاتحاد السوفياتى . ولكن هذه الطلبات الثلاثة لم احصل على اى جواب عنها .

اما محتجزو (٨) "امبراطورية منشوريا" الآخرون فقد وقفوا موقفا مختلفا تماما . لقد وصل تشانغ جينغ هوى وتسانغ شى يى وشى تشيا وآخرون غيرهم الى المصح بعد بضعة ايام من وصولى . وفى اليوم التالى جاؤوا لرؤيتى . وظننت ان هذه زيارة مجاملة الى ان قال تشانغ جينغ هوى :

— لقد سمعنا انكم تريدون الاقامة فى الاتحاد السوفياتى ، ولكن اسرنا

فى الشمال الشرقى وتحتاج الى عنايتنا بهم . وبالاضافة الى ذلك فان لدينا بعض الاعمال الرسمية سنؤديها هناك . فنريد منكم ان تطلبوا من السلطات السوفياتية ان تسمح لنا بالعودة قريبا . فهل تظنون ان هذا ممكن ؟

رلم اعرف ولم اهتم بما يمكن ان يكون هذا "العمل الرسمى" ولم اعر كذلك ادنى اهتمام بطلبهم . ولكن عندما توسلوا الى اخبرت الضابط السوفياتى المسؤول عنا بذلك ، فأعطانى نفس الجواب الذى كان يجيبنى به عن طلباتى — "حسن جدا سأنقل هذا الطلب الى المسؤولين" . ولم ينتج من ذلك شيء .

والسبب الذى ارادوا من اجله العودة هو انهم فهموا الكومينتانغ تمام الفهم . لقد عرفوا ان الكومينتانغ بحاجة اليهم ، واعتقدوا انهم سيكونون قادرين على تحقيق مكاسب لأنفسهم . وبعضهم كاد ان يجن شوقا الى العودة .

وعند وجودنا فى الاتحاد السوفياتى كان ينقل الينا الاخبار مترجمون سوفيات ، وغالبا ما كنا نرى صحيفة "شى هوا باو" الناطقة باللغة الصينية التى كان يصدرها الجيش السوفياتى فى ليويشون . وتابع الوزراء العملاء السابقون تطور الحرب الاهلية الصينية بدقة ، وكانت عواطفهم بالطبع مع الكومينتانغ المدعوم من امريكا والذى توقعوا له ان يفوز . ولكن عندما انتهت الحرب بهزيمة الكومينتانغ ، ارادوا ان يرسلوا برقية تهنئة بتأسيس جمهورية الصين الشعبية . ولكننى لم اهتم بالحرب ، لأننى شعرت انه لا فرق عندى ان يفوز الشيوعيون ام الكومينتانغ ، فكلاهما يريد حياتى . وكان املى الوحيد ألا اعود ابدا الى بلادى .

ما زلت ابدى كبرياء مصطنعة

لم اكف قط عن تصنع الكبرياء خلال السنوات الخمس التى امضيتها

فى الاتحاد السوفياتى . وعلى الرغم من انه لم يبق هناك خدم عندما انتقلنا الى مركز الاستلام فى خاباروفسك ، الا انه ظل معى اناس يخدموننى . فأفراد اسرتى كانوا يطوون لى فراشى ويرتبون غرفتى ، ثم يجلبون لى الطعام ويغسلون لى ثيابى . ونظرا الى انهم لم يجرؤوا على مخاطبتى بعبارة " جلالتكم " ، كانوا يخاطبوننى بكلمة " شانغ بيان " (الاعلى) ويأتون الى غرفتى كل صباح ليقدموا لى احتراماتهم تماما كما فى الايام الماضية .

وذات يوم ، بعد وصولى الى خاباروفسك ، قررت ان اخرج للتمشى : وفيما انا اهم بهبوط السلم لحظت " وزيرا " سابقا يجلس فى كرسى عند اسفل السلم ، وعندما رآنى تجاهل وجودى تماما . فغضبت غضبا شديدا فكرت معه فى ألا اهبط السلم ثانية قط . وامضيت جل وقتى اتلو النصوص المقدسة . ولكن معظم " الوزراء " السابقين ظلوا يعاملوننى باحترام . فعندما نأكل " جياو تسى" (٩) فى عيد رأس السنة الصينية مثلا ، كانوا يقدمون لى الطاس الاول .

ولم اكن اسر ، وانا شخصيا لا اقوم بأى عمل اطلاقا ، ان يقوم افراد اسرتى بالعمل لأى شخص آخر . فعندما فرش شقيقى وزوجا شقيقتى المائدة للذين اكلوا عليها جميعا عند تناول وجبة من الوجبات كنت اوقفتهم عن القيام بذلك ، فلم اكن اقبل بأن يخدم اقربائى احدا غيرى .

وفى المدة ما بين عام ١٩٤٧ وعام ١٩٤٨ نقل افراد اسرتى الى مركز استلام آخر فى نفس المدينة ، فوجدت هذا لا يناسبنى البتة ، حيث اننى لم افصل عن اسرتى قبل ذلك ابدا . وكانت السلطات السوفياتية لطيفة جدا معى ، فسمحت لى بأن آكل وحدى ، ولكن من الذى يجلب لى طعامى ؟ ومن حسن الحظ ان نسيبى تطوع للقيام بذلك مع غسل ثيابى .

ولكى يجعلونا ، نحن العالة (الطفيليين) ، نقوم بعمل خفيف ضئيل اعطينا زاوية من فناء مركز الاستلام حيث استطعنا ان نزرع فيها الخضراوات .

واعطيت انا وافراد اسرتى حاكورة زرعنا فيها الفلفل الاخضر والطماطم والباذنجان والباقلاء واشياء اخرى . ورحت اراقب الشتلات الخضراء مفتونا بها وهى تنمو يوما بعد يوم ، وشعرت بمتعة عظيمة وانا املأ الوعاء بالماء واسقى هذه الخضار . لقد كانت هذه تجربة جديدة بالنسبة لى . ولكن السبب الرئيسى الذى جعلنى مسرورا هو اننى احب اكل الفلفل والطماطم . وكثيرا ما كنت افكر فى ان ذلك لم يكن سهلا مطلقا بالمقارنة مع شراء هذه الاشياء من دكان البقال .

واعطتنا سلطات مركز الاستلام بعض الكتب باللغة الصينية لندرسها ، وكانت هناك اوقات محددة يقرأ فيها شقيقى وزوجا شقيقتى « قضايا اللينينية » (١٠) و « تاريخ الحزب الشيوعى السوفياتى (البلشفيك) » لكل واحد منا . ولكن الكتب لم تعن شيئا بالنسبة للقراء والمستمعين . وقد وجدتها باعثة على الكآبة ولا علاقة لها بنا . فاذا لم يسمحوا لى بالمكوث فى الاتحاد السوفياتى واعادونى الى الصين ، فما الفائدة التى اجنيها حتى ولو حفظت الكتابين عن ظهر قلب ؟

لقد بدت لى كلمة " دراسة " اقل واقعية فى تلك الايام من الفلفل والطماطم . ولدى جلوسى فى مكانى الخاص كنت اصغى الى " المعلم " يتمتم بكلمات مثل " منشفياك " و " دوما الدولة " لم افهمها ولم ارغب فى فهمها ؛ وفى تلك الاثناء كنت اتساءل الى متى ستكفينى المجوهرات التى جلبتها معى للبقاء فى موسكو او لندن ، او كنت اسأل نفسى : " اذا لم يأكل الروس الباذنجان فكيف سآكل ما جنيناه ؟ "

وبعد العشاء اتى موعد النشاطات الحرة . كانت توضع عند طرف الممشى بعض طاولات لعبة الماجيانغ وعند الطرف الآخر يقف البعض ينظرون الى السماء وايديهم مضمومة الى بعضها كأنما يتوسلون الى بوذا . ومن الطابق العلوى حيث اودع مجرمو الحرب اليابانيون ، كانت تنبعث

اصوات الاوبرا اليابانية . وكان اغرب مشهد هو احتشاد المحجوزين حول منضدة قراءة البخت عن طريق تحليل تركيب مقطع من مقاطع الصينية لاكتشاف متى سيسمح لهم بالعودة الى موطنهم وماذا حدث لعوائلهم . وبعضهم كان يستخير اللوح المقدس سرا فى غرفة نومه ، ليخبره عن موعد عودته الى موطنه . وخلال الايام القليلة الاولى كان الحراس يجفلون لدى سماعهم الصياح ، فيهرعون ويحدقون الى اولئك الرجال الغرباء ثم يهزون رؤوسهم ؛ وفيما بعد تعودوا ذلك .

وامضيت جل وقتى خلال هذه الفترة داخل غرفتى ، اخض نقودى الذهبية للاستخارة (١١) واتلو السوترا الماسية (١٢) .

ارفض الاعتراف بذنبى

نظرا الى اننى لم اكف عن التصرف بوصفى كائنا اسمى ورفضت ان ادرس ، فلم يحدث اى تغير اساسى فى تفكيرى ، وطبعا لم اعترف بذنبى .

وعرفت اننى من الناحية القانونية كنت مذنبا بالخيانة العظمى ، ولكننى رأيت ان هذه كانت بالقضاء والقدر . " القوة حق " و" المنتصر يصبح ملكا والخاسر يصبح قاطع طريق " ، هكذا كان موقفى فى تلك الايام . لم افكر فى اية مسؤولية يجب ان اتحملها ، ولم اتساءل اية ايديولوجية كانت سببا فى جرائمى ، ولم اسمع مطلقا بضرورة اصلاح التفكير .

ولكى اتجنب العقوبة لجأت الى حيلى القديمة وحاولت ان اكسب رضى السلطات السوفياتية التى كانت حينذاك متحكمة بمصيرى . لذلك قدمت مجوهراتى اسهاما فى اعادة البناء بعد الحرب فى الاتحاد السوفياتى .

ولم اقدم جميع مجوهراتى ، بل احتفظت بأفضلها لنفسى . وقدمت المجوهرات التى احتفظت بها لابن شقيقى ليخبئها تحت قعر مزيف لحقيبة

ملابسي . ومن سوء الحظ لم يستطع اخفاءها كلها فى ذلك الفراغ ، لذلك حاولت وضع بقية هذه المجوهرات فى كل مخبأ استطعت الاهتداء اليه . ولكن عندما لم يعد صابونى يستوعب المزيد ، فقد اضطررت الى نبذ ما بقى .

وذات يوم جاء الى القاعة الرئيسية ضابط سوفياتى يصحبه مترجم . وامسك بيده شيئا براقا وسأل كل واحد منا : " لمن هذه ؟ من وضع هذه فى الشبكة المتروكة من انابيب التدفئة المركزية فى الفناء ؟ "

فاحتشد المحتجزون جميعا فى القاعة ورأوا الضابط يمسك قطعة من المجوهرات . فقال احدهم : " ان عليها دمغة صائغ الفضة فى بكين . اننى اتعجب من وضعها هناك . " فعرفتها فى الحال انها احدى القطع التى اخبرت ابناء اشقائى ان يتخلصوا منها ، ولكن بما انهم الآن مفصولين عنى لم استطع سؤالهم عنها . واسرعت هازا رأسى وقلت : " عجيب جدا ، عجيب جدا . اننى اتساءل من وضعها هناك ؟ "

ودهشت حين رأيت المترجم يتقدم منى وبيده مشط خشبى وقال :

— لقد عثر على هذا المشط معها ، واذكر انه لك .

فأجبت فى خيبة امل :

— لا ، لا ، انه ليس لى .

وتردد الرجلان بعض الوقت ، وذهلا لسذاجة انكارى ثم انصرفا .

والى جانب نبذ المجوهرات احرقت بعض اللآلئ فى موقد ، وطلبت من لى الكبير ان يرمى ببعض اللآلئ المتبقية فى المدخنة قبل ان نغادر الاتحاد السوفياتى بقليل .

وبسبب كراهيتى لليابانيين قدمت الى السلطات السوفياتية بكل حماسة مقدارا كبيرا من المعلومات عندما سألونى عن جرائم اليابانيين فى الشمال الشرقى . وعندما استدعيت للحضور شاهدا فى " المحكمة العسكرية الدولية

للشرق الاقصى" فى اغسطس ١٩٤٦ شجبت مجرمى الحرب اليابانيين بمنتهى الشدة . ولكننى لم اتكلم عن جرائمى خوفا من ان ادان . واستمرت شهادتى ثمانية ايام ، وكانت اطول شهادة فى المحكمة . وزودت الصحف الميالة الى معالجة الموضوعات المثيرة فى مختلف انحاء العالم بأخبار من الدرجة الاولى .

وكان السبب فى الطلب منى تقديم شهادة هو ان اكشف الحقيقة المتعلقة بالغزو اليابانى للصين ، ولأظهر كيف استخدمتنى اليابان عميلا لمساعدتها فى ان تحكم الشمال الشرقى . واننى الآن اشعر بالخجل الشديد من شهادتى لأننى احتفظت ببعض ما كنت اعرفه كى احمى نفسى من ان تعاقبنى بلادى . فلم اقل شيئا عن تعاونى السرى مع الامبرياليين اليابانيين خلال مدة طويلة من الصحبة التى لم يكن استسلامى الصريح لهم بعد ١٨ سبتمبر ١٩٣١ الا نتيجة لها . وتكلمت بدلا من ذلك عن الطريقة التى مارس اليابانيون الضغط على ليجبرونى ان اعمل وفقا لمشيئتهم .

واظهرت عروضا متعددة للانفعال فى المحكمة العسكرية . فعندما تكلمت عن ادخال عبادة الهة الاشراق المشع السماوى الى الشمال الشرقى ، سألنى محام يابانى ان كان هجومى على سلف امبراطور اليابان يتفق والاخلاق الشرقية . فصحت مجيبا : " انا لم اجبره على اتخاذ سلفى سلفا له . " فانفجرت القاعة كلها بالضحك ، ولكننى كنت فى غاية السخط . وعندما ورد ذكر وفاة زوجتى تان يوى لينغ تكلمت كأنما شكوكى بخصوص موتها كانت حقائق ثابتة ، فقلت على نحو مأساوى : " حتى هى قتلت على يد اليابانيين . " وكنت بالطبع ملتهبا بالعاطفة ، ولكننى كنت ايضا اصور نفسى متعمدا اننى ضحية لليابانيين .

وحاول محامى الدفاع جميع انواع الحيل ضدى املا فى تجريد شهادتى من الثقة ، بل اقترح اننى لست مؤهلا لأكون شاهدا ولكن هذه المحاولات

اخفقت طبعا ، وحتى اذا كانت ناجحة فانها لن تعنى شيئا جديدا بالنسبة لمصير المتهم . ولكن عندما تعمدوا ان يستغلوا خوفى من العقوبة ليجعلونى اصمت ، نجحوا الى حد ما . اتذكر اننى بعد ان اعددت قائمة بجرائم مجرمى الحرب اليابانيين صاح محام امريكى : " انك تضع اللوم كله على اليابانيين ، ولكن عاجلا او آجلا ستدينك الحكومة الصينية على جرائمك . " فأصاب بذلك هدفه ، فاننى بسبب خوفى من هذا الامر بالضبط اصررت على اننى لم اخن وطنى واننى اختطفت خطفا ، وانكرت كل تعاونى مع اليابانيين ؛ بل ادعيت ان الرسالة التى كتبتها الى مينامى جيرو كانت مزيفة . وغطيت جرائمى كى احمى نفسى . وهذا يعنى اننى لم اقم بكشف كامل لجرائم الامبرياليين اليابانيين . وبذلك قدمت لهم خدمة طيبة .

الفصل الثامن

من الخوف الى الاعتراف

اتوقع ان اموت

فى ٣١ يوليو (تموز) ١٩٥٠ وصل القطار السوفياتى الذى يحمل مجرمى الحرب التابعين لـ " امبراطورية منشوريا " الى محطة سويفنخه على منطقة الحدود الصينية السوفياتية . واخبرنا الكابتن آستز الذى كان مسؤولا عن حراستنا اننا سنسلم الى السلطات الصينية فى الصباح التالى ، ونصحنا بأن ننام باطمئنان .

بعد ركوبى القطار فى خاباروفسك فصلت عن افراد اسرتى ووضعت فى نفس العربة مثل الضباط السوفيات . وقدموا لى البيرة والحلوى ، ورووا لى قصصا مسلية خلال الرحلة ؛ ورغم هذا كله شعرت بأنهم يقودوننى الى حتفى . وظننت اننى سأهلك لحظة تطأ فيها قدمى تراب الصين .

كان تنفس الكابتن آستز ينبعث منتظما وهو فى مضجعه المقابل . لقد استلقيت وعيناى مفتوحتان على اتساعهما ، وظللت مستيقظا خوفا من الموت . ثم استويت جالسا ، واخذت اتلو النصوص البوذية ، واوشكت ان استلقى ثانية ، فاذا بى اسمع وقع خطوات جنود على رصيف المحطة . فنظرت من النافذة ، ولكننى لم استطع رؤية احد . وكان وقع اقدامهم يخفت شيئا فشيئا ، وكل ما استطعت ان اتبينه هو بعض المصابيح المتلألئة من بعيد . فتنهدت وكورت نفسى فى زاوية مضجعى ، وحدقت الى الكؤوس الفارغة على الطاولة . وتذكرت شيئا قاله لى آستز عندما كنا نشرب البيرة التى كانت معهم : " عند الفجر سترى وطنك الام . والعودة الى الوطن الام مناسبة تستحق التهنئة . لا تقلق ، فالسلطة السياسية الشيوعية من اكثر السلطات

تحضرا على الارض ، والحزب الشيوعى الصينى والشعب الصينى على درجة عظيمة من الكرم . "

فقلت فى نفسى : "كذاب" . وانا انظر الى آستز الذى كان حينذاك يشخر . " ان كلماتك وبيرتك وحلواك — كلها خداع . ان حياتى لن تستمر اكثر من هذا الندى العالق بزجاج النافذة من الخارج . ولكنك نائم هناك كجذع شجرة . "

لم اصدق ان الشيوعيين يمكن ان يكونوا " متحضرين " . كانوا ما يزالون فى نظرى " فيضانات مدمرة ووحوشا مفترسة " كما اخبرونى بذلك عندما كنت اعيش فى بكين وتيانجين وتشانغتشون . وعزوت المعاملة الانسانية التى لقيتها من الاتحاد السوفياتى ، الدولة الشيوعية ، الى حقيقة انه بلد من البلدان المتحالفة التزم بالاتفاقيات الدولية . ورأيت ان الصين ستكون مختلفة تماما . فالشيوعيون هناك قد اطاحوا بتشيانغ كاى شيك ، وانهم ليكرهوننى كراهية شديدة تزيد عن كراهيته لى مائة مرة . وظننت اننى بمجرد وقوعى فى قبضة هؤلاء الرجال القساة فلن يبقى لدى امل حتى بميتة مريحة .

وامضيت الليل افكر بمثل هذه الافكار المرعبة . وعندما طلب منى الكابتن آستز فى الصباح التالى ان اذهب معه لرؤية ممثل الحكومة الصينية ، لم اكن افكر الا فيما ان كانت لدى الشجاعة التى تمكننى من ان اهتف " عاش الامبراطور تاى تسو" قبل ان اموت .

وتبعت آستز بذهن مضطرب الى مقصورة اخرى كان يجلس فيها صينيان ، احدهما يرتدى ثيابا مدنية زرقاء والثانى بزة عسكرية خالية من اية رتبة ، سوى رقعة على صدره كتب عليها " جيش التحرير الشعبى الصينى" . فنهضا وتبادلا بضع كلمات مع آستز ، ثم نظر الى صاحب الملابس المدنية من الاعلى الى الاسفل وقال : " لقد جئت لاستلامك بأمر من رئيس مجلس الدولة شو ان لاى . لقد عدت الآن الى وطنك الام . "

فخفضت رأسي منتظرا من العسكرى ان يقيدنى . ولكنه جلس ساكنا ، مكتفيا بالنظر الى .

وقلت فى نفسى وانا اخرج من القطار واخطو على رصيف المحطة بعد ساعة تقريبا : " انه يعرف اننى لا استطيع ان اهرب . " وكان هناك صفان من الجنود المسلحين احدهما من القوات السوفياتية والثانى من القوات الصينية وعلى صدورهم نفس الرقعة التى رأيتها على صدر الضابط فى القطار . ومشيت بين هذين الصفين وصعدت القطار المقابل . وتذكرت ان قوات تشيانغ كاى شيك المسلحة البالغ عددها ثمانية ملايين جندى قد ابادها رجال يضعون على صدورهم هذه الرقعة ، وقدرت اننى لا بد ان اكون فى اعينهم اقل شأنا من دودة .

وفى القطار رأيت مجموعة من موظفى " امبراطورية منشوريا " السابقين وافراد اسرتى . كانوا جميعا مستقيمين فى جلستهم ، لا احد منهم مكبل . واخذت الى مقعد فى نهاية العربة تقريبا ، ووضع جندى حقيبتى فى موضع الامتعة . وحاولت النظر من النافذة ، ولكننى وجدت انها مغطاة بالورق . ورأيت عند طرف كل عربة جنديا يحمل رشاشة . فهبط قلبى . هذا يعنى بالتأكيد اننا مرسلون الى ساحة الاعدام . وكانت وجوه جميع المجرمين من حولى شاحبة شحوب الموت .

وبعد فترة قصيرة مشى رجل غير مسلح الى منتصف العربة ، بدا كأنه ضابط ، وقال وهو يجيل بصره فيما بيننا : " حسنا ، لقد عدتم الآن الى وطنكم الام . ان الحكومة الشعبية المركزية قد اعدت لكم الترتيبات اللازمة ، فليس هناك ما تقلقون عليه . وهناك طقم طبى فى القطار ، فاذا كان اى منكم مريضا ، يمكنه ان يطلب رؤية الطبيب . "

ماذا يمكن ان يكون قد عنى بكلامه هذا ؟ من المحتمل انه يحاول ان يطمئننا ثانية ويمنع حدوث اى شيء غير ملائم خلال الرحلة . وبعدها

دخل بضعة جنود واعطوا كلا منا عودى اكل وطاسا ، وطلبوا منا ان نعتنى بهما جيدا لأن من غير الممكن ان نعطى بديلا منهما فى الرحلة . فظننت ان هذا يعنى ان الرحلة الى ساحة الاعدام لا بد ان تكون طويلة .

تألف الفطور من خضار مخلل وبيض مملح وعصيدة الارز . واثارت رائحة هذا الطعام ، طعام بلادنا ، بعد سنوات طويلة من الغياب فى الخارج ، شهيتنا جميعا ، وسرعان ما انهينا وعاء كبيرا من عصيدة الارز . وعندما رأى الجنود ذلك اعطونا وعاء العصيدة الذى كانوا سيأكلونه هم . فلم استطع فهم هذا التصرف وعرفت انه لعدم وجود تسهيلات طبخ فى القطار لا بد ان ينتظروا حتى نصل المحطة التالية فسيطبخوا مزيدا من العصيدة . وتوصلت الى نفس النتيجة : لا بد ان لديهم بعض النوايا السيئة تجاهنا .

وبعد انتهاء الفطور لم يبد كثير من القلق تقريبا على بعض الوجوه ؛ وعندما تناقش اصحابى حول ذلك فيما بعد قالوا ان كرم الجنود اظهر انهم مدربون ومنضبطون على نحو جيد وانهم لن يسيئوا معاملتنا خلال الرحلة . ولكن وجهات نظرى كانت مختلفة تماما . لقد ظننت ان الحزب الشيوعى يكرهنى كراهية مرة ، وانه ربما يقتلنى خلال الرحلة بدافع الانتقام . حقا انهم سيفعلون ذلك حتما ، ومن المؤكد تقريبا ان ذلك سيتم هذا النهار او هذه الليلة . وغلب النعاس بعضنا بعد الفطور ، ولكننى كنت فى غاية القلق وبحاجة الى شخص اتحدث اليه . لقد اردت ان اجعل حرسى يعرفون اننى يجب ألا اقتل .

كان يجلس مقابلى جندى امن شاب ، وبدا لى انه من اكثر الاشخاص ملاءمة للمحادثة . فنظرت اليه بعناية ، ثم وجدت موضوعا للحديث فى تلك الرقعة المثبتة على صدره وقلت : " انكم جندى فى جيش التحرير الشعبى الصينى (كانت هذه المرة الاولى التى استخدمت فيها صيغة الاحترام ' انكم ') ، ومعنى كلمة ' تحرير ' جيدا جدا . اننى بوذى ، والنصوص البوذية مشتملة

على فكرة التحرير . ان معبودنا بوذا رحيم ، وقد اخذ على نفسه تحرير جميع الكائنات الحية . . . "

حدق الجندى الشاب الى بعينين مفتوحتين ، مصغيا دون ان يتفوه بكلمة وانا اثرثر . وعندما قلت اننى لم اقتل ابدا اى كائن حى ولم اقتل حتى الذباب ، بدت تعابير وجهه غير مفهومة بالنسبة لى . ثم هبطت معنوياتى وتوقفت عن الكلام . ومن اين لى ان اعرف حينذاك ان هذا الجندى الشاب قد وجدنى صعبا على الفهم كما وجدته ؟

واصبح يأسى الآن اشد من السابق . وجعلنى هدير العجلات وهى تجرى على السكة اشعر بأن الموت يقترب . ونهضت من مقعدى وتجولت على طول الممر بين المقاعد الى الطرف الآخر من العربة . وبعد ان وقفت خارج باب المرحاض رجعت ادراجى . وعند منتصف الطريق فى الممر سمعت ابن شقيقى شيو الصغير يتحدث مع شخص ما بصوت خافت . ولدى سماعى كلمة " ديمقراطية " و " ملكية " وقفت وصحت بهما قائلا :

— ما زلتما تتحدثان عن الملكية فى هذه الايام ؟ كل من يعتقد بأن الديمقراطية سيئة سأقاتله .

فذهل كل فرد لهذا الاندفاع المفاجئ ، ولكننى واصلت الصياح على نحو هستيرى :

— لماذا تنظرون الى جميعا هكذا ؟ لا تقلقوا ، انهم لن يفعلوا اكثر من اطلاق النار على .

فجاء جندى وسحبنى الى مقعدى ، ونصحنى بأن لا اثور . فتعلقت به كأنما كنت مسحورا وهمست فى اذنه : " ذلك الشخص ابن شقيقى . ان افكاره سيئة جدا ، فهو ضد الديمقراطية . والشخص الآخر يدعى تشاو وكان ضابطا وقد قال كثيرا من الاشياء السيئة فى الاتحاد السوفياتى . "

وتابعت على هذا النحو بعد عودتى الى مقعدى . وعندما طلب منى

الجندى ان اضطجع لم اجد امامى خيارا آخر ، ولكننى واصلت الحديث وانا مضطجع على المقعد وعيناى مغمضتان . واخيرا اخذنى النعاس ، ربما لأننى لم انم منذ عدة ليالى .

وعندما استيقظت كان ذلك فى الصباح التالى . واردت ان اعرف مصير الشخصين اللذين بلغت عنهما . فنهضت لأنظر ، فرأيتهما كليهما يجلسان فى مكانيهما السابقين . كانت تعابير وجه شيو الصغير طبيعية ، اما تشاو فقد بدا غريبا بعض الشيء . وعندما دققت النظر اليه وجدت انه قد بدا مكتئبا ، وكان يحدق الى يديه بدقة . فاستنتجت انه عرف بأنه على وشك ان يموت فكان يرثى لحاله . وحينذاك تذكرت القصص عن الاشباح المنتقمة ، وذعرت من ان يأتى شبحه ليصفى الحسابات معى بعد موته . فتقدمت منه وسجدت امامه . وبتجنبى الكارثة على هذا النحو عدت الى مقعدى اتمتم بتعويذة تقمص لأرواح الموتى .

ابطأ القطار فى اندفاعه الى ان توقف . وتمتم احدهم قائلا : " تشانغتشون" . فقفزت كالنابض وبحثت عبثا عن شق فى النوافذ المغطاة بالورق لأنظر منه واستطعت ان اسمع جمعا من الناس يغنون فى الجوار . فظننت ان هذا يجب ان يكون المكان الذى سأموت فيه حيث كنت امبراطورا هنا . كل شخص هنا كان ينتظر محكمتى العلنية . بينما كنت فى الاتحاد السوفياتى قرأت عن الصراع ضد الطغاة المحليين وعرفت ما يتعلق باجراءات المحاكم : قبل كل شيء يأخذ رجال الميليشيا المتهم الى المنصة . وعندها تماما دخل جنديان باب العربة ، فأفزعنى ذلك فزعا شديدا . ولكنهما فى الواقع قد جلبا عصيدة الارز من اجل الفطور ، وبعد وصولهما بدأ القطار فى تحركه ثانية .

وعندما وصل القطار الى شنيانغ اقتنعت بأننى سأموت هنا فى المكان الذى ظهر فيه اسلافى . وبعد توقف القطار مباشرة دخل العربة شخص غريب وبيده قطعة ورق ، واعلن قائلا : " نظرا الى ان هذا اليوم شديد

الحر فليتبعنى الكبار منكم للاستراحة . " وبدأ يقرأ اسماء من القائمة التى فى يده . وبدا غريبا بالنسبة لى ان القائمة لم تشملنى فقط ، انا الذى يمكن ان اعتبر كبيرا حيث اننى فى الرابعة والاربعين من عمرى ، بل ابن شقيقى شيو الصغير ايضا الذى كان فى الثلاثين من عمره . من الواضح ان هذه خدعة . لقد كنت امبراطورا ، وكان الآخرون وزراء ، وشيو الصغير قد بلغت انا عنه . وصعدنا جميعا سيارة كبيرة بمرافقة جنود يحملون رشاشات . فقلت لشيو الصغير : " هذه هى النهاية . سآخذك لمقابلة اسلافنا . " وشحب وجهه فجأة . فضحك صاحب القائمة وقال : " مم انت خائف ؟ أ لم اقل لك انك قادم للاستراحة ؟ " فلم اهتم بكلامه ، وظللت اقول لنفسى ان هذه خدعة .

توقفت السيارة امام مبنى كبير على بابه المزيد من الجنود المسلحين . وتقدم منا جندى لا يحمل اى سلاح وحيانا ، ثم قادنا الى الداخل قائلا : " الى الاعلى . " واصبحت لدى الآن شجاعة اليأس فقررت انه من الافضل ، اذا كنت سأموت ، ان اموت بسرعة . وطويت معطفى على شكل صرة ، ووضعته تحت ذراعى ، وصعدت . وانطلقت بسرعة كبيرة بحيث تجاوزت الجندى الذى يقودنا فى الطريق فجعلته يسرع ليصبح امامى مرة ثانية . ثم ادخلنى الى قاعة كبيرة مفروشة بالكراسى والطاولات التى مدت عليها الفاكهة والسجائر والكعك . فألقيت معطفى على طاولة ، وتناولت تفاحة وبدأت آكلها ، مقتنعا ان هذه هى المأدبة التى تقام دائما للمحكومين بالاعدام ، واننى كلما اسرعت فى اكلها سينتهى كل شىء بسرعة . ولكن القاعة امتلأت بالقادمين قبل ان اتم نصف التفاحة .

وبدأ رجل بملابس مدنية يتكلم بقربى ، ولكننى كنت منشغلا بتفاحتى فلم التفت الى ما كان يقول . وعندما انتهيت من التفاحة نهضت وقاطعته قائلا :

ـ كفى كلاما . هيا بنا :

فضحك بعضهم من ذوى الملابس المدنية ، وقال المتحدث بابتسامة :

ـ انك مستعجل جدا . لا تقلق ، عندما تصل الى فوشون ستحصل على استراحة جيدة ، وعندها تقوم بدراسة جيدة .

فأصبت بذهول . ألن يقوم بقتلى ؟ ماذا يعنى هذا ؟ اندفعت الى الرجل الذى جلبنا الى هنا وانتزعت من يده قائمة الاسماء . ومع ان هذا اضحك الناس ، الا اننى تأكدت الآن ان القائمة لم تكن امرا بالاعدام او اى شيء من هذا القبيل . ودخل تشانغ الصغير ابن تشانغ جينغ هوى . كان قد عاد الى الصين مبكرا مع مجموعة اخرى من مجرمى الحرب ، واخبرنا عن احوالهم هناك ؛ كما اورد بعض الاخبار العائلية . وعندما سمعنا ان افراد تلك المجموعة كلهم احياء وان عوائلنا جميعها على ما يرام وان الأولاد يدرسون او يعملون ، اشرقت وجوهنا جميعا . ونفرت الدموع الى عينى .

واستمرت طمأنينتى طوال ساعة او نحو ذلك فقط ، انتقلنا خلالها من شنيانغ الى فوشون ، ولكن ذلك انقذنى من الجنون ، حيث لم اكن افكر الا فى الموت طوال الايام الخمسة التى مضت على مغادرتنا لخاباروفسك .

الوصول الى فوشون

قبل وصول قطارنا الى فوشون كانت مختلف التقديرات المتفائلة تسمع على طوال الطريق . فالجو اختلف اختلافا تاما ، والمحادثة نشطت فيما كنا ندخن السجائر التى جلبناها معنا من شنيانغ . وقال بعضنا اننا قد نوضع فى ناد مزود بوسائل الترفيه يعرفه هناك ؛ والبعض الآخر قال انه سيسمح لنا بالعودة الى بيوتنا بعد الاستراحة هناك وقراءة الكتب الشيوعية لبضعة ايام ؛ ومنا من قال انهم سيبرقون الى عوائلهم لترتيب الامور استعدادا لعودتهم ؛ وآخر ون

ظنوا ان من الممكن لنا ان نسبح فى ينابيع فوشون الساخنة قبل ان نغادر . وتكلمنا عن الخوف الذى انتابنا فى السابق واشتركنا فيه جميعا ثم انفجرنا بالضحك . ولكن عندما خرجنا من القطار ورأينا انفسنا محاطين بحرس مسلحين ، لم تعد تظهر اية ابتسامة على وجوهنا .

واخذنا تحت حراسة الجنود الى شاحنات كبيرة . واصبت بما يشبه الذهول . وكان الشيء التالى الذى تذكرته هو اننى وجدت نفسى فى مكان ما محاطا بسور من الآجر قاتم شاهق يمتد عليه من الاعلى سلك شائك وعليه ابراج مراقبة عند الزوايا . فتبعت الآخرين الى ان توقفنا امام صف من المبانى ذات الطابق الواحد . وكانت جميع النوافذ مغطاة بقضبان حديدية . فأدركت ان هذا سجن .

وقادنا الجنود فى ممر ضيق الى قاعة كبيرة تمّ فيها تفتيشنا . ومن ثم قادنا جنود غير مسلحين . وتبعت انا وبضعة آخرون احد الجنود فى طريق على طول الممر الى ان وصلنا زنزانة . وقبل ان القى نظرة على الغرفة صلك اذنى صوت مزلاج حديدى ثقيل ارتج فى الخارج . كانت الزنزانة تشتمل على سرير خشبى طويل ومنضدة طويلة ومقعدين . ولم اكن اعرف ضباط " امبراطورية منشوريا " السابقين الذين شاركونى هذه الزنزانة معرفة جيدة . ولم اتحدث اليهم ، لذلك لم اعرف ان كانوا هم ايضا خائفين او مكبوتين بوجودى . فقد وقفوا فى جانب من الزنزانة ناكسى الرؤوس ، ولم يحدثوا ادنى صوت . ثم سمعت المزلاج يسحب . وفتح الباب ، فدخل حارس ليأخذنى الى زنزانة اخرى ، حيث دهشت حين لقيت هناك ابناء اشقائى الثلاثة وشقيقى بو جيه ونسيبى رونغ يوان . وهكذا سمح لنا بالاقامة معا . وكان قد وزع عليهم قبل قليل الحفة وحشايا ومجموعات ادوات غسيل جديدة ، وكانوا قد جلبوا معهم طقما لى .

وطمأننى رونغ يوان بما قاله لى :

— هذا سجن عسكرى وكل واحد هنا يلبس بزة عسكرية . ولا يبدو انا . . . فى خطر حاليا ، والا لما اعطونا مناشف وفرش اسنان . وعندما فتشنا قبل لحظة احتفظوا بأشيائنا القيمة ، ولكنهم اعطونا وصلا بها ، هذا لا يشبه المعاملة تجاه . . . بل التى يعامل بها المجرمون العاديون . والطعام ليس رديئا .

وقال ابن شقيقى قو الصغير دون تردد :

— ربما الطعام الجيد هو مأدبة الاعدام .

— لا . تلك الوجبة تشتمل على خمر ، ولم يكن هنا اى خمر . فلننتظر ان كانت الوجبة التالية جيدة ايضا . واذا كانت كذلك ، فنعرف حينذاك ان الامر ليس كما تظن : اننى لم اسمع بانسان محكوم بالاعدام تقدم له عدة مآدب .

وبدأت اصدق نسيبى فى اليوم التالى ، لا لأن الطعام ما يزال جيدا ، بل لأن بعض الاطباء العسكريين اجرى لى فحصا . لقد كانوا فى غاية الدقة ، وسألونى عن كل مرض اصبت به من قبل ، وعما آكله عادة ، وعما لا استطيع اكله . واعطونى بنطاونين اسودين جديدين ومعطفا وألبسة داخلية بيضاء ، والاعجب من هذا انهم اعطونى سجائر ، فهذه بالتأكيد ليست الطريقة التى يعامل بها المحكومون بالاعدام .

وبعد بضعة ايام جاء الى زنزانتنا رجل ممتلئ الجسم قصير فى الاربعين من عمره تقريبا . وسأل كلا منا عن اسمه ، وعن الكتب التى قرأناها فى الاتحاد السوفياتى ، وعن راحتنا خلال الليالى القليلة الماضية . وعندما سمع اجابتنا هز رأسه وقال : " جيد ، ستقدم لكم حالا كتب وصحف لتقوموا ببعض الدراسات الجادة . " واستلمنا بعد بضع ساعات كتبا وصحفا وكذلك شطرنجات مختلف الاشكال واوراق لعب . ومنذ ذلك اليوم بدأنا نستمع الى المذياع مرتين فى اليوم ، مرة الى الاخبار واخرى الى الموسيقا . وسمح لنا

بالمشى فى الفناء لمدة ساعة ونصف ساعة كل يوم بعد الظهر : وفى المرة الاولى التى خرجنا فيها للتمشى اخبرنا قو الصغير بأنه سمع ان الرجل الذى طلب منا ان " نقوم ببعض الدراسات الجادة " هو مدير هذا السجن الخاص بمجرمى الحرب . وعلمنا فيما بعد ان الرجل الذى جلب لنا الكتب هو رئيس قسم يدعى لى .

فى تلك الايام كنا ندعو جميع موظفى السجن بكلمة " سيد " حيث لم نكن نعرف طريقة اخرى لمخاطبتهم . لقد جلب لنا السيد لى ثلاثة كتب هى « حول الديمقراطية الجديدة » و« تاريخ الصين الحديث » و« تاريخ الثورة الديمقراطية الجديدة » . وقال انه نظرا لعدم وجود كتب كافية حاليا فاننا سنضطر اما الى قراءتها بالتناوب واما ان تقرأ علينا بصوت عال ليسمعها كل واحد منا . وكانت كثير من المصطلحات المستخدمة فى هذه الكتب غريبة بالنسبة لى ، ولكن الأغرب من هذا كله هو مطالبتهم ايانا ، نحن السجناء ، قراءة الكتب .

وكان اول من اهتم بهذه الكتب منا قو الصغير . فقد قرأها اسرع من اى شخص آخر ، وطلب منا على الفور مساعدته فى حل مشكلاته . وعندما لم نستطع مساعدته ، طلبها من موظفى السجن . فسخر رونغ يوان منه قائلا :

— لا تظن ان هذه مدرسة — انه سجن .

فقال قو الصغير :

— أ لم يطلب منا مدير السجن ان ندرس ؟

فأجاب رونغ يوان :

— انه سجن سواء درست ام لم تدرس . لقد كان دائما سجنا ، وما يزال سجنا ، توفرت فيه كتب ام لم تتوفر .

فقال بو جيه انه سمع عن سجناء يعطون كتبا للقراءة فى السجون اليابانية ، ولكنه لم يسمع بعد ان فى الصين " سجنا متحضرا " مثل هذا . فهز رونغ

يوان رأسه قائلا :

— السجن سجن سواء كان متحضرا ام غير متحضر ؛ ان من الخير لك ان تتلو النصوص البوذية بدلا من تعلم هذه المواد .

فهم قو الصغير بمناقشته ولكن رونغ يوان اغمض عينيه وبدأ يرتل النصوص البوذية بصوت خافت .

عندما عدنا من رياضتنا بعد ظهر ذلك اليوم نقل الينا قو الصغير قطعة من الاخبار كان قد سمعها . هناك شخص ما قد حاول اعطاء سجانه ساعة يد ، فوبخ على ذلك . فجعل هذا بعض الشباب يتحدث . وقال شيو الصغير : أ لم يجلب السجانون الماء الساخن لاستحمامنا فى المرة السابقة ؟ اننى لم اسمع مطلقا بسجانين يحملون الماء للمساجين .

وقال روى الصغير ان السجانين هنا مختلفون تمام الاختلاف عن السجانين التقليديين : انهم لا يشتموننا او يضربوننا . فتمتم رونغ يوان الذى كان قد انتهى من صلاته استعدادا للعشاء قائلا :

— انكم ايها الشباب ما تزالون اغرارا تماما ؛ تثيرون ضجة كبيرة حول لا شيء . ان الشخص الذى حاول اعطاء الساعة ربما فعل ذلك حينما كان شخص آخر ينظر . فكيف يمكن للسجان ان يقبلها ؟ أ لمجرد انهم لا يشتمونكم ولا يضربونكم تتخيلون انهم لا يكرهوننا ؟ انتظروا سنأكل جزاءنا اخيرا .

فرد عليه قو الصغير قائلا :

— هل حمل الماء لاستحمامنا يعتبر عقوبة ؟

فتمتم رونغ يوان قائلا :

— قل ما تشاء . ان الشيوعيين لا يمكن ان يحبونا ؛

وتحسس جيبه ، وقال منزعجا :

— لقد تركت سجايرى على حافة النافذة فى الخارج . يا للاسف !

انها العلبة الاخيرة التى جلبتها من شنيانغ :
وفتح علبة سجاير من الصنف الزهيد وقال :
ــ ان السجانين هنا يدخنون جميعهم تقريبا . لقد جعلت لهم تلك العلبة هدية مقابل لا شيء .
وعندما انتهى من كلامه فتح باب الزنزانة ودخل سجان يدعى وانغ وبيده شيء ما ، وقال :
ــ هل فقد احد سجايره فى هذه الغرفة ؟
ورأينا جميعا ان ما يحمله هو علبة سجاير رونغ يوان التى جلبها من شنيانغ .
فأخذ رونغ يوان العلبة وشكره شكرا جزيلا . وعندما غادر السجان اشعل سيجارة منها . وبعد فترة من تدخينه السيجارة فى صمت صفع فخذه بشدة كأنما اكتشف الحقيقة فجأة ، وقال : " هؤلاء السجانون لا بد انهم قد انتخبوا انتخابا . بوسعهم طبعا ان يختاروا بعض السجانين المتحضرين نسبيا ليبارينا حيلة ودهاء . "
وكنا جميعا صامتين رهبة من حكم رونغ يوان القائم على الخبرة .
وبعد بضعة ايام اخذ شرح رونغ يوان يبدو بعيدا كل البعد عن الاقناع . كان بو جيه متعجلا لرؤية الصحيفة اليومية بعد ان عدنا من الرياضة بعد ظهر احد الايام . واخبرنا فى اهتياج بأنه سمع ان هناك مقالة فيها تبين لماذا تريدنا الصين الجديدة ان ندرس . فتحلقنا حوله متشوقين لرؤية المقالة . فقرأها علينا ، وكان فيها مقطع يقول انه نظرا الى ان الصين الجديدة بحاجة الى كافة المواهب فان من الضرورى تدريب واختيار اعداد كبيرة من الكوادر الجديدة . وسمع انه فى رأى الزنزانات الاخرى ان الحكومة قد تركتنا ندرس وهيأت لنا معاملة مفضلة لأنها تنوى استخدامنا للمساعدة فى سد العجز فى الكفاءات فى الصين الجديدة . ومن المضحك كما يتبين اليوم اننا كنا جميعا

مقتنعين تقريبا بهذه الفكرة ، الا رونغ يوان الذى عبر عن شكوكه .

وبدأنا ندرس بجدية . كنا فى السابق قد وجدنا جميعا هذه الكتب غير مسلية باستثناء قو الصغير ، ولم نقرأها الا من اجل السجانين فى الممر . ولكن دراستنا حتى الآن كانت لم تزد عن تعلم المصطلحات الجديدة . ورونغ يوان بالطبع لم يشترك طبعا ، وانما استمر يقرأ نصوصه البوذية بعينين مغمضتين بينما بقيتنا يدرسون .

لم يدم تفاؤلى العشوائى هذا طويلا على اى حال . فبعد ذلك بوقت قصير اعادت سلطات السجن تنظيم الزنزانات ، وفصلتنى عن افراد اسرتى :

مفصولا عن اسرتى

لماذا فصلت عن اسرتى ؟ استغرقت وقتا طويلا حتى ادركت ان هذه خطوة هامة جدا فى اعادة بناء نفسى . فى البداية ظننت انها كانت بسبب عداوة الحزب الشيوعى لى ، وقدرت انهم ارادوا ان يسألوا افراد اسرتى عن نشاطاتى الماضية ليتمكنوا بذلك من ادانتى فيما بعد .

عندما كنت فى الاتحاد السوفياتى قلت ان جميع نشاطاتى الخيانية قد تمت تحت الضغط ، مخفيا تماما تعاونى مع الامبرياليين اليابانيين ومحاولا كسب عطفهم . وقد ساعدنى اقربائى فى ذلك وغطوا على تصرفاتى . اما الآن ، وقد عدنا الى الصين ، فقد اردتهم ان يحتفظوا بأسرارى اكثر من السابق . وشعرت اننى مضطر الى الانتباه الدائم اليهم والتأكد من انهم لا يفلتون اية كلمة وكان على ان انتبه الى شيو الصغير خاصة .

خلال اليوم الاول من وجودنا فى فوشون لاحظت ان موقف شيو الصغير قد تغير نتيجة للحادثة التى تمت فى القطار . وشعرت كأن حشرة تدب على رقبتى ، فطلبت منه ان ينظر اليها . لو حدث ذلك فى الماضى لأتى على الفور ،

ولكنه في هذه المرة تظاهر بعدم السماع ولم يتحرك . واكثر من هذا انه ، عندما جاء روى الصغير واخرج اليسروع من رقبتى والقاه على الارض ، شخر شيو الصغير وقال : " انه ما يزال يرحم الحيوان . . ينقذ حياة تلك الحشرة بينما هي تقدم على ايذاء انسان آخر . " فشعرت بالضعف والفتور .

وعندما كان روى الصغير يطوى لى فراشى بعد بضعة ايام ، طلبت منه ان ينفض لى لحافى . وكان هذا تصرفا غير مرغوب فيه ، لأنه يجعل جو الزنزانة غير مريح . فأمسك شيو الصغير اللحاف والقاه على سريرى قائلا :

ــ انكما لستما الوحيدين فى هذه الغرفة . ان عدم تقديركما للآخرين لا يصح مطلقا .

فسألته :

ــ ماذا تقصد بكلمة " انتما " و" نحن " ؟ أليس عندك احساس باللياقة ؟

فانصرف بنظره عنى دون ان يجيب ، وجلس على الطاولة وبدأ يكتب وشفتاه مزمومتان . وتقدمت منه لأنظر ، ولكنه نحى الورق بعيدا ومزقها ، تاركا لى وقتا ارى فيه كلمتين فقط وهما " سوف نرى . "

وندمت اشد الندم على ما فعلته فى القطار . ومنذ ذلك الحين وانا ابذل اقصى جهدى لكسب صداقته ، بل وضحت له اننى لم اقصد ايذاءه بكلامى واننى احبه دائما . وانتهزت كل فرصة لأوضح لأبناء اشقائى الثلاثة ان المبادئ التى تحكم العلاقات الانسانية لا يمكن نبذها جانبا ، وان من الضرورى ان نكون اوفياء لبعضنا ونقف متساندين فى الاوقات الحرجة . وعندما لم يكن شيو حاضرا حذرت الآخرين لكى يكونوا حذرين جدا ازاءه ، وان يتأكدوا من عدم قيامه بتصرف سيئ ، وان يحاولوا جهدهم ليكسبوه الى جانبهم .

ونتيجة لجهودنا لم يقدم شيو الصغير على اى تصرف خطر ، وشعرت

فى النهاية انه ليس فيه ما يسوء . ولكن فى اللحظة التى لم اعد اقلق فيها ازاءه طلب منى سجان ان انتقل الى زنزانة اخرى .

فحزم الآخرون لى امتعتى ونقلوا لى فراشى وحقيبتى الى الزنزانة الاخرى . وبعد ان انصرفوا بقيت وحدى وسط حشد من الغرباء . وشعرت بحرج شديد لم اعرف معه أ اجلس ام اقف ، وبدا واضحا ان الاشخاص الثمانية الذين كانوا قبلى فى الزنزانة قد كبتوا بوصولى فلم يتلفظوا بكلمة . وبعد فترة ، ربما نتيجة لاتفاق ما ، وضع فراشى على سرير بجانب الجدار . وفيما بعد ادركت ان هذا مكان جيد لقربه من التدفئة فى الشتاء ، ولكونه بارد فى الصيف لأنه بجانب النافذة . ولكننى كنت فى ذلك الوقت فى غاية القلق بخصوص مخاطر فصلى عن اسرتى ، فلم انتبه لهذه التصرفات الموحية بالاحترام . وجلست ، ولكن السرير الخشبى بدا قاسيا اكثر من المعتاد ، لذلك نهضت وشرعت اخطو جيئة وذهابا . وعندها خطرت فى ذهنى فكرة ، فذهبت وطرقت باب الزنزانة ، فرد السجان القصير الممتلئ :

— من هذا ؟

— هل لى ان اسألك يا سيد ان كان بوسعى ان اتحدث مع مدير السجن ؟

— حول ماذا ؟

— اريد ان اوضح له اننى لم افصل عن اقربائى قبل ذلك قط ، واننى غير معتاد على ذلك مطلقا .

فهز رأسه وطلب منى ان انتظر وبعدها بقليل عاد ليخبرنى بأن مدير السجن قد سمح لى بالعودة الى زنزانتى السابقة . فسررت بذلك ، وجمعت فراشى بينما حمل لى السجان حقيبة ملابسى . وفى الممشى قابلت المدير ، فقال :

— انطلاقا من تقديركم معشر كبار السن قررت السلطات ان تقدم لكم طعاما من مستوى اعلى . لقد رأينا انك اذا اقمت مع اقربائك وتناولت طعاما مختلفا ، فان هذا سيترك اثرا سيئا عليهم ، لذلك . . .

وعرفت ماذا يفكر فيه فقاطعته دون ان انتظر حتى ينهى كلامه ، فقلت :

— هذا لا يهم . اننى استطيع ان اضمن ان هذا لن يترك عليهم اى اثر سيئ .

وكنت على وشك ان اقول : " انهم قد اعتادوا على ذلك . "

فابتسم المدير قائلا :

— ان افكارك بسيطة جدا . أ لم تفكر ابدا بأن عليك ان تتعلم العناية بنفسك ؟

— بلى ، بلى . ولكن يجب ان اتعلم تدريجيا وخطوة خطوة .

فقال المدير مع هزة من رأسه :

— حسن جدا ، ابدأ فى التعلم اذن .

وعندما عدت الى زنزانتى السابقة شعرت اننى قد فارقتها منذ سنة . وسروا جميعا برؤيتى . واخبرتهم بما قاله المدير بشأن تعامى الاعتناء بنفسى . فابتهج كل واحد منهم حيث استنتج من هذا ان الحكومة ليست مستعجلة فى محاسبتنا .

لكنهم لم يتركونى اتدرب على الاعتناء بنفسى ، كما لم يكن عندى ميل مطلقا الى فعل ذلك . وانشغلت بالمعنى المتضمن فى حديث المدير بأننا سننفصل فيما بعد ، واخذت افكر فى طريقة ما لمنع حدوث ذلك . ولكن بعد عشرة ايام ، قبل ان اجد حلا لهذه المشكلة ، طلب منى السجان ان احزم امتعتى .

وبينما جمع روى الصغير اشيائى انتهزت الفرصة لاصدار بعض التعليمات لأقربائى . ولم استطع ان افعل ذلك بالكلام خوفا من ان يسمعنى السجان ، فكتبت مذكرة الى بو جيه ليمررها على الآخرين . ونظرا الى ان هناك غريبين فى الزنزانة وهما موظفان سابقان فى حكومة وانغ جينغ وى العميلة فقد اضطررت الى ان اجعل المعلومات غامضة نوعا ما . فكتبت اننا قد انسجمنا مع بعضنا

انسجاما جيدا بحيث يجب ان نستمر اوفياء مساندين لبعضنا بعضا بعد ان اغادر ، واننى اشعر باهتمام شديد بكل منهم . ورجوت ان يفهموا ان ما قصدته حقا ضرورة مراقبتهم لكلماتهم .

وحمل ابناء اشقائى امتعتى واخذونى الى الزنزانة التى انتقلت اليها فى المرة السابقة . وهناك قدم لى نفس السرير الجيد ، ومرة اخرى لم استطع ان اجلس ساكنا . فأخذت اخطو جيئة وذهابا ، ثم طرقت الباب ثانية .

ففتح لى نفس السجان الممتلئ الجسم . وعرفت عندها انه يدعى ليو ، وشعرت نحوه بمودة لأنه جلب لنا المزيد من الباوتسى (اكر من العجين المطبوخ على البخار محشوة باللحم المفروم) عندما رأى مدى استمتاعنا بهذا الطعام لدى تناولنا اياه اول مرة منذ بضعة ايام .

— يا سيد ليو عندى مسألة .

— هل تريد رؤية المدير ؟

— اريد ان اناقشك بالامر اولا . اننى . . . اننى . . .

فقال ضاحكا :

— أ لم تعتد ذلك بعد ؟

وخيل الى اننى اسمع الآخرين خلفى يضحكون . فاحمر وجهى خجلا ، وحاولت ان اشرح له :

— ليس الامر اننى اريد ان اعود الى زنزانتى السابقة ، بل اتساءل ان كان يسمح لى برؤية افراد اسرتى مرة فى اليوم . اننى سأشعر بمزيد من السرور اذا استطعت تحقيق ذلك .

— أ لن تكون قادرا على رؤيتهم عندما تخرج للرياضة فى الفناء ؟ ليست هناك مشكلة .

— افضل ان اكون قادرا على التحدث اليهم . فهل يسمح المدير بذلك ؟

وكان هناك نظام لا يسمح لنزلاء الزنزانات المختلفة بمحادثة بعضهم

بعضا .

— سأسأل لك .

ومنحت هذا الاذن ، ومنذ ذلك الحين اصبحت قادرا على التكلم مع افراد اسرتى كل يوم . واخبرنى بعض ابناء اشقائى بما حدث فى زنزانتهم وبما قالته السلطات لهم . وظل قو الصغير يبدو غير قلق ، اما شيو الصغير فظل كسابق عهده ، واستمر روى الصغير فى غسل ملابسى واصلاح جواربى .

وبرزت لى مشكلات جديدة بعد حل مشكلتى المقلقة السابقة . خلال السنوات الاربعين الماضية ، اننى لم اطو لحافى مطلقا ولم ارتب سريرى او اصب الماء الذى اغسل به ولم اغسل قدمى او اربط حذائى قط . كما لم ألمس مغرفة الارز او السكين او المقصى او الابرة او الخيط ، لذلك اصبحت الآن ، وقد تعين على ان اعتنى بنفسى ، فى وضع حرج جدا . فعندما يكون الآخرون قد غسلوا انفسهم فى الصباح كنت انا قد لبست ثيابى فقط . وعندما اتهيأ لأن اغسل يذكرنى شخص ما بأننى يجب ان اطوى لحافى اولا ؛ وفى الوقت الذى اكون قد طويت لحافى على شكل صرة غير مرتبة يكون كل شخص قد انتهى من الغسيل . وعندما اضع فرشاة الاسنان فى فمى اكتشف انها خالية من المسحوق ، وبعد ان انتهى من تنظيف اسنانى يكون الآخرون قد شرعوا او اوشكوا على انهاء فطورهم . وهكذا كانت الامور تمضى طوال اليوم .

ان كونى ابطأ من الآخرين لم يكن اسوأ من ضحك الناس من ورائى . فزملائى فى الزنزانة كانوا جميعا من ضباط " امبراطورية منشوريا " السابقين الذين لم يجرؤوا ابدا على رفع رؤوسهم امامى فى الايام السابقة ؛ وعندما جئت الى الزنزانة فى البداية ، لم يغامروا فى مخاطبتى بكلمة " انت " ، فكانوا اما ان ينادونى بكلمة " سيد " او ان يتجنبوا استخدام كلمات الخطاب لدى تحدثهم معى . ولكننى وجدت الآن ان من الصعب تحمل ضحكهم

المكبوت .

ولكن هذا لم يكن اسوأ ما فى الامر . ففى يومنا الاول فى فوشون وضع جدول الخدمات لكل زنزانة لتؤديها بالتناوب وهى تكنيس الارض ومسح الطاولة وتفريغ المبولة . وانا لم افعل ايا من هذه الواجبات عندما كنت فى زنزانتى السابقة ، ولكن المشكلة التى واجهتنى الآن هى ماذا افعل عندما يأتى دورى . هل سأفرغ مبولة الآخرين ؟ وشعرت بأن هذا الامر اتعس من تلك الاتفاقية السرية بين " امبراطورية منشوريا " واليابان : ورأيت اننى سأحط من شأن اسلافى والحق الخزى بصغار عشيرتى . ومن حسن الحظ ان جاء احد المسؤولين فى السجن فى اليوم التالى وقال للجميع اننى مريض ولا استطيع ان اقوم بدورى كالبقية . وسررت كثيرا كأننى انقذت من موت مؤكد ، وشعرت بالامتنان للمرة الاولى فى حياتى .

ومع زوال هذا الخطر ظهر خطر آخر . كان المدير يظهر عادة عندما نكون فى رياضتنا بعد الظهر فى الباحة . وكان دائما ما يتحدث مع احدنا ونحن نقوم بالرياضة ، وهذه المرة بدا انه قد اختارنى ، فقد نظر الى من الاعلى الى الاسفل ، ولا بد انه رأى ذعرى . فنادى :

— بو يى !

لم يسبق لى ان نوديت باسمى الشخصى قط قبل عودتى الى الصين ، لذلك كنت ما ازال غير معتاد سماعه . وفضلت ان ينادينى الناس برقمى (٩٨١) كما كان يفعل السجانون فى بداية وصولنا الى فوشون . وقلت وانا اتقدم نحوه :

— نعم ايها المدير .

فقال بصوت هادئ ودود :

— لقد وزعت عليك ملابس مثل ملابس الآخرين ، فلماذا لا تبدو مثلهم ؟

فنظرت الى ثيابى ثم الى الآخرين . كانت ثيابهم نظيفة مرتبة بينما

ثيابي مجعدة وسخة : وكان احد جيوبي نصف مهترئ ؛ وكان هناك زر مقطوع في سترتي ؛ وبقعة حبر على ركبتي ؛ وبدت ساقا بنطاوني مختلفتين في الطول ؛ وحذائي ليس فيه الا رباط ونصف . فتمتمت قائلا :

— سأرتب نفسي . عندما اعود سأصلح جيبي واخيط زرا جديدا لسترتي .

فسألني وعلى وجهه طيف ابتسامة :

— كيف تجعدت ملابسك هكذا ؟ عليك ان تنتبه الى الآخرين وهم يقومون بأعمالهم . اذا كنت قادرا على تعلم الاشياء الجيدة من الآخرين فستستطيع ان تحرز تقدما .

ومع ان المدير قد كلمني بلطف الا انني غضبت غضبا شديدا . فهذه هي المرة الاولى التي تكشف فيها عدم كفاءتي علنا ، وانها المرة الاولى التي اظهر فيها امام اعين الناس ليس كصورة للمهابة بل كـ " نفاية " . واستدرت متجنبا تحديق " وزرائي " و " ضباطي " السابقين ، متمنيا ان يخيم الظلام . وقلت في نفسي بتعاسة : " انهم يريدون ان يستخدموني عينة لكل فرد في الدراسة . " ونظرت الى السور الرمادي العالي . ان حياتي كلها قد امضيتها محاطا بأسوار ، ولكنني في الماضي كنت اعامل باحترام واتمتع بين الآخرين بمركز خاص داخلها ، حتى في تشانغتشون . ولكن داخل هذه الاسوار كل شيء قد تغير . لقد عوملت تماما كأي شخص آخر ، بل واجهت صعوبة في العيش . انني لست تعيسا بسبب عدم كفاءتي ولكن بسبب ان الآخرين اعتبروني غير كفء ، وكذلك بسبب فقدي لحقي الطبيعي في ان يخدمني الآخرون . والامتنان الذي شعرت به لاعفائي من خدمات الزنزانة قد تلاشى نهائيا .

وفي تلك الليلة اكتشفت انه عندما يخلع الآخرون ثيابهم للنوم فانهم يطوونها على نحو مرتب ويضعونها تحت وسائدهم ، بينما كنت اكومها تحت قدمي حين اخلعها . وبدا لي ان في ملاحظات المدير شيئا من الوجاهة .

لو عرفت كيف اتعلم الاشياء الجيدة من الآخرين لما كنت فى وضع تعيس كما انا فيه الآن . لماذا لم يخبرنى زملائى السجناء بهذا من قبل ؟ اية خيانة هذه !

كان اولئك الضباط العملاء ما يزالون فى الواقع مكبوتين بتصرفى المتعجرف ، لذلك لم يشيروا الى بشىء من هذا .

امضينا شهرين فى فوشون ، وفى نهاية اكتوبر نقلنا جميعا الى هاربين .

الانتقال الى هاربين

احب بضعة شبان بيننا الثرثرة فى القطار الى هاربين ، كما رغبوا فى لعب الورق مع السجانين ، بينما لم يتكلم بقيتنا الا القليل وبمنتهى الهدوء . وكان الجو فى العربة كئيبا معظم الوقت ولم يكن قليلا بيننا من لم يستطع النوم ليلا او الاكل نهارا . ومع اننى لم اكن مذعورا كما كنت عند عودتى فى البداية الى الصين ، الا اننى كنت قلقا اكثر من اى شخص آخر . كان ذلك بعد وقت قصير من اقتراب قوات الولايات المتحدة الامريكية من نهر يالو ودخول متطوعى الشعب الصينى الى كوريا . وذات ليلة لم استطع انا وبو جيه ان ننام ، فسألته بهدوء عن رأيه فى الوضع العسكرى . فأجاب بصوت فاتر : " ان دخول الحرب طلب للمتاعب . سننتهى فى لمح البصر . " ففهمت من ذلك ان الصين ستهزم وان القوات الامريكية ستحتل الشمال الشرقى على الاقل ، وان الشيوعيين ايضا يمكن ان يجهزوا على جماعتنا ليمنعونا من الوقوع فى ايديهم . واكتشفت فيما بعد ان هذا هو ما كنا نفكر فيه نحن السجناء جميعا حينذاك .

واشتد يأسى عندما رأيت السجن فى هاربين . لقد كان سجنا سابقا لحكومة " امبراطورية منشوريا " . وجعلنى مرآه ادرك ما المقصود من ان

يعامل المرء كما يعامل غيره . لقد خصصه اليابانيون لسجن الناس الذين ارتكبوا ذنب القيام بـ " النشاطات المعادية لامبراطورية منشوريا ولليابانيين " . كان مؤلفا من طابقين على شكل مروحة وفيه صفوف من الزنزانات و برج مراقبة فى الوسط . وكانت هناك مصبعة من القضبان الحديدية بقطر انش امام الزنزانات وخلفها ، وكانت الزنزانات مفصولة عن بعضها بجدران من الخرسانة ، وتتسع كل واحدة منها لسبعة او ثمانية افراد . ولم تكن زنزانتى مزدحمة نسبيا ، فليس فيها الا نحن الخمسة ، ولكن نظرا الى انها صممت وفقا للاسلوب اليابانى ، فقد اضطررنا الى النوم على حصر مفروشة على الارض . وقد امضيت فى هذا المكان سنتين تقريبا ، وسمعت انه هدم فيما بعد . ومع اننى لم اعرف ، عند اول اقامتى هنا ، ان قلة من الذين كانوا محتجزين هنا خلال فترة " امبراطورية منشوريا " قد بقوا على قيد الحياة ، الا ان صوت فتح او اغلاق البوابات الحديدية كان كافيا لأتحمله . لقد جعلتنى هذه الضجة افكر دائما فى التعذيب وفى زمرة مطلقى الرصاص على المحكومين بالاعدام .

وعوملنا هنا كما كنا نعامل فى فوشون . فالسجانون لطفاء ، والطعام جيد ، والصحف والاستماع الى المذياع والاستجمام استمرت كالسابق . واراحنى هذا الى حد كبير ، ولكنه لم يستطع ان يهدئنى تماما . واذكر كيف كان صوت صفارة الانذار التدريبية الحزين ينفذ الى اعماق رأسى ذات ليلة وظل كذلك وقتا طويلا بعد توقفه حقا . وقبل ان اصدق ان القوات الشعبية الصينية والكورية ماضية حقا فى كسب الانتصارات فى كوريا ، اقتنعت بأنه حتى اذا لم يقتلنى الصينيون فاننى سأموت فى غارة جوية امريكية . وكنت متأكدا من ان الصين ستهزم مهما حدث واننى سأموت .

واذكر بوضوح انه لم يصدق احد منا اخبار الصحيفة عن الانتصار الاول الذى احرزه متطوعو الشعب الصينى على الجبهة الكورية ؛ واننا كنا متشككين جدا فى الاخبار التى تقول ان القوات الشعبية الصينية والكورية

قد صدت الامريكان فى الحملة الناجحة الثانية الى القرب من الخط ٣٨ ؛ وبعد فترة من الوقت تلت عيد رأس السنة لعام ١٩٥١ قرأ علينا احد الكوادر الاداريين بيانا بأن القوات الصينية والكورية قد استولت على سيئول ، فدوى التصفيق فى كافة الزنزانات . وعندها فقط صدقت نصف تصديق . وعندما اعلنت فى الصحف " انظمة معاقبة المعادين للثورة " فى فبراير ذلك العام ، اوقفتنا سلطات السجن عن قراءة الصحف خوفا من ان نصاب بالذعر ؛ ولكننا لم نعرف ذلك ، بل ظننا ان السبب لا بد ان يكون الهزائم فى كوريا ؛ واصبحنا اكثر شكا من السابق فى الانتصارات الاولى ، وايقنت ان هلاكى قد اصبح وشيكا .

استيقظت مرة فى منتصف الليل على صوت البوابات الحديد ، ورأيت بضعة رجال يخرجون احد السجناء من الزنزانة المجاورة . فبدأت ارتجف كليا ، مقتنعا بأن القوات الامريكية تقترب من هاربين وان الشيوعيين سيتخلصون منا اخيرا . وبعد قضاء ليلة مضنية وجدت فى الصباح اننى كنت مخطئا تماما ؛ فما حدث هو ان احد الرجال فى الزنزانة المجاورة قد تعب كثيرا من فتق اصابه ، فأبلغ السجان المدير بذلك ، فجلب طبيبا عسكريا وممرضات لفحص المريض . ورأيتهم يأخذونه الى المستشفى ، ولكننى كنت مرعوبا بحيث لم اشاهد الا سراويلاتهم العسكرية ولم افلح فى ملاحظة مآزرهم البيضاء .

على ان هذا لم يجلب لى كثيرا من الطمأنينة . فقد ظللت اظن مع كل عربة اسمعها قادمة انها جاءت لتأخذنى الى محكمة علنية . وبقيت طوال النهار اراقب واصغى لكل شيء يمر خارج القضبان الحديد ، وغالبا ما كنت ارى احلاما مروعة فى الليل . ولم يكن زملائى فى الزنزانة احسن حالا منى بكثير فشهيتهم للطعام كان تتضاءل كشهيتى ومعنوياتهم تهبط . وكلما كنا سمعنا ضجة على السلم نذير رؤوسنا لننظر ، واذا ظهر غريب يخيم الصمت على الزنزانات كأنما نواجه جميعا حكمنا الاخير . ولكن عندما اصبحنا جميعا

فى ذروة اليأس منحنا املا جديدا من خلال حديث ادلى به الينا مسؤول فى الامن نيابة عن الحكومة .

وقف مسؤول الامن امام برج المراقبة وخاطب جميع الزنزانات مدة ساعة تقريبا . فأخبرنا بأن الحكومة لا تقصد قتلنا ، بل تريدنا ان نختبر انفسنا وندرس ، وبذلك نعيد بناء انفسنا . وقال ان الحزب الشيوعى والحكومة الشعبية تعتقدان بأن اكثرية المجرمين يستطيعون تحت السلطة السياسية الشعبية ان يعيدوا بناء انفسهم ويتحولوا الى اناس جدد . وقال ان المثل الاعلى للشيوعية هو اعادة صياغة العالم ، وانه من اجل تحقيق هذا الهدف فان من الضرورى فى البداية اعادة بناء البشرية . وعندما انتهى من حديثه تكلم مدير السجن . واذكر ان خطابه قد اشتمل على مقطع ورد على هذا النحو تقريبا :

" انكم لا تفكرون الا فى الموت ، وتتخيلون ان كل شىء هو جزء من الاستعدادات لموتكم . لماذا لا تسألون انفسكم هذا السؤال : لماذا تطلب منكم الحكومة الشعبية ان تدرسوا اذا كانت تخطط لموتكم ؟

" ان لديكم كثيرا من الافكار الغريبة عن الحرب الكورية : ربما يظن بعضكم ان متطوعى الشعب لا يستطيعون ضرب القوات الامريكية وان الامريكيين سيغزون الشمال الشرقى لا محالة ، لذلك تخشون ان يقتلكم الشيوعيون اولا . وقد يكون لدى بعضكم اعتقاد اعمى بقوة الولايات المتحدة الامريكية ويعتقد بأنها لا تقهر . فلأؤكد لكم بأن الشعبين الصينى والكورى قادران حتما على هزيمة الامبريالية الامريكية ، وان سياسة الحزب الشيوعى الصينى فى اعادة بناء المجرمين سوف تنجح بلا ريب . وقد اثبتت الحقائق ان الحزب الشيوعى لا يصدر ادعاءات فارغة .

" ربما تقولون اننا اذا كنا لن نقتلكم فان من الخير ان ندعكم تغادرون . لا ، ان هذا لا يستقيم . اذا نحن اطلقنا سراحكم قبل ان يعاد بناؤكم ، فانكم قد ترتكبون جرائم اخرى وعلى اية حال فان الشعب لن يوافق ولن

يصفح عنكم عندما يراكم . لذلك يجب ان تدرسوا على نحو جاد وتعيدوا بناء انفسكم . "

وعلى الرغم من انني لم افهم او لم اصدق كل هذا الكلام ، الا انني رأيت ان هناك مسوغات تبرر ان الحكومة لا تريد قتلنا . وهذا كان التفسير الممكن الوحيد للدافع وراء توسيعهم حمامنا فى فوشون وانقاذهم حياة المريض ، وتقديمهم طعاما خاصا لكبار السن منا .

وفيما بعد اكتشفت ان اشياء كهذه لم تكن غير اعتيادية فى سجون الصين الجديدة ، ولكنها فى ذلك الوقت بدت غريبة جدا بالنسبة الينا ، واعتبرناها علامات للتقدير الخاص . لذلك عندما سمعنا موظفى الحكومة هؤلاء يخبروننا رسميا بأن الحكومة لا تريد ابادتنا ، شعرنا حالا بالمزيد من الطمأنينة .

لم ينتبه اى منا الى الاشارات الخاصة بالدراسة واعادة بناء انفسنا : وظننت اننا قد اعطينا كتبا وصحفا لتمضية وقتنا ولابعادنا عن الافكار السيئة . وبدا مضحكا بالنسبة لى ان قراءة بضعة كتب يمكن ان تغير تفكير المرء . بل وكنت على اقل استعداد للاعتقاد بأن القوات المسلحة الامريكية يمكن ان تهزم . وقد اجمع الضباط السابقون الاربعة فى زنزانتى ، والذين اعتبروا انفسهم خبراء عسكريين ، على ان امريكا ما تزال قادرة على السيطرة على الكرة الارضية بأسلحتها التقليدية حتى وان لم تكن لها الجرأة على ان تهزأ بالرأى العام العالمى وتستخدم القنابل الذرية ، ان قوتها لا تضاهى ، وان من السخافة القول بأنها يمكن ان تهزم . لكننا ادركنا فيما بعد ان الشيوعيين ليسوا من النمط الذى يتكلم كلاما سخيفا ، وقبل ان يمضى وقت طويل بدأنا نلاحظ ان الاخبار بخصوص كوريا لم تكن مزيفة . واخبرنى زملائى العسكريون فى الزنزانة انه بينما عدد الاصابات يمكن ان يخترع اختراعا من الجانبين ، الا ان من الصعب جدا الاستمرار فى الكذب بخصوص الاراضى التى تكسب او تفقد . كما ان الخبر الذى يفيد بأن القائد العام الامريكى يرغب

فى اجراء محادثات كان اصعب من ان يخترع اختراعا . فاذا كانت القوات الامريكية راغبة فى التباحث بشأن وقف اطلاق النار ، فكيف يمكن ان تكون متصفة بأنها لا تقهر ؟ لقد كان الضباط السابقون فى حيرة من امرهم ، وكذلك كنت انا .

ان تطور الحرب الكورية قد بين مدى خطأ توقعاتنا السابقة واثبت ان امريكا لم تكن نمرا حقيقيا بل نمرا من ورق. وشعرت الآن بمزيد من الطمأنينة، لأنه اذا لم يكن الشيوعيون مهزومين ، فانهم لن يكونوا متعجلين كثيرا فى التخلص منا .

واصبحت الآن دراساتنا التى كانت فى السابق تجرى كيفما اتفق يديرها كادر من سلطات السجن . وقد القى علينا حديثا حول المجتمع الاقطاعى ، ثم تركنا نناقش هذا الموضوع . واضطررنا جميعا الى كتابة ملاحظات .

وذات يوم قال لنا هذا الكادر : " لقد سبق ان قلت انكم حتى تتمكنوا من اصلاح تفكيركم ، عليكم ان تفهموا اى نوع من الايديولوجية كانت لديكم . ان ايديولوجيتكم لا تنفصل عن خلفيتكم وتاريخكم الشخصيين ، لذلك يجب ان تبدأوا بفحصهما . ومن اجل اصلاح تفكيركم ينبغى لكل منكم ان يكتب سيرته الذاتية . "

وبدا هذا الامر بالنسبة لى كأنه حيلة لجعلى اكتب اعترافا . ترى هل سيقدم الشيوعيون على الاجهاز علينا بعد ان استقر الوضع العسكرى ؟

كتابة سيرتى الذاتية وتقديم اختتامى

لقد اعتبرت كتابتى لسيرتى الذاتية مقدمة لمحاكمتى ، وصممت على ان اكرس معظم هذه الفرصة لانقاذ حياتى ، وعرفت اى خط سأسلك . عندما نزلنا من الشاحنات واصبحنا على وشك دخول سجن هاربين همس قو الصغير

فى اذنى : " اذا سألونا اى سؤال فسنتمسك بنفس القصة التى استخدمناها فى الاتحاد السوفياتى . " فهززت رأسى موافقا .

وقد غطت هذه القصة تعاونى مع العدو وصورتنى كوطنى برىء جيد . وادركت اننى يجب ان اكون اكثر حذرا هنا مما كنت عليه فى الاتحاد السوفياتى وألا اترك ولو ثغرة .

وتكلم قو الصغير نيابة عن جميع ابناء اشقائى ومرافقى الشخصى لى الكبير . وهذا يعنى انهم كانوا مستعدين لمساعدتى واوفياء لى كالسابق . ولكن الولاء لن يكفى لمنع حدوث ثغرات ؛ فأعطيتهم المزيد من التعليمات ولاسيما لى الكبير ، وكان الشاهد على القسم الرئيسى من قصتى — كيف ذهبت من تيانجين الى الشمال الشرقى .

لم استطع التكلم مع لى الكبير الا فى فترات الراحة عندما كان مسموحا لى برؤية افراد اسرتى . اما المجرمون الاصغر سنا ، ومن بينهم جميع افراد اسرتى (عدا رونغ يوان الذى كان قد مات و" طبيبى الامبراطورى " الدكتور هونغ الذى كان مريضا) فقد بدأوا الآن القيام بأعمال كنقل الماء وتقديم الطعام والمساعدة فى اعمال المطبخ . ولم يكن من السهل جدا على ان اراهم جميعا على ما هم عليه . ولكن هذا التطور الجديد كان له فوائده ، اذ مكنهم ذلك من التحرك بحرية نوعا ما وتسريب الرسائل لى . وارسلت فى طلب لى الكبير وذكرته بألا يقول شيئا عن كيفية مغادرتى لتيانجين ، وأنه لم يزد على ان حزم امتعتى بناء على تعليمات هو سى يوان بعد ان غادرت . فهز لى الكبير رأسه ليرينى انه فهم ، ثم انصرف .

وفى اليوم التالى سرب روى الصغير رسالة الى من لى الكبير . البارحة مساء كان يتحدث مع جيا ، احد كوادر السجن ، واخبره اننى فى الشمال الشرقى قد عاملت المرؤوسين عندى بلطف كبير ولم اشتم او اضرب ايا منهم ؛ واننى عندما كنت فى ليويشون اغلقت بابى ورفضت رؤية

اليابانيين . فذعرت من هذا الكلام : لماذا ذكر ليويشون ؟ وطلبت من روى الصغير ان يخبره بألا يقول الكثير ، وان يتظاهر بأنه لا يعرف شيئا عما حدث فى ليويشون .

وبعد ان طمأنت نفسى بوفاء لى الكبير واصدرت تعليمات لأبناء اشقائى ، بدأت اكتب سيرتى الذاتية . فوصفت خلفية اسرتى وطفولتى فى المدينة المحرمة . وقلت اننى قد اجبرت على الذهاب الى المفوضية اليابانية ، واصررت على اننى بقيت بعيدا عن المعترك السياسى وانا فى تيانجين ؛ وتمسكت بالقصة التى تقول اننى اختطفت وعشت حياة تعيسة فى تشانغتشون وانتهيت الى القول :

> عندما رأيت معاناة الشعب ولم استطع ان افعل شيئا لمساعدته أستبد بى الحزن . وتمنيت ان تشق القوات الصينية طريقها الى الشمال الشرقى واشتقت الى حدوث بعض التطورات الدولية التى تمكن الشمال الشرقى من تحقيق تحرره ، وقد تحقق هذا الامل اخيرا عام ١٩٤٥ .

وبعد ان راجعت ما كتبت مراجعة دقيقة كتبت نسخة اخرى نظيفة وسلمتها . واعتقدت بأنها ستقنع اى قارئ اننى تبت توبة كاملة .

بعد ان سلمت سيرتى الذاتية حاولت التفكير فى طريقة اخرى لاقناع الحكومة بـ " اخلاصى " و" تقدمى " . ومن الواضح انه لم يكن كافيا ان اجعل لى الكبير والآخرين يمتدحوننى ، فقد احتجت الى بعض الانجازات العملية . ولكن منجزاتى منذ بدأت آخذ دورى فى خدمات الزنزانة لم ترضينى ، ناهيك عن ارضاء سلطات السجن .

وبعد سماع خطابات مسؤول الامن ومدير السجن اخذنا جميعنا نفكر فى طريقة لاظهار كيفية رفعنا " وعينا السياسى " آملين ان نستطيع بهذه الطريقة انقاذ حياتنا . ويبدو الامر مضحكا الآن ، ولكننا ظننا حينذاك ان

النفاق الفعال سوف يخدع الحكومة . وما كان يحزننى جدا فى ذلك الوقت الذى كنت فيه نهبا لهذا الوهم ، هو عجزى عن تأدية عرض جيد كالآخرين .

وحاولنا جميعا كسب ثقة سلطات السجن من خلال الدراسة وقيامنا بأداء خدماتنا ومن خلال حياتنا اليومية . وكان عضو مجموعتنا الذى كانت " منجزاته " فى الدراسة من ابرز المنجزات هو رئيس مجموعتنا ، لاو وانغ ، وهو لواء سابق فى " امبراطورية منشوريا " . كان قد درس القانون فى بكين بضع سنوات . لقد حفظ بوصفه اكثرنا ثقافة المصطلحات الايديولوجية الجديدة بسرعة . اما الضباط الثلاثة الآخرون فقد وجدوا مثلى ان من الصعب تمييز الفرق بين " الذاتى " و " الموضوعى " ، ولكنهم احرزوا " تقدما " اكثر منى . فقد كان لديهم دائما ما يقولونه فى المناقشات . واسوأ ما فى الامر ان كلا منا كان ملزما بكتابة مقالة يشرح فيها بأسلوبه ما تعلمه من طبيعة المجتمع الاقطاعى . واستطعت ان اهيئ الامر لقول شىء فى المناقشات ، ولكن الكتابة كانت اكثر صعوبة . ولم ار اهمية كبيرة فى الدراسة ، واخافتنى شروح الاقطاعية التى قرأتها فى الكتب . فمثلا اذا كان الامبراطور كبير ملاك الاراضى فلا بد من الحكم على بسبب ذلك وكذلك بسبب خيانتى للوطن . وقد ارعبتنى هذه الفكرة كثيرا بحيث وجدت صعوبة فى كتابة ولو كلمة واحدة . وعندما جمعت اخيرا بعض الاجزاء الى بعضها عن طريق انتحال مقاطع من هنا وهناك رأيت انها ليست جيدة كتلك التى لدى الآخرين . وبدا واضحا ان منجزاتى فى الدراسة لن ترضى السلطات .

وكان الدليل الوحيد الذى اظهرته لتقدمى هو ان آخذ دورى فى خدمات الزنزانة بعد الانتقال الى هاربين . وهذا كان اسهل بسبب وجود مراحيض فى زوايا الزنزانات ، لذلك لم تكن هناك مشكلة فى تفريغ المباول . وكان العمل خفيفا بما فيه الكفاية ، يتألف فقط من تلقى الوجبات الثلاث والماء الساخن الذى كان يرسل الينا كل يوم ومسح الحصران . وكانت هذه هى

المرة الاولى التى خدمت فيها الآخرين ، وقد اضطربت الامور عندما سكبت شيئا من حساء الخضار على رأس احد الموجودين . ومن ذلك الحين بدأ يساعدنى شخص عندما يأتى دورى ، مدفوعا باللطف نوعا ما ولتجنب انسكاب الحساء مرة اخرى .

كانت ثيابى ملخبطة كالسابق واستمر روى الصغير فى غسلها واصلاحها لى . وقد اربكنى هذا ، ولكن عندما حاولت ان اقوم بغسل ثيابى بنفسى بعد ان تكلم معى مدير السجن فى فوشون بللت نفسى بالماء دون ان اجيد من استخدام الصابون وخشبة الغسيل . وبعد تسليمى سيرتى الذاتية بوقت قصير قررت ان اقوم بمحاولة ثانية لأقوم بغسل ثيابى بنفسى كى امنع السلطات من ان ييئسوا منى . وغسلت قميصا ابيض ، ولكن عندما نشف بدا شكله اقرب الى رسم مائى من اى شيء آخر ، فأخذه روى الصغير هامسا الى بأن هذا ليس بالعمل الذى يقوم به الـ " فوق " . فوافقته فى الرأى قادحا زناد فكرى لايجاد طريقة اخرى اترك بها انطباعا حسنا لدى السلطات .

وفيما كنت اخطو ذهابا وايابا سمعت احد زوجى شقيقتى وهو لاو وان ، وبعض زملائه فى زنزانته يتحدثون عن التبرعات التى تقوم بها كافة قطاعات الشعب الصينى لشراء طائرات ومدافع ثقيلة للحرب الكورية . ولم يكن مسموحا لنا بالتحدث مع السجناء فى زنزانات اخرى ، ولكن لم يكن هناك ما يوقفنا عن الاستماع الى حديثهم . وكان احدهم وزيرا سابقا فى "امبراطورية منشوريا " ، وقد تبرأ منه ابنه الذى كان حينذاك ، بحسب اعتقاده ، يقاتل فى كوريا . وقد قال انه سيتبرع بممتلكاته للحرب الكورية اذا لم تكن قد صودرت . فضحك الآخرون منه لتفكيره فى انه يمكن ان تكون ممتلكاته ما تزال لديه او ان ابنه يمكن ان يكون قد سمح له بأن يقاتل ؛ ثم قال احدهم بأن الوحيدين بيننا اللذين تستأثر ممتلكاتهما بالاهتمام هما الامبراطور ورئيس الوزراء السابق .

فنبهني هذا الامر . حقيقة كان لدى من المجوهرات اكثر من الآخرين بكثير . فعندى ، سوى الاشياء المخبوءة فى اسفل حقيبة ملابسى ، بعض الاشياء البالغة القيمة مما لم اخفيه . ومن بين ذلك طقم من ثلاثة اختام لا تقدر قيمتها منقوشة بكل عناية من ثلاث قطع مترابطة ، كان قد صنع للامبراطور تشيان لونغ بعد ان تقاعد عن العرش . فقررت ان اسلم هذه الاشياء برهانا على " وعيى السياسى" .

وحاول بعض السجناء الانضمام الى متطوعى الشعب الصينى للقتال فى كوريا . وعندما رفضت طلباتهم احسست بالغيرة لهذه الطريقة التى ابدوا منها " وعيهم السياسى" دون اية خطورة جدية لحقت بهم . وقررت ألا اتخاف هذه المرة . ومن حسن الحظ ان موظفا حكوميا جاء فى جولة تفتيشية فى ذلك اليوم . وعندما رأيته قادما عرفت انه الرجل الذى طلب منى الا اقلق ونحن فى شنيانغ . واستطعت ان ابين من سلوك مدير السجن الذى كان يرافقه ان هذا الرجل اعلى منه مركزا . ورأيت انه سيكون اكثر فاعلية ان اقدم اشيائى الى هذا الموظف الكبير . وعندما دخل زنزانتنا انحنيت انحناءة شديدة وقلت :

— اود ان اعلن يا سيدى اننى ارغب فى تقديم هذا الشيء الى الحكومة الشعبية .

فلم يأخذه بل هز رأسه وقال :

— أ لست بو يى ؟ من الافضل ان تناقش هذا الامر مع سلطات السجن .

ثم سألنى بضعة اسئلة اخرى وانصرف . وقلت فى نفسى لو انه القى نظرة جيدة على اختامى لما بدا غير مبالى بها الى هذا الحد . وعندئذ كتبت رسالة الى سلطات السجن وسلمتها الى السجان ليو سويا مع الاختام .

وبقيت عدة ايام لم اسمع خلالها شيئا عن الاختام ، وبدأت اشك

فى ان يكون السجان قد سرقها . وذات مساء ، عندما كان الآخرون يلعبون الشطرنج او الورق ، كنت مكتئبا بخصوص الاختام ومقتنعا بأن شكوكى فى محلها . وفى تلك اللحظة تماما وقف السجان الممتلئ الجسم خارج الزنزانة وسألنى لماذا لا ألعب الورق كالآخرين . وعندما اخبرته بأننى لا استطيع ، وهذه حقيقة ، انطلق فأحضر ورق لعب ، ثم جلس فى الجانب الآخر من القضبان الحديدية وخلط الورق . وكنت فى تلك الاثناء اكرهه .

وقال وهو يخلطها :

ـ اننى متأكد من انك ستستطيع تعلم اللعب . فأنت عندما تصبح انسانا جديدا وتبدأ حياة جديدة لن تجد الكثير من التسلية اذا انت لم تمتع نفسك .

فذهلت لنفاقه . وعندما جاء سجان آخر مدخن غليونا واعطى احد زملائى فى الزنزانة شيئا من تبغه لكى يلف منه سيجارة ، اقتنعت بأن جميع السجانين يحاولون ان يخدعونا . ولكننى لن اخدع .

ولكن الذى كان يحاول خداع الآخرين فى الواقع هو انا . فبعد ذلك بوقت قصير قال لى المدير وانا فى فناء السجن :

ـ لقد رأيت رسالتك واختامك . وقد حصلنا كذلك على الاشياء التى قدمتها فى الاتحاد السوفياتى ، ولكن المهم بالنسبة للشعب الرجال ، الرجال الذين اعادوا بناء انفسهم .

تغييرات فى اسرتى

ولم افهم مضمون ما قاله مدير السجن الا بعد سنوات طويلة . ففى ذلك الوقت نظرت الى الامر على انه اثبات على اننى لن اتعرض لخطر فى تلك اللحظة اذا كانوا يريدوننى ان اصلح نفسى . ولكن الخطر جاء يوم لم

اكن اتوقعه :

فذات يوم انحلت يد نظارتى ، فطلبت من السجان ان يأخذها الى لى الكبير ليعيد تركيبها . وكان حاذقا فى اصلاح الاشياء الدقيقة كالنظارات والساعات واقلام الحبر . وغالبا ما اصلح هذه الاشياء للناس ، وكان يصلح نظاراتى قبل ذلك على الدوام . ولكن الامر اختلف هذه المرة .

يمكن للمرء داخل السجن ان يسمع فى الطابق العلوى ما يجرى فى الطابق السفلى والعكس بالعكس ، فبعد ان غادر السجان مباشرة استطعت ان اسمع لى الكبير يدمدم على نحو غير واضح تعبيرا عن عدم رضاه . وبعد لحظة عاد السجان وسألنى ان كنت استطيع ايجاد طريقة لاصلاحها بنفسى حيث ان لى الكبير قال انه لا يستطيع اصلاحها . فغضبت غضبا شديدا من وقاحته ، وقلت للسجان : " لو كنت استطيع اصلاحها بنفسى لما طلبت منه ذلك . ارجوك ان تكلمه ثانية يا سيد جيانغ . " كان السجان جيانغ شابا نحيفا صامتا ، وجميع زملائى فى الزنزانة قالوا انه شخص مهذب . ولا بد انه كذلك لأنه فعل كما طلبت منه ونزل ثانية .

وهذه المرة لم يرفض لى الكبير بل اصلحها ، ولكنه لم يحسن اصلاحها بل اكتفى بربط اليد الى النظارة بخيط . والمسمار الصغير الاصلى قد اختفى على ما يبدو .

وفكرت فى المسألة مليا وتوصلت الى ان لى الكبير قد تغير . وتذكرت اننى ارسلت منذ بضعة ايام روى الصغير ليحضره حيث لم اره منذ فترة من الوقت . فعاد روى ليقول لى : " ان لى الكبير يقول انه مشغول وليس لديه وقت . " وبوسعى ان اتخيل الآن انه لا بد ان يكون قد قال شيئا كهذا : " انا ليس لدى وقت لأكون دائما رهن اشارته وطلبه . "

وبعد موضوع النظارة بوقت قصير حل عيد رأس السنة لعام ١٩٥٢ . فسمح لنا باقامة حفلة بهذه المناسبة . وقمنا بأداء عرض صغير مستخدمين

الملعب الفارغ امام برج المراقبة مسرحا وقد حدث حينئذ ما ينذر بحصول نكبة .

كتب شيو الصغير وقو الصغير ولى الكبير مقطوعة هجائية فى صيغة حوار ، وجاء جميع نزلاء زنزانتهم باستثناء روى الصغير لأداء هذا الحوار . واثاروا الضحك من تصرف بعض السجناء مثل وزير العدل السابق فى " امبراطورية منشوريا " تشانغ هوان شيانغ المعروف بلقب " الفم الكبير " . وكان له طبع خشن . فكان يزعج جميع جيرانه عندما يختصم مع شخص ما ، وعندما قالوا له مرة انه اسقط الارز على الارض تعمد ان يسقط المزيد . ثم وجه الهجاؤون بعد ذلك نارهم الى السجناء الذين كانوا يقرأون بأعلى اصواتهم عندما يرون سجانا يمر بهم .

ووجدت هذه الامور مضحكة مثل بقية المستمعين ، ولكن بعد ذلك جاء دور التهكم على السجناء المؤمنين بالخرافات . وحرف مؤدو هذا العرض الامور بحيث اظهروا هؤلاء المؤمنين بالخرافة بأنهم لا يدركون ان عرافتهم وصلاتهم لم تنقذهم من قبل ، فاستمروا يصلون سرا . ومن الواضح ان هذا الهجوم قد شملنى ، لأننى كنت ما ازال اتلو التعويذات واصلى احيانا . وبينما كنت مستعدا للاعتراف بأن هناك صدقا فى ادعائهم بأن الصلاة لم تنفعنى شيئا ، لم يكن من المحتمل ابدا ان اتعرض لهذا الهجاء علنا . وكان هذا عدم احترام فاضح .

ولم ينته الامر عند هذا الحد . وكانت الضحية التى تلت نموذجا لرجل ادخل سجنا عرف فيه الامور الصحيحة وعاملته الحكومة على انه انسان ، ولكنه " ما يزال يتصرف على انه عبد لشخص آخر . " ان خدمة ذلك " الشخص الآخر " عن طواعية لن تساعده على اصلاح نفسه بل ستجعل الآخر يمضى فى تصرفه على انه السيد . وبدا واضحا لى بما فيه الكفاية من الذى يهاجم ومن هو " الشخص الآخر " وفهمت الآن لماذا لم يشترك روى الصغير

فى الأداء ، وشعرت بالأسى له وخشيت ألا يقوى على الصمود :

والواقع ان روى الصغير قد تغير ايضا . واحتجب لى الكبير وشيو الصغير وقو الصغير بعض الوقت فلم يظهروا فى الفناء ، ونادرا ما كنت ارى روى الصغير ، لذلك تكدست ثيابى الوسخة اياما . وبعد انتهاء حفلة عيد رأس السنة لم يأت لغسل ثيابى مطلقا :

ولم يمض وقت طويل حتى حدث تطور كبير آخر :

ذات يوم وقد حل دورى للقيام بخدمات الزنزانة كنت مقرفصا عند القضبان الحديدية انتظر وصول الطعام . فاذا بروى الصغير يجلبه . وعندما سلمنى اياه وضع فى يدى كرة ورقية صغيرة . فذهلت ، ولكننى اخفيتها بسرعة واستدرت لأسلم الطعام ، مجهدا نفسى فى التصرف على نحو طبيعى . وبعد انتهاء الوجبة ذهبت الى المرحاض الذى كان خلف جدار منخفض فى زاوية الزنزانة ، وفتحت المذكرة :

> اننا جميعا مذنبون ويجب ان نعترف للحكومة بكل شىء . هل بلغت عن الاشياء التى خبأتها لك فى اسفل حقيبتك ؟ اذا اخذت زمام المبادرة وسلمتها الى الحكومة فمن المؤكد انها ستعاملك باللين .

فالتهب الغضب فى نفسى ، ولكن بعد لحظة تحول هذا الغضب الى الادراك بأن اتباعى قد تمردوا وان اسرتى قد هجرتنى . والقيت تلك المذكرة فى المرحاض وقدرت ان هؤلاء الشباب قد تغيروا . وكان هذا الامر فوق قدرتى على الفهم .

كان والد لى الكبير خادما عند الامبراطورية الارملة تسى شى فى القصر الصيفى ، وبسبب ذلك تمكن لى الكبير من الحصول على العمل غلاما فى المدينة المحرمة بعد طرد الخصيان . وكان وقتها فى الرابعة عشرة من عمره . وقد تبعنى الى تيانجين ، حيث درس مع بعض الغلمان الآخرين الذين كانوا

عندى على مدرس للغة الصينية . وجعل مرافقا شخصيا لى ، واعتبرته واحدا من خدمى الاكثر ثقة . واخترته ليصاحبنى عندما تركت داليتسيقو لدى محاولتى الهرب الى اليابان عام ١٩٤٥ . وعندما كنا فى الاتحاد السوفياتى لكم يابانيا بشدة لعدم ابتعاده من طريقى . وكان على الدوام يحترمنى ويطيعنى طاعة تامة ، كما كان يطبق تعليماتى بأمانة فى اتلاف بعض مجوهراتى دون ان يترك اثرا لذلك . فلم استطع ان افهم لماذا ينبغى لشخص كهذا ان يتغير ويفقد احترامه لـ " وليه " .

وكان قو الصغير ابن بو وى ، الامير قونغ الثانى . وقد سمحت له بوصفى " امبراطور اسرة تشينغ العظيم " ان يخلف والده فى اللقب ، ونشأته ليكون واحدا من دعائم اعادة الملكية فى المستقبل . وفى الاتحاد السوفياتى نظم قصائد عبر فيها عن ولائه لى . وقد جعلته تنشئتى له منقطعا للبوذية ، وفى مرحلة واحدة امضى الايام بكاملها مستغرقا فى " تأمل العظم الابيض " امام صورة هيكل عظمى . وظل يظهر ولاءه لى حتى بعد وصولنا الى هاربين . وعندما يكتب شخص كهذا هجوما على فهذا يدل بكل وضوح انه قد انهى ولاءه لى .

وكان اكثر التغيرات ادهاشا ذلك الذى حدث لروى الصغير : لقد انحدر من اسرة اميرية متداعية ، وقد استدعيته الى تشانغتشون عندما كان فى التاسعة عشرة من عمره ليدرس مع ابناء عوائل نبيلة متدهورة ايضا واعتبرته من اكثر طلاب البلاط طاعة وامانة . وبدا لى اقل موهبة من الآخرين ولكنه خدمنى افضل من رفاقه الاذكى منه . واظهر ولاءه لى خلال سنواتنا الخمس فى الاتحاد السوفياتى . وقد اختبرته ذات مرة بأن سألته اذا كانت لديه فكرة بالتخلى عنى ، فاعترف بأنه شعر مرة بأنه قد عومل معاملة خاطئة عندما جعلته يركع على الارض مدة ساعة معاقبة له . وعندما قلت له اننى اصفح عنه سجد لى ، وظهر سعيدا كأنما قد غادر الجحيم الى الفردوس . وقبيل

عودتى الى الصين رشحته ليكون " خلفا " لى فى حالة موتى ، وفرحته بذلك لم يكن ممكنا تخيلها . ومنذ ذلك الحين وهو يفعل كل شىء لى . ولكنه الآن من بين جميع الناس يحاول ان يعلمنى اننى مذنب .

لو اننى كنت اكثر دقة فى الملاحظة لانتبهت لبعض الاشارات المنذرة بهذه التغييرات التى لا يمكن تصورها . ففى حفلة رأس السنة تلا قو الصغير قصيدة بمصاحبة الصفاقات يصف الطريقة التى تغير بها تفكيرهم . وقد وصف فيها كيف انشئوا منذ طفولتهم فى " امبراطورية منشوريا " ملقنين بالدعاية الرجعية . وانهم علموا ان يعتقدوا بأن اليابان من اكثر البلاد قوة على سطح الارض ؛ وان الشعب الصينى عاجز وبحاجة الى ان يكون محكوما ؛ وان من الطبيعى ان يكون الناس مقسمين الى درجات ، وما الى ذلك . وان عودتهم الى الصين قد بينت لهم ان كل ذلك كان مجرد كذب . وانهم ذهلوا فى اليوم الاول من عودتهم لاكتشاف ان سائق قطارهم صينى ، وان اكتشافات كهذا كانت تتبع يوميا تقريبا . وان اكثر ما ادهشهم هو موقف سلطات السجن والانتصارات فى الحرب الكورية .

وفى ذلك الوقت رأيت ان هذه القصيدة ليست اكثر من رافعة ستار ولم اعرها انتباها . وعجزت عن فهم ان قو الصغير كان يشرح سبب تمردهم : انهم قد رأوا الآن اننى كنت اخدعهم .

ان الذى ما فهمته على وجه خاص انهم فى احتكاكاتهم بموظفى السجن منذ فصلهم عنى قد تأثروا جميعا تأثرا شديدا بالتغير فى منزلتهم . فمع انهم كانوا سجناء ، الا انهم عوملوا بوصفهم افرادا لهم شخصياتهم المستقلة ، بينما كانوا فى السابق نبلاء اسميا وعبيدا فى الواقع . لقد سمعوا الآن عن نوعيات من الشباب تختلف عنهم — سمعوا عن تشاو قوى لان التى فقدت يدها لتنقذ مصنعا ، وعن مآثر متطوعى الشعب فى كوريا . وبدأوا يسألون انفسهم لماذا لم يسمعوا عن اناس كهؤلاء فى الماضى ؟ ولماذا لم يتعلموا الا كيف

يتوسلون ويسجدون ؟ ولماذا كان ينتظر منهم ان يكونوا متشكرين على الشتم والضرب بينما الآخرون كسوا انفسهم بالعظمة ؟ ولماذا كانوا جاهلين كل هذا الجهل بينما الآخرون حققوا الشيء الكثير ؟

ان افكارا كهذه جعلتهم يتغيرون ويبدأون بالدراسة الجادة ويخبرون سلطات السجن بكل شيء عن ماضيهم .

وبعد ان اتلفت المذكرة جلست بجانب الجدار مكتئبا افكر في ان الشيوعيين خطرون حقا اذا هم استطاعوا تغيير ابناء اشقائي ولي الكبير على هذا النحو . وكان عزائي الوحيد هو ان اخي وزوجي شقيقتي كانوا ما يزالون يتصرفون على نحو طبيعي . ولكنني بقيت في قلق شديد : هل سيبلغ روى الصغير السلطات عني ؟

ولم اعرف ماذا افعل . كان عندى كمية من المجوهرات يصل مجموعها الى ٤٦٨ قطعة مخبوءة في اسفل حقيبتي : بلاتين وذهب وماس ولؤلؤ واصناف اخرى من الاحجار الكريمة التى اخترتها بعناية لتكفيني بقية حياتى . وكنت متأكدا انني من دونها لن اكون قادرا على اعالة نفسى اذا ما اطلق سراحى ، ذلك لأن فكرة كسب معيشى بنفسى لم تخطر فى ذهنى . اذا كنت سأسلمها بعد اخفائها هذه المدة الطويلة ، فان ذلك سيثبت اننى كنت اخدع السلطات . ولكن اذا انا لم اسلمها ، فان روى الصغير ليس الوحيد الذى يعلم امرها ، واحتمال ان يتخلى عنى الآخرون اكبر بكثير من احتمال تخليه هو . واذا ما حدث هذا فسأقع فى ورطة حقا .

” اذا اخذت زمام المبادرة وسلمتها الى الحكومة فمن المؤكد انها ستعاملك باللين . “ عامت هذه الجملة فى ذهنى ثم اختفت تدريجيا . وظننت ان كلمتى ” الشيوعيين “ و” اللين “ متضاربتان ، على الرغم من الطريقة التى عوملت بها فى السجن والروايات التى قرأتها فى الصحف عن المعاملة اللينة للمذنبين الذين كشفوا فى حركة المكافحات الخمس وحركة المكافحات

الثلاث (١٣) . فبعد بدء هاتين الحركتين بوقت قصير قرأت عن اعدامات بعض الفاسدين الذين ارتكبوا افظع الجرائم . وفيما بعد رأيت تقارير عن جرائم الرأسماليين الذين سرقوا ممتلكات الدولة والاسرار الاقتصادية وعن الابتزاز والتهريب وعن التخلص من الضرائب ، وقارنت ذلك بسجلى . وكان لى تفسيرى الخاص لشعار " قادة الفتنة دائما ما يعاقبون ؛ والذين اجبروا على التعاون لن يعاقبوا ؛ واولئك الذين يؤدون الاعمال التى تستحق التقدير يكافأون . " ورأيت انه حتى اذا كانت روايات اللين صحيحة فانها لا يمكن ان تنطبق على : فقد كنت قائد فتنة ولذلك سأعاقب لا محالة .

وابتسمت قائلا لنفسى فى مرارة : " اذا اعترفت فانك ستعامل باللين . "

كنت مقتنعا بأننى حالما اخبر مدير السجن بالمجوهرات سيغضب غضبا شديدا لأنى خدعته ويعاقبنى . وربما يسعى الى اكتشاف ان كنت اخدعه بأنواع اخرى من الخداع . وهذه هى الطريقة التى كنت اعامل بها من هم دونى فى تلك الايام الماضية .

لا ، اننى لا يمكن ان اعترف . من المؤكد ان روى الصغير والآخرين لن يكونوا قساة على نحو يجعلهم يبلغون عنى . وتركت المسألة جانبا .

بعد اسبوع حان دور روى ثانية فى جلب الطعام الى زنزانتنا . ورأيت تعابير وجهه جدية جدا ، ولم يكن ينظر الى اطلاقا . وحدق الى حقيبتى لحظة ثم انسل عائدا . فأصبت بالقلق . ماذا يعتزم ان يفعل ؟ وبعد اقل من ساعتين ظهر فجأة فى بداية فترة دراستنا . وتوقف خارج الزنزانة لحظة ، ونظر الى حقيبتى ، وغادر ثانية .

وايقنت انه ذهب لرؤية مدير السجن . فقررت ، وانا فى حمى القلق ، ان اسلم المجوهرات طائعا مختارا قبل ان يبلغ عنى .

فأخذت يد لاو وانغ ، رئيس مجموعتنا واخبرته ان لدى شيئا سأعترف به للحكومة .

اعتراف ولين

" انني لست جيدا . لقد عاملتني الحكومة بمنتهى الانسانية ، ولكنني خبأت كل هذه الاشياء مخالفا لوائح السجن ، لا بل قانون البلاد . ان هذه الاشياء ليست لى حقا ، انها للشعب ؛ لقد فهمت هذا اخيرا ، ومن اجل ذلك اعترفت وسلمتها . "

كنت واقفا فى مكتب مدير السجن ناكس الرأس امامه . ومجوهراتى البالغة ٤٦٨ قطعة موضوعة على طاولة بجانب النافذة تلتمع . وقلت فى نفسى : " دعها تشع اذا كنت استطيع انقاذ نفسى بتسليمها ، واذا طبقت بحقى سياسة اللين . "

نظر المدير الى بتمعن ، وهز رأسه قائلا :

ـ اجلس .

وجعلتنى نبرة صوته اشعر ان هناك مجالا للأمل :

ـ هل خضت صراعا ذهنيا كبيرا حول هذه ؟

فتجنبت ذكر مذكرة روى الصغير ، وقلت :

ـ كنت اخشى ، اذا اعترفت ، ألا اعامل باللين .

فسألنى المدير وعلى شفتيه ابتسامة :

ـ لماذا ؟ لأنك كنت امبراطورا ؟

فأجبت بعد لحظة تردد :

ـ نعم .

ـ لا غرابة فى ذلك . ما دام لك تاريخ خاص فبدهى ان تكون عندك بعض الافكار الخاصة . دعنى اكرر اذن ان الحزب الشيوعى والحكومة الشعبية يعنيان ما يقولانه . انهما لينين مع اولئك الذين يعترفون ، وانهما يخففان عقوبات اولئك الذين يصلحون انفسهم ، ويكافئان اولئك الذين يؤدون اعمالا

تستحق التقدير بصرف النظر عن منزلتهم الاجتماعية . ان الامر كله يعتمد على سلوكك . لقد خالفت لوائح السجن باخفاقك فى تسليم هذه الاشياء حالا وباخفائها هذه المدة الطويلة ، ولكن ما دمت الآن قد اعترفت بذنبك ، فهذا يعنى انك تبت . ولهذا السبب لن نعاقبك .

وطلب من السجان خارج الباب ان يحضر امين المستودع لحفظ الاشياء القيمة . وعندما جاء طلب منه المدير ان يأخذ تلك الكومة من المجوهرات ويعطينى وصلا بها .

فدهشت . ثم وثبت ناهضا لأقول معترضا :

— لا ، لا اريد وصلا . اذا كانت الحكومة لا تريد ان تصادرها ، فاننى سأتبرع بها .

فنهض المدير وقال وقد هم بالمغادرة :

— لا ، اننا سنحفظها لك . فهل تتفضل بفحصها ؟ لقد اخبرتك من قبل ان الناس المعاد بناؤهم اكثر قيمة بالنسبة لنا .

وعدت الى زنزانتى بالوصل . كان نزلاء زنزانتى يتناقشون فى كتاب : «كيف اصبحت الصين مستعمرة وشبه مستعمرة» الذى كنا ندرسه فى ذلك الوقت ، ولكن عندما دخلت توقفوا عن مناقشة ذلك ورحبوا بى ترحيبا حارا لم يظهروه من قبل وهنأونى على تقدمى قائلين :

" يا لاو بو (١٤) ، اننا معجبون بك . "

كانوا قد توقفوا من زمانه عن مناداتى بعبارة " السيد بو " وغيروها الى هذه الطريقة غير الرسمية فى المخاطبة . وكنت عندما سمعت عبارة " لاو بو " للمرة الاولى لم استسغها فى البداية ، ولكنها اليوم جعلتنى اشعر انها جيدة .

" لاو بو ، ان تصرفك قد بين لى الطريق . "

" يا لاو بو ، اننى لم اكن ادرك انك تتمتع بشجاعة الى هذا الحد . "

" يا لاو بو ، يجب ان اشكرك لأنك اعطيتنى المزيد من الثقة فى سياسة اللين ازاء اولئك الذين يعترفون . "

وهنا يجب ان اضيف الى ان هيئتى اصبحت اكثر اهمالا من السابق ، فقد كنت اغسل ملابسى واصلحها بنفسى . وكان احترام نزلاء زنزانتى لى قد انخفض الى النصف على الاقل بعد تغيير عبارة الخطاب الى " السيد بو" . بل ان بعضهم اخذ يدعونى " سوق الخرق " من خلف ظهرى ، وكانوا غالباما يضحكون منى لعدم صلاحيتى فى الدراسة . ولهذا كله فان مديحهم الحالى قد ابهجنى .

فى فترة الراحة فى ذلك اليوم سمعت لاو يوان ، سفير " امبراطورية منشوريا " السابق لدى اليابان يتحدث عما فعلت . كان لاو يوان شديد الذكاء يستطيع ان يفكر فى لحظة فى ما لا يستطيعه الآخرون فى يوم . وما قاله جعلنى افكر بعض الوقت :

" ان لاو بو رجل عاقل ، ليس غبيا مطلقا . لقد كان مصيبا تماما فى اخذه زمام المبادرة واعترافه بأن لديه تلك المجوهرات . انه بالطبع لا يستطيع ان يخدع الحكومة ، لأن الحكومة لديها معلومات عنا اكثر مما تتخيلون . تذكروا تقارير الصحيفة عن حركة المكافحات الثلاث وحركة المكافحات الخمس . ان ملايين الناس قدموا المعلومات الى الحكومة . فالحكومة تعرف حتى الاشياء التى نسيتموها منذ سنوات . "

لقد ادركت اننى لا استطيع تغطية الكذب الذى ذكرته فى سيرتى الذاتية . اذا كان على ان اعترف لهم ، فهل يمكن ان اسلم كما سلمت عند تسلم المجوهرات ؟ هذه ستكون مسألة سياسية لا اقتصادية ، ولا اعرف ان كانت ستعالج بنفس الطريقة . ان مدير السجن لم يقل شيئا عن ذلك . ولكن الجرائم الاقتصادية كالجرائم السياسية ، والمبادئ التى تكلم عنها مدير السجن يجب ان تطبق عليها ايضا .

ولم استطع اتخاذ القرار . وبدأت انظر بمزيد من الاهتمام الى امثلة اللين الواردة فى الصحف . كانت حركة المكافحات الثلاث وحركة المكافحات الخمس فى طريقهما الى الانتهاء ، والكثير الكثير من الحالات كانت تعالج ، وجميعها باللين . وتفحصت هذه الحالات مع لاو وانغ ، القاضى السابق ، مقارنا ما قرأته من حالات مع سجلى ومتسائلا ان كانت سياسة اللين ستساعدنى .

عندما كانت الحكومة تستعد لمعالجة قضايا مجرمى الحرب اليابانيين طلبت منا سلطات السجن ان نكتب ما نعرفه عن جرائم اليابانيين فى الشمال الشرقى . وسأل احد السجناء اذا كان مسموحا لنا بأن نكتب عن الآخرين بالاضافة الى اليابانيين . فقيل له ان هذا مسموح به طبعا ، ولكن يجب ان نركز على جرائم اليابانيين . فأقلقنى هذا الامر . من هم الآخرون الذين يريد هذا السجين ان يكتب عنهم ؟ ان كلمة " الآخرين " قد اشارت بكل وضوح الى الصينيين ، واكبر المجرمين الصينيين انا دون شك . فهل سيكتب اى من افراد اسرتى عن " الآخرين " ؟

وكتب مجرمو الحرب التابعون لـ " امبراطورية منشوريا " عن جرائم اليابانيين بتحمس كبير . وكتبت مجموعتنا بضعة عشر اتهاما فى اليوم الاول وحده ، وقال لاو وانغ فى رضى : " اننا لم نتصرف على نحو سيئ ، واننى متأكد من اننا نستطيع ان نكتب غدا بمقدار ما كتبناه اليوم . " فتدخل احدهم قائلا : " من يعرف كم سيكتب اهالى الشمال الشرقى اذا طلب منهم ذلك . " فأجاب لاو وانغ : " ان الحكومة ستقوم طبعا بالاستقصاءات بينهم . ما رأيك يا لاو بو ؟ " فأجبته : " اننى متأكد من انها ستقوم بالاستقصاءات . ولكننى اتساءل ان كانت ستسأل عن الآخرين بالاضافة الى اليابانيين . " فقال : " بعض الناس سيكتب عنا لا محالة ، حتى وان لم يطالب منه ذلك . ان ابناء الشعب العاديين يكرهوننا كراهية مرة كما يكرهون اليابانيين تماما . "

فى ذلك المساء جلب لنا عشاءنا لى الكبير . وكان يبدو فى مزاج سيئ للغاية ، فقد وضع الطعام على الارض وانصرف عائدا دون ان ينتظرنى حتى استلمه منه . وتذكرت حالا كيف ساعدنى على الصعود الى خانة الامتعة فى السيارة عندما غادرت " الحديقة الهادئة " فى تيانجين .

امضينا اليوم التالى ايضا نكتب عن اليابانيين . ونظرا الى اننى لم اعرف الكثير فلم استطع ان اكتب الا قليلا ، ولكن لاو وانغ كان ما يزال راضيا لأن الآخرين كتبوا الكثير . وقال : " تصوروا ! كم من المعلومات سيكون ابناء الشمال الشرقى قادرين على تقديمها للحكومة . اننى بوصفى موظفا قانونيا سابقا استطيع ان اخبركم انكم اذا كان لديكم دليل تستطيعون ان تجعلوا اى واحد يتحدث فى النهاية . فى الايام الماضية اعتدنا ان نفكر ان اصعب الامور هو الحصول على دليل ، ولكن الامور مختلفة تماما بالنسبة للحكومة الشعبية حيث الشعب العادى بكامله يقدم المعلومات . " فهبط قلبى . وفكرت فى القضية التى قرأتها عن الرجل الذى اعدم شيوعيا قياديا عام ١٩٣٥ ثم قبضت عليه سلطات الامن مؤخرا فى مخبئه فى اعماق الجبال . ربما كان الشيوعيون يحتفظون اه باضبارة منذ عام ١٩٣٥ .

وفى اليوم الثالث ، عندما كنت اكتب تقريرى الاخير عن اليابانيين ، سمعت صوتا على السلم . فالتفت لأنظر فرأيت شخصا غريبا بالقرب من برج المراقبة متبوعا بالمدير . فخمنت انه قد يكون موظفا من جهاز اعلى جاء للتفتيش . ونظر الى كل زنزانة تباعا ، ولم يظهر اى اهتمام فيما كان المدير يخبره باسم كل سجين . ومع انه لم يكن مرتديا بزة عسكرية ، الا اننى حزرت من تعابير وجهه الصارمة انه لا بد ان يكون رجلا عسكريا . وكان يبدو دون الخمسين من عمره .

وسألنى عندما نظر الى داخل زنزانتنا :

ــ ماذا تفعل ؟

ودهشت بالاعتدال فى صوته وبطيف الابتسامة التى ارتسمت على وجهه . ونهضت واخبرته بأننى اكتب عن جرائم اليابانيين . فقال باهتمام :

— اية جرائم تعرف ؟

فأخبرته بمذبحة العمال فى مشروع البناء ، تلك القصة التى رواها لى تونغ جى شيوى . ولعلى كنت اتخيل ، الا ان الابتسامة بدت تختفى من وجهه كما اصبحت ملامحه صارمة جدا . ولم اتوقع ان الخبر سيثير فى نفسه ردة الفعل الشديدة هذه .

— لقد صدمت بتلك الحادثة فى ذلك الوقت حيث لم اكن ادرك ان اليابانيين كانوا بهذه القسوة .

— لماذا لم تقدم لهم احتجاجا ؟

— انا . . . انا لم اجرؤ .

— لأنك كنت خائفا ؟

ودون ان ينتظر جوابى مضى يقول بلهجة هادئة مرة ثانية :

— آه ! ما اقرف الاشياء التى يمكن ان يسببها الخوف للانسان .

فقلت بصوت خافت :

— هذا كله كان ذنبى : يجب ان اعترف بذنبى للشعب ؛ اننى لا استطيع التكفير عنها حتى ولو مت عشرة آلاف مرة .

— لا تضع اللوم كله على نفسك . يجب ان تتحمل نصيبك فقط من المسؤولية وتحتفظ بالحقائق . انك لا تستطيع ان تتهرب من ذنبك ، ويجب ألا تتحمل مسؤولية جرائم الآخرين .

ومضيت اقول اننى تأثرت بالطريقة التى عاملتنى بها الحكومة ، وبأننى اعترفت بذنبى الكبير وصممت على اصلاح نفسى . ولا ادرى ان كان هذا الموظف كان يصغى الى عندما تفحص الزنزانة وطلب من سجين آخر ان يجلب له كوز الاسنان ليفتشه . وعندما انتهيت هز رأسه وقال :

ـ يجب ان تتشبث بالوقائع . اذا اعترفت بذنبك حقا واظهرت الندم فانك ستعامل باللين بكل تأكيد . ان ما يقوله الحزب الشيوعي معتمد ، وانه ليعلق اهمية كبيرة على الوقائع . وان الحكومة الشعبية مسؤولة عن الشعب . يجب ان تظهر انك تحرز تقدما بما تفعله ، ليس فقط بما تقوله . حاول بجهد .

ونظر الى ما كنت اكتبه ثم ذهب الى باب الزنزانة الاخرى .

كان قلبي ثقيلا جدا . وفيما تصفحت مجموعة المواد التي كتبتها بدا لي انني اليوم فقط ادركت مدى خطورة الاحداث التي وصفتها في كتابتي هذه . ومنذ ذلك الحين كانت عيناه الصارمتان تلازمانني وصدى كلماته يتردد في نفسي . وادركت انني اواجه قوة لا تقاوم ، قوة لن تكل او تستكين قبل ان تكتشف كل شيء . لقد امسكت هذه القوة جلاد عام ١٩٣٥ مع انه كان مختفيا في اعماق الجبال ، وادركت انها ستقدم وصفا كاملا لجرائم اليابانيين في الشمال الشرقي ، وان جرائم العملاء الكبار والصغار في " امبراطورية منشوريا " لن تقوى على الافلات منها .

كان اليوم احد ، وكنت اعلق غسيلي في فناء السجن كي يجف عندما رأيت لي الكبير وروى الصغير وأحد كوادر السجن يقتربون من بعيد . وبعد ان وقف ثلاثتهم عند المزاهر فترة افترقوا وتقدم روى الصغير في اتجاهي ، ولكن عندما هممت بتحيته مرق من جانبي فورا دون ان يلقى نظرة الى ناحيتي . فشككت في انه قد فعل شيئا لا يمكن تغييره .

وعدت الى زنزانتي ثم اعدت فحص المواد المتعلقة بحركة المكافحات الثلاث وحركة المكافحات الخمس في الصحف القديمة . فجاءني لاو وانغ وقال :

ـ ماذا تفعل ؟ أ تدرس حركة المكافحات الخمس ؟

فوضعت الصحف من يدي واعلنت قراري :

— لا . كنت افكر فى بعض احداث الماضى . فى السابق لم ار طبيعتها الحقيقية ، ولكننى الآن ارى انها جرائم . هل تظن ان من الصواب ان اضمنها فى مقالتى الدراسية ؟

فخفض صوته وقال :

— طبعا . ان الحكومة على اية حال قد جمعت عنا كثيرا جدا من المواد ، لذلك سيكون من الافضل بكثير الافصاح عنها .

فتناولت قلمى . وكان الهيكل العام لمقالتى هو ان الاقطاعيين والكمبرادور كانوا شيئا لا غنى عنه للامبريالية فى عدوانها على الصين ، واننى انا كنت مثالا نموذجيا . لقد استخدمتنى القوى الاقطاعية لافتة لها من اجل تحقيق احلامها فى اعادة الملكية وتعاونت مع الامبرياليين اليابانيين ، بينما استخدمنى اليابانيون لافتة لهم ايضا عندما حولوا الشمال الشرقى الى مستعمرة لهم . وكتبت تفاصيل نشاطاتى فى تيانجين وتفاصيل علاقاتى وعلاقات زمرتى باليابانيين ، بما فى ذلك لقائى مع دويهارا .

وبعد يومين اخبرنى لاو وانغ بأن ساطات السجن قد قرأت مقالتى ورأت اننى احرزت تقدما كبيرا ينبغى لمجموعتى ان تمتدحنى عليه . وقال لاو وانغ ، القاضى السابق :

— ان دليلا حقيقيا واحدا يساوى اكثر من عشرة آلاف كلمة فارغة .

صنع الصناديق

فى نهاية عام ١٩٥٢ انتقلنا من المبنى المحاط بالقضبان الحديدية الى مبنى جديد فسيح ، وكانت فيه اسرة جديدة وطاولات ومقاعد ونوافذ كذلك تدخل قدرا كبيرا من الضوء . ونظرا الى ان ما قاله مدير السجن عن " الاصلاح " بدا حقيقيا ، ونظرا الى اننى مدحت على كتابتى ذلك الجزء

من تاريخي الشخصي بدلا من ان اعاقب ، بدأت ادرس بجدية . ورأيت فى تلك الايام انه لم يكن هناك اكثر من القراءة ليقوم المرء باعادة بناء نفسه ، وتصورت اننى بمجرد تمكنى من الافكار الواردة فى الكتب تكتمل اعادة بناء نفسي . ولم يخطر فى ذهنى قط ان القراءة غير كافية ، او ان القراءة وحدها لن تمكننى من فهم معنى مضمون الكتب . فى اواخر عام ١٩٥٠ واوائل عام ١٩٥١ مثلا كنت قد قرأت كتاب « ما هو المجتمع الاقطاعى ؟ » ، ولكن لم افهم ماذا تعنى الاقطاعية حقا الا فى ربيع ١٩٥٣ حيث علمتنى ذلك فترة العمل حينذاك ، صنع الصناديق .

لقد اتفقت سلطات السجن مع مصنع اقلام الرصاص فى هاربين على ان نقوم نحن السجناء بصنع الصناديق الكرتونية التى تحزم فيها اقلام الرصاص . ومن ذلك الحين ونحن نمضى اربع ساعات كل يوم فى الدراسة واربع ساعات فى العمل . وقال لنا كوادر السجن ان هذا سيغير من روتين حياتنا ، حيث سيكون قليل من العمل اليدوى نافعا لنا لأننا لم نقم قبل ذلك بأى عمل . ولم ادرك حينذاك ما المغزى الخاص فى تلك الكلمات بالنسبة لى .

وطبعا لم اقم قبل ذلك قط خلال حياتى كلها بالصاق اجزاء صندوق لأقلام الرصاص الى بعضها ، كما انه لم يسبق لى ابدا ان بريت قلم رصاص . وكل ما عرفته عن اقلام الرصاص هو اننى استطعت ان اتذكر العلامة التجارية المكتوبة عليها — اقلام فينوس وكانت مطبوعة عليها مع صورة امرأة مكسورة الذراع ، وكانت هناك اقلام رصاص المانية عليها صورة ديك . ولم اذكر مطلقا الصناديق التى كانت هذه الاقلام تأتى محزومة فى داخلها ، كما لم تكن عندى فكرة عن ان صنع الصناديق متعب الى هذا الحد . وعلى اى حال لم يمض على وقت طويل حتى زال شعورى بهذه الاشياء الجديدة ، وبدا لى كما لو ان عقلى ملتصق بعجينة ، بليدا مشوشا . فبينما كان الآخرون قد اتموا عددا من الصناديق لم اكن قد انهيت صندوقى الاول بعد ، كما

انه لم يظهر بشكل صندوق او لأى شيء يصلح . فسألني لاو شيان وهو مدير مستشفى عسكرى سابق فى " امبراطورية منشوريا " ، آخذا بيده هذا الشيء الذى صنعته :

— كيف صنعته يا ترى ؟ لماذا لا ينفتح ؟ ما هذا الشيء العجيب ؟

لقد نشأ لاو شيان فى اليابان حيث درس الطب ، وهو شقيق العميلة السيئة السمعة جين بى هوى (التى كان اسمها اليابانى كاواشيما يوشيكو) وابن للامير سو ، اى انه منحدر من اسرة خونة قياديين . وكان رجلا سيئ الطبع ، وقد احب ان يصب جام غضبه على اذ كنت من الجبن بحيث لا اقوى معها على الصمود امامه .

كانت مشاعرى مزيجا من الغيرة وخيبة الامل والخوف من ان اكون مثار سخرية ، وقد لفت هذا الفضولى شيان انتباه الآخرين الى . فاحتشدوا حول صندوقى وراحوا يضحكون على نحو غير مريح . فانتزعت الصندوق من لاو شيان والقيته على كومة الفضلات . فقال محملقا فى وجهى :

— ماذا ؟ أ تتعمد القاءه ؟

فتمتمت قائلا وانا ارفع الصندوق من كومة الفضلات واضعه على كومة الصناديق الجاهزة :

— كلا . انه ليس سيئا جدا بحيث لا ينفع نهائيا ؛

ولكن هذا كان خطأ واضحا .

— الاشياء المنبوذة هى الاشياء المنبوذة اينما وضعت ؛

فأغضبتنى هذه الاهانة المزدوجة المعانى اشد الغضب . فرددت عليه وانا ارتجف تقريبا ولا استطيع السيطرة على نفسى :

— انت تتعفرت على . انت تتنمر على الضعيف وتخاف من القوى ؛

فاحمر وجهه وصاح :

— على من اتنمر ؟ وممن اخاف ؟ انت تظن انك ما تزال امبراطورا

وان كل واحد عليه ان يخدمك ، أليس كذلك ؟

ومن حسن الحظ ان الآخرين تجاهلوه ، وجاء رئيس المجموعة واسكته . ولكن المسألة لم تنته عند هذا الحد . فلاو شيان لم يكن على استعداد للتخلى عن هذه المشكلة بسهولة . وفى اليوم التالى اختار مكان جلوسه بجانبى من اجل الصاق الصناديق . واستمر ينظر الى عملى نظرات انتقادية ، لذلك استدرت واوليته ظهرى .

ومع اننى لم احسن عملى كالآخرين ، الا اننى احرزت بعض التقدم فى ذلك اليوم . وفى المساء جلبت لنا سلطات السجن بعض الحلوى المشتراة بالنقود التى كسبناها من عملنا فى اليوم السابق . وكانت هذه هى المرة الاولى التى تمتعت فيها بثمار جهدى الشخصى . ومع ان جهودى كانت من اقل الجهود نجاحا الا ان حصتى من الحلوى كانت اطيب مذاقا من اية حلوى اكلتها من قبل . وقال لاو شيان :

ــ يا بو يى ، انك لم تعمل على نحو سيئ جدا هذا اليوم ، أ ليس كذلك ؟

فقلت رادا على هجومه :

ــ لا ، لم تكن هناك اشياء منبوذة اليوم .

فأجاب مبتسما ابتسامة باردة :

ــ يحسن بك ان تكون اكثر تواضعا .

ــ واى تكبر فى قولى بأنه ليست لدى صناديق منبوذة ؟

وغضبت ، ولم اعد اشعر بلذة فى الحلوى التى فى يدى . كان من اكثر الاشياء كراهية فى تصرفاته هو براعته فى اختيار اللحظة التى اكون فيها شاعرا بالسعادة ليبدأ فى تتبع الثغرات . وقلت له :

ــ اذا نبذت اية صناديق اخرى ، فبوسعك ان تلقبنى كما تشاء .

ثم تجاهلته ، ولكنه ذهب والتقط احد الصناديق التى صنعتها وعرضه

امام الجميع قائلا :

— انظروا !

فرفعت نظرى ، وكادت الحاوى تخنقنى . كنت قد ألصقت رقعة الورق رأسا على عقب . فتميزت غيظا ، ووددت لو القى الصندوق فى وجهه الكريه . ولكننى كبحت هذه الرغبة الجامحة وتمتمت قائلا :

— فكر كما تشاء .

فرفع صوته قائلا :

— ما هذا الطبع السيئ ! ما تزال تمثل دور الامبراطور النتن . لقد انتقدتك من اجل صالحك ، ليس الا ، ولكنك لا تدرك ذلك .

وسمع صوت سجان يأتى نحو الزنزانة ، فرفع صوته اكثر فأكثر :

— انك ما تزال تحلم فى ان تكون امبراطورا ثانية .

فرددت عليه فى غضب :

— كلامك هذا هراء . انا اغبى منك ، ولست ماهرا مثلك فى التكلم او القيام بالاعمال ، ولقد ولدت على هذا النحو ، هل يكفيك ذلك ؟

وجاء الآخرون ليوقفوا هذا الشجار . وكانت زنزانتنا غرفة كبيرة ، وكان عددنا فيها ثمانية عشر شخصا . فباستثنائى كان هناك ثلاثة من الوزراء العملاء السابقين واربعة عشر ضابطا سابقا . وكان احد هؤلاء الوزراء الثلاثة السابقين تشانغ جينغ هوى الذى اصبح فى هذا الوقت خرفا ، ولم يكن عادة يدرس او يعمل ، بل ظل صامتا تماما . وفى ذلك المساء اجرينا جميعا ما عدا تشانغ جينغ هوى مناقشة حول " مسألة الصناديق " . فقال بعضهم انه ليست هناك حاجة الى ان يرفع لاو شيان صوته حتى وان كان حسن النية فى نقده لى ، وقال آخرون اننى كنت مخطئا فى عدم اعترافى بأننى صنعت الصناديق على نحو سيئ . وقال العجوز المنغولى قوه انه ليس من الغريب ان اخرج عن طورى وقد وقف منى لاو شيان ذلك الموقف ، واعترض

قائد فوج سابق كان صديقا لشيان على ان العجوز قوه ينظر من خلف نظارة معتمة . وظهر رأى آخر يقول ان هذه المسألة يجب ان تناقش فى اجتماع النقد يوم السبت . وشرع كل واحد يتحدث فورا . ثم رأيت قائد الفوج يشد معطف شيان الذى كان يصيح بحدة بحيث غطى الزبد شدقيه . وصمت كل واحد ، والتفت فاذا بموظف فى السجن يدعى لى ، وكان مسؤولا عن الدراسة ، قد دخل . فسأل رئيس المجموعة عما كنا نتشاجر بشأنه ، فقال لاو وى :

— ابلغك يا سيدى ان هذا الشجار قد ثار حول صندوق كرتونى منبوذ .

فتناول هذا الموظف الصندوق الذى لصقت فيه الرقعة رأسا على عقب وقال :

— لماذا تتشاجرون حول امر تافه كهذا ؟ لماذا لا تكتفون بالصاق رقعة اخرى على نحو صحيح ؟

فأصبنا بالذهول . ولكن المشكلة لم تنته بعد . فبعد بضعة ايام اخبرنا روى الصغير عندما جلب لنا مواد عملنا بأن بعض المجموعات الاخرى تجرى مباراة ، واراد ان يعرف ان كنا سنشترك ام لا . فقلنا اننا سنشترك . ثم اخبرنا روى الصغير حينذاك ان قو الصغير فى مجموعتهم قد ابتدع طريقة للصق الصناديق لها ضعفا سرعة الطريقة القديمة . فأدركنا ان علينا ان نرفع من فعالية عملنا اذا كنا سنشترك فى المباراة . فاستخرجنا خلاصة من اخبار الابتكارات الفنية التى قرأنا عنها فى الصحافة ، وبدأنا خط انتاج متسلسل ، كان لكل منا فيه عملية . وقد استهوتنى هذه الفكرة لأنها ستجعل عملى اسهل ، وظننت انها قد تغطى عدم قدرتى . ولكن لم يمض وقت طويل حتى حدث تكدس فى مرحلتى ضمن خط الانتاج ، وكان لاو شيان هو الذى لاحظ ذلك . فتظاهر بتعابير الارتباك ، وقال : " ان عيوب فرد واحد يؤثر فى عمل

المجموعة . فماذا يجب ان نفعل بخصوص ذلك ؟ "

فلم اجادله هذه المرة ، ووقفت مواجها كومة الصناديق نصف الجاهزة ، تماما مثل الناس الذين اعتادوا ان يقفوا خارج بوابة قصر تهذيب العقل فى الايام الماضية منتظرين استدعاءهم لمقابلتى . وعندما اشار الرجل الذى يلينى فى عملية الانتاج الى ان عملى ليس فى المستوى المطلوب وانني بذلك قد رفعت معدل الصناديق المنبوذة لدى المجموعة كلها ، ادركت انه لا احد مهما كان عادلا سيدحض النقد اللاذع الذى وجهه لى لاو شيان . وتركت خط الانتاج وعدت لأعمل بمفردى .

ومرة ثانية عرفت شقاء الوحدة . وبعد ان نبذتنى المجموعة شعرت ان الفرق بينى وبينهم كبير جدا كأنما كنت اقف امامهم عاريا . واوشكت ان انفجر بالغضب عندما تنحنح لاو شيان متعمدا وهو يمر بى ، ووجهه ذو الندوب يكشف عن سروره بسوء حظى . واحتجت الى شخص عطوف اتحدث اليه ، ولكن الآخرين كانوا منهمكين فى العمل . وعندها اصبت بانفلونزا وشعرت بأننى فى غاية التعاسة .

وحلمت تلك الليلة بأن وجه لاو شيان فوق وجهى مباشرة ، يقول لى بفظاظة : " انك منبوذ . انك لست قادرا الا على ان تصبح متسولا . " ورأيت نفسى فى حلمى اقرفص عند احد الجسور مثل واحد من " القردة التى تحرس الجسر " والتى حدثنى عنها الخصيان عندما كنت صبيا . وشعرت بيد تضغط على رأسى فاستيقظت مجفلا . ورأيت شخصا غير واضح المعالم يلبس ثوبا ابيض واقفا امامى ليتحسس جبهتى . " ان حرارتك مرتفعة حيث ان نوبة الانفلونزا ازدادت سوءا . لا داعى الى القلق . دعنى افحصك . "

كان رأسى يؤلمنى ، وصدغى ينبض بشدة ، وعندما تماسكت عرفت ما كان يجرى . لقد سمعنى السجان اهذى فى نومى ، وعندما لم يستطع ايقاظى استدعى طبيبا . فقاس الطبيب درجة حرارتى ، واعطتنى الممرضة

حقنة ، وعدت للنوم .

وبقيت مريضا مدة اسبوعين ، واخذت اتحسن تدريجيا تحت عناية الطبيب والممرضة . وقد امضيت معظم ذلك الوقت فى سريرى ، لا اقوم بالعمل ولا بالدراسة . وفكرت فى هذين الاسبوعين اكثر من سنواتى القليلة الماضية . تسلسلت افكارى من الصناديق الكرتونية الى الوجه المرعب للامبراطورة الارملة تسى شى كما رأيته وانا طفل .

ان ذكراها الغامضة لم تبد لى فى الماضى الا مخيفة ، اما الآن فاننى اكرهها . لماذا اختارتنى انا لأكون امبراطورا ؟ لقد كنت طفلا جاهلا وبريئا ، لا يقل موهبة فى اية ناحية عن بو جيه على اقل تقدير ، ولكن لأننى وقع على الاختيار لأصبح امبراطورا ، فقد عشت حياة محاصرة تماما . اننى لم اتعلم حتى اكثر المعارف العملية ضرورة ، فنتج من ذلك اننى لا اعرف الآن شيئا بل عاجز تماما . ان معرفتى ومهاراتى اقل مما لدى الطفل ناهيك عما لدى بو جيه . لقد سخر منى لاو شيان وامثاله وظلمونى ، ولو سمح لى بأن اعيش بمفردى ، لما عرفت كيف استمر فى العيش . أليست حالتى الراهنة هى بسبب غلطة الامبراطورة الارملة تسى شى والامراء ووزراء اسرة تشينغ ؟

كنت سابقا امتلئ غيظا وحقدا كلما انتقدنى احد او ضحك منى عدم مقدرتى كما كنت احقد على الحكومة الشعبية التى تحتجزنى . ولكننى الآن رأيت ان هذا خطأ منى . لقد كنت حقا مثيرا للضحك وعاجزا وجاهلا . لقد استأت فى السابق من عدم الاحترام الذى عاملنى به ابناء اشقائى ، ولكننى رأيت الآن انه ليس هناك سبب يلزمهم بأن يحترمونى . اننى لم استطع حتى ان اميز الكراث عندما اكلته ، واعترفت بالهة اجنبية على انها من اسلافى .

فما الذى كنت اتصف به بعد هذا كله من السمة السماوية ؟ لقد اخبرنى

لاو تشنغ المنغولى انه عندما تمرد والده بابوجاب فى السنوات الاولى من الجمهورية اقسمت الاسرة بكاملها ان تستعد للموت دعما لاعادة ملكيتى ؛ وان امه كانت تعبدنى كأننى لست اقل من اله . وقال ان من المؤسف جدا انها الآن ميتة ، والا " لاستطعت ان اخبرها بأن الامبراطور شيوان تونغ ليس الا قمامة " . هل استطيع ان الوم الناس على قول مثل هذا الكلام ؟

لقد لمت فقط الامبراطورة الارملة وبقية الامراء والوزراء ، وكرهت المدينة المحرمة كراهية جديدة . ورأيت انها عدو اشد خصومة من لاو شيان .

وعندما تحسنت حالى تقريبا ارسل مدير السجن فى طلبى . وبعد ان سألنى عن صحتى مضى يستجوبنى عن الشجار بينى وبين لاو شيان : وسألنى ان كان هذا قد سبب لى صدمة . وبعد ان قدمت له وصفا موجزا للمسألة انتهيت الى القول :

– لقد صدمت صدمة شديدة فى ذلك الوقت ، ولكننى الآن لست غاضبا كثيرا . اننى لا اكره الا عدم كفاءتى وجميع الناس الذين كانوا فى القصر ببكين .

– شيء جيد ان تعترف بعيوبك ؛ فهذا يدل على تقدم . لا حاجة الى ان تبتئس بخصوص عدم كفاءتك ، فبوسعك ان تتغلب على ذلك اذا كنت راغبا فى التعلم . والشيء الاهم من ذلك انك ادركت مصدر عدم صلاحيتك . عليك ان تسأل نفسك لماذا انشأك اولئك الامراء وموظفو البلاط على هذا النحو .

– انهم كانوا مهتمين فقط بمصالحهم ، فلم يعتنوا بى ، بل بأنفسهم فقط .

فأجاب مدير السجن بابتسامة :

– اخشى ألا تكون مصيبا تماما . هل تستطيع ان تقول ان تشن باو

تشن ووالدك قد عملا ضدك قاصدين ؟ هل تعمدا محاولة ايذائك ؟

لم استطع الاجابة .

— يجب ان تعطى هذه المسألة اهتماما شديدا . اذا تمكنت من ايجاد الجواب فان مرضك سيكون نافعا .

وواصلت التفكير فى هذه المسألة بعد عودتى من مكتب مدير السجن ، واسترجعت حياتى الماضية مرات كثيرة قبل اجتماع النقد الذى اشتركت فيه بعد مرضى . وجعلنى اخفاقى فى العثور على جواب ازداد غضبا على غضب .

وفى اجتماع النقد هذا انتقد احدهم لاو شيان على ضغينته قائلا انه كان دائما يتعمد مهاجمتى . ومعظم الآخرين عبروا عن آراء مشابهة ، بل ان بعضهم حمل لاو شيان مسؤولية مرضى واشار الى انه كان قد ترك تأثيرا سيئا فى اعادة بناء انفسنا . فشحب وجه لاو شيان من شدة التوتر وقام بنقد ذاتى متلعثما . ولم اقل شيئا طوال الاجتماع مع اننى كنت التهب حقدا . وعندما اقترح احدهم ان اتكلم ازداد وجه لاو شيان شحوبا . فقلت بصوت خافت :

— ليس عندى ما اقوله . اننى لا اكره الا عدم صلاحيتى .

فدهش كل واحد فيهم ، وارتخى فك لاو شيان . وبدأت اصيح :

— اننى اكره القصر الذى نشأت فيه ، اكره النظام الشرير . ما الاقطاعية ؟ الاقطاعية تعنى تدمير الناس منذ طفولتهم .

واحسست بغصة فى حلقى فلم استطع المتابعة . واخذ الآخرون يتمتمون بشىء ما ، ولكننى لم استطع سماع ذلك الشىء .

وصول المحققين

مع نهاية عام ١٩٥٣ درسنا كتاب « حول الامبريالية » لمدة ثلاثة اشهر ،

وبعد ذلك عدنا الى فوشون فى آذار ١٩٥٤ . ولم يمض وقت طويل حتى وصلت مجموعة العمل التابعة لهيئة التحقيق ، وبدأت تستجوب السجناء .

واكتشفنا فيما بعد ان الحكومة قد قامت باستعدادات فى غاية الدقة لاستقصاء جرائم مجرمى الحرب من اليابانيين ومن " امبراطورية منشوريا " ، وقد جندت قوى كبيرة للقيام بهذه المهمة . ونقلت دفعة من مجرمى الحرب اليابانيين الى فوشون . وكان الحكومة قد بدأت فى جمع المواد منذ عدة سنوات ، وحشد مائتا محقق تقريبا تلقوا تدريبا فنيا وسياسيا خصوصيين .

وبدأ التحقيق مع مجرمى الحرب من " امبراطورية منشوريا " باجتماع كبير عقد فى نهاية مارس . وبقدرما كان يعينا نحن السجناء فان التحقيقات شملت ابلاغات عن جرائم الآخرين واعترافات بجرائمنا ، وقد انتهت فى نهاية ذلك العام .

واخبرنا رئيس مجموعة المحققين فى الاجتماع انه بعد دراستنا وفحصنا الذاتى خلال السنوات القليلة الماضية حان الوقت لأن نعترف بذنوبنا . ان الحكومة يتعين عليها ان تفحص جرائمنا ، واننا نلتزم بالادراك الصحيح لماضينا والاقرار بجرائمنا ، والابلاغ عن جرائم الامبرياليين اليابانيين وغيرهم من الخونة الصينيين . وعلينا ان نكون امناء سواء فى الاعتراف بجرائمنا او الابلاغ عن جرائم الآخرين ، فلا نبالغ ولا نقلل . والقرار الذى ستتخذه الحكومة اخيرا حول كيفية معاملتنا سيعتمد على جرائمنا وموقفنا ، وسياستها هى اللين مع من يعترف والشدة على من يرفض الاعتراف .

وفى الاجتماع اعلن مدير السجن بعض اللوائح الجديدة . فمنعنا من تبادل المعلومات فى قضايانا ومن ارسال المذكرات الى الزنزانات الاخرى ، وما الى ذلك . ومنذ ذلك اليوم بدأت كل مجموعة تخرج الى الرياضة بالتناوب ، وبذلك تعذر لقاء السجناء من الزنزانات المختلفة .

وبعد انتهاء هذا الاجتماع عادت كل مجموعة الى زنزانتها للنقاش :

وقال كل واحد انه سيقدم اعترافات كاملة وابلاغات تامة ، وانه اعتزم بالاعتراف بذنبه كي يحصل على معاملة لينة ؛ ولكن بعضنا ، مثل لاو شيان ، كان قلقا بخصوص ذلك .

وقد لاحظت تخوفه ، فتلاشى ايمانى بسياسة اللين مرة اخرى وحلت محله الشكوك . اذا كان مدير مستشفى سابق عنده ما يدعو الى الخوف ، فمن المؤكد ان يكون عندى انا ، الامبراطور السابق ، المزيد من الاسباب التى تدعو الى الخوف .

ونظرا الى اننى قد اعترفت قبل ذلك بجرائمى الرئيسية فان قلقى الكبير قد انحصر فى كيفية اقناعى المحققين بأننى كنت صادقا . لذلك قررت ان اكتب تاريخ حياتى فى مزيد من التفصيل ، بينما اكتب كل ما عرفته من جرائم مجرمى الحرب اليابانيين . ووعدت نفسى بأن افعل هذا فى اجتماع مجموعتنا .

ولم يكن تنفيذ هذا الوعد سهلا . فلدى الكتابة عن نهاية فترة " امبراطورية منشوريا " وصلت الى اعلان الاتحاد السوفياتى الحرب على اليابان . لقد كنت مرعوبا من ان يشك اليابانيون فى ويركلونى جانبا فى تلك الازمة ، فعصرت ذهنى فى التوصل الى طريقة اكسب فيها ودهم . وفى الليل ، بعد سماعى الاعلان السوفياتى للحرب على اليابان ، ارسلت فى طلب تشانغ جينغ هوى وتاكيب (رئيس " مكتب الشؤون العامة لمجلس الدولة فى امبراطورية منشوريا ") بمبادرة منى . واعطيتهما " مرسوما " شفويا آمرهما فيه بالتعبئة بسرعة والقيام بكل شيء ممكن لدعم اليابان ضد هجومات الجيش الاحمر السوفياتى . ماذا سأقول بخصوص ذلك الآن ؟ كنت مضطرا الى ذكر ذلك بسبب وجود امكانية معرفة الناس الآخرين لهذا المرسوم ؛ ولكن اذا ذكرته ، أ فلا يجعل هذا التصرف الوحيد الذى اتخذته دون تحريض من اليابانيين ، أفلا يجعل المحققين يشكون فى اننى لم اكن اذن تحت سيطرة يوشيوكا

تماما ؟ واذا هم شكوا فى هذا الامر فان سيرة حياتى كلها ستصبح لاغية :
وقررت ان لا اقول الكثير حول هذه المسألة . ولن يضيرنى ان اكون كتوما بعض الشيء حول بعض الاشياء السيئة التى قمت بها . ووضعت اللوم بخصوص هذا المرسوم على يوشيوكا ، ثم دونت الاعتراف مرة اخرى ذاكرا بمزيد من التفصيل الاشياء التى تجرأت على ذكرها ، وكتبت الابلاغ بكل ما استطعت كتابته عن جرائم الآخرين . وسلمت هذا كله وانتظرت امر المحققين للمثول امام القضاء .

وتساءلت كيف سيكون الاستجواب . هل سيكون المستنطق كأى مخلوق عادى او مثل وحش ؟ هل سيستخدم معى التعذيب كما كنت اعذب الخدم والخصيان المذنبين فى المدينة المحرمة وفى تشانغتشون ؟ وايقنت انه سيكون قاسيا . وكنت خائفا من التعذيب ، حتى ولو صفعة على الوجه ، اكثر من خوفى من ان اموت . لقد بقيت فى سجن شيوعى مدة ثلاث سنوات ، فلم ار الناس يضربون او يشتمون بل كانوا يعاملون بالاحترام اللائق بهم بوصفهم بشرا . وهذا كان كافيا لأن يرينى ان مخاوفى السابقة لم يكن لها اساس ، الا اننى اقتنعت بأن المستجوب لا بد ان يكون متشككا ويستخدم العنف مع من يستجوبه .

وامضيت عشرة ايام قلقة اعانى من وساوس كهذه . ثم جاءت اللحظة المخيفة عندما طلب منى سجان ان اذهب لرؤية المحققين .

واخذت الى غرفة مساحتها عشرة امتار مربعة تقريبا . كان فى وسطها مكتب كبير وامامه طاولة صغيرة عليها طاسات الشاى وابريق شاى ومنفضة سجائر . وخلف المكتب جلس رجلان ، احدهما كهل والآخر شاب . واشارا الى بالجلوس على كرسى بجانب الطاولة . فسألنى الرجل الاكبر سنا منهما عن اسمى وعمرى ومسقط رأسى والعرق الذى انتمى اليه ، ومضى قلم الشاب يحك قطعة من الورق فيما كان يسجل اجوبتى . وقال الكهل :

ـــ لقد قرأنا اعترافك ، ونود ان نجرى معك حديثا . يمكنك ان تدخن .

وسألنى عن عدد من الاشياء بدءا من طفولتى الى الوقت الذى قبض على فيه . وهز رأسه وانا اجيب كأنما كان راضيا بجوابى :

ـــ حسن جدا ، سنترك ذلك الآن . وقد يكون لدى المستنطق تشاو بعض الاسئلة الاخرى ليسألك اياها فيما بعد .

وانهى جو الاستجواب الذى جاء مباغتة تامة قلقى بخصوص التعذيب .

واصبت بشيء من خيبة الامل لدى استجوابى التالى عندما لم اجد فى الغرفة الا تشاو . وتساءلت وانا اجلس امام هذا المستنطق الشاب ان كان كفوءا هو الآخر . وهل سيكون قادرا على تفهم اننى قلت الحقيقة ؟ هل سيكون له الطبع النزق الذى يكون لدى الشباب ؟ وكلام من سيصدق اذا كتب الآخرون عنى تقارير كاذبة ؟

وقال مقاطعا سلسلة افكارى :

ـــ هناك سؤال اود ان اسألك اياه :

لقد اراد ان يعرف عن الاجراءات الخاصة باصدار الاوامر والمراسيم الامبراطورية فى " امبراطورية منشوريا " ، فأجبته بصدق . وعندما ذكر لى احد الاوامر ، سألنى عن الوقت التى رأيته فيه قبل اعلانه . ولم اكن متأكدا فأجبت :

ـــ ربما قبل يوم او يومين ، ولكن قد يكون قبل ثلاثة او حتى اربعة .

ـــ لا داعى لأن تعطى جوابا فى الحال . يمكنك ان تخبرنى عندما تتذكر . دعنا ننتقل الى سؤال آخر الآن .

ولم استطع ايجاد جواب على السؤال الآخر ايضا . وارتبكت وتساءلت ان كان المستنطق سيظن اننى اتعمد اخفاء شيء ويخرج عن طوره . ولكنه قال بدلا من ذلك : " لندع هذا السؤال جانبا ايضا . يمكنك ان تخبرنى عندما تتذكر . " ثم اضطررت الى الاذعان لذلك الشاب فى النهاية .

ففى احدى الجلسات — لا اذكر ايها — اخرج بعض المواد التى كنت قد كتبتها و وضعها امامى وسألنى :

— لقد كتبت هنا ان الغزاة اليابانيين اخذوا ستة عشر مليون طن من الحبوب من الشمال الشرقى فى سنة واحدة ، تنفيذا لخطة وضعها فوروموى تادايوكى ، مجرم الحرب الذى كان نائبا لرئيس " مكتب الشؤون العامة لمجلس الدولة فى امبراطورية منشوريا " . فهذا غامض جدا . اية سنة كانت تلك ؟ كيف تعرف رقم ستة عشر مليون طن ؟ ارجو ان تعطينى مزيدا من التفاصيل .

كنت فى الواقع قد سمعت مصادفة اثنين من الوزراء العملاء السابقين فى زنزانتى يتحدثان عن ذلك ، ولكن لم استطع الاعتراف بهذا ، لذلك قلت ان اليابانيين قد سلبوا من الشمال الشرقى جميع ثرواته ، واخذوا جميع الحبوب التى كانت مزروعة . فقاطعنى المستنطق ثانية عند هذه النقطة :

— هل تعرف الانتاج السنوى للحبوب فى الشمال الشرقى ؟

فلم استطع الاجابة بشىء .

— على اى اساس بنيت افادتك فيما كتبت ؟

ورأيت اننى لا استطيع ان اجد لنفسى مخرجا من هذا الوضع ، فاعترفت ان مستندى الوحيد كان القيل والقال .

— اذن أ انت تصدق ما كتبت ام لا ؟

— اننى . . . اننى لا ادرى .

فنظر الى المستنطق وقد جحظت عيناه ، وقال :

— حتى انت لا تصدق ذلك . اذن لماذا كتبته ؟

ولم اعرف ماذا اقول . واغلق قلمه ورتب « حولية امبراطورية منشوريا » و« تقرير الحكومة » السميكين على مكتبه . وبدا واضحا انه لا يريد اى جواب آخر منى ، واقفل الاستجواب قائلا :

— سواء كنت تشير الى نفسك او الى الآخرين عليك ان تتشبث دائما بالحقائق .

فنظرت اليه فى صمت ، معترفا لنفسى بحقيقة ما قال ، اذ خفت من ان يكذب الآخرون او يبالغوا فيما يقولونه عنى . وخرجت من الغرفة اتساءل ان كان جميع المحققين واعين مثل هذا الشاب . ماذا سيحدث لو ان شخصا غير كفوء قرأ عنى بعض الاشياء الكاذبة ؟

وسرعان ما حصلت على اجابة عن هذا السؤال عندما اخبرنا لاو يوان عن تجربته . لقد سجل رقما استنتجه لمقدار الحديد والفولاذ الذى اخذه اليابانيون من الشمال الشرقى . فلم يصدق المستنطق هذا الرقم واعطاه قلم رصاص ، وطلب منه ان يحسب كم من الخامات يلزم لانتاج هذا المقدار من الحديد والفولاذ ، وكم من الخامات كان يستخرج فعلا فى الشمال الشرقى كل سنة . وانتهى لاو يوان الى اخبارنا بأن المستنطق كانت لديه اضبارات للموارد الطبيعية فى الشمال الشرقى .

وفهمت الآن لماذا كان لدى المستنطق تشاو كل هذه الكتب الارشادية على مكتبه . وللتحقق من جميع الادلة المكتوبة امضى مئات المحققين اكثر من سنة يطوفون فى كافة انحاء البلاد ويقرأون الاضبارات بأعدادها الكبيرة والموزونة بالطن كما اكتشفت عندما وقعت على الاستنتاجات العامة التى كتبها عنى المحققون .

وسبب اصطدامى بهذا المحقق الشاب هو انه كان واعيا جدا فى بحثه عن الحقائق ، واننى كنت اخشى بغباء ان يظن اننى لست امينا . لذلك اسرعت فى كتابة نقد ذاتي وارسلته اليه . ومن ثم شعرت ان الوضع ليس بالغ الخطورة .

معاناة وحقد الشعب فى الشمال الشرقى

لم اعرف ابدا ولم اهتم بمعرفة الكوارث التى انزلها اليابانيون بشعب الشمال الشرقى ، ولم افكر قط فى ان يكون لهذه الكوارث ما يعنيه بخصوصى . ولكن عندما حضرت اجتماع دراسة حول جرائم مجرمى الحرب اليابانيين فى الشمال الشرقى ادركت مدى خطورة هذه الجرائم . لقد ترك هذا الاجتماع الذى اشترك فيه مجرمو الحرب اليابانيون انطباعا عميقا جدا فى نفسى . وكانت اكثر الشهادات باعثا على الذهول اعترافات فورومى تادايوكى ، نائب رئيس " مكتب الشؤون العامة لمجلس الدولة فى امبراطورية منشوريا " ، واعترافات قائد درك سابق فيها .

كان فورومى مفضلا لدى الجيش اليابانى ، وواحدا من حكام " امبراطورية منشوريا " الحقيقيين . وقد خطط هو ورئيسه تاكيب روكوزو ، عملا بأوامر جيش قواندونغ ، ونفذا حكم الشمال الشرقى وسلبه . وقد تكلم بمزيد من التفصيل عن سياسة انتزاع الاراضى بالقوة من الفلاحين فى الشمال الشرقى لتوطين المهاجرين اليابانيين ؛ وعن " الخطة الخمسية لتطوير الانتاج" التى وضعت لسلب الموارد الطبيعية فى الشمال الشرقى ؛ وعن استخدام الافيون لتسميم الشعب ؛ وعن سياسات اخرى كثيرة ، بما فى ذلك انتزاع كل ما لدى الاهالى من الحبوب والمنتجات الاخرى كجزء من الاستعدادات لحرب الباسيفيك . كما تحدث عن بعض عواقب هذه السياسات ، وكان كل مثال ذكره نموذجا للوحشية . ففى عام ١٩٤٤ ، مثلا ، جند اكثر من خمسة عشر الف عامل من الشمال الشرقى كله تجنيدا الزاميا من اجل البناء العسكرى بوانغيمياو فى جبال شينغآن . وكانت الظروف التى اجبروا على العمل خلالها سيئة للغاية بحيث مات منهم اكثر من ستة آلاف عامل .

وكان لدى فورومى ايضا الكثير مما يمكن قوله عن سياسة الافيون

اليابانية . لقد بدئ بهذه السياسة فى اوائل عام ١٩٣٣ عندما اصبح الجيش الياباني يشكو من نقص فى الاعتمادات المالية قبل غزوه رخه . ونظرا الى انه لم يسيطر على انتاج الافيون فى الشمال الشرقى فى ذلك الحين ، فقد استورد اكثر من مليونى آونس من الافيون الاجنبى وبعثر المنشورات بالطائرة فى كافة انحاء رخه لتشجيع زراعة خشخاش الافيون . وحوالى عام ١٩٣٦ وسع الجيش اليابانى الى حد كبير المساحة الخاضعة لزراعة الافيون فى " امبراطورية منشوريا " ، وفعل كل ما فى وسعه لتوسيع الانتاج ، وفيما بعد اعطى لنفسه الحق القانونى فى احتكار بيع الافيون . واسس اليابانيون " جمعيات لمنع تدخين الافيون " فى كل مكان ، واقاموا صالات للتدخين زودوها بـ " مضيفات " ، وبذلوا جهودا كبيرة لنشر الادمان بين الشباب . وفى عام ١٩٤٢ عقد " مجلس انعاش آسيا " " مؤتمرا حول احتياجات الافيون وانتاجه فى الصين " ، اتخذ قرارا ينص على ان " تغطى امبراطورية منشوريا ومناطق حدود منغوليا متطلبات الافيون لمنطقة الازدهار المشترك فى شرقى آسيا العظمى " ؛ وبعد ذلك زادت المساحة الخاضعة لزراعة الافيون فى الشمال الشرقى الى ٣ آلاف هكتار . ووفقا لحسابات فورومى فان " امبراطورية منشوريا " قد انتجت اكثر من ٣٠٠ مليون آونس من الافيون قبل انهيارها . بلغت ارباحها فى عام ١٩٣٨ سدس الدخل الاجمالى للحكومة العميلة ؛ وفى عام ١٩٤٤ وصل الى ٣٠٠ مليون يوان ، اكثر بمائة مرة عما كان عليه فى بداية " امبراطورية منشوريا " ، وبذلك تزودت اليابان بمصدر من اهم مصادر التمويل لحربها العدوانية . وكان فى رخه وحدها ما يقارب من ٣٠٠ الف مدمن افيون ، وفى الشمال الشرقى عامة وصل معدل مدخنى الافيون الى واحد من كل عشرين نسمة .

وشهد ضابط درك بأن رجال الدرك غالبا ما كانوا يقومون بمذابح جماعية ، ويحشدون الناس بعدها لرؤية الجثث . فكانوا احيانا يقبضون على عدد من

الناس يعتبرونهم مريبين ، فيصفونهم صفا واحدا ويختارون واحدا منهم عشوائيا ، ثم يشقونه بسيف امام الجميع . ولقد قتل بنفسه اكثر من ثلاثين ضحية بهذه الطريقة . وكان المقبوض عليهم يخضعون لشتى الوان التعذيب : فكانوا يضربون ؛ ويصب فى انوفهم الماء البارد وماء الفلفل الحارق والكيروسين ؛ وكانوا يحرقون بأعواد البخور او بالمساعر المحماة حتى الاحمرار ؛ وكانوا يعلقون بالمقلوب . . .

والى جانب ما عاناه اهالى الشمال الشرقى على ايدى الغزاة اليابانيين مباشرة ، ليس من الصعب اظهار الحقائق والارقام بخصوص ما تعرضوا له من تعذيب على ايدى الحكومة العميلة والخونة الصينيين . فقد سلبت منهم عمليا من خلال الاوامر وسياسات الحبوب المتعددة ، ومن خلال نظام تزويد اليابان بالحبوب ، جميع الغلال التى كانوا ينتجونها كل سنة ، وفى نهاية فترة "امبراطورية منشوريا" استطاعوا فقط ان يحافظوا على انفسهم احياء بواسطة اكلهم " الدقيق المركب " الذى يتكون من قشرة الذرة وحثالة فول الصويا بعد استخراج الزيت منه ودقيق البلوط . وكانت الحبوب التى تؤخذ منهم تحفظ للاستخدام العسكرى او ترسل الى اليابان . وقد ارتفع المقدار الذى يرسل الى اليابان سنويا الى ٣ ملايين طن عام ١٩٤٤ ؛ وبلغ مجموع ما ارسل فى السنوات الست الاخيرة من فترة " امبراطورية منشوريا " الى اكثر من ١١ر١٠٠ر٠٠٠ طن .

ونتيجة للقوانين التى كانت تحكم الحبوب والاقمشة القطنية والمعادن وغير ذلك من السلع وجد الاهالى انفسهم يتحولون الى " مجرمين اقتصاديين " . فكان الناس العاديون مثلا ممنوعين من اكل الارز ، ويمكن ان يعاقبوا بوصفهم " مجرمين اقتصاديين " اذا اكتشفت بقايا ارز فى قيئهم . وفى عام ١٩٤٤ — ١٩٤٥ وحده عوقب ٣١٧ر١٠٠ مواطن بصفة " مجرمين اقتصاديين " .

وعلاوة على الحبوب ، فقد الفلاحون اراضيهم . ففى السنتين الاخيرتين

من فترة " امبراطورية منشوريا " انتقل ٣٩٠ الف مهاجر يابانى الى الشمال الشرقى ، فأخذت الحكومة العميلة ٣٦٫٥٠٠٫٠٠٠ هكتار من الارض من اهالى الشمال الشرقى لتقديمها لهؤلاء المهاجرين .

وعندما اراد اليابانيون سلب الموارد الطبيعية من الشمال الشرقى وتحويلها الى قاعدتهم الاقتصادية ، استخدموا الحكومة العميلة لاستعباد اهالى الشمال الشرقى من خلال شتى الحيل الماكرة . وبعد ان صدر باسمى " قانون ضبط العمل " عام ١٩٣٨ كان يساق سنويا ٢٫٥٠٠٫٠٠٠ رجل (باستثناء اولئك الذين جندوا جنوب السور العظيم) للعمل بالسخرة . ومعظمهم عملوا فى التعدين والبناء العسكرى ، وقد ماتوا بأعداد كبيرة بسبب الظروف المخيفة التى اشتغلوا فيها . وفى مشروع واحد هو "مشروع منع الفيضان" فى مدينة لياويانغ سنة ١٩٤٤ مات ١٧٠ عامل شاب من اصل ٢٠٠٠ عامل سيقوا للسخرة هناك .

وكان جميع الفلاحين والعمال العاديين والطلبة والشباب غير الصالحين للخدمة العسكرية مضطرين الى الاشتراك فى هذا العمل الاستعبادى الذى كان يدعى رسميا " العمل الطوعى " .

والذين عانوا اسوأ المعاناة هم نزلاء " الاصلاحيات " . ففى نهاية عهد " امبراطورية منشوريا " وصلت وحشية الحكم اليابانى الى حد الجنون . فأعلن " قانون تقويم الفكر " و" قانون الامن والتقويم " عام ١٩٤٣ فى محاولة لحل مسألة النقص فى اليد العاملة وكبح تزايد مقاومة الشعب ، واقيمت معسكرات الاعتقال فى كافة انحاء الشمال الشرقى تحت اسم " الاصلاحيات ". وقد القى فى هذه الاصلاحيات حشود من المملقين بتهمة التشرد ، وكذلك من الساخطين بتهمة " الافكار السيئة " واجبروا على القيام بالاعمال الشاقة . وكانت السلطات احيانا توقف المارة وتصنفهم كـ " متشردين " دون ان تزعج نفسها بمجرد سؤالهم ، ومن ثم تلقى بهم الى احدى " الاصلاحيات " التى

لا يخرجون منها بعد ذلك ابدا :

والنزلاء الذين ظلوا احياء بعد انهيار " امبراطورية منشوريا " يخبرون الحكومة الشعبية الآن بكل مرارة وحقد عما فعله الحكام العملاء بهم . لقد قبض على فلاح من مدينة خقانغ عام ١٩٤٤ واخذ الى المقر الرئيسي للشرطة بتهمة قيامه بنشاطات معادية لامبراطورية منشوريا واليابانيين . وكان معه هناك سبعة عشر شخصا آخرون وبعد ان ضربوا ضربا عنيفا اخذوا الى اصلاحية خقانغ واجبروا على العمل فى استخراج الفحم من مناجم دونغشان . وكانوا ملزمين بالعمل اثنتى عشرة ساعة يوميا ، لا يعطون خلالها الا كتلة صغيرة من الذرة الرفيعة فى كل وجبة ، ولا يعطون ملابس او افرشة ، وكانوا يضربون بمنتهى الوحشية . قال هذا الفلاح :

سمعت امى اننى فى الاصلاحية ، فجاءت الى المكان الذى كنت اعمل فيه لترانى عبر السلك الشائك . وعندما رآها الشرطة قبضوا عليها من شعرها وظلوا يركلونها الى ان تكومت على الارض ولم تقدر على النهوض . وبعد ذلك ضربونى بالمجارف حتى اثخنونى بالجروح وغبت عن الوعى سبعة ايام . وذات مرة ، احتجنا الى خضار نأكله مع وجباتنا فاشترى سجين يدعى سونغ كاى تونغ بعض البصل من احد المارة ببعض النقود منى . فرآه رئيس القسم الخائن وانغ ، فاستدعانا كلينا ، واخذ منى خمس يوانات وامر بضربى ضربا مبرحا بحيث نزفت دما من فمى وانفى . ثم امرنى بالدخول فى كيس ودفعنى فيه بالضرب على رأسى عندما رفضت ، ولما اصبحت داخل الكيس رفعوا الكيس واسقطوه ثلاث مرات ، وفى المرة الثالثة فقدت الوعى . وكان الناس هناك يموتون يوميا ، وكل ثلاثة او اربعة ايام يتم اخراج سبع او ثمانى جثث . ومات تسعة من السبعة عشر رجلا الذين قبض عليهم معى . وقد اصبت انا بالسل ، وما زلت غير قادر على العمل . واصيبت امى بالجنون ، واضطر اشقائى الثلاثة ، واكبرهم لم يتجاوز الحادية عشرة من العمر ، الى التسول لسد رمقهم .

ان القمع الذى كان الشعب يتعرض له فى الشمال الشرقى على يد الجيش والشرطة والمحاكم والسجون فى " امبراطورية منشوريا " ينطوى على فظائع دموية لا يحصى عددها . ولقد شهد الفلاح هوانغ يونغ هونغ البالغ من العمر واحدا وستين عاما والذى القى القبض عليه لأنه بعث برسالة الى الجيش المتحالف ضد اليابانيين ، شهد جريمة مذبحة جماعية وصفها كالتالى :

فى اليوم السادس والعشرين من الشهر الثانى وفقا للتقويم القمرى (الصينى) اخذت الشرطة العميلة اكثر من ثلاثين سجينا منا ليذهبوا ويحفروا حفرة خارج بوابة تشاويوان الغربية . وعدنا الى السجن بعد حلول الظلام . وفى اليوم السابع والعشرين اخذت انا ووانغ يا مين وقاو شو سان وليو تشنغ فا فى مجموعة واحدة واخذ عشرون آخرون فى مجموعة اخرى الى خارج البوابة الغربية ، حيث اطلق الرصاص على مجموعة العشرين كلها . ثم جاءوا بدفعة اخرى من اثنين وعشرين رجلا ورموهم بالرصاص ايضا . وبعد رميهم صب رجال الشرطة البنزين على جثثهم واشعلوا فيها النار ، وكان احدهم حيا ، وعندما ادركته النار حاول ان يهرب ولكن الشرطة اطلقوا عليه النار وقتلوه . وعندما احترقت هذه الجثث طلبوا منا ان ندفنها . وما يزال القبر هناك خارج بوابة تشاويوان الغربية ، وبوسعى ان اجد المكان ثانية .

هذا الجحيم الارضى كان يدعى " الفردوس على الطريقة الملكية " الذى حكمت فيه بصفة " رئيس تنفيذى " ثم بصفة " الامبراطور كانغ ده " . وجميع هذه الاعمال الوحشية قد نفذت باسمى . فلا عجب فى ان تنتهى جميع شهادات ضحايا نظام " امبراطورية منشوريا " بالعبارات التالية :

" اننى اطالب الحكومة الشعبية بأن تنتقم لنا . اننا نريد من اليابانيين والخونة الصينيين ان يدفعوا ما فى اعناقهم من دين الدم . "

" انتقموا لعوائلنا التى قتلت . عاقبوا اليابانيين والخونة . "

" انك لا تستطيع ابدا ان تنجو من عواقب خطاياك "

كانت المشكلة اكثر خطورة من ذلك :

لقد اثارتنا نحن مجرمي الحرب " المانشوبيين " الاعترافات والافشاءات التي ادلى بها مجرمو الحرب اليابانيون واتهامات ابناء الشعب في الشمال الشرقي . وكانت ردة الفعل بين الشباب منا قوية ، ولقد كشفني ابناء اشقائي وزوجا شقيقتي ولي الكبير . ووجدت نفسي محاطا بالكراهية حتى داخل اسرتي . فقد كنت كأنني اقف ضمن دائرة من المرايا ، فأينما نظرت رأيت صورتي الكريهة .

بعد حضورنا اجتماع الدراسة الخاص بمجرمي الحرب اليابانيين جمعنا وطلب منا ان نتحدث عن ذلك . وكان بعضنا ما يزال شديد الاثارة بحيث اقسم ان يعترف بجرائمه ويبلغ عن جرائم الآخرين . وكان الهدف الرئيسي للاتهامات تشانغ هوان شيانغ ، وزير العدل العميل الذي ذهب الى ابعد الحدود في كسب الحظوة لنفسه لدى اليابانيين واصبح الآن غير مرغوب فيه حتى في السجن تماما لأنه يتعمد اتلاف الطعام ، ويخرق لوائح السجن ، ويصرخ في وجه السجانين وما الى ذلك . وقد حذره بعضنا من انه اذا لم يتصرف على نحو لائق في المستقبل فان الحكومة لا يمكن ان تصفح عنه . ونظرا الى انني خشيت من ان اعامل بهذه الطريقة ، فقد كنت قلقا اخاف ان يظن الآخرون انني لا اتصرف على النحو اللائق . ولما لم يكن مسموحا لنا في ذلك الوقت ان نخبر بعضنا بعضا عن اى شيء من الاعترافات التي ادلينا بها والمعلومات التي قدمناها ، فقد خفت ألا يعرف الآخرون انني قد اعترفت ، لذلك قررت ان اتكلم في الاجتماع . وعندما اخبرتهم في الاجتماع بكل شيء اعترفت به ووصلت الى نهاية حديثي ، وثب قو الصغير على قدميه وسألني :

ـــ لقد قلت الكثير ، أليس كذلك ؟ ولكن لماذا لم تذكر تلك المذكرة ؟

فبقيت كالابكم لحظة من الوقت . ثم نهض شيو الصغير ايضا وقال :
ــ المذكرة ، مذكرة روى الصغير . لقد قلت الآن انك سلمت تلك المجوهرات بمبادرة منك . لماذا لم تقل ان روى الصغير قد حثك على ذلك ؟

فسارعت الى سد هذه الثغرة فى قصتى قائلا :
ــ اجل ، اجل ، كنت سأذكر ذلك . لقد كان روى الصغير هو الذى نورنى . . .

ولكن النظرات المحملقة الى من شيو الصغير وقو الصغير دلت بكل وضوح على انهما غير راضيين بهذا . ومن حسن الحظ ان الاجتماع كان قد انتهى حينذاك .

وعندما عدت الى زنزانتى كتبت نقدا ذاتيا وسلمته الى مسؤول السجن . لقد ايقنت ان مدير السجن سيغضب منى ، واستأت اشد الاستياء من روى الصغير لاخبار الآخرين بأمر المذكرة . كان قو الصغير وشيو الصغير ، عضوى اسرتى ، قاسيين حقا بتصرفهما هذا ازائى . انهما لم يكونا وفيين لى حتى مثل لى الكبير . وقد رأيت بعد وقت غير طويل التقارير التى كتباها عنى وايقنت عندها ان التغيير الذى حدث داخل اسرتى كان اكثر اخافة مما تخيلت .

كان هناك نظام ينص على ان يقرأ كل سجين التقرير الذى يتضمن اتهامات ضده ، فأحضر لى المستنطق تشاو رزمة من التقارير عنى ، وقال : " عندما تنتهى من قراءتها وقع على التى توافق عليها . واذا كنت لا توافق ، فقدم اعتراضاتك . "

وكانت التقارير الاولى التى رأيتها موجهة من بعض الوزراء العملاء السابقين ، ربما انها كانت لا تشير الا الى وقائع معروفة ، وقعت عليها كلها . ولكن عندما بدأت اقرأ التقارير التى كتبها افراد اسرتى سرعان ما تعرقت راحة يدى .

وتضمن تقرير زوج شقيقتى لاو وان ، مقطعا يقول :

فى مساء ٩ اغسطس ١٩٤٥ ذهبت الى القصر لأرى بو يى . فوجدته يكتب شيئا ، وتشانغ جينغ هوى وتاكيب ينتظران خارج غرفته لمقابلته . واطلعنى بو يى على ما كتب ، وكان المضمون العام هو ان على جميع قوات " امبراطورية منشوريا " المسلحة ان تقاتل الى جانب الجيش اليابانى الامبراطورى وتحطم العدو الغازى (الجيش الاحمر السوفياتى) . وقال انه سيسلم هذا الامر الى تشانغ جينغ هوى وتاكيب ، واراد ان يعرف ان كان لدى اى اقتراح اقوله . فقلت ليس هناك من بديل .

وكانت هذه كارثة ، اذ اننى وضعت اللوم فى ذلك على يوشيوكا .

وكانت شهادة لى الكبير اكثر ارعابا . فقد وصف رحيلى من تيانجين ، وذكر كيف اتفقت معه على التشبث بالقصة القديمة قبل ان اكتب سيرتى الذاتية . ولم يكن هذا كل ما فى الامر . فقد كشف ساوكى اليومى بقدر كبير من التفصيل ، مبينا كيف تصرفت مع اليابانيين وكيف عاملت افراد اسرتى . ولو كانت هناك حالة او حالتان من هذا النوع لهان الامر ، ولكن هناك قائمة هائلة من الاتهامات .

فقد كتب لاو وان مثلا :

عندما كانت تعرض افلام فى القصر كنا ملزمين بالوقوف اذا ظهر الامبراطور اليابانى على الشاشة ، وبالتصفيق للجنود اليابانيين اذا شنوا هجوما . وذلك لأن الذين يشغلون الفيلم كانوا يابانيين .

وكانت هناك حملة للاقتصاد فى الفحم عام ١٩٤٤ ، فأصدر بو يى اوامر بألا تشعل المواقد بعد ذلك فى جيشيلو (مبنى فى القصر) لارضاء يوشيوكا ، ولكنه استخدم فى غرفته موقدا كهربائيا دون علم يوشيوكا .

وعندما هرب بو يى الى داليتسيقو وضع الالهة اليابانية وصورة ام هيروهيتو فى عربته فى القطار ، وكان يقوم بانحناءة مقدارها تسعون درجة كلما مر بالصورة وامرنا ان نفعل مثله .

وتضمن تقرير روى الصغير مقطعا حول الايتام الذين استخدمتهم غلمانا وكشف عن المعاملة السيئة التى عوملوا بها والعقوبة القاسية الجائرة التى كنت انزلها بهم فى غالب الاحيان . كما بلغ عن موت الغلام الذى حاول النجاة .

وصيغة الاتهامات التى وجهها ضدى لى الكبير لم تترك شيئا خفيا من احقاده :

لقد كان هذا الشخص ، بو يى ، قاسيا وخائفا من الموت ، ومتشككا للغاية ؛ وكان كذلك شديد المكر كثير النفاق . وكانت معاملته لخدمه لا انسانية : يشتمهم ويضربهم لأتفه سبب . واذا شعر بالتعب او الضجر فان على الخدم ان يتحملوا مغبة ذلك ، وكانوا محظوظين اذا ما تعرضوا فقط للصفع والركل . ولكن عندما يكون مع غرباء فانه يتصرف كأنما هو ألطف انسان على وجه الارض .

وكانت عادته فى تيانجين ان يأمر بضرب الناس بعصى خشبية او بكرابيج الخيل . وفى عهد "امبراطورية منشوريا" اضيفت اشكال جديدة اخرى من التعذيب . . .

وجعل كل واحد يتصرف كأنه شريكه . فكان اذا اراد ان يضرب شخصا ما ، فهو يشك فى كل من يرفض ان يقوم بالضرب تنفيذا لأمره او لا يضرب بقسوة كافية بأنه متواطىء مع المذنب . واذا ما حدث ذلك فان الذى كان من المفروض ان يتولى الضرب يضرب هو الآخر وعلى نحو اقسى عدة اضعاف . وكان جميع ابناء اشقائه واتباعه يجلدون له الناس ما بين حين وآخر . وضرب احد الغلمان ، واسمه تشو بوه رن (يتيم) فى الثانية عشرة او الثالثة عشرة من عمره ، ذات مرة بوحشية بالغة بحيث اصيب بجروح بطول قدم فى فخذيه ، استغرقت شهرين او ثلاثة اشهر الى ان التأمت تحت اشراف الطبيب هوانغ . وفيما كان هذا الصبى يتحسن طلب منى بو يى ان آخذ له لبنا واشياء اخرى واقول له : "ما الطف صاحب الجلالة معك ! هل كنت تحصل على اشياء طيبة كهذه وانت فى الميتم ؟ "

ولدى قراءتى هذا الاتهام الأخير بدأت اشك فى التبرير الذاتى الذى كنت الجأ اليه فى الماضى . لقد ظننت فى السابق ان كل شىء فعلته قد تم تبريره. فأنا لم اكن ازيد عن خضوعى لضغط اليابانيين فنفذت اوامرهم ، لأننى كنت مجبرا على ذلك ؛ اما معاملتى لأهل بيتى ، وتعذيبهم ، فكنت دائما ما ابدو فيه محقا . اما ان اتذلل للقوى واتنمر على الضعيف فهذا كان امرا طبيعيا ومعقولا بالنسبة لى ، وقد تخيلت ان كل واحد فى موضعى سيتصرف نفس الشىء . ولكننى الآن ادركت ان هذا ليس هو الوضع الطبيعى للناس ، وان تبريرى الذاتى باطل تماما .

ليس هناك ، برغم كل شىء ، اضعف من السجناء الذين يجردون من جميع حقوقهم ، ولكن الشيوعيين الذين اخذوا بزمام السلطة لم يضربوهم او يشتموهم ، كما انهم لم يعتبروهم اقل شأنا من البشر . اما القوة ، فان الجيوش الامريكية بمعداتها من الدرجة الاولى يمكن اعتبارها "قوية" ، ولكن القوات الشيوعية لم تخف منها على الرغم من رداءة معداتها ، بل تجرأت على مقاتلتها مدة ثلاث سنوات الى ان اجبرتها على توقيع هدنة .

ولقد رأيت مؤخرا المزيد من الامثلة الجديدة . فمن الاتهامات الجماهيرية علمت ان كثيرا من ابناء الشعب العاديين لم يتبعوا عقيدتى ازاء العنف والاضطهاد . فكان هناك فلاح من محافظة بايان يدعى لى ديان قوى عانى من اضطهاد اليابانيين والخونة الصينيين كل المعاناة . وقد عاق آماله فى الخلاص على الجيش المتحالف ضد اليابانيين . ففى عيد رأس السنة الصينية عام ١٩٤١ ارسل الى المقاتلين المعادين لليابانيين دو واحد (١٥) من الدخن و٤٧ كعكة مفتولة مقلية و١٢٠ بيضة وعلبتين من السجاير . وفيما بعد اكتشفت الشرطة العميلة ذلك فألقت عليه القبض . فعلق وجلد ، ثم اعطى صدمات كهربائية . ووضعت بجانبه الجثث النازفة ، جثث الذين ماتوا تحت التعذيب ، لاخافته ، وكان ذلك لاجباره على كشف بعض الاسرار الهامة المتعلقة بالقوات المعادية

لليابانيين : واستمر تعذيبه الى ان حرر بعد استسلام اليابانيين ؟

وفى عام ١٩٤٣ ، اخذ لى ينغ هوا من قرية جينشان ، وكان ما يزال طفلا ، بعض البيض الى المقاتلين ضد اليابان ، وعندما اكتشف جواسيس الشرطة ذلك اخذ الى المقر الرئيسى للشرطة . وفى البداية قدموا له الشاى والسجاير ودعوه لأكل جياو تسى قائلين : " انك مجرد طفل ولا تدرك الامور ، لذلك اذا تكلمت فاننا سنتركك تذهب . " ودخن لى ينغ هوا السجاير ، وشرب الشاى ، واكل جياو تسى . وفى النهاية قال : " اننى مجرد مزارع ولا اعرف شيئا . " فعلقه العملاء رأسا على عقب وضربوه ، واعطوه صدمات كهربائية ، واحدثوا فى جسمه حروقا ، وعروه من ثيابه ليضربوه بهراوات شائكة ، ولكنهم لم ينتزعوا منه اية معلومات .

لقد عرفت الآن انه ليس جميع الناس على هذه الارض ضعفاء . وكان التفسير الوحيد لتصرفاتى فى الماضى هوأننى تنمرت على الضعيف وخفت من القوى ، واننى خفت من الموت وطمعت فى الحياة . وتسويغى الاساسى هو ان حياتى كانت فى نظرى اكثر من غيرها قيمة واننى كنت جديرا بأن اصان اكثر من اى شخص آخر . لقد تعلمت فى السنوات القليلة الماضية شيئا من قيمى الحقيقية من محاولاتى غسل ملابسى وصنع الصناديق ، واصبح لدى الآن عن ذلك فكرة اكثر وضوحا من خلال اتهامات ابناء الشعب العاديين وافراد اسرتى ضدى .

وفى المرايا التى تحيطنى رأيت اننى رجل مذنب ، ومفتقر الى كل صفة من الصفات الحميدة ، وليس هناك اى تسويغ ممكن لسلوكى .

وهكذا وقعت على الاتهام الاخير ضدى ، وانطلقت فى الممشى وذهنى مفعم بالندم والاسى .

" انك لا تستطيع ابدا ان تنجو من عواقب خطاياك . "

الفصل التاسع

اقبل اعادة تكوين نفسى

كيف اصبح انسانا ؟

" لقد بدأت سنة جديدة . فما برنامجك بخصوصها ؟ " هذا كان السؤال الذى سألنى اياه مدير السجن فى عيد رأس السنة عام ١٩٥٥ .

فقلت انه ليس امامى الا ان انتظر عقوبتى . فهز المدير رأسه وقال معترضا بشدة :

– لماذا انت متشائم جدا ؟ يجب ان تقف موقفا ايجابيا من اعادة بناء نفسك وتسعى جاهدا الى ان تصنع من نفسك انسانا جديدا .

فهدأتنى هذه الكلمات ولو انها لم تستأصل تشاؤمى . وشعرت بأننى واقع فى هاوية الاحتقار الذاتى الذى لعب الآن دورا اكبر فى تفكيرى من المخاوف التى كانت مسيطرة على بخصوص ادانتى .

وبينما كنا ذات يوم فى باحة السجن خلال فترة الاستجمام جاء مراسل صحفى ، معه آلة تصوير ليلتقط لنا صورا . ونظرا الى ان فترة الاتهام والاعتراف بذنوبنا قد انتهت ، فقد سمح لنا بأن نقضى فترة استجمامنا فى الفناء سويا ، واضيفت الى الفترة نصف ساعة اخرى . كان الفناء يعج بالنشاط ، بعض الناس يلعب بالكرة الطائرة وكرة الطاولة وبعضهم يتحادثون وبعضهم يغنون . . . وبعد ان صور المراسل كل هذه المشاهد جاء فى النهاية ليأخذ صورة لى . وكان يقف الى جانبى موظف سابق فى " امبراطورية منشوريا " يتفرج على اللعب ، فلاحظ ما سيفعله المراسل ، فابتعد عنى مسرعا وهو يقول : " لن اتصور معه . " وعلى الفور ابتعد عنى جميع الذين كانوا يقفون قريبا منى .

وخلال شهر مارس – آذار – جاءت مجموعة من قواد جيش التحرير لتفتيش السجون الخاصة بمجرمي الحرب التي كانت تابعة لموقع شنيانغ العسكري فاستدعاني مدير السجن انا وبو جيه لنذهب ونراهم . وعندما رأيت القاعة تغص بالكتفيات الذهبية ظننت لأول وهلة ان هذه لا بد ان تكون محكمة عسكرية ، ولكنني اكتشفت بعد ذلك ان الجنرالات يريدون ان يعرفوا دراستي . وكانوا ودودين جدا معي ، واظهروا اهتماما كبيرا في ما قلته ، وسألوني عن طفولتي وعن حياتي ايام " امبراطورية منشوريا " . واخيرا قال قائد ملتحي منهم : " ادرس جيدا واعد بناء نفسك . ستكون في المستقبل قادرا على رؤية بناء الاشتراكية بأم عينيك . " ولدى عودتي الى زنزانتي ظننت انه يجب ان يكون برتبة مشير ، فقال بو جيه انه لم يكن المشير الوحيد بينهم . فتأثرت تأثرا عميقا . ان الشيوعيين ، الذين لم اتوقع ان يظهروا لي ادنى تسامح ، قد عاملوني بالفعل على انني انسان ، سواء كانوا مشيرين او سجانين . ولكن زملائي المساجين لم يكونوا على استعداد حتى للوقوف الى جانبي ، كأنما انا شيء اقل من انسان .

وبعد ان عدت الى زنزانتي اخبرت زملائي فيها بما قاله المشير . فقال لاو يوان ، السفير السابق لـ " امبراطورية منشوريا " لدى اليابان واسرع رجل ادراكا في زنزانتنا : " اهنئك يا لاو بو . اذا قال المشير انك ستكون قادرا على رؤية البناء الاشتراكي ، فهذا يعني انك في امان . "

وبعث هذا سرورا غامرا لدى الآخرين جميعا . اذا كان الخائن رقم ١ في امان ، فمن المؤكد انهم سيكونون على ما يرام .

بعد انتهاء فترة الاتهام والاعتراف بالذنوب اصبح الكثير منا يركزون اهتمامهم على المستقبل . فلاو شيان مثلا لم يبتسم ابتسامة واحدة منذ بداية هذه الفترة ، اما الآن فقد تهلل وجهه بابتسامة عريضة وربت على كتفي بحرارة وقال : " اهنئك يا لاو بو ، اهنئك . "

ورفع الآن الحظر عن التكلم مع بعضنا خلال فترة الاستراحة ، ولم تعد زنزاناتنا تقفل خلال النهار . وصادف ان جاء شخص الى زنزانتنا فى تلك اللحظة ، فانتشرت على الفور الاخبار المفرحة فى كافة انحاء السجن . وفكرت فى ابناء اشقائى ولى الكبير الذين تجاهلونى منذ بدء فترة الاتهام والاعتراف بالذنوب ؛ وايقنت ان هذه الانباء ستجعلهم يبتهجون ، فتعللت بذلك لكى اذهب واتحدث معهم . ورأيت قو الصغير وشيو الصغير بجانب شجرة فى ركن من الباحة . ولكن قبل ان اصلهما غادرا المكان .

وفى ابريل — نيسان — طلبت سلطات السجن منا ان ننتخب لجنة دراسة كما فعل مجرمو الحرب اليابانيون . وقد مكنتنا هذه اللجنة التى كانت خاضعة لاشراف السلطات من تنظيم دراستنا وحياتنا اليومية ؛ وكانت مسؤولة عن نقل اية مشكلة نثيرها الى مسؤولى السجن ، وعن كتابة تقارير باجتماعات النقاش والنقد . وكان بوسعها كذلك ان تبادر الى تقديم بعض الاقتراحات . وكانت تتألف من خمسة اعضاء انتخبوا انتخابا ووافقت عليهم سلطات السجن ؛ وفيهم رئيس ، واربعة اعضاء آخرين يتولى كل واحد منهم مسئولية احد النشاطات الاربعة : الدراسة والحياة اليومية والرياضة والاستجمام . وكان مسؤول الدراسة ومسؤول الحياة اليومية فى كل زنزانة ملزمين بتقديم التقرير الى العضو المعنى فى اللجنة كل يوم . وحرك هذا الابتكار السجناء ، واعتبرناه دليلا على ثقة السلطات باعادة بناء انفسنا . وادرك بعض منا ادراكا اوضح من ذى قبل ان اعادة بناء النفس تتوقف علينا . وبرهنت الحقائق فيما بعد على ان هذه اللجنة قدمت الكثير من المساعدات فى اعادة بناء انفسنا . ولكن مشاعرى ازاء ذلك فى البداية لم تكن كمشاعر الآخرين تماما . وهذا بسبب ان اثنين من الاعضاء الخمسة كانا من اقربائى الذين وجهوا ضدى اشد الاتهامات خطورة . احدهما لاو وان ، الرئيس ، الثانى روى الصغير ، العضو المسؤول عن الحياة اليومية .

وبعد ان انشئت هذه اللجنة بوقت غير طويل قررت ان نقيم ملعبا . كنا فى السابق نستخدم ملعبا بناه مجرمو الحرب اليابانيون ، اما الآن فسنقوم بتسوية قطعة من الارض لأنفسنا . وكان روى الصغير مسؤولا عن هذه المهمة ، فوبخنى امام الجميع عندما كنا على وشك ان نبدأ العمل فى يومنا الاول . لقد تأخرت عن الطابور لأمر تافه ، وفيما رحت اجرى الى مكانى بين الصفوف وازرر ملابسى بسرعة سمعت اسمى ينادى . فأجبت مسرعا الى نهاية الصف :

— حاضر ، حاضر .

فصاح روى الصغير والتجهم باد على وجهه :

— انك تتأخر فى كل مرة نجتمع بها ، فتجعل البقية ينتظرونك . انك لا تملك ادنى اعتبار للآخرين . انظر الى نفسك ، ما اشد الاهمال فى مظهرك ! ألا تستطيع حتى ان تزرر سترتك جيدا ؟

وطأطأت رأسى فرأيت ازرارى كلها فى غير عراها المناسبة . وحدقت فى الحاضرين وانا اتلمس ازرارى فى عجز .

وخشيت الآن من انهم حفظوا تسجيلات اجتماعات النقد الاسبوعية ، فأضافوا اليها تفسيرات غير مؤاتية لتصرفاتى . وكانت اجتماعات النقد الاسبوعية فى مجموعتنا مختلفة عن ذى قبل ، حيث كنا نتصايح او نتبادل مجرد ملاحظات مؤدبة . اما الآن فاننا تحدثنا بمزيد من الوعى والجدية . وهذا يرجع من جهة الى ان بعضنا قد تخلص من اعبائه الايديولوجية او تعلم شيئا حول اعادة بناء النفس ، وبذلك اتخذ المزيد من المواقف الايجابية ، ومن جهة اخرى الى ان الخطابات التى ليست لها علاقة بالموضوع والتى تعودنا ان نلقيها لم تعد تأخذ بها لجنة الدراسة . واحد الاسباب التى جعلتنى اشعر ان اجتماعات النقد الاسبوعية قد تغيرت هو انه عندما كان اناس آخرون يتكلمون عنى فانهم لم يعودوا يفعلون ذلك بتحفظ ؛ وسبب آخر اكثر اهمية

هو ان بين الاعضاء الجدد الذين انتقلوا الى مجموعتنا كان لى الكبير الذى خبرنى جيدا واصبح مسؤولا عن حياتنا اليومية . فعندما كان الآخرون يتكلمون عن نواقصى يبادر هو بتقديماته وتحاليله لمتابعة جذر المشكلة واصابتى فى المكان الموجع . وباضافة توضيحات روى الصغير ولاو وان الى هذا كله ، كنت لا اكاد ابدو انسانا .

وكنت فى الماضى اذا احالتنى صدمة خارجية الى اقصى يأسى القى اللوم احيانا على نفسى واعتبر ذلك عقوبة لى على تصرفاتى ، ولكن كنت اشعر فى احيان اخرى بالسخط على مصيرى وعلى الآخرين لجعلهم الامور امامى صعبة عن عمد . وفى البداية اعتدت ايضا ان اغضب من الحزب الشيوعى والحكومة الشعبية وسلطات السجن . اما الآن فليس عندى ما يسوغ تذمرى ازاء هذه السلطات الثلاث ، وشعرت شعورا اقوى بأن كثيرا من الاشياء كانت خطأ منى ، ولكننى كنت ما زلت اميل الى لوم الآخرين على مشكلاتى . وعندما قرأت التقارير التى كتبت عنى ، ادركت ان جميع الاشياء التى اردت ان ابقيها سرا قد اصبحت الآن مكشوفة ، لذلك ظننت انه ما دامت الحكومة قد عرفت كل شيء فان من الطبيعى اما ان ينتقموا منى او يتخلوا على الاقل عن آمالهم فى اعادة بناء نفسى . ولكن المستنطقين ومدير السجن والمشير قالوا جميعا اننى يجب ان ادرس ، واعيد بناء نفسى ، واصبح انسانا جديدا . وجميع موظفى السجن شاركوا فى هذا الرأى ، وقد اظهروا ذلك بوسائل عملية كثيرة .

وبعد ان بنينا الملعب قررت لجنة الدراسة ان نجعل فناء السجن اجمل ، استعدادا لعيد العمال ، وذلك عن طريق غرس الازهار والاشجار وازالة الاعشاب الضارة وتسوية الارض . وانطلقنا جميعنا فى العمل متحمسين . واخذت فى البداية اساعد فى ردم حفرة كبيرة ، ولكن السجان جيانغ قال ان هناك تخوفا من ان اقع فى الحفرة بسبب ضعف نظرى ، لذلك حولت الى

ازالة الاعشاب الضارة فى حوض ازهار . وبعد ان مضت على فترة من الـ ل هناك جاءنى لاو تشنغ المنغولى ، واختطف من يدى النباتات التى كنت قد اجتثثتها وصاح :

— ما هذه التى تقتلعها ؟ ها ؟

— لقد طلب منى اقتلاع الاعشاب ، أ ليس كذلك ؟

— وهل تسمى هذه عشبة ؟ ألا ترى ان جميع ما اقتلعته شتلات ازهار ؟

وتحولت مرة ثانية الى مثار اهتمام حيث كنت اقرفص هناك ، لا اجرؤ على رفع رأسى . وتمنيت لو تختفى جميع الازهار والاعشاب ،

وتابع لاو تشنغ يصيح ممسكا النباتات فى يده :

— انك حقا منبوذ .

فجاء السجان جيانغ واخذ النباتات من لاو تشنغ ، ونظر اليها ، ثم رماها على الارض قائلا :

— ما فائدة مهاجمته على هذا النحو ؟ يجب ان تساعده بتعليمك اياه كيف يزيل الاعشاب على نحو ملائم بحيث لا يخطئ بذلك فى المرة القادمة .

فأجاب لاو تشنغ :

— لم اتخيل قط انه ما يزال هناك اناس لا يعرفون الفرق بين الازهار والاعشاب .

— وانا لم اتخيل ذلك مطلقا ، ولكن ما دمنا الآن قد عرفنا خلاف ذلك فعلينا ان نتوصل الى كيفية مساعدته .

كانت جملة " لم اتخيل قط " دائما ما تقترن فى ذهنى سابقا بملاحظات مزعجة مثل " لم اتخيل قط ان بو يى بهذا الغباء — هو ميئوس منه " ، او " لم اتخيل قط ان بو يى بهذا النفاق او التردى — انكم لا تستطيعون اعادة

بناته " ، او " لم اتخيل قط ان بو يى موضع كراهية هذا العدد الكبير من الناس — انه لا يمكن ان ينقذ " . اما الآن فقد اصبحت جملة " لم اتخيل قط " تتبع حتما بـ " ولكن بما اننا عرفنا الآن فعلينا ان نتوصل الى كيفية مساعدته " .

وذات يوم كسرت نظارتى مرة اخرى . وبعد شىء من التردد اضطررت الى طلب المساعدة من لى الكبير ثانية ، فقلت له بصوت خافت :

— ارجوك ساعدنى . لقد حاولت ان اصلحها بنفسى عدة مرات ، ولكننى لم استطع . ولا احد آخر يمكن ان يصلحها ، لذلك هل يمكنك ان تصلحها لى ؟

فأجابنى محملقا :

— ما تزال تريدنى ان اخدمك . أ ما كفتك تلك الخدمة الطويلة ؟

وانتقل الى مكان آخر من الطاولة غاضبا . ووقفت مكانى يائسا ، اتمنى لو استطيع ان ادق رأسى فى الجدار . وبعد اقل من دقيقتين عاد لى الكبير واخذ النظارة منى وهو يشخر فى غضب :

— حسنا ، سأصلحها لك . ولكن دعنى اقل لك اننى لا افعل هذا الا لمساعدتك على اصلاح نفسك ، والا فليس عندى وقت .

وعندما حان موعد الاستراحة ذهبت الى قاعة المطالعة الجديدة لأريح نفسى ، فقابلت هناك بو جيه . فأخبرته بما فى ذهنى ، وذكرت له اننى امضى احيانا بعض الليالى دون نوم بسبب عداوة افراد اسرتى لى . فسألنى عن السبب فى عدم اخبار سلطات السجن بذلك . فسألته :

— لماذا ؟ لقد عانوا منى الكثير فى الايام الماضية ، فبدهى ان يكرهونى .

فأجاب بو جيه بأنه سمع مسؤولى السجن يطلبون منهم ان ينسوا الضغائن الماضية ويساعدونى . وعندها فقط ادركت لماذا كبت لى الكبير غيظه وعاد من الجانب الآخر للطاولة .

وكانت المساعدة التى تلقيتها على نوعين . احدهما عملى ، مثل اصلاح لى الكبير نظارتى ومساعدة الآخرين لى على خياطة لحافى وفرشتى بعد غسلهما ، فمن دون هذه المساعدة كنت امضى يوما كاملا فى هذا العمل معيقا بذلك النشاطات الجماعية . والنوع الثانى من المساعدة كان شفويا ، وهذا هو القسم الذى اضع فيه الانتقادات التى يوجهها لى الآخرون . كان مسؤولو السجن غالبا ما يقولون انه يجب ان نساعد بعضنا من خلال النقد والنقد الذاتى وتبادل الآراء . لكننى لم اقدم للآخرين الا النزر اليسير من هذه المساعدة ، ولم اكن مطلقا راغبا فى قبولها منهم ايضا . لذلك ومع ان لى الكبير اخبرنى بأن هدفه من اصلاح نظارتى هو مساعدتى على اعادة بناء نفسى ، ومع ان مدير السجن اخبرنى بأن النقد هو احد الطرق التى تساعدنا على اصلاح تفكيرنا ، الا اننى ما ازال غير قادر على رؤية اية علاقة بين اى من هذه المساعدات وبين اصلاح تفكيرى واعادة بناء نفسى . لقد رأيت ان المساعدة العملية التى يقدمها لى الآخرون لا تثبت الا عدم كفاءتى واحتقارهم اياى ؛ واعتبرت النقد ليس اكثر من طريقة لاعادة فتح جراحى واثارة اوجاعى وكنت افضل عدم المساعدة اطلاقا .

كلما تحدث موظفو الحكومة عن التحول الى انسان جديد ربطوا ذلك باصلاح المرء لفكره وتغييره لوجهة نظره . ولكن ما اقلقنى هو مسألة الكرامة . كنت اتساءل كيف سيعاملنى المجتمع واسرتى ، وهل سأكون منبوذا . وحتى اذا تعين ان يسمح لى الحزب الشيوعى والحكومة الشعبية بالعيش ، فقد لا يتسامح معى المجتمع ، وحتى اذا لم اضرب فاننى اخشى ان يشتمنى الناس ويبصقوا على .

وكلما تحدثت سلطات السجن عن اصلاح الفكر اشارت الى ان تصرفات المرء يجب ان تكون مدعومة دائما بأيديولوجيا ، لذلك كان من الضرورى تحليل الجذور الايديولوجية لجرائم المرء من اجل منعه من ارتكابها ثانية .

وكنت من جهة اخرى مقتنعا بأننى لن اكرر ابدا ما قد فعلت فى الماضى . اذا كان شعب الصين الجديدة مستعدا لمسامحتى فبوسعى ان اتعهد بذلك . فما الحاجة اذن الى معالجة تفكيرى ؟

ورأيت ان المفتاح لتحولى الى انسان جديد لا يكمن فى نفسى بل فى الطريقة التى يعاملنى بها الآخرون . لقد قال مدير السجن اننا اذا اصلحنا انفسنا جيدا ، فان الشعب سيعاملنا باللين ، ولكنه لن يتسامح معنا عندما نرفض اعادة بناء انفسنا . وهذا فى الواقع يعتمد على . وبدأت افهم هذا لمجرد ان شيئا صغيرا حدث لى بعد كروب طوال .

ذلك يعتمد على

كنت ذات احد اغسل ملابسى كالمعتاد . وعندما انتهيت من غسلها حان موعد الاستجمام ، وشعرت برغبة فى ان اذهب الى غرفة المطالعة لأقرأ وحدى . وما كدت اجلس حتى سمعت اصوات متحدثين فى الخارج :

— ألا يستطيع اى منكم ان يلعب التنس ؟

— انا لا استطيع ، ولكن بو يى يستطيع . يجب ان تسأله .

— حتى اذا استطاع فلن يكون لديه وقت مطلقا للعب التنس . فالسماء وحدها تعرف متى سينتهى من غسل ملابسه .

— انه الآن اسرع بكثير مما مضى .

— لا اصدق ذلك .

فأغاظنى هذا اغاظة شديدة . لقد انهيت غسل ملابسى دون شك ، واننى قمت بالكثير من الاعمال كالآخرين ، ولكن ما يزال هناك اناس لا يصدقون ، كأنما انا عاجز فى طبعى عن احراز اى تقدم . واحضرت مضربى وخرجت الى الفناء غير متحمس للعب بقدر تحمسى الى ان يرانى الآخرون وقد انتهيت من غسيلى . وعندما وصلت الباحة كان اللذان سمعتهما يتحدثان

قبل لحظة قد غادرا فلعبت مع آخرين ممن ارادوا اللعب . وتجمع بعض المتفرجين لمشاهدة اللعبة ، ولعبت بحيوية كبيرة ، وتصببت عرقا .

وعندما ذهبت الى الحنفية لأغسل يدى لقيت مدير السجن الذى كان يمضى آحاده غالبا فى السجن .

— لقد احرزت تقدما هذا اليوم يا بو يى .

فسررت لسماعى هذا الكلام وقلت :

— لم العب منذ وقت طويل .

فقال مشيرا الى غسيلى المنشور على الحبل :

— اننى احدثك عن ذلك . فما دمت تستطيع ان تنهى غسيلك بنفس السرعة التى ينتهى بها البقية من غسيلهم ، فان بوسعك ان تتمتع بنفس القدر من الراحة والاستجمام كما هم يفعلون .

فهززت رأسى ورحت اطوف معه حول الباحة .

— فى الايام الماضية كنت مشغولا جدا عن التمتع بالراحة والاستجمام كأى شخص آخر ، لذلك لم تكن متساويا معهم واستأت . اما الآن وقد اصبحتم متساوين ، فانك تكون مرتاحا عندما يحين موعد الغسيل . انظر اذن ، لقد امسكت بمفتاح المشكلة بنفسك . لذلك لا داعى للقلق بخصوص كيفية معاملة الآخرين لك .

وبعد لحظة مضى يقول :

— لقد حولتك الحرب العالمية الثانية من امبراطور الى سجين . وفى الوقت الحاضر ، هناك معركة كبيرة تدور رحاها داخل عقلك ، معركة لتحويل امبراطور الى عامل عادى . لقد ادركت شيئا من ماهية الامبراطور ، ولكن هذه المعركة لم تنته بعد ، وانك ما تزال لا ترى فى نفسك انك مساو للآخرين . ولكن يجب ان تتفهم نفسك على نحو افضل .

وفكرت فيما قاله وقتا طويلا . وبينما وافقت اننى امسكت مفتاح

المشكلة بنفسى ، لم استطع ان ارى اننى ما ازال اظهر كبرياء الامبراطور .
ولكن مع مرور الوقت اخذت الحياة تعلمنى تدريجيا ان هذا صحيح .

وعندما عادت مجموعتنا الى الزنزانة ذات يوم بعد ان قمنا بازالة الفضلات ، نقدنا عضو لجنة الدراسة الذى كان مسؤولا عن الحياة اليومية فقال :

ـ انكم لم تقفلوا الحنفية بعد ان غسلتم الايدى ، والماء ما يزال يجرى . هذا تصرف لا مسؤول ، ويجب ان اطلب منكم ألا تفعلوا هذا ثانية .

وسألنى لى الكبير على الفور ان كنت انا آخر من غسل وعندما اعترفت اننى ربما نسيت ان اقفل الحنفية ، قال ان هذا مثال للطريقة التى كنت اتصرف بها وانا امبراطور ، ولكننى ظللت اتصرف على هذا النحو . واستطرد قائلا :

ـ فى تلك الايام لم تكن تلمس حتى مقبض الباب حيث كان هناك دائما اناس آخرون يفتحون لك الابواب ويغلقونها . وانك حتى الآن تفتح الابواب ولا تغلقها خلفك مطلقا . انك لم تتوقف بعد عن التصرف كأمبراطور .

وقال لاو يوان :

ـ لقد تذكرت الآن ، انك غالبا ما تغطى مقبض الباب بصحيفة عندما تفتحه . لماذا تفعل ذلك ؟

وابتدرنى لى الكبير بالقول :

ـ ذلك لأنك تخشى ان يكون المقبض قذرا ، أليس كذلك ؟

فأجبت قائلا :

ـ كل واحد يلمسه ، فطبيعى ان يكون قذرا .

واثار هذا حملة مفاجئة من الهجومات على :

ـ لماذا تكون الوحيد الذى يهتم بذلك ؟

ـ ماذا تكره ، قذارة الباب ام قذارة الناس ؟

ـ ألا يدل هذا على انك تظن نفسك فوق الآخرين ؟ انك تظن اننا جميعا ادنى منك منزلة ، أليس كذلك ؟

حاولت جهدى فى تبرير نفسى بأننى لا احمل شعورا مثل هذا ولكنى لم استطع طرد شكوكى : هل فعلت ذلك حقا ؟ هل حملت حقا مثل هذه الافكار ؟ وفيما بعد اشار لى احدهم بأننى كنت دائما عند الاستحمام اول من يدخل الى الحمام واخرج منه دائما عندما يدخل الآخرون ؛ وذكرنى سجين آخر بأننى كنت دائما آخذ الطاس الاول من جياو تسى فى الاتحاد السوفياتى . ويجب ان اعترف بنفسى ان لى الكبير كان مصيبا عندما قال اننى لم اتخلص بعد من كل كبريائى الامبراطورى .

وعندما استعيد الماضى ارى ان لى الكبير كان معلما لى ، وان كان صارما . انه ، مهما كانت دوافعه ، حرص دائما على ان يجعلنى ارى الاشياء التى لم اكن انتبه اليها بنفسى . وفى النهاية ادركت اننى انا الذى يجب ان الوم نفسى على معظم ما يعترضنى من متاعب .

وذات مرة افقدت مجموعتى عددا من النقاط فى التفتيش الصحى ، وذلك لأننى لطخت الارضية وانا انظف اسنانى ، واكتفيت بمسح البقع عن الارض بقدمى بدلا من تنظيفها جيدا . فجاءنى لى الكبير بخرقة مسح وسألنى لماذا لم استخدمها .

— لم يخطر ذلك ببالى .

فغضب من جوابى هذا ، متهما اياى بمجرد التفكير فى نفسى :

— انك لا تستطيع ان تفكر الا فى حقوقك ، وليس فيما عليك من واجبات .

وكان على وشك التنظيف بنفسه ، ولكنه قذف الممسحة على الارضية وطلب منى ان امسح البقع بنفسى ففعلت ذلك طائعا .

منذ الوقت الذى اكتشف فيه ان الامريكان يستخدمون القنابل الجرثومية فى كوريا والشمال الشرقى ، ومنذ بدأت الحركة الصحية على نطاق الوطن التى تلت ذلك ، صارت تنظم حملات فى السجن فى مواعيد محددة كل

سنة لابادة الحشرات . وبين جميع ذكرياتى عن هذه الحملات برزت الآن مسألة ضرب الذباب .

لقد جاب لى الكبير ذات يوم بعض المذبات الجديدة ولكنها لم تكن كافية ، وكان الآخرون جميعا يطلبونها ، فلم ابذل جهدا للحصول على واحدة ، ولكن لى الكبير سلم اول مذبة لى . وكانت هذه اول مرة جربت فيها ضرب الذباب ، فشعرت بالانزعاج ، اقول الحق ، لأننى لم اقتل فى حياتى اية ذبابة من قبل .

ولم يكن فى السجن ذباب كثير ، فحسب مقياس " العاصمة الجديدة " لـ " امبراطورية منشوريا " كان قد انقرض هناك تقريبا . ورحت افتش عن الذباب ، واخيرا وجدت واحدة تحط على حافة نافذة مفتوحة ، فلوحت بالمذبة لأطردها . فصاح لى الكبير من ورائى :

ــ ماذا تفعل ؟ انت تقتل الحشرات ام تنقذ حياتها ؟

وبدت هذه كأنما هى دعاية للآخرين ، ولكننى عرفت ما كان يرمى اليه . فاحمر وجهى خجلا ، وقلت مكرها :

ــ طبعا لا انقذ حياتها .

وفى الوقت نفسه تساءلت لماذا تركت الذبابة تطير :

ــ انت لا تقتل الذباب خشية العقاب ، أليس كذلك ؟

وشعرت بالذنب فيما راح يحدق الى ، ولكننى صمدت بقوة ، وقلت :

ــ عما تتحدث ؟ الذبابة طارت ، هذا كل ما فى الامر :

ــ فكر فى ذلك جيدا .

وفى اجتماع النقد فى ذلك المساء لم يذكر احد فى البداية هذا الامر ، ولكن بعد ذلك اخبر لى الكبير كل واحد كيف منعت قتل الذباب فى تشانغتشون بل وجهت الناس الى انقاذ الفأر من فكى القطة . فانفجر الجميع بالضحك ، ثم نقدونى على خرافاتى . وفى الوقت الذى اضطررت الى الاعتراف

فى نفسى بأنهم مصيبين سمعت نفسى اقول :

— اننى لست خرافيا . أ لم اقتل ذبابا فى السنة الماضية ؟

فلم يتمالك لاو يوان نفسه عن القهقهة ، وقال :

— اتذكر — شكرا على تذكيرك اياى . لقد سلمت مذبتك لشخص آخر ، وطردت جميع الذباب بصحيفة كى تدعه ينجو .

وسط جلجلات الضحك الساخر الذى تلا ذلك ، كان لى الكبير هو الوحيد الذى ظل وجهه متجهما :

— لا ادرى ما معنى ان يقوم الآخرون بـ " انقاذ الحياة " ، ولكن فى حالتك انت فأنا متأكد من انها انانية كاملة . انك تفعل هذا لتحصل على بركة بوذا . انه ليس مهما اذا قتل الآخرون جميعا ما دام هذا يؤمن لك بقاءك حيا . انك تظن نفسك اغلى شخص على وجه الارض .

فاعترضت قائلا :

— هذه مبالغة .

فتدخل لاو يوان قائلا :

— ان بو يى يحتقر نفسه احيانا .

فأضفت قائلا :

— نعم ، اننى لا اعتبر نفسى مطلقا اعلى من اى شخص آخر .

فقال لى الكبير :

— ربما تحتقر نفسك احيانا ، ولكنك ما زلت تعتبر نفسك احيانا اخرى اعلى واهم من اى شخص آخر . اننى لا اعرف كيف تتصرف هكذا .

وفيما بعد اخذت ادرك تدريجيا ، فبعد اربعين سنة من العيش فى منزلة عالية جدا اهوى الى الارض فجأة . وهذا يفسر السبب فى اننى كنت اخالف الآخرين احيانا واخرج عن طورى واشعر بالظلم . ولكنى ايضا كنت ارى

على الدوام اننى اقل شأنا من الآخرين ، مما يسبب لى الاكتئاب والحقد والشعور بالهوان والتعاسة . وباختصار ، لقد فقدت كبريائى الامبراطورى ، ولكننى ما زلت احتفظ بمقياسى القديم . ولقد ادركت هذا فيما بعد عندما اكتشفت ان من المستحيل الحكم على الناس بهذا المقياس . وبينما كنت فى نفس الزنزانة التى كان فيها لى الكبير قبل ان اتوصل الى فهم هذا الامر ، لم استطع تفهم الا ما تحدث عنه مدير السجن . وادركت اننى لم اعامل الآخرين على انهم انداد فى علاقاتى بهم ، وهذا ما اثار استياءهم ومنعهم من معاملتى على اننى ند ، او من احترامهم لى . ولم اكتشف اى نوع من الناس كنت حقا الا عندما قوبلت بكرم من الناس الذين لا يمكن ان يقاسوا بمقياسى .

لماذا كل هذه الشهامة ؟

ذات يوم ، مباشرة بعد عيد رأس السنة الصينية لعام ١٩٥٦ ، ادلى مدير السجن بالبيان التالى فى نهاية حديث له عن نمو الاقتصاد الوطنى :

" لقد درستم جميعا وثائق الخطة الخمسية الاولى والتعاون الزراعى والتحويل الاشتراكى للحرف اليدوية والصناعة والتجارة الفردية . ولقد قرأتم ايضا فى الصحف عن ظهور مؤسسات مختلطة تملكها الدولة والافراد فى بعض المدن الكبرى . ولكن كل ما تعرفونه عن البناء الاشتراكى هو ما تعلمتموه من الكتب . انكم بحاجة الى رؤية الحالة الحاضرة للبلاد بأم اعينكم لتتمكنوا من ربط دراساتكم بالواقع . ولهذا ستنظم لكم الحكومة زيارات الى الخارج فى المستقبل القريب . سترون فوشون اولا ، وتزورون مدنا اخرى فيما بعد . "

اصبح جو السجن فى ذلك اليوم ابهج مما كان عليه فى اى يوم مضى ،

ورأى بعض السجناء فى ذلك اشارة الى اننا سيطلق سراحنا قريبا . ولم اشاركهم آمالهم ، مقتنعا بأننى لن يطلق سراحى بالتأكيد حتى وان اطلق سراحهم . بل وخفت ايضا من اظهار وجهى امام الناس فى زيارة . وبعد ظهر ذلك اليوم سمعت آخرين يتكلمون فى هذه المشكلة التى كانت تشغل ذهنى :

ــ ماذا تظن ان الناس سيفعلون عندما يروننا ؟

ــ لن يحدث شيء حيث ان موظفين حكوميين سيأخذوننا ، والا فان يدعونا نخرج .

فقال لاو فو ، وزير الزراعة فى "امبراطورية منشوريا" سابقا :

ــ لست متأكدا من ذلك . ماذا يحدث اذا ما اثيروا ؟ يا للسماء لقد كنت موظفا صغيرا ، وقد رأيت الجماهير عندما تهيج . انهم اذا ما خرجوا عن طورهم ، فمن المؤكد ان تستجيب الحكومة لمطالبهم .

ــ لا تقلق ، ان الحكومة لن تدعنا نخرج اذا لم تكن متأكدة تماما مما يجرى .

وجاء الرئيس الجديد لمجموعة الدراسة فى زنزانتنا ، وهو موظف سابق فى حكومة وانغ جينغ وى العميلة ، وقال :

ــ لا اظن ان الحكومة ستفشى شخصيتنا :

فضحك لاو يوان وقال :

ــ ان الشعب سيعرفنا سواء افشت الحكومة شخصيتنا ام لا . هل تظن ان الامر سيكون على ما يرام لمجرد ان اهالى الشمال الشرقى لن يعرفوكم ؟ انهم بمجرد ان يميزوا واحدا منا ، ومن المحتوم ان يفعلوا ذلك ، سيعرفون من نحن .

وفكرت فى صورى التى اجبر اهالى الشمال الشرقى على الانحناء لها فى الماضى ، وايقنت انهم لن يجدوا صعوبة فى تشخيصى . فكيف ستستطيع الحكومة منعهم من الهيجان والمطالبة بمحاكمتى علنيا ؟ وقد تساءل لاو

فو بدوره أ لن تستجيب الحكومة لما يطالب به الشعب ؟

كنت فى تلك الايام ما ازال انظر الى ابناء الشعب العاديين على انهم جهلة وهمج تماما . ومن المؤكد انهم سيحاسبوننى ، اذا عدوهم اللدود ، بقسوة شديدة متجاهلين سياسة اللين واعادة بناء النفس التى تسلكها الحكومة والحزب . وشككت فى ان تكون الحكومة قادرة على منع حدوث ذلك ، وشككت ايضا فى انها ربما تكون مستعدة لأن " تضحى " بى كى تكسب التأييد الشعبى . ولكننى كنت مخطئا تماما .

سأصف فى الجزء التالى كثيرا من الاشياء غير المتوقعة التى رأيتها فى الزيارة ، ولكننى اريد ان اصف اولا اكثر الناس الذين قابلتهم شهامة .

كانت الاولى امرأة شابة عادية . عاشت مذبحة بينغدينغشان ، واصبحت الآن مديرة روضة لمنجم الفحم المكشوف فى فوشون . وقد حدثنا بعض مسؤولى المنجم عن تاريخ المنجم والمذبحة .

كان فى القسم الشرقى من المنطقة التعدينية قرية تضم الف اسرة تقريبا ، تدعى بينغدينغشان . ومعظم سكانها كانوا من عمال المناجم المعوزين . وبعد الاحتلال اليابانى للشمال الشرقى ظهر مقاتلون وطنيون فى هذه المنطقة كما فى اى مكان آخر . وفى ليلة عيد منتصف الخريف عام ١٩٣٣ اصطدم المتطوعون المعادون لليابانيين من جنوبى منشوريا باليابانيين فى بينغدينغشان ، وقتلوا ضابطا وبضعة عشر من الحرس اليابانى ، واحرقوا مخزنا يابانيا .

وفى اليوم التالى ، عندما غادر المقاتلون ، طوق بينغدينغشان حوالى ١٩٠ حارسا يابانيا مع بعض الخونة الصينيين ، وساقوا جميع السكان — رجالا ونساء واطفالا — برؤوس حرابهم الى تلة خارج القرية . وهناك اطلقوا النار بالرشاشات على جميع هؤلاء السكان البالغ عددهم ثلاثة آلاف نسمة ، ثم اخذ الجنود يشقون الجثث بحرابهم ليتأكدوا من انها فارقت الحياة . وبعد هذا سكبوا البنزين على كل البيوت فى القرية واحرقوها ، وقصفوا التلة بالمدفعية

الثقيلة ليغطوا بقايا جريمتهم . واخيرا احاطوا القرية بسياج من الاسلاك الشائكة ، ولم يسمحوا لأى غريب بدخولها . وصدر انذار بأن كل من يؤوى الفارين من بينغدينغشان سيقتل هو وجميع افراد اسرته . وهكذا تحولت بينغدينغشان الى سفح تلة معزول مغطى بالعظام . وقد ظهرت مرثاة شعبية فى منطقة فوشون ، تقول :

بينغدينغشان
بينغدينغشان
التى كانت ملاذا للحياة
هى اليوم خراب تغطيه الدماء والادغال
لملموا بعض الآجر
التقطوا العظام
فقد ذبح اليابانيون آباءنا وابناءنا
بحر الدماء عميق
وحقدنا لن يموت

ولكن اليابانيين لم يتمكنوا من ذبح جميع القرويين او ترويع عمال فوشون . وقد نجت صبية فى الخامسة من عمرها ، تدعى فانغ سو رونغ ، من بين اكوام الجثث الدامية ، وتعهدها بالرعاية سرا عامل منجم عجوز مقعد . وهكذا عاشت شاهدا على ذلك العمل الوحشى الشنيع .

بعد ان رأينا نحن السجناء المنجم انتقلنا لمشاهدة خدمات الرفاهية ، ولذلك ذهبنا الى روضة فانغ سو رونغ . ونظرا الى انها كانت فى شنيانغ فى ذلك الوقت حدثتنا عاملة الروضة الاخرى عن اجتماع فانغ بمجرمى الحرب اليابانيين فى اليوم السابق . وقالت لنا ان شغيلات الروضة رفضن فى البداية ان يسمحن لها بمقابلتهم ، لأن هذا قد يسبب لها صدمة كبيرة . الا ان مجرمى الحرب اليابانيين ناقشوا الامر ورجوا ان يسمح لهم برؤيتها لأنهم

ارادوا ان يعتذروا لها . وبعد ان تم التغلب على معارضة الشغيلات دخلت فى النهاية لتراهم . فانحنوا لها انحناءة شديدة تعبيرا عن اعترافهم بذنبهم ، وطلبوا منها ان تحدثهم عن المذبحة .

فروت لهم كيف قادها جدها الى الخارج بينما حملت امها شقيقها الطفل . "كان الجنود اليابانيون والخونة يصيحون اننا سنذهب لالتقاط صورة . وسألت جدى ماذا تعنى الصورة فأعطانى طاحونة هوائية كان قد صنعها لتوه وطلب منى ألا اسأل اية اسئلة . " وهكذا ذهبت مع جميع القرويين الى ساحة الاعدام . وعندما بدأت الرشاشات تطلق النار غطاها جدها بجسمه ، واغمى عليها حتى دون ان تبكى . وعندما عادت لوعيها وجدت نفسها محاطة بالدماء السائلة والمتخثرة ؛ والدخان يغطى السماء .

واحست بألم مخيف بسبب جروح الرصاصات الثمانى والحربة فى جسمها ، وكانت آلامها المهلكة من شدة الخوف اكثر من ذلك بكثير . كان جدها ساكنا ، ولم تستطع رؤية امها او شقيقها . وزحفت خارجة من بين اكوام الجثث ، وعادت الى القرية ، لتفاجأ بأنها قد تحولت الى انقاض ينبعث منها الدخان . وزحفت عبر السلك الشائك ، ومنه الى جذامة الذرة الرفيعة ، مغطية وجهها بيديها . فرآها شايب ولفها بسترته ، وبعد ذلك فقدت وعيها ثانية .

كان هذا الشايب عامل منجم ، اصبح مقعدا بعد حياة غاصة بالصعوبات والمعاناة ، وقد آلت حاله الى بائع سجاير لسد رمقه . ووضعها داخل كيس لا يفتحه الا ليلا ليطعمها . ولما ادرك انه لا يستطيع ان يستمر على هذا النحو وقتا طويلا هربها فى كيسه من اليابانيين ، واخذها الى بيت خالها الذى احتفظ بها خارج منزله فى كومة من القش واعتنى بجروحها ، وراح يطعمها ليلا . وعندما اقترب الشتاء اخذها الى اقرباء آخرين فى قرية ابعد ، وعاشت هناك معهم باسم آخر .

نشأت فانغ سو رونغ مجروحة فى جسمها ونفسها ، ونما معها حقدها الشديد . ولكن عندما استسلم اليابانيون فى النهاية حل محلهم موظفو الكومينتانغ الفاسدون والمرتشون ، واضافت الى حقدها على قتلة اسرتها حقدا آخر على قوات تشيانغ كاى شيك التى مارست القتل والحرق والسلب كما فعل اليابانيون تماما . واخيرا تحررت قريتها ، واشرق النور فى حياتها . واعالها الحزب والحكومة وثقفاها . ووجدت فيما بعد عملا ، وتزوجت وانجبت اطفالا . واصبحت الآن عاملة نموذجية فى فوشون .

ماذا قالت هذه المرأة للمجرمين الذين ارتكبوا جرائم شنيعة كهذه ضد الصين عندما قابلتهم وجها لوجه ؟

" حتى لو عضضتكم حتى الموت فاننى لن اشفى غليلى . ولكننى عضوة فى الحزب الشيوعى ، والقضية العظيمة قضية الاشتراكية وتغيير العالم تعنى الشىء الاكثر بالنسبة لى من احاسيسى الخاصة . ولقد وضع حزبنا جميع انواع السياسات لتحقيق هذه الاهداف . وانا اؤمن بهذه السياسات وسأعمل على تنفيذها . ومن اجل هذه القضية نحيت حقدى الشخصى جانبا . "

لقد ادهش هذا التسامح المذهل المئات من مجرمى الحرب اليابانيين وجعلهم لفترة لا يحرون جوابا ، ثم شرعوا يبكون من شدة احساسهم بالخزى وركعوا امامها ، طالبين من الحكومة الصينية ان تعاقبهم .

ان شهامة فانغ سو رونغ كانت مذهلة بما فيه الكفاية ، ولكن لو قلنا انها ملزمة بوصفها عضوة وكادرة فى الحزب ان تقف موقفا كهذا ، فما الذى جعل الفلاحين العاديين فى تايشانبو يظهرون نفس الشهامة ؟

وتايشانبو قرية فى ضواحى فوشون ، انشأت فى ذلك الحين تعاونية زراعية . وقد ذهبنا اليها فى اليوم الذى تلا زيارتنا لروضة الاطفال ، وكان قلبى يخفق على الطريق من شدة الخوف . وتذكرت الاتهامات التى كتبها الفلاحون

ضدى والتى قرأتها ، وتساءلت كيف ستكون معاملتهم لى ، وايقنت ان الفلاحين " الافظاظ " و " الجهلة " سيكونون غير قادرين على التصرف مثلما تصرفت فانغ سو رونغ . والواقع اننا قابلنا عددا من العمال وافراد اسرهم فى اليوم السابق ، ولكننى عزوت تصرفهم الى انهم كانوا يجهلون من نحن . لقد زرنا فى المساء السابق دار عجزة لعمال المنجم المتقاعدين . ان هؤلاء المسنين الذين عملوا فى المناجم طوال حياتهم او الذين طردهم اليابانيون بعد ان اصبحوا عاجزين نتيجة حوادث العمل قد انقذوا على الفور بعد تشكيل الحكومة الشعبية ، وحول فندق يابانى فخم الى ملاذ يمكن ان يقضوا فيه بقية حياتهم فى اطمئنان ، كانوا يمضون اوقاتهم فى لعب الشطرنج وزراعة الازهار وقراءة الصحف وفى اية طريقة اخرى تلائمهم . وعندما زرت احدهم مع بضعة سجناء آخرين حدثنا عن الحياة التعسة فى المناجم ايام " امبراطورية منشوريا " . فشعرت بالخزى والخوف ، واختبأت فى الزاوية صامتا مخافة ان يميزنى . ولاحظت انه علق بدلا من صور الاسرة التى رأيناها على الجدران فى مسكن العمال صورة الرئيس ماو فقط ، اذ بدا واضحا انه اعز عليه من اقربائه — هذا اذا كان قد بقى له اقرباء على قيد الحياة . وتساءلت ان كان قد فهم سياسة الرئيس ماو فى اعادة بناء المجرمين .

خلال اليوم الاول من زيارتنا حاولنا جميعا ان نجعل انفسنا غير واضحين تمام الوضوح . فالفم الكبير الذى كان ذات مرة مسؤولا عن بناء معبد لديانة شينتو اليابانى فى فوشون ، كان شاحب الوجه ، وقد حاول ان يظل طوال الوقت مختبئا وسط مجموعتنا . وعندما وصلنا تايشانبو لم يتجرأ واحد منا على رفع رأسه . وفى هذه الحالة من الاضطراب استمعنا الى مسئول التعاونية وهو يحدثنا عن ماضى التعاونية وحاضرها . وطفنا بها ورأينا ادوات جديدة ومزرعة دواجن ودفيئات ملأى بالخضار وحظائر مواشى ومخازن قمح واشياء اخرى . وكل من قابلناه كان لطيفا معنا واوقف بعض الناس العمل الذى

كان يقوم به ووقف وحيانا . وهنأت نفسي على بقائي كل هذه الفترة دون ان يعرفني احد ، ولكن عندما كنت في بيت احد اعضاء التعاونية في نهاية الزيارة لم اعد قادرا على اخفاء هويتي اكثر من ذلك .

كان البيت الذي زرته انا وبضعة آخرون لأسرة تدعى ليو . وكان كلا الوالدين يعملان في الحقول ، وكان الابن الأكبر كاتب حسابات لقبو التخزين ، والابن الثاني طالبا في مدرسة متوسطة ، والبنت تعمل في محطة كهرمائية . ولم تكن في البيت عندما وصلنا الا السيدة ليو وكانت تطبخ ، وعندما رأت كادر التعاونية يقودنا الى داخل البيت خلعت مئزرها وطلبت منا ان نجلس في الغرفة الشمالية التي كانت مبنية حديثا بالاسمنت . وعاملتنا على اننا ضيوف حقا ، فطلبت منا ان ندخل الى صدر الغرفة ونجلس على سرير الكانغ المبني على طراز الشمال الشرقي . وكان ينتصب مع الجدار خزانة لها ادراج ، وعليه ساعة منبهة كبيرة وطقم شاي يلتمع وعدد من الزهريات وعلبة شاي .

ولم يخبرها الكادر الذي جلبنا من نكون نحن ، بل اكتفى بأن قدمنا لها على اننا زائرون جئنا لمشاهدة التعاونية . ثم طلب منها ان تتحدث لنا . وعلى الرغم من انها لم تكن متحدثة جيدة الا انها اخبرتنا بأنهم كانوا اسرة من سبعة افراد يحرثون حوالى نصف هكتار من الارض ، وانهم عاشوا خلال فترة " امبراطورية منشوريا " شبه متسولين تقريبا . "كنا نزرع الرز ، ولكننا نضطر الى اكل دقيق البلوط . وكان علينا ان نسلم كل الرز الذي نزرعه ، واذا ما وجدوا حبة واحدة منه في البيت اعتبرونا ' مجرمين اقتصاديين ' . ولقد القى البوليس القبض على رجل ذات مرة عندما كان في الطريق مريضا واكتشفوا حبات ارز في قيائه . ولبسنا جميعا الاسمال البالية . وتردأت احوال بعض العوائل على نحو اسوأ منا ، فلم تجد الفتيات البالغات في تلك العوائل ما يلبسنه سوى الاكياس . . . وفي عيد رأس سنة لم يجد الاطفال ما يأكلونه ،

وليس بوسعى ان اخبركم كيف كان ذلك ، لهذا قال الشايب يجب ان نأكل سرا وجبة ارز . وجاء البوليس الى القرية فى منتصف الليل ، فأفزعنا هذا حقا . لقد جاؤوا فى الواقع للقبض على الرجال واخذهم الى العمل الاجبارى ، وارسلوهم لقطع الاشجار وبناء مواقع دفاعية . وقالوا ان ذلك من اجل الحماية من قطاع الطرق ، ولكنها اقيمت حقا بسبب ذعرهم الشديد من جيوشنا المتحالفة ضد اليابانيين . واخذ الشايب كذلك . وتقريبا لم يرجع احد من الرجال الذين اخذوا من قريتنا الى العمل الاجبارى حيا . . . "

ودخل ابنها فيما كانت تتكلم . كان قصيرا جدا . ولدى تدقيقنا النظر استطعنا ان نرى انه قد ولد مقعدا بساقين متوقفتين عن النمو . وفى اجابته عن سؤالنا قال ان عاهته قد اجبرته على ان يعيش حياة الكلاب فى المجتمع القديم ، بينما يعمل الآن كاتب حسابات فى قبو التخزين ، وله من الاعتبار ما لأى شخص آخر . كانت عيناه تلتهبان حقدا على الماضى ، ولكن عندما تحدث عن الحاضر بدا الابتهاج والثقة فى صوته واسارير وجهه كأمه تماما . وحدثنا عن جميع الخضروات التى لم تكن تزرع فى القرية من قبل ، واطلعتنا امه على خابية رز فى زاوية الغرفة . وسأل ابنها ضاحكا : " من يريد ان ينظر الى الارز ؟ " واجابت هى على نحو سريع لاذع : " لا اهمية لذلك فى هذه الايام ، ولكن كم مرة رأيتم الارز فى زمن كانغ ده (١٦) ؟ "

فنسعتنى هذه الملاحظة على الفور .

لقد كنت خائفا فى بداية قدومنا الى هذا البيت من ان يسألونى عن اسمى ، والآن شعرت بأنه لخداع لا يغفر اذا لم اخبرهم عن شخصيتى قبل ان اغادر . فنهضت وقلت ناكسا رأسى : " ان كانغ ده الذى تتكلمين عنه هو بو يى ، امبراطور منشوريا العميل الخائن . انه انا . اننى مدين لك بعذرى . "

وقبل ان أنتهى من كلامى نهض الوزراء العملاء السابقون واخبروها

بشخصياتهم . وكان احدهم مسؤولا عن العمل الاجبارى ، وكان الآخر مسؤولا عن ارسال الحبوب الى اليابان ، والثالث قائد عسكرى اجبر الرجال على الدخول فى الجيش العميل للقتال الى جانب اليابانيين .

فصعقت العجوز . ومع انها حزرت ان نكون من مجرمى الحرب المانشوريين العملاء ، الا انها لم تعرف بوضوح شخصياتنا ، ولم تتخيل كذلك اننا سنطلب منها ان تصفى حسابها معنا .

كيف فى الواقع تعاملت معنا ؟ انها لم تشتم او تبكى ، كما انها لم تستدع الجيران او الارامل والايتام الذين قتل ذووهم فى الايام الماضية ليصبوا جام غضبهم علينا . بل قالت بدلا من ذلك متنهدة تنهيدة حزت فى قلبى : " لقد انتهى كل شيء الآن . لا داعى الى قول اى شيء آخر بخصوص ذلك . " ومسحت دموعها واستطردت قائلة : " انكم ما دمتم راغبين فى الدراسة فافعلوا ما يقوله الرئيس ماو وتحولوا الى اناس محترمين ، فانكم ستصبحون على ما يرام . "

كنا امامها نبكى فى صمت ، ولكن مع كلماتها هذه انفجرنا بالنحيب .

وقال ابنها فى صوت منخفض : " اننا نعرف اى نوع من الناس انتم . ان الرئيس ماو يقول ان الغالبية العظمى من المجرمين يمكن ان يعيدوا بناء انفسهم ، وما يقوله لا يمكن ان يكون خطأ . فاذا انتم اصلحتم انفسكم واعترفتم بذنبكم فان الشعب سيصفح عنكم . "

هكذا كانت شهامة الفلاحين الذين ظننتهم افظاظا وجهلة وانهم سينتقمون منا دون ان يلتفتوا الى سياسة اللين واعادة بناء النفس .

انهم الآن سادة انفسهم ، ومن خلفهم حكومة قوية وجيش قوى يقودهما الحزب الشيوعى . ومع ذلك فانهم عندما واجهوا السجناء الذين ارتكبوا فى حقهم اشنع الجرائم مثل هذا الكرم .

لماذا وثقوا بالحزب والرئيس ماو الى هذا الحد ؟ ولماذا قبلوا سياسة

الحزب ازاء اعادة بناء المجرمين عن طيب خاطر ؟ ولماذا كان الحزب الشيوعى والحكومة الشعبية على ثقة تامة بأن الشعب سيقبل سياساتهما حتما ؟ اننى فى هذه الزيارة عرفت الجواب عليها .

التغيرات توضح كل شيء

كان مزاجنا فى نهاية زيارتنا التى استغرقت ثلاثة ايام متباينا تماما عنه عند ابتداء الزيارة ، فقد حلت المحادثة الحيوية محل الصمت المتجهم . وبقينا طوال اليومين الاولين من عودتنا الى السجن نتحدث فى موضوع جولتنا . وكان القول المتكرر هو : " ان الامور قد تغيرت ، والمجتمع قد تغير ، وجميع الصينيين قد تغيروا . " وطبعا كان موضوع التغيير هو الذى غالبا ما قرأنا عنه فى الصحف وفى رسائل الاهل او ما سمعنا عنه من سلطات السجن خلال السنوات القليلة الماضية ، ولكن بعض المجرمين منا اراد ان يختبر هذا بأنفسهم . ومن بين هؤلاء كان لاو يوان نزيل زنزانتنا ، وفى هذه المرة اقتنع هو الآخر .

وذات مساء كنا نتحدث عن الكعك الذى ذقناه بأنفسنا فى مطعم العمال ، فقال احدنا ان من المؤسف اننا لم نر ايا من الوجبات تطبخ على مواقد الغاز فى شقق العمال عندما شاهدنا الطعام الذى يقدم وقت العمل . فأخبرنا لاو يوان عند ذلك بما قد اكتشفه . فبينما كان بقيتنا يتفرجون على غرف العمال ذهب هو الى ما وراء المبنى لينظر الى داخل صناديق القمامة ، فشاهد عظام سمك وقشور بيض وبقايا طعام اخرى .

وكان لاو فو ، وهو ضابط تموين مع جيش الشمال الشرقى السابق قبل ان يصبح وزير زراعة فى حكومة " امبراطورية منشوريا " ، شخصا صموتا على نحو طبيعى ، ولكنه اليوم بدا حيويا : " فى ايام ' امبراطورية

منشوريا ' لم تكونوا تجدون سمكا او لحما فى بيوت العمال ، بل حتى قبل ذلك نادرا ما كان يرى اى منهما . ويجب ان اعرف — لقد بدأت الحياة موظفا صغيرا . "

وقال لاو تشنغ بصراحة ، وكان قد رباه اليابانيون : " عندما قرأت الصحف ودرست الوثائق السياسية فى الماضى اقتنعت فى بعض الاحيان وشككت احيانا اخرى ، وكنت اظن ان هذه القاعدة الصناعية فى الشمال الشرقى هى شيء خلقه اليابانيون . ولكن فى المصنع التابع للمدرسة الصناعية رأيت المخارط اليابانية القديمة ذات الحزام الجلدى قد حلت محلها هناك معدات صينية الصنع من طراز جديد ؛ فالآن اصدق ان الصينيين قد نهضوا حقا . لقد تغيروا حقا . "

ووافقت بالتأكيد على انهم قد تغيروا ، ونمت عندى احاسيس اخرى بخصوص الزيارة ايضا .

ان الشهامة المذهلة التى اظهرها لنا الناس خلال الايام الثلاثة من زيارتنا قد جعلتنى اتساءل هل يمكن ان يكون ذلك حقيقة واقعة . أكانوا مستعدين لتجاهل الجرائم التى ارتكبها الخونة ضدهم . هل لديهم حقا تلك الثقة بسياسة اعادة بناء المجرمين ؟ كيف يمكن ان يكون هذا ؟

ان التغيرات قد وضحت كل شيء . فمنذ اواخر القرن التاسع عشر وفوشون شهيرة بثروتها المعدنية ، ولكن اولئك الذين استفادوا من هذه الثروة لم يكونوا عمال المناجم الفقراء البائسين . وفى عام ١٩٠٥ خضعت المناجم المفتوحة للسيطرة اليابانية بعد هزيمة روسيا القيصرية ، وفى العقود الاربعة التى تلت وصل عدد عمال المناجم الذين ماتوا من شدة بؤسهم رقما يتراوح بين ٢٥٠ الف الى ٣٠٠ الف عامل .

وكان العمال ، ومعظمهم فلاحون عاطلون من شاندونغ وخبى والشمال الشرقى ، يأتون فى حشود كبيرة كل سنة . وكانوا يعملون اكثر من اثنتى

عشرة ساعة يوميا . ومعظمهم اقاموا فى " بيوت جماعية كبيرة " : وربما وصل عددهم فى القاعة الواحدة الى مائة او مائتين ، ولبسوا الاسمال على مدار السنة . وكان الكثير منهم يعجز عن ايجاد ملابس لمواليده ، وعندما يموت الاطفال جوعا ، يضطرون الى دفنهم عراة . وعلى الرغم من انخفاض اجورهم الزموا بدفع حصة منها الى المدراء والمراقبين . والذى يتبقى لهم كان لا يكفى لتأمين الطعام والكساء . علاوة على ذلك فان قلة منهم الذين استطاعوا تحمل اعباء الزواج ، وكان حوالى سبعين فى المائة من الرجال العاملين فى منجم لونغفنغ عزابا .

ولم يكن هناك اهتمام بمسألة الاحتياطات الامنية فى المناجم وكانت الانفجارات والانهيارات حوادث عادية . وقد تعود العمال ان يقولوا : " اذا اردت ان تصبح عامل منجم ، فعليك ان تغامر بحياتك . " وبعد انفجار غازى فى منجم عام ١٩١٧ ختم الملاك اليابانيون على المنجم ليمنعوا حدوث خسارة فى الفحم ، تاركين فى داخله ٩١٧ عاملا ليحترقوا احياء . وحدث فيضان فى نفس المنجم عام ١٩٢٨ مات فيه ٤٨٢ عاملا . ووفقا لاحصائيات " امبراطورية منشوريا " الرسمية فان ٢٥١٫٩٩٩ عاملا قد قتلوا واصيبوا فى هذه المناجم ما بين عام ١٩١٦ وعام ١٩٤٤ . وقد ملئ واد جبلى بجثث اولئك الذين لم يدفنوا داخل الحفر ، وسمى الوادى لذلك " قبر العشرة آلاف رجل " .

وفتح اليابانيون مكانا سموه " حديقة المتعة " كان يضم اكثر من الف مومس وصالونات للقمار وللافيون والمورفين .

وفى فوشون القديمة كانت هناك بيوت ممتازة لليابانيين وابراج الرفع الشاهقة للمناجم ، ولكن كان هناك ايضا متسولون وقطط ميتة واطفال ميتون بجانب نهر يانغباى ، واخرى عائمة فى البالوعات . وفى الشتاء كان يعثر على جثث جديدة كل يوم عند جسر يانغباى . وكان فى فوشون ايضا " اصلاحية "

خلال عهد " امبراطورية منشوريا " ، وهى معسكر حشد للعمال الذين عارضوا " امبراطورية منشوريا " واليابان .

لقد حدثت منذ ذلك الوقت تغييرات هائلة . فبدلا من الاكواخ الممتدة على مساحة ٣٥٠٠ متر مربع التى بناها اليابانيون للعمال خلال واحد وثلاثين عاما ، انتصبت مساكن جديدة للعمال على مساحة ١٧٠ الف متر مربع ، بنيت خلال السنوات السبع التى تلت التحرير . وقد زرنا هناك بيت عامل قد يكون واحدا من الـ ٨٠ فى المائة من عمال المناجم الذين تزوجوا منذ التحرير .

وفى تلك الغرف رأينا اللهب الازرق المنبعث من موقد غاز .

وحدثنا رئيس مكتب المنجم عن الغاز ونحن نمشى تحت الارض فى المسالك المؤدية الى منجم لونغفنغ . ان مناجم الفحم فى لونغفنغ وشنغلى ولاوهوتاى كانت تغص بالغازات — ذلك العدو اللدود لعمال المناجم فى كل العالم . وكانت لا تزال مرعبة بعيد التحرير ، لاسيما منجم لونغفنغ الذى انسدت مسالكه بالانهيارات الناجمة عن تخريب اليابانيين اولا والكومينتانغ من بعدهم . وكانت الغازات الكثيفة داخله تمنع من اعمال النسف او استخدام المعدات الكهربائية .

وفى خريف ١٩٤٩ اقترح احد مهندس المنجم على لجنة الحزب خطة لسحب الغاز بأنابيب الى السطح للانتفاع به والتخلص من خطره فى آن واحد . فأيدت اللجنة اقتراح المهندس واعرب العمال ولاسيما المسنون منهم وعيالهم ، انهم راغبون فى القيام بأى شىء لانجاح هذه الخطة . ونظم المشروع التجريبى . واندفع العمال الذين كانوا اعضاء فى الحزب الى الجبهة الاولية للنضال الذى شن ليلا ونهارا داخل الطرق المملوءة بالغازات تحت الارض . وفى البداية واجهتهم الصعوبات وهم يعملون وسط الغاز الكثيف ويتعرضون لمضايقات الجبناء والمحافظين على القديم ؛ ولكن فى ١ يوليو ١٩٥٠ تمت التجربة ، واندفع لهب ازرق من فوهة الانبوب الذى

يسحب الغاز من تحت الارض . وبكى العمال المسنون ، وصاح الشباب : " لقد انتصرنا ثانية . "

وقد ذكرتني هذه التجربة بأغنية كنت قد سمعت بعض الاولاد يغنونها في روضة الاطفال ذلك الصباح :

لو لا الحزب الشيوعي ،
لما كانت الصين الجديدة .

وفيما كنا نمشي في الطريق التحتاني وصلنا الى دكان مشرق الانارة يبيع الفواكه والحلوى والمناشف والمناديل وغير ذلك . فتوقفنا هناك ، وشرح لنا دليلنا ان هذا المكان كان مستنقعا للقاذورات والجرذان ايام " امبراطورية منشوريا " ولم يكن احد يجرأ على مكافحة الجرذان بسبب خرافة شائعة تقول ان هذه الجرذان هي خيول الاله الطاوي لاو تسي (١٧) . وكان عمال المناجم يعبدونه طلبا للامن والرجاء في حياتهم البائسة . في هذه الايام القوا جميعا صور لاو تسي الى خارج بيوتهم . واخبرنا وهو يشير الى الارضية الخرسانية النظيفة بأن العمال كانوا يمشون حفاة في الماء القذر هنا في الماضي ، وانهم كانوا في بعض الانفاق يعملون عراة .

ومررنا بعربات تجر كهربائيا لنقل الفحم الى الخارج . "كانت هنا في الماضي طرق تمر بها القطارات فقط وغالبا ما داست القطارات على العمال الذين لا يجدون ممرا يسلكونه الى المنجم ، ولكن عدد الذين قتلوا بهذه الطريقة لم يكن يساوي شيئا بالطبع قياسا الى اولئك الذين قتلوا في الانفجارات . وكان عمال المناجم يقولون انهم 'كتل من اللحم لاصقة داخل نفق الفحم' . كانوا يعودون من عملهم الطويل تحت الارض كل ليلة حامدين الصدف التي جعلتهم يخرجون احياء وكان هناك دائما حشد من اهالي العمال ، النساء والاطفال ينتظرون في اعلى الوهدة حيث يخرج العمال ،

وحين لا يخرج عامل مع الخارجين يعرف اهله انه قد مات . وغالبا ما كانت الجثث تبقى فى مكانها . " واشار الى الجدار قائلا : " رأيت اربعة رجال دفنوا هنا احياء . لقد نزلت الى وهدة المنجم اول مرة وانا فى الرابعة عشرة من عمرى ، ولا اود ان اقول كم مرة اصطدمت بالموت منذ ذلك الحين . "

واخبرنا بمدى الذعر الذى كان يصاب به العمال اذا ما مرضوا . فمقاومتهم كانت ضعيفة جدا ، حيث ان اكواخهم خالية من التدفئة ، وثيابهم اسمال ، وفراشهم اكياس ، وحصتهم من الطعام ثمانى كعكات ضئيلة الحجم من الذرة فى اليوم . وكان اليابانيون اذا ما وجدوا احد العمال مريضا ، وضعوه فى مكان منعزل محروس حراسة مشددة ، ولا يعطونه الا طاسا من عصيدة الارز فى كل وجبة . وبعض المرضى كان يحرق قبل ان يموت ، او يدفن حيا فى " قبر العشرة آلاف رجل " . وقال لنا دليلنا ان والد الرجل الذى رأيناه قبل لحظة يقود القطار قد دفن حيا .

وبعد لحظة صمت تابع يقول لنا انه اوشك ذات مرة على الاختناق فى الجو العفن عندما كان داخل المنجم ـ وقد مرض عندما خرج ، ولكن المراقب هدده بالجلد اذا هو لم يعد الى الوهدة ثانية . ونظرا الى انه كان اصغر عامل فى الكوخ الذى يسكن فيه فقد جاء زملاؤه الكبار وطردوا هذا المراقب . وقال ان العمال الذين كان اليابانيون والمراقبون يخافونهم اشد الخوف هم سجناء من الجيش الثامن ، كانوا على استعداد لقتل مضطهديهم اذا هم قبضوا عليهم تحت الارض . وهذا يعنى ان اليابانيين قد اجبروا على معاملتهم معاملة افضل . وعلى الرغم من ان هؤلاء المساجين كانوا معزولين عن العمال الآخرين عزلة تامة ، الا ان مقاومتهم اظهرت لبقية العمال ان المراقبين واليابانيين ليسوا اكثر اخافة من فئران المنجم وان ايامهم قد اصبحت معدودة .

وادركت مدى التباين بين هذا العامل الواثق بنفسه وبينى انا عندما كنت

فى الماضى مريضا من اكل اللحم ، اتناول الحقن والدواء يوميا ، ويستبد بى الشعور بأن نهايتى قد اقتربت ، وبأننى فقدت كل كرامة انسانية . لقد كان فى تلك الايام لا يرى فى وفى امثالى اكثر من جرذان . فما رأيه بنا الآن ؟

وتذكرت الدموع التى ذرفها العمال المسنون عند سحب الغاز عبر الانبوب لأول مرة بنجاح وصيحات الانتصار التى اطلقها الشباب . لقد صار ممكنا ان تتكشف لهم حقائق المجتمع والبشر والطبيعة . كل شىء وكل واحد قد اعيد بناؤه . وماذا يهمهم من امبراطور ما دام المستقبل مستقبلهم ؟ هذا كان سببا آخر فى قدرتهم على ان يكونوا متسامحين معى . كل شىء قد تغير ، وكان ابرز تغيير اساسى هو ذلك الذى طرأ على الشعب . وبالتأكيد فلو لا الحزب الشيوعى لكانت جميع هذه التغييرات والشهامة التى قوبلنا بها مستحيلة .

لقاء الاقرباء

تعلمت من هذه الزيارة انه اذا كان الشعب سيصفح عنى فعلى ان اصبح انسانا حقيقيا . وقد تعلمت اشياء اخرى ايضا . فى اليوم الاول من الزيارة نظرت الى الحكومة الجديدة من المنظار القديم ، رافضا ان اصدق ان اى نظام يمكن ان يكون على علاقة بالجماهير قائمة على الثقة المتبادلة ، وفقا لما قرأته فى الكتب . وظننت ان السبب الذى جعل الحزب الشيوعى يملك هذه القوات المسلحة الجبارة وتلك الحكومة القوية هو مكره الشديد ومهارته الديماغوغية . وهذا ما جعلنى اخاف من ان يقتلونى تنفيسا عن غضبة الجماهير . وعرفت الآن ان السبب الذى جعل الشعب يدعم الحزب ويثق به هو الفوائد التى جناها من الحكم الجديد والتى لم يكن فى وسع ، ولا فى نية اى حكومة

سابقة ان تقدمها له .

كنت اقول فى نفسى انه من الطبيعى ان يفرح الفقراء بالمجتمع الجديد ، ولكن اولئك الذين كانوا اغنياء او كبراء فى الماضى والناس الذين كانوا على علاقة وثيقة بى او بأمثالى وابناء الاقليات القومية لن يكونوا راضين مطلقا . وبعد زيارتنا بوقت قصير زارنى بعض اقربائى ، فعلمت ان هذا الرأى كان سخيفا هو الآخر . فالواقع ان قطاعا كبيرا لا مثيل له فى التاريخ من جميع الطبقات الاجتماعية يشعر الآن بالرضا عن هذه الوضعية الجديدة .

لقد بدأنا نحن السجناء نتبادل الرسائل مع اقربائنا فى صيف عام ١٩٥٥ . واكتشفنا من هذه الرسائل ان اقرباءنا لم يعاملوا معاملة سيئة بسبب اننا مجرمون . فبعض الاولاد فى المدارس وبعضهم يعمل ؛ وبعضهم اصبح متخصصا وآخرون انضموا الى عصبة الشبيبة الشيوعية او الحزب الشيوعى . وقد فاجأتنا هذه الرسائل بقدرما شجعتنا ، وادركنا بمزيد من الوضوح معنى التغيرات الاجتماعية بالنسبة لنا . على اننا لم نكن سواء فى ذلك فبعض من كانوا اكثر تشككا بيننا اقتنعوا نصف قناعة فقط ، وقلة كانوا متحيزين كثيرا فذهبوا فى تأويلاتهم الى ما شاء لهم خيالهم . وعندما تسلم لاو تشانغ ، وهو جنرال سابق من العملاء ، الرسالة الاولى من ابنه وجدها تبدأ بما يلى : " السيد تشانغ ، انى آسف ، ولكننى لا استطيع ان اخاطبك بأية طريقة خلاف هذه . . . " وكاد لاو تشانغ يجن من الحزن ، وتعاطف معه كثير من السجناء الآخرين . وتمتم بعضهم : " هذه اذن الطريقة التى يربى بها المجتمع الجديد الشباب . لأن الوالد فى السجن فان الابن لم يعد يريده . " ولم يسعنى الا ان اتذكر كيف قال تشن باو تشن ان الشيوعيين قساة غير عادلين . وكان لاو ليو ، وهو جنرال سابق آخر فى نفس زنزانة بو جيه ، مولعا جدا بابنته ، وكان شديد القلق على ان تكون قد اصبحت ضحية للمعاملة السيئة . وكان فى السابق كثير التشكك بخصوص الصين الجديدة ، ولكنه

قرأ الآن فى رسالة جاءته منها انها تعال اعالة جيدة وانها قبلت فى عصبة الشبيبة . وان منظمتها تعتنى بها عناية جيدة ، ولها كثير من الصديقات ، وقد ارسلتها الدولة الى مدرسة فنية ، وذلك تحقيقا لطموحها السابق . وهز لاو ليو رأسه الاشيب وقال : " حتى اذا كانت كل كلمة فيها صحيحة ، فاننى لن اصدق ما لم ارها بأم عينى . " ومنذ عام ١٩٥٦ صرنا نجد الجواب لكل اسئلتنا ، وعلمت ان القضايا التى عواجت لم تكن فقط قضايا عوائل بمفردها ، بل قضايا الامة بكاملها والجيل الناشئ بكامله .

فى ١٠ مارس ، بعد زيارتنا بثلاثة ايام ، طاب السجان منى ومن بو جيه وزوجى شقيقتى وابناء اشقائى الثلاثة ان نذهب الى مكتب مدير السجن . ودخلنا الى غرفة الاستقبال ، فرأينا لشدة دهشتنا عمى تساى تاو وشقيقتى الثالثة والخامسة . وكنا قد فصلنا عن بعض منذ اكثر من عشر سنوات .

وعندما رأيت عمى يبدو معافى كالسابق وشقيقتى فى ملابسهما المحشوة بالقطن شعرت كأننى فى حلم .

كان تساى تاو القريب الوحيد من بين اقربائى من الجيل السابق الذى ما يزال على قيد الحياة . فى عام ١٩٥٤ تم انتخابه للمجلس الوطنى لنواب الشعب مندوبا عن قومية المانتشو البالغ عددها مليونين . وكان كذلك عضوا فى اللجنة الوطنية للمؤتمر الاستشارى السياسى للشعب الصينى . واخبرنى انه قابل الرئيس ماو قبل بضعة ايام فى الاجتماع الثانى للمجلس ، حيث قدمه رئيس مجلس الدولة شو ان لاى الى الرئيس ماو على انه السيد تساى تاو عم بو يى . فصافحه الرئيس ماو قائلا : " لقد سمعت ان دراسة بو يى تجرى على نحو جيد تماما ؛ يمكن ان تذهب لزيارته . "

واختلج صوت عمى بالعاطفة الشديدة وهو يحدثنا حتى انه لم يكد يسمع ، ولم اقو انا على كبح دموعى . وبكينا جميعا ، وفى النهاية شرع ابن شقيقى روى الصغير ينتحب بصوت عال .

وتعلمت فى هذا اللقاء مع اقربائى اننى لست الوحيد الذى انقذ بل عشيرة آيشين — جيولوه وقومية المانتشو كلها ايضا .

واخبرنى عمى ان عدد قومية المانتشو الذى كان قبل التحرير ٨٠ الف نسمة فقط قد بلغ ثلاثين ضعفا فى الوقت الحاضر . وفهمت مغزى هذا التغير . وعرفت حالة البؤس التى عاشها حملة الراية تحت حكم امراء الحرب من زمرة بييانغ وحكومة الكومينتانغ ، عندما وجدوا صعوبة كبيرة فى الحصول على عمل اذا لم يتظاهروا بأنهم من قومية الهان . فغير كثير من ابناء عشيرة آيشين — جيولوه اسماء عوائلهم الى جين او تشاو او لوه . اسرة والدى فى تيانجين مثلا اتخذت اسم جين . وبعد التحرير اعترف الكثير من ابناء قومية المانتشو بقوميتهم ، وعندما سجلوا جميعا بعد اعلان الدستور دهش حتى المانشويون انفسهم لعددهم الاجمالى البالغ ٢٫٤٠٠٫٠٠٠ نسمة .

وتذكرت غضبى عند سرقة المدفن الشرقى والعهد الذى قطعته على نفسى امام لوحات اسلافى اننى سأنتقم لهم . ولكن الذى فعلته فى الواقع قد عجل فى تدمير ابناء قومى وعشيرتى ، الذين لم يجدوا مستقبلا مأمونا الا بعد انهيار زمرتى وانهيار اليابانيين الذين ادعوا انهم يدعموننى . والبرهان على ذلك هو التغير من ٨٠ الف نسمة الى ٢٫٤٠٠٫٠٠٠ نسمة .

ان هذا التغير التاريخى لم يؤثر فحسب فى الشباب من عشيرة آيشين — جيولوه بل فى الـ " بى — له " (١٨) تساى تاو وفى شقيقتى ايضا . كان عمى حينذاك فى التاسعة والستين لكنى لم ار فيه علامة شيخوخة وهو بهذه الحيوية فى الجسم والعقل . ولاحظت ان طريقته التقليدية فى التحدث معى لم تتغير . وقد حدثنى انه عمل بعد التحرير فى ادارة لجيش التحرير الشعبى كانت مسؤولة عن الخيل ، وشعر بنشوة كبيرة وهو يخبرنى كيف امضى بعض الوقت فى حضاب الشمال الغربى . وكان حينذاك يخطط للقيام برحلة تفتيشية عن اوضاع الاقليات القومية باعتبار ذلك جزءا من مهماته كعضو فى المجلس

الوطنى لنواب الشعب :

عند دخول جيش التحرير الى بكين قلق العديد من ابناء المانتشو لاسيما افراد عشيرة آيشين — جيولوه ولم تذهب مخاوفهم حتى بعد اصدار بيان جيش التحرير الذى تضمن ميثاقا من ثمانية بنود لضمان ارواح وممتلكات ابناء الشعب على اختلاف انتماءاتهم من غير اعداء الثورة والمخربين . وكان معظم المقيمين فى بكين من هؤلاء اشخاصا عاديين ليسوا اعضاء فى " طبقة النبلاء الجديدة " لـ " امبراطورية منشوريا " او فى نظام وانغ جينغ وى العميل . ولكن بعضهم لم يفقد ، بعد ، احترامه الخرافى الشخصى ، وقد ذعروا اكثر عندما سمعوا انى سجين . وزد عليه ، لم تكن لدى ابناء قومية المانتشو المفقرين ، والمتناقصى العدد ، اوهام ازاء جيش التحرير الشعبى . وكانت دهشتهم الاولى عندما علموا ان الحكومة الشعبية فى الشمال الشرقى قد فتحت مدرسة خاصة لأبناء المانتشو . وفيما بعد رأوا مندوبين عن القومية يشتركون مع مندوبين من جميع الاوساط الاخرى فى اجتماعات المؤتمر الاستشارى السياسى للشعب الصينى الذى ناقش المنهاج المشترك (١٩) وقد زار كوادر من الحكومة الشعبية بيوت البعض منهم ليتحدثوا معهم حول مندوبيتهم الى المؤتمرات الاستشارية السياسية المحلية . وحثهم الكوادر على تقديم اقتراحاتهم بشأن الامور المتعلقة بقوميتهم وان يسهموا بجهودهم فى بناء مجتمع جديد .

كانت اعمار جميع ابناء جيلى فى بكين من سلالة والد جدى الامبراطور داو قوانغ والامير دون والامير قونغ والامير تشون فوق الستين ، ما عدا قلة من ابناء عمومتى كانوا اصغر سنا . وكان ابن عمى الثانى بو جين (معروف ايضا باسم بو شيويه تشاى) ، رساما بارزا وخطاطا وعازفا على الـ " قو تشنغ " (اداة وترية صينية قديمة) ، وكان حينذاك قد تجاوز الستين . وقد دهش حين وجد نفسه قادرا على انزال اداته الموسيقية عن الجدار مرة ثانية والذهاب

مرة كل اسبوع الى ضفاف بحيرة بيهاى فى بكين ليطلق العنان لعاطفته بهذا الفن القديم مع اصدقائه القدامى والجدد ، حيث رأى مستقبلا مشرقا للموسيقا الكلاسيكية الصينية لدى الشباب الذين كانوا طلابه . والاكثر من ذلك انه انتخب نائب رئيس لجمعية البحث فى آلة " قو تشنغ " ورئيسا لجمعية دراسة الخط ؛ ودعى الى حضور المؤتمر الاستشارى السياسى على مستوى المنطقة ؛ واصبح معلما فى اكاديمية الرسم الصينى . وكان شقيقه بو جيان يعلم الرسم الصينى ايضا . وكان ابن عمه بو شيو " دليل بوابة تشيان تشينغ " داخل المدينة المحرمة وهو الذى اعتنى بممتلكاتى فى تيانجين عندما كنت فى تشانغتشون ، ولكنه منذ فقد بصره اصبح غير قادر على كسب معيشته . وبعد التحرير قدرت السلطة الجديدة تقديرا عاليا خبراته ومعلوماته التاريخية وعينته عضوا فى احد معاهد الادب والتاريخ . وكانت هذه المعاهد قد اسست فى جميع انحاء البلاد وضمت علماء كانوا قد اجتازوا الامتحانات الامبراطورية فى عهد اسرة تشينغ ، واعضاء شهدوا احداث فترتى امراء الحرب وتشيانغ كاى شيك ، واعضاء اشتركوا فى ثورة ١٩١١ ، واعضاء من المنظمة الثورية المبكرة — تونغ منغ هوى ، وحتى من الذين كانوا مغمورين فى اسرار البلاط الاقطاعى الاخير . فأفعم بو شيو بالثقة فى الحياة ، واعاد سرد ما تذكره عن تاريخ اسرة تشينغ للآخرين ليكتبوا نيابة عنه .

هذه الظواهر التى بدت طبيعية بالنسبة للمجتمع الجديد كانت جديدة كل الجدة بالنسبة لى فجعلتنى اتأثر تأثرا عميقا . ولكن الشيء الذى ترك عندى اعمق الانطباع هو التغيير الذى رأيته فى شقيقتى .

قبل ستة اشهر تقريبا تبادلت الرسائل مع اخوتى واخواتى فى بكين . فأدركت مما كتبوه ان تغييرات كبيرة قد طرأت على اسرتى ، ولكننى لم افكر فى هذه المسألة تفكيرا جادا . خلال ايام " امبراطورية منشوريا " كان جميع اخوتى واخواتى ، ما عدا اخى الرابع واختى السادسة والسابعة ، يقيمون

معي فى تشانغتشون ، وقد رافقونى فى هربى الى تونغهوا . وبعد ان اسرت قلقت خشية ان يعاملوا على انهم خونة . كان زوج اختى الثانية هو حفيد رئيس وزراء " امبراطورية منشوريا " تشنغ شياو شيوى ، بينما زوجت الاخت الثالثة الى شقيق زوجتى الاولى الاصغر ؛ وتزوجت الاخت الخامسة ابن رئيس اركان تشانغ شيون ، الجنرال الماكى الذى اعادنى الى العرش عام ١٩١٧ . وكان هذان الزوجان كلاهما برتبة مقدم فى جيش " امبراطورية منشوريا " . وكان والد زوج اختى الرابعة هو الموظف الرسمى لأسرة تشينغ الذى ساعت سمعته لقتله امرأة ثورية بارزة تدعى تشيو جين عام ١٩٠٧ . وكان جميع ازواج اخواتى اما ضباطا واما موظفين لدى النظام العميل . وكان زوجا اختى السادسة والسابعة وحدهما طالبين منتظمين ، ولكننى كنت ما ازال قلقا على هاذين الاختين من ان تكونا قد تعرضتا لسوء بسبب ان شقيقهما الاكبر هو كبير الخونة . وقد عمت هذه المخاوف جميع المساجين ، ولكن مخاوفى كانت اشد بكثير مما لدى الآخرين . ثم اظهر لى تبادل الرسائل بينى وبين اسرتى ان قلقى لم يكن له مسوغ . فأشقائى وشقيقاتى قد تمتعوا بنفس الحق فى العمل كالآخرين ، وامكن لأبنائهم ان يدخلوا المدارس ويتلقوا المنح الدراسية المعتادة . وكان شقيقى الرابع واختى السابعة ما يزالان معلمين فى مدارس ابتدائية ، وكانت اختى السادسة رسامة واختى الخامسة خياطة ، وكانت اختى الثالثة نشيطة اجتماعيا فاختارها جيرانها عضوة فى لجنة الزقاق مسؤولة عن الامن . وعلى الرغم من انهن كن يطبخن ويعتنين بأولادهن ، الا ان رسائلهن قد اظهرت انهن راضيات مسرورات . فلم اعد قلقا عليهن . والآن ، وقد رأيت هاتين الشقيقتين مرة ثانية وسمعت ما قالتاه لزوجيهما ، بدأت افكر فيهما اكثر فأكثر .

وما ازال اتذكر كيف حملق لاو وان زوج الاخت الخامسة وسألها : " أتستطيعين حقا ان تركبى دراجة ؟ أ تستطيعين ان تخيطى ايضا ؟ " هذه

كانت الاشياء التى اذهلته فى رسائلها ، فأراد ان يسألها عن ذلك شخصيا . وكان لديه السبب الكافى الذى يجعله مندهشا . فعندما كانت طفلة لم تكن تجرؤ حتى على الجرى ، وعندما كبرت احاطت بها الوصيفات والخادمات ، فلم تدخل مطبخا قط كما لم تلمس مقصا ؛ فكيف امكنها الآن ان تركب دراجة الى العمل وان تستخدم مقصا لتفصيل الثياب ؟ وهل هى خياطة تعيل نفسها حقا ؟

وكان الاشد اثارة للعجب هو الطريقة التى اجابت بها على اسئلتنا : " وما الغريب فى ذلك ؟ هذا شىء لا يستحق الذكر . "

وكانت الاخت الثالثة قد مرت بامتحانات اصعب . فنظرا الى ان ابنها كان مريضا فانها لم تعد الى بكين مباشرة بعد استسلام اليابانيين ، بل مكثت فى تونغهوا مع مربيتين . لم يكن لديها ممتلكات وخافت من لفت الانظار بسبب اصلها ومجوهراتها وثيابها الفاخرة ففتحت كشكا لبيع السجاير فى تونغهوا وكادت ان تقع فى فخ عملاء الكومينتانغ كما خدعها تاجر باعها كبريت (شخاط) لا يشتعل . وبعد بضع سنوات من هذه الحياة غير الآمنة عادت الى بكين عام ١٩٤٩ . ونظرا الى انها عرفت شيئا عن سياسات الحكومة خلال احتكاكها بجيش التحرير الشعبى والحكومة الشعبية فى الشمال الشرقى ، وكذلك لما تمتعت به من ثقة جيرانها ، تم اختيارها لعضوية لجنة الزقاق . وكان جزء من عملها الذى تحدثت عنه بحماسة عظيمة هو شرح قانون الزواج الجديد .

لن يكون هذا مدهشا لأناس آخرين كما هو لى . لقد كانت هذه الاخت اكثر دلعا من الاخت الخامسة فى الماضى ، وكانت تسألنى دائما عن الهدايا التى اقدمها للناس وتريدها لنفسها . من كان يتوقع ان هذه الفتاة الكسولة المدللة التى لم تكن قادرة الا على طلب الاشياء ستصبح نشيطة اجتماعيا ؟ كان ذلك مما يصعب تصديقه وفهمه . . . لكنها كانت واعية للاسباب والحوافز

التى جعلتها داعية متحمسة لقانون الزواج الجديد والتى دفعتها احيانا الى ان تنفجر بالدموع وهى تقرأ الصحف .

فعلى الرغم من انها كانت مثقفة ثقافة جيدة وامرأة من النبيلات ، الا ان حياتها فى الماضى كانت تافهة عديمة المعنى . وعندما كانت مقيمة مع زوجها فى اليابان كتبت اليها مرة اطلب منها ان تخبرنى بالحياة اليومية فى تلك البلاد . فكان جوابها كما يلى : " اننى اجلس فى غرفتى مع خادمتى وهى تكوى لى ثيابى بجانبى . وخارج النافذة خادم عجوز يسقى الازهار ، وكلب صغير يرنو ، وهو رابض ، الى صندوق الحلوى . . . هذا كل ما استرعى انتباهى . " لكنها الآن تحيا حياة ذات معنى وعندما تجلس فى الزقاق لتقرأ الجرائد لجيرانها وهم يصغون اليها بانتباه فانها تستعيد الشعور بوجودها . وقد علقت وهى تقص على ذلك : " فى الماضى لم اكن الا حلية . "

وحدثتنى عن تجربتها يوم كانت فى تونغهوا بعد استسلام اليابانيين : " ذات يوم جاءت الميليشيا الشعبية الى وقالت ان ابناء الشعب يعقدون اجتماعا ويريدوننى ان احدثهم فيه عن الماضى الذى عشته . وكنت مذعورة من اجتماعات النضال ضد الخونة وكنت مستعدة لأن افعل ما يريدون اذا عفوا عنى . وفى ذلك الوقت رأيت بعض الكوادر ممن اخبرونى بألا اكون خائفة حيث ان الجماهير متعقلة تماما . وتوجهت الى المنصة وانا ارتعش خوفا ، وحدثتهم عن حياتى . وكانت هناك حشود ضخمة من الناس فيهم من جاؤوا لمجرد رؤية الاميرة . وعندما انتهيت من كلامى بدأ نقاش هامس . ثم نهض احدهم وقال : ' انها لم تتصرف هى نفسها اى تصرف سيئ ، لذلك ليس لدينا اى شيء ضدها . ' فوافق كل من هناك على هذا الرأى وانتهى الاجتماع . وعندها ادركت ان الشعب متعقل جدا . "

وهذه النقطة الاخيرة هى ما فهمت انا كذلك ولو بعد حين .

وفى اليوم التالى من لقائى بالاسرة صادف ان استلمت رسالة من الشقيقة الثانية ، قالت فيها ان ابنتها الكبرى فى السنة الثانية من كلية الرياضة البدنية وانها اصبحت مدربة غير متفرغة بارزة للسائقين . ولقد سافرت مؤخرا على دراجة نارية من تيانجين الى هانكو وكتبت اختى بكل سرور عن ان ابنتها التى كانت آنسة ارستقراطية قبل اثنتى عشرة سنة قد اصبحت الآن لاعبة ممتازة وان ابناءها الآخرين مجدون فى المدرسة كذلك . وعندما ذكرت هذا للاختين الخامسة والثالثة مسحتا الدمع من عيونهما وحدثتانى عن ابنائهما حديثا مماثلا . واقنعنى ذلك بأن قدر عشيرة آيشين — جيولوه قد تغير حقا .

قمت ذات مرة بحساب على اساس " السجل اليشبى " للاسرة الامبراطورية الذى اعيد تصنيفه عام ١٩٣٧ والمعلومات التى زودنى بها اخوتى واخواتى حول معدل عدد الوفيات بين اطفال فرعى فى عشيرة آيشين — جيولوه . فتبين ان ٣٤ فى المائة من الاطفال ماتوا فى عهد اواخر اسرة تشينغ ، و١٠ فى المائة خلال فترة الجمهورية ، ولا احد من الاطفال مات خلال السنوات العشر التى تلت التحرير . اما ارقام العشيرة فى جملتها فهى اعجب من ذلك حيث ان حوالى ٤٥ فى المائة من الاولاد والبنات من جيلى وجيل والدى ماتوا فى طفولتهم — دون الثانية من العمر فى الغالب .

هذه الحسابات لم اقم بها عندما قابلت عمى واختى ولو انها ذكرتنى الموت المبكر لعدد كبير من اطفال اسرتى فى الماضى . فى ذلك الوقت لم تكن مواهب وقدرات الجيل الاكبر تزيد على حمل اقفاص الطيور . ولم يكن لديهم ما يفعلون غير الانسلال من البوابة الخلفية واقفاص الطيور فى ايديهم ، او الجلوس لشرب الشاى من الفجر الى الغداء حيث تصف عشرة اطباق من الطعام لأجل العرض . فاذا انتهى الغداء اخذوا بالعربدة على اهل الدار .

اما الصغار فنادرا ما كانوا يدركون الحاجة الى تعلم اى شىء غير خدمة

ذويهم الكبار ومحاكاتهم . وعندما حل بهم الفقر عجز بعضهم عن مزاولة اى عمل لاعالة انفسهم وفشل آخرون فى ايجاد عمل لاظهار مواهبهم . وقد حدثت حالات كثيرة كهذه بعد جمهورية ١٩١١ .

لكن الامور تغيرت تماما الآن . فصغار الاسرة قد ضمنت حياتهم ومستقبلهم بشكل غير متوقع فى الماضى . ان لدى شقيقى وشقيقاتى الست فى بكين سبعة وعشرين ولدا جميعهم فى المدارس والجامعات عدا من هم دون سن الدراسة ، ولدى عمى تساى تاو ستة عشر حفيد او ابن حفيد يعمل احدهم فنيا فى محطة كهربائية وواحدة منهم من المتطوعين الشعبيين وقد ابلت بلاء حسنا فى كوريا ، والاخرى شغيلة ثقافة فى الجيش والبقية (ما عدا من هم دون سن الدراسة) يدرسون او يشتغلون . واصبحت حياة الماضى فى نظرهم مجرد مهزلة .

ولقى احد افراد هذا الجيل الاصغر مصيرا مختلفا . فقد كتبت زوجة اخى بو جيه الى زوجها من اليابان تقول له ان ابنتهما الكبيرة ، وهى فى الثامنة عشرة من عمرها ، قد انتحرت مع صديقها الشاب بسبب قضية حب ، وقد سمعت منذ ذلك الحين كثيرا من الروايات المختلفة لهذه القصة ، وانا على قناعة بأن الشاب كان سيئ الحظ مثل ابنة اخى . هكذا كان التباين فى مصير الشباب فى فترات ومجتمعات مختلفة .

منذ تلك السنة والزيارات العائلية الى السجن مستمرة . ومما يستحق الذكر ذلك اللقاء الذى تم بين لاو ليو ، الاكثر تشككا ، وبين ابنته التى كانت تدرس لتصبح فنانة . فقد زارته مع زوجها المقبل . وسألته :

ــ ألا تصدق ذلك يا والدى ؟ اننى فى مدرسة فنية . وهذا هو خطيبى .

فأجابها والدها قائلا :

ــ نعم اصدق الآن .

ــ هل تعرف اننى ما كنت لأستطيع دخول المدرسة الفنية لو لا قيادة

ماو تسي تونغ ؟

— اعرف ذلك .

— ما دمت تعرف هذا فعليك ان تدرس جيدا وتصلح نفسك .

ان لاو تشانغ كاد فى السابق يفقد عقله عندما تسلم رسالة خاطبه فيها ابنه بكلمة " السيد " . ولكن ابنته الآن جاءت لتزوره ومعها رسالة من شقيقها . وقد اطلع تشانغ كل واحد فى السجن تقريبا على هذه الرسالة ، وفيما يلى نصها :

والدى العزيز :

انني ارى الآن انني كنت " يساريا " متطرفا . ان التعليم الذى تلقيته من عصبة الشبيبة ونقد رفاقى لى صحيحان تماما : كان ينبغى لى ألا اتخذ منك موقفا كهذا . . . ما هى الصعوبات التى تعترضك فى دراساتك ؟ اظن انك تستخدم القلم فى دراساتك ، لذلك اشتريت قلما وطلبت من اختى ان تجلبه لك . . .

مجرمو الحرب اليابانيون

فى يونيو ويوليو ذهبت انا وبعض السجناء بصفتنا شهودا الى شنيانغ لحضور المحكمة العسكرية التى تحقق فى قضايا مجرمى الحرب اليابانيين .

وقد قرأت فى الصحافة ان اكثر من الف مجرم حرب يابانى قد اعتقلوا فى الصين ، بعضهم فى فوشون وآخرون فى تاييوان . وجميعهم ممن ارتكبوا جرائم خلال الغزو اليابانى للصين . وفى يونيو ويوليو عام ١٩٥٦ حكم على خمسة واربعين منهم فى شنيانغ وتاييوان ، بينما لم تقدم البقية الى المحكمة بل اعيدوا الى بلدهم بمساعدة الصليب الاحمر الصينى . وهناك ستة وثلاثون سجينا من مجموعة فوشون قد حكم عليهم فى شنيانغ على دفعتين . وكنت

اعرف احوال بعضهم ايام " امبراطورية منشوريا " ، وسمعت آخرين منهم يتحدثون فى اجتماع فى سجن فوشون . واحدهم كان فورومى تادايوكى ، نائب رئيس سابق لـ " مكتب الشؤون العامة فى مجلس الدولة لامبراطورية منشوريا " . وكنت انا واربعة وزراء عملاء سابقين سندلى بشهادة ضده وضد رئيسه تاكيب روكوزو . وكان فورومى هو الذى سيحاكم اولا ، وقد حكم عليه فيما بعد بالسجن ثمانية عشر عاما (٢٠) .

ولدى دخولى قاعة المحكمة فكرت فى الانتصار فى الحرب الكورية والتوقيع المظفر لاتفاقية جنيف ومركز الصين فى العالم منذ تأسيس الجمهورية الشعبية . ان محاكمة مجرمى الحرب اليابانيين على الاراضى الصينية امر ليس له نظير من قبل .

عندما انتصر متطوعو الشعب الصينى والجيش الشعبى الكورى فى كوريا ظننت انه لا امل لى ما لم اعترف بذنبى واضع نفسى تحت رحمة الشعب الصينى . ومع جلب مجرمى الحرب اليابانيين الى المحكمة الآن لم اعد قلقا على مستقبلى ، بل ملئت بدلا من ذلك بالزهو الوطنى . وفكرت بالاضافة الى ذلك فى مشكلات اخرى كثيرة .

فى القسم الاخير من الخطاب الذى القاه فورومى قبل الحكم عليه قال شيئا كهذا :

ليس هناك انش مربع من الارض فى الشمال الشرقى بأكمله الا ويحمل اثر الهمجية الامبريالية اليابانية ، وجرائم الامبريالية كانت جرائمى . اننى اعترف من اعماقى بأننى مجرم حرب انتهكت القانون الدولى والمبادئ الانسانية انتهاكا صريحا بارتكابى اشنع الجرائم ضد الشعب الصينى ، واننى اعتذر للشعب صادقا عن جرائمى هذه . طوال السنوات الست الماضية عاملنى الشعب الصينى معاملة انسانية على الرغم من اننى مجرم مرعب ، واتاح لى فرصة لافكر مليا فى جرائمى . وبفضل هذا استعدت وعيى وعقلى ، وتعلمت

اى طريق يجب ان يسلكه الناس . اننى لا اعرف كيف يمكننى ان ارد هذا العطاء الكريم الذى منحنى اياه الشعب الصينى .

واذكر اننى بعد ان ادليت بشهادتى سأله القضاة عما يريد تقديمه من الملاحظات . فانحنى انحناءة شديدة وقال ان كل كلمة من شهادتى صحيحة .

وعادت بى افكارى الى المحكمة العسكرية الدولية فى طوكيو . فهناك استخدم مجرمو الحرب اليابانيون محامين لاثارة المتاعب ومهاجمة الشهود . واتبعوا ، املا فى تخفيف احكامهم ، كل وسيلة ممكنة لتغطية جرائمهم . ولكن فى هذه المحكمة اعترف جميع مجرمى الحرب بذنبهم وخضعوا للعقوبة .

وقد اخبرنى شقيقى وزوجا شقيقتى الشىء الكثير عن السجناء اليابانيين . وكانوا قد ساعدوا فى ترجمة اعترافات هؤلاء السجناء والرسائل التى ابردها بعضهم من اليابان بعد ان اعيدوا الى بلدهم . وعندما اطلق سراح زوجى شقيقتى كان بو جيه ولاو بانغ وآخرون هم الذين قاموا بهذا العمل . ومنذ عام ١٩٥٦ وانا اسمع العديد من القصص عن مجرمى الحرب اليابانيين .

كان احدهم قائدا عسكريا ، وعندما بدأ جهاز التحقيق عمله عام ١٩٥٤ لم يخبرهم بشىء تقريبا . ولكنه اعترف فى هذه المحكمة بأنه قد وجه رجاله لارتكاب ست مذابح جماعية للمدنيين فى خبى وخنان . ففى اكتوبر ١٩٤٢ قامت على سبيل المثال وحدة تحت قيادته بذبح اكثر من ١٢٨٠ مواطنا من سكان قرية بانجيادای واحراق نحو الف بيت . وبعد ان حكم عليه بالسجن عشرين عاما قال للصحفى انه يستحق ان يحكم عليه بالاعدام ، واخبره كيف استجوب وحوكم على نحو منصف . ولقد زود ايضا بمحامى . " عندما اتذكر كم قتلت من ابناء الشعب الصينى وكم جعلت الحياة صعبة لعيالهم يتفطر قلبى ألما وانا ارى اقرباءهم بالذات هم الذين يعتنون بى

الآن . "

وقابل الصحفيون عقيدا يابانيا سابقا على المركب اليابانى الذى كان عائدا به الى بلده دون ان يحاكم . ونظرا الى انه كان غاضبا جدا عندما سأله مرؤوسوه فى السجن عن جرائمه ، فقد املوا انه سيقول شيئا ما ضد الصين . وعندما لم يقل ما ارادوا ، سأله احدهم :

— لماذا تستمر فى التحدث على هذا النحو ؟ أما تزال خائفا من الصين ؟

فأجاب :

— اننى على متن مركب يابانى ، فلماذا اكون خائفا من الصين ؟ انا اقول لكم الحقيقة ، هذا كل شيء .

كان زوج اختى الثالثة مسئول المرضى فى احدى ردهات التمريض . وكان هناك مجرم حرب يابانى يثير المتاعب دائما للممرضات والسجانين ولا يحترم لوائح السجن ؛ ولكنه فى حفلة وداع اقيمت بعد اعلان اطلاق سراحه انفجر بالدموع والقى خطابا تحدث فيه عن اخطائه . وكان هناك مريض آخر ليس متعبا كالسابق ، الا انه رفض ان يعترف بذنبه . وقد ارسل الى المستشفى لاجراء عمليتين طارئتين لسرطان مميت فى المستقيم ، وتبرع الطبيب له بشيء من دمه لانقاذ حياته . وبعد ان غادر المستشفى تحدث فى اجتماع كبير كيف ذبح وعذب ابناء الشعب الصينى فى الماضى ، وقارن هذا بالطريقة التى اتبعها ابناء الشعب الصينى لانقاذ حياته عندما كان يحتضر . وطوال تحدثه وهو ومستمعوه يذرفون الدموع .

وذات مرة ، عندما كنا نسوى ارض الملعب لنبنى احواض ازهار ، استخرجنا هيكلا عظميا ، قحفه مثقوب برصاصة . فقال لاو يوان ولاو شيان اللذان درسا شيئا من الطب الحديث انه لفتاة . وفيما بعد ترجم زوج شقيقتى ، لاو وان ، مقالة لمجرم حرب يابانى كان مدير هذا السجن فى الماضى ، يصف فيها الحياة الجهنمية للسجناء الذين كانوا محتجزين هناك . كان

المكان يضج بصرخات المعذبين وصدى قعقعة السلاسل . وكان متعفنا قذرا تكتسى جدرانه فى الشتاء بالجليد ، وفى الصيف يمتلئ بالذباب والبعوض . وكان السجناء لا يعطون فيه الا طاسا صغيرا من الذرة الرفيعة كل يوم ويتعين عليهم ان يقوموا بالاعمال الشاقة من الفجر الى الغروب . وكثير منهم ضربوا واجهدوا فى عملهم حتى الموت . ومضت هذه المقالة تصف التغييرات التى طرأت على السجن منذ ذلك الحين والتباين الحاد بين الظروف فى الماضى والظروف التى عاشها هو نفسه سجينا .

وكتب كثير من مجرمى الحرب رسائل ومقالات قالوا فيها انهم شعروا بالخوف والكراهية عندما اعادهم الاتحاد السوفياتى الى الصين . وبعضهم ، مثلى انا ، حاول ان يفهم الامور على ضوء ايديولوجيته القديمة ، واخفق فى ان يرى لماذا عامله الشعب الصينى هذه المعاملة الكريمة . وعندما رأوا المرجل يبنى تخيلوا انه سيكون غرفة للقتل ، وعندما رأوا التسهيلات الطبية يزود بها السجن قدروا انهم سيخضعون للتجارب كما كان يحدث للسجناء ايام حكمهم ؛ وآخرون رأوا فى هذه المعاملة اللينة والانسانية علامة ضعف ، ولكن انتصارات متطوعى الشعب الصينى فى كوريا بينت لهم ان الشعب الذى عاملهم بهذه الحكمة لم يكن ضعيفا قط . وفى الحقيقة ان علامة الضعف هى القسوة والهمجية .

لقد شاع الكثير عن التغيرات التى طرأت على مجرمى الحرب اليابانيين قبل ان اسمع بها ، اذ كنت منهمكا فى مشكلاتى الخاصة مما منعنى من ان افكر فيهم . والواقع ان هذه التغيرات قد اصبحت اكثر فأكثر وضوحا منذ عام ١٩٥٤ او نحو ذلك ، وقد كتب بو جيه فى يومياته لعام ١٩٥٥ يصف المسرحيات وعزف الموسيقا والرقص التى اداها السجناء اليابانيون . واحدى المسرحيات كانت حول الآثار المرعبة التى خلفتها القنبلة الذرية التى القيت على ناغازاكى . وذكر ايضا اللقاءات الرياضية التى اقامها السجناء اليابانيون

على ارض الملعب الذى مهدوه بأيديهم .

والآن ، عندما استرجع ذكريات التغيير الذى طرأ عليهم ، اراه واضحا جدا . لماذا اصبح هؤلاء السجناء سعداء جدا ومنشرحى الاسارير ؟ لماذا اخذوا معهم بعد اطلاق سراحهم الادوات الموسيقية التى كانت سلطات السجن قد اعطتهم اياها وعزفوا والدموع فى اعينهم وهم ينظرون الى الصين من على متن المركب اليابانى الذى كان يأخذهم الى وطنهم ؟ لماذا كانوا مولعين بغناء " طوكيو — بكين "؟ لماذا قال حتى اولئك الذين حكم عليهم : " اننا متشكرون للشعب الصينى ونشعر بالخجل من . . . "

ان الرسائل التى ارسلها مجرمو الحرب اليابانيون الذين اعيدوا الى بلدهم غالبا ما احتوت عبارات كهذه : " لقد تعلمت فى الصين كيف ينبغى للمرء ان يعيش " ؛ " الآن اصبحت اعرف ما معنى الحياة " ؛ و " عندما خطوت الخطوة الاولى فى طريق الحياة الانسانية اود ان اقول ايها السيد المدير اننى لن انسى ابدا دفء مصافحتك وانت ترجو لى صحة جيدة . "

وقرأ بعض السجناء فى الصحف اليابانية عن فتيات صاحبن القوات الامريكية على غرار " فتيات الجيب " (٢١) قبل تحرير الصين ، وادانوا مثل هذه النسوة بشدة . فكتب احد السجناء رسالة الى زوجته يسألها ان كانت هى ايضا قد فعلت ذلك . وعندما فحصت سلطات السجن هذه الرسالة ارجعوها الى كاتبها وطلبوا منه بصبر عظيم ان يعيد النظر فيها . " هل من الملائم ان تكتب الى زوجتك رسالة كهذه ؟ حتى وان كان لديك اى مسوغ لطرح مثل هذا السؤال — وليس لديك هذا المسوغ — فغلطة من ستكون هذه ؟ ليست غلطتها بالتأكيد . " فلم يقل السجين شيئا بل كور الرسالة والقاها على الارض . ثم وضع رأسه بين يديه وشرع يبكى .

لقد كانوا ممتنين للشعب الصينى الذى علمهم كيف يكونون صادقين والذى عاملهم باللين . ومثلما تعلمت كيف ومن هم الاباطرة عرفوا هم حقيقة

العسكرية وحقيقة اليابان . وفى رسائلهم التى ارسلوها من اليابان وصفوا الازدياد المرعب فى جنوح الاحداث . واشاروا الى القواعد الامريكية فى اليابان وكيف ان الدبابات تسير على ارضهم ؛ والطائرات العسكرية الامريكية تغطى سماءهم ؛ والجنود الامريكان يعتدون على نسائهم . وكانت احدى الرسائل التى جاءت من رجل عاد الى قريته ملأى بالحديث عن التغييرات التى طرأت على الشباب هناك . " بعضهم قد اصبحوا قطاع طرق ، وآخرون يقتلون بسبب النساء ، وبعضهم انضم الى قوة الدفاع الذاتى ويعيش حياة متفسخة منصرفا للشرب والنساء . " وقال ان الشباب لا يطيعون والديهم ، وان الثقافة اليابانية قد انحطت وصارت اليابان مسرحا للانتهاكات .

وتحدث السجناء الذين اطلق سراحهم عن الصين الجديدة وعن العسكرية اليابانية ، معارضين اعادتها ومطالبين بالاستقلال والسلم والديمقراطية . وقد كتبوا ذلك وسط المراقبة والقيود التى تجنبوها ببراعة كبيرة .

وكان يعجبهم اداء الرقص الصينى بأنفسهم فتمنعهم الرجعية من ذلك : فأخذوا يعلمونه للراقصين المحترفين الذين نشروا الرقصات الصينية فى كافة انحاء اليابان . وطلب منهم ان يتحدثوا عن حياتهم فى السجن وعن الصين الجديدة ، فتحدثوا عن الصداقة التى يكنها ابناء الشعب الصينى لشعب اليابان ، وعن موقفهم من الحرب الآن بعد ان اصبحوا اقوياء ، وعن آمالهم ومثلهم . بعض الناس متشككون ، وبعضهم له تحفظاته ، والآخرون مقتنعون . وقالوا ان الحكومة الموالية لامريكا تكرههم للغاية ، بينما ايمان الشعب بما قالوه يزداد .

وقد نشروا كتابا بعنوان « سياسة التدميرات الثلاثة » (٢٢) وصفوا فيه الاعمال الوحشية التى ارتكبها الجيش اليابانى فى الصين كيف ابادوا السكان فى بعض المناطق ، وكيف استخدموا ابناء الشعب الصينى كمواد للتجارب فى الحرب البكتيرية ، وكيف شرحوا الناس احياء ، وما الى ذلك . وقد طبع من هذا الكتاب خمسون الف نسخة نفدت كلها فى اسبوع .

وعندما سمع عدد من الجنرالات المتقاعدين احد زملائهم السابقين يصف تجربته فى الصين ، ظلوا صامتين وقتا طويلا قبل ان يقول احدهم : " ان فطرتنا وما عرفناه منكم تكفى لاقناعنا بحقيقة كل كلمة قلتموها لنا . ولكننا لا نستطيع ان نقول ذلك الا من خلف ابواب مغلقة . "

وعندما عاد عسكرى سابق الى قريته ، جاء اهالى قريته لاستقباله حاملين راية كتب عليها " نصر ابدى " . ولكن عندما نزل من القطار القى خطابا مؤثرا اعمق التأثير ، فهم اهالى القرية منه بعد ذلك اسباب كارثة هيروشيما وبكوا . وسقطت الراية على الارض .

ان كثيرا من اهالى مجرمى الحرب كانوا من ابناء الشعب العامل البسطاء ومن الناس ذوى المشاعر الودية . وقد كتب عدد ليس قليلا منهم الى الحكومة الصينية فى الماضى يطلبون اطلاق سراح ازواجهم وابنائهم " الابرياء " . وسمح لبعضهم فيما بعد بالمجىء الى الصين لزيارة اقربائهم المسجونين . وعندما سمع هؤلاء ما قاله اقرباؤهم واستمعوا الى تساجيل الاتهامات التى وجهها ابناء الشعب الصينى امام المحكمة بكوا مع السجناء . وفهموا الآن ان هؤلاء السجناء مذنبون وان العسكرية قد غررت بهم .

ان التغيرات التى طرأت على مجرمى الحرب اليابانيين ، شأنها شأن التغيرات التى حدثت فى اسرتى ، قد هزتنى من الاعماق . وبرزت فى ذهنى حقيقة واضحة كل الوضوح : ان الحزب الشيوعى قد استخدم العقل فكسب قلوب الناس .

" المجد العالمى "

منذ النصف الثانى لعام ١٩٥٦ دأب الصحفيون على زيارتى والاجانب يكتبون الى يطلبون صورتي . وفى فبراير ١٩٥٧ استلمت رسالة من فرنسى يطلب

متى فيها ان اوقع له على صورة لى ، وقد ارفقها بمقالة لا اعرف ما الغاية منها . هذه المقالة تقول :

امبراطور الصين السجين

ان المجد العالمى لا قيمة له : هذا يلخص حياة سجين سياسى ينتظر الآن الحكم عليه فى سجن فوشون فى الصين الحمراء . لقد لبس الحرير الثمين وهو طفل ، ولكنه الآن يلبس ثيابا رثة محشوة بالقطن فيما يمشى وحيدا فى باحة السجن . اسم هذا الرجل هنرى بو يى . قبل ٥٠ عاما اعلن عن ولادته بعرض حيوى من الالعاب النارية ؛ والآن يعيش فى سجن . عندما كان هنرى فى الثانية من عمره اصبح امبراطورا للصين ، ولكن ست سنوات من الحرب الاهلية اطاحت به عن عرشه الامبراطورى . وكان عام ١٩٣٢ عاما هاما لـ " ابن السماء " هذا : فبدعم من اليابانيين اصبح امبراطورا لامبراطورية منشوريا . وبعد الحرب العالمية الثانية لم يعد احد يسمع به الى الوقت الحاضر ، عندما كشفت صورته اللافتة للنظر مصيره المأساوى . . .

لو ان كاتب هذه المقالة ارسلها الى قبل سنتين لأمكن ان اذرف عليها قليلا من الدموع ، ولكنها جاءت متأخرة جدا . وفى جوابى اليه كتبت اقول : " اننى آسف ، فأنا لا يمكن ان اوافقك على رأيك . ولا استطيع كذلك ان اوقع على الصورة . "

قبل مدة غير طويلة وجه الى بعض الصحفيين الاجانب فى مقابلات معهم عددا من الاسئلة " المتعاطفة " الشبيهة بما ورد فى المقالة : " هل تشعر بالحزن لكونك آخر امبراطور فى اسرة تشينغ ؟ " " هل تشعر بأن من غير العدل انك لم تحاكم بعد كل هذه المدة الطويلة ؟ ألا تجد هذا مدهشا ؟ " فأجبت بأن ما كان محزنا هو حياتى الماضية وانا امبراطور لأسرة تشينغ وامبراطور عميل . اما بخصوص الاشياء المدهشة ، فلقد اذهلنى اللين الذى عوملت به . وبدا ان الصحفيين لم يفهمونى ، وتخيلت ان السيد الفرنسى الذى

كتب الى سيشاركهم دون شك فى عدم فهمهم عندما يقرأ جوابى .

ان ما كان مجيدا حقا فى نظرى هو شهامة فانغ سو رونغ ، البنت التى نجت من المذبحة ، والكلمات البسيطة التى قالها فلاحو تايشانباو ، والتغيرات الكبيرة التى طرأت على شباب عشيرة آيشين — جيولوه ، ولهيب موقد الغاز فى مطابخ عمال مناجم فوشون ، والمخارط الصينية التى حلت محل المخارط اليابانية فى مدرسة الصنائع التى زرتها ، والحياة الآمنة التى يحياها العمال المتقاعدون فى مأوى العجزة . أ كان هذا كله " لا قيمة له " بالنسبة لى ؟ أ كان امرا لا قيمة له ان وضع الآخرون آمالهم وثقتهم فى تحولى الى انسان حقيقى ؟ أ لم يكن هذا اهم الاحكام التى يمكن ان تصدر بحقى ؟

اننى مقتنع بأن مشاعرى هذه يشاركنى فيها كثير من السجناء الآخرين ، وان بعضهم قد توصل الى هذه النتيجة قبلى . ان الكثير منا مصممون حقا على اعادة بناء انفسهم من خلال جهودهم الخاصة بحيث كانت سنة ١٩٥٧ الجديد مختلفة تماما عن السنوات السابقة .

لقد كنا نقيم فى عيد رأس السنة وغيره من الاعياد حفلات يؤدى فيها ذوو المواهب منا بعض العروض . وكانت الممرات التى تقام فيها الحفلات عادة تتدلى منها المصابيح واشرطة الزينة ، ويأتى هذا مع الطعام الجيد الذى يقدم الينا فى تلك المناسبة فيعطينا شعورا زائدا بالسعادة . ولكن قبل رأس سنة ١٩٥٧ بوقت قصير شعرنا ان تلك الاحتفالات غير كافية ، وعزمنا على اقامة حفلة كبيرة فى القاعة كما كان يفعل مجرمو الحرب اليابانيون . فأخبرت سلطات السجن لجنتنا الدراسية بأننا اذا كنا نظن ان بوسعنا ترتيب مثل هذه الحفلة فيمكننا ان نباشر ، ويمكننا ان ندعو مجرمى الحرب التابعين لتشيانغ كاى شيك الذين وصلوا مؤخرا ليكونوا متفرجين . وعندما نقلت لجنة الدراسة هذا الخبر الى الزنزانات انطلقنا جميعنا بحماسة كبيرة .

لقد سررنا نحن السجناء سرورا عظيما لأننا قدرنا اننا سنقضى عيد رأس

سنة مسرورين . ودعمتنا سلطات السجن لأن هذه الوسيلة التى تمكن السجناء من تثقيف انفسهم قد نجحت نجاحا كبيرا لدى مجرمى الحرب اليابانيين : لقد كتب السجناء اليابانيون المسرحيات بأنفسهم ، وقد بنوها على اساس ما قرأوه فى الصحف اليابانية . وكانت احدى هذه المسرحيات تتناول المخاوف الناجمة عن التفجيرات النووية فى اليابان والجرائم التى ارتكبتها العسكرية اليابانية ضد شعب اليابان وبقية شعوب العالم . وقد تركت هذه المسرحيات تأثيرا تثقيفيا عميقا على الكتاب والممثلين والمتفرجين على السواء . لذلك قررت لجنتنا الدراسية ان تدرج فى عرضنا مسرحيات من هذا الغرار . وقد لقى هذا الاقتراح دعما عاما ، وسرعان ما وضع الهيكل العام لتمثيليتين احداهما كانت " صحيفة حية " تدعى « هزيمة المعتدين » حول صد العدوان البريطانى على مصر (عام ١٩٥٦) ؛ وكانت الاخرى حول التحول الذى طرأ على خائن من " امبراطورية منشوريا " وقد كتب التمثيليتين بو جيه وموظف سابق فى حكومة وانغ جينغ وى العميلة .

ومع مضى العمل فى التمثيليتين جرى اعداد جميع اشكال العروض الاخرى . فقد اعلن مشعوذنا لاو لونغ مثلا انه سيقوم بحيلة اكبر من اخراج البيض من قبعة او ابتلاع كرات الطاولة . وكان اكثرنا انشغالا لاو وان ، رئيس لجنة الدراسة الذى كان مسؤولا عن جميع الترتيبات . وكان روى الصغير مسؤولا عن التزيينات ، ولى الكبير الذى اصبح عامل كهرباء بارعا هو الذى تعهد بالانارة .

اننى لم اشترك فى السنوات السابقة فى العروض التى كانت تتم فى الممرات ، ورأيت ان من غير الملائم ان اكون ذا نفع فى تلك الاستعدادات . وهذه المرة ايضا توقعت ان لا يطلبنى الآخرون لأية مهمة ، ولكننى دهشت دهشة كبيرة حين اكتشف رئيس زنزانتنا لاو تشو اننى استطيع ان اغنى على نحو مقبول ، وعيننى فى الجوقة . فتأثرت تأثرا عميقا ، وغنيت بمنتهى الحيوية .

وبعد ان تعلمت اداء اغنياتى ، استدعانى لاو وان رئيس اللجنة الدراسية وقال لى :

— يا بو يى هناك دور لك فى التمثيلية الاولى . انه ليس صعبا جدا ، وليس فيه اسطر كثيرة تستدعى الحفظ . وعلى اية حال يمكنك ان ترتجل اذا اردت ذلك . وهذا عمل ذو شأن وجزء من التثقيف المتبادل . . .

— لا داعى الى ان تقنعنى . ما دمت ترى اننى ملائم لهذا الدور فاننى على استعداد لتأديته .

فقال لاو وان مبتسما :

— بالطبع تستطيع ذلك . انك ملائم لهذا الدور بالتأكيد . ان لك صوتا واضحا قويا . انك . . .

— هون عليك . اى دور تريدنى ان اؤديه ؟

— لقد سمينا المسرحية « هزيمة المعتدين » ، وانها تدور حول الغزو البريطانى لمصر والاهتياج الذى سببه هذا الغزو . وهى مبنية على اخبار الصحف . وسيقوم لاو رون بالدور الرئيسى — بوصفه وزير الخارجية البريطانى سلوين لويد . وانت ستمثل نائبا عماليا من الجناح اليسارى .

وذهبت لأرى بو جيه واقرأ النص واسمع شرحه لهذا النص واسجل الاسطر التى سأقولها . ثم تعين على ان اختار بدلتى . ونظرا الى اننى كنت اقوم بدور اجنبى فمن الطبيعى ان البس بدلة من الثياب الغربية التى لم يكن السجن يفتقر اليها حيث كانت كثير من ثياب السجناء محفوظة فيه . وعدت الى زنزانتى بالبدلة الزرقاء التى لبستها فى المحكمة العسكرية الدولية فى طوكيو ، وهى عبارة عن قميص وربطة عنق وثياب اخرى . نظرا الى عدم وجود اناس غيرى فى الزنزانة فقد لبست بمفردى . وعندما لبست قميصا ابيض دخل لاو يوان وسألنى مندهشا عما افعل .

ونظرا الى اننى كنت مهتاجا وطوق قميصى ضيق جدا فاننى لم استطع

الاجابة فى البداية . واخيرا قلت لاهثا : " اننى سأقوم بأداء دور فى مسرحية . تعال وفك لى الحزام الذى فى مؤخر صدرتى . "

ففعل ذلك ولكن الصدرة ظلت ضيقة جدا . فأدركت اننى قد ازددت وزنا . ولقد ضغط حذائى الجلدى المستورد من انكلترا قدمى ، لذلك سألت لاو يوان فى تردد ان كانت هناك حاجة للبس حذاء جلدى لتأدية دور نائب من حزب العمال البريطانى .

ـ ستحتاج الى ذلك بالتأكيد . ان نواب حزب العمال البريطانى يستخدمون حتى العطور ، لذلك لا يمكنك بالطبع ان تلبس الحذاء القماشى المحشو بالقطن . لا تقلق ، ان حذاءك الجلدى لن يؤذى قدميك اذا واظبت على لبسه بعض الوقت ، والصدرة يمكن ان تعدل . اذهب وتعلم الاسطر التى ستقولها . انه لخبر عظيم ان تقوم بالتمثيل .

وانهى كلامه بضحكة ظلت ترن فى اذنى وانا خارج امشى فى الممر : كنت منشرح الاسارير : لقد قال لاو وان ان هذا سيكون تثقيفا ذاتيا ونوعا من المساعدة المتبادلة . وكانت هذه هى المرة الاولى التى اساعد فيها الآخرين بدلا من ان اكون انا الذى احصل على مساعدتهم . وفوق هذا كله اصبحت لدى قدراتى كأى انسان آخر تماما ، واصبحت على علاقة مساواة بالآخرين عندما طلب منا مساعدة بعضنا بعضا .

ومنذ ذلك الوقت رحت اتلو اسطرى دون انقطاع . وكانت هذه الاسطر ، كما قال لاو وان ، قصيرة جدا . وكان دورى من اصغر الادوار فى المسرحية . وفى نهاية المسرحية القى سلوين لويد خطابا فى مجلس العموم ليبرر اخفاق الغزو ، فبدأ بعض نواب المعارضة يسأله ، ثم اشترك الجميع فى الهجوم عليه . وعند هذه النقطة كان على ان اقف فى وسطهم واقول مخاطبا سلوين لويد : " لا حاجة الى ان تستمر فى الدفاع عن تصرفاتك . انها تصرفات مخزية ، مخزية ، واقول ثانية مخزية . " ويفترض ان تموج القاعة حينذاك

بالشتائم الغاضبة وبمطالبة لويد بالاستقالة ، وخلال ذلك اصيح انا : " اخرج ! اخرج ! " كان لهذه التمثيلية عقدة بسيطة جدا ، اهم عنصر فيها تلك المناظرة البرلمانية التى تستمر خمس عشرة دقيقة فقط . وقد امضيت اضعاف هذا الوقت استعد لدورى مخافة ان انسى اسطرى او اخطئ فيها مخيبا بذلك الآمال المعقودة على . لقد عانيت فى الماضى من الارق او كنت اتحدث فى نومى ، ولذلك لأننى كنت قلقا او خائفا . اما الآن فأنا اعانى الارق للمرة الاولى بسبب الاثارة والاهتياج التى سببتها لى هذه التجربة الجديدة .

وعندما حل عيد رأس السنة وذهبت الى القاعة من اجل الحفلة انسانى الجو المهرجانى والمسرح الرائع ما كان عندى من توتر . وبدا عرضنا جيدا بالقياس الى حفلات مجرمى الحرب اليابانيين : غناء جوقة وغناء منفرد ، واغان ورقصات منغولية ، وحديث متداخل ، وقصائد مصحوبة بالمخشخشات ، والعاب سحرية ، ومسرحية الصحيفة الحية « هزيمة المعتدين » ، ومسرحية « من الظلمة الى الضياء » . وعندما رأينا مدى التأثر على مجرمى الحرب من اتباع تشيانغ كاى شيك تغامزنا فى انفعال .

واديت الفصول الاخرى اداء ناجحا استدعت الكثير من التصفيق . وكانت المادة الاولى بعد الاستراحة هى مسرحية الصحيفة الحية . وبدأت المناظرة . وظهر لاو رون بملابس سلوين لويد . ونظرا الى انه كان يملك انفا كبيرا فقد كان الوحيد الذى بدا كانكليزى ، وكان تمثيله بارزا : لقد كان فى غضبه وخوفه ويأسه وغطرسته الصورة الحية لوزير الخارجية المهزوم . وبعد عشر دقائق تقريبا همس الى لاو يوان (وهو تصرف كان ضمن النص) : " لا تكن متخشبا جدا . قم بحركة ما . " وحدقت الى الامام ناظرا الى المتفرجين . وتملكنى شعور بأن اهتمام الجميع قد تركز على ، عضو البرلمان اليسارى من حزب العمال ، فجعلنى ذلك شديد التوتر . لم ينتبه الى احد عندما كنت اغنى فى الجوقة ، اما الآن فأعين الجميع نظرت الى . وقبل ان

استرد هدوئى استحثنى لاو يوان قائلا : " قل شيئا ما ؛ قل شيئا ما لتدحضه . " فوقفت متوترا والتفت الى لاو رون الذى كان ما يزال مسترسلا فى الحديث ، وكنت قد نسيت كلماتى . ولكن جاءنى الالهام فى اللحظة الحرجة فصحت بالانكليزية " لا ! لا ! لا ! " واسكتت صيحاتى هذه لاو رون ، وتذكرت اسطرى . وبعد ان قلتها سمعت دوى التصفيق من المتفرجين وصيحات " اخرج ! اخرج ! " تنبعث من المسرح . وغادر وزير الخارجية خشبة المسرح وهو يعدو مضطربا .

وكان لاو يوان اول من هنأنى بعد انتهاء العرض قائلا : " انك لم تخطئ التصرف مطلقا . وعلى الرغم من انك كنت متوترا بعض الشىء ، الا انك لم تخطئ قط . " ثم عبر الآخرون عن رضاهم وجلجلوا بالضحك للكلمات التى ارتجلتها .

وهدأت القاعة تدريجيا ، وبدأت تمثيلية « من الظلمة الى الضياء » التى نقلتنا الى عالم مختلف . فأظهر المشهد الاول كيف ان اثنين من موظفى الشمال الشرقى السابقين اصبحا خائنين قياديين . وفى المشهد الثانى حاولا التواطؤ مع الكومينتانغ بعد استسلام اليابانيين ، ولكن الجيش الاحمر السوفياتى اسرهما . وفى المشهد الثالث حاولا خداع السلطات بعد ان اعيدا الى الصين ، ولكنهما لم ينجحا فى ذلك ، وفى النهاية استجابا للتثقيف الذى تلقياه من الحكومة ولسياسة اللين التى اتبعتها ، فاعترفا بذنوبهما وقبلا اعادة البناء . وعلى الرغم من ان التمثيلية لم تكن ممتازة فى تأليفها ، الا اننا نحن مجرمى الحرب استطعنا ان نرى انفسنا فيها . لقد ذكرتنا بماضينا ، وشدت انتباهنا ، وجعلتنا نشعر المزيد من الخجل من انفسنا . وقد تضمن احد فصول التمثيلية كيف اجبر بعض الخونة ابناء الشعب على بناء معبد الامبراطور جيمو . وعرف " الفم الكبير " ان هذه قصته ، وسمعه الآخرون يغمغم : " ما الغاية من اظهار ذلك العمل المخزى ؟ " وفى مشهد آخر ظهرت مجموعة

اخرى من الخونة يجلسون فى غرفة ويتملقون اليابانيين ، مقترحين عليهم وسائل لسلب الحبوب من ابناء الشعب فى الشمال الشرقى . وسمعت شخصا بجانبى يزفر قائلا : " ما اقذر هذا التصرف ! " اما انا فشعرت ان اقذر شىء ليس ايا من هذه الشخصيات فى المسرحية بل المشكاة المغطاة بستارة فى زاوية القاعة والتى علقت فيها " الصورة الامبراطورية الحقيقية " للامبراطور الخائن . وعندما انحنى لها الممثلون فى المسرحية فى كل مرة ظهروا فيها على المسرح ايقنت ان هذا هو اقذرشىء فى العالم .

وجاءت ذروة الحفلة فى المشهد الاخير عندما شرح موظفو الحكومة سياسة اعادة بناء المجرمين . ودوى التصفيق وترديد الشعارات اعلى من اى شىء آخر كان يسمع من قبل . وهذا لم يكن راجعا الى المسرحية نفسها بقدر ما كان راجعا الى التأثيرات الموحدة التى خلفتها الرسائل والزيارات العائلية ورحلاتنا الى خارج السجن واعترافات مجرمى الحرب اليابانيين فى المحكمة العسكرية وعوامل اخرى . ووسط الهتاف والتصفيق اللذين صكا الآذان امكن سماع نحيب مكبوت . لاو ليو الذى لم يكن يصدق ان ابنته تلقت عناية جيدة الا بعد ان رآها بأم عينيه كان يهتز بالنحيب ؛ ولاو تشانغ الذى اصبح ثانية على علاقة جيدة بابنه كان يجأر بالبكاء وقلم الحبر يلتمع فى الجيب الذى على صدره .

ان العواطف التى اثيرت فى هذه الحفلة قد اظهرت لنا اى نوع من " المجد " كان ما يزال ممكنا بالنسبة لنا فى هذا العالم الحالى ، " المجد " الذى كان يزداد اشراقا ووضوحا على الدوام . وبعد رأس السنة مباشرة اطلق سراح ثلاثة عشر سجينا دون محاكمة ، وكان من بينهم ابناء اشقائى الثلاثة ولى الكبير . وبعد ان ودعناهم اقمنا حفلة اكبر من هذه تخللتها مسرحية عن قرية فى الشمال الشرقى فى فترة " امبراطورية منشوريا " وبعد التحرير . ومن ثم اطلق سراح اربعة سجناء آخرين ، من بينهم زوجا شقيقتى . وهذا

كان فى الوقت الذى استلمت فيه رسالة الفرنسى التى يتحدث فيـها عن " المجد العالمى " .

زيارة اخرى

فى النصف الثانى من عام ١٩٥٧ خرجنا فى جولة اخرى ، وهذه المرة الى شنيانغ وآنشان وتشانغتشون وهاربين . ورأينا مشروع خزان مياه فى داهوفانغ بالقرب من شنيانغ وثمانية عشر مصنعا وست وحدات علمية ومدارس وثلاث مستشفيات ومعرضين وقصرا لرياضة . وفى هاربين زرنا المنطقة التى عانت من النكبة التى انزلتها بها وحدة البكتريا اليابانية ٧٣١ وقاعة شهداء الشمال الشرقى . وتركت فى نفوسنا هذه الجولة انطباعا اعمق مما تركته الجولة السابقة .

ان معظم المؤسسات التى زرناها قد بنيت حديثا باستثناء عدد ضئيل من المؤسسات الموروثة من اليابانيين . فالمصانع اليابانية كانت قد حطمت تحطيما كاملا تقريبا عند الاستسلام . كما كان اليابانيون والكومينتانغ قد خربوا مصنع آنشان للحديد والصلب ومصنع الآلات فى شنيانغ . وبعد ان تسلمتهما الحكومة الشعبية اعيد بناؤهما ، ووسعا الى حجمهما الحالى الضخم . وقد ذهل كثير من وزراء " امبراطورية منشوريا " السابقين الذين كانوا قد رأوا هذه المصانع فى الماضى بهذا النمو الذى اصبحت عليه . واكثر ما ادهشنى هو كمية المعدات التى تحمل العلامات التجارية والمواصفات باللغة الصينية . لقد فكرت ، على ضئالة خبرتى ، كم من المعدات سيكون مكتوبا عليها " مصنوع فى امريكا " او " مصنوع فى المانيا " عندما ذكرت لنا الآلات ، اما الآن فقد رأيت مجموعات كاملة من المعدات كتب عليها " صنع فى الصين " . وكانت هذه المصانع قد بدأت تنتج

للتصدير ايضا . ومما جعلنى بالفخر تلك المنتجات التى رأيتها تخرج من المصانع تحمل الكلمات التالية : " صنع فى جمهورية الصين الشعبية " .

وفى مصنع آنشان للحديد والصلب وقفت امام البنايات الهائلة من الحديد والصلب وحاولت عبثا ان افكر كيف تولد كل هذا من ركام معدنى مهمل . ولكن هذا ما قد حدث فعلا . عندما ترك اليابانيون آنشان قالوا : " اتركوا آنشان للصينيين كى يزرعوا فيها الذرة الرفيعة . فحتى لو ارادوا ان يبدأوا فى تشغيل هذا المصنع ثانية ، فانهم يحتاجون الى عشرين سنة على اقل تقدير . " ولكن الشعب الصينى لم يستغرق عشرين سنة بل ثلاث سنوات فقط ليستأنف تشغيلها ويحقق انتاجا سنويا يبلغ ١ر٣٥٠ر٠٠٠ طن ، وهذا اعلى بكثير من الرقم الذى سبق ان تم التوصل اليه فى فترة " امبراطورية منشوريا " . وبعد خمس سنوات ارتفع الانتاج السنوى الى ٥ر٣٥٠ر٠٠٠ طن ، وذلك اكثر من مجمل الانتاج خلال واحدة وثلاثين سنة منذ تأسيس مصنع شوى للصلب على يد اليابانيين عام ١٩١٧ حتى الانسحاب النهائى للكومينتانغ عام ١٩٤٧ . ورأيت اشياء كثيرة كهذه فى الجولة ، بينت لى بأن الشعب الصينى قد نهض . فالشعب لم يحقق انتصارات عسكرية فحسب ، بل استطاع ان ينتصر على الجبهة الاقتصادية ايضا . ولو اننى لم اشهد هذا بعينى ، او لو ان احدا تنبأ به قبل عشر سنوات ، لكنت متشككا كاليابانيين الذين نصحوا الصينيين بأن يزرعوا الذرة الرفيعة .

لقد نسيت خلال السنوات الاربعين الماضية اننى صينى ايضا . فقد انضممت الى اليابانيين فى الاشادة بأمتهم كأروع امة على وجه الارض ؛ وشاركت تشنغ شياو شيوى اوهامه فيما يتعلق باستخدام " موظفين اجانب " و " قوة اجنبية " للاستفادة من موارد الصين ؛ وكثيرا ما تأففت مع بو جيه من غباء الصينيين اذا قورنوا بأبناء العرق الابيض الاذكياء . وحتى بعد دخولى السجن ظللت ارفض تصديق ان الصين الجديدة ستكون قادرة على الاحتفاظ

بمكانتها فى العالم . وبدلا من ان اكون مزهوا بانتصار القوات الشعبية الصينية والكورية فى معارك كوريا كنت مذعورا من ان يلقى الامريكيون قنابل ذرية علنيا . ولم اكن قادرا على فهم السبب الذى جعل الحزب الشيوعى الصينى يتجرأ على فضح الامبريالية الامريكية على منبر الامم المتحدة او السبب الذى جعل وفود الجانب الصينى — الكورى تتجرأ على تحذير الامريكان فى محادثات " بان مون جوم " من انهم لن يكونوا قادرين على ان يكسبوا على مائدة المفاوضات ما اخفقوا فى كسبه فى ميدان المعركة . وباختصار ، كنت مصابا بحالة سيئة جدا من " داء العظم الطرى " .

وبعد ان وقعت الهدنة الكورية ولعبت الصين دورا جديدا فى الشؤون العالمية فى مؤتمر جنيف ، فكرت فى علاقات الصين الدولية منذ حروب الافيون : منذ عهد والد جدى الامبراطور داو قوانغ الى الكومينتانغ وتشيانغ كاى شيك ، كانت الصين مصابة بهذا الداء " داء العظم الطرى " . وخلال تلك السنوات المائة والتسع جاء حملة المدافع والافيون والمبشرون المزيفون — الاجانب الذين ظنوا انفسهم اعلى حضارة ومنزلة — الى الصين وحرقوا وقتلوا وسلبوا واحتالوا . لقد ركز الغزاة الاجانب قواتهم فى عاصمة الصين وموانئها ومدنها الكبيرة وطرقها الحيوية وحصونها الهامة . واعتبروا الصينيين عبيدا وبدائيين وجعلوا منهم دريئة لهم . وسببوا للصين كثيرا من ايام الخزى الوطنى ، واجبروها على توقيع المعاهدات التى حولت شعبها الى عبيد . ان تعابير مذلة كثيرة قد ظهرت فى التاريخ الدبلوماسى لتلك الحقبة : تساوى الفرص ، الباب المفتوح ، الدولة الاكثر حظوة ، الاراضى المؤجرة ، التعرفة المرهونة ، السلطة القضائية القنصلية ، حقوق الحامية العسكرية ، حقوق بناء الخطوط الحديدية ، حقوق التعدين ، حقوق النقل النهرى ، حقوق النقل الجوى ، وما الى ذلك . هذا مع ما تمتعوا به من الامتيازات الخاصة حيث كان الاجنبى غير خاضع لاختصاص المحاكم الصينية عن جرائمه التى يرتكبها

ضد الصينيين كاغتصاب النساء وكانت دية الصينى اذا قتله اجنبى ثمانين دولار وهى اقل بعشرين دولار من دية الحمار .

ولكن هذه الحقبة المخزية قد ولت الى الابد . فلقد نهض الشعب الصينى وشرع الآن يبنى بلاده بكل ثقة ، جاعلا الاجانب الذين ضحكوا استهانة منا يغلقون افواههم .

لقد سمعت عند زيارتى مصنع السيارات فى تشانغتشون ان تلاميذ احدى المدارس الابتدائية ارادوا زيارته عند بدء الانتاج فيه . فرتب المصنع ان يرسل لهم باصا مستوردا لاحضارهم ، ولكنهم اصروا على الذهاب فى شاحنة صينية الصنع .

ان الوطن الام قد حل منزلة سامية فى نفوس الاطفال ولكنه ظل اربعين عاما لا يعنى شيئا بالنسبة لى .

ان بوسع اى صينى اليوم ان يفخر بأنه صينى اينما كان ومهما كان .

لقد كنت فى الماضى دائم الفضول بخصوص كيفية معيشة الآخرين — باستثناء فترة " امبراطورية منشوريا " الاخيرة وكانت اول مرة خرجت فيها لاشباع هذا الفضول هى عندما زرت قصر والدى ، والمرة الثانية كانت عندما تذرعت بمرض تشن باو تشن وذهبت لرؤيته . ولقد تأثرت تأثرا عميقا بالحرية فى حياتهما . وعندما انتقلت الى تيانجين شعرت ان " الصينيين ذوى المنزلة العالية " الذين رأيتهم فى المطاعم الغربية وحدائق التسلية الاجنبية كانوا اكثر منى حرية مع انهم ليسوا من اصل عريق ؛ ولهذا السبب لم اعجب بهم كثيرا ، ولكننى ظللت فضوليا بشأنهم . وفى ايام " امبراطورية منشوريا " كنت شديد القلق على مركزى فلم تكن امامى فرصة للشعور بالفضول الشديد . وبعد اعادتى الى الصين لم اظهر اهتماما بمسائل كهذه فى البداية ، شاعرا ان حياة الآخرين ليست مهمة بالنسبة لى ، ولكن عندما نظرت الى مستقبلى نظرة تفاؤلية اصبحت هذه الاشياء تعنى الكثير عندى . وفى هذه الجولة ابديت

اهتماما كبيرا بالطريقة التي يعيشها الناس ، وما اكتشفته اثار فى نفسى الذكريات وسبب لى ألما شديدا .

لقد تركت هاربين فى نفسى اعمق الانطباع . فخط الاطفال الحديدى فى منتزه الاطفال هناك ذكرنى كيف كنت العب مع النمال فى طفولتى ونسبة العاشين من المواليد الجدد فى مستشفى الاطفال ، والمستوى الصحى العام يندان عن تخيل اسرة تشينغ الامبراطورية . وعندما جلست على مقعد فى جزيرة الشمس فى هاربين ، انظر الى قوارب المتعة فى النهر واستمع الى الشباب يغنون ويعزفون الاكوردونات ، استعدت ذكرى النصف الاول من حياتى . اننى لم يسبق لى ان غنيت مستمتعا ، او لم يسبق لى ان عرفت متعة الجلوس على العشب تحت الشمس بمفردى ، ناهيك عن تمكنى من التمشى كما يحلو لى . لقد كنت فى تلك الايام قلقا اخشى ان يخدعنى الطباخ ، واخاف ان يقتلنى اليابانيون . اما هنا فقد بدا الناس متحررين من الهم والقلق . لقد كان على مقربة منى فنان شاب يرسم الطبيعة ووراءه حقيبته واشياؤه وهو مستغرق فى الرسم ، لم يلتفت اليها مرة واحدة ليتفقدها . لقد بدا واثقا كل الثقة بأنه فى امان . وهذا كان شيئا لا يمكن تصوره فى زماننا .

وقد رأيت فى المنتزه صندوق خشبى داخل كشك للهاتف لصقت عليه ورقة كتب عليها : " الرجاء ان تضع اربعة فنات فى الصندوق مقابل كل مكالمة . " واخبرنى احد زملائى من السجناء انه كان هناك ناد فى جزيرة الشمس فى الماضى . كان المرء يدفع فيه بقشيشا حتى حين دخل المرحاض . ولكن الرسائل التى تأتينا من الاهل اليوم تخبرنا ان العاملين فى اى مطعم او فندق او حمام او اى مكان من هذه الامكنة سوف يشعرون بالاهانة اذا ما حاولت اعطاءهم بقشيشا .

لقد قمنا بزيارة لمكانين فى الايام الاخيرة من وجودنا فى هاربين ، فأظهرتا لى هاتان الزيارتان الفرق بين نوعين من الناس فى هذا العالم . زرنا اولا المكان

الذى ارتكبت فيه وحدة البكتريا اليابانية رقم ٧٣١ اعمالها الوحشية ، ثم زرنا قاعة شهداء الشمال الشرقى .

هناك كتاب يدعى « وحدة البكتريا رقم ٧٣١ » نشره فى اليابان بعد الحرب العالمية الثانية رجل يدعى اكياما هيروشى كان عضوا فى هذه الوحدة . ووفقا لهذا الكتاب كانت هناك مجموعة من المبانى يبلغ محيطها اربعة كيلومترات تقريبا ، وكان المبنى الرئيسى بينها يبلغ حجمه اربعة اضعاف حجم مبنى مارونوتشى فى اليابان . وكان فيها حوالى ٣ آلاف شخص . وفى هذا المبنى ربوا عشرات الآلاف من الجرذان . وبالاضافة الى ذلك كان لديهم ٤٥٠٠ محضن من طراز اشى ربوا فيها اعدادا فلكية من البراغيث وانتجوا ٣٠٠ كيلوغرام من جراثيم الطاعون الدبلى شهريا . وكان هناك سجن اعتقل فيه اربع او خمسمائة من اسرى الحرب او الوطنيين المعادين لليابان لاستخدامهم فى التجارب . وكان الاسرى من ابناء الصين والاتحاد السوفياتى وجمهوريا منغوليا الشعبية . ولم يكن يشار اليهم على انهم اناس بل " زناد خشب " . وستمائة منهم على الاقل كانوا يعذبون حتى الموت كل سنة ، وكانت التجارب التى تطبق عليهم على درجة من القسوة لا توصف . فيوضع بعضهم عاريا فى ثلاجة التجارب حتى يتجمدوا ثم ينتزع اللحم من عظام ايديهم وهى تهتز ؛ وآخرون كانوا يمددون على طاولة العمليات مثل الضفادع بينما يقوم عاملون يلبسون المآزر البيضاء بتشريحهم ؛ وغيرهم كانوا يربطون بجذوع الشجر عراة الا من سراويلهم الداخلية ثم تفجر امامهم القنابل الجرثومية ؛ وغيرهم كانوا يطعمون جيدا ثم يحقنون بالجراثيم ، واذا لم تقتلهم هذه التجربة فانها تكرر الى ان يموتوا .

وعندما كان مؤلف الكتاب يشتغل فى هذه الوحدة سمع ان الجراثيم التى كانت تتكاثر هناك افتك من اى سلاح آخر ويمكنها ان تقتل ١٠٠ مليون انسان ، وهذا ما فاخر به الجيش اليابانى نفسه .

وعندما كان الجيش الاحمر السوفياتي يقترب من هاربين حاولت هذه الوحدة ان تغطى كل اثر لجرائمها . فسمم اليابانيون جميع السجناء الباقين ، مخططين لاحراقهم وتحويلهم الى رماد ثم دفنهم بعد ذلك فى حفرة كبيرة . ونظرا الى ان الجلادين كانوا فى ذعر وهلع ، فانهم لم يحرقوا الجثث احراقا تاما ولم يستطيعوا نقلها كليا الى الحفرة . فسحبوا منها الجثث نصف المحروقة وفصلوا اللحم عن العظم ، ثم احرقوا اللحم الى ان اصبح رمادا ووضعت العظام فى مساحن لسحنها . وفى النهاية دمرت المبانى الرئيسية بالمفجرات .

وبعد مدة غير طويلة كان شخص من قرية مجاورة يمر بجانب ركام تلك المبانى فرأى بعض البراغيث تتقافز داخل جرة خزفية مكسورة . وقد عضه احد هذه البراغيث . ولم يدرك انه قد اصيب بعدوى الطاعون الدبلى الذى خلفه المجرمون عندما غادروا . وانتشر الوباء فى القرية وعلى الفور ارسلت الحكومة الشعبية جيشا من العاملين فى الطب لمعالجة هذا الوباء ولكن على الرغم من كل ما بذلوه من جهود مات ١٤٢ شخصا فى هذه القرية التى تعد حوالى مائة اسرة فقط .

وقد شهدت هذه الحادثة المروعة جيانغ شو تشينغ ، عضوة تعاونية وعاملة نموذجية كنا قد زرناها . وبعد ان اخبرتنا بهذه الجرائم التى ارتكبت ضد هذه القرية فى ايام " امبراطورية منشوريا " قالت : " لقد استسلم اليابانيون وتركوا اسلحتهم وهيأت لنا الحكومة الشعبية ان نعيش سعداء . فلدينا ارضنا ، واننا نحتفظ لأنفسنا بالمحاصيل التى نحصدها . ونحن فى غاية السعادة ونقول ان كل شيء رائع تماما لأن الحياة سائرة نحو الافضل ونحن تحت قيادة الحكومة الشعبية . لم نكن نعرف ان شرور اليابانيين لا نهاية لها وانهم تركوا هذا خلفهم عندما غادروا . يا للقساة ! "

ولاحظت شيئا متشابها فى بيت جيانغ شو تشينغ الصغير الانيق وفى المكاتب الواسعة التابعة للتعاونية الزراعية : كلما تحدث اعضاء تعاونية النجم

الذهبى عن الماضى تكلموا قليلا وفى تؤدة ، ولكن فى اللحظة التى يتحول فيها الموضوع الى الحديث عن الحاضر او المستقبل فان الجو يختلف تماما . فعندما تحدثوا عن القطاف الذى كانوا يقومون به فى ذلك الوقت ، ولا سيما لمحصول الخضار ، تكلموا بكل تباه ودخلوا فى ادق التفاصيل . ولتأييد ما قالوه اخذونا لمشاهدة دفيئاتهم والاشياء الجديدة التى اشتروها : معدات للرى والبزل ، وشاحنات ثقيلة واصناف متعددة من الاسمدة الكيماوية . ورأينا مدرسة وعيادة حديثتى البناء وكبلات كهربائية جديدة . وعندما تحدثوا عن اهداف السنة القادمة اصبحوا اكثر تحمسا . فقد اشار مسئول التعاونية الى صفوف من البيوت القرميدية الجديدة واختار كلماته بحذر شديد : " بعد الخريف القادم سنكون قادرين فيما اظن على بناء بضعة بيوت اخرى . " فلم يصدق اى منا ان كلمة " بضعة " تعنى عشرة او بضعة عشر بيتا فقط .

ولدى مغادرتنا هذه القرية جلب اعضاء التعاونية سلالا ملأى بالخيار والفجل ليقدموها لنا قائلين : " خذوا هذه معكم . لقد جنيناها لكم الآن ، وعلى الرغم من انها لا تستحق الذكر الا انها طازجة تماما . " وتجاهل مسئول التعاونية اعتراضاتنا والقاها فى عربتنا .

حدقت من النوافذ الى السطوح القرميدية التى كانت تتراجع امام عينى بسرعة فى تعاونية النجم الذهبى وفكرت فى الانطباع العميق الخارق للعادة الذى تركته فى نفسى كلمات مسئول التعاونية التى خرجت من فمه عادية جدا " بعد الخريف القادم فيما اظن . . . " ان هؤلاء الناس العاديين الذين احتقرتهم فى الماضى لكونهم غير متحضرين نهائيا قد عملوا بأيديهم بكل كد واجتهاد مؤدين عملا عاديا وعظيما فى آن واحد . لقد حولوا اكواخهم القشية الى بيوت قرميدية ليؤمنوا للناس حياة افضل . كان الامبرياليون اليابانيون الذين كنت اعتبرهم مع الخوف والتبجيل ممثلين لأمة بارزة ، قد استخدموا العلوم والتكنولوجيا الحديثة لايجاد الوباء ونشر الموت . وهم ايضا

كانت لهم مثلهم : استعباد وابادة امة مضطهدة .

ان ركام مصنع الجراثيم قد اظهر معنى الشر ، بينما اظهر كل شيء باق للشهداء فى قاعة شهداء الشمال الشرقى ماذا تعنى كلمة "خير" . كل معروض يحدثنا كيف ضحى صاحبه بآخر قطرة من دمه من اجل مثل انسانية اسمى ومن اجل حياة اكثر بهاء . لقد كانت آثار مصنع الجراثيم والملابس الملطخة بالدم ورسائل الشهداء الاخيرة مرايا استطعنا ان نرى فيها نحن السجناء ماضينا الكريه .

ان قاعة شهداء الشمال الشرقى هى مبنى مهيب على الطراز الرومانى كان مستخدما كمقر البوليس الرئيسى فى هاربين خلال سنوات "امبراطورية منشوريا" الاربع عشرة ، حيث استجوب اعداد لا تحصى من الصينيين الشجعان وعذبوا او سيقوا الى ساحة الاعدام فى ذلك العهد الدموى .

ان صور الشهداء ومخلفاتهم المعروضة هنا ليست الا غيضا من فيض . وجميع هذه المعروضات والتفاصيل المتعلقة بالازمنة والامكنة قد اعادت الى الذكريات المخجلة . فى ٢١ سبتمبر ١٩٣١ ، بعد ثلاثة ايام من نشوب القتال فى شنيانغ ، عقدت لجنة مقاطعة منشوريا للحزب الشيوعى الصينى اجتماعا طارئا دعت فيه جميع اعضاء الحزب وجميع الجنود الوطنيين فى الشمال الشرقى لحمل السلاح وخوض القتال ضد العدو . وقد ذكرتنى صور هذا القرار والبيت الذى كان مقرا رئيسيا للجنة بالفرق الشاسع بين ذلك وبين ايامى فى الحديقة الهادئة بتيانجين قبل عشرين سنة . فمن اجل انقاذ الوطن فى ساعة الخطر هب شعب الشمال الشرقى تحت قيادة الحزب وقاتل غير مبال بالعقبات التى وضعها تشيانغ كاى شيك فى طريقه . اما انا فقد كشفت خيانتى . لقد تذكرت دويهارا واتاجاكى وتشنغ شياو شيوى وابنه ولوه تشن يوى ؛ وتذكرت ايضا اقامتى فى تانغقانغتسى وليويشون .

وعندما حدثنا الدليل عن حياة يانغ جينغ يوى ، تذكرت "جولاتى

الامبراطورية " المتعددة الى دونغبيانداو ــ المنطقة التى تمت فيها عمليات الجيش الاول المتحالف ضد اليابانيين تحت قيادة يانغ جينغ يوى ولى هونغ قوانغ وغيرهما من القواد . كنت قد رأيت قمم جبال تشانغباى والشمس ترتفع فوق ضباب الصبح . ولكننى لم اكن اثار بجمال وطنى الام حيث كان اهتمامى مشدودا الى رجال الدرك اليابانيين والقوات العميلة والبوليس العميل على جانبى الخط الحديدى . كانت الصحف التى يديرها اليابانيون تقول دائما ان " قطاع الطرق " فى هذه المنطقة قد ابيدوا عن آخرهم ، ولكن عندما ذهبت الى هناك وجدت اليابانيين قلقين ومظهرهم يدل على انهم يواجهون خصما قويا . وعندما هربت الى تونغهوا وداليتسيقو فى نهاية " امبراطورية منشوريا " مباشرة ابلغت ان هذه المنطقة غير " آمنة " . لقد ظلت الجيوش المتحالفة ضد اليابانيين تشق طريقها فى القتال الى ان تم استسلام اليابانيين ، وعندها لم يكونوا هم الذين ابيدوا بل الجيش اليابانى الامبراطورى الذى كان غالبا ما يعلن عن نفسه انه منتصر . لقد جابهت القوات المعادية لليابان جيش قواندونغ القوى وقوات " امبراطورية منشوريا " التى كانت افضل منهم من حيث العتاد ، وكانت الصعوبات التى احاطت بهم لا يمكن تخيلها تقريبا ؛ ولكن لدى نظرى الى القدور واوعية الماء والفؤوس المصنوعة بأنفسهم وآلات الخياطة البالية التى استخدمها المقاتلون المقاومون بدا لى اننى ارى وجوه اصحابها الباسمة ، وجوها كوجه ذلك المدير الشاب فى منجم لونغفنغ ، مشرقة بالابتسامات التى لا تنبعث الا من الثقة والتصميم . وعندما نظرت الى حذاء مصنوع من لحاء البتولا تردد فى اذنى صدى هذه الاغنية :

احذية لحاء البتولا ،
بضائع صينية ،
صنعناها بأنفسنا من موادنا ،
الاشرطة من القنب البرى ،

والنعل من لحاء الشجر .

بأحذية لحاء البتولا ،
احذية الدرجة العالية ،
يتسلق الجنود قمم الجبال .
الفتيات الانيقات لا يستطعن شراءها .
والعجائز الثريات لم يسعفهن الحظ بلبسها .

احذية لحاء البتولا
احذية جيدة حقا .
يركض الجنود بها عبر التلال ،
متعقبين الشاحنات وهى تصيح مذعورة ،
حيث يفقد الشياطين صوابهم من الذعر .

لقد اضطرنى اليابانيون الى الموافقة على دفعة اثر دفعة من القوانين التى مكنتهم من ان يحشروا اهل القرى ويفرضوا السيطرة على الحبوب ، ويحاصروا المناطق الجبلية ، ويستخدموا كل وسيلة لا يمكن تخيلها لقطع الروابط الاقتصادية بين المقاتلين المقاومين والعالم الخارجى . وبهذه الطريقة نجحوا فى تطويق الجنرال يانغ جينغ يوى وبعض القوات المعادية لليابانيين ، ولكن على الرغم من نقص التموينات لدى هذه القوات الا انها ظلت ماضية فى فى القتال — وقتا طويلا جعل اليابانيين يبدأون فى الشك فى تقارير مخابراتهم وفى معارف الناس العاديين . كيف استطاع هؤلاء الرجال ان يواصلوا القتال من دون حبوب ؟ ماذا كانوا يأكلون ؟ بعد ان استشهد الجنرال يانغ جينغ يوى فتح اليابانيون معدته ليحلوا هذا اللغز ، فكان كل ما وجدوه عشبا واوراق شجر .

وتذكرت زهرات يوشيوكا " الملحق الامبراطورى " : " ان الشيوعيين

مرعبون . " فحتى العشب فى نظر الجيش اليابانى الامبراطورى المسلح بالطائرات والدبابات كان مرعبا .

عندما كان الجنرال يانغ جينغ يوى ورفاقه فى السلاح يغنون تلك الاغنية حول احذية لحاء البتولا كنت انا مذعورا من ان يتركنى اليابانيون ومرعوبا من احلامى ؛ وفيما كانوا يأكلون العشب كنت متخما حتى سئمت من اكل اللحم وامضى ايامى كلها اقوم بالعرافة واتلو المحاورات البوذية .

وماجت امام عينى الخرائط والاختام والثياب الملطخة بالدم وكتابات الطفولة ، التى خلفها يانغ جينغ يوى . ومن خلفى انبعث نحيب زملائى السجناء الصينيين واليابانيين ، ثم اخذ يرتفع اعلى فأعلى . وعندما نظرنا الى صورة الشهيد تشاو يى مان شق احدهم طريقه الى الامام وركع امام الصورة منتحبا بمرارة وسجد لها .

" لقد كنت رئيس البوليس العميل . . . "

كان هذا الشخص هو يوى جينغ تاو وقد عمل رئيس بوليس هاربين قبل ان يصبح وزير العمل فى " امبراطورية منشوريا " . وعندما تم ايقاف تشاو يى مان فى هذا المقر الرئيسى للبوليس واستجوبت فى هذه الغرفة بالذات كان يوى جينغ تاو احد مستنطقيها . ولكن المستنطق قد حكم عليه التاريخ الآن وسجن . وغنى عن البيان ان يوى جينغ تاو لم يكن الانسان الوحيد الذى ينبغى له ان يبكى .

عمل وتفاؤل

بعد هذه الزيارة اقتنعت تمام القناعة بأن الابواب الى المجتمع الجديد مفتوحة امامى على مصاريعها وان المشكلات الوحيدة المتبقية تكمن فى داخلى .

وبدأت عام ١٩٥٨ مفعما بالامل . وقد كشف هذا الموقف التفاؤلى عن نفسه اول مرة عندما كنا ننقل الفحم فى خريف عام ١٩٥٧ . كانت سلطات السجن تنقل كل خريف مقادير ضخمة من الفحم ، بعضها للمحافظة على تدفئتنا وبعضها لصنع قوالب فحم للدفيئات التى كنا نزرع فيها خضارنا الشتوى .

وكانت هذه هى السنة الاولى التى نشترك فيها فى نقل الفحم وصنع القوالب الفحمية . وكنت حينذاك قد اصبحت اكثر قدرة مما انا عليه فى الماضى . وفى زنزانتنا كنا اربعة اشخاص اصغر سنا نسبيا ، نقوم بأثقل الاعمال : لاو وانغ ولاو تشنغ المنغولى وانا وجنرال شاب سابق لدى " امبراطورية منشوريا " . وكان هذا العمل نافعا جدا لى . فقد ازددت قوة واختفت امراضى السابقة . وعندما كنا نقوم بصنع القوالب الفحمية اخذت بنفسى العمل الثقيل نوعاما المتمثل فى حمل الفحم . ونظرا الى ان مدير السجن وبضعة كوادر آخرين كانوا يساعدون فى ذلك فقد مضى العمل فى نشاط . وقبيل ان ننتهى جلبت انا ولاو شيان ثلاث سلال ملأى .

وبينما نحن نسلم ادواتنا سمعت السجان وانغ يقول لأحد زملائه : " ارى بو يى يعمل بجد . ولا يسعى للفت الانظار بعمله . "

ووضعت انا ولاو شيان سلة الفحم التى كنا نحملها بعارضة كتف على اكتافنا ، واخذنا ملابسنا من الشجرة التى كنا قد علقناها عليها . فسألنى مدير السجن عن حالة كتفى مبتسما فنظرت الى كتفى واجبت :

— لم يصب بأذى ولم يتورم . بل احمر قليلا وهذا كل ما فى الامر .

— كيف شهيتك للطعام فى هذه الايام ؟

— ثلاث طاسات كبيرة من الارز او ثلاثين حبة كبيرة من جياوتسى .

— والارق ؟

— استسلم للنوم حالما يلامس رأسى الوسادة . وليس عندى اى مرض

اشكو منه مطلقا .

فضحك الآخرون جميعا ، ولكن ليس ضحك السخرية كما كان فى الماضى . اننى لم اعد اسمع ذلك التضاحك مطلقا .

ولقد احرزت كذلك تقدما فى مجالات اخرى . فلم اعد اجد اننى بحاجة الى ان ابذل جهدا كبيرا فى دراسة « الاقتصاد السياسى » و« المادية التاريخية » كما كنت افعل فى الماضى ، واصبحت ملابسى الآن نظيفة تقريبا كملابس اى شخص آخر . ولكن الشيء الذى كنت فى غاية الثقة ازاءه هو العمل الجسمانى . فما دمت لا يطالب منى تأدية اعمال دقيقة مثل صنع الازهار الورقية ، فقد كنت دائما فى الطليعة ، وحتى اولئك الذين كانوا ممتازين فى الدراسة النظرية اضطروا الى ان يشهدوا لى بالتفوق عليهم فى هذا الخصوص .

ان اعجاب رفاقى بى وتزايد ثقتى بنفسى لم يكونا ناجمين الى حد كبير عن ترسيخ موقف سديد من العمل بقدر ما كانا ناجمين عن الحماسة الجديدة للعمل التى توفرت فى كافة اوساط المجتمع . فمنذ اواخر عام ١٩٥٧ ونحن نلاحظ ذلك من الصحافة ورسائل الاهل وموظفى السجن انفسهم . لقد بدا ان كل واحد كان يتسابق الى الاشتراك فى العمل الجسمانى الذى رأوا فيه شيئا باعثا على الاعتزاز . فعشرات الآلاف من موظفى الحكومة ذهبوا الى الريف ، واضافت المدارس الى برامجها فترات للعمل الجسمانى ، وظهرت جميع اشكال فرق العمل الطوعى القصير الامد . وفى السجن نفسه ساعد الموظفون فى صنع القوالب الفحمية ، واعدوا الخضار فى المطبخ ، واعتنوا بفرن المطبخ ، بل جلبوا الطعام الى زنزاناتنا . وقبل ان نغادر فراشنا فى الصباح كنا نسمع اصوات عجلات العربات وقعقعة المعاول والمجارف المحملة فوقها ، فنعرف ان مدير السجن والموظفين قد توجهوا لاستصلاح الارض المقفرة خارج السجن . وهذا كله بين لنا ان العمل فى المجتمع الجديد هو المقياس الذى

يقاس به الناس . واولئك الذين كانوا قيد اعادة بناء انفسهم ليسوا استثناء . ولقد نسيت من الذى اخبرنى بأن كثيرا من الناس كانوا متوهمين بأن العمل عقوبة فرضها الاله على النوع البشرى وان الشيوعيين وحدهم هم الذين رأوا فيه حقا من حقوق الانسان . وكنت فى ذلك الحين قد فقدت كل اهتمام لى بالآلهة او ببوذا ، فلم افلح فى ملاحظة اية علاقة بين الاله والعمل . واستطعنا جميعا ان نرى ان العمل من وجهة النظر الشيوعية شىء طبيعى . واذكر مرة اننا كنا نزيل كومة من الفضلات ومر بنا الموظف المهذب لى . فتناول مجرفة وشرع يعمل بأكثر منا سرعة وفاعلية ، غير معتبر ان هناك شيئا غريبا فيما كان يفعله .

ان الاهمية المنوطة بالعمل والتحمس له عام ١٩٥٨ قد تركا فى انفسنا انطباعا اعمق . لقد علمت كثيرا من الاشياء الجديدة المذهلة من الرسائل التى جاءتنى من بكين . فالأخت الثانية التى كان من عادتها ان تمكث فى البيت غير ملتفتة الى شىء قد اشتركت الآن فى نشاطات لجنة الشارع ، وذلك بالمساعدة فى انشاء روضة لاطفال الامهات العاملات . والاخت الرابعة التى عملت فى القصر الامبراطورى السابق قد اشتركت فى مشروع طوعى لاعادة انشاء بحيرة خارج بوابة ده شنغ فى بكين وقد اعطيت لقب : " النشيطة الخماسية المزايا " والاخت الثالثة وزوجها اشتركا فى الدراسات السياسية التى نظمتها لجنة المؤتمر الاستشارى السياسى الشعبى فى منطقتهما . ولاو رون عمل فى خزان اضرحة اسرة مينغ للمياه سويا مع مسنين آخرين من المؤتمر الاستشارى السياسى الشعبى فى منطقتهم ، ولقد اشيد بهم على ابتكار فنى قاموا به . والاخت الخامسة وزوجها لاو وان اخبرانى مفتخرين ان ابنهما الاكبر الذى كان يدرس الجيولوجيا فى الجامعة يقوم الآن ببحث حول الاستفادة من الثلج والجليد وانه الآن مع بعثة استكشاف فى جبال الشمال الغربى . وكان بعض ابناء اشقائى ولى الكبير يعملون قادة فرق فى مزرعة للدولة فى ضواحى

العاصمة . ففى كل مكان كان هناك عمل وحماسة ، كما لو كانت طبول الحرب تدق ايذانا بالهجوم على الطبيعة . وفى هذه الحملة التاريخية للارتفاع بالبلاد عن تخلفها كان كل فرد يقوم بأداء نصيبه من العمل . ولقد خرج جميع زملائى السجناء من رسائلهم العائلية بنفس الانطباع . وعندما سمعنا ان الرئيس ماو ورئيس مجلس الدولة شو ان لاى والوزراء قد اشتركوا جميعا فى بناء خزان اضرحة اسرة مينغ للمياه لم يعد من الممكن ان نتمالك انفسنا عن الاندفاع الى العمل.وطلبنا من لجنة الدراسة وسلطات السجن ان ينظموننا فى القيام بعمل انتاجى .

واستجابت سلطات السجن لطلبنا . فأقاموا اولا معملا لصنع المحركات الكهربائية ، ولكن نظرا الى اننا كنا قليلين جدا فقد اسند هذا العمل الى مجرمى الحرب من اتباع تشيانغ كاى شيك فى اقسام اخرى من السجن . وقمنا بدلا من ذلك بالتدرب على تحقيق مهارات انتاجية ، فقسمنا الى خمس مجموعات بحسب كفاءاتنا : مجموعة لتربية المواشى ، واخرى لمعالجة الاطعمة ، وثالثة للبستنة ، ورابعة لزراعة الخضار ، بما فيها الدفيئات ، وخامسة للعمل الطبى وشكلت انا مع اربعة آخرين المجموعة الطبية . وربطنا العمل بالدراسة . فكان علينا ان ننظف العيادة كل يوم ، ونقوم بجميع الخدمات غير الطبية ، ونشترك فى العمل الطبى المساعد ؛ وكنا كذلك نمضى ساعتين يوميا فى قراءة الطب وعقد مناقشات بتوجيه من الطبيب ون ، احد موظفى السجن . وكان زملائى الاربعة اطباء قبل ذلك ، فأخذ ثلاثة منهم بمراجعة الطب الحديث بينما درس الآخر معى الطب الصينى التقليدى . وبالاضافة الى ذلك درسنا جميعا فن العلاج الوخزى والعلاج بالشيح المضطرم . وهذه الفترة من العمل فى مجموعة صغيرة اعطتنى ثقة بالنفس جديدة .

على انى لم اكن ماهرا كالآخرين فى هذا المضمار فى البداية . فمماسح القطن الطبى الجراحية التى صنعتها بدت مثل كتل من حشوة القطن ؛ وعندما

اخذت قياس ضغط الدم كنت اركز نظرى على المضغاط وانسى ان اصغى الى المسماع ، او اصغى وانسى ان انظر ؛ وعندما كنت اتعلم استخدام الجهاز الكهربائى لمعالجة ضغط الدم كنت دائما ما اصاب بتشوش ولا اتمكن من القيام بهذا العمل على نحو صحيح . ولم اكن افوق الآخرين الا فى الاعمال غير الطبية او العمل العضلى . فصممت على اتقان العمل الطبى . وعندما كان الطبيب او الممرضة يعلماننى شيئا كنت اطلب من زملائى الطلبة ان يشرحوه لى ثانية ، ومن ثم امارسه بنفسى دون انقطاع . وهكذا تعلمت تدريجيا اتقان مهنتى مساعدا طبيا . وكان احد مجرمى الحرب اليابانيين يأتى كل يوم لأخذ معالجة كهربائية ، وكان ينحنى لى بعد ذلك انحناءة شديدة ويقول : " شكرا ايها الطبيب " ، فأسر لذلك بالغ السرور . ونظرا الى اننى البس مئزرا ابيض ونظارات لم يكن امرا غريبا ان يخطئ هذا الخطأ ؛ وقد اظهر ذلك ان مهارتى كانت كافية لكسب ثقة المريض . وفى نهاية الدورة الاولى اجرى لنا الطبيب ون امتحانا فنلت الدرجات التامة كالآخرين .

عندما كنا نقوم بانتاج محركات كهربائية انتاجا تجريبيا خابت محاولاتى للاضطلاع بأى عمل سوى الاعمال البالغة السهولة التى كانت تسند الى ، وقد اعتبرت هذا اجحافا بحقى . ولكننى الآن تعلمت ان اكون مساعدا طبيا ، وقد اخطأ الآخرون فظنونى طبيبا مكتمل الخبرة ، وحصلت على الدرجات الكاملة فى امتحانى الاول . لقد اصبحت على ثقة بأننى لست بليدا تماما بل سأكون قادرا على اتقان هذه المهارة ؛ ولن اعود بحاجة الى مجوهراتى البالغة ٤٦٨ قطعة لاعالة نفسى .

وذات يوم طلبت ان ارى مدير السجن . وكان المدير السابق قد نقل الى وظيفة جديدة ، اصبح من خلالها مضطلعا بمسؤوليات اخرى عدا سجننا ، فلم يعد يأتى بانتظام ، لذلك رأيت نائبا له يدعى جين الذى اصبح الآن مسؤولا عن السجن . فقلت :

— يجب ان تقبل الحكومة تلك المجوهرات رسميا ، وعلى اية حال لقد فقدت الوصل الخاص بها منذ زمن طويل جدا .

وظننت انني يجب ان اشرح لنائب المدير موضوع المجوهرات ، ولكنني دهشت حين اجابني على الفور مبتسما :

— انني اعرف كل شيء عنها . حسنا اذن ، هل انت واثق من انك ستكون قادرا على اعالة نفسك من خلال عملك ؟

وامضيت بقية ذلك اليوم اقدم معلومات عن كل قطعة من الـ ٤٦٨ قطعة من المجوهرات وسكرتير يسجل ذلك كله . وعندما انتهيت من ذلك خرجت الى الفناء شاعرا بالاطمئنان ، ظانا ان كلمات نائب المدير كانت دليلا على انني احرزت تقدما ملحوظا . ترى هل اطل اليوم الذى سأغدو فيه انسانا حقيقيا ؟

الاختبار

قدرت نفسى تقديرا اعلى مما ينبغى ، وقد اكتشفت ذلك عندما ووجهت باختبار .

ففى الوقت الذى كانت تجرى فيه القفزة الكبرى الى الامام فى كافة انحاء البلاد اوضح لنا مدير السجن اننا بحاجة الى مراجعة افكارنا لنزيل بذلك العقبات الايديولوجية من طريق تقدمنا . وكانت الوسيلة التى اتبعت مع كل منا هى القيام فى اجتماعاتنا الدراسية بمناقشة التغيرات التى طرأت على تفكيرنا والمسائل التى لم نفهمها بعد .

وحين جاء دورى وقعت فى اضطراب . فبعد ان تحدثت عن ايديولوجيتى القديمة والتغيرات فى مواقفى سألنى احدهم :

— شخص بخلفيتك يجب ان تكون له روابط وثيقة بالامبريالية اليابانية ،

وربما تكون الى الآن توقا اليها فى افكارك ومشاعرك الخاصة . ان صلاتك بها لم تكن اوهى من صلاتنا بها ، فلماذا انت الوحيد الذى لم تذكر هذا ؟ لا تقل لى ليس عندك مشاعر كهذه .

ــ ليس عندى مشاعر نحو اليابانيين سوى الكراهية . اننى اختلف عنك فى هذه الناحية .

واثار هذا عاصفة من الاعتراض : " لماذا لا تكون اكثر تواضعا ؟ انك ما تزال ترى نفسك اعلى منا منزلة ، أليس كذلك ؟ " " اية مشاعر لديك الآن ازاءهم ؟ هل انت اكثر تقدما منا نحن البقية ؟ " وضرب احدهم امثلة كثيرة من حياتى الماضية ، مثل القصائد التى نظمتها عندما ذهبت الى اليابان والطريقة التى ساعدت بها ام الامبراطور اليابانى فى رقى بعض درجات السلم ليوضح اننى كنت فى تلك الايام ممتنا لليابانيين اكثر من اى شخص آخر ؛ ووجد ان من الصعب قبول انكارى التام هذا . فأجبت اننى واليابانيين كنا نستفيد من بعضنا فى الماضى ، فلم يكن هناك مسألة مشاعر . اننى لم احاول طعن الآخرين عندما عبرت عن هذا الانكار الذى كان صحيحا تماما ، ولكن لم يكن احد مستعدا لقبول توضيحى . وعندما وصفت رعبى اثناء هروبى الى داليتسيقو سئلت :

ــ عندما كان اليابانيون عازمين على ارسالك الى طوكيو ارصدوا فيها باسمك ثلاثمائة مليون ين لتغطية نفقاتك التمهيدية . أ لم يجعلك هذا ممتنا للامبريالية اليابانية ؟

فقلت مندهشا :

ــ ثلاثمائة مليون ين ؟ اننى لا اعرف اى شىء عن ذلك .

ولم يكن هذا فى الواقع سرا كبيرا . فعندما اخذ جيش قواندونغ احتياطات الذهب الاخيرة من خزينة " امبراطورية منشوريا " اعلن للعالم انها ستنقل الى اليابان لـ " امبراطور منشوريا " . ولكننى لم ار فنا واحدا من هذه النقود ،

وكل شخص عرف ذلك ، ولهذا السبب لم توجه هذه المسألة ضدى . ان السبب الوحيد الذى اثار هذه المشكلة هو انهم ارادوا معرفة شىء عن حالتى الفكرية فى ذلك الوقت . ولو اننى رجعت بفكرى الى الوراء بهدوء او استمعت بتواضع لما قاله الآخرون لكنت قادرا على تذكر ذلك ؛ ولكننى بدلا من ذلك اكدت لكل ثقة اننى لا اعرف شيئا عن الامر . فبدأ كثير من الذين يعرفون هذا الامر يصيحون :

ـ انت لا تعرف شيئا عن ذلك ؟ هذا الامر قد عالجه تشانغ جينغ هوى وتاكيب روكوزو . هل تحاول التنكر لمسؤوليتك لأن تشانغ جينغ هوى قد مات مؤخرا ؟

وسألنى شخص آخر :

ـ أ لم تكتب عن هذا الامر فى اعترافك ؟

وعندما قلت اننى لم اكتب اصبحوا اكثر اندهاشا ، وقالوا :

ـ ولكن كل واحد يعرف هذا الامر .

ـ هذه ليست مسألة ثلاثمائة او ثلاثة آلاف بل ثلاثمائة مليون .

وفى ذلك المساء عدت بتفكيرى الى الوراء ، فتذكرت ان شى تشيا قد اخبرنى فى داليتسيقو بأن اليابانيين قد اخذوا الذهب كله من " مصرف امبراطورية منشوريا " معهم بحجة انه سيستخدم لنفقتى فى اليابان . فهذه يجب ان تكون الثلاثمائة مليون ين التى جرى الحديث بشأنها . ولكننى فى ذلك الوقت كنت فى غاية القلق بسبب التهديد المباشر لحياتى بحيث لم اعر هذه المسألة اى اهتمام . وفى اليوم التالى سألت ان كانت تلك هى النقود المعنية ، فقالوا لى انها هى المعنية . لذلك اخبرت مجموعتى الدراسية بشأنها . فسألنى عدد منهم بصوت واحد :

ـ لماذا اخفيت هذا من قبل ؟

ـ لم اخفه ، بل نسيته .

ـ أ ما تزال تصر على انك نسيته ؟

ـ لقد تذكرته الآن .

ـ لماذا لم تتذكره فى السابق ؟

ـ قلت لكم : اننى نسيت . ان من الطبيعى ان انسى اشياء فى بعض الاحيان ، أ ليس كذلك ؟

فأثار هذا عاصفة اخرى من الاعتراضات : "كلما تعمقت فى رجوعك الى الوراء اصبحت ذاكرتك افضل مما هى عليه ، وكلما كانت الاشياء اقرب ازددت بخصوصها نسيانا . وهذا غريب حقا . " " من الواضح انك خائف من شر مرتقب ، ولكنك لا تجرؤ على الاعتراف بذلك . " " اذا لم تكن لديك الشجاعة على الاعتراف بأخطائك ، فانك لن تتمكن ابدا من اعادة بناء نفسك . " " لا احد منا يصدقك . اننى اضمن ان الحكومة لن تنخدع بقصصك ثانية . " " انك مراوغ وكذاب. " "كيف يمكن لمخادع مثلك ان يعيد بناء نفسه ؟ "

وكلما اكثرت من محاولة الدفاع عن نفسى قل تصديق الآخرين لى ؛ فأصبحت قلقا : من الواضح انهم جميعا يرون اننى كاذب . فاذا اجمعوا كلهم على ذلك ، فهل سيصدقنى مدير السجن ويقف ضدهم ؟ غزت هذه الافكار ذهنى ، وتملكتنى كالشياطين ، فغدوت كالابله . اننى لم اقلق بصدد ذلك من قبل ، ولكننى قلقت الآن . ولدى تفكيرى فى انه من المحتمل ألا يصدق مدير السجن كلمتى ويقف ضد الآخرين جميعا خارت عزيمتى وعدت الى سابق طرقى التعسة ، واعددت نفسى لنسيان مبادئى ما دمت استطيع اجتياز هذه العاصفة . أ لن اكون قادرا على تلمس طريقى وسط هذه الازمة اذا انا قمت بالاعتراف ؟ حسن جدا اذن . وقلت اننى لم اجرؤ على ذكر هذا من قبل لأننى كنت اخاف ان تعاقبنى الحكومة ، ولكنهم الآن قد اقنعونى بالتغلب على مخاوفى .

وعلى الرغم من اننى قد نسيت حقا موضوع الثلاثمائة مليون ين ، الا انه بدا لى كأن شيئا كان يختفى فى اعماق نفسى ثم انكشف الآن .

لم يعد اعضاء مجموعتى يبدون المزيد من الاهتمام بمشكلتى هذه بعد ذلك ، ولكننى لم استطع ان انحى هذا الامر من ذهنى . وكلما ازددت تفكيرا فيه اصبحت اكثر اضطرابا ، واقتنعت اننى قد افسدت حالى كله . ومع انه لم يكن هناك ظل لشك فى اننى قد نسيت امر النقود ، الا اننى قلت اننى اخفيت الحقيقة . وخوفا من ان تظننى الحكومة مخادعا كذبت عليها . وسببت لى هذه المسألة شعورا بتأنيب الضمير ، واخذت اعانى مما فعلت .

لقد كنت فى الماضى ، عندما شككت فى ان كل تصرف لموظفى السجن يبطن عداوتهم لى ، احس بالهلع الشديد من الاعدام . اما الآن فقد عرفت ان الحكومة لا تريد قتلى ، بل تقوم بمساعدتى لكى اصبح انسانا جديدا . ولكن فى اللحظة التى اصبحت فيها مفعما بالامل واجهتنى هذه المحنة الجديدة ، وكلما ازداد التشجيع الذى لقيته من موظفى السجن ازددت شعورا بالاضطراب .

وذات يوم اخبرنى سجان بأن مدير السجن يريد ان يرانى . فظننت فى الحال ان هذا اللقاء سيكون حول الثلاثمائة مليون ين ، وقدرت انه قد يكون غاضبا منى لاستمرارى فى محاولة اخفاء جرائمى على الرغم من الطريقة التى يعاملوننى بها . وكان الاحتمال الآخر الذى وضعته انه ربما سر منى لاعترافى بجرائمى وكتابتى اعترافا بذلك ؛ وربما يمدحنى على هذا التصرف ، وهذا سيكون اسوأ . وذهبت الى غرفة الاستقبال الخاصة بمدير السجن خائفا مذعورا ، ولكننى اكتشفت انه طلبنى ليتحدث معى فى شىء آخر مختلف تماما .

وبعثت هذه المقابلة فى نفسى المزيد من الاكتئاب . ان مدير السجن السابق لم يحضر الى السجن منذ وقت طويل ، واليوم كان معه موظف آخر اعلى منه . وبعد ان سألانى عن دراساتى وعملى الجسمانى سألانى كذلك عما افعله اثناء حملة ابادة الحشرات . وقال المدير انه قد ابلغ بأننى قد احرزت بعض

التقدم فى قتل الذباب وقمت بواجبى ، ولكنه لم يعرف مدى نجاحى فى الحملة الحالية ضد الفئران . فأجبت بأننى لم اضع خطة بعد ، ولكننى رأيت ان كل واحد فى زنزانتنا سيقتل واحدا على الاقل منها . فقال الموظف الاعلى والجالس بجانب المدير :

ــ وماذا بخصوصك ؟

واصبت بالرعب حين عرفت انه الرجل الذى سألنى فى هاربين عن سبب عدم اعتراضى على المجازر التى ارتكبها اليابانيون . ودون ان ينتظر اجابتى سألنى سؤالا آخر :

ــ أ ما تزال ضد القتل ؟

ثم جلجل صوته بالضحك مما بعث الاطمئنان فى نفسى . واجبت بأننى قد تخليت عن هذه الافكار منذ فترة طويلة واننى مخطط لقتل فأر واحد على الاقل خلال هذه الحملة . فهز رأسه قائلا :

ــ ان خطتك هذه شديدة التحفظ . فحتى الاطفال فى المدارس الابتدائية يخطط كل منهم لقتل اكثر من فأر .

ــ سأبذل كل ما فى وسعى لقتل اثنين على الاقل .

فقاطعنى المدير قائلا انه لن يضع حدا لى بل سيدعنى اقتل اكثر ما استطيع . ثم صرفنى الى زنزانتى بعد ذلك مباشرة .

وعدت الى زنزانتى مثقل النفس . ولم يكن ذلك بسبب ذعرى من خبر اصطياد الفئران ، ذلك الشيء الذى لم افعله فى حياتى قط ، بل بسبب الافكار التى اثارتها هذه المحادثة . وتذكرت كيف فتش المدير عن خطتى على نحو خاص خلال حملة قتل ذباب وكيف شجعنى عندما تعلمت غسل ملابسى . لقد خصصت سلطات السجن جهدا كبيرا جدا لتعلمنى كيف اصبح انسانا ؛ ولكننى شعرت الآن اننى لو قتلت حتى مائة فأر لن اكون قادرا على التكفير عن خطئى .

وعندما رآني السجان جيانغ الذى كان قد انتهى لتوه من نوبته اجلس فى النادى وحدى ، سألنى ان كنت قد توصلت الى طريقة ما لاصطياد الفئران وعرض مساعدته لى فى صنع فخ . ولكننى من خلال جهلى المطبق لكيفية اصطياد الفئران لم اعرف كذلك اين تعيش . لذلك قبلت عرضه بسرور ، وفيما كنت اتعلم صنع افخاخ الفئران عاودنى القلق من جديد .

وتحدثنا ونحن نقوم بصنع الافخاخ فاستعرض لى السجان جيانغ طفولته ، فأتاح لى فرصة الاستماع الى معاناته التى مر بها . لم اكن اتخيل قط ان هذا الشاب الهادئ اللطيف قد عانى من الظلم الشديد فى ايام " امبراطورية منشوريا" . لقد كان ضحية نموذجية لسياسة دمج العوائل والقرى . فبعد ان اكرهت اسرته على الانتقال عدة مرات امضوا الشتاء فى كوخ ، واصيبوا جميعا بالتيفوئيد . فمات اخوته السبعة جميعا ، ولم يبق حيا الا هو . واضطروا الى دفن الاخوة السبعة عراة .

وانتهت قصته مع انتهاء صنع الافخاخ . واخذنى ليبحث عن جحور الفئران ، وتبعته فى صمت ، اتساءل كيف امكن لشاب قتل اخوته السبعة على ايدى نظام " امبراطورية منشوريا " ان يساعدنى اليوم . هل جميع السجانين الآخرين اللطيفين جدا فى معاملتهم لنا قد عانوا مثله فى الماضى ؟ وسألته :

— هل عانى السجان وانغ والسجان ليو مثل هذا الظلم من نظام " امبراطورية منشوريا " ؟

— كل واحد عانى فى تلك الايام . فالسجان وانغ اخذ الى العمل الالزامى ثلاث مرات ، والسجان ليو لم يبق امامه من خيار الا ان ينضم الى الجيش المتحالف المعادى لليابانيين .

وادركت دونما حاجة الى ان اسأله ثانية ان جميع موظفى السجن من اهل الشمال الشرقى قد اصطلوا بنيران " امبراطورية منشوريا " .

وتمكنت بارشاد السجان جيانغ من قتل ستة فئران . وعندما سمع السجانان وانغ وليو انني اصطدت بعض الفئران جاءا لرؤية " اسراى" كأنما ذلك انجاز معجز ، واشادا بى على تقدمى . ولكن تهنئاتهما لى جعلتنى فى غاية الاضطراب : فبينما هؤلاء الناس من ضحايا نظام " امبراطورية منشوريا " ، يعلقون اهمية كبيرة على تقدمى كنت ما ازال اخدعهم .

وطفقت اذهب الى العيادة كل يوم كالمعتاد ، اكنس الغرفة ، واقيس ضغط الدم ، واقوم بالمعالجة الكهربائية ، وادرس الطب الصينى التقليدى ، واستمر مجرم الحرب اليابانى القصير ينحنى لى . ولكننى الآن لم اسمع ما كان يقوله ، واصبح من الصعب فهم « الخطوط العريضة فى الطب الصينى التقليدى» ، وكنت اضطر غالبا الى قياس ضغط الدم للمرضى عدة مرات . وكتبت لى اخواتى وازواجهن عن نجاحاتهم الجديدة ، وعبروا فى رسائلهم عن املهم فى ان اعيد بناء نفسى بسرعة واتمكن من مشاركتهم حياتهم السعيدة . وقد قرأت هذه الكلمات على انها توبيخ .

وعندما جاء الخريف قمنا بالمهمة الثقيلة المتمثلة فى صنع القوالب الفحمية وساعدنا نائب مدير السجن والكوادر فى اعداد الوقود الذى سيستخدم فى الدفيئات شتاء . وبذلت كل طاقاتى فى نقل الفحم متجنبا لفت انتباه المدير . انه اذا امتدحنى فسيكون ذلك اسوأ على من توبيخى .

وذات يوم انشغلت بأمر آخر ، وعند الوقت الذى كنت سأقوم فيه بمعالجة كهربائية كان هناك اثنان ينتظران . احدهما اليابانى الذى كان ينحنى لى دائما ، وحيث انه مريض مواظب قررت ان اعالجه اولا . ولكنى دهشت حين رأيته يشير الى الرجل الآخر ويقول بالصينية :

— ارجوك تفضل انت اولا . وانا لست مستعجلا .

فقال الرجل الآخر وكان مجرم حرب من اتباع تشيانغ كاى شيك :

— انت جئت اولا ، لذلك يجب ان تعالج انت اولا .

واضاف شارحا :

ـ شكرا جزيلا ، ولكننى لست مستعجلا . يمكننى ان اجلس هنا وانتظر . ولسوف يطلق سراحى قريبا .

لم اكن اعرف من قبل انه يتكلم الصينية على هذا النحو الجيد . ونظرا الى اننى رتبت الجهاز لمعالجة مجرم الحرب الكومينتانغى ، القيت فى اتجاهه عدة نظرات . كان ينظر فى اتجاه الجدار بجدية . وبعد لحظة اتجهت نظرته الى السقف وقال بصوت خافت ، لم اعرف معه أكان يتحدث مع نفسه ام معنا : " لقد كانت هذه الغرفة حجرة تعذيب فى ايام ' امبراطورية منشوريا ' ؛ من يدرى كم صينيا وطنيا عذب هنا ؟ "

وبعد لحظة صمت اشار الى السقف قائلا : " فى تلك الايام كانت السلاسل تعلق من هنا ، وكانت الجدران مغطاة بالدم . " وطاف بصره بالجدران ثم استقر على الخزانة ذات الواجهة الزجاجية . وبعد فترة صمت اخرى قال ثانية : " عندما كان الاسياد الصينيون يصلحون هذا المبنى ظننا انه سيعاد من جديد حجرة للتعذيب حيث ينتقمون منا فيها . وفيما بعد ، عندما رأينا اطباء بمآزر بيضاء ظننا انهم سيجرون علينا تجارب تشريحية . ولم نتخيل قط انه ستقام فيه عيادة لشفائنا من امراضنا . " واختلط صوته بالنحيب .

وانصرف مجرم الحرب الكومينتانغى ، فطلبت من اليابانى ان يأتى لتلقى علاجه . فوقف وقال باحترام :

ـ لا ، شكرا . لقد جئت لأنظر الى هذه الغرفة . ونظرا الى اننى لم ار الطبيب ون فهل لك ان تخبره اننى ما دمت لا املك الحق فى ان اشكره فأود ان اشكره باسم امى . وشكرا لك انت ايضا ايها الطبيب .

ـ انا لست طبيبا ؛ انا بو يى .

ولم اعرف ان كان سمع او لا . ثم انحنى واستدار خارجا من الغرفة .

لم اعد اطيق الاحتمال اكثر من ذلك . يجب ان اضع حدا لكذبى

مهما كان من الصعب على مدير السجن ان يفهم ذلك .

وصادف ان كان مدير السجن السابق فى السجن فى ذلك الوقت فطلب منى ان اذهب من اجل التحدث معه . وفتحت باب غرفة الاستقبال التى يجاس فيها فرأيت الشخص المألوف الاشيب يجلس خلف مكتب وينظر الى رزمة من الاوراق . فطلب منى ان اجلس وبعد لحظة وضع الاوراق جانبا ونظر الى قائلا :

— كنت اقرأ محاضر اجتماعات زنزانتك . كيف اموركم ؟ هل لديك مؤخرا اية مشكلات ايديولوجية ؟

وترددت الآن وقد جاءت اللحظة الحاسمة . ونظرت الى محاضر جلسات اجتماعات زنزانتنا وفكرت فى الهجوم الاجماعى الذى شنه على الآخرون . ولم يسعنى الا ان اتساءل ان كان هناك مجال للبوح بالحقيقة حيث ان كلمتى ستكون ضدهم جميعا . ولكنى لم استطع ان اظل متمسكا بالخداع اكثر من ذلك .

— قل لى كيف كانت اجتماعات مجموعتكم .

— جيدة . لقد لخصت تفكيرنا تلخيصا صحيحا .

فرفع المدير حاجبيه وقال :

— حدثنى بمزيد من التفصيل .

وادركت اننى اتنفس غير طبيعى ، واجبت :

— لقد قلت الحقيقة عندما اخبرتك بذلك . ان الاستنتاج الذى يملى على بأن اكون قلقا جدا فلا اذكر الاشياء صحيح تماما . ولكن هناك حالة او حالتان . . .

— تابع . انت تعرف مدى رغبتى فى ان افهم تفكيرك .

وعرفت اننى لا بد ان اصرح الآن بما فى داخلى ، فأدليت ، وقلبى يخفق ، بوصف عاجل للمشكلة بكاملها . واصغى المدير بانتباه شديد .

وعندما انتهيت من حديثى قال :

— لماذا كان من الصعب جدا ان تقول ذلك ؟ مم كنت خائفا ؟

— كنت مذعورا لأن كلمتى هذه ضدهم جميعا .

فقال المدير بمنتهى الجدية :

— ما دمت تقول الحقيقة فليس هناك ما تخافه . هل تظن ان الحكومة لا تستطيع ان تستقصى هذه المسألة بنفسها وتصل الى حكمها الخاص ؟ انك ما تزال لا تدرك حقا انك تحتاج الى الشجاعة كى تصبح انسانا حقيقيا . يجب ان تكون لديك الشجاعة لقول الحقيقة .

فبكيت ولم اتخيل انه سيكون قادرا على رؤية كل شىء بوضوح كبير . وما الشىء الآخر الذى كان امامى كى اقوله ؟

عفو خاص

اقتراح من اللجنة المركزية للحزب الشيوعى الصينى الى اللجنة الدائمة للمجلس الوطنى لنواب الشعب

تقترح اللجنة المركزية للحزب الشيوعى الصينى على اللجنة الدائمة للمجلس الوطنى لنواب الشعب انه فى الاحتفال بالذكرى السنوية العاشرة لتأسيس جمهورية الصين الشعبية العظيمة يجب ان يمنح عفو خاص لعدد من مجرمى الحرب والمعادين للثورة والمجرمين الجنائيين العاديين الذين تم اصلاحهم حقا .

لقد حققنا انتصارا عظيما فى الثورة الاشتراكية والبناء الاشتراكى فى بلادنا . ان وطننا الام فى ازدهار ، والانتاج والبناء ماضيان قدما ، ومستوى معيشة ابناء الشعب يرتفع فى اطراد . ان السلطة السياسية لدكتاتورية الشعب

الديمقراطية راسخة وقوية على نحو لم يسبق له مثيل . والشعب فى كافة انحاء البلاد اكثر وعيا على الصعيد السياسي وافضل تنظيما من السابق . والوضع السياسى والاقتصادى لوطننا رائع جدا . وسياسة الحزب والحكومة الشعبية فى الربط بين العقوبة واللين وسياسة ربط الاصلاح من خلال العمل الجسمانى بالتثقيف الايديولوجى فى معاملة المعادين للثورة والمجرمين الآخرين قد حققتا نجاحا عظيما . ان غالبية السجناء المحتجزين الآن قد اعيد بناؤهم على درجات متفاوتة، والعدد غير القليل منهم قد تم اصلاحهم على نحو حقيقى .

وفى هذه الظروف تعتقد اللجنة المركزية للحزب الشيوعى الصينى انه فى الوقت الذى نحتفل فيه بالذكرى السنوية العاشرة لتأسيس جمهورية الصين الشعبية العظيمة سيكون من الملائم ان نعلن ونضع موضع التنفيذ عفوا خاصا لعدد من مجرمى الحرب والمعادين للثورة والمجرمين الجنائيين العاديين الذين تم اصلاحهم حقا . ان اتخاذ هذا الاجراء سيساعد على تحويل العوامل السلبية الى عوامل ايجابية وسيلعب دورا تثقيفيا هاما فى اصلاحهم المستمر ، وكذلك فى اصلاح المجرمين الآخرين الذين ما يزالون محتجزين . انه سيمكنهم من ان يدركوا ان مستقبلهم فى ظل نظامنا الاشتراكى العظيم يكمن فى الاصلاح .

وتطلب اللجنة المركزية للحزب الشيوعى الصينى من اللجنة الدائمة للمجلس الوطنى لنواب الشعب ان تنظر فى هذا الاقتراح وتصل الى قرار ملائم .

ماو تسى تونغ
رئيس اللجنة المركزية للحزب
الشيوعى الصينى
١٤ سبتمبر – ايلول – ١٩٥٩

وصدر قرار بشأن هذا الاقتراح عن اللجنة الدائمة للمجلس الوطنى لنواب الشعب ، وفى ١٧ سبتمبر اعلن الرئيس ليو شاو تشى العفو الخاص .

ان الابتهاج باقتراح الرئيس ماو وامر الرئيس ليو اللذين هلل لهما فى

السجن لا يمكن ان ينسى . فبعد ان قرأ المذيع الجملة الاخيرة سادت لحظة صمت حول الراديو تبعها انفجار من الهتافات والشعارات والتصفيق . وكان ذلك شبيها بانفجار عشرة آلاف خيط من المفرقعات (٢٣) فورا ، وقد استمر وقتا طويلا .

ومنذ تلك اللحظة من صباح ١٨ سبتمبر عمت البهجة والهياج السجن كله . وتوالى التعبير عن كافة الآراء ووجهات النظر : ان الحزب والحكومة صادقان دائما مثل كلمتهما ؛ ان لنا الآن مستقبلا ولن يمضى وقت طويل على خروجنا ؛ سوف يتم العفو عنا على دفعات ؛ سوف يسمح لنا جميعا بالخروج دفعة واحدة . من سيكون فى المجموعة الاولى التى سيطلق سراحها ؟ وادرك معظمنا ان العفو سيعتمد على اصلاح السجين او عدم اصلاحه ، وندم بعضنا على التوانى الذى اظهره مؤخرا . وكان هناك من قالوا بتواضع انهم لم يصلوا الى المستوى المطلوب بينما اخذوا فى الخفاء بحزم ملابسهم واحراق مذكراتهم المنبوذة والقاء جواربهم المهترئة .

واصبح الفناء يضج بالصخب فى فترة الاستراحة وسمعت لاو يوان يسأل لاو شيان :

ــ من سيكون فى الدفعة الاولى ؟

ــ من المؤكد انهم الذين اتقنوا دراساتهم مؤخرا . فأمامك فرصة جيدة .

ــ لا ، انا لست جيدا بما فيه الكفاية ؛ ولكننى متأكد من انك انت جيد تماما .

ــ انا ؟ اذا سمحوا لى بالخروج فسأذهب الى بكين وارسل اليك بعض منتجات بكين المحلية . اننى احلم ببلح بكين (٢٤) .

وسمعت صوت الفم الكبير من ناحية اخرى فى الفناء :

ــ عليهم اما ان يطلقوا سراحنا جميعا واما ألا يخرجوا احدا .

فقال له احدهم :

ـ انك لست واثقا بنفسك . انك خائف من ان تترك فى السجن :
ـ اترك فى السجن ؟ انهم ما لم يحتفظوا ببو يى هنا لن يحتفظوا بى :
وحتى انا كنت متأكدا تماما من انه يجب ان يكون مصيبا . وفى اليوم التالى ، على ما اظن ، سألنى نائب مدير السجن عن رأيى فى العفو الخاص . فقلت :

ـ اظن اننى سأكون حتما آخر من يخرج ـ هذا اذا استطعت ان اعيد بناء نفسى . ومع ذلك سأحاول بذل اقصى جهدى .

ان العفو والافراج قد عنيا بالنسبة لمعظم السجناء اجتماع شملهم مع عوائلهم من جديد ، ولكن هذا لم يكن له فى نفسى اثر . فأمى قد ماتت منذ زمن طويل وابى مات عام ١٩٥١ وزوجتى الاخيرة طلقتنى عام ١٩٥٦ . وحتى لو كانوا ما يزالون احياء فلا احد منهم سيفهمنى كما يفهمنى الناس هنا . لا احد ممن عرفتهم سابقا يمكن ان يعلمنى كيف اصبح انسانا حقيقيا كما فعل موظفو السجن هنا . يمكن للمرء ان يقول ان الافراج يعنى استعادة الحرية والنور ، ولكن هنا داخل السجن وجدت نور الحقيقة ، وكسبت حرية الاطلاع على العالم . فالعفو من وجهة نظرى يعنى اننى قد اهلت لأكون انسانا واستطعت ان ابدأ حياة جديدة يكون لها مغزى حقيقى .

تسلمت رسالة من لاو وان مؤخرا ، اخبرنى فيها ان ابنه الذى كان يدرس الجيولوجيا قد قاد فرقة من متسلقى الجبال لارتياد جبال تشيليان . وبعد ذلك ذهب الى التبت فى نفس الوقت الذى تمرد فيه ملاك الاقنان ، حيث قاتل هو وزملاؤه الطلبة الى جانب الاقنان . وبعد اخماد التمرد مضوا فى اقتحام قمم جديدة . وكثيرا ما ذكر لاو وان فى رسالته هذه الملأى بالفخر والسعادة مدى سروره بأن ابنه قد نشأ فى هذا الوقت الحاضر وليس فى الماضى البغيض . ان لابنه اليوم مستقبلا مشرقا . فلو لا فضل هذا اليوم لما كان له ابن كهذا ، ولما كان هو نفسه يعمل جنبا الى جنب مع المواطنين الصينيين الحقيقيين

الأخرين مترجما وبانيا للاشتراكية . وعبر عن امله فى ان اشاركه قريبا هذه السعادة التى لم نعرفها من قبل وعن اعتقاده بأننى ماض فى هذا الطريق .

بعد شهر من اعلان العفو الخاص ذهبنا فى زيارة اخرى ، وهذه المرة الى خزان داهوفانغ للمياه بالقرب من شنيانغ . عندما جئنا الى هنا فى المرة الماضية عام ١٩٥٧ رأينا حشدا لا يحصى من الناس يعملون فى هذا الوادى ، وعلمت من نموذج محطوط على الطاولة انه ستكون له سعة ٢ر١١٠ ملايين متر مكعب — تكفى لايقاف فيضان يمكن ان يحدث مرة كل الف سنة — وسيروى ٨٠ الف هكتار من الاراضى . وعندما قمنا بزيارتنا الثانية كان هذا المشروع العظيم قد مضى على اتمامه سنة ، وظهر امام اعيننا بحر واسع من صنع الانسان ، محاط بسد ارتفاعه ٤٨ مترا وعرضه ٨ امتار من الاعلى و ٣٣٠ مترا من الاسفل وطوله ١ر٣٦٧ مترا . وبعد ان عاد فوررومى تادايوكى ، مجرم الحرب اليابانى الذى كان نائب رئيس مكتب الشؤون العامة فى " مجلس الدولة لامبراطورية منشوريا " من زيارته حدثنا جميعا عن انطباعاته فى النادى . وجاء قسم من حديثه على النحو التالى :

" عندما وقفت على السد عند خزان داهوفانغ اخذت بعظمته وجماله وهدوئه . واحسست ان هذا انتصار على الطبيعة ومصدر فخر وابتهاج للشعب الصينى وهو يواصل فتوحاته فى الطبيعة . . . ان مشهد هذا الخزان قد ذكرنى بوقوفى على سد خزان شويفنغ للمياه فى الماضى بوصفى رئيسا لقسم التخطيط فى مكتب الشؤون العامة ونائب وزير للاقتصاديات ، ونائب رئيس لمكتب الشؤون العامة فى ' امبراطورية منشوريا ' . لقد ظننت فى تلك الايام بكل كبرياء ان الشعب الوحيد فى آسيا الذى يستطيع ان يشن النضالات ضد الطبيعة ويبنى مشروعا كبيرا هو الشعب اليابانى ؛ واحتقرت الصينيين ورأيت انهم عاجزون تماما عن تحقيق شيء كهذا . كان العمال الصينيون يلبسون اسمالا بالية ، واعتبرت نفسى نوعا من البشر مختلفا عنهم كل الاختلاف . ونظرت

اليهم فى عجرفة كأنما انا عظيم والمعى وعالى الشأن .

" ولكن الناس الذين عملوا فى خزان داهوفانغ قد اصبحت لهم اليوم طاقة هائلة لأنهم مفعمون بالثقة . لقد كدحوا بنكران ذات . وكانوا مفعمين بالحيوية ، وكانت وجوههم مشرقة بالزهو والسعادة . وكنت ، وانا اقف عند زاوية من السد اتملى هذا المشهد ، مجرم حرب قد ارتكب اشد الجرائم خطورة ضد الشعب الصينى . من كان مصيبا ؟ "

على احد الجانبين كان الشعب الصينى ، " وجوههم مشرقة بالزهو والسعادة" ، وعلى الجانب الآخر مجرم حرب . وفى ذهنى كنت اغادر احد الجانبين واعبر الى الجانب الآخر ، الجانب المصيب . وهذا كان الحل الوحيد الذى وجدته بعد عشر سنوات من التفكير فيه .

ان السنوات العشر الماضية قد علمتنى كيف افرق بين الحق والباطل . وان الانتصار فى الحرب الكورية ، واعترافات مجرمى الحرب اليابانيين ؛ ونجاحات الصين الدبلوماسية ومكانتها التى ليس لها نظير من قبل لدى الرأى العام العالمى ؛ والتغيرات التى طرأت على البلاد والمجتمع وقوميتى وعشيرتى ونفسى ، كل هذه قد حدثت تحت قيادة الحزب الشيوعى الذى كنت انظر اليه بعين الكراهية والتحامل والخوف قبل عشر سنوات . ان احداث هذه السنوات العشر وتاريخ القرن الماضى او نحو ذلك قد علمانى ان القوة الحاسمة فى التاريخ هى الشعب العادى الذى كنت فى السابق احتقره اشد الاحتقار . لقد كان من المحتوم ان ينتهى القسم الاول من حياتى بكارثة ، وان تنهار الامبريالية وسلطة بيبانغ الرجعية اللتان اعتمدت عليهما . لقد ادركت الآن ان تشن باو تشن وتشنغ شياو شيوى ويوشيوكا والآلهة وبوذا غير قادرين على اخبارى بحقيقة مصيرى . فمصيرى هو ان اكون انسانا يعيل نفسه من خلال عمله ويقدم نفعا للبشرية . ان افضل مصير هو ذلك الذى يرتهن بمصير الشعب .

" على المرء ان يأخذ الجانب الذى يكون مصيبا . "

وهذا يتطلب الشجاعة ، واعلان العفو الخاص قد زودني بالشجاعة ، كما حصل بالنسبة للآخرين .

وبذلنا جهدا اكبر فى عملنا ودراستنا ، واخذ الكثير منا ينتظرون بكل تشوق التقييم القادم لدراساتنا . واصبحت فرقة معالجة الاطعمة تصنع الآن جبنة فول الصويا طرية وبيضاء ، وفرقة تربية المواشي توصلت الى انتاج خنازير سمينة بحيث اصبحت افضل من السابق وفى فرقة العمل الطبي توقفنا عن ارتكاب الاخطاء . وحتى الفم الكبير قد بدأ يتصرف على نحو ملائم ، ولم يعد يتشاجر مع الآخرين .

ومضى شهر آخر . وذات مساء جاء نائب مدير السجن ليحدثني عن العفو الخاص . فسألني :

ــ بم كنت تفكر خلال الشهرين الماضيين ؟

فأخبرته بما ذكرته آنفا ، وقلت له ايضا ان بعض الناس على ما يبدو لى قد اعاد بناء نفسه على نحو جيد . وذكرت فرقة معالجة الاطعمة وفرقة تربية المواشي وبعض الافراد الذين اشيد مؤخرا بجهودهم فى الدراسة .

فقال نائب المدير مبتسما :

ــ انك تجد الآن من السهل تماما ان تفكر فى النقاط الايجابية لدى الآخرين . فما رأيك اذا كنت مشمولا بينهم بالعفو الخاص ؟

فأجبته ضاحكا :

ــ هذا غير ممكن .

غير ممكن . هذا كان ما فكرت فيــه وانا عائد الى زنزانتي . " ولكن اذا . . . ؟ " وجعلتني هذه الفكرة اتوتر . وفيما بعد استنتجت ان من الممكن ان يعفى عني فى المستقبل ، ولكن من المحتوم ان يكون ذلك بعد وقت طويل . ولم يكن مستقبلي غائما جدا . وتخيلت نفسي مع لاو وان وروى الصغير والآخرين نأخذ مكاننا بين الناس العاديين ونقوم بأشياء عادية . وفى هذه الاحلام

رأيت نفسى احصل على عمل كمساعد طبى فى مستشفى ، ذلك النوع من العمل الذى قرأت عنه فى الصحف . ولكننى تأكدت من انه سيمضى وقت طويل حتى يعطينى الشعب موافقته ويقبل بى واحدا بين ابنائه . ولدى تفكيرى فى سعادة المستقبل كدت لا استطيع النوم .

فى اليوم التالى امرتنا الادارة بالاحتشاد فى النادى . وكان يواجهنا شريط عريض من قماش قرمزى ممتد عبر المسرح الذى جعلنى الهث . وقد كتب على هذا الشريط "اجتماع عفو خاص لسجن فوشون الخاص بمجرمى الحرب" .

كان يجلس على المنصة ممثل عن المحكمة الشعبية العليا ، ومدير السجن واشخاص آخرون . وتحت المنصة كان الجميع صامتين ما عدا الوجيب فى قلبى .

وبعد بضع كلمات من مدير السجن اتجه ممثل المحكمة الشعبية العليا الى وسط المسرح وقرأ من ورقة فى يده : "آيشين — جيولوه بو يى" .

ووثب قلبى . فذهبت ووقفت امام المسرح وسمعت شيئا يتلى :

مذكرة عفو خاص

من المحكمة الشعبية العليا فى

جمهورية الصين الشعبية

وفقا لأمر العفو الخاص الصادر عن رئيس جمهورية الصين الشعبية فى ١٧ سبتمبر ١٩٥٩ تقصت هذه المحكمة حالة مجرم الحرب لامبراطورية منشوريا العميلة آيشين — جيولوه بويى .

ان مجرم الحرب آيشين — جيولوه بو يى ، ذكر ، عمره ٥٤ سنة ، من قومية المانتشو ، ومن بكين ، قد امضى حتى الآن عشر سنوات من الاحتجاز . ونتيجة لاعادة تكوين نفسه عن طريق العمل الجسمانى والتثقيف الايديولوجى خلال احتجازه فقد اظهر انه قد اصلح اصلاحا اصيلا . ووفقا لشروط المادة ١

من امر العفو الخاص يطلق سراحه .

المحكمة الشعبية العليا فى
جمهورية الصين الشعبية
٤ ديسمبر ١٩٥٩

وقبل الفراغ من قراءة القرار انفجرت بالبكاء . لقد حولنى وطنى الام الى انسان حقيقى .

فصل جديد

وركبت القطار وفى الخارج كان منتشرا امام عينى سهل يغطيه الثلج ، واسع مشرق كمستقبلى . وداخل القطار كنت محاطا بعمال عاديين . هذه كانت المرة الاولى فى حياتى التى اركب فيها معهم واشاركهم القطار . وانا فى طريقى لأعيش معهم وابنى معهم ؛ فى طريقى لأصبح — لا ، فقد اصبحت لتوى — واحداً منهم .

وفور ركوبى القطار فى فوشون حدث شىء اظهر لى فى الحال صفة المجتمع الذى كنت قادما اليه والشعب الذى كنت بين ابنائه . فقد جاء واحد من عمال القطار ومعه امرأة الى عربتنا يبحثان عن مكان لبنت صغيرة كانا يحملانها . وكان هناك مقعد فارغ خلفى كما اخلى مسافر يجلس ورائى مقعده لهما ايضا . فقادت المرأة البنت الى المقعد وقفت هى بجانبها وقد بان عليها قلق شديد . وسألها راكب آخر ان كانت الطفلة مريضة ، واذا كانت كذلك فلماذا هى خارج البيت . فأذهلنى جواب المرأة . كانت معلمة فى مدرسة ابتدائية بالقرب من المحطة ، والبنت تلميذة عندها ، شعرت فجأة بألم شديد فى بطنها خلال الدرس . وقد شك الموظف الصحى فى المدرسة انها مصابة بالتهاب

الزائدة الدودية واوصى بوجوب اخذها الى المستشفى فورا . ونظرا الى ان والدى البنت يعملان فى منجم بعيد ، لم يكن هناك وقت لمطالبتهما بالمجىء واخذ البنت الى المستشفى ، كما ان اخذها الى مستشفى المنجم سيستغرق وقتا طويلا فقررت المعلمة ان تأخذها مباشرة بقطار شنيانغ . وسمح لها مسؤول الرصيف ان تدفع ثمن التذاكر فى القطار نفسه وقال لها انهم سيخبرون شنيانغ هاتفيا ويطلبون منهم العناية بهما . لقد جعلتنى هذه الحادثة افكر فى كلمات تاو يوان مينغ (٢٥) : " منذ ولادتنا ونحن اخوة ، لسنا بحاجة الى آصرة اللحم . " ان هذا التفكير يشترك فيه اليوم اناس كثيرون . ثم خطر لى ان ما قاله منشيوس (٢٦) بخصوص العناية بمسنى وصغار الاسر الاخرى كما يعتنى المرء بأسرة نفسه قد تحقق فى الوقت الحاضر . ولقد اوضح لى هذا المثال ان المجتمع الذى كنت منتقلا اليه اروع مما تخيلته .

فى ٩ ديسمبر وصلت الى بكين ، مسقط رأسى الذى تركته منذ خمس وثلاثين سنة . وعلى رصيف محطة القطار الرائعة رأيت الاخت الخامسة والاخ الرابع اللذين لم اقابل الاولى منهما منذ اكثر من ثلاث سنوات ، ولم اقابل الثانى منذ اكثر من عشرين سنة . وفيما كنت اصافحهما سمعتهما يخاطباننى بعبارة " الاخ الكبير " تلك الصيغة المألوفة للمخاطبة ، التى لم يستخدمها اخوتى واخواتى قط فى التحدث معى سابقا . وشعرت ان حياة جديدة قد بدأت فى اسرتنا .

وودعت الموظف لى الذى جاء معنا وكذلك لاو منغ . لقد كان منغ واحدا من مجرمى الحرب الكومينتانغيين الثمانية فى سجننا الذين تسلموا عفوا خاصا ، مع قوه ون لين وهو جنرال مانشوى عميل سابق وانا . وذهب مع زوجته التى جاءت للقائه . وحمل الشقيق الرابع حقيبتى الجلدية السوداء وانطلقت امشى مغادرا الرصيف مع شقيقتى الخامسة وزوجها لاو وان ، احدهما عن يمينى والآخر عن يسارى . وعندما غادرنا الرصيف نظرت الى ساعة المحطة

واخرجت ساعة جيبى . قبل ان اغادر فوشون اختار مدير السجن هذه الساعة من كومة الاشياء التى قدمتها الى الحكومة فى السجن وطلب منى ان احتفظ بها . فاعترضت قائلا انها قد اشتريت بنقود تم الحصول عليها بالاستغلال ولذلك لا اريدها . ولكن المدير اجاب بأن الشعب قد قدمها لى الآن ، لذلك يجب ان احتفظ بها . وكانت هذه الساعة هى الساعة الفرنسية التى اشتريتها من المتجر الذى فى طرف حى المفوضيات فى بكين عندما كنت احاول التخلص من قهرمان والدى الرئيسى وانا فى طريقى الى المفوضيات الاجنبية عام ١٩٢٤ . وفى ذلك اليوم بدأ سجلى المخزى . ولكن هذه الساعة نفسها تحدد الآن بداية حياتى الجديدة بعد ان ضبطتها وفقا لتوقيت بكين .

لقد قال مدير السجن فى ذلك اليوم الذى اعطانى فيه هذه الساعة لنا نحن العشرة الذين اطلق سراحنا انه عندما نعود الى بيوتنا يجب ان نعتذر لأهلنا وجيراننا عن الاخطاء التى ارتكبناها فى الماضى . واضاف : " واعتقد ان جيرانكم واقاربكم سيصفحون عنكم شريطة ان تتصرفوا جيدا وتخدموا الشعب باخلاص . " ولقد تأكدت هذه الكلمات تماما عندما ذهبت الى بيت الاخت الخامسة ولاو وان . اذ كان كل واحد فى مربعهم السكنى لطيفا معى . وفى الصباح التالى اردت ان افعل شيئا للجيران ، وعندما رأيت بعض الناس يكنس الممر اخذت مكنسة وانضممت اليهم فى العمل . وبعد ان كنسنا من المدخل الى نهاية الممر لم استطع ان استدل طريقى لأعود الى البيت ، فدخلت الى بيت غريب . فحزروا ما حدث واخذونى الى بيتى . وقالوا انه ليست هناك حاجة الى ان اشكرهم حيث اننا جميعا من زقاق واحد ، وحتى اذا لم نكن فى نفس الزقاق ، فلا غرابة فى ان يساعد الناس بعضهم بعضا فى المجتمع الجديد .

وذهبت لرؤية عمى تساى تاو واسرته ، حيث عرفت ان عشيرتنا قد ازدهرت . وقد تحدث هو فى المجلس الوطنى لنواب الشعب عن نتائج بحثه خلال رحلاته

الى انحاء الاقليات القومية . وسمعت ابن عمى بو جين يعزف على اداته الموسيقية " قو تشين " ، وراقبته وهو يخط لى كلمات بدت افضل من السابق . ورأيت كذلك رسوما للازهار والطيور رسمها بو جيان مؤخرا . وذهبت لزيارة الاخت الثانية فوجدتها تدير روضة للاطفال . واخبرنى زوجها ، وهو مهندس بريد ، بأنها مشغولة جدا بحيث اختفى الصداع الذى كانت تشكو منه دائما . وزرت كذلك كلا من الاخت الرابعة والثالثة والسادسة والسابعة وازواجهن . فوجدت الاخت الرابعة تعمل فى ارشيف القصر السابق ، والاخت الثالثة وزوجها يشتركان فى دورة دراسية لدى المؤتمر الاستشارى السياسى للمنطقة والاخت السادسة وزوجها يعملان فى الرسم ، والاخت السابعة وزوجها معلمين .

ودهشت اكثر من ذلك بالجيل الثانى . ففى يوم عيد الربيع احتشد عدد لا حصر له من الاولاد والبنات ، وحول اعناقهم ربطات حمراء ، فى منزل عمى . ومن بين افراد هذا الجيل الذين شبوا للتو قابلت واحدة من متطوعى الشعب ابلت فى القتال بلاء حسنا ، وبطلة الدراجات النارية للنساء فى بكين ، وقائد فرقة متسلقى الجبال ، وطبيبا وممرضة ومعلما وسائق سيارة . اما الصغار فمعظمهم كانوا يقومون بتدريب مهنى او يدرسون فى المدرسة المتوسطة . وقد انضم بعضهم الى الحزب الشيوعى وعصبة الشبيبة ، وبعضهم يواصلون جهودهم لاحراز هذا الشرف .

وقابلت ايضا كثيرا من اصدقاء الماضى . فوجدت شانغ يان ينغ عضوا فى معهد الادب والتاريخ . وعند لقائى معه كان مضطجعا على اريكة . فقد كان طاعنا فى السن ومريضا بحيث لم يعد قادرا على التكلم بوضوح . لكن قسماته عبرت عند رؤيتى عن اهتمام شديد، وقد حاول ان ينهض ، فأخذت يده وقلت : " انك مسن ومريض ، لذلك يجب ان تستريح . اننا الآن افراد فى المجتمع الجديد ، وبوسعنا ان نتمتع بعلاقة طبيعية . وعندما تتحسن حالتك سنخدم الشعب سويا . " فاختفى التعبير الرسمى من وجهه وهز رأسه لى مبتسما

ابتسامة خفيفة ، وقال : " سأذهب معاك . " فأجبته : " انا ماض مع الحزب الشيوعى . " فأجاب : " وانا كذلك . " وقابلت بعض اصدقائى ممن كانوا خصيانا فى القصر ، واستطلعت احوالهم . لقد اقامت لهم السلطات المحلية بيتا خاصا يمضون فيه بقية سنواتهم فى اطمئنان .

ان كل واحد قابلته فى اليوم الاول قال : " الآن وقد عدت ينبغى لك ان تلقى على ما حولك نظرة متفحصة — انك لم تكن قادرا على التجول فى بكين سابقا . " فأخبرتهم بأن الشيء الاول الذى اريد رؤيته هو تيان آن من ، بوابة السلام السماوى .

وكنت قد عرفت ساحة تيان آن من من الافلام والصحف والرسائل . فعلى الشاشة رأيت المواكب التى استعرضها الرئيس ماو ، وشاهدت الاحتفالات بالاعياد . ورأيت صورا فى الصحف لشرطة المرور يقومون بمساعدة الاطفال على عبور الطرق ، وصورا لسيارات " العلم الاحمر " و" الريح الشرقية " الصينية الصنع الرابضة هناك . وعرفت ان قاعة الشعب الكبرى قد بنيت فى عشرة اشهر ، وسمعت عن انطباعات الضيوف الاجانب من كافة انحاء العالم عن هذه الساحة . واخيرا وجدت نفسى فى المكان الذى كنت احلم به منذ وقت طويل .

كانت بوابة تيان آن من المهيبة التى انتصبت امامى شاهدا على التغييرات التى طرأت على الوطن الام من البؤس الى السعادة ، والتغير من بو يى القديم الى بو يى الجديد . على يسارى قاعة الشعب الكبرى الفخمة التى تقرر فيها شؤون الوطن ، بما فى ذلك العفو الخاص الذى سمح لى بموجبه ان ابدأ حياة جديدة . وعلى يمينى المتحف الثورى وخلفى النصب التذكارى للابطال الثوريين . وقد اخبرتنى كل هذه الاشياء بالنضال المر الذى خاضه كثير من الابطال والشهداء عبر قرن من الزمان لتحقيق ازدهار اليوم الذى استفدت منه انا ايضا .

وفى ساحة تيان آن من هذه قمت بأول جولة لى شاعرا بالحرية والامن والسعادة والافتخار . واخذنا انا وشقيقتى الخامسة وشقيقى السادس نتمشى ببطء نحو الغرب . وعندما وصلنا قصر الثقافة للأقليات القومية بجدرانه البيضاء وسطحه الازرق سألتنى اختى باهتمام : " ايها الاخ الكبير ، هل تعبت ؟ هل هذه هى المرة الاولى التى تمشى فيها مسافة طويلة جدا ؟ " فأجبتها قائلا : " لست متعبا ، والسبب فى ذلك ان هذه هى المرة الاولى حقا . "

" المرة الاولى " كانتا الكلمتين اللتين برزتا على نحو دائم مع شروعى فى حياتى الجديدة . " المرة الاولى " كانت صعبة دائما ، ولكننى كنت فى غاية الانفعال بحيث لم اشعر بأى اضطراب بخصوصها .

وذهبت الى الحلاق للمرة الاولى ، او على وجه التحديد ، للمرة الثانية ، حيث ذهبت مرة الى شركة تشونغيوان لقص شعرى قبل ثلاثين سنة فى تيانجين . وعلى ايه حال فان ما حدث لى الآن قد حدث للمرة الاولى . وجلست فى الكرسى فرأيت شيئا غامضا كنت قد لحظته فى متجر منوعات فى هاربين . وكان هذه المرة يحدث نعيرا عند المقعد الثانى فسألت عنه الحلاق ، فقال لى انه مجفف شعر . وسألته : " أتجفف الشعر اولا ام تقصه ؟ " فدهش لسؤالى وقال : " أ لم يسبق لك ان قصصت شعرك ؟ " وظن اننى احاول ممازحته ، فانفجرت ضاحكا ، وحين سمعت مجفف الشعر ينعر فوق رأسى شعرت بالسرور اكثر من السابق .

وفى المرة الاولى التى ركبت فيها الباص العمومى افزعت شقيقى السادس . فبينما كنت انتظر داخل طابور المنتظرين رأيت اناسا يقفون جانبا ليصعد المسنون والاطفال اولا فأفسحت مجالا لامرأة كانت تقف بجانبى كى تصعد الباص قبلى . ولم اتحقق من انها قاطعة التذاكر . ولما رأتنى واقفا قفزت الى الباص ، ثم اغلق الباب خلفها وتحرك الباص . وبعد بضع لحظات رأيت شقيقى عائدا بسرعة من وقفة الباص التالية ، وشرعنا نقهقه من بعضنا بأعلى

اصواتنا وهو ما يزال بعيدا عنى بعض الشيء . وقلت له بثقة تامة : " لا تقلق ، لا شيء يمكن ان يحدث . " فما دام الناس يهتمون ببعضهم فما الداعى للقلق ؟ وفى ذلك الصباح نفسه استرددت محفظة جيب جلدية من دكان بجانب منزل الاخت الثالثة كنت تركتها هناك سهوا . وكان من غير الممكن بالنسبة لى ان اضيع .

ونظمت ساطات بكين عددا من الزيارات لنا نحن الذين خرجنا من السجن بموجب عفو خاص ، ومن بيننا جنرالات الكومينتانغ السابقون دو يوى مينغ ووانغ ياو وو وسونغ شي ليان وغيرهم . وكان هذا من اجل مساعدتنا على معرفة بكين معرفة افضل وتعود الحياة اليومية . فرأينا بعض المصانع الجديدة ، وجميع اصناف المرافق العامة التى اخذت تتوسع منذ التحرير ، وبعض الكومونات الشعبية داخل المدينة واماكن اخرى ؛ واستمرت هذه الزيارات قرابة شهرين . وفى النهاية اصر الآخرون على ان نذهب الى القصر السابق واكون انا دليلهم الموقت .

واكثر ما ادهشنى هناك ان سيماء البلاء والانهيار التى عرفتها عند مغادرتى قد اختفت . وتمت اعادة الدهن فى كل مكان . فستائر الابواب والنوافذ والاسرة ، والاراثاث ، واغطية الطاولات ، وكل شيء آخر كانت جديدة . وسمعت فيما بعد ان هذه الاشياء كلها قد صنعت فى معمل متحف القصر تقليداً للنماذج الاصلية . ولم يكن قد بقى من مجموعة تحف القصر الا القايل من اليشب والخزف والكتابات الخطية والرسومات وبعض الاشياء الاخرى بعد اعمال السلب التى قامت بها حكومة امراء الحرب التابعين لزمرة بييانغ وحكومة الكومينتانغ وانا كذلك . ووجدت مع ذلك مجموعة لا بأس بها من الاشياء التى استردها المتحف عن طريق شرائها او التى قدمها جامعو التحف . فرسم " مشهد شاطئ النهر فى عيد تشينغ مينغ " للفنان تشانغ تسه دوان من اسرة سونغ ، مثلا ، والذى كنت قد سرقته انا وبو جيه ، قد استعيد الآن بالشراء .

وفى الحديقة الامبراطورية رأيت اطفالا يلعبون. تحت اشعة الشمس ومسنين يرشفون الشاى . واستنشقت شذا الربيع المنبعث من اشجار السرو القديمة ، وشعرت ان الشمس تشع هنا اكثر مما كانت تشع من قبل ، وكنت على يقين بأن القصر السابق قد فتح صفحة جديدة فى تاريخه .

فى مارس ١٩٦٠ نسبت الى حديقة بكين للنباتات ، التابعة لمعهد النباتات التابع لأكاديمية العلوم الصينية . وهناك امضيت نصف وقتى اعمل ونصفه الآخر ادرس . وكانت هذه مرحلة تمهيدية لتسلمى الوظيفة التى سأخدم الشعب من خلالها . وتحت ارشاد الفنيين تعلمت غرس البذور والعناية بالشتلات وغير ذلك . وكنت امضى النصف الثانى من اليوم اما فى الدراسة واما فى كتابة هذا الكتاب .

لم اكن فى الشطر الاول من حياتى اعرف ماذا تعنى " الاسرة " ، ولم تتكون لى بعض المشاعر العائلية الا خلال سنواتى الاخيرة فى فوشون . وبعد مجيئى الى مشاتل بكين بوقت قصير كنت اشعر ان لى بيتا ثانيا ، اذ كنت اعيش فى جو ودى وتعاونى . وذات مرة تبينت ، وانا عائد من نزهة ، اننى فقدت ساعتى وحسبت انى قد ابتعدت كثيرا فلم اتشجع على العودة للبحث عنها . وتخليت عنها مغموما . وعندما سمع لاو ليو ، زميلى فى غرفتى ، بذلك سألنى بالتفصيل عن الطريق الذى سلكته ، ومشى فى الحال على الرغم من انه كان فى وقت استراحة من العمل . ولقد وقعت فى حيرة كبيرة عندما علمت ان كثيرا من الناس قد اكتشفوا ايضا ما حدث، وان جميع الذين كانوا فى الاستراحة خرجوا يبحثون عن الساعة . وفى النهاية وجدها لاو ليو امام مطعم تابع لفيلق انتاج فى كومونة الخضرة الدائمة (٢٧) ، وعاد بها منشرح الاسارير . وشعرت انه قد اعيد الى شىء اكبر من الساعة بكثير .

وفى ذلك الصيف شكلت وحدة ميليشيا فى المشتل ، واخذت تتدرب

كل يوم . فقدمت طلبا للانضمام اليها ، ولكن الآخرين قالوا اننى قد تجاوزت السن المحددة ، فأجبت معترضا : " اننى فرد فى الاسرة الكبيرة لوطننا الام ، لذلك يجب ان يسمح لى ايضا بالدفاع عنها . " والححت على ذلك ، فسمح لى بالانضمام الى التدريب بصفة رجل ميليشيا فوق السن المحددة . وسرعان ما اصبحت قادرا على تحقيق طموح آخر ، فتظاهرت فى ساحة تيان آن من . وكانت المناسبة هى التجمع لدعم نضال الشعب اليابانى ضد " معاهدة الامن اليابانية — الامريكية " .

وكان هذا هو الوقت الذى بدأت فيه اباشر نشاطات اجتماعية جعلتنى اشعر اننى على نفس الجانب الذى يقف فيه شعب الصين كلها وبقية شعوب العالم المكافحة من اجل السلم والديمقراطية والاستقلال الوطنى والاشتراكية .

فى ٢٦ نوفمبر ١٩٦٠ تسلمت بطاقة انتخاب عليها اسمى . وبدت لى هذه البطاقة اثمن شيء امتلكته فى حياتى . وعندما وضعت ورقة الاقتراع داخل الصندوق الاحمر شعرت اننى اسعد انسان على وجه الارض . فأنا الآن ، مع ٦٥٠ مليون مواطن ، نمتلك ٩٫٦٠٠٫٠٠٠ كيلومتر مربع من الارض . ان العون الذى قدمته هذه الارض للشعوب والامم المضطهدة فى العالم هى من الجسامة بحيث يمكن الاعتماد عليها .

وفى مارس ١٩٦١ انهيت مرحلتى التمهيدية وتسلمت الوظيفة التى بدأت اخدم من خلالها الشعب : فقد اصبحت عضوا عاملا فى لجنة المواد الادبية والتاريخية التابعة للجنة الوطنية للمؤتمر الاستشارى السياسى للشعب الصينى .

وفى هذه المهنة عملت فى المواد الادبية والتاريخية المختصة بأواخر اسرة تشينغ وفترة امراء حرب بيبانغ . وكثيرا ما كنت امر بأسماء مألوفة واحداث تاريخية كانت لها علاقة بى . ومعظم مؤلفى هذه المواد كانوا ممن اشتركوا فى هذه الاحداث او شهدوها ، وانا وهم كنا جميعا شهودا على تاريخ تلك الفترة . وتم لى التوصل الى رأى اكثر وضوحا فى تطورات ذلك التاريخ من خلال

هذه المعطيات الغنية . فالسيدة يهونالا (الامبراطورة الارملة تسى شى) ويوان شى كاى ودوان تشى روى وتشانغ تسوه لين وجميع تلك الشخصيات التى نبذها التاريخ قد بدت فى ايامها تتمتع بسلطة قاهرة على كل شيء ، بينما الشعب الذى كان يجزر ويضطهد على ايدى هؤلاء الاشخاص قد بدا عاجزا . ان كتابا من امثال هو شى قد هللوا لهؤلاء الاشخاص ؛ والمحافظين على القديم علقوا عليهم آمالهم فى اعادة الملكية ؛ وقد انتفخوا هم انفسهم زهوا وغرورا معتقدين ان القوى التى دعمتهم ستظل تدعمهم الى الابد . ولكنهم تكشفوا فيما بعد عن مجرد نمور من ورق ، وذلك عندما اجتاحهم لهيب التاريخ ، والتاريخ هو الشعب . " ان الرجعيين يبدو مظهرهم مخيفا ، لكنهم ليسوا فى الحقيقة بتلك القوة الجبارة . واذا نظرنا الى الامور من زاوية المستقبل ، وجدنا ان القوة الجبارة حقا ليست فى يد الرجعيين ، بل فى يد الشعوب . " لقد جعلتنى تجاربى اقر بهذه الحقيقة ، ورحت اعلنها على الناس من خلال عملى وقدرتى بوصفى شاهدا .

وواصلت ايضا تأليف هذا الكتاب .

وساعدنى مكتبى بطرق كثيرة وزودنى بكثير من المواد القيمة ، وبالمساعدة الحماسية التى قدمها لى كثير من الاصدقاء الآخرين تمكنت من استخدام كثير من الكتب والوثائق التى حصلت عليها من الارشيف كما استخدمت المعلومات التى التقطت خصيصا لهذه الغرض . ومن هذه المعلومات ما انتسخه لى اصدقاء لم يسبق لى ان رأيتهم ، ومنها ما تفحصه رفاق فى دور النشر قاموا برحلات طويلة لهذا الغرض ، ومنها ما سجله مسنون شهدوا الاحداث بأم اعينهم . وكثير من تلك المواد التى يتعذر الحصول عليها قد حصلت عليها من الارشيف والمكاتب ؛ وينبغى لى ان اذكر على نحو خاص الارشيف الوطنى ومتحف التاريخ ومكتبة بكين ومكتبة العاصمة ، حيث قام الرفاق بأبحاث وتصنيفات خاصة لى . ولقد دهشت لهذا القدر الكبير من الاهتمام والمساعدة

الذى تلقيته ، ولكن هذا فى الواقع ليس غريبا فى بلادنا ، حيث ان كل من يفعل شيئا نافعا للشعب ، او يعلن عن الحقيقة يحظى الاهتمام والمساعدة فى كل مكان ، ناهيك عما يحصل عليه من الحزب والحكومة .

وشد كتابى اهتمام كثير من الاصدقاء الاجانب . ولقد زارنى صحفيون وضيوف اجانب سألونى عن تجاربى ، ولاسيما الاصلاح الذى مررت به خلال السنوات العشر الماضية . وقال لى واحد من امريكا اللاتينية ان تجربتى قد بينت له ثانية مدى عظمة افكار ماو تسى تونغ ، وحثنى على انهاء كتابى بسرعة . وقال صديق آسيوى : " آمل ان ترسل لى نسخة من الطبعة الانكليزية لكتابك فور صدوره حتى استطيع ترجمته الى لغتى وافسح المجال امام ابناء بلدى لقراءة قصتك المذهلة . "

وفى عام ١٩٦٢ نجح نضالنا المر ضد الصعوبات الناشئة داخل بلادنا وخارجها نجاحا رائعا ، وحققت لى تلك السنة المزيد من السعادة . ودعيت لحضور اجتماع اللجنة الوطنية للمؤتمر الاستشارى السياسى للشعب الصينى ولسماع تقارير المجلس الوطنى لنواب الشعب حول بناء الوطن الام . وفى ١ مايو — ايار — انشأت انا وعروسى لى شو شيان بيتنا الصغير ، وكان هذا البيت العادى بالنسبة لى شيئا خارقا للعادة .

هذا هو الفصل الجديد . هكذا بدأت حياتى الجديدة . وحين افكر فى بيتى وبطاقتى الانتخابية والبشائر التى تمتد امام عينى الى ما لا نهاية لن انسى مطلقا كيف حققت لنفسى هذه الحياة الجديدة .

وهناك قصة اخرى يجب ان ارويها . ويجب ان اوردها فى هذا الكتاب كما قال ابن شقيقى روى الصغير . وهى المتعلقة بسياسة اعادة بناء المجرمين ، تلك السياسة التى اوصلتنى الى هذه الحياة .

فى صيف ١٩٦٠ ذهبت الى منتزه التل العطرى مع روى الصغير ، وتحدثنا

عن التغيرات الاولى المبكرة فى تفكير كل منا وعما حركنا فى البداية .

فتحدث روى الصغير عن قو الصغير وشيو الصغير اولا . لقد اهتز قو الصغير عندما رأى قطارا صينيا فى محطة سويفنخه بينما لم تكن هناك فى السابق الا قطارات اجنبية ، وان الذى جعل شيو الصغير يشعر ان حياته الماضية كانت لا طائل تحتها انما هو الاحتفاء الذى قوبلت به العاملة التى فقدت احدى يديها . ثم تحدث روى عن نفسه . " هناك اشياء كثيرة لم انساها . اولها انى كسرت زجاج نافذة وانا انظفه بعد ان بدأت العمل مباشرة . وفى اللحظة التى تساقط فيها الزجاج على الارض جاء احد السجانين يركض . فذعرت ، ولكنى دهشت حين سألنى ان كنت قد اذيت نفسى . فقلت له اننى بخير ، علما اننى حطمت لوح زجاج . فقال ان قطعة زجاج ليس مهمة ، فالمهم ان اكون اكثر حرصا فى ان لا اسبب الاذى لأى انسان . "

فأجبته : " ان اشياء كهذه قد حدثت لى ايضا . كنت فى البداية منشغل الذهن فى مسألة ان كانوا سيقتلوننى ام لا ، وشككت فيما اذا كانت سياسة اللين ستطبق على ام لا . ولكن الشىء الذى جعلنى ارى الفرصة امامى ، ومن ثم بعث فى نفسى تدريجيا المزيد من التفاؤل ، هو الطريقة غير المتوقعة التى عوملت بها بعد تسليم المجوهرات التى كنت اخفيها فى كعب الحقيبة . وبمناسبة الحديث عن ذلك يجب ان اشكرك على المساعدة التى قدمتها لى حينذاك . "

فقال روى الصغير وقد جحظت عيناه :

— المساعدة ؟ أ لم يخبرك مدير السجن بما حدث حقا ؟

— بلى ، لقد اخبرنى . فخلال فترة توجيه الاتهامات والاعتراف بالذنب كتبت نقدا ذاتيا حول ذلك وقدمته لمدير السجن بعد ان اعترفت من خلال استجواب قو الصغير لى فى الاجتماع الكبير . وبعد عيد رأس السنة اخبرت مدير السجن بأننى لم اذكر المذكرة التى ارسلتها لى مخافة ان اسبب لك

المتاعب . فأخبرنى بأنه يعرف كل شيء عن ذلك وانه طلب منك ان تكتب المذكرة كى تساعدنى على تسليم المجوهرات بمبادرة منى . لقد كان المدير حى الضمير ، ولكنك انت قد ساعدتنى ايضا .

ــ انت اذن ما تزال تجهل التفاصيل . اننى لم اكن اريد كتابة تلك المذكرة ، بل كنت اؤيد تفتيشك ومصادرة هذه الاشياء منك ومعاقبتك . وهذا شى لا بد ان اخبرك به ، ويجب ان تورده فى كتابك .

والآن فقط علمت القصة بكاملها . لقد افشى روى الصغير سرى الى مدير السجن ، وطلب منه ان يصادر تلك المجوهرات . فرفض المدير قائلا : " سيكون من السهل جدا ان نجد هذه الاشياء ، ولكن ذلك لن يساعده على اعادة بناء نفسه . كن صبورا . سيكون افضل بكثير له ان يبادر شخصيا الى تسليمها عندما يصبح اكثر وعيا على الصعيد السياسى . " وبعد وقت طويل طلب روى الصغير من المدير ان يقوم بتفتيش . فكان جواب المدير بأن تفكير مختلف الناس يتطور بسرعات مختلفة وانه لا فائدة فى التسرع . لقد كان الحزب الشيوعى متأكدا من ان الغالبية العظمى من المجرمين يمكن ان يعيدوا بناء انفسهم عندما يكونون تحت سلطة الشعب على الرغم من تنوع اوجه العملية . كان المهم ليس المجوهرات او لوائح السجن بل ما هى افضل طريقة تساعدنى على اعادة بناء نفسى . وذكر لى روى الصغير ان المدير قال له بخصوصى : " يجب ان تدرك انه بسبب خلفيته الفريدة يجد من الصعب ان يصدق على الفور سياسة اللين التى تنتهجها الحكومة الشعبية ازاء اولئك الذين يعترفون . اذا كنا سنقوم بتفتيش فسيفقد فرصة تفهم هذه السياسة . اترك المبادرة له . وبدلا من القيام بتفتيش مستعجل يجب ان تفكر بطريقة ما لتعجيل استيقاظه . " ففكر روى الصغير حينذاك فى كتابة المذكرة . وعندما لم يحدث شيء بعد عدة ايام من تسليمها لى عاد الى المدير يستعجله وقال له : " بو يى لن يستيقظ ، وليس عنده ادنى ادراك . لماذا لا نفتشه ؟ "

فكان جواب المدير : " ان عدم التعجل فى هذه الفترة اهم بكثير من عدم التعجل فى السابق . " وفى النهاية سلمت المجوهرات وانا يائس ؛ ومنذ تلك اللحظة بدأت ارى امامى طريقا جديدا .

وقال روى الصغير باهتياج : " منذ ذلك الحين ادركت ان المدير قد آمن حقا بأن غالبية المجرمين يمكن ان يعاد بناؤهم . وانت نفسك تعرف انك كنت ما تزال تقاوم وتصر على خداع الحكومة ، ولقد عرفت سلطات السجن كل ذلك . وحتى قبل ان يأتى المحققون كنا قد اخبرنا الحكومة بكل شيء . ولكن منذ ذلك الوقت اقتنعت سلطات السجن بأنك يمكن ان تعيد بناء نفسك ، فاهتمت اهتماما شديدا بأن تضمن قيامك بالدراسة والاصلاح . "

كنا نقف على منحدرات التل العطرى ، نرسل ابصارنا الى مدينة بكين التى كانت تستحم تحت اشعة الشمس . وفكرت فى شيء تلو آخر من الاشياء التى حدثت فى السنوات العشر الماضية ، لقد استعدت ذكرى مدير السجن المسن الاشيب والخطاب الحيوى الذى القاه نائبه الاصغر . فكرت فى جميع السجانين والاطباء والممرضات وفى افراد آخرين من العاملين فى السجن . عندما حاولت خداعهم ؛ عندما استخدمت جميع الوسائل المخزية لمقاومتهم ؛ عندما كشف جهلى وعدم صلاحيتى وغبائى ؛ عندما كنت فى يأس تام بخصوص حياتى وشعرت اننى لا احتمل ان اعيش اية لحظة اخرى ، فى تلك الاوقات كان هؤلاء الاعضاء فى الحزب الشيوعى متشبثين باعتقادهم بأن فى وسعى ان اعيد بناء نفسى ، كما كانوا يقودوننى بكل روية لأصبح انسانا جديدا .

ان كلمة " انسان " هى الكلمة الاولى التى تعلمت ان اقرأها فى كتاب قراءتى الاول « كلاسيكيات المقاطع الثلاثة » ، ولكننى لم افهم معناها فى السابق مطلقا . اما اليوم ، وبمساعدة الحزب الشيوعى وسياسة اعادة بناء المجرمين ، فقد عرفت مغزى هذه الكلمة الرائعة واصبحت انسانا حقيقيا .

ملاحظات

(١) هذا القسم يعالج الشؤون السياسية والعسكرية فى الشمال الشرقى .

(٢) هذه قائمة بالخونة الرئيسيين الذين تسلموا مناصب فى نظام " امبراطورية منشوريا " :

رئيس الوزراء ووزير الثقافة والتربية : تشنغ شياو شيوى

وزير الشؤون المدنية وحاكم مقاطعة فنغتيان : تسانغ شى يى

وزير الخارجية : شيه جيه شى

وزير الدفاع ورئيس المجلس الاستشارى : تشانغ جينغ هوى

وزير المالية وحاكم مقاطعة جيلين : شى تشيا

وزير الصناعة : تشانغ يان تشينغ

وزير المواصلات : دينغ جيان شيو

وزير العدل : فنغ هان تشينغ

حاكم مقاطعة هيلونغجيانغ : تشنغ تشى يوان

رئيس المجلس التشريعى : تشاو شين بوه

رئيس مجلس الرقابة : يوى تشونغ هان

رئيس المحكمة العليا : لين تشى

رئيس مكتب المراقبة الاعلى : لى بان

نائب رئيس المجلس الاستشارى : تانغ يوى لين

اعضاء المجلس الاستشارى : تشانغ هاى بنغ ، يوان جين كاى ، لوه تشن يوى ، قوى فو

رئيس سكرتارية مكتب الرئيس التنفيذى : هو سى يوان

اعضاء سكرتارية مكتب الرئيس التنفيذى : وان شنغ شى ، شانغ يان ينغ ،

لوه فو باو ، شيوى باو هنغ ، لين تينغ تشن

رئيس مكتب الشؤون الداخلية : باو شى

موظفو مكتب الشؤون الداخلية الخاصون : تشانغ يان تشينغ ، جين بى دونغ ، وانغ جى ليه ، دونغ جى شيوى ، وانغ دا تشونغ ، شانغ يان ينغ

رئيس مكتب الامن : تونغ جى شيوى

قائد الحرس : تشانغ هاى بنغ

سكرتيرا مجلس الدولة : تشنغ تشوى ، تشنغ يوى

(٣) المدير السابق لسكة حديد جنوبى منشوريا وكان وقتذاك وزير الخارجية اليابانية .

(٤) هذه المقاطعة الغيت عام ١٩٥٥ وقسمت اراضيها بين خبى ومنغوليا الداخلية ولياونينغ .

(٥) الهة الشمس اليابانية آما – تيراسو – او – مى – كامى . وتشكل عبادتها جزءا من ديانة شينتو اليابانية .

(٦) ديانة شينتو اليابانية .

(٧) كلاهما بقيادة الحزب الشيوعى .

(٨) تمتع موظفو " امبراطورية منشوريا " المدنيون بمنزلة محتجزين ، بينما الضباط العسكريون اعتبروا مجرمى حرب .

(٩) طبق صينى تقليدى يتناوله ابناء شمالى الصين فى عيد رأس السنة الصينية ، يتألف من عجينة رقيقة تحشى باللحم والخضار المفرومين وتغلى بالماء .

(١٠) من مؤلفات ستالين – المترجم .

(١١) طريقة قديمة لمعرفة البخت عند الصينيين – المترجم .

(١٢) من الكتب البوذية المقدسة – المترجم .

(١٣) حركة المكافحات الخمس حملة ضد رشوة العاملين الحكوميين والتحايل على الضرائب وسرقة املاك الدولة والغش فى المقاولات الحكومية وسرقة المعلومات الاقتصادية من المصادر الحكومية لاستخدامها فى المضاربات وكانت حركة المكافحات الثلاث حملة ضد الاختلاس والاسراف والبيروقراطية .

(١٤) لاو تعنى كبير السن ، وهى لقب خطاب غالبا ما يستعمل لمن هم

فوق الاربعين — المترجم .

(١٥) من المكاييل الصينية — المترجم .

(١٦) لقب الحكم الذى كنت استخدمه وانا " امبراطور فى منشوريا " .

(١٧) لاو تسى : هو مؤسس المدرسة التاوية فى الفلسفة وأحد الرواد فى تاريخ الفلسفة العام . وقد حول المشعوذون تعاليمه الفلسفية من بعده الى دين يقوم على الخرافة والسحر — المترجم .

(١٨) لقب للنبيل المانشوى .

(١٩) اعتبر المنهاج المشترك دستورا موقتا قبل اقرار المجلس الوطنى لنواب الشعب الدستور فى سبتمبر ١٩٥٤ .

(٢٠) اطلق سراحه فى فبراير ١٩٦٣ قبل ان يمضى مدة حكمه الكامل .

(٢١) يشير الى استخدام الجيوش الاستعمارية لفتيات مغلوبات على الرهن لاجل الترفيه — المترجم .

(٢٢) سياسة " حرق الكل وسلب الكل وقتل الكل " التى طبقها الغزاة اليابانيون فى الصين .

(٢٣) الالعاب النارية فى الصين تنظم فى خيوط فتنفجر بالتعاقب محدثة دويا متسلسلا — المترجم .

(٢٤) صنف من التمر ينتج فى الصين يختلف طعمه قليلا عن التمر العادى ونواته نحيفة وغير مشقوقة فى الوسط — المترجم .

(٢٥) شاعر من اسرة جين الشرقية ، عاش فى آواخر القرن الرابع واوائل القرن الخامس بعد الميلاد .

(٢٦) مفكر ومربى (٣٧٢ — ٢٨٩ق.م.) .

(٢٧) كومونة الخضرة الدائمة ، او كومونة الفصول الاربعة ، تقع فى ضواحى بكين ، سميت بذلك لأنها تزرع الخضروات فى جميع الفصول دون ان تتقيد بالمواسم — المترجم .

مطبعة اللغات الاجنبية بكين
توزيع
الشركة الصينية العالمية لتجارة الكتب
(كوزى شوديان)
ص . ب ٣٩٩ بكين – الصين

从皇帝到公民
——我的前半生——
下　册
爱新觉罗・溥仪著
阿卜杜・卡里姆译
*
外文出版社出版
（中国北京百万庄路24号）
外文印刷厂印刷
中国国际图书贸易总公司
（中国国际书店）发行
北京399信箱
1985年（大32开）第一版
编号：（阿）11050—173B
00455
11—A—619PB

دار النشر باللغات الاجنبية بكين

صدر منها

قصص لو شيون المختارة

ديدان القز الربيعية وقصص اخرى

طلوع الشمس

عاصفة رعدية

الاسرة

الغانية وصندوق المجوهرات

الخنجر السحرى